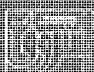
سيّار الجميل

تكوين العرب الحديث



تكوين العرب الحديث

تكوين العرب الحديث

سيار الجميل



1997

■ سيار الجميل (تكوين العرب الحديث)

■ الطبعة العربية:

الاصدار الاول ١٩٩٧



الناشر

■ دار الشروق للنشر والتوزيع

هاتف. ٦١٨١٩٠ / ٦١٨١٩١ / ٦٢٤٣٢١ فاكس. ٦١٠٠٦٥

ص.ب ٩٢٦٤٦٣ الرمز البريدي ١١١١٠ عمان – الأردن

التوزيع في فلسطين

■ دار الشروق للنشر والتوزيع

رام الله المنارة ـ الشارع الرئيسي هاتف: ٩٩٨٥٩٧٨

الصف والاخراج وتصميم الغلاف

■ الشروق للاعلان والتسويق

هاتف ٦١٨١٩٠ فاكس: ٦١٠٠٦٥ عمان – الأردن.

■ رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(١٤٠١/١٠/١٩٩٦)

رقم التصنيف: ٩٥٦

المؤلف ومن هو في حكمه: سيار الجميل

عنوان المصنف: تكوين العرب الحديث

الموضوع الرئيسي: ١- التاريخ والجغرافيا

٢- التاريخ العربي

رقم الايداع: (١٤٠١/١٠/١٩٩٦)

بيانات النشر: عمان- دار الشروق

* تم اعداد بيانات الفهرسة الاولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم

"أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً..."

القرآن الكريم

"هذه الأرض العربية هي ارض المعجزات، كل شيء يزدهر هنا...."

الفونس دي لامارتين

في رحلته الى المشرق عام ١٨٣٣

"ان العرب كما كانت واحدة فاستووا في التربة. وفي اللغة والشمائل والهمة، وفي الأنفة والحمية، وفي الاخلاق والسجية، فسبكوا سبكاً واحداً... تشابهت الاجزاء وتناسبت الأخلاط، حتى صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم والأخص..."

الجاحظ في رسائله

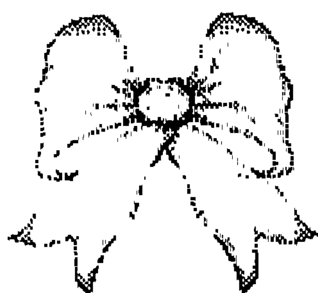
" ومن كثرة الملاحين غرقت السفينة"

مثل عربي قديم

"ولولا سواد الليل ما طلع الفجر"

عنترة

الإهداء



الى ولدي العزيز نصر...

والى ابناء جيله العربي القادم...

اهدي هذا العمل

رمزا للمعرفة التاريخية في بناء

مستقبلهم وحياتهم في القرن الآتي



شكر وتقدير

اغتنم مناسبة صدور كتاب «تكوين العرب الحديث» لازجي اعمق كلمات الشكر والتقدير والذكرى الطيبة الى لفيف من اساتذة علماء اجلاء وزملاء واصدقاء من مؤرخين عرب ومفكرين ومستشرقين ... لا انسى مواقفهم وقراءاتهم أو اهتماماتهم وملاحظاتهم العلمية، اخص بذكر اساتذتي الثلاثة القدماء الذين افادتني جداً توجيهاتهم العلمية منذ عشرين سنة : المؤرخ الراحل البروفيسور البرت حوراني (جامعة اكسفورد)، والمستشرق الراحل د.ي. سارجنت (جامعة كيمبرج)، والمستشرق الدكتور ديفيد جاكسون (جامعة سانت اندروس / اسكتلندا).

واشير الى فضل لا انساه اسداه لي كل من الاساتذة العلماء، اذكر منهم المؤرخ التركي البروفيسور خليل انالجيك (جامعة انقرة) الذي افادتني تصويباته القيمة في اليونسكو بباريس، ثم الاصدقاء من المؤرخين العرب: الدكتور مسعود ضاهر (الجامعة اللبنانية) اذ كان هذا «الكتاب» جزءاً من أعمال عدة خضعت لتقييمه العلمي، واذكر ايضاً: الدكتور علاء نورس (جامعة بغداد) الذي اعطى من وقته لقراءة مسودات «الكتاب» قبل طباعته، واذكر ايضاً: الدكتور كارل باربير والدكتورة دينا خوري (جامعة جورج واشنطن الامريكية) ، والدكتور خليل علي مراد (جامعة الموصل) الذين افادتني ملاحظاتهم التاريخية عن تواريخ العراق وبلاد الشام الحديثة.

اذكر ايضاً اساتذة عرباً اعتز بهم جداً وبآرائهم العلمية الصائبة وبمواقفهم الاصيلة ازاء اعمالي العلمية واهتمامهم بالجيل الذي اتى من بعدهم وهم، الاساتذة: الدكتور عبد العزيز الدوري (الجامعة الاردنية)، والدكتور خير الدين حسيب (مدير عام مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت)، والدكتور عبد الجليل التميمي (مدير عام مؤسسة افترسي بتونس)، والدكتور سمير امين (الامين العام

لمنتدى العالم الثالث في داكار بالسنغال)، والدكتور محمد عدنان البخيت (رئيس جامعة آل البيت بالأردن) والدكتور صلاح الدين امين عميد كلية الآداب في جامعة الموصل.

لا بد لي ان اشير الى جهود سكرتيرتي الانسة سيماء الحيدري التي اشرفت على طباعة النص وتصويباته، وما بذلته من جهود في ظروف صعبة للغاية.

واخيراً، لا انسى فضل زوجتي العزيزة التي منحتني الكثير من الاهتمام والصبر عندما كنت اكتب هذا العمل في العراق ابان الايام الصعبة والقاسية من عام ١٩٩١ فلها مني كل المودة والتقدير والحب الكبير.

سيّار

المحتويات

الفصل الثاني : السيطرة العثمانية على الوطن العربي في القرن السادس عشر

(٢) التطبيقات الادارية – العثمانية في الوطن العربي

الفصل الثالث: بقايا النظام التاريخي - العربي الوسيط وأثره في البنية الحديثة

الفصل الرابع: الصراعات والزعامات والاوجاقات في الوطن العربي خلال القرن السابع عشر

الفصل الخامس: التكوين الاقليمي واللامركزية العثمانية في الولايات العربية خلال القرن الثامن عشر

الفصل السادس: تكوين مصر السياسي الحديث في القرن التاسع عشر (الحملة الفرنسية وظهور محمد علي باشا)

الفصل الثامن: الاصلاحات الرسمية والتحديث العثماني

الفصل التاسع: التطبيقات الاصلاحية والتكوينات الحديثة في الولايات العربية خلال القرن التاسع عشر

المقدمة

لقد كان من دواعي سروري الكبير التواصل مع «المشروع» المنهجي بوضع هذا الكتاب المفصل عن «تاريخ تكوين العرب الحديث ١٥١٦ –١٩١٦»، لكوني وجدت خلال تدريساتي لهذه المادة على مدى يقرب من عشر سنوات، سواء لطلبة الدراسات الاولية أم طلبة الدراسات العليا في كل من المشرق والمغرب العربيين.. ان الحاجة العلمية والفكرية تبقى قائمة في جامعاتنا العربية كافة، لاستكناه احداث هذا التاريخ ووقائعه، وفهم إرثه السياسي والاقتصادي والاجتماعي... ومعرفة مختلف جوانبه وميادينه على مدى اربعة قرون كاملة، أي منذ مطلع القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين.

كيف ؟

تعد مادة تاريخ الوطن العربي الحديث من أبرز وأهم المواد التاريخية الحافلة بالاحداث والشخوص والعناصر والأصناف والألوان، وبخضمها على امتداد اربعمائة سنة كثير من المحتويات والتشكيلات والتناقضات... وإن دائرة ذلك كله إنما تتسع باتجاه معاصرتنا خلال هذا القرن الاخير، ونحن على أبواب نهاياته... هذا القرن العشرين الذي شهد تاريخاً معاصراً فيه ارهاصات وبدائل وتحولات لاجيال عربية اسهمت في تقديم انجازات تاريخية مهمة، ولكن نالت منها في الوقت نفسه. انتكاسات وآلام هزائم مريرة !!كلها نتاجات حقيقية لما تمخضت عنه طبيعة التاريخ العربي الحديث الذي تجاذبته قوى متباينة، وشاركت في صنعه عناصر مختلفة ، وبين التجاذب والشراكة التاريخية، صور متنوعة سيشهدها مسرح الاحداث الذي تصارعت فوقه تلك الاضداد: الفرس والترك وقراصنة البحر: البرتغاليون والاسبان، وقبلهم المماليك الجراكسة، الصفويون والعثمانيون.. الروس والفرنسيون والانكليز، والألبان والطليان...الخ.

لقد دفعت جغرافية الوطن العربي الى ان يكون من ابرز المناطق الاستراتيجية في العالم، ليس خلال العصور الوسطى فحسب، بل في اثناء تضاعيف القرون

العثمانية المتأخرة. ولم يقتصر التعامل مع جناح واحد من جناحي ذلك الوطن، بل هناك المشرق والمغرب العربيان منطقتي جذب ودفع باتجاه الشرق والغرب أو الشمال والجنوب... علماً بأن التطورات الكبرى التي شهدها العالم منذ عصر النهضة الاوروبية قد اثرت تأثيرا غير مباشر، وفي الضد اغلب الاحيان لمستقبل مشارق الارض: الادنى والأوسط والأقصى!

ان تاريخ تكوين العرب الحديث يعلمنا الكثير ونحن نرتب خصوصياتنا التاريخية والمستقبلية على طريق التقدم والتوحد والمناجزة الحضارية، اذ سيوقفنا في مضامينه على صيغ وأساليب وهياكل وتشكيلات وبنى متنوعة: سياسية كانت أم اقتصادية واجتماعية وجغرافية عايشها العرب كما ستوصلنا دراسة الاحداث التاريخية المريرة بعد تحليلها واستنباط معانيها، وكشف خفاياها الى نتائج هي غاية في الأهمية لحاضرنا ومستقبلنا... كما سندرك من خلال معالجتنا لهذه المادة بمواضيعها المتنوعة: حجم الهوة التي فصلت ماضينا الحضاري الزاهر عن حاضرنا المجزّأ نتيجة لآثار السيطرة ، وهيمنة الصراعات الاقليمية ، وغلبة الانقسامات المحلية ..الخ.

ان مادة هذا التاريخ تحتوي في قسمها الاعظم على موضوعات تفصيلية من حياة الامبراطورية العثمانية زماناً ومكاناً، فقد شغل تاريخ العلاقة بين العرب والعثمانيين حقبة زمنية طويلة دامت اربعة قرون ١٥١٦ -١٩١٦م، وقد تنوعت طبيعة تلك العلاقة بسبب تنوع العهود السياسية مما حفل بها من الاساليب والاحكام والقوانين والانظمة والتعليمات .. اما مكاناً، فقد نجح العثمانيون في السيطرة على اغلب الاقاليم العربية في المشرق والمغرب العربيين، منذ عهد سليم الاول ١٥١٢- ١٥٢٠م حتى الحرب العالمية الاولى ١٩١٤-١٩١٨م اضافة إلى أن الوطن العربي كان أحد العوالم الجغرافية الثلاثة التي تركبت منها الامبراطورية العثمانية . فقد كان هناك الاناضول (وطن الاتراك) ، وهناك الروميللي (البلقان وصربيا واليونان) في شرقي اوروبا . وكان العرب يشكلون نسبة سكانية عالية في الديموغرافية العثمانية شعباً له عراقته وأصالته وثقله الحضاري في تاريخ القرون الوسطى ، وقد استفاد العثمانيون وغيرهم من المواريث العربية، وبخاصة الجوانب العقائدية والتاريخية والحضارية.

يقسم هذا الكتاب المنهجي الى مقدمة ومدخل موضوعي وعشرة فصول... ـاعينا في ترتيبها وتشكيلها : ابرز الحلقات التاريخية في التطور السياسي للمنطقة العربية وأقاليمها تحت حكم نظام السيطرة العثمانية في اغلب البيئات الداخلية الممتدة من العراق حتى الجزائر ووقفنا ايضاً عند النماذج السياسية التي ورثها العرب المحدثون عن نظام تاريخهم الوسيط وهو نظام سياسي / سلالي يتخذ من الوازع الديني مرجعية ايديولوجية في تسويغ شرعيته سواء كان ذلك متمثلا بشرافة الاشراف في الحجاز ام امامة الاباضية في مسقط وزنجبار، أم سلطنة الاشراف (السعديين + العلويين) في المغرب الاقصى وغيرها من نماذج الحكومات القبلية / العربية. في حين طبق النظام العثماني سيادته الادارية / البيروقراطية واسلوبه الاقطاعي، وحكم مركزيته على ابرز الأقاليم العربية الداخلية، وخاصة الموصل وبغداد وحلب والشام وطرابلس الشام ومصر واليمن وطرابلس الغرب وتونس والجزائر.

لقد عالجنا في «المدخل الموضوعي» كثيراً من المفاهيم الاساسية التي يتطلبها الوعي العربي المعاصر في فهم بنيته التاريخية – الجغرافية، مع تفسيرنا لبعض الاشكاليات الخاصة في استيعاب تلك المفاهيم، وكان من ابرزها : مفهوم «الوطن العربي» الحديث بين تكوين الأقاليم وتفكك السيادة .. بين سلطة الدولة العثمانية المهيمنة وآصرة المجتمع العربي القديمة جزءاً من إشكاليات لا تزال الثقافة العربية معها بحاجة الى استيعاب المزيد من المفاهيم المستحدثة والمناهج المعرفية الجديدة.

لقد وقفنا في الفصل الاول على جملة من المعلومات الاساسية عن تاريخ العثمانيين وتكوين دولتهم، فضلا عن مواصفات المراحل التاريخية الصعبة التي مروا بها كسلالة شرقية حاكمة بدأ يتسع مجال الدولة عندها منذ بداية حياتها، لكي نمر بأبرز عصرين تاريخيين هما : عصر النشوء خلال القرن الرابع عشر ، وعصر الارتقاء خلال القرن الخامس عشر. وتعد جميع تراكماتها التاريخية سابقة الاوان للحياة العربية – العثمانية التي بدأت مع عصر الازدهار اي خلال النصف الاول من القرن السادس عشر. ثم انتقلنا الى تحليل طبيعة نظام الحكم العثماني وتراكيبه، وخرجنا باستنتاجات مهمة تقول : ان العثمانيين قد نجحوا في

تكوين دولتهم «السلطانية» التي لم تكن في يوم من الايام «دولة خلافة اسلامية» ، فضلا عن معالجة قضايا اخرى .

أما الفصل الثاني . فقد توخينا فيه معالجة كيفيات السيطرة العثمانية على الوطن العربي خلال القرن السادس عشر . وقد فصلنا في طبيعة الاساليب والعوامل، فكانت هناك : الحروب البرية التي انضجتها عوامل الصراع العثماني ضد القوى الاقليمية كالفرس الصفويين في ايران والمماليك الجراكسة في مصر وبلاد الشام .. وقد نجح العثمانيون في صراعهم الذي كانت له حلقاته المتنوعة في ان يتقدموا في الاراضي العربية، والتوغل المباشر بعد اجراء وتنفيذ خطط كبرى ليسيطروا على العراق وبلاد الشام ومصر والحجاز . وكان هناك الحروب البحرية وبروز ظاهرة «القرصنة»* التي كان من ابرز دوافعها : استفحال الاخطار الاوروبية الجسام في البحار الشرقية والبحر المتوسط، وبخاصة حركة الاساطيل البرتغالية والاسبانية، فكان الصراع صراعاً دولياً شرساً نتجت عنه المزيد من الآثار الخطيرة سواء كان ذلك في منطقة الخليج العربي ام البحر الاحمر ام منطقة المغرب العربي ...وقد نجح العثمانيون في فرض سيطرتهم على ابرز الاقاليم العربية . كما أوضح هذا الفصل : طبيعة الاحوال الادارية والممارسات العثمانية في نظام حكم تلك الاقاليم .

اما الفصل الثالث ، فهو يقف مطولاً عند «نماذج» تاريخية مهمة من رواسب ما تمخض عنه التاريخ العربي – الاسلامي الوسيط، اذ يوضح :

١– الطبيعة التاريخية لتلك النماذج التي لم تزل بقاياها حية ترزق حتى يومنا هذا في كل من سلطنتي المغرب الاقصى وعمان على طرفي الوطن العربي الحديث .

---

* هكذا يطلق عليها في جميع الادبيات التاريخية الأجنبية والعربية، وقد استخدمت في ثنايا هذا الكتاب بدل «القرصنة» مصطلح «المقاومة البحرية» او «المقاومة المغاربية» نسبة إلى مضمونها التاريخي لا مدلولها اللغوي.

٢- مقارنة بين اساسيات مفهوم الدواخل والاطراف (أي : المراكز والتوابع) ، وتخرج من بحثنا باستنتاجات مفيدة ايضاً تجيب عن تساؤلات لم تزل تدور في ذهنية المؤرخ العربي عن ماهية تاريخ العرب الحديث .

اما الفصل الرابع، فهو يعالج وبصورة مقارنة : مجمل الصراعات القوية والزعامات العسكرية، والاوجاقات الاوليغارية (= حكم الاقلية) في العديد من اقاليم الوطن العربي خلال القرن السابع عشر الذي يتميز بالضعف والسكونية، وازدياد حجم التخلف العربي ، وكثرة المشكلات والتناقضات، وغلبة الصراعات ضد إيران في العراق، مع تشكيلات من الحكومات المحلية التابعة او المنفصلة عن العثمانيين كافراسياب في البصرة، واليعاربة في عمان ، والمعنيين في لبنان، والمراديين في تونس. في حين عاشت بلاد الشام حالة من الانقسام الشديد، والصراعات على السلطة من قبل الزعامات العسكرية التي تشكلت فيها. ولم تكن مصر بمنأى عن الانقسام الداخلي ، والصراع السياسي ايضا بين «المماليك» المنقسمين والاوجاقات المتنافرة في ظل تطبيق نظام الالتزام . اما الجزائر فكان تنتقل حكومتها الاقليمية من حالة الى اخرى. وقد اوصلتنا نتائج دراسة هذا الفصل إلى فهم واضح لطبيعة تاريخ العرب خلال القرن السابع عشر الذي تقل فيه الجهود العلمية العربية والممارسات الاقتصادية في المجتمع العربي الى حد كبير !

اما الفصل الخامس، فهو يدرس على مهل: طبيعة التكوين الاقليمي – العربي ، وانماط حكم اللامركزية – الادارية / العثمانية في الاقاليم العربية خلال القرن الثامن عشر وهو من الموضوعات المهمة التي تعد ركائز اساسية في طبيعة ما أطلعت به تواريخها من رواسب وآثار كانت لها تفاعلاتها في تشكيل البنية التاريخية – العربية المعاصرة بكل ما حفلت به هذه الاخيرة من مشكلات ومصاعب شتى . ان الجغرافية الادارية / الاقليمية لتلك التكوينات – البيروقراطية المحلية توضح لنا كثيراً من النماذج الحكومية التي امتاز كل واحد منها بمواصفاته واساليبه حسب المواطن الاقليمة التي ترسخت فيها ، فكان هناك: البو سعيد في عمان وزنجبار ، واتحادي القواسم وبنو ياس في الساحل الاخضر ، فضلا عن

تبلور المحليات القبلية والعشائرية العربية في اقليم الاحساء الذي توزعته فصائل «العتوب» التي انتشرت في البصرة والكويت والبحرين. اما الحكومات المحلية التابعة لا مركزيا للعاصمة اسطنبول، فكان هناك : الجليليون في الموصل، وآل العظم في دمشق ، والشهابيون في لبنان، ومماليك الكَولة منذ في بغداد، والمماليك الجراكسة في مصر ، والقرمانليون في طرابلس الغرب، والحسينيون في تونس ، و الدايات في الجزائر ..الخ.

اما الفصل السادس فقد فصّل محللاً موضوع «تكوينات مصر الحديثة» في تاريخ من التحولات استقطبه مطلع القرن التاسع عشر، ومن احداثه الكبرى: الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام كظاهرة غريبة وجديدة على المجتمع العربي، واوّل صدمة حضارية بين العرب واوروبا .. ان استقطاب مصر لتلك الظاهرة، قد اسّس فيها تاريخاً جديداً، وبدأ يجعلها تحتل يوما بعد آخر، مركزية الاقاليم العربية بين المشرق والمغرب. وقد عزّزتها ظاهرة تاريخية مكمّلة تجسّدت في حكم محمد علي باشا الذي اكسب مصر اولوية في التكوين السياسي الحديث، و بداية التحرك نحو أوروبا سياسياً وتحديثياً، وكزعامة (كاريزمية) ريادية بدأت تنفصل شيئاً فشيئاً عن الاتراك العثمانيين، بل وان تصطدم معهم بعد حالات التّوسع المصري في الأراضي العربية الذي عالجه هذا الكتاب بالتفصيل وذلك لأهميته في بناء تاريخ العرب خلال القرن التاسع عشر . لقد توسّع جيش محمد علي باشا باتجاه شبه الجزيرة العربية على ثلاث مراحل، ثم باتجاه السودان الشرقي جنوباً ، واليونان شمالاً. وقد شغلته أيضاً المسألة الجزائرية. وكان من ابرز انجازاته : التوسّع باتجاه بلاد الشام والأناضول ذلك الذي انهاه تدخل التحالف الدولي الذي حسم طموحات محمد علي باتفاقية لندن التي اجبر على توقيعها وتنفيذ بنودها .

وقد خصّصنا الفصل السابع لموضوعين اساسيين في الحياة التاريخية العربية الحديثة وكلاهما شغل التفكير العربي على مدى اكثر من قرنين كاملين.

اولهما: تكوين الدولة الحديثة وبناء المجتمع المتقدم الذي يؤمن بالفصل بين السلطات المدنية والدينية، وقد اتخذنا من مصر محمد علي نموذجاً اولوياً في ذلك

التكوين والبناء. واوضحنا الاجراءات التحديثية في المؤسسات والادارة. فضلا عن تحليل التحولات الاقتصادية والاجتماعية، وانطلاق التعليم المدني والمدارس الحديثة. ووقوفنا على نتائج مهمة، منها : بروز كثير من النخب والجماعات المتقفة في المجتمع العربي.

وثانيهما : دراسة الحركات الاصلاحية العربية التي نتج عن تفاعلاتها : تفكير مضاد للتفكير المدني – التحديثي . ويفصّل موضوع تلك الحركات في تاريخها منذ انطلاق جذورها الاولى، والوقوف عند ابرزها ، كالسلفية في الموصل، والوهابية في نجد ، والشوكانية في اليمن ، والسنوسية في المغرب العربي ، والمهدية في السودان . وعلى الرغم من مجموعة التضادات بين هذه الحركات الفكرية – الاصلاحية وبين مشاريع التحديث المدني للدولة والمجتمع معا، فانها نجحت في تأسيس كيانات سياسية كالسعودية مثلاً. اما ابرز انجازاتها فقد تمثّل بالنضال ضد الفرنسيين والطليان على يد السنوسيين، وترسيخ القيم الوطنية السودانية ضد الانكليز على يد المهديين. هكذا قادتنا النتائج الى ما تمخضت به تلك الحركات وتأثيرها على عوامل التجديد في الفكر الاسلامي الحديث، وولادة افكار جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا وغيرهم.

ويبحث الفصل الثامن: مجموعة الاصلاحات الرسمية والتحديثية العثمانية كظاهرة تاريخية في حياة الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر، وكان لزاما علينا ان نقف:

١. عند الاسس التاريخية والعلل والبدايات اثر التأثر بتجارب اوروبا السياسية والقومية والنهضوية، ثم درسنا تجربة سليم الثالث ١٧٨٩– ١٨٠٧م اللامعة في التحديث العثماني، تلك التجربة التي فشلت على يد القوى الرجعية، فاعقبها تجارب الاصلاحات الكبرى خلال عهد محمود الثاني ١٨٠٨ – ١٨٣٩م والتي اشتملت على خطط ناجحة في القضاء على اعتى مؤسسة رجعية في تاريخ التخلف والجمود، وهي مؤسسة «الانكشارية» ثم اجراء التحولات وبناء التشكيلات العثمانية الجديدة.

٢٠ ويطلعنا هذا الفصل ايضا على تجربة التنظيمات العثمانية والعصر المليء بالتعليمات والقوانين والخطط التي اشتهر اثنان منها على عهد عبد المجيد الاول ١٨٣٩ – ١٨٦١ م شهرة واسعة: خطي شريف كولخانة سنة ١٨٣٩م وخطي شريف همايون سنة ١٨٥٦م، اللذان تضمنا بنودا اصلاحية لكل من الدولة والمجتمع العثمانيين، كما واصدرت الدولة عددا من القوانين المهمة التي عالجت المشكلات الصعبة ادارية كانت ام اقتصادية ، مثل : قانون الاراضي وقانون الطابو وقانون الولايات وقانون البلديات ..الخ.

اما الفصل التاسع ، فكان لزاماً علمياً علينا ان نتدارس فيه الاجراءات الاصلاحية العثمانية في الاقاليم العربية خلال القرن التاسع عشر، فاستوقفنا خلال نصفه الاول: تجربة داود باشا المتميزة في العراق ، واجراءات محمد باشا اينجة البيرقدار في الموصل، وممارسات ولاة دمشق الاصلاحية، فضلاً عن منجزات الامير بشير الشهابي في لبنان ..الخ وقد خرجنا باستنتاج واضح يؤكد عقم تلك التجارب الاصلاحية في بحر من المشكلات الاقليمية والفوضى العشائرية والانقسامات التاريخية. اما خلال نصفه الثاني فقد توقّفنا عند ابرز الاقاليم العربية التي نالت حظها في ذلك المشروع الاصلاحي: المدني/ العسكري، سواء كان ذلك على يد الوالي الشهير مدحت باشا في العراق، او الخديوي اسماعيل في مصر ، أم الوزير الاول خير الدين باشا التونسي في تونس، او شكيب افندي في لبنان ..الخ.

ويبحث الفصل العاشر ، في مواضيع شتى كانت نتاج عوامل تاريخية مختلفة، وتكوينات متباينة للمجتمع العربي ضمن اطار الدولة العثمانية وعلاقاتها باوروبا الغربية وروسيا، وكيفية تبلور الظاهرة الاستعمارية من خلال نضوج المسألة الشرقية، وبداية عصر الغزو الاستعماري، وفقدان ابرز الاقاليم العربية كالجزائر وعدن مثلا في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ثم فقدان مصر وتونس في النصف الثاني منه، وفرض اساليب مختلفة من التعامل الاستعماري.

كان على المجتمع العربي ان يستفيق وينتبه على أزمة التصادم الاستعماري من خلال واقعه العثماني المتخلف الذي لم تنفع معه التجارب الاصلاحية، فكان لا بد من النهضة العربية التي برز اصحابها في الادب والسياسة والصحافة ،.. وميادين عمل فكرية اخرى.. والتي تجسّدت جميعها عند مطلع القرن العشرين بالظاهرة القومية – العربية التي بدأت تشكيلاتها بالعمل اثر السياسة القمعية التي مارسها الاتحاديون بعد مجيئهم للحكم عام ١٩٠٨م ، وقد كان ذلك كلّه ردّ فعل قوياً للحكم الاسطوري الذي مارسه السلطان عبد الحميد الثاني .. وقد تألبت الامور بخاتمة تاريخية لعصر تاريخي – عثماني طويل ازدحم بالاحداث كثيراً ، وكانت الخاتمة متمثلة بانفجار الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ على الاتراك كي ينتهي عصر التاريخ العربي / العثماني الحديث كالذي شهدنا فصوله وعناصره وتجاربه وصفحاته والوانه في هذا الكتاب .

لقد بدأت حلقات عصر تاريخي عربي جديد مع خيوط احداث الحرب العالمية الاولى وقد انطلقت من رحمها الثورة العربية الكبرى، تلك الحرب المريرة والثورة الشجاعة التي وضعت حدّاً بين عصرين تاريخيين، عصر عثماني قديم وتاريخ عربي معاصر تجسّده اليوم تكوينات سياسية، ودول اقليمية، وايديولوجيات ، واحلاف ، ومبادئ ومواثيق ، وأفكار ، وانجازات .. الخ لم يكن يدرك مداها اليوم اولئك الآباء البناة الاوائل من ابناء القرون المتأخرة !

لقد اوصلتنا نتائج بحث هذا الموضوع الحيوي الى معرفة ماهيته .. انه تاريخ حيوي يشكل فهمه وادراكه والوعي به جزءاً مهماً في تكويننا الفكري – العربي، وعلى درجة من اللقانة والمنهجية والاهتمام، لكي ندرك ماسيتوالد من تواريخ وطنية وقومية من تكويننا المعاصر خلال القرن العشرين. وعلينا ان نذكر القراء والدارسين بالفرق الكبير بين ما كتب عنه بالعربية، وبين ما ألفّه الاجانب فيه بلغاتهم المختلفة .. فضلاً عن النقص الكبير في شمولية الكتابة التاريخية لموضوع تاريخ العرب الحديث !

كيف !

لقد ارتبطت تلك الكتابة عند اغلب المؤرخين العرب بالتسلسل الزمني للاحداث وافتقدت الوحدة الموضوعية كثيراً، وفضلاً عن ان سائر الاهتمام قد انصبّ على دراسة تاريخ العرب خلال القرن التاسع عشر، إذ تكثر الكتابات والدراسات في اغلب المواطن العربية عن تواريخها خلا ل القرن المذكور، وتفتقد معلومات واسعة مهمة عن القرنين السابع عشر والثامن عشر .. اما الجانب الآخر من توضيح هذه الاشكالية فهو ازمة الانتماء لتاريخ القطر العربي، إذ كرّست دراسات تفصيلية عن عدة من الاقاليم العربية، واختصّ كثير من المؤرخين العرب بتواريخ الاقاليم العربية (= الاوطان) ، أي كل جماعة وانتمائها الى تاريخ اقليمها نفسه، دون التوسع والمعرفة لما كانت عليه اوضاع الاقاليم العربية الاخرى وحتى المجاورة ! وقليلة تلك الكتابات الشمولية العربية، عدا ما اثارته اسماء مؤرخين لامعين عرب، امثال: محمد شفيق غربال واحمد عزت عبد الكريم وزكي صالح وفؤاد شكري ومحمد انيس و عبد الكريم غرايبه واحمد عبد الرحيم مصطفى وعمر عبد العزيز وعمر عبد الجليل التميمي وغيرهم .

لقد افادتني كثيراً مصادر تاريخية قديمة كتلك التي افردت لها فهرسا خاصاً بها في نهاية الكتاب وهي مصادر متنوعة سواء كانت في الحوليات ام التراجم، ولا يمكن كتابة أي موضوع دون الاعتماد على معلوماتها الغزيرة والخصبة. اما المراجع الحديثة، فهي متنوعة ومتعددة سواء كانت في العربية ام في لغات اخرى. لقد افردت لكل فصل من فصول الكتاب مراجعه المهمة بالعربية (القائمة رقم ٢) وباللغات الاجنبية (القائمة رقم٣). ولا بدّ لي ان اذكر أنني قد عوّلت في كتابة مواضيع اساسية ومهمة على معلومات بعضها .. ففي اطار تاريخ الدولة العثمانية ، افادتني كتب : ستانفورد شو وكريسي وخليل انالجيك وهاملتون كيب وهارولد بوون وكمال كاربات وروبرت منتران ودونالد بيتجر وغيرهم. اما في اطار التاريخ العام للعرب الحديث فقد اعتمدت أساساً على كتب لوتسكي وعبد الكريم غرايبه واحمد عزت عبد الكريم ومحمد أنيس وعبد العزيز نوار وعبد الكريم رافق وأحمد عبد الرحيم مصطفى وابراهيم خليل احمد وسيّار الجميل .

اما الكتب والتآليف المختصة بالاقاليم والولايات العربية، فقد افادت هذا الكتاب مجموعة قيمة من اعمال بعض المؤرخين العرب والاجانب، واذكر منها حصرا:

- كتب عباس العزاوي ولونكريك وزكي صالح وعلاء نورس وخليل علي مراد (عن بغداد)
- كتب سوفا جييه وعبد الكريم رافق وليلى الصباغ وكارل باربير وعبد العزيز محمد عوض (عن سوريا)
- كتب شفيق غربال وعبد الرحمن الرافعي ومحمد فؤاد شكري وكريسيليوس وحسن عثمان وعبد الوهاب بكر (عن مصر). فضلاً عن كتب هولت ومكي شبيكة (عن السودان)
- كتب عماد عبد السلام رؤوف وروبرت اولسن وبرسي كيمب وسيّار الجميل (عن الموصل)
- كتب أسد رستم وكمال الصليبي وفيليب حتي ووجيه كوثراني (عن لبنان) وكتب محمد عدنان البخيت وعماد الجواهري وخيرية قاسمية (عن فلسطين).
- كتب شارل اندريه جوليان وتيرسا وعبد الله العروي (عن المغرب الاقصى) ووولف واحمد توفيق المدني واندريه نوشيه وابو القاسم سعد الله وناصر الدين سعيدوني (عن الجزائر) وكارل براون وعبد الجليل التميمي ورشاد الامام وبشير التليلي ومحمد الطالبي (عن تونس) ورودلفو ميكاكي وامين الطيبي وأحمد صدقي الدجاني وعمار جحيدر وصلاح الدين السوري (عن ليبيا).
- كتب لوريمر وجمال زكريا واحمد ابو حاكمه واباظة (عن الخليج العربي واليمن).
- كتب طارق الحمداني وعلي شاكر علي وحسين القهواتي (عن البصرة).

اما الكتب التي افادت موضوع الاصلاحية والتحديث والدستور والنهضة والقومية، فيمكنني ان اذكر كتابات : البرت حوراني وجورج انطونيوس وساطع الحصري واحمد امين وعلي المحافظة وفهمي جدعان وشفيق جحا وانكلهارت وخالد زيادة ورامزور وحسن صعب وزين نور الدين زين ومجيد خدوري ومحمد عزة دروزة وعبد العزيز الدوري وستانفورد شو وغيرهم .

لا بد لي ان أشير في نهاية المطاف ، بأن هذا الكتاب قد ألّفته في جامعة الموصل خلال السنة الاكاديمية ١٩٩٠–١٩٩١، وهو جزء من مشروع علمي بدأته بكتاب سبقه هو : «العثمانيون وتكوين العرب الحديث : من اجل بحث رؤيوي معاصر» ط ١، (بيروت: مؤسسة الابحاث العربية ، ١٩٨٩) ، فصّلت فيه اساسيات العمل في المنهج والرؤية حيال موضوع التكوين العربي الحديث. وسيكون كتابي هذا مكمّلاً لما كنت بدأته سابقاً عندما كنت اعمل في خارج العراق .. كما وأريد أن أعلم القارئ الكريم بأن الكتاب الثالث من هذا المشروع عنوانه «بقايا وجذور: التكوين العربي الحديث» – وهو الآن قيد الطبع في بيروت – .

وأخيراً ، فانني إذ ادفع بهذا الكتاب المنهجي الى الدارسين والقراء من الباحثين والمثقفين وإلى الطلبة النجباء، اجدني سعيداً جداً متمنياً ان اكون قد افدت الثقافة التاريخية العربية من خلال معالجتي لهذا الموضوع الذي تحتاج اليه جامعاتنا العربية كافة .

المؤلف د. سيّار الجميل

قسم التاريخ / كلية الاداب – جامعة اليرموك

في ٢٠/٨/١٩٩٦

مدخل موضوعي

ـ مفهوم الوطن العربي الحديث ـ

المصطلح والمضمون

علينا ان ننطلق في تعريف هذا «المفهوم» من الحالة التي غدا عليها تاريخ «الوطن العربي» - اليوم - أي خلال القرن العشرين: فهي الحالة التي ولدتها معطيات التواريخ الحديثة بمجمل تفاعلاتها وارهاصاتها على مدى اربعة قرون كاملة نضج خلالها، المزيد من العوامل والعلل التاريخية الكفيلة بخلق الكيانات السياسية المتعددة على رقعته العريضة في المشرق والمغرب العربيين.

إن «الوطن العربي» هو مصطلح حديث استخدم في الادبيات العربية الحديثة خلال القرن العشرين، ويعبّر عنه أيضا بمصطلحات اخرى في الادبيات العربية القديمة والوسيطة مثل: «بلاد العرب»، أو «أرض العرب»، أو «ممالك العرب»، وكلها تعني «الوطن لجماعة من الناس (= شعب) تمتلك مقومات خاصة بها، فحاصل جمع «الأرض» بـ «الشعب»، يساوي «الأمة»*

ونتيجة لتطور تلك الأمة، بمؤسساتها وانظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، فإنها تنتج «دولاً» متعددة في تاريخها القومي. وتختلف أعمار تلك الدول ومستوياتها، سواء دول ذات عمر اعتيادي بحدود ١٢٠ سنة (ثلاثة أو أربعة اجيال) - حسب تقدير ابن خلدون - ** كالدول العربية والاسلامية المتعددة في تاريخ العرب. أم امبراطورية يمتد عمرها لأكثر من خمسة قرون كالخلافة العباسية مثلاً.

إن كل هذا وذاك قد عرفه «الوطن العربي» الذي عبرت «الأمة العربية» عن تاريخه وتكوينه وإرثه العميق والعريق على مدى قرون طويلة من حياة التاريخ

---

* د. سيّار الجميل، مقال «الأمة العربية» في القاموس العربي لعلم الاجتماع؛ تحرير: د. الطاهر لبيب، الدار العربية للنشر، ط ١، تونس، ١٩٩١.

** عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق البارون دي سلان (الطبعة الفرنسية)، جـ٢، ص ٤٣٧.

البشري: السياسي والحضاري. أما جغرافياً، فقد شغلت رقعة «الوطن العربي» مساحة جغرافية معينة انطلقت ممتدة قديماً من قلب الجزيرة العربية، لكي تشغل قلب العالم القديم بقاراته الثلاث: آسيا وأوروبا وافريقيا. لقد اخذت تلك الرقعة المعينة تمتد يوماً بعد آخر بفعل التحديات الجغرافية والتاريخية والسكانية. فضلاً عن عوامل عقائدية وسياسية، لكي تتراءى المساحة العريضة «للوطن العربي» كما تتوضح كاملة على خارطة العالم في هذا اليوم.

نستنتج إذاً، إن مصطلح «الوطن العربي» هو: تشكيل تاريخي من عناصر ومكونات متنوعة تجمعها خصوصيات ومواصفات متميزة: وهو تشكيل له مرجعيته العريقة من العلل والمعلومات المعقدة المتفاعلة عبر احقاب التواريخ: القديمة والوسيطة والحديثة * ... لكي يغدو على ما هو عليه اليوم، متخذاً موقعاً استراتيجياً من جغرافية العالم. مطلاً على مسافات شاسعة من السواحل المهمة للبحار المركزية ، والمتوسطية ، ومنها : البحر المتوسط والبحر الأحمر والبحر العربي والخليج العربي... فضلاً عن اطلالاته الواسعة على محيطين كبيرين، هما: المحيط الأطلسي غرباً ، والمحيط الهندي شرقاً.

اذن ، فالوطن العربي رقعة جغرافية شاسعة من الأرض الممتدة بين المحيط الاطلسي غرباً. وبين جبال زاكروس والبختياريين والخليج العربي وخليج عمان شرقاً: وبين جبال طوروس وانتي طوروس والبحر المتوسط شمالاً، وبين البحار العربية/ والشرقية والمحيط الهندي ومنابع النيل والصحراء الكبرى ثم الغربية جنوباً ... وتبلغ مساحة هذا «الوطن العربي» ثلاثة عشر مليوناً من الكيلومترات المربّعة التي يقتسمها كل من غربي آسيا وشمالي افريقيا ... ويسكنها قرابة مائتي مليون نسمة، ثلثهم في جنوبي غربي آسيا، وثلثاهم في شمال افريقيا.

هكذا يعد موقع «الوطن العربي» موقعاً استراتيجياً ممتازاً، اذ كان ولمّا يزل ملتقى الشرق بالغرب، والرابط الجغرافي بين الشمال والجنوب ، وعليه، فلقد

---

* Cf. Samir Amin, la nation arabe , Paris, 1977

انتشرت على اراضيه وعبر منافذه الطبيعية ابرز الخطوط التجارية والمسالك الاستراتيجية / التجارية التي كان لها دور فعال في تطور اقتصاديات الانسان وتاريخه المتنوع، وصحاريه المجدبة*.

وكان التنوع الجغرافي للوطن العربي الذي ابرزته التكوينات الجيولوجية عبر احقاب وعصور زمنية سحيقة، قد اكسبه جملة من المواصفات الطبيعية والمناخية والجيولوجية ... أدى جميعها الى التنوع في كامل اقتصادياته وثرواته الطبيعية ، والتي سبب له على امتداد التاريخ الحديث للاستعمار الأوروبي: مشكلات سياسية، ونزاعات حربية، وتدخلات اجنبية ، وازمات عرقية واجتماعية واسعة النطاق..

والوطن العربي هو مهد الاديان السماوية واللغات القديمة ، والحضارات النهرية العريقة في اجزاء متعددة منه... وكان الانسان قد اكتشف «الزراعة» في أرض ما بين النهرين، واكتشف «الكتابة» في مدينته هناك ايضاً. ونشأت في الوطن العربي اعرق المدن الحواضر منذ ازمان غابرة... وكان على الدوام مركزاً روحياً للانسان في الشرق والغرب... ناهيك عن الدور المؤثر للوطن العربي في تكوين كثير من الثقافات والدول والمجتمعات والوحدات الحضارية والمراكز الاقتصادية... فضلا عن الأماكن المقدسة التي كانت ولما تزل قبلة للعالم اجمع.. وغدا العرب سادة العالم بعد بنائهم لحياة خصبة منوعة رائعة... وقد عرفهم العالم كله بمكارم الاخلاق والصبر والحلم والكرم والدقة والمشاعر الرقيقة، وقوة الكلمة والمرونة والسماحة، والعمل والفن والتدريس والكتابة... فهم صنّاع تواريخ وأمم وحضارات ودول وعلوم واشعار**...

---

* د. محمد محمود الصياد. معالم جغرافية الوطن العربي، بيروت ، ١٩٧٠.

** لقد اهتم كثير من المفكرين والاجتماعيين العرب بدراسة هذه الجوانب. التي لم تزل بحاجة الى المزيد من البحوث والاعمال في التاريخ الاجتماعي) ، انظر مثلاً: د. حليم بركات : المجتمع العربي المعاصر: بحث استطلاعي اجتماعي ، ط ٢، بيروت ، ١٩٨٥ (الفصل الأول).

الجغرافية التاريخية:

أما الجغرافية التاريخية لـ « الوطن العربي»، فهو يقسم إلى بيئات كلاسيكية عريقة، اتخذت كل بيئة عربية لها جملة من المواصفات المشتركة سواء من الناحية الطبيعية أم البشرية *، إذ طبعت الوحدات الاجتماعية بطابعها، فاثرت كل بيئة في التشكيلات الاجتماعية والثقافية والمعطيات الحضارية على امتداد تواريخ متعددة شاركتها فيها بعض الاقليات والعناصر السكانية المتآلفة ضمن وحدة الهدف والغاية والمصير المشترك، ونستطيع أن نحدد ثماني بيئات استراتيجية تشكل تكويناتها الجغرافية قسمات الوطن العربي الكبير، رفقة ملحقاتها البرية والبحرية، وهي على التوالي:

١ - بلاد الجزيرة الفراتية وقاعدتها الموصل وملحقاتها ديار بكر وديار ربيعة وكردستان.

٢- بلاد وادي الرافدين وقاعدتها بغداد وملحقاتهاعربستان والخليج العربي.

٣- بلاد الشام وقاعدتها دمشق ملحقاتها الرها شمالاً والحجاز جنوباً.

٤- بلاد الجزيرة العربية وقاعدتها نجد وملحقاتها الربع الخالي.

٥- بلاد اليمن وقاعدتها صنعاء وملحقاتها عسير وعدن وحضرموت...

٦- بلاد وادي النيل وقاعدتها مصر وملحقاتها جرجا والصعيد وكردفان.

٧- بلاد المغرب العربي وقاعدتها افريقية وملحقاتها الاندلس والصحراءالكبرى والغربية.

٨- بلاد السودان الغربي وقاعدتها كاغو وملحقاتها افريقيا الاستوائية وموريتانيا...

---

* G. Le Strange, The Land of the Eastern Caliphate, Lindon, 1905.

ركيزتان اقليميتان:

ويظهر للدارس والمؤرخ من خلال البحث في تواريخ الوطن العربي بتشكيلاته الجغرافية وقسماته التاريخية، إن له ركيزتين اساسيتين يعتمد عليهما دوما في التوحد والتنوع الحضاري، ثم التوحد والتأسيس التاريخي والسياسي للكيانات الاقليمية العربية . هما: وادي الرافدين (= العراق) ووادي النيل (= مصر) * ، فقد اعتمد الوطن العربي في مواجهة تحدياته المختلفة على هاتين الركيزتين الاستراتيجيتين سواء في الدفاع والتصدي، أم الامتداد والفتوح والتوسع. وقد جاء ذلك كله من خلال تأسيسات الدول القوية الطويلة العهود والاعمار في كل من هاتين البنيتين اللتين تحكمتا في حركة الاتصالات (الاقتصادية خصوصاً) بين الشرق والغرب. ودائماً ما كان التلاقي والتفاعل بين هذين القطبين العربيين يجسد وحدة الوطن العربي الافرو- اسيوي لمجابهة التحديات الخارجية والداخلية .

من جانب آخر، فإن الوطن العربي هو وحدة اقليمية مترابطة في جغرافياتها وبيئاتها الاقتصادية ، وتنوعها ومقوماتها الاساسية سواء في التطور الاثنوغرافي أم الثقافي والحضاري والتاريخي... ولا تساع وحدته الاقليمية اصطلح على تقسيمه الثنائي مصطلحي : «المشرق العربي» و «المغرب العربي». كما واشتركت اجزاء منه ضمن استخدامات مصطلحات اخرى مثل: «الشرق الأوسط» The Middle East وهو : مصطلح استخدم لأول مرة في عام ١٩٠٢م عند احد المؤرخين الامريكيين. ويطلق هذا المصطلح على المنطقة الواقعة بين الهند والجزيرة العربية ، ثم اندمج هذا المصطلح الجديد مع الاصطلاح السابق الذي استخدم كثيراً في اوروبا، وهو «الشـرق الادنى» The Near East الذي يشتمل على شرقي أوروبا والاناضول واجزاء من شمال الهلال الخصيب العربي.

هناك ايضا من يقسم الوطن العربي الى اربع مجموعات فرعية: المشرق والمغرب ووادي النيل والاطراف، ولكن يمكن القول بأن للوطن العربي دواخل واطرافا اذ تتكون الدواخل من منطقة الهلال الخصيب ومصر وشمالي المغرب العربي. وما تبقى من مناطق جغرافية، فهي اطراف.

---

* وهذا ما دفع بالمؤرخ د. عبد العزيز نوار لتأليف كتابه : تاريخ العربي المعاصر مصر والعراق، بيروت، ١٩٧٣.

واخيراً يجب أن انبه الى أن هناك العشرات من المستشرقين والمؤرخين والكتاب الغربيين ينفون كل المعطيات الاساسية – الآنفة الذكر – وهي التي تشكلت بعد تفاعلات تاريخية معقدة للممكن التاريخي / العربي الموحد، إذ انهم ينطلقون من واقع التجزئة التي وجد الوطن العربي نفسه عليها خلال القرن العشرين، وبخاصة بُعَيْد مؤتمر الصلح الذي عقد بباريس عام ١٩١٩ بعد حسم الحرب العالمية الأولى لصالح الحلفاء والدول الاستعمارية القوية. أي بمعنى: أنه واقع تاريخي ساهمت في تكريسه منتجات السياسة الاستعمارية لكل من بريطانيا وفرنسا في الاراضي العربية... ويجب القول اذاً، بأن خطورة التأويلات والآراء الاستشراقية والغربية بالنسبة لتكوين الوطن العربي المعاصر تؤثر دون شك على بناء التفكير العربي المعاصر، وإنها تحد – دون شك – من تحقيق الاهداف القومية النبيلة للعرب، وتقطع التواصل بين اماني حاضرنا وتطلعات أجيالنا القادمة في المستقبل*.

---

* للاستزادة في فهم هذه المنطلقات التاريخية العربية، احيل القارىء إلى:

– د. محمد شفيق غربال، منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الامة العربية على ما هي عليه اليوم. القاهرة، ١٩٦٨.

– د. عبدالله العروي، العرب والفكر التاريخي ط٢، بيروت، ١٩٧٧.

– د. قسطنطين زريق، نحن والتاريخ. مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ، ط ٢، بيروت ١٩٦٣.

– د. عبد العزيز الدوري. التكوين التاريخي للامة العربية: دراسة في الهوية والوعي، ط ١، بيروت، ١٩٨٤.

– د. سيار الجميل العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من اجل بحث رؤيوي معاصر، ط ١ بيروت، ١٩٨٩.

– د. محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، ط٢، بيروت، ١٩٨٣.

– د. سمير امين، الطبقة والأمة: في التاريخ وفي المرحلة الامبريالية، بيروت، ١٩٨٠، وانظر آراء د. نسيبة في.

H. Z. Nuseibeh, The Ideas of Arab Nationalism, Cornell Univ. Press, New York, 1956.



الفصل الأول



١ الفصل الأول

العثمانيون: تطور الدولة ونظام الحكم

١- المرجعيات التاريخية لعلاقة العرب بالترك:-

بقي الصراع التاريخي مستعراً بين المسلمين الشرقيين والروم البيزنطيين منذ عهد صدر الاسلام. وحسب النظرية العربية في الجغرافية الانسانية: انه صراع تاريخي عقائدي مزمن بين دارين: دار الاسلام ودار الحرب، أي بين العالم الاسلامي وأوروبا. وما بينهما تشكلها «الثغور»، اذ بقيت منطقة غربي آسيا الصغرى (= الاناضول) هي الثغور (أي: التخوم العازلة) بين عالمي الصراع ذاك*. وعدت تلك «الثغور» مسرح حروب وعمليات عسكرية فعالة ومزمنة ومتواصلة بين الدارين (= الشرق × الغرب). وان مسالك تلك الثغور، برية وبحرية تؤدي جميعها الى القسطنطينية، تلك العاصمة البيزنطية العتيقة التي تحتضن الكنيسة الشرقية للمسيحيين الارثودكس. وكانت للعرب المسلمين تطلعات ومحاولات منذ عهد الخليفة الأموي معاوية بن ابي سفيان لفتح مدينة القسطنطينية عبر الأراضي الآسيوية تنفيذاً لوصية رسول الاسلام محمد (ص). وقد شنت حملات حربية متعددة باءت جميعها بالفشل الذريع، على الرغم من ان العرب كانوا قد عملوا خلال ازمان عدة على توسيع كيانهم التاريخي، ونشر دعوتهم الاسلامية. ،وبقي الروم في حالة من الترقب والتربص والتحالف مع الاطراف الاخرى**.

* Cf. D.E. Pitcher, An Historical Geography of the Ottoman Empire from the earliest times to the end of the sixteenth Century. Leiden & E.J. Brill, 1972.

** Andre miquel, la Geographie humaine de monde musulman jusqu au milieu du II siecle, Mouton & Paris, 1973.

ولم يعمل العرب ابداً برغم توسّعهم شرقاً وغرباً على توطيد أنفسهم في آسيا الصغرى (= الاناضول) التي بقيت غريبة عنهم وهي تمثل ثغوراً استراتيجية تمتلك قلاعاً وحصوناً طوال أيام الامويين وعهود العباسيين، ناهيك عن أدوار العقيليين والحمدانيين مثلا قبل ان تذوى القوة العربية، ويدب الخلاف والضعف، ويسري التفكك في الحياة التاريخية العربية على حساب الانقسام، وضعف الخلافة ومؤسساتها الشرعية.. وعلى حساب قيام ونشوء الدويلات التركية والتركمانية والفارسية القوية، وبعد ان غدا «السلطان التركي» خلال العهود العباسية المتأخرة متنفذاً في حياة الدولة والمجتمع العربيين. وغدا منصب «الخلافة العربية» رمزاً روحياً للمسلمين قاطبة في ارجاء العالم الاسلامي.

كان الترك السلاجقة يمكنون لانفسهم حتى أصبحوا من المسؤولين الاقوياء في حياة دار الاسلام ضدّ بيزنطة، وصليبيي دار الحرب. وقد حالف النصر المؤزر الترك السلاجقة، فدفعهم ذلك نحو التوسع، فسيطروا على اجزاء شاسعة من آسيا الصغرى التي وطّدوا الاسلام فيها بعد ان تعذّر هذا الأمر على العرب من قبل.

وغدت تكويناً قومياً للاتراك الذين جعلوا «قونيه» عاصمة لهم. وقد استمر حكم السلاجقة في آسيا الصغرى التي كان يدعوها العرب ب «بلاد الروم» أعواماً طوالاً للفترة ٤٧٠-٧٠٠هـ/ ١٠٧٧ - ١٣٠٠م. وقد وقف سلاجقة الروم كالجدار المنيع أمام الغزوات الصليبية والحملات العسكرية البيزنطية، ثم لم تلبث دولتهم ان تقوّضت بفعل ضعف الحكام عسكرياً وادارياً.

وجاءت الهجمة المغولية، فقد اكتسح المغول الدول الاسلامية حتى وصلوا الى أجزاء من اسيا الصغرى، وقوّضوا الحكم السلجوقي.. وسقطت تلك السلطنة التي كانت قد تأسست في القرن الحادي عشر قبيل ان يشتعل أوار الحرب الصليبية. وعندما انهارت اتخذ القرمانيون لهم قلب المملكة السلجوقية موطناً، مستقطبين قونية عاصمة لدولتهم، في حين كان نصيب العثمانيين قشرها في التخوم Marches، إذ اخذوا فضلات السلطنة السلجوقية، وذلك لوصولهم التاريخي المتأخر، وكانوا ضعفاء متقهقرين.

السؤال الآن: من الاتراك العثمانيون؟ وما اصولهم؟

ينتمي الاتراك الى قبائل الاوغوز التركمانية في آسيا الوسطى، وهم فرع من العناصر المنغولية. وكانت قد تقادمت نحو الاناضول خلال فترات تاريخية

متواصلة، وأحقاب من العصور المختلفة في هجرات حملتهم اليها ضرورات الطبيعية الصعبة. ويتفرع من عرق الاوغوز قبائل مختلفة اشهرها قبيلة «كرمان» التي يتأتى أصلها من موطنها في اذربيجان شرقي الاناضول، وامتازوا برعي الاغنام والفروسية والقوة الجسدية، ونتيجة لضغط الحركات التي قام بها جنكيزخان وجيوشه نحو الغرب، فقد نزحت هذه القبيلة باتجاه الغرب، ووصلت الى الاناضول. وكان الاناضول مقسماً بين قوتين سياسيتين هما: القوة البيزنطية في غربه وقوى السلاجقة في شرقه. فضلاً عن وجود بعض الامارات المتحالفة المتعددة في اجزاء كثيرة من الاناضول*.

٢ - العثمانيون: -

كان الجد التاريخي الاكبر الذي يقودهم هو عثمان ابن رجل يدعى «ارطغرل» الذي كان قائد جماعة من المهاجرين الترك الخاملين الذين رمت بهم الى أقصى حدود عالم «دار الاسلام» صدمة تاريخية عنيفة، مذ ازبدتها موجات المغول القوية الكاسحة، وكان نصيب هؤلاء اللاجئين الاغراب من جدود وآباء العثمانيين شقة من الأرض في الحافة الشمالية - الغربية من نجود الاناضول اهداها اليهم ملوك السلاجقة للخدمات التي قدموها لهم. كانت تلك الشقة من الأرض في التخوم تجد نفسها جغرافياً بين مطرقتين: المملكة السلجوقية والاقاليم البيزنطية... وعلى امتداد الساحل الآسيوي من بحر مرمرة، سمي ذلك الشق باسم «سلطان أنو» - Sultan Onu (أي : جبهة قتال السلطان).

كان ذلك «الشق» اقطاعاً جغرافياً من الثغور السلجوقية أقطعه السلطان السلجوقي علاء الدين الثاني الى ارطغرل الذي يعد الجد الأول/ الاكبر للنظام العثماني - فيما بعد -والذي ولد له ولد أسماه بـ «عثمان» Osman الذي كانت ولادته عام ١٢٥٨م. أي في نفس السنة التي استباح المغول فيها مدينة بغداد، و اسقطوا الخلافة العباسية.

هكذا، أقام الاتراك في التخوم الغربية تابعين لسلطة علاء الدين الثاني السلجوقي الذي ساعدهم على اقامة امارة صغيرة في ذلك الاقطاع الذي منحهم

* Halil Inalcik, The Ottoman Empire: The Classical Age: 1300-1600, New York & London 1973, pp. 51 -62.

اياه وفي مدينة «اسكي شهر» .. ولمّا اسّس عثمان تلك «الامارة» في عام ١٢٨١م كان عمره لم يتجاوز (٢٣) سنة. وهكذا ايضا ومن غرابة التاريخ انه بسقوط الدولة العباسية التي دامت اكثر من خمسة قرون... ولدت الدولة العثمانية الجديدة التي دامت اكثر من ستة قرون، مع الفرق الشاسع والبعيد في الخطط والانظمة في الشرعية وتطبيق العقائد، والسلطات، والسنن والاعراف والتقاليد السياسية والتركيز الجماعي والادارات والتعامل مع القوى الاجتماعية... الخ.

المهم ان نعرف أن سنة ١٢٥٨م/ ٦٥٦هـ تشكل حاجزاً تاريخياً سبقته عهود موجات بشرية من المهاجرين الرعويين بفعل الضغوط المغولية من آسيا الوسطى نحو آسيا الصغرى. وكانت ظروفهم قاهرة نتيجة للمكابدات الصعبة. اما الموجات البشرية فكانت نشيطة ومتتابعة بفعل سياسة جنكيزخان وخلفائه الذين شتتوا مجاميع التركمان والجراكسة كي يقيموا في منطقة الاستبس موطن الانهار العذبة اقامة دائمة وقد احتوتهم السلطنة السلجوقية، لكي يقدموا لها خدماتهم المتنوعة.*

إن منشأ العثمانيين مغلف بالاساطير، وكما تدل على ذلك الروايات التي ذكرها السلاطين فيما بعد، مزهوة بالاعجاب والقداسة الدينية والتجلة والسمو والخلود... ولكن المعلومات التاريخية تفيد بأن اصلهم يعود الى قبائل الاوغوز الرعوية التي يعود عرقها الى آسيا الوسطى كذيول مغولية قديمة في الاصل. وبعد انسياحهم بحثاً عن الخصوبة والمراعي وصلوا الى شمال جبال طوروس التي تفصل عالم الاناضول عن أراضي الوطن العربي.

هذه المعلومات لها اهمية بالغة في فهم الطبيعة البشرية التي ميزتهم، والمواصفات التاريخية/ العرقية التي دفعت بهم الى الواقع التاريخي خلال الازمنة المتأخرة من تاريخ الشرق الاوسط.... لكي يكوّنوا دولتهم الشاسعة، ويؤثروا في التاريخ البشري بشكل بارز. وقد ساعدتهم الظروف المتنوعة والبيئات المتعددة، لينشئوا دولتهم، ويتوسعوا كثيرا في قلب العالم القديم بقاراته الثلاث: آسيا واوروبا وافريقيا... وقد غدا البحر المتوسط يشكل بحيرة عثمانية وذلك لسيطرتهم عليه، والاستفادة من استراتيجياته وموانئه ومسالكه في حوضيه الشرقي والغربي، فضلاً عن بحاره الداخلية.

---

* راجع تحليلات المؤرخ ارنولد توينبي عن العثمانيين في: د. سيار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث، سبق ذكره، ص ٢٦٣-٢٩٨.

لقد نجح العثمانيون في تأسيس دولة سلطانية كبيرة (= امبراطورية) تنتمي الى العصور الوسطى، واستمرت في حياتها على امتداد التاريخ الحديث حتى انتهت عام ١٩٢٤ أي في مطلع التاريخ المعاصر. وبقيت مركزاً للعالم القديم مسيطرة على اقتصاد العالم قروناً طويلة قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح اولا، وافتتاح قناة السويس ثانيا. وكانت لها أطوارها التاريخية مذ بدأت على شكل «قبيلة» يتزعمها سليمان في مطلع القرن الثالث عشر، ثم تحولت الى شكل «اقطاع» يتزعمه ارطغرل... ثم يتبلور الاقطاع الى شكل «امارة» يتزعمها عثمان في نهاية القرن المذكور، وستصبح الامارة «دولة» اعتيادية على يد بايزيد الأول في نهاية القرن الرابع عشر، وستقع فريسة بيد تيمورلنك عندما اجتاحت جيوشه الاناضول، وأوقعت الهزيمة بالعثمانيين عام ١٤٠٢ في معركة دامية هي معركة انقرة. ثم تنهض الدولة العثمانية من جديد لكي تصبح دولة كبرى على يد السلطان محمد الفاتح الذي يسجل حدثاً تاريخياً بارزاً في تاريخ البشرية بفتحه القسطنطينية سنة ١٤٥٣م.. وتبدأ الدولة طور الامبراطورية على امتداد القرن السادس عشر، وتصل الى قلب أوروبا النابض ڤيئّا عاصمة النمسا على عهد السلطان سليمان القانوني عام ١٥٢٩*.

يمتد عمر الدولة العثمانية للاحقاب ٦٨٠-١٣٤٢هـ/ ١٢٨١-١٩٢٤م، أي (٦٤٣) سنة، وبلغ عدد سلاطينها بالاسم والفعل (٣٨) سلطاناً. اما المراحل التاريخية التي مرّت بها حسب تطورها الحضاري، فهي :

١- النشوء ـ القرن الثالث عشر ـ مرجعيته : تأسيس الامارة

٢- الارتقاء ـ القرن الرابع عشر ـ مرجعيته : المؤسسات والجيش

٣- الانتصار ـ القرن الخامس عشر ـ مرجعيته : فتح القسطنطينية

٤- الازدهار ـ القرن السادس عشر ـ مرجعيته : عهد سليمان القانوني

٥- الضعف ـ القرن السابع عشر ـ مرجعيته : فشل حصار ڤينا الثاني في سنة ١٦٨٣م

---

* من المهم جدا، مراجعة ما كتبه: كريسي وتوينبي وكيبونزوبول وبتك وكوبرلو، ومقارنة ذلك بما كتبه روبرت منتران وبيري اندرسون وخليل انالجيك وكمال كاربات وستانفورد شو...

٦- الانحسار ـ القرن الثامن عشر ـ مرجعيته: الحكومات الاقليمية اللامركزية

٧- الانحلال ـ القرن التاسع عشر ـ مرجعيته: التنظيمات

٨- السقوط ـ القرن العشرين ـ مرجعيته: تركيا الفتاة + مصطفى كمال أتاتورك

أما العوالم الجغرافية التي شملتها الامبراطورية العثمانية، فهي:

١- الاناضول ـ أي: آسيا الصغرى وتشمل اليوم على تركيا الحديثة.

٢- روميليا ـ أي: أوروبا الشرقية المشتمل على البلقان والصرب واليونان وهنغاريا ... الخ.

٣- الوطن العربي ـ أي: الولايات العربية في كل من المشرق والمغرب العربيين.

ويمكننا ان نذكر ابرز الشعوب والقوميات والملل التي تألفت منها تراكيب المجتمعات العثمانية اذ كان هناك:

الاتراك/ العرب/ الصرب/ الارمن/ الاكراد/ التركمان/ الفرس/ الالبانيون/ اليونان/ البلقان/ الهنغار/ السلاف/ البلغار/ اليهود/ القرم/ الجراكسة/ الخزر/ الكرج/ القفقاس/ القبجاق/ الاحباش/ وغيرهم*.

٣- مواصفات التاريخ الامبراطوري للعثمانيين ** :-

١- حمل تاريخ الامبراطورية العثمانية في جوفه فترات تاريخية تراكمية قابلة للتجديد، وهو تاريخ يشابه في ذلك كثيراً تواريخ امبراطورية أخرى

---

* للمزيد من التفصيلات التاريخية لهذه التراكيب ذات العلاقة المشتركة، انظر مقارناً ما كتب في «الانسكلوبيديا الاسلامية» القديمة والحديثة، والانسكلوبيديا الاسلامية (التركية).

- The Encyclopeadia of Islam (Ist and 2nd eds).

- "islam Ansiklopedisi" (Turkish ed.) in progress.

وانظر بخصوص تركيب الاسرة السلطانية – العثمانية :-

A.D.Alderson, The Structure of the Ottoman Empire. Oxford, 1956.

** وحول عوامل رقي الدولة العثمانية، انظر: محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ترجمه وقدّم له: د. أحمد السعيد سليمان، تقديم: د. أحمد عزت عبد الكريم. القاهرة، ١٩٦٧. ص ١٨٣-١٩٢.

كالتاريخ الروماني والبيزنطي والعباسي والصيني والانكلو سكسوني...

٢- يتميز هذا التاريخ بالتركيبة السلالية، اذ نشأت الامبراطورية العثمانية على أيدي أسرة تركية حاكمة مؤسسها ارطغرل، ومؤسسها الحقيقي هو عثمان بن ارطغرل وتسمت الاسرة باسمه، وبقيت في الحكم طوال القرون منذ اواخر العصور الوسطى حتى بداية التاريخ المعاصر.

٣- إمتاز التاريخ العثماني باتخاذه «الصبغة الاسلامية» اساساً له في العقيدة السياسية (= الايديولوجية)، والتوسع ضمن فلسفة «الجهاد»، واكتسب العدد الكبير من السلاطين الأوائل البناة تلك الفلسفة الاساس الايديولوجي العميق في تطوير الدولة.

٤- حفل التاريخ العثماني بغنى حوادثه التاريخية العظمى والحاسمة ليس في حياة امبراطوريته، بل في تاريخ البشرية، تلك الحوادث التي شملت أهم الحروب والمعارك وحصارات المدن والقلاع والجزر، والامتدادات...الخ.

٥- ابرزت الامبراطورية العثمانية عدداً وافراً من الاعراف والقوانين والنظم والتشريعات والقيم والتنظيمات الاصلاحية... والمناهج، ثم القوانين الحديثة سواء كانت سياسية أم ادارية ام اقتصادية... استخدمتها الدولة جميعها خلال حياتها الطويلة.

٦- تعد الامبراطورية العثمانية من ابرز الدول العسكرية في التاريخ. وقد وصلت القوة العثمانية الى أوج عظمتها في النصف الأول من القرن السادس عشر في البر والبحر، واستطاعت ان تسيطر على الحوض الشرقي للبحر المتوسط وصراعها مع الدول البحرية كاسبانيا في الحوض الغربي منه، وكالبرتغال في البحار العربية والشرقية.

٧- استطاعت الامبراطورية العثمانية ان تناوئ عدة من الدول والقوى الدولية المختلفة مثل: الهابسبورغ والنمسا والروس في اوكرانيا وبلاد القرم، والمجر وبولندا وروما والصرب، ثم ضد الصفويين في ايران... وفي القرنين المتأخرين دخلت الدولة في صراع ضد الروس والانكليز والافرنسيين والالمان وغيرهم.

٨–١ صف، ناريخ الامبراطورية العثمانية بنظامها الاقتصادي – الاقطاعي، بالا عتماد على نظام المقاطعات التي كانت تمنح بكثير من الامراء ورؤساء انعشائر والولاة والبكوات، فضلاً عن الاعتماد على نظام ضرائبي خاص (هو : نظام الساليانة).

٤- التركيب التاريخي لتاريخ الدولة العثمانية:-

١ / القرن الرابع عشر: عصر النشوء:

خلف الامير عثمان بن ارطغرل اباه في حكم الامارة التي تسمت باسمه وتعد الفترة التاريخية ١٢٩٩– ١٣٢٦م، من اهم فترات تأسيس الدولة، اذ قام عثمان بفتوحاته الكبيرة في آسيا الصغرى، وقد ساعدته في ذلك الظروف التاريخية التي وافقت انهيار السلاجقة. وبدأ اسم عثمان ينتشر عند الاتراك المسلمين، وبدأ يظهر في مدن بيزنطية ليس اسماً يثير الرعب، ولكن كبطل وزعيم اسلامي بارز... وفي عهده سقطت مدينه بروسة (= بورسة) التي جعلت عاصمة للدولة الناشئة، ومقرا للحكومة بعد ان انتزعت، وذلك اثناء موت عثمان خلال حصار بروسه.

تولى القيادة بعد عثمان ابن اورخان الذي حكم للفترة (ما قبل ١٣٢٤) - ١٣٦٠م بعد ان دام حكم عثمان أكثر من اربعين سنة في طورين: طور الاقطاع + طور الامارة وهكذا، وسنرى أن كل سلطان عثماني يحكم اكثر من ربع قرن يعطي دفعة جديدة لتاريخية الدولة باستثناء السلطان سليم الأول ١٥١٢ – ١٥٢٠م (كما سنرى).

اصبحت بروسة، قاعدة عثمانية– اسلامية لأول مرة، اذ انطلقت منها. الحركات العسكرية للامارة البيزنطية المسيحية التي كان من اشهر قواعدها: نيقية ونيكوميديا في شمال اسيا الصغرى.

قام اورخان بتكوين جيش من المشاة، ووضع تنظيمات لذلك الجيش، واستعمل التقسيم الاقطاعي في التوسع، وادخل النظام الضرائبي، واصبحت الدولة في عهده قوية بحيث دانت لها الامارات المسيحية بالولاء، وخشيت الدولة

البيزنطية من حجم التوسع وبخاصة نحو الغرب، وذلك بعد ان استطاعت النجاح في عملية تركيزها البارزة، ذلك الانتقال الآسيوي الكبير الذي شكل قفزة تاريخية حيث حدث ذلك على مدى مائة سنة من ميلاد عثمان بن ارطغرل، اي حتى عام ١٣٥٧م. اذ استغل العثمانيون حالة التمزق الشديد التي كانت تعيشها اقاليم اوروبا الشرقية.

وتولى مراد الأول حكم الدولة بعد اورخان، وقد وجدها قوية ومنظمة وكان قد اطلق لقب «الغازي» على الامراء العثمانيين الأوائل، ثم حملوا لقب «السلطان»، وقد حكم للفترة ١٣٦٠– ١٣٨٩م، وتوسعت الدولة العثمانية في عهده، حوالي خمس مرات وذلك عما كانت عليه، كما وتوسعت ايضا في حجم سكانها، وامتاز باعماله التنظيمية والعسكرية.

ويعد مراد الأول من الحكام العظام الذين ارتقوا بالدولة من خلال مواصلة الصراع العنيف ضد البيزنطيين. وفي سنة ١٣٦١م استولى على مدينة ادرنة التي كانت من امهات المدن البيزنطية، فاتخذها عاصمة له، ثم وجد نفسه يواجه تحالفاً صليبياً – أوروبياً، فزحف مراد الأول بقواته، والتقى بجيوش التحالف بقيادة لازار في اشرس معركة اسمها «كوزوفو» (أي: ميدان الطيور السوداء) سنة ١٣٨٩م وقد سقط مراد الأول فيها قتيلاً برغم انتصار العثمانيين.

تولى القيادة بعده بايزيد الأول ١٣٨٩–١٤٠٢م الذي حقق انتصارات على امراء الصرب والبلغار والبوشناق، وامتدت جيوشه في البوسنة والهرسك، وفتح عاصمة بلغاريا، صوفيا سنة ١٣٩١م... ولكن كان ان ظهر خطر جديد انبعث من الشرق البعيد ليهدد العثمانين، اذ وجد بايزيد الأول نفسه امام خطر زحف تيمورلنك، والتقى الجيشان في معركة انقرة عام ١٤٠٢م حين كسرت شوكة العثمانيين.

السؤال: كيف غدا الاناضول عثمانياً؟

لم يقتصر الصراع خلال القرن الرابع عشر مع البيزنطيين الاوروبيين الشرقيين فحسب، وانما اتجهت الخطط في توسيع نطاق الدولة نحو الشرق ايضا، و ذلك للحفاظ على الممتلكات التركية السلجوقية – القديمة خشية تعاظم نفوذ قوى الشرق، وخاصة في سمرقند، فاستطاع اورخان ان يستولي على «انقرة» (= قلعة

حصن السلاسل) سنة ١٣٥٤م، وما ان حل القرن الخامس عشر، حتى كان الاناضول أجمعه تقريباً في قبضة الدولة العثمانية بعد سيطرتهم على القرمانيين وعلى عاصمتهم قونيا.. ومنذ ذلك الحين، بدأت عهود الدولة الحقيقية نحو حالة الارتقاء، ويمكننا ان نرد ذلك الى اسباب اساسية، هي:-

أولاً: طبيعة التوسعات الاقليمية على حساب الامارات القديمة.

ثانياً: استخدام مسألة «الجهاد» في الفتوحات الاسلامية غرباً وشرقاً.

ثالثاً: اضافة ممتلكات جديدة وذلك بالمصاهرة، وشراء الاراضي، ولا سيما خلال عهدي كل من مراد الأول وبايزيد الأول.

رابعاً: اباح العثمانيون لانفسهم مقاتلة اخوانهم المسلمين «الاتراك» السلاجقة او القرمانيين ،وغيرهم. والاستعانة بالمسيحيين الأوروبين عليهم في بناء رقعة الدولة.

خامساً: السياسة القوية النافذة ذات الطابع الاستيطاني في عهدي كل من مراد الأول وبايزيد الأول.

سادساً: الجهاز الحربي العالي التنظيم من مشأة الانكشارية... كان فعالاً في عمليات التوسع والامتداد، لأنه اعتمد في تكوين عناصره كافة على الاوروبيين.

هكذا، يعد القرن الرابع عشر في حصيلته: قرناً مليئاً بالاحداث التاريخية الجسيمة، وهو القرن الذي نشأت خلاله الدولة العثمانية، وضمت خلاله ممتلكات كبيرة، وادخلت في سيطرتها مجتمعات كلاسيكية، ومدناً بيزنطية، واقاليم أوروبية، وتشكل عهود عثمان واورخان ومراد الأول في محصلتها حوالي التسعين سنة ١٢٩٩ - ١٣٨٩م، تطورت خلالها اجهزة الدولة الاقطاعية والعسكرية، وبخاصة تشكيلات الجيش الانكشاري، والانظمة الضرائبية، واملاك الدولة، وتعزز الامن الداخلي، وبنيت المساجد والمدارس، ورصدت الوقفيات، وتوزيع التيمارات (= الاقطاعات الحربية)... الخ.

اما عهد بايزيد الأول ١٣٨٩ - ١٤٠٢م فقد طبع باعراف جديدة، وصدرت خلاله انظمة استمدت اصولها من مصادر مختلفة، غلب عليها الطابع الاوروبي بفعل العناصر الحديثة العهد بالاسلام، لا سيما وان بايزيد كان ابن سيدة يونانية

وعلى الرغم من الاعمال العظمى التي انجزها بايزيد الأول في اوروبا، فانه حوّل انظاره نحو الشرق متخلياً بذلك عن تقاليد آبائه «الغزاة»، واتبع السياسات المركزية، ونجح في تحويل الدولة من شبه اقطاعية الى سلطنة قوية تستند على المرجعية - الايديولوجية - الاسلامية ، متخذاً لقب «سلطان الروم» وذلك لسيطرته على الاناضول وامتداده في الغرب، وناشد اقرار ذلك من قبل الخليفة العباسي الذي كان يقيم في ظل مماليك القاهرة، وحاصر بايزيد الأول القسطنطينية ست سنوات، وكادت تسقط بين يديه، ولكن الشبح المخيف الذي ظهر من الشرق باسم تيمورلنك (= تيمور الاعرج) ادخل الدولة العثمانية في مسارات من نوع آخر وتسبب في انهيارها عندما اندحرت جيوش بايزيد الأول على يديه، واخذ بايزيد نفسه مأسوراً في قفص حديدي، ثم يموت كمداً بعد زمن قصير.

٢ / القرن الخامس عشر: عصر الارتقاء:

كادت الدولة العثمانية ان تتصدع بعد معركة انقرة عام ١٤٠٢م، ودام صراع الاخوة على الحكم اكثر من عقد كامل من السنوات ١٤٠٢ - ١٤١٣م. وانتهت تلك الفترة التاريخية الصعبة - التي يسميها المؤرخ ارنولد توينبي بـ «فترة الدرقة» - باعتلاء السلطان محمد الأول العرش ليحكم الدولة للفترة ١٤١٣ - ١٤٢١م، بعد ان اعترف بسلطته، ولم تكن له فتوحات جديدة، أو انجازات باهرة، ولكنه ادى للدولة خدمة جليلة في اعقاب الحرب الأهلية، اذ عمل على تنظيمها من جديد، وبمجيء السلطان مراد الثاني ١٤٢١ - ١٤٥١م وهو ابن محمد الأول ، كانت الدولة قد استرجعت عافيتها، وهي قابلة للنضوج والارتقاء من جديد، متخذين القسم الغربي منها (= روميليا) قاعدة للانطلاق والفتوحات في اجزاء اوربا... وخلال عهد مراد الثاني الذي تزوج بزوجة صربية، استطاع ان يوسع من حدود دولته كثيراً، ويقضي على حركة العصيان الناشئة من خلال سياسة داخلية شديدة، وكذلك استطاع ان يجابه الممالك الأوروبية من خلال دافعين اساسيين اثنين : الصراع الحربي المزمن والعلاقات الدبلوماسية الجديدة... وقد فتحت في عهده العديد من القلاع والحصون والمدن في شرقي أوروبا، ودخل في صراع مرير ضد الامبراطور البيزنطي، وحاصر القسطنطينية حصارا شديداً في شهر حزيران عام ١٤٢٢م. ويعد هذا الحصار هو الحصار العثماني السادس لها، فضلا عن دخوله في صراع ضد القوى والدويلات التركمانية في شرقي

الاناضول، كما واستطاع ان يوطد اقدامه في اقاليم متعددة من جنوبي هنغاريا، ووصل الى ولاجيا شمالاً والى سالونيكا جنوباً والتي فتحها بعد اخذها من البيزنطيين.

يكاد يشكل عهد كل من مراد الثاني ومحمد الثاني الذي اعقبه: حقبة تاريخية تراكمية ١٤٢١ – ١٤٨١م ارتقت خلالها الدولة العثمانية، من خلال صراعها ضد القوى البيزنطية، وقد عدّ فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الثاني (الفاتح) عام ١٤٥٣م حدثاً تاريخياً بارزاً في الحياة التاريخية بين العصور الوسطى والعصر الحديث.

اتسع بناء الدولة العثمانية على عهد السلطان محمد الفاتح ١٤٥١ – ١٤٨١م، خاصة وانه تطلع بوصفه سلطاناً شاباً جديداً الى انجاز عمل استراتيجي ضخم في بناء مجد امبراطوريته، الا وهو فتح القسطنطينية، تلك العاصمة العريقة مركز الكنيسة الشرقية التي استعصت على بايزيد الأول ومراد الثاني اللذين حاولا محاولات عدة لفتحها، ولكنهما لم يفلحا وكانت فكرة السلطان محمد الفاتح تنطلق من اعتبار ان ذلك «الفتح» سيدعم الممتلكات الجديدة، وسيفتح الطريق امام المسلمين للانطلاق نحو اعماق اوروبا...

لقد برزت استعدادات سياسية وعسكرية، وجددت المعاهدات والاتفاقيات وعقد الهدنة مع جميع جيرانه من الدول المرتبطة بالعثمانيين... فضلاً عن امراء الاقاليم والامارات الصغيرة... وفي يوم الثلاثاء ٢٩ ايار/ مايس ١٤٥٣، اصبحت تلك العاصمة ، محاصرة حصاراً شديداً، استمر ٥٣ يوماً، لتفتح بعد ذلك، وتصبح عاصمة جديدة للدولة بعد دخول الفاتح اليها، ويحول اسم «القسطنطينية» الى «اسلامبول» (أي: عاصمة الاسلام) وقد رفع هذا الفتح من شأن العثمانيين في العالم الاسلامي، وارسل السلطان رسائل الى كل حكام المسلمين، واستطاع ان يحرز نجاحات باهرة بعد الفتح العظيم... وامتدت اراضيه نحو قلب اليونان، وجعل البحر الاسود بحيرة عثمانية... وسيطر على الاناضول، وقضى على مملكة طرابزندة الواقعة في شمال الاناضول والمتحالفة مع امارة حسن الطويل (= اوزون حسن) وهي امارة تركمانية تكونت في اعقاب الغزو التيموري، فضلا عن الامارة القرمانية، واستطاع ان يسيطر على كثير من الاراضي، او بفرض سلطته السياسية على امراء تلك الاقاليم في شرقي الدولة.

بعد وفاة السلطان محمد الفاتح عام ١٤٨١م شهدت الدولة العثمانية انقسامات في العائلة العثمانية الحاكمة، كادت تودي بحياتها من خلال الصراع بين ولدي محمد الفاتح = بايزيد وچم Chim، وكان بايزيد اسرع من اخيه في الوصول الى السلطة في اسطنبول، والاعتراف به سلطاناً، في حين ذهب چم الى العاصمة القديمة بروسة، واعلن سلطته هناك بتأييد من اهلها، واقترح چم على اخيه ان يقسم الدولة على قسمين: قسم اوروبي يحكمه بايزيد وقسم آسيوي ويحكمه چيم... رفض بايزيد هذا الاقتراح، واوقع الهزيمة باخيه في الاناضول، فهرب چم الى القاهرة عن طريق بلاد الشام عام ١٤٨٢م، وطلب حق اللجوء السياسي في دولة المماليك لدى السلطان الاشرف القايتباي الذي حكم مصر وبلاد الشام للفترة ١٤٦٨- ١٤٩٦م. وفي عام ١٤٨٣م، رحل چم من القاهرة الى قونيه، واصطدم بجيش بايزيد الذي انتصر عليه الاخير، فهرب چم الى جزيرة رودس التي لم تكن بعد واقعة تحت الحكم العثماني، وانما كان يحكمها فرسان القديس يوحنا، واتخذ اولئك الفرسان من چم أداة ضغط على الدولة العثمانية، وكان ذلك من العلل التاريخية التي اوقفت التحرك العثماني تجاه الغرب، وبخاصة في عهد بايزيد الذي خشي ان تتحالف الممالك الاوروبية هذه، وتقع الدولة العثمانية تحت وطأتها بتنصيب چم على العرش، وانتقل جم الى اوروبا، وتوفي فيها سنة ١٤٩٥م.

أما ابرز النتائج التاريخية التي خرج بها الصراع بين الاخوين، فتكمن في توقف التوسعات العثمانية الى اجل غير محدود، وبروز حرب باردة بين العثمانيين والاوربيين واهتمام البلاط العثماني بمراقبة الاحداث الداخلية، ولا سيما الانقسامات الداخلية. لقد حكم السلطان بايزيد الثاني للفترة ١٤٨١-١٥١٢م، والتي شهدت حدة التوتر بين الاتراك العثمانيين والفرس الصفويين.

دعونا نتساءل لنتعرف على ماهية الصفويين؟ (التفاصيل في الفصل الثاني).

٥- إشكالية "الخلافة والسلطنة": المصطلح والمدلول:-

لم يجد الباحث المؤرخ ولا الدارس المدقق أن المؤرخين القدماء ولا المصادر الرسمية - العثمانية القديمة قد اعتبروا «الدولة العثمانية» دولة (خلافة اسلامية)، بل اعتبروها دولة (سلطنة)، وكبقية الدول الاسلامية التي ولدت بعد سقوط بغداد بيد المغول سنة ١٢٥٨م/ ٦٥٦هـ. إن اغلب الكتب والمراجع التاريخية الحديثة

تصف «الدولة العثمانية» كونها دولة خلافة اسلامية، وقد تواردت الثقافة التاريخية الحديثة هذا «المصطلح» عن كتابات المستشرقين والمؤرخين الغربيين خطأ دون تدقيق أو تمحيص!

لقد استطاع السلطان سليم الأول ان يقضي على آخر انفاس الخلافة الاسلامية أثر اعتقاله للخليفة المتوكل العباسي، وهو آخر خليفة عربي كان يعيش في ظل المماليك، وكان ذلك عام ١٥١٧م أثر سيطرة سليم على القاهرة... ولم تذكر المصادر والوثائق التاريخية حدوث اي تنازل عربي/ عباسي عن «الخلافة» الى العثمانيين والى السلطان سليم الأول بالذات ذلك انهم لم يمتلكوا الشروط الشرعية الواجب توافرها في «خليفة المسلمين».

هكذا، فإن الرواية الشائعة على الألسنة وفي مختلف الكتابات العربية والاجنبية بخصوص «خلافة الدولة العثمانية» لا تستند الى جذر تاريخي، لا مصطلحاً ولا مدلولاً، ولم يتداول هذا «المصطلح» عند العثمانيين الا في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وعليه، فلا يمكننا استخدام مصطلح «الخلافة» بالنسبة للسلطنة العثمانية، ولا يجوز إطلاق صفة «الخليفة» على أي سلطان عثماني ما عدا السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ - ١٩٠٩ الذي تبنى مشروع «الجامعة الاسلامية» وأطلق على نفسه لقب «الخليفة العثماني» !وكان ذلك كله مدعاة الى الدعوة لخلافة عربية تحل محل السلطنة العثمانية، كما دعا الى ذلك عبد الرحمن الكواكبي.

إن الفرق كبير بين استخدامات كل من المصطلحين: «الخلافة»و «السلطنة» وقد سبب ذلك إشكالية واضحة في كتابة التواريخ العثمانية المتنوعة الحديثة، لا سيما بعد إلغاء منصب «الخلافة» من قبل مصطفى كمال اتاتورك سنة ١٩٢٤م، وهو منصب أوجده الواقع السياسي المرير للدولة العثمانية في أواخر حياتها، وليس إلغاء لشرعية «خلافة» توارثها العثمانيون، فهم لم يتوارثوا غير ميراث دولة سلطنة عثمانية... وهذا ما يجب ملاحظته والتدقيق فيه *.

---

* للاستزادة، انظر. د. سيار الجميل، «دولة السلطنة العثمانية وإشكالية الخلافة»مجلة دراسات عربية، العدد (٤)، السنة (٢٣)، شباط / فبراير ١٩٨٧.

٦- نظام الحكم العثماني:-

لقد نجح نظام الحكم العثماني الذي رافقته تحولات تاريخية مهمة في تقوية بنية الحكومة المركزية والادارة العثمانية، إثر تحول امارة عثمان في تخوم الاناضول الغربي الى دولة تمتلك كثيرا من الاجهزة والقيادات والعناصر العسكرية والمدنية، لقد كانت الادارة والجيش يتكونان من نفس الافراد المنتمين الى العوائل الاميرية ومن اتباعهم البدو والمسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام بفعل السيطرة العثمانية التي اشبعتها الغنائم الحربية وقوانين فرض الضرائب... ولم تمنع الدولة القادة والزعماء العسكريين والاداريين من التدخل في شؤون منتجي الثروة وفي ممتلكاتهم ونشاطاتهم الزراعية والتجارية الا بالقدر الذي يدفعونه من الضرائب، اذ كان لهم الحق في جباية تلك الضرائب.

لقد اعتمدت الدولة العثمانية في مطلع حياتها على منظمة القبيلة أساساً لتطوير جميع مؤسساتها، ثم بدأت هياكلها تنفصل شيئاً فشيئاً عن تقاليد تلك المنظمة، نتيجة للمؤثرات والتقاليد التي خلفتها السلالات التركية في اسيا الصغرى، فضلاً عما كان قد اشيع من اعراف في العراق والاناضول من خلال رواسب الحضارة العربية - العباسية كما وقد تأثرت اجهزة الدولة وهياكلها بالتقاليد التي أدخلها أولئك الذين هربوا الى العثمانيين قسراً نتيجة اجتياحات المغول وتيمورلنك جالبين معهم الاساليب البيروقراطية الشرقية وأبرزها تلك التي كان يستخدمها السلاجقة. فضلاً عن أهم العناصر في تطعيم هيكل الحكومة والنظام الاقطاعي وجباية الضرائب وضرائب الافراد والاعراف الصوفية .. اما عن البيزنطيين فقد استلهم نظام الحكم العثماني بعد تذويب مجتمعهم، ميراثاً لم يكن لذلك النظام تجنبه بأي حال من الأحوال، وبخاصة ما يتعلق بالادارة والاقطاعات والطقوس وأعمال الموظفين وحركة الاقتصاد الريعي .. وعلى الرغم من التسميات الاسلامية، فقد بقي الجوهر بيزنطياً على الاقل قبل قرنين من بدء حركة السيطرة العثمانية على الوطن العربي الذي قدم ميراثاً حضارياً ضخماً ورفيعا كان له الدور الأكبر في تجديدات القوانين وهياكل نظام الحكم على يد سليمان القانوني فيما بعد .

كان لبايزيد الاول الأثر الكبير والفعال على الدولة في التخلّي عن التقاليد القبلية البسيطة متبنياً نظام حكم لدولة قائمة بذاتها، وبدا لبلاطها العثماني

مراسيم وسلطة نافذة على الأجهزة والمؤسسات .. فأخذ وضع الدولة بالتعقيد وتجريد المهام العسكرية.. ولم يستطع السلاطين مسايرة تفاصيل شؤون الدولة، فعمدوا الى تخويل مهامهم المدنية والعسكرية الى «وزراء» لقبوا باللقب العربي المستخدم عند السلاجقة (= فيزير)، ومعتمدين على أبنائهم ولاة العهد في أن يكونوا وزراء لهم، ثم تطور الأمر فيما بعد لأن ينصّب أحدهم رئيساً للوزراء (وزير أعظم/ صدر أعظم) وكان يلقب بـ «الاودين باشا». إضافة إلى منح درجة الوزير للقادة والزعماء والاداريين الكبار الذين يحكمون أقاليم الدولة عسكرياً/ إقطاعياً أم إدارياً / مالياً، والذي يلقب بـ «البيك» ويمنح صلاحيات معينة لتمكينه من الادارة والقيادة .. ويجتمع الوزراء لتحديد سياسة الدولة في إجتماعات «الديوان» أي :المجلس الامبراطوري . وهو أعلى سلطة تشريعية وتنفيذية في الدولة العثمانية.

وكان السلطان يترأس ذلك المجلس ، متخذاً فيه جلّ القرارات في البداية .. وعندما تعقدت أمور الدولة وبدأت الحياة السياسية تفرض عزل السلاطين، بدأ الوزير الاعظم يمثل السلطان بوصفه رئيساً للمجلس ، (= الديوان)، مديراً تنفيذياً للدولة منذ عام ١٣٦٠م،. وقد إرتبطت بالديوان عدد من الدوائر العثمانية المهتمة بالاجراءات العسكرية والادارية والاقتصادية.

يمكن القول بعامة، إن جميع العسكريين في الجيش العثماني كانوا في البداية جنوداً تركمانيين مقسّمين حسب قبائلهم ويتزعمهم رؤساؤهم .. وكانوا معظمهم من «الخيالة» واجبهم حماية المناطق الحدودية للقيام بالغزو والهجمات على الاقاليم المسيحية وكانت الغنائم مكافأة لهم على أعمالهم .. وقد أدرك أورخان أن تلك الفصائل لم تكن كفوءة لأنها تفتقد التدريب والولاء الخاص للدولة برغم فائدتهم .. فقام بتنظيم جيش مدرّب له كفاءته وتنظيمه الجديد، وله رواتب نظامية، وأغلبه من المشاة ، وقد أطلق عليهم «يايا» في حين كان الخيالة يسمون بـ «المسلمين» .. وقد قدم كل من الجيشين خدمات واسعة للحكم العثماني ..

وفي عهد مراد الاول بقي «اليايا» و«المسلمون» جنوداً يمثلون جيشاً عثمانياً مضطرباً، فاستاء منهم هذا السلطان. لذا فقد عمد الى تكوين قوة عسكرية جديدة يتكون معظمهم من الرقيق الشباب، وكان اولئك الشباب يتعلم اللغة التركية واللغة العربية ويمارس التقاليد والاعراف العثمانية، فضلاً عن تأديته الطقوس

الاسلامية، وينتمون بولائهم الى البلاط العثماني .. ومن ثم بدأوا يتلقون تدريبات عسكرية مكثفة لكي يصبحوا مشاة في الجيش العثماني سيطلق عليهم في ما بعد إسم «يني – شري» أي : القوة الجديدة أو ما يعرف فيما بعد بـ «الجيش الانكشاري» والى جانبهم «الخيالة» او ما يسمى «السباهية» . اما قوة «اليايا» و«المسلمين» فقد إضمحلت مهامهم حتى غدوا أقل شأناً من البدو، وقد كافأتهم الدولة على خدماتهم بتوزيعها لهم بعض الاراضي – وكانوا يمنحون قانونياً مبالغ مالية رواتب من «بيت المال» ، إلا أن محافظي الاقطاعات والزعماء العسكريين كانوا يأخذون تلك المبالغ. ولأسباب عسكرية وإدارية قسّم أولئك المحافظون إلى مجاميع دعيت بـ«الاي» ويقصد بها «السرية» يرأسها البكوات وإلى مجاميع كبرى سميت بـ (سنجق) أو «لواء» يترأسها بكوات الالوية والسناجق. ويتربع في القمة زعماء باشوات يُدعون بـ «بيكلر بيكات» (أي بيك البيكات) الذين يحكمون الاقاليم الكبيرة. وضمن هذا التقسيم، يؤدي كل «محافظ» باستقلالية واضحة عن الآخر جميع الواجبات الادارية المحلية كالتأكد من عمليات زراعة الاراضي وضمان بقاء التجار في أعمالهم ، فضلاً عن الحرفيين في حرفهم وأصنافهم ويقدر الضرائب المفروضة عليهم ويحافظ على الامن والنظام الاداري والاجتماعي .

ويوجد في كل لواء قاضٍ مسلم يقوم بالعناية بما تتطلبه الظروف الاجتماعية والبلدية .. وهناك «الشرطة» الذين يعيّنهم البكوات . هكذا إجتمع كلّ من العاملين العكسري والديني لدى الطبقة العثمانية الحاكمة لتعزيز الحكم ونظامه وترسيخ العدالة العثمانية ، علماً بأن القضاة وقاضي القضاة في العاصمة كان المجلس الامبراطوري (=الديوان) يقوم بتنصيبهم وكان نفوذ الوجهاء الاتراك قد إستفحل كثيرا في الاستحواذ على الاراضي والمقاطعات والموارد ولمدة طويلة .. وسرعان ما أبطل مراد الاول تأثيرهم من خلال بنائه للجيش الانكشاري ، وتبنيه نظام تدريب الغلمان والشباب السلاجقة، فضلاً عن تطبيقه نظام التربية والتدريب والتجنيد الالزامي على الاطفال والاولاد المسيحيين في البلقان. وقد تطورت منظومات المجتمع العثماني وآلياته وتراكيبه خلال القرن الرابع عشر ولا سيما عندما أدمجت الاقاليم البيزنطية المسيحية وطبقت فيها آليات نظام الحكم العثماني، وحل النفوذ التركي في المراكز برغم وجوده على هيئة جاليات تعيش في وسط مجتمع مسيحي وعلى الرغم من عمليات التنقل والدمج، الا أن بقاء التقاليد المسيحية ظل مشهوداً ومؤثراً في البداية .

لقد كان لاتساع النطاق الجغرافي للدولة العثمانية يوما بعد آخر وإكتساب مناطق جديدة تأثيره البالغ في إيجاد التزامات ومتطلبات فرضت إضافة قوات عسكرية لترتيب الشؤون الادارية والمالية ، وبخاصة خلال النص الاول من القرن الخامس عشر فقد بدأ العثمانيون تطبيق قانون جديد في التجنيد دعوةً بـ(الدوشرمه Deucheme) وخصوصاً خلال عهد السلطان مراد الثاني ١٤٢١ – ١٤٥١م . وكانت تطبيقات هذا القانون تشكل نزعة قاسية في فصل الاطفال المسيحيين ليس على آبائهم وأمهاتهم فحسب، بل إجتثاثهم عن أصولهم وجذورهم وتربيبهم تربية عثمانية (اسلامية) ثم تصنيفهم بعد ذلك للانخراط ، أما في فرق الانكشارية أو العمل في الخدمات الادارية داخل القصور السلطانية !

كانت فرق الانكشارية تكلف في الاقاليم كحاميات عسكرية تفرض الأمن وتجمع الضرائب . وكان أغا الانكشارية بمثابة القائد العام للحماية العسكرية العثمانية في الولاية عضواً في ديوان إدارة الولاية. ويعدّ أوجاق الانكشارية من اقوى الاوجاقات وأكثرها عدداً في الولاية في تنفيذ مهام الوالي وأوامر السلطان، ويعاضدهم في أعمالهم السباهيون. وكان الانكشاريون يشكلون أهم الفرق العسكرية المرتبطة بالطريقة البكتاشية. ولم يسمح لهم بالزواج بحيث يمكثون في ثكناتهم لكي يتم تدريبهم على المهارات في إستخدام الأسلحة وعلى التنظيم. وقد عدوا يوماً بعد اخر قوة سياسية كبيرة في الدولة، وقد ترافق ذلك مع الانجازات التاريخية الكبيرة التي حققوها .

١/ تطور نظام الحكم العثماني:

إن نظام تنسيق القوانين كان من الفعاليات المرتبطة إلى حد بعيد بالمواريث الرومانية البيزنطية . وكان السلطان محمد الثاني (الفاتح) أوّل حاكم عثماني يحاول إدخال النظام وتجميع القوانين وتنسيقها في مختلف الأنظمة القانونية والاجتماعية في الاراضي المفتوحة وفي كل جهات الامبراطورية، مدخلا ممارسات معينة من النماذج العامة للحكومة / الدولة والمجتمع . وبتوسيع إمبراطوريته ذات الطابع المركزي ، فإن محمداً كان يعدل كل ما يعارض نزعته للسيطرة، ومن ثم يضع القوانين إستناداً على النتائج ضمن سلسلة من ثلاثة قوانين (قانوننامة Kanunname) صدر الأول للفترة ١٤٥٣ – ١٤٥٦م وتضمن منزلة والتزامات رعاياه ؛ وصدر الثاني في فترة متأخرة من حكمه

١٤٧٧-١٤٧٨م وتضمن تنظيم الدولة العثمانية والطبقة الحاكمة، وصدر الثالث في أواخر سني حكمه، تضمن التنظيمات الاقتصادية، وإمتلاك الاراضي والضرائب. وهكذا فقد جمعت ونظمت القوانين والممارسات والتقاليد التي تطورت خلال القرون الماضية ولكن الدولة العثمانية ستشهد الذروة في علميات التصنيف القانوني لنظام الحكم في مختلف الميادين والمؤسسات والاجهزة وبعد نصف قرن من تنظيمات الفاتح، إذ جاءت متبلورة للمرة الثانية على يد السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م.

لقد بلغت المؤسسات الادارية والاجتماعية في الامبراطورية العثمانية أسمى درجات تطورها وتشكيلاتها في الوقت الذي بلغت فيه سلطات الدولة ذروتها الاقليمية خلال القرن السادس عشر. وقد عبّر عهد سليمان القانوني الذي كادت أغلب الاقاليم العربية والشرقية – الاناضولية واقعة بيديه.. عبّر عن إيجاد السبل والادوات لاستثمار الموارد والأموال لغرض دعم المكتسبات التي تحصّل عليها نظام الحكم العثماني إضافة الى تطوير مجالات الصناعة والتجارة والزراعة، كمحصلة لميادين القسم الاكبر من الرعايا. اما القسم الآخر من المجتمع فتشكله مجموعة صغيرة من الحكام والامراء والاقطاعيين والملتزمين الذين لم يكونوا مكلفين لا لايجاد الاموال ولا بدفع الضرائب بل على العكس، كانوا يعملون مستخدمين عند السلطة العليا.. ويعرف أولئك الذين تفرغوا لتسيير نظام الحكم العثماني وأفراد الطبقة الحاكمة بـ«العثمانيين» لأنهم كانوا يعملون لخدمة الدولة لا المجتمع، والاقلية لا الأغلبية . وكان أغلبهم من العسكريين يتقلدون وظائف عسكرية بحكم إتصاف الدولة بالصبغة العسكرية أساساً .. وخاصة في القرون الثلاثة الاولى من حياة الدولة، وبعد التوسع في الاراضي الاوروبية غرباً والعربية شرقاً ، إستخدم المدنيون في المؤسسات والأجهزة ومفاصل نظام الحكم . وقد تأسست عدة من «المكاتب» و«المدارس الخاصة» لتخريج دفعات من الموظفين الرسميين والعلماء والمديرين والموظفين الماليين والحرفيين الخاصين والكتّاب والخزنجية والأفندية والمحاسبين والمتصرفين والادباء .. الخ وظهرت في المجتمع العثماني على مدى القرون الاربعة طبقة متوسطة في درجاتها المتباينة المقتربة رؤوسها من الفئات الحاكمة والمتدنية حوافيها من الطبقات المسحوقة .

لقد بقيت طبقة «العلما والادبا» في خدمة الباب العالي في العاصمة ومراكز الاقاليم في المدن، وبخاصة في خدمة الحكومة العثمانية التي يتفق كثير من المؤرخين على أن هيكلها العام يقوم أساساً على ثمانية أركان يمثل كل ركن مجموعة واسعة من السلطات والصلاحيات المرتهنة بأمر السلطان إن كان قوياً أو بأمر «المفتي» (= شيخ الاسلام) في الدولة ان كان ضعيفاً !اما الاركان، فهي حسب تدرّجها :

١ - الصدر الاعظم .

٢ - الوزراء .

٣ - قضاة العسكر [قاضيان كبيران : قاضي عسكر روميللي وقاضي عسكر أناطولي].

٤ - الدفتر دارات .

٥ النيشانجية (وهم السكرتيرون والموظفون الخاصون).

٦ الحكام العسكريون والاداريون (= أغوات / باشوات / بيكلر بيكات / بيكات ..الخ).

٧ أغوات الداخل من الموظفين في البلاط العثماني والقصور ومؤسسة الحريم ..الخ.

٨ العلما ورجال الدين والقانون(*) .

٢ / نظام الالتزام :

كيف إعتمد العثمانيون النظام الاقطاعي ؟

لقد جرى ذلك أثر تطبيق أعراف عثمانية خاصة في الاراضي التي يسيطرون عليها في الاقاليم الخاضعة لهم، ولا يبتعدون أكثر لأن الاطراف البعيدة تكون خاضعة للانظمة القبلية والرعوية، وأغلبها من التضاريس الجغرافية الصعبة. كان السلطان يقطع القادة والاغوات والحكام مساحات كبيرة من الاراضي

(*) انظر ما كتبه د. احمد عبد الرحيم مصطفى في كتابه «في أصول التاريخ العثماني» ط ١، بيروت، ١٩٨٢ (الفصل الرابع: نظام الحكم العثماني)، ص ١٠٥ - ١٤٢.

الصـالحـة لـلزراعـة، والذين عـرفـوا حـسب تقـسـيمـاتهم بأصـحـاب «الـتـيمـار» و«الزعـامت» و«الخـاص» شـريطة أن ينفذوا مـهـام السلطان عـسكرياً ومـالياً. امـا تصنيف تلك الاقطاعات فإنه على ثلاثة أصناف :

١. التـيمـار : إقطاع يضم أراضي زراعيـة يمتلكهـا «التـيمـارجي» ، تتـراوح مساحته بين ٣٠٠–٥٠٠ فدان، ويقدّر حاصله بدخل سنوي بين ٣٠٠٠ – ١٠,٠٠٠ أقجة.

٢. الزعـامت : إقطاع أكـبـر من التـيمـار ، تزيد مـسـاحـتـه عن ٥٠٠ فـدان من الاراضي الصـالحـة للزراعـة، يتـراوح دخلـه بين ١٠,٠٠٠ أقـجـة الى ١٠٠,٠٠٠ أقجة سنوياً، وعادة ما يملكه البكوات والزعماء والباشوات .

٣. امـا الخـاص أو الخـواص فـهـو إقطاع كـبـيـر يزيد وارده السنوي على ١٠٠,٠٠٠ أقجة وجاءت تسميته من «خاصلر» وعادة ما يمنح للولاة من الوزراء وأفـراد السناجق، وهناك أراضٍ خواص في عدة من الولايات مسجلة باسم السلطان تحت عنوان شهير هو (خواصي همايون).

كانت الاقطاعات العسكرية تتوزعها الايالات العثمانية، وتنقسم الايالات الى سناجق، ويتـألف كل سنجق من عدد من التيمـارات والزعامات، ويترأس الايالة والٍ برتبة «البكلر بكي» (أي: بيك البكوات) وبدرجة مير ميران (أي : أمير الامراء)، ويعتني بأمور السنجق، «بك» يلقب بـ«السنجق بكي» وبدرجة ميرلوا (أي: امـيـر اللواء). وفي كل سنجق أو لواء مـقـاطعـة بدرجـة (خـاص) .. وتناط مـهـام نظام الالتزام بعدد كبير من الموظفين العثمانيين. ويعد نظام الالتزام من أبرز المجالات التي أبقت الحياة العثمانية الخصبة مستمرة هذه القرون العديدة . ومعنى نظام الالتزام : ان هناك من يترك إقطاعه الى مكان آخر في عهدة «ملتزم» مقابل مبلغ من المال، فـشـمـل مـجـالات أخـرى غـيـر المجـالات والميـادين الاقطاعـيـة الـعـسـكرية كالملتزمين في العشائر والطوائف لجمع الضـرائب ، ثم ساء استعمال نظام الالتزام كثيراً فوصل الى ظهور طبقة من الملتزمين استـغلوا الناس ، فشاعت أحداث الظلم والجور والمآسي.

بلغ نظام الالتزام أبلغ فعاليته وأوج تعقيداته في نهاية القرن السـابع عشـر، مترافقاً مع الانهيارات السياسية والعسكرية للدولة، وخاصة عندما منحت الدولة

حق الالتزام للملتزمين مدى حياتهم، فولدت طبقة جديدة وقفت حاجزاً بين الدولة والمجتمع واساءت كثيراً لاقتصادياتهما، ولا سيما في المناطق ذات البيئات القبلية والجبلية أو البعيدة عن مركز الدولة أو مراكز الاقاليم .. وقد شعرت الدولة في القرن التاسع عشر بجناية نظام الالتزام على فصائل المجتمع العثماني وكجزء من الاسلوب الاقطاعي ، فقررت إلغاءه من خلال الاصلاحات المختلفة . وبعد مواجهة مقاومة بالغة من أولئك الذين رهنوا مصيرهم بالالتزام ، وتوارثوه وعملوا به .

٣/ التركيبة الادارية :

قام «الوالي» بدور بارز في حياة الولايات العربية خلال العهد العثماني، وهو منصب كان السلطان العثماني يختار له اشد الموالين للأسرة العثمانية . والوالي هو الذي يحمل لقب «الباشا» ويتمتع بصلاحيات كبرى تصل الى التجريم والاعدام ومصادرة الاموال والسجن والضرب .. ولكن سلطته كانت مراقبة من الجهاز الديني والاشراف في كل مدينة، فكثيراً ما كانت الشكايات تصل الى أيدي السلاطين .. وكثيراً ما كان الشعب يثور فيقتل الوالي او يطرده قبل أن يعزله السلطان .. فضلاً عن تأثير «القاضي» فكثيراً ما قامت الاوجاقات العسكرية بالحدّ من سلطات الوالي الاستبدادية . وعليه، فقد كانت عهود الولاة قصيرة جدا في اغلب الولايات العربية .

وكان الوالي يتسلم راتباً سنوياً يدعى بـ «السالیانة» وهو الراتب الذي يقتطعه من ركام الاموال التي يستحصلها من إقتصاديات ولايته .. والوالي يجمع بين سلطتين مدنية وعسكرية، ويعمل تحت إمرته والى جانبه عدد من الموظفين الكبار يمثلون أركان ادارة الولاية، منهم : النائب – والكتخدا (= الكخيا / الكهية) الذي ينيبه في المناسبات والاسفار ويكون مسؤولا عن أمن الولاية . وهناك الدفتردار . المسؤول عن القضايا المالية في الولاية، وينصبه السلطان ويمنحه صلاحية محاسبة الوالي ومصادرة أمواله .. وأيضاً المكتوبجي اي: مدير تحريرات الولاية، والخزندار ،. وعمله أمين الخزانة الخاصة، اما قائد الحامية العسكرية (أغا الجيش) فينصّبه السلطان . أما «القاضي» فيقوم بأعماله القضائية وقد كان ينصب بعد ترشيح المفتي او شيخ الاسلام وبفرمان سلطاني وامر خاقاني. وهناك المفتي

المقيم في دار الافتاء الذي يعد سنداً دينياً للمجتمع المحلي .. وفي الولايات ومدنها العربية : «نقباء الاشراف» الذين يمثلون إمتداداً سلالياً لأسر عربية عريقة إشتهرت بالزعامة والسيادة والعلم .. وكانوا يقومون بدور الوسيط بين السلطة والفئات الاجتماعية . إذ كانت لهم مكانتهم المحترمة لدى الطرفين.

٤ / الوحدات الادارية :

تكونت الدولة العثمانية من عدد كبير من الوحدات الادارية والعسكرية، وقد عرفت بـ «الايالات» التي تنقسم بدورها الى «سناجق» / الوية. وقد بلغ عدد الايالات التي تألفت منها الدولة العثمانية في أوائل القرن السابع عشر (٣٢) إيالة، منها أكثر من عشر ولايات عربية استراتيجية تتوزع بين المشرق والمغرب العربيين، هي ؛ إيالة الرقة/ ايالة الموصل / ايالة حلب / ايالة الشام/ ايالة طرابلس الشام/ ايالة مصر / ايالة بغداد / ايالة البصرة / ايالة طرابلس الغرب/ ايالة تونس / ايالة الحبش/ ايالة الجزائر وغيرها .

٧- استنتاجات :-

١ / النظام الاقطاعي / العسكري:

نجحت الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر في بناء اجهزة متعددة لها، كان من ابرزها : الجهاز العسكري الذي اعتمدت عليه الدولة منذ نشأتها ولا سيما في حياتها التوسعية – الخارجية، والجهاز المالي الذي ضمّ الآلاف المؤلفة من الجباة والملتزمين كعناصر قوة تحمي الجبهات الداخلية اقتصادياً.. وكلاهما جهازان كبيران، فاذا كان الجهاز العسكري يعمل باسلوب التوالد الجغرافي والتركيز على اوروبا، فان الجهاز المالي كان يعمل بطريقة الرقابة الذاتية، بدليل ان الدولة العثمانية لم تعان من ازمات مالية خلال قرونها التاريخية الاولى التي ازدهر فيها النظام الاقطاعي / العسكري – العثماني . غير ان التطورات التي لحقت بالدولة اثر توسعها رافقتها عوامل ضعف تدريجي ، انعكست على الشؤون الادارية والاقتصادية والمالية.. فبدأت باستخدام اساليب جديدة لضمان امداد

خزينتها بالاموال، وتغطية الالتزامات المالية لها تجاه توسعاتها الحربية المستمرة وما تتطلبه جيوشها من نفقات عالية – على حد ذكر المؤرخ خليل انالجيك*.

٢/ التأثر بالبيروقراطيات الاوروبية :

كان التنظيم المركزي للاقاليم العثمانية في عهد محمد الفاتح ١٤٥١ – ١٤٨١م، يعتمد على مناصب «البكوات» و «البيكلربيكات» في ادارة الولايات ، وهم الذين اعتبروا بمثابة رؤساء لطبقة من الاقطاعيين والشيوخ والمالكين. وتعد التنظيمات القانونية التي اجراها الفاتح من ابرز التحولات في حياة الدولة، واكتساب اكبر قدر من الطاقات السياسية، والمواريث البيروقراطية الاوروبية.

لقد تأثر النظام الاداري العثماني بالبيروقراطيات الاوروبية، إثر التركز العثماني الطويل على اوروبا الشرقية، فكانت التنظيمات الادارية مؤثرة وجديدة في البيئات العثمانية، ومنها البيئة العربية، وبخاصة على النسق الذي رسمته بنود «قانوننامه لر» التي اصدرها السلطان سليمان القانوني خلال الزمن الذي كانت اوروبا فيه قد بدأت تتخلخل ركائزها الدينية، وتنبثق اطرها التاريخية / البيروقراطية .. وتبحث لها عن مصالح اقتصادية جديدة، بعد ان استطاع مارتن لوثر وكالفن ان يزيحا قليلا البنى الفوقية في اكبر المجتمعات الاوروبية.

٣/ نزعة المحافظة :

ويرى بعض المؤرخين الاوروبيين ان الهدف من التنظيم العثماني على يد سليم الاول وسليمان القانوني للولايات العربية، انما يكمن في ابقاء الاوضاع كما كانت عليه، إذ كانت نزعة المحافظة هي حجر الزاوية في الادارة، ولكن التنظيمات القانونية كانت عملية وغير قاسية او ظالمة في بنودها، وقد اسيئ استخدامها فيما بعد.

٤/ الابعاد السياسية والاقتصادية :

لقد تفوقت الابعاد السياسية والاقتصادية للنظام الاقطاعي / العثماني الى درجة وصل بها كاداة اساسية في ضبط امور الدولة ومهام احكامها في البلاد

* Halil Inalcik , The Ottoman Empire : Conquest, Organization and Economy (Collected Studies) London , 1978 , p. 117.

التي احتلتها وربطتها بمركزها. وقد اتبعت الدولة العثمانية اساليب مختلفة لكي تخفي مظاهر احتلالها، وذلك إثر قيامها بربط سكان الريف بالحكام العسكريين العثمانيين الذين شكّلوا طبقة من الفرسان والسباهية. اي بمعنى: دمجهم الاجتماعي ليس من خلال المصاهرة فحسب، بل الاستقرار في البيئات، والتوطن في الحاميات والمدن.

اما الابعاد الاقتصادية للنظام الاقطاعي فقد توضحت على نحو سافر في استغلال الارض، واستثمار الجهود الفلاحية فيها لمنفعة الدولة واجهزتها كافة. لقد تبنى العثمانيون مشروع اعتبار كل الاراضي التي تسيطر عليها دولتهم، بمثابة اراض خراجية تعود رقبة الارض (التي تسيطر عليها دولتهم) فيها للدولة، ولاجهزة الدولة الحق في تقرير شؤونها، واتباع الطرق والوسائل المناسبة لاستغلالها. وقد مارس كثير من السلاطين، اجراءات تطبيقية كفلت تطبيق مثل هذه المفاهيم، وخاصة في توزيع الاقطاعات او اعادة توزيعها. اي: أنهم قاموا بتغيير في عناصر الانتاج، ولا سيما في الاراضي العربية التي دخلت ضمن اطار الهيمنة العثمانية، إذ باشر في ذلك كل من السلطان سليم الاول ١٥١٢–١٥٢٠م وولده السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠–١٥٦٦م*.

---

* ان من ابرز المراجع التاريخية حول نظام الحكم العثماني وتراكيبه الاقطاعية والادارية هي:

"A.H. Lybyer, The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent, Cambridge 1913.

-H.A. T. Gibb and Harold Bowen, Islamic Society and the West, Lodon & New York, 1950 - 7.

(ترجم هذا الكتاب الى العربية د. احمد عبد الرحيم مصطفى، وراجعه د. احمد عزت عبد الكريم، تحت عنوان «المجتمع الاسلامي والغرب» بجزئين، عن دار المعارف بمصر، ١٩٧١م).

الفصل الثاني

٢ الفصل الثاني

السيطرة العثمانية على الوطن العربي في القرن السادس عشر

١-الحروب العثمانية:-

مقدمة:

لقد غدا «الوطن العربي» احد العوالم الجغرافية الثلاثة الكبرى التي تشكلت منها الامبراطورية العثمانية منذ النصف الأول من القرن السادس عشر يمثل تاريخياً «عصر القوة العثمانية»، وهو العصر الذي وصلت خلاله الدولة إلى الدرجة القوية التي تمنحها السيطرة واحتواء الاراضي العربية بالقوة، واغتيال «شرعية» الخلافة العربية التي كانت تعيش بظل حكم المماليك في القاهرة.

وكانت الظروف الخارجية والداخلية في المنطقة العربية قد هيأت عدة اسباب تاريخية دفعت بالعثمانيين للسيطرة عليها، ولكن السقوط العربي في القبضة العثمانية القوية لم يأت في طبيعته على نسق واحد أو زمن واحد أو شكل واحد، فثمة اختلافات في طبيعة السيطرة العثمانية سواء كان ذلك من خلال البر أو البحر.. ولاشك أن جملة تغيرات قد حدثت هنا أو هناك من الرقعة العربية العريضة بعد قرون طويلة من الانغلاق.

كانت اوروبا تنمو دولها في البحار باطراد غير معهود بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، وانطلقت خلال القرن الخامس عشر بقواها البحرية الرهيبة لاغراض عدة منها السيطرة والتوسع والاستكشافات الجغرافية الكبيرة، وبخاصة العمليات البحرية للقوى البرتغالية والاسبانية في البحار والمحيطات. في حين كانت الامبراطورية العثمانية تمتلك قوى عسكرية برية وشرسة اخترقت بها

شرقي اوروبا. وكانت قوة ايران الصفوية تتنامى على نحو لم نشهده من قبل، وبدأت تستحوذ من خلال قواها البرية على مناطق استراتيجية لتحقيق اطماع قديمة على حساب الاراضي العربية.. أما قوة المماليك في مصر فكانت اضعف قدرة على المجابهة البرية والبحرية..

ان حالات التوسع العثماني التي جاءت اسساً تاريخية لعهود السيطرة العثمانية الطويلة على الوطن العربي قد شكلت - ايضاً - المهد البكر لمجمل ما سيحدث في المجتمع العربي، وما سيلحق به من تغيرات من خلال النظم والاعراف العثمانية لمختلف اوجه الحياة العربية وفي اغلب البيئات الجغرافية التي تعرضت لظروف السيطرة والحكم العثماني على مدى القرون المتأخرة. ويمكننا تقسيم اساليب السيطرة العثمانية إلى قسمين:

١ الحروب البرية.

٢ الحروب البحرية.

١- الحروب البرية:-

١/ النشوء الصفوي وعهد بايزيد الثاني:

إبان فجر القرن السادس عشر الميلادي/ اوائل القرن العاشر الهجري. كانت القوى الصفوية الايرانية بقيادة الشاه اسماعيل الصفوي قد انهت جيوب ما تبقى من املاك دولة (الاق قينلو - الخروف الابيض - البايندرية) بعد أن ملكت تبريز سنة ١٥٠٠م/ ٩٠٦هـ. واستولى الشاه على ارمينيا في بداية حروبه، ثم على عربستان وكيلان في سنة ١٥٠٢م/ ٩٠٨هـ، ثم انتقل لغزو العراق، ويدخل بغداد في ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م، ورجع عن طريق ديار بكر فأخضعها واخضع الموصل والمدن والاطراف التابعة لاقليم بلاد الجزيرة. يقول الشيخ قطب الدين النهروالي قائلاً: «وظهر في بلاد العجم في ايامه (= عهد بايزيد الثاني) شاه اسماعيل بن الشيخ حيدر بن الشيخ جنيد الصفوي في سنة ٩٠٥هـ (١٤٩٩-١٥٠٠م) وكان له ظهور عجيب، واستيلاء على ملوك العجم يعد من الاعاجيب، فتك في البلاد، وسفك دماء العباد، واخرب ممالك العجم وأزال من اهلها حسن الاعتقاد...»*.

الشيخ قطب الدين النهروالي الحنفي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (اخبار مكة المشرفة)، ج٢، تحقيق المستشرق ف ويستنفلد، نشر خياط، ١٩٦٤، ص ٢٥٩-٢٦٠.

وهكذا، ففي سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، استطاع جيش بايزيد الثاني بقيادة الوزير الاعظم علي باشا الذي لقي مصرعه في المعركة ان يقمع الاضطرابات التي اشعلها اسماعيل الصفوي في اجزاء من الاناضول. واستطاع بايزيد ان يعيد السلام والامن اليها بعد طغيان طائفي مروّع... في حين كانت الدولة التيمورية قد ضمت مع الاسر الصغيرة الحاكمة الى حكم الصفويين، مستمدة نفوذها تحت ظل العرش الصفوي. وكانت الدولة العثمانية تنظر بعين الريبة والرصد لما كان يجري هناك على اطرافها الشرقية من التحركات العسكرية الايرانية، والسيطرة على الاقاليم الاستراتيجية المهمة، ثم التحرشات المتعمدة على الحدود، مما جعل بذرة الصراع تنمو بين الطرفين يوما بعد آخر، ثم يقوى ويشتد أوار هذا الصراع بين الدولتين على جبهة لها امتداداتها الطويلة، وطبيعتها القاسية في القسم الشرقي من آسية الصغرى.

كانت العلاقات بين الجانبين في اواخر عهد بايزيد الثاني ١٤٨١-١٥١٢م، تاخذ طابع المدّ والجزر. وعلى الرغم من نجاحات اسماعيل الصفوي التي اكتسبها بعد ضمّه المناطق المذكورة آنفاً فانه تورط في عمليات القتال بصورة كبيرة، وعلى الاخص من تخوم خراسان، ولكنه استفاد في عملياته تلك، من الناقمين واللاجئين من ابناء بعض الاقاليم العثمانية.

٢ / جذور العلاقات العثمانية- الايرانية ومنشأ الصفويين:

يمتاز حكم بايزيد الثاني بالركود السياسي والعسكري على المستوى الاستراتيجي. وخلال عهده كانت امبراطورية تيمورلنك قد تفككت وانهارت، واستفاد التركمان من ذلك التفكك بتأسيسهم لدولتين تركمانيتين، هما:

١. الدولة البارانية (دولة الخروف الاسود = القرة قوينلو) التي حكمت مناطق اذربيجان - العراق للفترة ٧٨٢- ٨٧٣هـ/ ١٣٨٠-١٤٦٨م.

٢. الدولة البايندرية (دولة الخروف الابيض =الاق قوينلو) التي حكمت مناطق ديار بكر وشرقي الاناضول واذربيجان للفترة ٧٨٠-٩١٤هـ/١٣٣٨-١٥٨٠م.

بلغ نفوذ الدولة الأولى في النصف الأول من القرن الخامس عشر درجة كبيرة، وكانت عاصمتها تبريز، وكانت قد باركها تيمورلنك، اذ امتلكت اراضي واسعة فضلاً عن معادلتها لدولة المماليك في كل من مصر وبلاد الشام، وكانت متنفذة من خلال سلطتها الشاملة على بلاد فارس، ومن اشهر امرائها: اوزون حسن الذي انزعج من احتلال السلطان محمد الفاتح لامارة طرابزونده، واعلن الحرب على العثمانيين، ولكنه هزم، وتحالف مع جمهورية فينيسيا (= البندقية) ضدّ العثمانيين، ولكنه فشل وهزم امام السلطان محمد الفاتح في سنة ١٤٧٢ - ١٤٧٣م في موقعه پايرت، وقد فتحت هذه الهزيمة الباب على مصراعيه امام العثمانيين لدخول بلاد فارس، ولكن الفاتح لم يجازف في ضم تلك البلاد الى دولته الكبرى.

افتقرت كل من الدولتين التركمانيتين الى الاوضاع المستقرة، فبعد وفاة اوزون حسن كانت الاضطرابات الداخلية تكاد تمزق الدولة عام ١٤٧٣م، ونتيجة للمشكلات العثمانية - العائلية لم يستغل البلاط العثماني هذه الاضطرابات، للقضاء على دولة (الأق قوينلو) البايندريين، ولكن قضى عليها بظهور أسرة حاكمة جديدة في بلاد فارس، هي الاسرة «الصفوية» التي نشأت اولا في اذربيجان، ونسبت الى مؤسسها الشيخ: اسحاق صفي الدين الذي اوجد حركته بعد هزيمة العثمانيين في معركة انقرة عام ١٤٠٢م. وفي منتصف القرن الخامس عشر، اصبحت الحركة الصفوية حركة طائفية دينية قوية يتبوأ زعامتها الشيخ جنيد الصفوي الذي كساها بالغلو السياسي والخطط المنظمة، ليأتي من بعده ولده الشيخ حيدر الذي نظم الحركة واستحدث جماعات «العمائم الحمراء» للدفاع عنها، وقد اسماهم العثمانيون بذلك (= اي القزلباش) ترك حيدر ثلاثة ابناء كان الشاه اسماعيل الصفوي احدهم، ويعد هذا الاخير هو المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية*

اتخذ الصفويون تبريز عاصمة لدولتهم الجديدة، وقد بدأت تتوسع على يد اسماعيل في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر، واخذت تتوسع على حساب الاراضي الايرانية. وتعد الدولة الصفوية من ابرز الدول في

---

* ان احدث الكتابات التاريخية عن ايران الصفوية نجدها في
R.Savory, Iran under the Safavid, Cambridge, 1980.

تكوين ايران الحديث، وقد انتهت حياة هذه الدولة في العقد الثامن من القرن الثامن عشر، حيث عاشت حوالي (٢٨٥) سنة.

ونستطيع ادناه جدولة الدول والانظمة التي عاشها التكوين التاريخي لايران*. من خلال التواريخ الطويلة التي عاشتها الدولة العثمانية في تركيا والاقاليم الاخرى، على الرغم من تداخل بعض العهود التاريخية ببعضها الآخر:-

١- المظفريون ــــــ ١٣١٤-١٣٩٣م

٢- الجلائريون ــــــ ١٣٣٦-١٤٣٢م

٣- التيموريون ــــــ ١٣٧٠-١٥٠٦م

٤- القره قوينلو ــــــ ١٣٨٠-١٤٦٨م

٥- الآق قوينلو ــــــ ١٣٧٨-١٥٨٠م

٦- الصفويون ــــــ ١٥٠١-١٧٨٦م

٧- الافشاريون ــــــ ١٧٣٦-١٧٩٥م

٨- الزنديون ــــــ ١٧٥٠-١٧٩٤م

٩- القاجاريون ــــــ ١٧٧٩-١٩٢٤م

١٠- البهلويون ــــــ ١٩٢٤-١٩٧٩م

هذه التركيبة التاريخية شغلت مساحة من ازمنة (= عهود) متعددة في تاريخ ايران، واجهها العثمانيون بتركيب تاريخي واحد وزمان واحد وعصر واحد، ولكن الصراع بين العالمين استمر فعالاً ومحتدماً مرة وبارداً خابياً مرة اخرى على مدى اربعة قرون من تاريخ الطرفين اللذين اشتركا اشتراكاً فعالاً في ترتيب العلاقة التاريخية بينهما وبين العرب في العصر الحديث. وها نحن اولاء نفصل قليلا في الحركة الصفوية وعوامل الصراع العثماني الايراني:

---

* من اجل التعرف والالمام باعمار الدول الاسلامية وعهودها التاريخية، احيل القارئ الى:

- C.E. Bosworth, The Islamic Dynasties: a chronological and genealogical hand book, Edinburgh Univ. Press, 1980.

- Jere L. Bacharach, A Near East Studies Hand book, Univ. of Washington Press. Seattle and London, 1977.

٣/ عوامل الصراع العثماني – الايراني:

يعد عهد بايزيد الثاني فترة انتعشت خلالها الآمال الاوروبية واستتباب السلام النسبي بعد حروب التوسع والسيطرة التي جرت على عهد محمد الثاني الفاتح. ١٤٥١ - ١٤٨١م، وضم الاخير للبوسنة والهرسك (صربيا)، والبانيا، وجنوبي اليونان، وبعض تخوم كرمانيا في شمالي البحر الاسود.

كان سليم، الابن الاصغر لبايزيد الثاني حاكما على اقليم طرابزون، وقد اعتلى عرش الدولة سنة ١٥١٢م/٩١٨هـ بعد أبيه الذي حكم لاكثر من ثلاثين سنة. وقد ظهر جلياً ان الدولة كانت بحاجة الى رجل قوي يحكمها. ولكن عهداً من العلاقات السلمية والدبلوماسية قد بدأ مع عهد سليم الأول متمثلة بإقامة السفارات في اسطنبول وادرنه بول لكل من فينا وهنغاريا وروسيا. فشغل سليم عن مواجهة اوروبا وارسال الحملات عليها، بالالتفات الى الجبهة الشرقية، وبدء عمليات الصراع المسلح ضد ايران الصفوية، اثر المواقف الملتهبة تحت الرماد بين الطرفين ... وبدت مجريات أمور ما قبل اشتعال فتيل الحرب، داعية لقلق جميع الاطراف والفئات السكانية في مختلف الاماكن..

يعد عهد السلطان سليم الاول ١٥١٢ ١٥٢٠م هو البداية الحقيقية لنمو الصراع العثماني الايراني سياسياً وعقائديا واقتصاديا وحربياً، وهناك عوامل عدة افضت الى بلورة ذلك الصراع، منها

١- **العامل السلطوي:** الذي تجسد بتنازع أسري بين العائلتين الحاكمتين (العثمانية / الصفوية)، اذ كانت حماية البيت الصفوي لعشرات المنهزمين من أفراد البيت العثماني الحاكم وكانوا قد فرّوا من ظروف الإبادة التي تعرضوا لها في بدء حكم سليم الأول.. فكان ذلك بمثابة عامل مباشر في انفجار الازمة التي كانت قد نضجت بتاثير نوازع ومسببات أخرى

٢- **العامل الطائفي:** لقد كان لانفجار الحركة الطائفية الصفوية التي اشعلها الشاه اسماعيل في بث مذهبه عنوة، وتوسعاته السياسية من اجل تثبيت غاياتها، اثارة واضحة ليس فقط للحفيظة الدينية العثمانية، بل كان ذلك عاملا فعالا في تغيير الاستراتيجية السياسية للعثمانيين، وتوجيه انظارهم نحو آسيا الغربية (المشرق العربي)، بعد ان كانت أوروبا الشرقية شغلهم الشاغل، وبذلك بدأ:

أولى حلقات النزاع المزمن بين العثمانيين والصفويين. ويرى المؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي: ان هذا النزاع ادى الى ظهور عالمين متنافرين في تاريخ المنطقة*.

تنتسب الحركة الصفوية الى الشيخ صفي الدين ١٢٥٢ - ١٣٣٤م، الذي عاش في اردبيل، وكان من المتصوفة الغريبي الاطوار. وعند اواسط القرن الخامس عشر، انتقلت تلك الحالة الصوفية الى نزعة طائفية مؤثرة في المجتمع التركماني، شمال غربي ايران. وكان الصفويون قد خدمتهم ظروف سياسية وانثربولوجية معينة، باستغلالهم الآلاف من الرعاة المتجولين، وساندتهم سياسة اوزون حسن، ذلك الحاكم التركماني لدويلة (الاق قوينلو = الخروف الابيض) في شرقي الاناضول، والذي حكم للفترة ١٤٥٣-١٤٧٨م.

وتشكلت على ايدي الصفويين نواة قوى القزلباش، أي: اصحاب العمائم الحمراء والتي ميّزتهم عن غيرهم في مجتمعهم، وكشعار خاص ميزهم عن غيرهم من المجتمعات المجاورة ... وكان جلّهم من الغلاة التركمان، وبرزت الدولة الصفوية، بعد قضائها على القوى الاقليمية المجاورة. فغدت دولة قوية متزعمة للحركة الطائفية** التي وجدت الشعوب الايرانية المتنوعة فيها تحولا يملأ فراغها التاريخي وامتداداتها الجغرافية الواسعة!

هكذا، غدا الشاه اسماعيل الصفوي بعد ذلك مارداً مقدساً، وبدأ ينهض بمشروعه التوسعي على حساب الاراضي والاقاليم الاستراتيجية العثمانية في شرقي الاناضول. وعليه، فمن وجهة نظر المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي. فان الشاه اسماعيل يتحمل وحده مسؤولية الانقسام التاريخي.

٣- **العامل السياسي**: ان للخلاف التركي - الفارسي، أسبقيات سياسية في تاريخ المنطقة، تخبرنا به طبيعة العلاقات الثنائية الساخنة بين الطرفين على مدى

---

* C.F.A.J.Toynbee, Astudy of History, Vol. I, Oxford, 1934, pp. 385-6.

** انظر التفاصيل في

Sir P. Sykes, A History of Persia vol. II, London, 1930.

احقاب عدة، وقد وصلت ذروة ذلك الخلاف السياسي في عهد الشاه اسماعيل الصفوي الذي شكلت طموحاته السياسية في بناء «امبراطورية» شاسعة الاطراف على غرار الدولة العثمانية في مكتسباتها القوية، سبباً أساسيا في تفجير المواقف، فضلاً عن ان الشاه بدأ يستغل الصراعات العثمانية الاوروبية لصالح علاقاته السلبية مع العثمانيين.

وقد قرر اسماعيل الصفوي مدّ النفوذ السياسي الايراني الى الاراضي العثمانية الممتدة في شرقي الاناضول لتوسيع رقعة دولته غرباً، وبدأ العثمانيون يفسّرون ذلك بأنه تهديد سياسي فعّال، فضلاً عن مجموعة التهديدات العقائدية والاقتصادية التي تواجههم، فأخذوا بالعمل للتحدي والمواجهة الحربية، خاصة وان المناطق الشاسعة من املاكهم الشرقية كانت معرضة للخطر، لا سيما بعد الامتدادات الصفوية في الاراضي العراقية. ففي شتاء عامي ١٥٠٨ - ١٥٠٩م، استولى الشاه اسماعيل على عربستان والعراق.. ولم تنفع مناشدة السلطان بايزيد الثاني للشاه اسماعيل التوقف عن اجراءاته السياسية والعسكرية.. وقد أوعز السلطان العثماني لكل من مماليك مصر وتركمان اوزبكستان فيما وراء النهر... ولم تنفع ايضاً المقاومة الاقليمية - المملوكية لحاكم حلب امام نشاطات التسلل الصفوي، ولا كذلك هجمات تركمان الاوزبك الشاغلة لحركات الصفويين الفعالة القوية ولكن؟

بقيت التحركات الصفوية - السياسية نشيطة في الاوساط التركمانية - الاناضولية، اذ كان باستطاعة احد الصفويين واسمه شاه كولو استغلال سخط تلك الاوساط للقيام بثورة كبرى في انطاكيا سنة ١٥١١م (أي قبل مجيء سليم الأول للحكم بأشهر) وارسال دعاته الى قلب الاناضول، مستغلاً الانقسامات السلطوية في البيت العثماني الحاكم؟ والنزاع العائلي الذي نشب بين ابناء بايزيد الثاني، فكانت النتيجة ان وقع معظم وسط وجنوب شرقي الاناضول بيد شاه كولو، مما دعا السلطان بايزيد الى ارسال جيش انكشاري قوامه ٨٠٠٠ مقاتل، هزم الصفويين، فقتل شاه كولو وانهارت بذلك قوته وحركته السياسية، وفرّت بقايا القزلباش الى ايران الصفوية.

لقد كان ذلك الاحتدام الأول بين الصفويين والعثمانيين مبعثاً لتولي سليم الأول العرش، اذ ناصرته القوى الانكشارية، فارغم بايزيد الثاني على التنازل بعد ان لمع دور ولده الاصغر سليم الذي كان قد قاد عمليات ناجحة ضد الصفويين.. ناهيك عن خططه المركزية والاستراتيجية، ودعمه الكبير للانكشارية، وتجديده للسلطة العثمانية، ومراكز القوى السياسية العثمانية، بالتخلص من اخوته، وتأمين حياة الدولة من خلال توجهه للتعامل مع القوى السياسية الكبرى في شرق الامبراطورية، وتأمين جبهاتها الغربية بعقد الاتفاقيات الدبلوماسية مع البندقية (=فينيسيا) وهنغاريا على نحو خاص.

اما الدور السياسي للمماليك كأكبر قوة في المنطقة العربية المجاورة للعثمانيين والصفويين ، فكان يتمثل بالتحول من دور المراقبة الى الانزعاج لما انطوت عليه التحركات الصفوية ليس ضد العثمانيين حسب، بل لأنها كانت موجهة ايضاً ضد ممتلكاتهم في بلاد الشام والحجاز، فعقدوا حلفاً سياسياً رسمياً مع العثمانيين ضد اسماعيل الصفوي عام ١٥١٣م، أي بعد عدة اشهر من تولي سليم الاول السلطة* .

هكذا تبلورت الاوضاع السياسية جميعاً ضمن هذا العامل الخطير، لكي يبدأ السلطان سليم الاول عمليات الصراع العثماني ضد ايران الصفوية.

٤- **العامل الاقتصادي:** على الرغم من ان بذور الصراع بين الطرفين قد نمت قبل عهد السلطان سليم الاول ١٥١٢م - ١٥٢٠م، فان فترة حكمه شهدت عدة تجديدات في البيروقراطية العثمانية، والحرف والاعمال التقنية السائدة في الدولة عصر ذاك وتطورها، على النحو الذي جعل الدولة تكثر من مطاليبها. فالحصار التجاري الذي فرضته الدولة العثمانية على اعدائها كان فعالاً في استعمالاته للاسلحة في الحرب التي خاضتها ضد الدولة الصفوية، وهذا ما كان يهدف اليه السلطان سليم في ان يحول دون ان ينال الايرانيون عدة الحرب المتضمنة النحاس والحديد، وكذلك من خلال منع تجارة الحرير التي استهدفت تخفيض مدخولات الشاه ومطاليبه، إذ كانت احدى اقوى مصادر ايراداته ، فلقد كانت ايران تعتمد تجارة الحرير في صادراتها الى الغرب الذي يقوم بمقابلتها

---

* انظر د. محمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني ط١، بيروت ١٩٨٢، ص ٧٨، ٧٩.

بالذهب والنحاس كايرادات رئيسة في استراتيجيته الدولية وقتذاك. وقد أثّر الحصار التجاري هذا قليلاً منذ ان شغل التجار في بداية الامر عن مسالكهم عبر حلب- الاسكندرونة في حين رصدت مواضع ديار بكر والموصل ومسالكهما التي كانت تحظى بالخطوط الاستراتيجيته الفعالة المهمة ... وهذا ما تم بعد ذلك من الاستحواذ والتحكم في السيطرة على مسالك اخرى فضلا عن خط البصرة ← بغداد ← الموصل الذي يقطع عمق وادي الرافدين نحو البحر (الخليج العربي الذي يعد الباب الطبيعي الجنوبي للمسلك العمودي) ... في حين كانت حلب هي النهاية الرئيسية للمسلك الافقي تبريز ← ارضروم، وقد استمرت فعاليتها حتى القرن الثامن عشر.

اما الموصل فقد بقيت مستمرة في علاقاتها الاقتصادية بمختلف الاقاليم، ومحتفظة بنافذتها المفتوحة نحو الشرق والغرب، وذلك لتحكمها بالمسالك الافقية والعمودية حتى فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩م، حين تحولت عنها التجارة الدولية، وكاد ينعدم مسلكها الافقي، فتأخرت اقتصادياتها، في حين يقوم مسلكها العمودي نحو بغداد حتى يومنا هذا في وقفاته وتخطيطاته.

لقد أثر الحصار التجاري على حركة التجار الذين تحولوا جنوبا في تكتيكاتهم التجارية الا انهم لم ينالوا حريتهم، فعلى سبيل المثال: قام أهل البلقان بابعاد تجار الحرير من الايرانيين من مدينة بورصة، من جهة اخرى استطاع سليم الأول أن يصادر البضائع الايرانية من جميع التجار الدوليين الذين ارسلهم الى الجانب الاوروبي من امبراطوريته (= روميليا). هذا ولا يمكننا ان نتغافل ونحن نبحث في المسببات الاقتصادية تمتع المدن والحواضر الساحلية على شريط البحر المتوسط، وهي مدن عربية لها اهميتها وفعالياتها في تجارة التوابل ابتداء من الاسكندرونة في الشام حتى الاسكندرية في مصر، وذلك قبل اكمال مشروع السيطرة العثمانية عليها، اذ كان تعامل تلك المدن والموانئ العربية تجارياً تعاملاً كبيراً مع أوروبا وخاصة مع الموانئ الايطالية*.

---

* التفاصيل في . د. سيار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث...سبق ذكره، ص ٣٣٣-٣٣٤.

٤ / معركة چالديران: بداية الصراع البرّي:

في مستهل عام ١٥١٤م، بدأ سليم الأول مساعيه في قتال الشاه الصفوي، بعد تجهيزه لجيش جرار وأسلحة نارية، ومضى بذلك الجيش نحو الشرق، فزحف نحو مقاطعات. أزنيق وآق شهر وقونية وقيسارية حتى أرضروم، وفي ٢٢ آب / اغسطس ١٥١٤م، وعند موقع اسمه جالديران، شمال شرق بحيرة وان، اندلعت الحرب بين الطرفين، ثم تشتت الصفويون، وانهزم الشاه اسماعيل من المعركة، وحقق سليم بقواته الانكشارية انتصاراً كبيراً، وقتل الآلاف من القزلباش.

زحف سليم نحو العاصمة تبريز، فدخلها مظفراً مبتهجاً بالنصر في ساعات قلائل، ولم يفلح في البقاء فيها، إذ لقي معارضة من امراء جيشه الذين كانوا سبباً في منعه من التقدم والزحف في أعماق الاراضي الايرانية. كان جيشه يمرّ بظروف صعبة، اذ واجه نقصاً في المواد الغذائية، فغدا متعباً، ثم تفشّى فيه المرض، وكان قد خسر بعض قواده في معركة جالديران.. فرجع سليم دون ان يعقد صلحاً مع الشاه الصفوي ساحباً جيوشه التي انهكها الجوع والمرض وقساوة برد الشتاء، وقد فقدت الآلاف من مقاتليها... اذ اختار سليم التوسع على حساب ارمينيا، كما وبدأ يصفي علاقاته مع امارة ذو القدر أو الامارة القادرية.

كان من نتائج معركة جالديران ان اثيرت مخاوف المماليك الذين كانوا يحكمون مصر وسوريا، وعلى الرغم من كسر شوكة الصفويين، فان كيان ايران الصفوي والمتالف من اقاليم وشعوب عدة بقي بعيداً عن الامتدادات العثمانية مقارنة بما جرى بعد ذلك بسنوات قليلة في الوطن العربي.

٥ / السلطان سليم والامتداد نحو إقليم الجزيرة الفراتية:

كان السلطان سليم الأول مرغماً على أن يجلو عن ايران، ويبدأ بضمّ أرمينيا وجورجيا وكوردستان وبلاد الجزيرة... وبعد ان حقق نجاحات بالغة في السيطرة وصل مدينة أماسية وعسكر فيها، وستصبح هذه المدينة محطة للتحركات العسكرية ضدّ الصفويين... وكان العراقيون في حالة استياء شديد ضد الصفويين، ولكن جيوشه لم تمتد نحوهم ... وفي أماسية، انتدب السلطان سليم الأول مستشاره الشيخ ادريس البدليسي مرات عدة للعمل على اثارة الامراء

الاكراد ورؤساء العشائر وحكام المقاطعات.. على حكم الشاه الصفوي ومهاجمة حامياته القوية، فبدأ البدليسي في أعماله، ونجح في مهامه تلك، وقد ساعدته في ذلك، الولاية الدينية التي كان يحمل لواءها، فضلاً عن الاساليب الدوبلوماسية التي اتبعها مع اقطاب المجتمع. أما سكان تلك المناطق من بلاد الجزيرة وكردستان، فقد كانوا ينتظرون جميعاً الخلاص من الحكم الصفوي.

بدأت المدن المهمة في تلك المناطق تثور الواحدة تلو الاخرى، اذ ثار أهالي ديار بكر وطردوا نائب بلدتهم، وهذا ما حدث ايضا في مدينة تبليس وقلاع حصن كيفا وسعرت فضلاً عن أقاليم أرزن وكرزان وساسون وبالو.. واستردت قلاع اكيل وعتاق وميافارقين، وانتفضت جزيرة ابن عمر وطورد الفرس الى اصقاع بعيدة، وامتدت آثار تلك الحركات التطهيرية حتى مدينتي كركوك وأربيل، وبدأ أمير السوران يثير القلاقل.

ومن ناحية أخرى، لم ينس السلطان سليم ذلك الموقف الذي اتخذه علاء الدين ذو القدر حاكم الامارة القادرية، فوجّه حملة نحو كليكيا، فنجح الجيش العثماني بالقضاء عليهم، وملك العثمانيون مرعش وبستين وعين تاب وملاطية، فانقرضت تلك الامارة التي وقفت حجر عثرة أما العثمانيين في تعاملها مع الفرس الصفويين تارة ومع المماليك في بلاد الشام تارة أخرى، فضلاً عن تحالفاتها الغربية.

يتضح لنا أن العمليات العثمانية قد نجحت اثر انتصار جالديران في كسر الطوق الصفوي ، وإثارة السكان من خلال الشيخ البدليسي الذي اضطلع بدور بارز في اثارة مشاعرهم، في حين لم يتدخل جيش سليم في أية عملية حربية باستثناء قضائهم على القادريين.. وأحسّ سليم انه قد نجح في تأمين تلك التخوم المستعصية والفاصلة بين الاناضول والوطن العربي. وفتح سكان المدن الثائرة الابواب للسلطان العثماني، في حين استعصت بعض المدن والقلاع نظراً لفعالية الحاميات الايرانية فيها.

١- الاسترداد الايراني وعمليات حربية أخرى:-

بدأ الصفويون يستعيدون قواهم العسكرية، وينظمون جيشهم، وبدأوا إرتداداً مثيراً متمثلاً بحملات عسكرية منظمة على مراكز السيطرة العثمانية وحاميتها على محور أذربيجان – تبريز وعلى محور كردستان – بلاد الجزيرة

الذي تساقطت فيه المدن والقلاع تباعاً اثر جهود البدليسي. لقد جرّد الشاه اسماعيل عدّة حملات ضد سليم، كان من بينها حملة وجهها الى ديار بكر بقيادة «قرة خان» شقيق حاكمها السابق الذي قتل في جالديران، فحوصرت المدينة حصاراً شديداً، فدافع أهلها دفاعاً منقطع النظير، واستنجدوا بالسلطان العثماني الذي كان من أماسيه، فأرسل لهم قوة عسكرية وصلت وشقّت صفوف المحاصرين لديار بكر بمهارة ودخلت قلعتها.. هذا فضلاً عن الحشد الذي جمعه البدليسي من قوات بتليس وكيزران ومكس وساسون، واستطاع ان يباغت فعلاً القوات الايرانية التي كانت في طريقها لنجدة قرة خان في منطقة تدعى أرجيش.

دام حصار ديار بكر سنة ونيفا، مات خلاله حوالي ١٥ ألفاً من السكان، وفي الوقت نفسه، دخل سكان آمد في طاعة السلطان سليم عندما قضوا على الصفويين، فنصّب عليهم محمد بيك بيقللي الآمدي (الباشا فيما بعد) ومنذ وصوله آمد بدأ عمله المشترك مع البدليسي، وكان البيقللي أو بيكلر بكى عثماني لديار بكر. وغدت المنطقة المنحصرة بين خربوت وآمد تحت الهيمنة العثمانية التي وقفت على رأسها او ستة غة أوغلو... ووقف على رأس الجميع فرهاد باشا القائد العام للجيش العثماني ضد الصفويين.

التقى البدليسي بالبيقللي في حصن كيفا للعمل على فك حصار ديار بكر، وكانت القوات المشتركة قد بدأت بالزحف نحوها، فتخلّى قره خان عن محاصرتها. ثم تمّ الزحف نحو ماردين التي سقطت بسهولة إثر مفاضات مع أهاليها، ولكن حاميتها الايرانية تحصنت بقلعتها المنيعة، فأرسل سليم الأول قوة عسكرية أخرى بقيادة خسرو باشا فالتحمت بقوات البدليسي والبيقللي في ربيع سنة ١٥١٦م/ ٩٢٢هـ.

عزّز الايرانيون مواقعهم الجنوبية لامتداد يصل حتى سنجار، وظهر أن القوة العثمانية المتحالفة تحاصر الصفويين من أجل المواجهة الحقيقية بين الطرفين.. في حين كان المماليك في مصر والشام يترقبون الاحداث الاقليمية. أما السلطان سليم فكان ينتظر نتائج تلك المواجهة كي يبدأ بفصل جديد في حياته السياسية ليس باتجاه الفرس الصفويين هذه المرّة، بل باتجاه مماليك القاهرة.

٢- معركة قرة غين دده* الفاصلة ونتائجها:-

انضمت التشكيلات العسكرية للقواد الثلاثة خسرو باشا وبيقللي باشا والشيخ البدليسي، وتوحدت فصائلهم، فكان جيشاً عثمانياً أثمرت عملياته عن نتائج مهمة في حسم الموقف الاقليمي لصالح سليم، وفي بداية الأمر أرسلت قوة مؤلفة من ٤٠٠٠ مقاتل، فالتقت الاعداء، ودارت معركة ضروس لم يسلم فيها من الجند العثماني الا ألف رجعوا منهزمين أمام الايرانيين. وربما أراد العثمانيون إختبار قوة الصفويين، وبدأ فصل المواجهة بين القوات العثمانية وجيش الصفويين في تلك الاقاليم بقيادة قره خان، وعلى مقربة من قوج حصار الواقعة بين اورفة ونصيبين من شهر مايس ١٥١٦م.

كان الجيش العثماني يتألف من قوة خسرو باشا على الميمنة، وقوات البدليسي على الميسرة، وقوات البيقللي في القلب، فدارت رحى معركة عنيفة غاية في الضراوة وهي الثانية في مواجهة قره خان الذي اصيب برصاصة أردته صريعاً، فوهنت قواته، وتفككت عدته، وانهزم جنوده شرّ هزيمة وقد أسميت هذه المعركة بمعركة «قره غين دده» نسبة إلى مكانها الواقع في جنوبي ماردين.

قادت هذه المعركة إلى نتائج مهمة، وأفضت بوجه خاص إلى سيطرة العثمانيين على إقليم بلاد الجزيرة وشمال غرب العراق قاطبة بجميع مدنها وقلاعها وأراضيها، وقد إستعصت قلعة ماردين فقط بعد أن خضعت مدينتها، إذ أبى سليمان خان– وهو أخو قره خان– أن يسلّمها، فدام الحصار العثماني لها سنة كاملة، وكان السلطان سليم قد افتتح حلب آنذاك، فأرسل بقوة كبيرة أسقطت القلعة بعد معركة طاحنة مزّقت الايرانيين.

لقد توالى خضوع المدن والقلاع بعد معركة قره غين دده الاستراتيجية، إذ سقطت كل من: أرجاني، وسيفرك، وباريسيك، وحصن كيفا وميافارقين، وسعرت، وديار بكر. ونصيبين، والموصل، وحصن سوران، وأورفه وكركوك

---

* تذكرها المصادر الاوروبية القديمة والحديثة باسم «كار كانديد» وهكذا جرت تسميتي لها في كتاباتي التاريخية السابقة، وبعد التحقق من المصادر التركية القديمة وجدت ان اسمها القديم هو «قره غين دده»!

وإكتسبها العثمانيون، ثم تتابع سقوط: جيرميك، وارغني، وعتاق، وبتليس، وهزن، وأورمايا، وجزيرة ابن عمر والعمادية.. فضلاً عن حران والفرات الاوسط إمتدادا من سنجار وتلعفر والبادية حتى عنه وحديثة وهيت وغيرها.

كان سقوط المناطق الآنف ذكرها من بلاد الجزيرة الفراتية بعد مايس ١٥١٦ مباشرة وتعد من أول المناطق العربية التي سقطت بيد العثمانيين، وخاصة مدينة الموصل التي هي قاعدة هذا الاقليم الفاصل بين الوطن العربي والاناضول التركي. وكان لجهود الشيخ البدليسي الاثر البالغ في تقدم الهيمنة العثمانية وفاعليتها. على إمتدادات مختلفة من اقليم الجزيرة الفراتية.. وإستطاع سليم الاول أن ينقل حدوده السياسية من سيواس وأدنة إلى تخوم الموصل وأرارات*.

إن مجمل التحركات الحربية والسياسية لقوى سليم الاول في الجبهة الشرقية من دولته، وخلال أربع سنوات من عهده، يوضح لنا مقدار ما أنجز من عمليات ضخمة كان من نتائجها السيطرة على اجزاء مركزية واستراتيجية من دواخل الوطن العربي.. وقد جاء ذلك مترافقاً في الزمان والمكان معاً وعلى النحو التالي:-

(١) المحاور الجغرافية لما بعد معركة جالديران في ٢٣ آب اغطس ١٥١٤م:

١- خط تبريز- «اريفان-» كرباغ سنة ١٥١٤م.

٢- خط أماسيه- «كياخ-» سنة ١٥١٥م.

٣- خط ديار بكر -«ماردين-» الموصل (= شمالي العراق) سنة ١٥١٦م.

(٢) المحاور الجغرافية لما بعد معركة مرج دابق في ٢٤ آب / اغسطس ١٥١٦م:

* راجع التفاصيل في: د. سيار الجميل، «دراسات في السيطرة العثمانية على الموصل وإقليم الجزيرة سنة ١٥١٦م وبدايات الصراع العثماني - الايراني (الصفوي) في عهد السلطان سليم الاول»، مجلة بين النهرين، العددان (٣٠) و (٣١)، الموصل، ١٩٨٠.

وانظر مادة «سليم الاول» في الانسكلوبيديا الاسلامية:

The Encyclopedia of Islam, I st ed., IV, pp 214-7

وراجع ما كتبه ڤون هامر بور جشتال ولونكريك ودونالد بيتجر.

٠١ خط حلب ←دمشق ← القدس ← غزة ← خان يونس سنة ١٥١٦م.

٠٢ خط مصر : الريدانية ← القاهرة ← الاسكندرية سنة ١٥١٧م.

لندرس الآن تاريخية عمليات السيطرة على المحاور الجغرافية لكل من بلاد الشام (سوريا / لبنان / فلسطين) ومصر، وذلك من خلال صراع العثمانيين مع المماليك .

٦/ الخطط العسكرية العثمانية - البرية في الوطن العربي:-

٠١-٦ الصراع مع المماليك: العلل والمسببات:

كانت جيوش السلطان سليم الأول قد سيطرت على أقاليم كبرى في شرقي الاناضول كاذربيجان وأرمينيا، وذلك خلال الفترة الزمنية المنحصرة بين معركتي جالديران وقره غين دده، أي بين آب / اغسطس ١٥١٤م ومايس/ ايار ١٥١٦م، وخاصة ابان الشهور الاولى من تلك الفترة التاريخية .. كان سليم قد عاد من العاصمة الارمينية ليفتح مدينة «كيماخ»، وكان قد وجّه أحد جيوشه ليزيل الامارة القادرية (= دولة ذو القدر) التي كانت تمتلك علاقات سياسية واقتصادية مع الصفويين من طرف، ومع المماليك الجراكسة من طرف آخر.

هكذا، أصبح الطريق منفتحاً أمام السلطان سليم الأول بين اريفان العاصمة الارمنية وحدود الوطن العربي، لكي يواجه المماليك الجيش العثماني بعد أن امتلك العثمانيون تلك التخوم العليا من بلاد الجزيرة الفراتية، والمدن المهمة، الموصل وأربيل وديار بكر ومرعش وبستين وعين تاب وملطية... وغيرها، ولكن سليماً لم يبدأ عملياته الكبرى في بلاد الشام، الا بعد سيطرته الكاملة على بلاد الجزيرة الفراتية وبضمنها شمالي العراق وتصفية كافة مناطقها من الجيوب الصفوية.

لقد نجح سليم الاول باستئصال قوة الصفويين، وبدأ يعمل باتجاه الانهيار المملوكي، وكانت الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام تعاني كثيراً سياسيا واقتصادياً من حركات الاساطيل البرتغالية في البحار الشرقية، ولاسيما البحر العربي والبحر الاحمر. فمنذ بداية عام ١٥٠٢م، والبرتغاليون يزرعون قواهم البحرية الشرسة في أماكن استراتيجية على طريق الهند، ونجحوا في تلك السنة من ترسيخ قوتهم في الهند، فتحكموا في المصالح الاقتصادية بين الغرب والشرق

بعد استكشافهم رأس الرجاء الصالح واستخداماتهم للمسالك البحرية البعيدة، فقل النفوذ الاقتصادي للمنافذ الاستراتيجية البرية العربية.

لقد انهار الاقتصاد المملوكي في مصر وبلاد الشام وبقية الاقتصاديات العربية الاخرى بفعل احتلال البرتغال لجزيرة سوقطرة في خليج عدن سنة ١٥٠٧م، ولمضيق هرمز في الخليج العربي سنة ١٥٠٨م. وعملت السيطرة البرتغالية على كل من هاتين المنطقتين الاستراتيجيتين على عدم التمكن نهائياً من نفاذ الاقتصاديات المملوكية من ناحية والعربية من ناحية أخرى. وكان موقف اسماعيل الصفوي ممالئاً للبرتغاليين بل وكان راغباً في مساعدة البرتغاليين، وتزويد سفنهم بالمؤن والذخائر مقابل دعمه واسناده ضد العثمانيين.

لقد استاء المماليك كثيراً نتيجة للتدهورات الاقتصادية، وخاصة بما لحق بمصالحهم الاقليمية، فاستجاب السلطان سليم الأول لمطاليبهم الأولى، اذ أرسل لهم أسلحة ومدافع وتجهيزات بحرية وسفنا قوية وبحارة مساعدين بغرض اعادة بناء الاسطول المملوكي، وتشكيل قوة بحرية مملوكية تصمد بوجه البرتغاليين في البحر الاحمر... اراد سليم ان يهيمن بذلك على المماليك، ويخلق حالة من توازن القوى البحرية في المنطقة العربية، وان يكسب دولة المماليك حيادها تجاه صراعه ضد الصفويين. ولا أحد يعلم ماذا كان يدور في ذهن سليم الأول.

كان الموقف السياسي مضطرباً جداً بعد الحملة العثمانية على الصفويين، وبعد انتصار سليم الأول عليهم في معركة جالديران عام ١٥١٤م، وما ان تأمنت جميع المنافذ والتخوم والمسالك الفاصلة بين الاناضول والاراضي العربية حتى تحرك الجيش العثماني عبر الاناضول في ربيع ١٥١٦م، وقد ساورت الشكوك المماليك من أمر تحرك ذلك الجيش وآلياته الحربية وعدته الكبرى وقيادته الامبراطورية، و لما تاكد لهم ان بلاد الشام هي غاية ذلك التحرك فقد حرّك المماليك جيشهم الرئيسي لمواجهة العثمانيين... وكانت قوى ذلك الجيش قد توغلت في جبال طوروس.

نصب خاير بيك قائداً للجيش المملوكي (الشامي)، على الرغم من كونه حاكماً لحلب وكان على اتصال سري بالعثمانيين، مرسلاً بعض موظفيه الكبار سراً يحملون رسائله بغية التعاون والمساعدة للسلطان سليم الاول، إن هو غزا بلاد

الشام، وما سيؤمن لهم من مداخيل ومناصب عليا إثر انتصاراته.. اما القائد العام لجيش دولة المماليك فكان سلطانها نفسه الاشرف قانصوه الغوري، وقد نجح سليم الأول في استدراج المماليك الى ساحة المنازلة باسلوب استراتيجي وبسياسة ذكية باردة.

تحرّك جيش سليم الاول نحو المقاطعات العربية (المملوكية)، وتوقف قرب ملاطية في يوم ٢٨ تموز/ يوليو ١٥١٦م، اي بعد قرابة شهرين من معركة قره غين دده الفاصلة ضد الجيوش الصفوية. لقد تتابعت السيطرة العثمانية للاراضي العربية الشامية وإنهيار القوى المملوكية بصورة متسارعة بعد استنزاف قواها وإمتصاص حيويتها إثر فرار عدد من القواد المماليك الكبار مثل خاير بيك وجان بردى الغزالي.. كما وإن السوريين من سكان البلاد قد نفروا من دعم وإسناد الجانب المملوكي المنهار.

٢- معركة مرج دابق ونتائجها:

نشبت المعركة الرئيسية الوحيدة بين العثمانيين والمماليك في سهل مرج دابق قرب حلب في يوم ٢٤ آب/ أغسطس ١٥١٦م، وقد كفل ذلك الانتصار العثماني الذي تحقق في تلك المعركة الفاصلة: الانضباط والاسلحة الجديدة وممارسة تدابير وخطط عسكرية ناجحة. لم يبق في ساحة المعركة الا الاشرف الغوري مع جيشه في الوسط بعد أن فرّت كل من الميمنة والميسرة لخاير بيك وجان بردى الغزالي، وكانت الهجمة العثمانية قوية جداً في حصد المماليك وسحق فلولهم، وخرّ الاشرف الغوري صريعا في ساحة المعركة.

اكتسح السلطان سليم الأول الاراضي السورية واندفع اندفاعا سريعا، فسيطر على مدينة حلب يوم ٢٨ آب/ اغسطس، وحماه في يوم ١٩ ايلول/ سبتمبر، ودمشق يوم ٢٧ايلول/ سبتمبر. ويعلمنا عدة من المؤرخين العرب القدماء، أن السكان العرب وحكامهم المحليين كانوا يرحبون بالجيش العثماني ويحتفون بمقدم السلطان العثماني الجديد، وبصورة لم يألفها اي فاتح عثماني من قبل في غزواته الكبرى والصغرى..في حين عادت فلول المماليك الى عاصمتهم القاهرة وقد نصبوا عليها سلطانا جديداً في يوم ١١ تشرين الاول/ اكتوبر. وهو طومان باي الذي نجح نجاحاً مبتسراً ومحدداً في اعادة تشكيل جيش مملوكي جديد في مصر.

لم يتـوقف السلطان سليم الاول في مكان واحـد من بلاد الشـام، بل سلك مسالك عدة للمرور في المدن الرئيسية واسترضاء الاهلين، فضلاً عن الاقاليم، واستقباله لرؤساء العشائر العربية، وكبار الجماعات الدينية للمسلمين، وغير المسلمين... وقد اطلق عليه العرب «خادم الحرمين الشريفين»، «فمهد الملك ويجري العدل والسياسة ويحسن الى العرب.. ثم توجّه الى افتتاح اقليم مصر، ودفع البؤس عنها» *.

٣– الامتداد نحو مصر بعد بلاد الشام:

عبر الجيش العثماني شبه جزيرة سيناء بتجهيزاته وعدّته ومدافعه في خمسة ايام، اي للفترة ١١– ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٥١٧م. وكان المماليك قد نصبوا طومان باي سلطاناً جديداً عليهم بعد مصرع الغوري، وسعى طومان باي لتكوين جيش مملوكي جديد يواجه به الزحف العثماني السريع على القاهرة. وكان السلطان سليم الاول قد زار بصورة شخصية وهو في طريقه الى مصر كلاً من مدينتي القدس والخليل، عاد بعد ذلك الى معسكره ليواصل تقدمه نحو خان يونس وغزة.. وقد احسن الى الرعايا في كل بلدة وقصبة وقرية مرّ بها..

كان المماليك الجراكسة قد تجمع جيشهم لصد العثمانيين عند منطقة «الريدانية» خارج القاهرة، واستعدوا بالمدافع والبارود لمواجهة العثمانيين، وقد اطلع العثمانيون على الخطط المملوكية من خلال استخباراتهم وجواسيسهم، فالتفوا حول جبل المقطم، وبدأوا بالهجوم المدفعي على الجراكسة من الخلف، والذين لم تنفعهم آلياتهم في وقت كان طومان باي يناضل بشراسة رفقة بعض مرافقيه. وقد قتل الوزير العثماني سنان باشا في ذلك اليوم... ولكن لم يلبث المماليك حتى تشتت شملهم، وهرب طومان باي الى البر ونزل على شيخ عربان من بني جذام عبد الدايم بن بقر.

دخل السلطان سليم الى مصر وأمّن الناس ما عدا الجراكسة الذين أمر بضرب رقابهم ورمي جثثهم في نهر النيل. لقد سحق المماليك الجراكسة في موقعة الريدانية بين سيناء والقاهرة خلال نهار واحد من يوم ٢٢كانون الثاني/ يناير

---

* انظر النهروالي: المصدر السابق، جـ٣ ٢ص ٢٧٨–٢٧٩.

١٥١٧م، وهلك الالاف من المماليك، اما الذين استسلموا بلا مقاومة فقد صدر امر العفو عنهم.. وقد سيطر الجيش العثماني على القاهرة في يوم ٢٥ من الشهر المذكور، وجعلها مركزاً حقيقياً للادارة الجديدة والحياة الاقتصادية.. في حين بدأ طومان باي بتنظيم قواته المتبقية ليقود حركة مقاومة عنيفة باسلوب حرب العصابات دامت معركتها ثلاثة ايام قاسية ذهب ضحيتها الآلاف من القتلى وتحطمت احياء كاملة من القاهرة. واستمر المماليك يدافعون عن وجودهم في مصر حتى الرمق الاخير وبعد مطاردات عنيفة في الدلتا ومصر العليا.

بدأ الحكم العثماني في مصر يترسخ يوماً بعد آخر، اما طومان باي فقد خانه مضيفه إذ وشى به عند السلطان سليم الاول، وقد احضره عنده في «مجلس الصحبة» وبدأ يستشيره في احوال البلاد، وقد اعجب السلطان بطومان وفكر أن يقلده نيابة مصر، ولكن سرت شائعات في القاهرة تقول باختفاء طومان باي وتنظيمه لجيش جديد يقاتل به الغزاة.. وبدأ المصريون يتحدثون عن شجاعة طومان باي، فبلغت هذه الشائعات اسماع سليم الاول، فأمر باخراجه تحّف به الانكشارية نحو باب زويلة حيث اعدم هناك في ١٣ نيسان/ ابريل ١٥١٧م، والناس من حوله يشيدون بروحه النضالية المقاتلة ونضال جماعته*..

لم يكن هذا الحادث التاريخي هو نهاية المماليك في مصر برغم حصارهم وانهيارهم واخماد جذوتهم، إذ سيبدأ سليم الاول بالاعتماد على خبرات من ايدّه منهم، وكان قد تقبل ولاءات رؤساء العشائر البدوية، كما وتسلم ولاء شريف مكة في ٣ تموز/ يوليو ١٥١٧م فنصبه سليم حاكماً على جدة والحجاز فضلاً عن مكة والمدينة، فوقع الحجاز بايدي العثمانيين دون قتال، وبدأت التطبيقات الادارية الجديدة فيه... وسيكون اقليم الحجاز منذ ذلك الوقت حلقة اتصال استراتيجية بين العثمانيين واليمن.

لقد زار السلطان سليم الأول مدينة الاسكندرية التي استسلمت لقواته طوعا، وبدأ تنظيم الادارة العثمانية في مصر، ثم قرّر العودة بجيشه الى الاناضول من

---

* من أبرز المصادر المعتمدة، انظر ابن اياس، بدائع الزهور، تحقيق : محمد مصطفى القاهرة ، ١٩٦٠.

غير ان يرفع يده عن بلاد الشام ومصر. في حين كان الاسطول العثماني قد شرع بالعودة الى العاصمة اسطنبول وعلى متنه المتوكل العباسي، ذلك الخليفة الشرعي الذي يمثل رمزاً دينياً مقدساً كان يعيش في ظل المماليك بالقاهرة. وكان بمعيته في الاسطول ٢٠٠٠ من كبار التجار والحرفيين والصنّاع والبنائين ورجال الدين، فانتصر سليم سياسياً بالسيطرة على قلب الوطن العربي، وحضارياً في جلبه للآلاف المؤلفة من الرجال المدربين العرب والفرس كي تدخل الخدمات الحضارية بوساطتهم الادارة العثمانية، ويؤثروا في بنيتها وعملياتها، وذلك بعد عودة الاسطول العثماني مباشرة ووصوله اسطنبول.

٧/ السيطرة على العراق:-

كانت الفوضى والاضطرابات تعم بغداد عند مطلع القرن السادس عشر، بعد وقوعها تحت حكم الصفويين، إذ سيطر عليها الشاه اسماعيل الصفوي سنة ١٥٠٨م/ ٩١٤هـ ثم سيطر على اجزاء العراق كافة محاولاً تأسيس كيان طائفي في قلب الخلافة العباسية وبعد عمليات قتل وهدم وحرق.. وهذا كله جعل السلطان سليمان القانوني يبدأ بالتخطيط لبدء صفحة جديدة من الصراع ضد الصفويين، وكانت حوادث الحدود بين الدولتين، الصفوية والعثمانية احد الاسباب المباشرة التي آذكت نار الحرب من جديد، فضلاً عن عوامل استراتيجية في الاستحواذ على اقتصاديات العالم من خلال السيطرة على العراق الذي كان يعد قلب العالم القديم ذلك أنه يربط خطوط التجارة بين اوروبا والشرق البعيد. في حين كان البرتغاليون يتحكمون في البحار الشرقية.

كان سليم الاول قد أمن امام ولده سليمان القانوني منطقة شمال العراق وبلاد الشام في سيطرته عليها. وتعد العوامل الاقتصادية والسياسية من ابرز الدواعي التاريخية في تفاقم الصراع الدولي والاقليمي على العراق ولواحقه واطرافه.

ابان بدايات العقد الثالث من القرن السادس عشر، انسلخ احد الولاة الصفويين واسمه «ذو الفقار» وكان منصباً على بغداد من قبل الشاه الصفوي.. وكان تمرّده بمثابة الضوء الاخضر لسلطنة اسطنبول، ودعوة لانقاذها بغداد والعراق الاوسط والجنوبي من النفوذ الايراني، وقد وأد الشاه تلك الحركة المتمردة عام ١٥٣٠م

بنفسه، فقضى على ذي الفقار وتم اغتياله.. وكان سليمان القانوني ينظر مترقباً اوضاع بغداد التي وصلته رسائل منها تطالب بانقاذها، وبدأت الاستعدادات العثمانية لخوض الحرب ضد ايران والسيطرة على العراق تقوم على قدم وساق.

اخترق الجيش العثماني بقيادة الوزير ابراهيم باشا الاناضولي، ووصل ديار بكر في يوم ١٤ ايار/ مايس ١٥٣٤م، وبعد اسابيع، استسلمت جميع المدن حتى نقطة «وان» فانفتح الطريق امام العثمانيين نحو تبريز العاصمة الصفوية والتي دخلتها القوات العثمانية دون اي مقاومة، وتركزت الحاميات التركية في اذربيجان الاستراتيجية.

لقد قاد السلطان سليمان القانوني جيشه العثماني الثاني، ولم يجد اية صعوبة في اثناء تقدمه نحو ايران. والتقى جيشه بجيش وزيره في تبريز، ثم مضى عنها ليدخل مدينة زانجان ثم مدينة سلطانية في يوم ١٣ تشرين الاول/ اكتوبر ١٥٤٣م.. ولم يلاحق الفرس اكثر في العمق الايراني وذلك لقسوة المناخ، فبدأ بالاتجاه نحو بغداد، فعبر جبال زاكروس الصعبة، ولاقى جيشه الكثير من المصاعب في البيئات الجبلية الوعرة، ثم غالبه الارتياح مذ اطل على سهول العراق المتموجة والمستوية..

كان الرأي العام في بغداد يميل الى استقبال القادم الجديد، مما حدا بالخان الايراني ان يفلت هارباً الى ايران، وتسلم السلطان مفاتيح بغداد في طريقه اليها.. ودخل الوزير الاعظم ابراهيم باشا بغداد دون مقاومة تذكر، في حين انتشر الجيش لينال قسطه من الراحة، ثم استعد الجميع لاستقبال السلطان سليمان القانوني وشاركه الجميع في دخوله بغداد العريقة. فكان دخولاً دون حرب ودون سفك دماء، وقد مضى شتاء سنة ١٥٣٤–١٥٣٥م كاملاً في العراق، مؤسساً الادارة الجديدة والنظام الضرائبي الجديد، والسياسة الاقتصادية للعراق.. وبدأ السكان وجميع الفئات الاجتماعية حياة جديدة، إذ بوشر باصلاحات في الري والعمران، وزار السلطان القانوني عدداً من الاماكن والمدن والعتبات المقدسة. ونصب الولاة الاتراك الجدد، وأسس الحاميات العسكرية، وطبق النظام الاقطاعي– العسكري.

هذه هي ابرز اعمال القانوني في العراق، لقد دخل جنوب العراق في طاعته بعد سلسلة من الاجراءات المحلية اذ تعاقبت السيطرة العثمانية على البصرة ثم القطيف والبحرين، في حين عاد الشاه الصفوي ليسيطر على اقليم اذربيجان مرة اخرى مما دعا السلطان سليمان القانوني لكي يوجه ضربة اخرى للصفويين من اجل استعادة تبريز. غادر القانوني بغداد في نيسان/ ابريل ١٥٣٥، وكان من نتائج حملته في السيطرة على العراق ان تلك السنة غدت حداً فاصلاً بين عصرين كاملين في تاريخ العراق وبدأ منها ما اصطلح على تسميته بـ«تاريخ العراق الحديث»، دخل العراق تحت سيطرة العثمانيين، ونقلت حدود دولتهم نحو الخليج العربي، وامتدت امبراطورية القانوني من هنغاريا والنمسا في قلب اوروبا حتى امارة شرقي شط العرب.

وكان من نتائج السيطرة العثمانية ايضاً أن بدا العراق، وحدة اقليمية مترابطة اكثر من ذي قبل، ولاول مرة في بدء حياة تاريخه الحديث خلال العقود الأولى من القرن السادس عشر، ونظمت ادارة العراق «قانونياً» ضمن نظام الشرق المعروف الذي اوجده القانوني نفسه، وبدأت الحياة العثمانية الاقليمية للعراق إثر تطبيق للخطط السياسية العثمانية.

لقد أنشد وثاق بلاد وادي الرافدين جغرافياً وتاريخياً، ولاول مرة بعد قرون عدة من التمايز الاقليمي.. كما وإن جهود سليم الاول وسليمان القانوني وعملياتهم قد حدت من نفوذ الصفويين وتوسعاتهم في الاراضي العربية، لكنها قبضت في الوقت نفسه على انفاس العراق الذي غدا مسرحاً للصراع التاريخي المزمن بين العثمانيين والايرانيين. في سبيل التحكم بمنافذه ومسالكه الاستراتيجية. اذ احكم العثمانيون الطوق القوي على استراتيجية الطرق الجغرافية: البرية والبحرية. وعلى قواه البشرية ومدنه واراضيه ودساكره وتوابعه، وسيطرت على حركته الاقتصادية، وخاصة على موارد وصادرات مدن العراق التجارية.. وبدت الرقعة الزراعية الواسعة الخصبة والغنية بتربتها ومياهها: مقسمة لاول مرة، وعلى نحو جديد الى وحدات اقطاعية- عسكرية.

من جانب آخر، ارتبطت اقاليم العراق بما لها من توابع ولواحق.. بالسلطة المركزية ولم يعد للعراق كيانه السياسي الموحد خوف انفصاله عن تلك السلطة العليا، والتي انفتح امام خزانة السلطنة في اسطنبول باب جديد من الموارد والضرائب والهدايا ومنح الولاة الذين حكموا ادارة بولاياته الثلاث: الموصل وبغداد والبصرة، وعلى غرار بقية ولايات الامبراطورية قاطبة. لقد تمخض النظام العثماني الجديد للعراق عن بدايات حقيقية في التحولات العثمانية.. كانت ولاية بغداد مستقطبة قلب العراق، واستقطبت ولاية الموصل رأسه الاعلى. أما ولاية البصرة، فقد حكمت طوق استراتيجية البحري من خلال شط العرب، وما يحيط به من تخوم عربية ومركزيتها الخليجية*.

---

* للاستزادة التاريخية: انظر ما كتبه: فون هامر بورجشتال والنهروالي ومرتضى نظمي زادة وياسين الخطيب العمري ..ومن المحدثين: لونكريك وعباس العزاوي ولوريمر وروبرت منتران ودونالد بيتجر (ومقالة حرب العراق ١٥٣٤ – ١٥٣٥م) في «الانسكلوبيديا التركية:
Islam Ansiklopedisi Cuz 3, Istanbul , 1967, SS. 116-118.

وللايجاز راجع. د. سيار الجميل، «استراتيجية العراق واثرها في نشوء الصراع العثماني الايراني» مجلة آفاق عربية العدد(١٠) حزيران: ١٩٨١.

٢-الحروب البحرية :-

١/ الصراع العثماني البحري ضد الهابسبورك وفرسان القديس يوحنا (ظهور خير الدين باربروسا ومجهوداته في البحر المتوسط):

لقد تبلور الصراع التاريخي بين العالم الاسلامي واوروبا بعد ان اتخذ له مساراً فعالا في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال الازمان العثمانية، مبتدئاً من القرن السادس عشر. لقد ورث الاتراك نظرة العرب وموقفهم التاريخي ازاء ملكيتهم للبحر المتوسط. انها فكرة «مملكة الاسلام» التي تبدو تكويناتها على مستوى من الدقة والكفاءة ابتداء من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، بعد تكوين الجغرافية الادارية عند العرب (= ادارات الاقاليم/ الامصار) ..ولا يكتفي الوطن العربي ان يكون ضمن العالم القديم ومندمجاً فيه فقط، وإنما ليأخذ هذا العالم القديم على عاتقه ويتملكه لأنه يعرفه ويعانيه* .

وكانت اوروبا قد بدأت تخرج عن اسار «العالم القديم» في عصر دعي بـ «الاستكشافات» وكشف العالم الجديد، والبدء باستعماره ، فضلاً عن التفافها حول العالم القديم وتنفيذ مشاريعها الكبرى في السيطرة عليه. وقد أتى ذلك كله متبلوراً خلال مراحل التاريخ الحديث التي استطاعت اوروبا خلالها ان تغير من الانماط الكلاسيكية في التعامل بقواها البحرية مع العالم أجمع قديمه وجديده.. وهكذا، ستغدو صورة الصراع غير المتكافئ بين الامبراطورية العثمانية والدول الاوروبية.

كانت ايطاليا مقطعة الاوصال .. اما اسبانيا فكانت تأكلها الانقسامات، وفرنسا لاهية بحروبها مع انكلترا على مدى زمني يقدر بمئات السنين. فلم تكن هناك من هيمنة اوروبية قوية على البحر المتوسط.. ولكن تغير الموقف بنهوض الدول الاوروبية في نهاية القرن الخامس عشر، إذ بدأت ثمة محاولات أولى في

---

* للاستزادة، انظر : د. سيار الجميل ، «البحر المتوسط: الشرعية التاريخية العربية : مساهمة معرفية في تصحيح بعض المفاهيم» مجلة دراسات عربية، العدد(٩)، السنة (٢٤)، تموز/ يوليو ١٩٨٨، ص ١١٠-١٢٠

استراتيجياتها لملء الفراغ الكبير الذي احدثته القوى المناوئة للغرب. لقد اتحدت اسبانيا بمصاهرة سياسية ناجحة لكل من حكام ارغون وكاستيل، فقويت بفعل الوحدة السياسية والدينية والاحقاد القديمة على آخر ملوك غرناطة المسلمين عند سقوط هؤلاء من بني الاحمر عام ١٤٩٢م.

ونافست فرنسا كلاً من اسبانيا وايطاليا بفعل طموحات كل من الدولتين للسيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط. وكان المغرب العربي يستقبل اولئك «الموريسكيين» من العرب المسلمين النازحين البائسين بفعل الاضطهاد الكاثوليكي المرير الذي مارسته اسبانيا الكاثوليكية.. إذ نزح الموريسكيون نحو السواحل المغاربية – العربية، ثم انطلقوا منها باساطيلهم كرد فعل قوي ضد القرصنة الاوروبية .. وليهاجموا السواحل الاوروبية بشكل غارات منتظمة. ولم يتوقف الاسبان عند حدودهم الساحلية الطويلة، بل امتدت اساطيلهم القوية ليحتلوا عدداً من النقاط الاستراتيجية في كل من المغرب والجزائر فانتزعوا تلك المدن العريقة من الاسر الاسلامية الحاكمة اقليمياً ام محلياً.

كان الحفصيون قد نفذوا بمصالحهم في الجزائر التي قبلهم ورحب بهم اهاليها، وسمحوا لهم بتأسيس حصن بحري في جزيرة اجيكنت قرب بنيون – دارجيل. لقد توالدت حالة صراع جديدة هي غير الحالات التي الفتها تواريخ العصور الوسطى . ففي خضم جبروت القوى الاوروبية – البحرية الجديدة بدت القوى العربية الاسلامية الاقليمية : غنيمة سخية الثراء بكل امكانياتها وغنى اراضيها ومجتمعاتها المدينية، متاحة امام شراهة النفوذ الاوروبي .

هكذا، بدأت المواجهة الفعلية ضد القوى العثمانية صاحبة اكبر سيادة سياسية وبحرية في الحوض الشرقي للمتوسط ، وتمثلت المواجهة ببروز رجلين اكتسبا شهرتهما في البحر ، وامتلكا من خلاله خصوصية ناجحة، وهما اخوان من أب تركي وأم اندلسية. وكان اول بروزهما في جزيرة «ميدلي» (=mitilene): عروج ريّس وخسر و ريّس اللذين استقرا في كوليطا (= حلق الوادي) سنة ١٥٠٢م وهو ميناء تونسي شهير. واستطاعا من هناك ان يقابلا القرصنة الاسبانية ببناء امبراطوريتهما البحرية، وقد نجحا في ذلك نجاحا باهراً عندما اتصلا وتحالفا

عمليا مع اغلب الموارسكة في المنطقة من الذين فروا بدينهم وخصوصيتهم امام الاستئصال الاسباني لهم. وكانوا من البحارة الاذكياء في غاراتهم وعملياتهم ضد السواحل الاوروبية *.

وسرّت مرحلة زمنية صعبة اكتسب خلالها كل من الاخوين «عروج» .. بطولتهما على الجزائريين، ولكن الاسبان اتخذوا من بعض الأسر المحلية في المغرب العربي أدوات وصنائع لمواجهة نفوذ كل من الاخوين عروج، فتبلور صراع اقليمي اذكت اسبانيا مسبباته وعناصره. وفي مداخلات تلك الازمة، سقط عروج ريس صريعا قرب تلمسان في غربي الجزائر، فاستفاد اخوه خسرو ريس من تجربة ذلك الصراع الخارجي والازمة الاقليمية، ليبرز صاحب مكانة سياسية، وكمسلم عظيم شاعت بطولاته البحرية ضد الغزاة الاجانب. وكان يدعى باسم «خير الدين» من قبل المسلمين، وباسم «باربار وسا» (أي: ذو اللحية الحمراء) من قبل الاوروبيين الذين كان يهاجمهم بسفنه.

تقدم خير الدين باربار وسا بطلب المساعدات العثمانية بعد سيطرة سليم الاول على مصر مباشرة، وقد كسب الجولة بطريقة ذكية عندما طلب الترخيص من السلطان العثماني تزويده بالمدد العسكري والبحارة الملاحين من الاناضول. وأن تضمن له الحكومة العثمانية: المدفعية والقوة المسلحة والبارود لتقوية اسطوله .. ويكون مقابل ذلك. ضم السكان الجزائريين الى الامبراطورية العثمانية، فتم له ما اراد، فضلا عن تنصيبه حاكما على الجزائر.

لقد انتهى عهد سليم الاول بسرعة ليأتي من بعده سليمان القانوني مواصلاً الاستعدادات في بداية سنوات عهده الطويل، ولكن تركيزاته كانت منحصرة في الحملات العثمانية البرية الكبرى على الاراضي الاوروبية والآسيوية .. وعندما كان القانوني يحاصر عاصمة الهابسبورك النمساوية ولاول مرة سنة ١٥٢٩م، بدأت سلسلة من غارات القرصنة، فقدر لباربروسا ان يسترد الجزائر ويضيف جزيرة بينون — دارجيل الى مجاله العثماني.

---

* من افضل الكتب التي عالجت هذا الموضوع، كتاب المؤرخ اندروهس، افتراق العالمين الاسلامي والمسيحي في المغرب والاندلس، ترجمة د. احمد عبد الرحيم مصطفى، ط ١، الكويت ١٩٨٦م.

اكتسب جارلس الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وسليل الهابسبورك خدمات ذلك الادميرال الجنوي القوي اندريا دوريا الذي كان قد هزم اساطيل الهابسبورك مرتين : في سنة ١٥٢٤م، وسنة ١٥٢٨م، وبدأ يبني اسطوله الرئيسي الجديد الذي توزع عند جزيرة رودس وطرابلس الغرب وجزيرة مالطة سنة ١٥٣٠م ، وشكل قواعد قوية للحركة في الحوض الشرقي للمتوسط على الرغم من الاسطول العثماني الضخم الذي كان متروكاً في البحر منذ عهد بايزيد الثاني .. ناهيك عن احواض بناء سفنهم وموانئهم ، ووفرة اخشابهم ورجالهم واموالهم .. وتعد سنة ١٥٢٤م/ ٩٤٠هـ، سنة حاسمة، إذ اسندت اسطنبول قيادة الاسطول العثماني كله لباربروسا لكي يستطيع التعامل الحربي مع السواحل الايطالية ، ويحرر تونس والجزائر وطرابلس الغرب .

لقد مارس اندريا دوريا تخريبات متعددة في السواحل الاغريقية ، واستولى على موانئ مهمة مثل ، ليبانتو وكورون في ايلول/ سبتمبر ١٥٣٢م، مما دعا السلطان القانوني أن يوعز لباربروسا القيام بدرء تلك الافتزازات التي يثيرها فرسان القديس يوحنا. فابحر باربروسا نحو اسطنبول التي نصبته ادميرالا اعظم للاساطيل العثمانية (= قبودان باشا او قبوداني ديريا) في ٢٧/ ١٢/ ١٥٣٣م، واهلته الدولة بمئات السفن، كما أمر ببناء اسطول جديد لمواجهة الهابسبورك.. وكان لباربروسا قباطنته ورجاله من المحاربين والملاحين الذين رباهم على يديه من اجل تحرير التراب المغاربي من الاعداء *.

وهكذا، فبينما كان سليمان القانوني يمتد بجيوشه برا في آسيا، كان باربروسا يمخر باسطوله بحراً على سواحل المتوسط.. وعندما كان القانوني يقضي ربيع سنة ١٥٣٤م في العراق، كانت كل من كوردن وليبانتو قد استعيدتا، ومنهما طولاً في خط بحري يصل حتى تونس التي استعيدت من سواحلها في ٢نيسان/ ابريل ١٥٣٤م.. في حين خربت سواحل جنوب غربي ايطاليا لمساعدة الفرنسيين ضد الهابسبورك. وقد جعل باربروسا قاعدته في تونس التي مكنته من مهاجمة جزيرة صقلية (= سيسلي)، فوصلت قوة امتداده البحرية إلى الحوض

---

* الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، جـ٢، ١٩٥٥، وانظر التفاصيل في: وليم سبينسر، الجزائر في عهد ريّاس البحر تعريب، وتعليق : عبد القادر زبادية ، الجزائر ١٩٨٠.

الغربي للمتوسط.. ولكن اندريا دوريا ينظم حملة صليبية ويحتل بأسطوله تونس في ٢١ تموز/ يوليو ١٥٣٥م وقد حكمها بصرامة وقسوة لكي يحول دون تحقيق الامال العثمانية في اراضي المغرب العربي.

لقد شجع الفرنسيون باربروسا كي ينضوي بخدماته تحت تصرف القانوني، بغية اثارة المشكلات للهابسبورك بخاصة.. فكان التعاون العثماني- الفرنسي وثيقا ضد الهابسبورك فما أن وصل السلطان القانوني من العراق في شهر مايس ١٥٣٥م حتى قابله السفير الفرنسي، لينقل اليه العروض في دمج الحركة للصراع ضد الهابسبورك ..فتوصل الطرفان الى عقد معاهدة شهيرة اتفق فيها القانوني وفرانسوا الاول على مبدأ تحقيق «الامتيازات الاجنبية» عام ١٥٣٦م التي كانت تستهدف دعم النضال ضد قوتين مكروهتين من قبلهما هما : بابا روما والامبراطورية الرومانية المقدسة التي تقف اسرة الهابسبورك على رأسها ..وهذا ما ساعد فرنسا كثيراً في خروجها وبروزها على العالم كدولة قومية في القرن السادس عشر .

كان للتحالف العثماني – الفرنسي سنة ١٥٣٦م مثار قلق جارلس الخامس، والذي قابله بتشكيل حلف مقدس ضد العثمانيين، مؤملاً ان يسقط ذلك بيد فرنسا فترتبك دينياً وتتخلى عن حليفتها الامبراطورية العثمانية .. وجرت محاولات عدة بفصل العلاقة بين الايالة الجزائرية / الباربروسية والعاصمة العثمانية اسطنبول فلم تنجح المحاولات تلك، إذ شغل الصراع البحري المحتدم على مدى عشر سنوات ١٥٣٦- ١٥٤٦م، كان باربروسا بطلها الشهير، قدم الرجل خلالها خدمات تاريخية لا تقدر بثمن لأبناء تونس والجزائر، وعندما مات خير الدين في ١٠يوليو/ تموز ١٥٤٦م، كانت الجزائر قد غدت ايالة عثمانية قوية *.

ويبدو أن ابناء الجزائر وتونس وطرابلس الغرب قد تكاتفوا وتعاونوا في استقبال الرحلة العثمانية والقادم التركي البعيد عبر البحر المتوسط للوقوف بوجه القوى الكاثوليكية لإسبانيا وفرسان القديس يوحنا، وكان باربروسا قد تعب كثيراً في ترسيخ السيطرة العثمانية في الاراضي المغاربية.

---

* Ernle Bradford, The Sultan's Admiral : a Life of Barbarossa, London, 1968, pp. 31-104.

٢ / الحرب العثمانية في البحار الشرقية:

بينما كان العثمانيون يقاتلون الهابسبورك وفرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط، ويصارعون القوى الاوربية برا.. وضعت السيطرة العثمانية للوطن العربي هي الاخرى موضع التنفيذ الشامل من خلال النزاع البحري المرير ضد الهيمنة البرتغالية في البحار الشرقية. لقد كان البرتغاليون يكرسون خططهم وعملياتهم لاختراق تلك البحار نحو الشرق البعيد من خلال استراتيجية كبرى في نهاية القرن الخامس عشر.

ارسل الامير هنري (= الملاح) كثيراً من المستكشفين إلى السواحل الافريقية. وفي سنة ١٤٨٨م، اكتشف الملاحون البرتغاليون امكان الذهاب والالتفاف حول قارة افريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح، وبدرجة أقل عن العقد الذي تلاه. ففي سنة ١٤٩٧م، أبحر الاسطول البرتغالي تحت قيادة الربان الشهير فاسكو دي غاما، واستطاع بمساعدة العرب (= ابن ماجد على رأسهم) استخدام المسلك البحري غير المعروف للوصول إلى كلكتا. واستطاع البرتغاليون تطوير ذلك المسلك واحتكاره بسفنهم الكثيرة فقط، واسسوا قواعد بحرية جنوبي كلكتا بغية منافسة التجار العرب من مصر وسوريا والعراق الذين غدوا وقد طوقتهم القوى البحرية البرتغالية والتي اعتدت على حقوقهم ومصالحهم الراسخة.

حاصر الاسطول البرتغالي البحر الاحمر والخليج العربي سنة ١٥٠٢م لتطويق التجارة الدولية الكبرى بين الهند واوربا من خلال احتكار المسالك البحرية جميعا .. فوقعت مراكز استراتيجية مهمة في شرقي افريقيا بيد البرتغالية مثل. كلوه وممباسا وسوفالا وموزنبيق .. وغيرها. ويشير المؤرخ ستانفورد شو الى الدوافع الاقتصادية الكبرى وراء تلك السيطرة والتي جاءت بألبسة كاثوليكية وكمهام خصها بابا روما لتطويق العالم الاسلامي من المؤخرة او الخلف .. وهذا ما حدث بالنسبة للعمليات الاسبانية التي نفذت بالاجراءات نفسها*.

لقد أثارت التحركات البرتغالية قلق دولة المماليك بمصر، بل واستاءت كثيرا إثر الوطأة العظمى للانقضاض البرتغالي السريع على البحار الشرقية والسواحل

*Cf. Stanford J. Shaw. History of the Ottoman Empire and modern Turkey, Vol. I. Cambridge, 1978, p. 99.

العربية بخاصة وتأثر الموانئ العربية الكبرى مثل: السويس والاسكندرية لتجارة البحر الاحمر، والبصرة وحلب وطرابلس الشام كمراكز تجارية يستقطب الخليج العربي عملياتها الدولية. وبلغت النتائج المالية والمشاكل الاقتصادية حدا من الصعوبة البالغة للمماليك الذين عجزوا عن بناء اسطول لهم باستطاعته فرض الارادة المملوكية وحماية الاراضي العربية.. ولكن؟

وكانت العمليات البرتغالية في البحار الشرقية احد العوامل الاساسية في التحرك العثماني نحو مصر، ليبدأ الجهد الرئيسي في العمل للرد على التهديدات البرتغالية. واسترجعت الاعمال في حوض بناء السفن بالسويس من قبل مهارات المماليك القدماء وصولاً إلى بناء بحرية منفصلة لها القدرة للسيطرة على البحر الاحمر ، وقد حددت مالية تلك البحرية خارج استحقاقات الرسوم الكمركية المصرية التي خصصت معظمها في تحقيق ذلك الهدف الاستراتيجي*.

كان الاسطول مستعداً للعمل في عقد الثلاثينات ، أي بعد سنة ١٥٣٠م، وخلال نفس الفترة التي كان السلطان سليمان القانوني فيها يسيطر على العراق والبصرة خصوصاً ، تلك المدينة الاستراتيجية البحرية التي تم استحداث اسطول آخر فيها. هكذا احتاط العثمانيون للفرصة في عمليات دفع ودفاع تطويقي ضد هجمات الاعداء السريعة المباغته.

غادر الاسطول العثماني السويس في ١٣ حزيران/ يونيو ١٥٣٨م ، تحت قيادة الوزير خادم سليمان باشا حاكم مصر ، وبينما كان عابرا الفجوة الاستراتيجية الضيقة من جنوبي البحر الاحمر استغل فرصة النزاعات الاسرية المحلية والاقليمية ليحتل المناطق الساحلية، مزودا الامبراطورية العثمانية ولاول مرة بقواعد استراتيجية جديدة للدفاع عن المنطقة العربية ضد الغرات المسيحية العنيفة، فكان ذلك في الحقيقة ، احد ابرز نجاحات الحملة العثمانية التي مضت في طريقها نحو الهند.

تزايد فعل الهيمنة العثمانية على خطوط البحر الاحمر وموانئه سنة بعد اخرى ، ففي عام ١٥٤٧م، احتلت صنعاء بعد مواجهات حربية مع البرتغاليين،

---

* Cf. W.E.D. Allen, Problems of Tukish Power in the Sixteenth Centery, London, 1963.

فتأمن للعثمانيين مكانة اقتصادية دولية ونفوذ سياسي فعال في المحيط الهندي. ومن اشهر قراصنة الترك في البحر الاحمر؛ بيري ريْس الذي نصب فيما بعد قائداً للاسطول العثماني في المحيط الهندي، وكانت له جهوده الكبرى في فرض السيادة العثمانية بين السويس وعدن على امتداد البحر الاحمر.. وبعد وفاته جرى تعيين سيدي علي قبطانا لاسطول البحر الاحمر.

لقد أثر الوجود العثماني في المياه الشرقية ايضا على التطورات التاريخية التي جرت في سواحل شرقي افريقيا، وبخاصة تلك المطلة على البحر الاحمر، وسقطت الموانئ التي كانت بيد البرتغاليين، وأهمها: سواكن وزيلع ومصوّع.. كما وجرت محاولة عثمانية لغزو الحبشة عام ١٥٤٢م. وفي عام ١٥٥٤م، احتلت مصوّع نهائياً، وطرد البرتغاليون نهائياً: وانشأت ايالة عثمانية سميت بـ«ايالة الحبش» كانت حلقة الوصل بين السلطنة العثمانية وافريقيا الاستوائية.

اما بالنسبة للخليج العربي، فقد غدت بغداد مصدرا للتحرك العثماني نحو جنوبي العراق والسواحل الشرقية لشبه الجزيرة العربية التي كانت امتداداتها تتصل بمركزية البصرة جغرافيا، وكان العثمانيون يهدفون إلى اقامة توازن استراتيجي بين سيطرتهم على مصر باتجاه البحر الاحمر وسيطرتهم على العراق باتجاه الخليج العربي، فشكلوا بذلك جناحين قويين ضد القوى البرتغالية في البحار الشرقية. وكما كانت السويس في مصر، كذلك كانت البصرة في العراق مركز تجمع وصناعة السفن التي استفاد منها العثمانيون كثيراً في مجابهة البرتغاليين.

عندما كان السلطان سليمان القانوني في بغداد ١٥٣٤ - ١٥٣٥، فقد تسلم خضوع راشد بن مغامس الذي ارسل رفقة ابنه مانع مفاتيح البصرة، متعهداً تقديم الطاعة والولاء.. ومن خلال البصرة امتد النفوذ العثماني نحو الاحساء والقطيف والبحرين، إذ غدت البصرة مركز ايالة بايلربيك، وقد نصب راشد بن مغامس حاكماً عليها، ثم اعقبه اياس باشا بايلر باي بغداد، تجريد حملة عثمانية للاستيلاء على البصرة وملحقاتها، فدخلها العثمانيون عسكريا في ٢٦ كانون الاول / ديسمبر ١٥٤٦م.

يذكر المؤرخ التركي صالح اوزبران أن الاتراك العثمانيين قد استحوذوا على اقليم الاحساء مباشرة بعد استيلائهم على البصرة، وامتدوا نحو القطيف ..كجزء من خطة عثمانية كبرى في مواجهة الوجود البرتغالي واساطيله القوية، وقد غدت البصرة من الولايات العثمانية المهمة. لقد امتد الحكم العثماني في سنجق الاحسا (الحسا) على مدى مرحلتين عثمانيتين مباشرتين: الاولى منذ دخول العثمانيين منطقة القطيف عام ١٥٥٠م. والثانية : امتدادهم في منطقة الهفوف عام ١٥٥٥م*. ويكون العثمانيون بذلك قد جسّدوا وجودهم في مناطق الخليج ..إذ شكل العراق مع لواحقه البحرية في الخليج العربي منطقة متنوعة الاتجاهات لترانسيت العالم القديم.. ونجح العثمانيون من خلاله في استئصال النفوذ البرتغالي في منطقة الخليج العربي.

٢- التطبيقات الادارية العثمانية في الوطن العربي:-

١ / اقليم الجزيرة الفراتية : الادارة الاهلية :

لقد كانت بلاد الجزيرة الفراتية هي اولى المناطق العربية التي شملتها. اهتمامات السلطان سليم الأول بعد سيطرته عليها في مايس ١٥١٦م، إذ نصّب سليم مستشاره القانوني ادريس البدليسي (صاحب كتاب هشت بهشت) مفوضا للادارة الاهلية في تلك الاقاليم، وارسل له فرماناً شاهانياً يؤكد له فيه اتخاذ التدابير اللازمة لاقامة المؤسسات الادارية المحلية.. كما أرسل له سبعة عشر علما وخمسمائة خلعة من الخلع السلطانية الفاخرة لتوزيعها على رؤساء الحكومات القبلية والامراء المحليين، كما ارسل الى البدليسي هدية ثمينة مقابل ما أسداه

---

* Salih Ozbaran , "The Ottoman Turks and the Portuguese in the ..Gulf, 1534 - 1581" Journal of Asian History, Vol.6. No . 10, 1972, p. 116

(ترجمها الى العربية د. عبد الجبار ناجي)

وانظر الى العربية – د. احمد مصطفى ابو حاكمه، محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة، ط ١، القاهرة ،١٩٦٨، ص ٤٤-٤٦، وقارن ذلك بما كتبه الكسندر آداموق، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة : د. هاشم صالح التكريتي، البصرة ١٩٨٢.

ومن الاهمية: مراجع ما كتبه كل من لونكريك وروبرت منتران وماندفيل وغيرهم .

للعثمانيين وللسلطان سليم الاول من خدمات، كانت عبارة عن خمسة وعشرين الف دوقة ذهب ..

كان السلطان سليم الاول يعتمد عليه اعتماداً كبيراً – كما توضح لنا ذلك من خلال قراءة ما بين ثنايا بعض فرامينه التي كان يرسلها للبدليسي – وكان بعد سيطرته على ديار بكر، يتأمل ان يكون سبباً فعالاً في السيطرة على امتدادات واقاليم اخرى. لقد نجح البدليسي في تقسيم ديار بكر المترامية الاطراف، الى سناجق من اجل تسهيل مهمة السيطرة عليها، ثم طبق هذا النظام نفسه على الرها والموصل التي نصب عليها الولاة الاتراك الى جانب ولاة ديار بكر وماردين ..

لقد اعلن زعماء الاقاليم ورؤساء العشائر وامراء المقاطعات ولاءهم للعثمانيين، ولكنهم اشترطوا على البدليسي استمرارهم في حكم اقطاعاتهم، وقد قطع الشيخ البدليسي لهم جميعاً مواثيق سياسية يبدأ العمل بها من خلال ما تنص عليه من مواد قانونية هي :

١– الاحتفاظ بعائدية تلك الاقطاعات واستقلاليتها.

٢– يجري حكم الوارثة من انتقال الاقطاع من الاب الى اولاده (الذكور).

واذا اراد التصرف بها حسب الاعراف المحلية السائدة، فيستوجب اذ ذاك اصدار فرمان سلطاني بالموافقة على ذلك.

٣– تقوم هذه الاقطاعات بتقديم المساعدات للدولة في جميع حروبها.

٤– تحافظ الدولة على هذه الاقاليم ضد الاعتداءات الخارجية.

٥– دفع الصدقات والرسوم الشرعية لبيت المال الخاضع لسلطان الدولة.

لقد سرى العمل بتنفيذ هذه المواثيق والبنود القانونية من قبل المؤرخ الشيخ البدليسي الذي وصفه المؤرخ الانكليزي كريسي Creasy بـ«صاحب القدرة الادارية العالية في تنفيذ القرارات».

تعد البنود الآنفة الذكر: اول معاهدة تعقدها الدولة العثمانية بينها وبين الامارات والعشائر القبلية في بلاد الجزيرة الفراتية (= كردستان + شمال غربي

العراق) التي خضعت لها بعد حرب جالديران في عام ١٥١٤م، وقد جرى العمل بها تكتيكيا مرحليا من قبل الدولة في توظيف بلاد الجزيرة تلك، ضد الاعداء الخارجين (باعتبارها حاجزاً جغرافياً يفصل الاناضول عن الوطن العربي)، إذ سرعان ما نقضت الحكومة العثمانية شروط هذه المعاهدة ، بعد ان طبق السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م، النظام الاقطاعي / العسكري والذي بموجبه ظهرت التقسيمات الادارية على نحو جديد، وذلك بعد سيطرته على بغداد سنة ١٥٣٤م / ٩٤١هـ.

أما بالنسبة للنظام الضرائبي ، فقد اتبع سليم الاول مخلصاً العرف العثماني القديم، محتفظاً به، وقد طبقه على الاراضي التي احتلها وأخضعها من يد الصفويين في شرق آسيا الصغرى، ومن المماليك في سوريا ومصر، وقد اتبع هذا الخط السلطان سليمان القانوني في البداية بما فعله في العراق، او في بعض امتداداته الحربية في هنغاريا* .

٢ / بلاد الشام :التقسيمات الادارية:

نجح السلطان سليم الاول قبل عودته إلى عاصمته اسطنبول بتقسيم بلاد الشام إلى قسمين واسعين : اولهما : شمال دمشق ومركزه الاداري حلب، و ثانيهما جنوبي دمشق ويمتد حتى العريش ومركزه الاداري دمشق، وارتبطت به المراكز المدنية في فلسطين. ثم قامت السلطات العثمانية المختصة باجراء التنظيمات لبلاد الشام على اسس النظام الاقطاعي.

---

*: انظر د. سيار الجميل، «دراسات في السيطرة العثمانية ..» المرجع السابق ، القسم الثاني، ص ٣٣٥

وراجع التفاصيل في : سعد الدين خوجة، تاج التواريخ (بالتركية) ، اسطنبول ، جـ٢، ١٨٦٣، ص ٣٢٤، (وهو من اقدم المصادر العثمانية).

وانظر اراء المورخ كريسي في

E.S. Creasy, History of the Ottoman Turks, Vol I, London, 1854,p. 225.

وراجع ما كتبه المؤرخ النمساوي القديم فون هامر بورجشتال .

J.Von Hammer - Purgstall, Geschichte der Osmanischen Reiches, Band 2, (1453 1530) Wien , 1828.

قسمت بلاد الشام في عهد سليمان القانوني إلى (٢٥٦١) اقطاعا، منها (١٠٠٦) اقطاعات في ايالة دمشق التي ضمت: دمشق وصيداً وتدمر والكرك وغزة والقدس ونابلس وعجلون وصفد واللجون.. وتشير الوثائق العثمانية بأن اراضي بلاد الشام كانت على شكل خمسة مصنفات هي:

١- الخواص الشاهانية، وهي الاملاك السلطانية.

٢- خواص المير لواء، وهي املاك حكم السناجق كاقطاعيات عسكرية.

٣ - الزعامات والتيمارات، وهي املاك الزعماء العسكريين المتوسطة والصغيرة.

٤- أراضي الوقفيات.

٥- أراضي الملك صرف.

تشير السجلات العثمانية بوضوح إلى أن تطبيق نظام الالتزام في بلاد الشام خلال القرن السادس عشر، قد أثر كثيراً في البنية الزراعية نتيجة للمكابدات التي عاناها الفلاح السوري من الملتزمين الذين غدوا في نهاية القرن الثامن عشر، يتمتعون مدى الحياة بالاقطاعات التي غدت تسمى «مالكانة» والتي بدت تشبه إلى حد كبير «الخواص». وقد اعدت الدولة العثمانية كل «ملتزم» جزءاً في كيانها، فاسندته بالادوات والوسائل من اجل تحقيق عملية جمع الضرائب، ومن ابرزها: استخدام الاسلحة والقوة باسم حماية اقطاعه وتوفير حالة الامن.

لقد جاءت اجراءات الدولة العثمانية بعد استطاعتها تحطيم الانظمة السابقة إثر اندحار دولة المماليك على ايدي العثمانيين.وقد وجدنا أن عناصر اقطاعية محلية او اقليمية قد اقتربت من القوى العثمانية المسيطرة والجديدة من اجل الحفاظ على مصالحها ومواقعها، فضلاً عما فعله خاير بيك وجان بردى الغزالي وامراء الساحل الذين انتظروا لمن ستكون الغلبة، فلما كانت للعثمانيين اصطفوا يناصرونهم، وانحازوا إلى طرفهم، فكافأهم العثمانيون ليس بالاقطاعات فحسب، بل باسناد الادارات الاقليمية (= السناجق) لهم *.

---

* من الاهمية ماجعة ما كتبه محمد كرد علي و أ. ن. بولياك واجراءمقارنة في المعلومات.

كان ذلك كله مبعثاً في تبلور التكوينات الاقليمية منذ القرن السادس عشر في بلاد الشام *.وقد عكست الاحداث التاريخية المتفاقمة، مظاهر متعددة في الصراع الاقطاعي الذي تأجج بفعل العصبيات الطائفية والعلاقات الاسرية والعشائرية .. وكان من اشهر تلك التكوينات الشامية الامارة المعنية في جنوبي لبنان وشمال صفد،والامارة الحارثية في قلب فلسطين خلال القرن السابع عشر.

٣/ مصر: نظام الالتزام وادارة المماليك:

أما في مصر فقد بدأ العثمانيون بترتيب وتنظيم الادارة فيها وفي صعيدها بعد ان خسرت مكانتها الاقليمية كدولة تحت اسم «السلطنة المملوكية»، وافتقدت ايضاً مكانتها الرمزية في العالم الاسلامي باعتبارها قد كانت حامية للخلافة العباسية في ظل المماليك. لقد تحولت مصر من دولة لها جيشها ومؤسساتها الى مجرد ولاية عثمانية لا تأثير واضحاً لمكانتها الجغرافية.

اصبح الوجه البحري مقسماً إلى سبعة أقاليم (بدلاً من اعمال)، أما الوجه القبلي فقد قسم الى ستة اقاليم تدين جميعها الى حاكم مصر خاير بيك الذي نصبه العثمانيون. وتمتعت ثلاثة موانيء هي الاسكندرية ودمياط والسويس بتبعية مباشرة للدولة العثمانية، في حين وقف على رأس الموانيء الاخرى «قبودان». وبعد ذلك،اصبحت مصر مقسمة الى خمسة اقاليم كبرى: اربعة في الوجه البحري، وواحد فقط للوجه القبلي. وكان يحكم الاقاليم الخمسة «بكوات» يحمل كل واحد منهم رتبة الصنجقية. وكان حكام الاقاليم يقيمون في القاهرة باستثناء حاكم جرجا عاصمة اقليم الوجه القبلي (جرجا) وينوب عن الصناجق اتباعهم «الكشاف» من المماليك. وهم حكام لـ(٢٤) كاشفية مستقلة عن الاقاليم.

وكانت الاقاليم مقسمة الى عدة مقاطعات تتكون بدورها من مدن صغيرة وقرى عديدة، وتدار المقاطعة اما من قبل ملتزم واحد أو عدة ملتزمين، وعادة ما يكونون من كبار الضباط العثمانيين،ثم دخل الى هذا الميدان التجار ورجال الدين ومشايخ العربان واصبحت غالبية الملتزمين من امراء المماليك.

---

* من الاهمية بمكان مراجعة ما كتبه عن «بلاد الشام في القرن السادس عشر» كل من المؤرخين: · سوفاجييه وعبد الكريم غرايبه وليلى الصباغ ومحمد البخيت وعبد الكريم رافق.

اما الجهاز الاداري في مصر*. فقد تكون من حكام الاقليم ثم الصنجق أو الكشاف والاوجاقات العسكرية والوكيل والقائمقام.. أما ادارة القرى فكانت موكلة الى الملتزم، ويمثله القائممقام ومعه موظفون يختارهم، وهم: الشيوخ والشاهد والصراف والمشد والخفراء والوكيل والكلاف.. ويترأس إدارة الاقليم «بيك» يحمل رتبة الصنجقية، ويحصل على لقب «حاكم». وكان لكل اقليم اداري عاصمة سواء اكان ولاية أم كشوفية يقيم فيها «البيك» أو الكاشف حاكم الاقليم الاصغر.

كان حكام مصر -ايضاً- من امراء المماليك برتبة صنجق وحصل على لقب «البيك»، يعينون بفرمان من الباشا بناء على اقتراحات الامراء المحليين وموافقة السلطان العثماني. وتستوجب مهمة الحكام من بيكات الصناجق: جمع العوائد والضرائب التي يقررها السلطان على البلاد، ثم يقتطع منها ما يستوجبه الميري، وما يتبقى يكون من نصيبه... ومن سلطاته ايضاً: تطبيق العقوبات بالسجن والقتل، الى جانب سلطة فرض الضرائب الاضافية في اقليمه. وقد استمر هذا النظام فعالاً -فيما يبدو- حتى الربع الاول من القرن السابع عشر حينما بدأ تطبيق نظام الالتزام على نحو فعال.

ارتبط القاضي والقضاء المصري بقضاء عسكر افندي، ولم يكن ذلك القضاء نزيها في مصر، وحتى قاضي العسكر كان يرتكب الاخطاء مثل اخذ الرشوة. اما الكاشف، اي وكيل الملتزم في ارضه، فكثيراً ما كان يسيء التصرف فيستغل نفوذه باستيلائه على اراضي الغير.. وكانوا مكلفين باعادة الفلاح الهارب الى مصر.

كانت هذه باختصار هي احوال الادارة اللامركزية العثمانية- المملوكية قبل أن طبقت الدولة العثمانية نظام الالتزام في مصر منذ عام ١٦٥٨. لكن السؤال الآن، هو لماذا اعتمد العثمانيون على المماليك في ادارة مصر دون القضاء عليهم؟ نقول إن العثمانيين قد قضوا على دولة المماليك دون القضاء على حلقاتهم الاجتماعية، وقد كان لتاريخهم الطويل في حكم مصر الدور البارز والمؤثر في استفادة الدولة العثمانية منهم، خاصة وانهم كانوا مندمجين مع المجتمع المصري في المدينة والريف.. كما ان هناك ثمة انقسامات في البنية المملوكية- المصرية وخصوصاً،

---

* للتوسع أنظر ما كتبه عبد الوهاب بكر وهريدي وليلى عبد اللطيف.

التنازع على العرش، فضلاً عن التأرجح في المواقف المصرية ازاء التغيرات المملوكية– العثمانية.

٤/ العراق: الموصل وبغداد والتشكيلات الادارية ونظام الساليانة في البصرة

نجح السلطان سليمان القانوني أن ينظم الشؤون الادارية للعراق بعد أن سيطر على بغداد في ٣٠/ ١٢/ ١٥٣٤، وبقائه فيها حتى يوم ٣١/ ٥/ ١٥٣٥م أي قضى في العراق ستة اشهر كاملة عمل خلالها على فرض الأمن وإحلال النظام، وتحقيق الاستقرار، وتنظيم الادارة والضرائب، وباشر بتجديد المدارس والاضرحة والشوارع. وزار كثيراً من مدن العراق، وشجع الزراعة وعمل على فتح القنوات المائية... وأرسل محمد باشا الى الموصل لتثبيت الحكم العثماني المباشر عليها، ثم نصّب حاكم ديار بكر السابق سليمان باشا الطويل أول وال عثماني من بغداد.

غدا العراق في عهد سليمان القانوني مقسماً الى خمس ولايات كبيرة، هي: ولاية بغداد وولاية الموصل وولاية شهرزور وولاية البصرة وولاية الاحساء. ووقف «الوالي» على رأس جهاز الولاية، وهو يتمتع بمنصب رفيع برتبة «بكلر بكي» ويلقب ايضاً بـ «مير ميران» أي (امير الامراء) بإعتباره يرأس امراء الالوية (= السناجق)، كما وأنه يعد أحد وزراء الدولة العثمانية، ويحمل طوغين أو ثلاثة أطواغ (الطوغ Tugh. شعار تركي قديم يتكون من راية بيضاء عليها خصلة شعر ذيل الحصان). ويحمل في اوقات الحرب، ولبكوات السناجق الحق في حمل طوغ واحد. أما البكلربيك (= رئيس البيكات) فإنه يحمل طوغين. أما من يكون بدرجة وزير عثماني من حكام الولايات الكبرى، فله الحق أن يحمل ثلاثة أطواغ.

أما إقطاعيا، فقد كان للولاة في العراق أن يحترزوا على إقطاعات كبيرة، وظفوها لخدمة مسؤولياتهم الضخمة، كما كان لولاة الموصل وبغداد فقط الحق في حضور جلسات الديوان السلطاني في اثناء وجودهم في العاصمة العثمانية إسطنبول. وكان من واجباتهم:

١– الدفاع عن اراضي واقطاعات الولاية او الولايات المجاورة من الهجمات الخارجية.

٢– ضمان استمرار ولاء سكان الولاية للدولة العثمانية.

٣– كبح جماح التّمردات أو الانتفاضات والثورات ضد الحكومة العثمانية.

٤– إعلام الباب العالي بكل الامور والمستجدات الداخلية والادارية والعسكرية إضافة إلى الاحوال الاقتصادية.

٥– تنفيذ الاوامر السلطانية في الاشتراك بالحملات العسكرية.

إن لكل ولاية جهازاً إدارياً متكاملاً قد يختلف في بعض وظائفه وخدماته عن جهاز إداري آخر في ولاية أخرى.. ويمكننا توضيح الجهاز الاداري لولاية الموصل– على سبيل المثال.. فهو يتألف من:

١– **الوالي**: وهو أعلى منصب إداري في الولاية، وهو حلقة الاتصال بين الاقليم ومركز السلطنة في العاصمة، وعادة ما كانت فترات الحكم قصيرة جداً، وعليه أيحمل رتبة «البيكلر بكي» كي يشغل هذا المنصب.

٢– **المتسلّم**: يأتي منصبه بعد الوالي في السلم الاداري، وهو «نائبه» أو الوالي وكالة في غياب الأول أو عزله أو سفره. ويتم تعيين «المتسلم» من قبل الوالي دون الرجوع الى العاصمة المركزية.

٣– **الكتخدا أو (الكخيا)**: وهو السكرتير أو المعتمد العام أو مدير المكتب الخاص، يعين لأغراض المساعدة في الشؤون الخاصة، سواء كانت سياسة أو عسكرية أم إدارية. عليه أن يكون راصداً قوياً لما يجري داخل الولاية، ويقدم معلوماته مباشرة ودورياً الى الوالي.

٤– **المكتوبجي**: وهو كاتب الرسائل والمذكرات الرسميّة لدى حكومة الوالي.

٥– **المهردار**: وهو حامل الأختام الرسمية لجميع الاوراق الرسمية للوالي.

٦– **الخزندار**: وهو أمين الصندوق أو الخزينة في الولاية.

٧– **السلاحدار**: وهو المسؤول عن الاسلحة والعدّة الحربية في الولاية.

٨– **إحتشامات أغاسي**: وهو رئيس التشريفات في قصر الوالي.

٩– **أمير آخور**: وهو رئيس إصطبلات القصر في الولاية.

١٠- **الروزنامجي**. وهو كاتب الوقوعات اليومية في الروزنامات (=التقاويم).

وهناك مناصب أخرى الى جانب الوالي، تؤدي مهاماً سواء كانت ترتبط بالوالي مباشرة أم بالوزير الاعظم في العاصمة، مثل:

١- **الدفتردار**: أي المفتش العام في الولاية.

٢- **القاضي**: الذي يرتبط عادة بقاضي أناطوليا وينصّب من قبله.

٣- **المفتي**: منصب ديني يرتبط بـ «شيخ الاسلام» في العاصمة، وهو «فخري».

أما السناجق فإدارتها بسيطة يقف على رأسها:

١- **السنجق بيك**: وهو المسؤول الاعلى على الأمن والنظام والاحوال المالية ويساعده ملاك بسيط من الموظفين يقف على رأسهم:

٢- **الآي بيك**: وهو المسؤول عن السباهية (= الفرسان)، وتهيئتهم للحرب في الاقطاعات العثمانية.

٣- **الصوباشي**: وهو ضابط البوليس أو الدرك أو الشرطة الذي يعاونه جهاز أمني صغير من أفراد الشرطة.

و يمكننا القول بأن الدولة العثمانية قد عدت ولاية البصرة إحدى ايالات السالیانة المرتبطة بالوالي، وتابعة للخزانة الاميرية (= خزانة الدولة). أما تنظيم ايرادات ايالة السالیانة، فهو أن يقوم الوالي بجمع إيرادات الايالة المقررة شرعاً، ثم يستقطع مصاريف الوالي والسنجق بكية، وبقية المرافق الادارية في الولاية، وأخيرا يرسل المتبقى الى الخزانة المركزية في اسطنبول تحت إسم «ارسالية» أو «سالیانة»*.

* انظر التفاصيل في: علي شاكر علي «التنظيمات المالية في البصرة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر»، مجلة المؤرخ العربي، العدد(٢٧)، السنة (١٢)، بغداد، ١٩٨٦، ص ٨٤.

أما في بقية الولايات العراقية، فقد اعتمدت الدولة العثمانية على إيرادات اقطاعاتها التي سيطر عليها العديد من الاقطاعيين الكبار من خلال سيطرتهم على الارض بأصنافها الاقطاعية- العثمانية (الخواص/ والزعامات/ والتيمارات). ويذكر العديد من المؤرخين بأن ما يقدمه الاقطاعيون في كل الولايات للدولة يساوي نصف ايراداتها كاملة *.

٥/ بلاد المغرب العربي:

(١) **المقاومة البحرية** **: ظاهرة تاريخية بارزة في الصراع البحري بين أطراف متعددة على سواحل البحار الاستراتيجية خلال التواريخ الحديثة. وقد برزت على نحو فعّال وخطير في القرن السادس عشر والقرنين التاليين عليه. واستخدام «مصطلح القرصنة» من قبل المؤرخين الاوروبيين على نحو يسيء كثيراً الى الحقائق التاريخية الناصعة في صفحات تاريخ العرب الحديث.. في حين لم تكن المقاومة البحرية خاصة بالمغاربة أو الجزائريين أو التوانسة،، أو حتى بالاندلسيين الموريسكيين.

كانت عملياتهم الجريئة والقوية في الحروب البحرية عبر الحوض العربي من البحر المتوسط بمثابة ردّ فعل قوي تجاه القرصنة الاوروبية التي عرفتها دول اوروبا في مختلف البحار، وبخاصة الاساطيل الاسبانية والبرتغالية، فضلاً عن الفعاليات الغادرة لفرسان القديس يوحنا وجمهورية فينيسيا.

يقول المؤرخ الفرنسي بروديل- F. Braudel-: «لقد حلّ تاريخ القرصنة العام محل تاريخ الأمم والامبراطوريات»، في حين يقول ماسكاتري: «القرصنة مارسها الجميع سواء كانوا من الاوروبيين أم من المغاربة». ويعد تاريخ القرن السادس عشر هو تاريخ العصر الذهبي للمقاومة المغاربية والتونسية خاصة ولابد أن نوضح اسباب ظاهرة المقاومة المغاربية وعوامل نشوئها ونموها وتبلورها:

---

* راجع كتابات خليل اناجيك وستانفورد شو وهاملتون كيب وخليل ساحلي اوغلو وغيرهم في التاريخ الاقتصادي للدولة العثمانية.

** المقاومة البحرية أو الحرب البحرية هي التي اصطلح عليها بـ «القرصنة» في معظم المصادر التاريخية العربية والاجنبية

١- من الواضح أنه لا يمكن تفسير قيام المقاومة مع أساس الصراع التاريخي القائم عصر ذاك بين الشرق والغرب، فنمو المقاومة المغاربية بخاصة، يعود الى ظروف معينة. وإن القرصنة ظهرت في ظل وجود علاقات دولية تميزت بتفوق أوروبا = الشمال) من ناحية، وإنحطاط المنطقة العربية (=الجنوب) من ناحية اخرى.

٢- ان المقاومة المغاربية قد اشرف على تنفيذها «الرياس» وهم فئة من الاتراك كانت دخيلة وطارئة على المجتمع العربي، وهم الذين سمحت لهم التعليمات العثمانية بتطوير عمليات المقاومة البحرية من خلال توليهم مقاليد الحكم في المغرب العربي. ويظهر - لنا- أنها لم تول أية عناية لتنمية الموارد المالية التي إكتسبتها من مصادر البحر.

٣- يمكنني أن أضيف عاملاً أساسياً آخر، ذلك أن ظاهرة المقاومة البحرية تعدّ البديل التاريخي لعمليات النزوح الموريسكية الكبرى من شبه اللجزيرة الايبرية عبر البحر المتوسط لآلاف مؤلفة من السكان الذين كانوا يمتلكون أوطاناً قديمة عمرها قرابة ثمانية قرون، خاصة وأنهم كابدوا شقاء عميقاً حتى بعد إستقرارهم في المغرب العربي. فالمقاومة البحرية ردّ فعل موريسكي عربي مغاربي ضد تجاوزات أوروبا الكاثوليكية وإمتداداتها.

أما دوافع المقاومة البحرية*، فيمكننا حصرها على التوالي:

١- إنها تتماشى ونزعة رياس البحر الاتراك ضد اوروبا.

٢- كانت الانظمة الحاكمة المتعددة في المغرب العربي بحاجة الى الاموال منذ بداية تأسيسها في القرن السادس عشر.

٣- تدهور التجارة بسبب إنقطاع تجارة الذهب السوداني التي كانت عملياتها رائجة دوليا من خلال السودان الغربي.

ان ابرز من عالج تفصيلات هذا الموضوع كل من المؤرخ الجزائري احمد توفيق المدني والمؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي. انظر عبد الجليل التميمي. الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الاندلسيين، (CEROMDI) زغوان، ١٩٨٩.

٤- حلول النقود الاوروبية وإنتشارها، وخاصة الاسبانية منها محل النقود المغربية، مما أثر تأثيراً بالغاً على تبلور ظاهرة القرصنة.

٥- إنتعاش القرصنة الفرنسية في عهد الداي عثمان، ويعلل ذلك بنزوح المرتزقة الذين كانوا يشكلون الاطار التقني الضروري.

٦- نزوح الاندلسيين- الموريسكيين الذين فروا بدينهم نحو السواحل المغاربية/ العربية، وكانوا ناقمين على الاسبان وذلك للممارسات القمعية ومحاكم التفتيش. الارهابية ضد المسلمين واليهود معاً.

٧- إن المغاربة العرب مارسوا عمليات بارزة في الحرب البحرية في ظروف اقتصادية وسياسية صعبة ومعقدة، فقد كان هناك صراع بين الشمال والجنوب في التجارة الدولية.. وكان هناك تسابق في المصالح الاقتصادية، فقد منع التجار المسلمون من حق الملاحة في البحر على حساب التجار الاوروبيين. وقد قال احد القناصل الافرنسيين يوماً: «إن تجارة مرسيليا إنما تتوقف على القضاء المبرم على تجارة المغاربة..».

٨- في ظل تلك الظروف التاريخية التي رافقتها تحولات كبرى في العالم فقد تحولت «الحروب البحرية» الى شكل من أشكال جمع الثروة، ووسيلة من وسائل عيش المغاربة.

٩- أصبحت القرصنة- فيما بعد-، وسيلة ضغط في أنظمة الحكم المغاربية لحمل الدول الاوروبية التي لا تعترف بالحكومات والادارات المغاربية.

١٠- وهناك دوافع اخرى، أبرزها: الدافع الديموغرافي بتنامي عدد السكان في منطقة المغرب العربي، وبشكل كبير دفع بالمدن الساحلية أن تغدو مراكز إمتداد جغرافي عميق في البحر المتوسط.

(٢) دايات تونس ١٥٩١- ١٦٤٠م والتركيب التاريخي:-

انتصرت حملة سنان باشا لكي تؤدي نتائجها في سنة ١٥٧٤م الى انهاء الوجود الاسباني من السواحل التونسية، واسقاط نظام الحكم الحفصي والدولة

الحفصية. فتحولت تونس تاريخياً الى ايالة عثمانية مهمة من ايالات الدولة المتعددة بعد ان ورثها الحفصيون جملة من التقاليد السياسية والاعراف الاجتماعية. وقد نصّب في حكم تونس قائد عسكري برتبة «باشا» له إشرافه على الجيش الانكشاري الذي بلغ عدده اربعة آلاف جندي. ويقف على رأس الجيش قائد برتبة «الآغا»، وقسم هذا الجيش الى عدد كبير من الفرق العسكرية، وقف على رأس كل فرقة ضابط برتبة «داي».

سيطر الجيش العثماني على جميع المناطق التونسية لاقرار الامن والنظام، وترسيخ نظام حكم جديد من خلال فعاليات الجيش الانكشاري. وانتشرت في الموانيء البحرية قطعات اسطول بحري عثماني يرأسه «قبطان ريّس» الذي كان يشرف على كبار الضباط وكانت له مهمة الفصل في شؤون الجيش، وادارة الولاية، وتنصيب «الباشا» ضمن مهام هيئة عليا اطلق عليها «الديوان».

خلال هذا العهد، كانت تونس تابعة للادارة العثمانية في الجزائر، وقد بقيت على تلك الحال حتى سنة ١٥٩٠م، إذ انفصلت، واصبحت، تحت حكم الباشوات الذين ينصبهم الباب العالي، والى جانبهم «الدايات» المختارون من قبل الجيش الانكشاري ولقد بلغ عهد الدايات اوج قمته من حيث سمو المكانة والتصرف المطلق، والقوة في البر والبحر، وقام الدايات باعمال خطيرة جسدتها ظاهرة «القرصنة» وخاصة في عهد اسطا مراد داي.

لقد دام عهد الدايات في تونس للفترة ١٥٩١-١٦٤٠م، متميزاً بانتقال السلطة الفعلية من الباشا والديوان الى «الدايات» الذين كانوا على رأس الفرق العسكرية- الانكشارية. ويعود هذا الانقلاب في النظام المحلي الى جملة من الاسباب التاريخية، هي:

١- شعور الدايات بنفوذ متزايد بسبب تحكمهم من الطائفة العسكرية- الانكشارية، وبسبب مأموريتهم وخدماتهم الكثيرة في جمع الضرائب، والحفاظ على الأمن والاستقرار في كل من المدن والمقاطعات.

٢- لقد نجح الدايات كفئة لها امتيازاتها في اجهزة النظام ان تتحالف مع الجند الموالي لهم، من خلال منح الرواتب والعطايا.

٣- استبداد الباشا والسلطات النافذة للديوان في الحكم المطلق.

تأثر الدايات بما كان يجري في الجزائر من احداث سياسية، حيث كانت طائفة الانكشارية هناك قد قلبت نظام البايلر بيكات.

هذه هي بعض الاسباب التي بدأت تونس من خلالها تستحوذ على شخصية عثمانية لها، ولكي تتميز عن الايالة الجزائرية ببعض الخصائص، وإلى غاية ١٥٩٠م كانت ايالة تونس تابعة للجزائر، لكي تغدو بعد تلك السنة تابعة للاستانة تبعية مباشرة، لكي يأخذ التاريخ الحديث لتونس له مساراً آخر.

ويمكننا ان نوضح- هنا- أن الايالة التونسية قد مرّت باربعة عهود تاريخية اساسية، في تكوينها الاجتماعي والاقتصادي الحديث ومن خلال علاقاتها المتميزة بالعثمانيين الذين وفروا لها مناخاً له سماته وخصائصه من التفاعل الاقليمي بازاء الايالتين الماجورتين: طرابلس الغرب شرقاً والجزائر غرباً، وحركة الاتصال باروبا شمالاً سلباً أم ايجاباً... ان العهود العثمانية التي مرت بها تونس العثمانية تعد بمثابة انساق تاريخية لها، وكان العهد الاخير بمثابة قاعدة تاريخية ترسخت من خلالها النزعة الوطنية- التونسية ضد نظام الحماية الفرنسية حتى الاستقلال وإعلان نظام سياسي جديد عام ١٩٥٧ يقوده الحبيب بورقيبة وتحت اعلان «الجمهورية التونسية»، والعهود التاريخية، هي:

١- عهد الباشوات ١٥٧٤- ١٥٩٠م.

٢- عهد الدايات ١٥٩١- ١٦٤٠م.

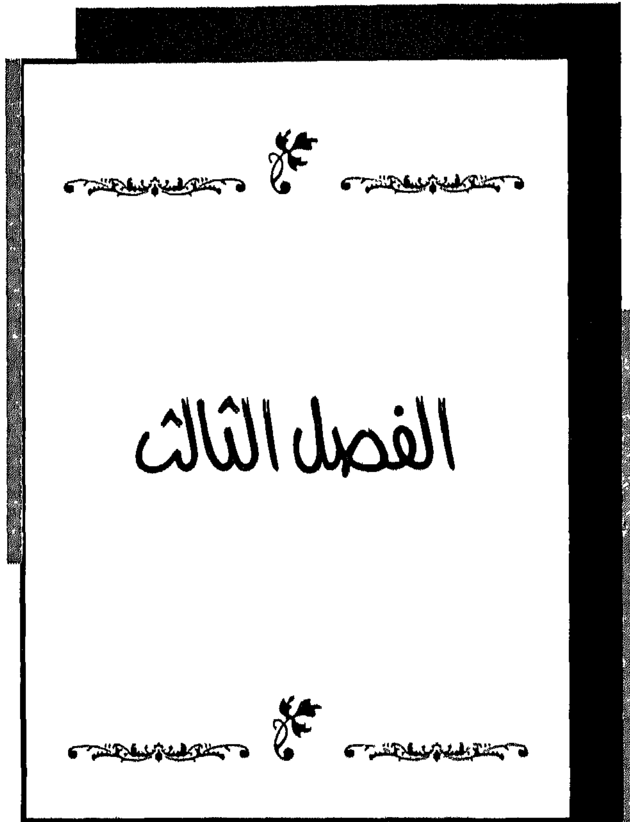
٣- عهد الاسرة المرادية ١٦٥٩- ١٧٠٥م.

٤- عهد الاسرة الحسينية ١٧٠٥- ١٩٥٧م*.

---

* التفاصيل في: د سيّار الجميل «نظام الادارة العثمانية اللامركزية في الولايات العربية...»، بحث مقدم الى المؤتمر الدولي الرابع للدراسات العثمانية، تونس، ١٩٩٠.
وانظر ايضاً -

Robert Mantran "Levolution des relations enter la Tunisie et lempire attoman du 16 au 19 siecle " Cahiers du Tunisie, 2 et 3 trim. 1959.



الفصل الثالث

٣ الفصل الثالث

بقايا النظام التاريخي العربي الوسيط واثره في البنية العربية الحديثة

مفهوم الدواخل والاطراف:-

لقد اهتم العرب بالعثمانيين باعتراف معظم المؤرخين العرب، ومنهم: ابن اياس وابن زنبل والمحبّي والنهروالي والمرادي والعمري وغيرهم – وأطلقوا على السلطان سليم الاول لقب «خادم الحرمين الشريفين»، وهو السلطان العثماني الذي قضى على نظام الخلافة المتمثل برمزه الروحي في القاهرة المملوكية ١٥١٧م. وكانت الخلافة العربية قد افتقدت مضامينها السياسية قبل ذلك بثلاثة قرون على يد السلطان التركي في دولة بني العباس.

هكذا، نستنتج ان هذا الحدث التاريخي يمثل البداية الحقيقية لتاريخ العرب الحديث، اذ تبلور ذلك من خلال تاريخ الارتباط بالمركزية – العثمانية في اسطنبول، وليس من خلال الارتباط بتاريخ اوروبا الحديث الذي بدأ مع حدث عثماني ولكن من نوع آخر، ذلك هو فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م. وفضلاً عن ذلك، فان المركزية العثمانية قد جاءت تطبيقاً لبنود القوانين التي اصدرها السلطان سليمان القانوني ضمن «نظام اقليم الشرق» والتي كرست الممارسات الادارية والاقطاعية العثمانية الصعبة في المجتمع العربي. ومن هنا ندرك كم كانت التنظيمات الادارية والقانونية العثمانية مؤثرة في البنية العربية التي لم تالفها عبر تاريخها الاسلامي الطويل.

لقد رسمت بنود قوانين نظام الشرق خارطة البيئة العربية على نحو جديد، لم تالفه القرون السابقة، وبخاصة في الدواخل المنحصرة بـ: العراق وسوريا

والحجاز ومصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر (ماتبقى من البيئة العربية فهو اطراف)، والتي عاشت هيمنة حكومية عثمانية - ادارية، في حين عاش كل من لبنان واليمن وشهرزور فضلاً عن اللواحق الجغرافية بالاقاليم المهمة (أي لواحق الدواخل) تخلخلاً عثمانياً. وبقيت الاطراف الجغرافية البعيدة مستقلة استقلالا كاملاً عن العثمانيين كسلطنتي المغرب ومسقط/ زنجبار، اذ انحسرت بهما وبعض الاطراف الاخرى كحضرموت والصحراء الكبرى والسودان بقايا النظام العربي (الديني او القبلي) القديم. اما البنية الشريفية في مكة، فقد اعلنت عن ولائها للعثمانيين وتحالفها معها دون استقلالها، فكانت اشبه بنيابة عثمانية كتلك النيابات العثمانية التي زرعها العثمانيون في شرقي اوروبا، مع فارق واحد ذلك هو ما اكتسبه اقليم الحجاز من قيمة مقدسة واجلال وتعظيم من البلاط العثماني.

ولا بد ان نتوقف قليلاً لتوضيح الفوارق الجيو تاريخية بين الدواخل العربية والاطراف الجغرافية المنتشرة حواليها، فنقول

إن الدواخل العربية تتميز بتضاريسها الجغرافية السهلية الصالحة للزراعة الموسمية، وذلك لوفرة مياهها، وكثافة سكانها، وانتشار المدن وقصباتها. فضلاً عن امتداد المسالك التجارية التي ترتبط واحدتها بالاخرى عبر المدن العربية ناهيك عن رصيدها الحضاري والاقتصادي في ابرز حواضرها التاريخية التي كانت مراكز اقليمية قديمة، او اسواقاً تجارية ضخمة، او موانئ استراتيجية تربط الشرق بالغرب، او الشمال بالجنوب. وقد ارتبطت الاطراف بها ارتباطا مصيرياً من اجل الحياة.. لقد كرّست السيادة العثمانية نفسها على الدواخل العربية التي ذكرناها آنفاً..

اما الاطراف، فتتشكلها جغرافياً وجيولوجياً كل من: نجد والجزيرة الفراتية والربع الخالي والدهناء والهفوف والصحراء الكبرى وموريتانيا والسودانيين الشرقي والغربي وارتيريا والصومال والسواحل الخليجية وحضرموت وعمان وعسير والجزر العربية والصحراء المغربية..

ان كلاً من الدواخل والاطراف العربية* محاطة بأحزمة جبلية وبحرية تفصلها عن العوالم الجغرافية الاخرى، فسلاسل جبال طوروس وانتي –طوروس وزاكروس والخليج العربي كلها فواصل بين الوطن العربي وبين تركيا وايران. اما البحر المتوسط والمحيط الهندي والبحار العربية، فانها تفصل الوطن العربي عن الهند وسيلان واوروبا .. في حين تفصل الصحاري الكبرى الافريقية الوطن العربي عن افريقيا الاستوائية.

لقد ترسّبت في البيئة العربية خلال القرون الخمسة المتأخرة بقايا النظام التاريخي العربي القديم، والذي بقيت تبرزه نماذج مختلفة من الكيانات على شكل «سلطنة» ام «امامة» ام «شرافة» ام «مشيخة» ام«مملكة» ..على الاطراف العربية.. ويمكننا ان نبرز اربعة نماذج تاريخية عربية اساسية في تاريخ العرب الحديث، وتوضيح طبيعة علاقاتها – باختصار – ازاء العثمانيين الذين حكموا الاقاليم المهمة في الدواخل العربية، والنماذج هي :

١٠ اشراف مكة في الحجاز: سلالة شرافة دينية مقدسة تحالفت مع العثمانيين.

٢٠ اليعاربة والبوسعيد في مسقط: امامة اقليمية مذهبية تهادنت مع العثمانيين .

٣٠ السعديون والعلويون في المغرب الاقصى : سلالة شرافة سلطانية عربية مستقلة عن العثمانيين .

٤٠ الأئمة الزيديون في اليمن: امامة مذهبية سلالية متصارعة ضد العثمانيين .

فضلاً عن نماذج متعددة اخرى صغيرة ومنتشرة على الاطراف العربية، وفي بيئات مختلفة، عاشت حياتها ضمن اطارات من السنن السلطوية المنعزلة او المستقلة او المتعايشة في علاقاتها مع العثمانيين. وقد تميزت بتوارث تلك السنن

* من اجل تفاصيل عن هذه النظرية، انظر : سيّار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من اجل بحث رؤيوي معاصر، مؤسسة الابحاث العربية، ١٩٨٩، ص ٣٥٦–٣٦٢.

حضرية كانت ام بدوية منذ العصور الوسطى. وعلى الرغم من التوتر المستمر في اقتصادياتها ووحداتها الاجتماعية، كونها تعرضت الى المزيد من المحن والكوارث الطبيعية (= فيضانات / اوبئة / مجاعات ..) فانها كانت متخلصة من الحالات الغريبة التي عاشتها الدواخل العربية تحت حكم السيطرة العثمانية. ولا سيما ممارسات النظم الاقطاعية العثمانية عسكرياً واقتصادياً .. فبقيت تتوارث النزعات العربية، وفي حين انهمك اشراف مكة بالقضايا المحلية لشؤون الحج، ومشكلات عدة تختص بالطبقة والانقسام والسلطة.. عاش اليمن معضلة صراع تاريخي طويل الامد ضد السيطرة العثمانية من اجل البقاء والحياة.

إن عناصر التشابه والتجانس تميز طبيعة بقايا النظام العربي القديم في ظواهره وبنيوياته، ولكن « ..ثمة تغييرات تحكم طبيعة دواخله، إذ لا يمكن قياس حالات عاشها «الاشراف» في مكة، بالنظام السياسي المستقل الذي تطّور تاريخياً في ظل الهيئتين السعدية والعلوية في حكم المغرب الأقصى. وهذا ينطبق ايضا على نظام«الائمة» في اليمن، وهو نظام سياسي قديم ينتمي الى العصور الوسطى . ومن الغرابة بمكان ان نموذج النظام العربي القديم بقي يتمتع بشرعيته وممارسة سلطاته على الاطراف الجغرافية للمنطقة العربية، في حين انه مات في الدواخل العربية منذ عهود طويلة .. ومن الطريف جدا ان نجد مستحدثات هذا «النظام» العربي باقية حتى يومنا هذا»*.

ولنتوقف قليلاً لدراسة بعض النماذج التاريخية – العربية في الاطراف .

١. بلاد اليمن : الأهمية التاريخية والجغرافية:- **

ارسل امير اليمن مبعوثه إلى السلطان سليم الاول اثر السيطرة العثمانية على مصر عام ١٥١٧م، وقد حمل المبعوث الهدايا لابداء الودّ والصداقة. وعليه، فقد تتابع سقوط اليمن العثمانية من جراء سقوط دولة المماليك التي كانت تهيمن على

---

* د. سيّار الجميل، المصدر نفسه، ص ٢٠٢–٢٠٣.

** من الأهمية بمكان ان نذكر بأن تاريخ اليمن الحديث (الامامي × العثماني) هو تاريخ معقد وغني بالاحداث وغزير بالمعلومات المهمة التي تتطلب من المؤرخين العرب دراستها والبحث فيها مطولاً.

اليمن اولاً ، وبسبب نفوذ الاساطيل البرتغالية في البحار الشرقية والبحر الاحمر خصوصاً ثانياً، فكان على كل من نظامي اليمن والحجاز ان تحميهما القوة العثمانية الاسلامية بعد ان هدّد البرتغاليون مدينة جدة سنة ١٥٠٥م / ٩١١هـ. وبدأوا بتهديد مدينتي مكة والمدينة، فكان ذلك مدعاة اساسية لاهتزاز الكيان العربي الاسلامي، وقد ضاعت سدىً مناشدة دولة المماليك في مصر قبل سقوطها بيد العثمانيين، فكان التدخل العثماني بمثابة النجدة التاريخية لدرء الاخطار الغربية – البرتغالية. ورفع العثمانيون لواء الحرب ضد البرتغاليين الذين كانوا قد تحالفوا مع بعض الاطراف في العالم الاسلامي، ومنها : الدوّلة الصفوية في ايران التي كان صراعها قد استفحل ضد الدولة العثمانية على عهد السلطان سليم الاول والشاه اسماعيل الصفوي .. فضلاً عن اهتمام الدولة العثمانية بالبحر الاحمر... وكانت تلك هي احدى الوسائل البارزة في معالجتها للمشاكل الاقتصادية التي بدأت مصر تعاني منها، بعد ان تحولت طرق التجارة الشرقية عنها اثر اكتشاف رأس الرجاء الصالح .

يتمتع اليمن بموقع استراتيجي فعّال خلال التواريخ الوسيطة والحديثة، وكان لا بد ان تبرز اهميته البالغة لكي يستفيد العثمانيون منه سياسياً، واقتصادياً، وفضلاً عن جعله منطقة دفاع استراتيجية في جنوبي الامبراطورية العثمانية شاسعة الاطراف، لا سيما وانه يطلّ على البحار الشرقية، ويستفاد كثيراً من مضيق باب المندب في التعامل مع الشرق والغرب .

فالسيطرة على اليمن تضمن للعثمانيين سلامة الحرمين الشريفين في الحجاز، والتحكم في البحرين : الاحمر والعربي، والاشراف على البحار الشرقية، اضافة الى جعله : قاعدة استراتيجية ضد القوى البرتغالية والصفوية، كمحطة اتصال في التعامل مع اجزاء العالم الاسلامي في كل من اعماق اسيا وافريقيا.

١/ الحملة العثمانية على بلاد اليمن «ومبرراتها» :

تمكن العثمانيون من فرض سيطرتهم على اليمن التي أعلن امراؤها تبعيّتهم اثر سقوط القاهرة عام ١٥١٧م، إلا ان بعضاً من القادة المماليك لم يذعنوا لأوامر السلطان العثماني ، وخرجوا عن طاعته ، واعلنوا استقلالهم، وبدأوا بتهديد الولاة

الاتراك الذين تولوا الحكم العثماني لليمن، ولم تكن هناك قوة عسكرية للرّد على التهديدات المحلية، فما كان منهم الا الفرار من اليمن.ولم ينفع تنصيب الدولة العثمانية لبعض القادة المماليك حكاماً على اليمن باسم السيادة العثمانية. فوجدت الدولة ان خير سبيل لضمان تبعية اليمن واكتسابها فعلاً، هو اسلوب الاحتلال العسكري، وتأسيس حكم عثماني بقوة السلاح. وقد استمر الحكم العثماني الاول على اليمن للفترة ١٥٣٨-١٦٣٥م، اي قرابة قرن كامل من التاريخ العربي الحديث.

لقد أمر السلطان سليمان القانوني بتجهيز حملة عسكرية ضخمة أبحرت سفنها من ميناء السويس في ٢٧ حزيران / يونيو ١٥٣٨م، بهدف القضاء على البرتغاليين الذين كانوا يغيرون على المدن الساحلية العربية وموانئ البحر الاحمر والبحر العربي ويهددونها. وصل الاسطول العثماني الى عدن في اواخر شهر تموز/ يوليو ١٥٣٨م بقيادة سليمان باشا الارناؤوطي، أحد ابرز القادة العثمانيين الذي غدر بأمير عدن الذي ابدى استعداده للتعاون مع العثمانيين ضد عدوه الامام شرف الدين الزيدي الذي كان يحكم قلب اليمن وله اطماع في عدن.. وسيطرت القوات العثمانية على عدن دون قتال في ٣ آب / اغسطس ١٥٣٨، وقضى سليمان باشا على الاسرة الطاهرية الحاكمة باعدام جميع افرادها بقسوة، ومصادرة املاكهم واموالهم بحجة تعاونهم مع البرتغاليين ومحاولتهم تسليم عدن اليهم، وهي تهمة نفاها عدة من المؤرخين فيما بعد. ونصب سليمان باشا احد ضباطه واسمه «بهرام» على ادارة عدن، ومضى باسطوله نحو الهند لمواصلة الحرب ضد البرتغاليين، ولكنه فشل في حملته، وعاد الى عدن منسحباً. اما حضرموت، فعلى الرغم من امتداد العثمانيين الى سواحلها وثغورها، فان سكان المناطق الساحلية رفضوا الحكم العثماني ولم يعترفوا بالولاء للسلطان العثماني، فعادت القوات العثمانية الى عدن ايضاً. وهكذا ايضاً، اعلنت تبعية مخا للدولة العثمانية، وسيطرت على الصليف ومنها تقدم الاتراك نحو زبيد، وغدروا بالحاكم المملوكي واعدموه مع رفاقه، فقضوا على الحكم المملوكي في اليمن نهائياً.. فما ان جاءت نهاية سنة ١٥٣٨م/ ٩٤٥هـ حتى خضعت اليمن خضوعاً تاماً وفعلياً للسيادة العثمانية

ويبدو للدارس والمؤرخ ان الولاء الذي صدر عن اليمن للسلطان سليم الاول لم يكن يمثّل إرادة اليمنيين بالقبول تجاه الامتداد العثماني، بل مثّل إرادة الحكام الاقليميين. ولكن إذا كان العثمانيون قد إستطاعوا إيقاف التوسّع البرتغالي في البحر الاحمر فإنهم قد أخفقوا في تحطيم السيطرة البرتغالية في البحار الشرقية، وتامين المسالك البحرية الاستراتيجية أمام التجار العرب الدوليين في تلك البحار الشرقية باتجاه الهند وجنوبي شرق آسيا. وكانت هناك ثمّة أسباب تقف وراء ذلك الاخفاق المرير:

١. الاهمال العثماني في إستخدام القواعد الاستراتيجية في البحار العربية، ومنها الجزر والسواحل الافريقية.

٢. عدم وجود تآلف عثماني- عربي لصدّ التوسّع البرتغالي نتيجة للقسوة التركية التي إستخدمها القادة العثمانيون الذين تابعوا سياسة الغدر والعنف والقسوة تجاه اليمنيين.

٣. الاعتماد على حوض البحر الاحمر فقط في صدّ التحدي البرتغالي دون الاعتماد البحري أيضاً على كامل حوض الخليج العربي لإقامة توازن إستراتيجي بغية تطويق الاطماع البرتغالية .

٢/ تطوّرات الاحداث والحملة العثمانية الكبرى:

لا بد للدارس المؤرخ أن يقف مندهشاً أمام تاريخ اليمن الحديث الذي إمتلأ باغرب الانتفاضات العنيفة ضد العثمانيين، ومقاومة السكان العرب الضارية للولاة وسياساتهم القاسية. وعليه، فإن الاتراك لم يبقوا سوى قرن واحد وللفترة ١٥٣٨-١٦٣٥م، ثم تركوا اليمن ليعودوا إليه مرة أخرى بعد قرابة قرنين ونصف القرن من الزمن، أي في منتصف القرن التاسع عشر وليحكموه كولاية بإدارة عثمانية - مركزية قرابة نصف قرن للفترة ١٨٧٢-١٩١٨م.

السؤال الآن: كيف نفسّر طبيعة العلاقة السلبية بين اليمن والعثمانيين خلال المرحلة التاريخية الاولى؟

بعد السيطرة العثمانية على عدن في ٣ آب ١٥٣٨م، ثارت القبائل اليمنية على الحامية العثمانية إنتقاماً لمقتل أميرها عامر بن داؤد الطاهري. وقد سبّبت الاحداث الدامية تلك قلقاً عثمانياً حدا بالباب العالي أن يرسل إسطولاً بحرياً عبر البحر الأحمر تحت قيادة بيري ريس الذي تمكن بسهولة من استعادة عدن بعد إخماده لثورة القبائل، في حين أقيل سليمان باشا عن منصبه، ورجع إلى اسطنبول، وأسندت ولاية اليمن لمصطفى غزة الذي إتخذ مدينة زبيد عاصمة لولايته*، وأرسل نوابه الى كثير من قسمات اليمن.

إستطاع العثمانيون ان يتوسّعوا في أجزاء اليمن منذ عام ١٥٣٩م، وكان الاصطدام بينهم وبين الامام الزيدي شرف الدين، وبعد معارك عدة، سيطر العثمانيون على تعزّ سنة ١٥٤٥م، ثم سقطت مدينة صنعاء التي كان السيطرة صعبة عليها، بسبب موقعها بين الجبال التي اتخذها الأئمة الى جانب مدن أخرى محطات للتحرك الزيدي المناوئ للعثمانيين، فقد إكتسب الأئمة شعبية واسعة في اليمن ضد حكم الاتراك الغرباء الذين إختلفوا عن أبناء اليمن كثيراً. وقد إستخدم العثمانيون أساليب متعددة في التفرقة والشقاق.

شهدت اليمن وعاصمتها صنعاء بالذات سنة ١٥٤٧م، وقائع دموية وفظائع كثيرة إثر سقوطها بيد العثمانيين الذين استعصت عليهم طويلاً، فتوطّد مركزهم، ونصّب عليها الوالي «أزدمر» الذي أنعش الاقتصاد قليلاً، وخفف الضرائب كثيراً، ولكن مقاومة الامام المطهر للعثمانيين لم تضعف، بل نجح في فرض حصار إقتصادي على صنعاء بقطعه لخطوط التموين عنها وعن مدن أخرى. وتمكّن المطهر من دخول صنعاء في سنة ١٥٦٨م، بعد أن عقد صلحاً مع العثمانيين الذين انسحبوا بموجب الاتفاق المبرم الى زبيد وسهول تهامة.. وعلى الرغم من الحملات الامامية على زبيد قصد إخراج العثمانيين منها، فإنها جميعها باءت بالفشل.

---

* للاتسزادة، انظر: قطب الدين المكي النهر والي، البرق اليماني في الفتح العثماني، السعودية، ١٩٦٧

وجاءت الحملة العثمانية الكبرى بقيادة سنان باشا ضد الامام المطهر، وهي مزّودة بالاسلحة القوية ، وكان سنان باشا يعد من أبرز قادة الامبراطورية العثمانية التي كانت قد وصلت إلى أوج قوتها ، وله جهود حربية وإدارية مشهودة خلال عهد سليمان القانوني، كما وانضمت الى حملته قوات عثمانية كانت مرابطة في مصر .

وقد اطلق على سنان باشا فيما بعد لقب «فاتح اليمن» الذي نزلت قواته في زبيد، وبدأت بالزحف تجاه مواقع قوات المطهر ، فدار اكثر من معركة ضارية، إستطاع سنان باشا أن يقهر مراكز خصمه بمدافعه القوية ! واستعاد العثمانيون صنعاء في سنة ١٥٧٠م، بعد مغادرة المطهر الى الجبال بحّجة إشفاقه على أهاليها من مكابدات الحرب أو أهوال الحصار، فحقق العثمانيون نصراً كبيراً برغم أنهم لم يتمكنّوا من التوسّع شمال مدينة صنعاء وذلك للمقاومة الشديدة التي دامت سنتين، والتي انتهت بوفاة الامام المطهر في ١٥٧٣م، والتي منحت العثمانيين فرصة للامتداد والتوسع ، إذ تمّ الاستيلاء على مراكز وقلاع عدة، وقضوا على مركز الامامة الزيدية في صعدة، فانهارت بذلك حركة المقاومة اليمنية لحين من الوقت . على أن القتال سيعود من جديد بتولي الامامة المنصور القاسم بن محمد الذي اشتهر بمعاركه ضد العثمانيين ولكن إستطاع العثمانيون من محاصرته ، وأسر إبنه محمد وبعض أقاربه*.

٣/ العثمانيون في اليمن بين السيطرة والتحدي :

لقد عاشت اليمن حالة صراع اقليمي ومحلّي ضد العثمانيين، وقد حمل راية الصراع الائمة الذين كان حكمهم قد ترسّخ على مدى قرون طويلة . وقد ظفر بعض الولاة بتقدير من أبناء الشعب اليمني، فقد حكم محمد باشا الوالي العثماني اليمن خلال عام ١٦١٧م، وإتصف بإدارته الكفوءة في سبيل مصلحة الاقليم الذي يحكمه، وقد حاول أن يوفّق في مساعيه بين الدولة العثمانية التي يرتبط بها إدارياً،

* للتفاصيل ، انظر : د. محمد عيسى صالحية، «وثائق جديدة عن حملة سنان باشا الى اليمن سنة ٩٨٦هـ/ ٦٨-١٥٦٩م» حوليات كلية الأداب، جامعة الكويت، الحولية الثامنة ، الرسالة (٤٢)، ١٩٨٦/ ١٩٨٧م، ص ١١-١٤.

وبين نظام الأئمة الزيدية الذي كان يمثّله الامام المنصور القاسم بن محمد في اليمن.. ولكن لم تستقر الاحوال غير سنة واحدة حتى إندلعت الحرب بين الطرفين من جديد. وقد أحرزت قوات الامام القاسم بقيادة ولديه الحسن والحسين إنتصارات على العثمانيين مسيطرة على معظم الاطراف الشمالية من اليمن، مما يدّل على أن روح المقاومة اليمنية ضدّ الاتراك كانت قويّة وفعالة، وفشلت المساعي الدوبلوماسية التي أرادها محمد باشا، ولم تطبق بنود الصلح بين الطرفين، تلك التي نصّت على أن الدولة العثمانية أقّرت بموجب ذلك الصلح للأئمة بما لهم من بلاد وأقاليم لمدة عشر سنوات مقابل الاعتراف منهم بسيادتها في بلادهم.. ونصت أيضاً على أيقاف القتال بين الجانبين، ومنع التدخلات العسكرية العثمانية في المناطق الشمالية. يقول المؤرخ العرشي وهو يمني زيدي منصف بأن محمد باشا كان «ممن أحسن الرياسة، وأدرك السياسة، وعامل بالعدل الرعية، وتفقّد أحوال المتمسكين بالسلطنة العثمانية»*.

وقد دعم العثمانيون نفوذهم في مناطق يمنية اخرى كزبيد وعدن، وكانوا يواجهون سلسلة من الهجومات القوية التي كان يقف وراءها الامام المؤيد محمد بن القاسم بعد إستحواذه على منصب الامامة إثر وفاة ابيه، مستوليا على أصقاع البلاد اليمنية رغم وصول حوالي عشرة آلاف جندي عثماني من مصر عن طريق الحجاز، لدعم الحامية العثمانية في اليمن، وتوفير حالة الاستقرار. وقد إستطاع الامام المؤيد ان يسيطر على جميع مدن تهامة دون الوصول الى المدن التي كان العثمانيون يستقرون فيها كزبيد ومخا وموزع والتي توزعت فيها قواتهم العسكرية.

لقد وجد العثمانيون أنفسهم وجهاً لوجه أمام مقاومة عربية عنيفة في اليمن، ونزاعاً مسلحاً مستمّراً، واستياءً عاماً من أبناء اليمن الذين شكلوا بتحالفهم الثنائي ضد العثمانيين جداراً قوياً. فقد تحالف الزيديون الذين كانوا يتخذون

---

* انظر: حسين بن احمد العرشي، بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام، تحقيق الاب انستاس ماري الكرملي، مطبعة البرتيري، القاهرة، ١٩٣٩، ص ٦٢ ـ ٦٣.

المناطق الجبلية مواقع ممتازة لعملياتهم في الكّر والفر، فضلاً عن جعلها مأوى يوفر الامن لهم، تحالفوا مع أخوانهم في تهامة برغم الاختلاف بين الطرفين.

خسر العثمانيون في تلك العمليات المزيد من الارواح والاموال، وذلك لعدم قدرة قواتهم على مجابهة حرب العصابات وفي مناطق جبلية صعبة، فضلاً عن أن إمكاناتهم قد ضعفت خلال القرن السابع عشر من خلال ضعف حكمهم الاقليمي لمصر في منتصف القرن المذكور.. ناهيك عن تدهور نفوذهم في البحار الشرقية، وضعف مصالحهم الاقتصادية في البحر الاحمر نتيجة إستخدام رأس الرجاء الصالح في العلاقات التجارية – الدولية، فما دامت مصالحهم قد افتقدت الى درجة كهذه، فليس من المعقول البقاء في ولاية بعيدة قصيّة في أعماق شبه الجزيرة العربية لا سبيل للوصول اليها الا طريق البحر، وهي تبعد قرابة الفي ميل، مما يصعب وصول الامدادات، فقد بدأ اليمن يشكّل عبئاً ثقيلاً على كاهل الدولة العثمانية..فبدأت تفكّر في أن تجلو قواتها عن أراضي اليمن، سيما وإن المنافسة البرتغالية بدأت تهدأ في البحار الشرقية، فضلا عن أن الدولة الصفوية كانت قد إحتلت العراق منذ عام ١٦٢٣م.

كان جلاء القوات العثمانية عن اليمن قد تّم في سنة ١٦٣٥م خلال عهد السلطان مراد الرابع ١٦٢٣–١٦٤٠م؛ ويبدو أن قرار هذا السلطان القوي كان صائباً، إستجابة للتحديات التي فرضتها اليمن على الدولة العثمانية، ناهيك عن الظروف الصعبة التي عاشتها ابان مرحلة توسّعها التاريخي الكبير. كان الجلاء العثماني عن اليمن قد تّم في منتصف الثلاثينات من القرن السابع عشر بفعل الضربات الموجعة لقوات اليمن المحلية بقيادة الامام المؤيد محمد بن القاسم، إذا إستطاعت أن تصل قواته المتمرسّة أبواب صنعاء في سنة ١٦٣٥م، وبدأت تحاصر القوات العثمانية بقيادة أخيه الحسن.. وفتحت الابواب العالية لصنعاء، فالتحم الجانبان في معركة «الصافية» الشهيرة.*

* يجب الالتفات الى غزارة المعلومات التاريخية عن اليمن في المصادر القديمة التي كتبها العرشي و العبدلي والموزعي وابن داعر والواسعي والعقيلي وغيرهم من المؤرخين العرب... و هناك معلومات تاريخية واسعة عن اليمن عند المحبي والمرادي والغزي والعمري.. وغيرهم.

تعد معركة «الصافية» من اشرس المعارك التاريخية بين اليمنيين والاتراك خلال العهد العثماني لليمن.. خسر العثمانيون فيها إثر مقتل عدد كبير منهم، وإستسلم الباقون لقوات المؤيد اليمنية التي إنفتحت أمامها من خلال سيطرتها على المركز كل الخطوط المؤدية الى بقية المدن اليمنية والمسالك الاستراتيجية، بما فيها زبيد، ثم جزيرة كمران، وجزائر فرساي وقد تّم الرحيل النهائي للعثمانيين من اليمن إلى الاناضول والولايات الاخرى في نهاية عام ١٦٣٥م.

٤/ نظام الحكم العثماني في اليمن :

لا بد أن نتوقّف قليلاً عند أبرز السمات التاريخية التي طبع عليها نظام الحكم العثماني الاول في اليمن ١٥٣٨ – ١٦٣٥م.

١. كانت اليمن تمثل في أثناء خضوعها للسيطرة العثمانية في عهدها الاول، إحدى الايالات الاربع عشرة التي كانت تتألف منها الاراضي العربية التابعة للدولة العثمانية، في حين بلغ مجموع الايالات التي قسمت إليها الدولة اثنتين وثلاثين ايالة.

٢. كانت ايالة اليمن تضم تسعة سناجق (=ألوية) هي : صنعاء/ ومخا/ وزبيد/ وتعز/ وصهلة/ وكوكبان/ وطويلة/ ومأرب / وعدن.

٣. لم يضمن العثمانيون سيطرة حقيقية كاملة على الاراضي اليمنية على غرار ما فعلوا في أقاليم او بلاد عربية اخرى، وذلك لما حفلت به اليمن من إضطرابات مستمرة ، وحركات مقاومة عنيفة، وثورات ساخنة في معظم الجهات.

٤. وعليه، فإن العثمانيين لم يتمكنوا من فرض النظام الاقطاعي على اليمن، إسوة بما فعلوه في أقاليم عربية أخرى – وهكذا، بقيت إقتصاديات اليمن في حالة من الفوضى، وغلبت عليها الاساليب القديمة التابعة للعصور الوسطى.

٥. حرص العثمانيون على حماية الثغور اليمنية من الاعتداءات البرتغالية اولاً، وتأمين المقدّسات الاسلامية في الحجاز من الاعتداءات الاوروبية

ثانياً . وعليه، فقد حافظوا على مدى قرن كامل على السواحل والموانئ وبخاصة: عدن ومضيق باب المندب ، إضافة الى مخا الميناء الحيوي لليمن. وإضطلعوا بدور بارز من خلال أنظمتهم العسكرية في تلك الموانئ الى رد محاولات الانكليز للوصول الى اليمن والتدّخل في شؤونها.

٠٦ كان الحكم العثماني في اليمن قوياً في بدايته، ثم أخذ بالضعف شيئاً فشيئاً ، نتيجة للضعف الذي حاق بالدولة العثمانية خلال القرن السابع عشر *.

استنتاجات :-

نستنتج من خلال دراستنا لتاريخ اليمن الحديث انه تاريخ ثنائي بين ما حفلت به دواخله وعناصره ورواسبه القديمة من الانظمة والاعراف القديمة، وبين القوى الخارجية التي ارادت الاستحواذ والهيمنة عليه، وهو تاريخ نظام الائمة الزيدية اكثر منه تاريخا عثمانياً ، كما كان عليه الحال بالنسبة لاقاليم عربية اخرى لم تصل فيها درجة الصراع ضد العثمانيين كالذي وصلته اليمن ابداً.

ان الائمة الزيدية اصحاب نظام سياسي/ ديني قديم في اليمن، مرجعيته مذهبية - دينية. وقد حمل الامام الزيدي لنفسه لقب «امير المؤمنين» مثله في ذلك مثل «سلطان المغرب على الرغم من اختلاف المذهبين. وقد ناصب نظام الائمة في اليمن العثمانيين العداء، وحاربوهم، وسعوا الى اخراج قواتهم من بلادهم من اجل الحصول على الاستقلال ، ولكنه نظام ابدى لمرات عدة استعداداته للتعامل مع العثمانيين، وقدم الولاء للسلطان العثماني مراراً، ثم سرعان ما يأخذ بالمناورة لينقض عهده كلما سنحت الفرصة، ويهاجم القوات العثمانية مستخدما الاساليب الميكافيلية (= الغاية تبرر الوسيلة) في اخراج العثمانيين من ارض اليمن ..وقد نجح في تحقيق امانيه وطموحاته.

وعلى الرغم من ذلك فان النظام العثماني حاول استعادة سيادته على اليمن وان تسامح مع الائمة في حكمها و«حاولت كل سلطة مستقرة في مصر ان تمد

---

* انظر د. عبد الحميد البطريق ، من تاريخ اليمن الحديث ،. القاهرة ، ١٩٦٩، ص ٦٨-١١١.

سلطانها الى الحجاز واليمن» كما يقول المؤرخ عبد الكريم غرايبه*. ولقد شكل الامام قاسم المنصور فرعا أساسياً وأخيراً من الائمة الذين حكموا اليمن في التاريخ الحديث، إذ اسسه، ما قبل عام ١٥٩٢م، لكي تستمر سلالته على رأس نظامه التاريخي الذي قضى عليه نهائياً عندما قامت ضده الثورة اليمنية عام ١٩٦٢م، فانهت انغلاق المجتمع اليماني الذي دام قروناً طويلاً، انهت البنية الاسطورية لحكم الأئمة الزيدية!**.

٢- بلاد المغرب الاقصى: البنية التاريخية وخصوصية التكوين السياسي:-

مقدمة: التشكيل التاريخي:

ترسخ في بلاد المغرب الاقصى منذ الازمنة الوسيطة نظام تاريخي عربي، تمثل بـ «الاشراف» أو «شرفا المغرب» الذين قاموا بدور بارز لها في ابقاء التاريخ المغربي/ المراكشي واقفاً على رجليه بجميع خلفياته وتكويناته العربية، ومرجعياته الاسلامية – التقليدية. وقد وفّرت جغرافية المغرب الاقصى المتنوعة حالات مساعدة لاستمرار حيوية التاريخ: جبال الريف، وحوض نهر سيبو، والنجود الاطلسية المبسطة، وسلسلة جبال الاطلس العالية الفاصلة بين المغرب الشرقي والمغرب الصحراوي. وكانت الطبيعة الجغرافية والمناخية من ابرز العوامل في التطور الديموغرافي لربوع المغرب بزراعاتها المتنوعة، ومحاصيلها البرية والبحرية، ونتاجاتها الموسمية والتي خلقت في المدن الاساسية تجارات مختلفة***.

---

* د. عبدالكريم غرايبه، تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٨٤، ص ٥٩.

** لعل اهم ثلاث دراسات عربية ظهرت حتى اليوم عن تاريخ اليمن الحديث هي لـ:

– د. محمد عبدالله ماضي، «دولة اليمن الزيدية: نشأتها، تطورها، علاقاتها» مجلة الجمعية التاريخية المصرية، القاهرة، مايو ١٩٥٠.

– السيد مصطفى سالم، تكوين اليمن الحديث: اليمن والامام يحيى ١٩٠٤–١٩٤٨، ط ١، القاهرة ١٩٦٣.

– د. فاروق عثمان اباظة، الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢–١٩١٨، القاهرة ١٩٧٥.

*** التفاصيل الجغرافية في: ابو عبيد عبدالله البكري، المسالك والممالك (القسم الخاص بالمغرب)، نشره وترجمه: دوسلان، باريس، ١٩٦٥.

يعد المغرب الاقصى هو النقطة الاخيرة من اقصى غربي العالم الاسلامي والعربي معا، وباطلالته على المحيط الاطلسي، فقد عدّ من التخوم التاريخية التي وظفت نفسها بنفسها في المجالات السياسية والاقتصادية على مدى العصور الطويلة، وهو أول اقليم استراتيجي ينفصل عن جسم الخلافة العباسية ببغداد على عهد الخليفة هارون الرشيد ابان عصر العرب الذهبي. ليؤسس له دولة الادارسه ٧٨٩-٩٢٦م في محيطه الاجتماعي المتفاعل المقابل للاندلس على الجانب الاوربي. ثم تأسست فيه ثاني دولة مستقلة على يد المرابطين ١٠٥٦-١١٤٧م الذين وحدّوا المغرب، ثم ظهرت دولة الموحدين ١١٣٠- ١٢٦٩م، وكان كل من المرابطين والموحدين قد امتدوا بدولتهم في اعماق اسبانيا ..ثم تأسست دولة المرينيين ١١٩٦-١٤٢٨م التي وحدت المغرب العربي واكسبته خصوصية اجتماعية مشتركة متفاعلة بين اقاليمه وهي الدولة التي أعطت- كذلك - المغرب الاقصى الشكل التاريخي الذي استقر عليه اجتماعيا وانثربولوجيا، باعتباره «امة» لها نظمها واعرافها وخصوصيتها وسماتها المتميزة. وجاء الوطاسيون إلى حكم المغرب بدولتهم ١٤٢٨-١٥٤٩م، التي ضعفت قليلاً ونال منها الاعداء، إذ احتل كل من الاسبان والبرتغال خلال عهدهم عدة من الثغور والموانئ المغربية*.

١- السعديون:

هكذا بدأت احدى الأسر الشريفة تدعو إلى استرجاع الاراضي المغربية التي اغتصبها الاعداء. وتمت مبايعة عميد الاسرة محمد القائم بأمر الله في سنة ١٥١١م، الذي يعد المؤسس الحقيقي للنظام الشرافي في التاريخ الحديث للمغرب الاقصى عند فجر القرن السادس عشر الذي جرت ابان تلك السنوات الاولى منه، تحولات خطيرة في تاريخ البشرية.

لقد حكمت الاسرة السعدية للفترة ١٥١١-١٦٥٩م، إذ استطاع السلطان احمد الاعرج الذي خلف محمد القائم، ان يجلي البرتغاليين عن اغادير والشواطئ

* C E. Bosworth, The Islamic Dynasties, Edinburgh Univ Press, 1980,pp.28-34.

الجنوبية، وتحسنت الأوضاع الاقتصادية للبلاد. وكان السعديون قد ساورهم الخوف من الامتدادات العثمانية، حتى يقال بأن بعض سلاطينهم تعاون مع الاسبان والبرتغاليين ضد خطر داهم كانوا يتصورونه! وكانوا ايضاً قد استفادوا كثيراً من هجرة الاندلسيين الموارسكة الذين عمروا البلاد، وانعشوا الاقتصاد واوضاع السوق، وطوروا الصناعات الحرفية.

كان من ابرز الملوك السعديين مولاي عبد الملك الذي انتصر على البرتغاليين سنة ١٥٧٨م في معركة وادي المخازن. وقد حدثت بعض النزاعات الاسرية عند السعديين، في حين كان البرتغاليون يتسللون نحو الغرب، وكانت الثغور المغربية قد غدت قاعدة للقراصنة على مدى قرنين كاملين، اي منذ القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر.. وكانت اهميتها الاستراتيجية تزداد يوماً بعد آخر، وتسترعي مكانتها أطماع اوروبا الاقتصادية *.

انتهت الاطماع البرتغالية على السواحل والثغور المغربية سنة ١٥٧٨م، في حين كان قيام الدولة السعدية بمثابة رد فعل قوي تجاه الامتداد البرتغالي، كانت هناك محاولات من اطراف الدولة العثمانية للاستحواذ فعلاً على المغرب، لكنها لم تتمكن من تنفيذ خططها أو تحقيق مطامحها. وقد فشلت محاولاتها أمام التأسيس القوي للدولة السعدية التي كانت قوتها متجسدة بعاملين اساسين هما:

١- انها كانت تمتلك جيشاً قوياً مجهزاً بأحدث الأسلحة، كما وكانت له تجاربه الميدانية التي خاضها ضد البرتغاليين والاسبان.

٢- كان بيت المال السعدي مزدهراً، واقتصاد الدولة متكاملاً بفعل الموارد الداخلية الكبيرة، والمصادر الخارجية التي كان ابرزها تجارة السكر وحركة القرصنة الفعالتين.

حكم من السعديين في اجزاء واسعة من المغرب الاقصى ثلاثة عشر سلطاناً على امتداد حكمهم الطويل ١٥١١- ١٦٥٩م. وكانت دولتهم مستقلة تمام

* من ابرز المصادر التاريخية المعتمدة: ابو فارس عبد العزيز القشتالي، مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفا، تحقيق: عبد الله كنون (المركز الجامعي للبحث العلمي) الرباط، ١٩٦٤.

الاستقلال عن نفوذ أو سيادة أية دولة اجنبية، كما أنها كانت مستقلة دينياً، إذ لا تعترف بخليفة آخر، فقد كان سلطانها يحمل لقب «امير المؤمنين». وعلى هذا الاساس بقي الجفاء السياسي فعالاً بين السلاطين العثمانيين وبخاصة ضد عمالهم في ايالة الجزائر المتاخمة.

وقد وجه السلطان المغربي احمد المنصور قواته لفتح السودان الغربي بغرض الحصول على الذهب اللازم لتحرير الاندلس الذي افتقد آخر ممالكه العربية: دولة بني الاحمر في غرناطة عام ١٤٩٢م، ولكن احمد المنصور انفق أمواله في الدعوة لخلافته الاسلامية وامارته العربية في المشرق العربي ضد السلطنة التركية- العثمانية.

دخل الحكم السعدي ازمته السياسية بوفاة احمد المنصور عام ١٦٠٣م، على الرغم من استمرار النظام السعدي بعد وفاته حتى منتصف القرن السابع عشر، أي للفترة ١٦٠٣- ١٦٥٩م، فقد انقسم المغرب بعد وفاة احمد المنصور الى امارات تلاشى منها الحكم المركزي، واتسمت الاوضاع في المغرب الاقصى بخصوص كل دولة والمجتمع على النحو الآتي:

١- النزاع بين الطامعين على عرش الدولة. وهم ابناء السلطان احمد المنصور، فقد استقر زيدان الناصر ١٦٠٣- ١٦٢٨م في حكم فاس، واستعان بالاتراك ضد اخيه عبد الله الواثق ١٦٠٣-١٦٠٨م في حكم مراكش. اما محمد الشيخ مأمون ١٦٠٣- ١٦٠٨م، فقد اعلن نفسه اميراً على مكناس. وقد دام هذا النزاع سبع سنوات انتهى بوفاة الواثق، وإبعاد زيدان الناصر وانفرد المأمون بالحكم الذي استعان بالاسبان مقابل مكافأتهم بتنازله عن مدينة العرائش وقلعة المعمورة.

٢- نفوذ الطرقية الدينية، وانتشار الزوايا كظاهرة شجعها الاضطراب السياسي وحالة النزاع الداخلي وعدم الاستقرار السياسي، وتواطؤ الاجانب على الساحل المغربي. وقد اوجدت الزوايا المنتشرة حركة دينية شمالاً وجنوباً تدعو الى الجهاد ضد المسيحيين الغزاة وضد اعوانهم. ففي جنوبي المغرب الاقصى نما كثيراً نفوذ الزاوية الجازولية. وكانت مركزاً

فعالاً في التنظيم العسكري، اما في الشمال فقد ظهرت زاوية اخرى تدعى زاوية الدلاء التي استطاعت ان تمتد بنفوذها الديني والسياسي نحو الشمال والاجزاء الوسطى من البلاد. وقد نجحت هذه الزاوية في تحشيد قبائل عربية وبربرية ضد التفكك الذي عاشه السعديون *.

٣- سلطة المدن التجارية المستقلة: هاجرت في مطلع القرن السابع عشر الوفود الأخيرة من الموريسكيين الاندلسيين الذين استقر قسم منهم في المغرب وخاصة في تطوان وقد اهتم النازحون بالتجارة البحرية، فانتعشت القرصنة، وانفصلت مدينة الرباط عن النظام السياسي- السعدي سنة ١٦٦٧، وكونّت «جمهورية» تدعى دولة ابي رقراق، ولم يدم نفوذ القراصنة وقتاً طويلاً، اذ استطاعت قوى الزوايا ان تقضي على القراصنة، وتسترجع منهم مدينة الرباط وقلعة المعمورة عام ١٦١٤م.

٤- امارات الجنوب: ظهرت في اجزاء من المغرب الاقصى بعض الامارات الاقطاعية، خضع بعضها لنفوذ «الشرفاء»، ولا سيما في جنوبي البلاد، وكانت احداها امارة علوية في مقاطعة تافيلات، وتأمن نفوذهم السياسي في أواخر العهد السعدي. وفي خضم تلك الفوضى، كانت الدول الاوربية تسعى إلى توسيع نفوذها على السواحل المغربية، وكثرت الاطماع الغربية، إذ استعاد الاسبان العرائش وقلعة المعمورة وسبته، واستعاد البرتغاليون طنجة، وبدأ الانكليز يؤسسون شركات تجارية متعددة الملكيات والتدخل السافر في الشؤون الداخلية.

ماذا نستنتج اذاً؟

نستنتج أن السعديين الذين اعتمدوا في استمرار حياتهم السياسية للمغرب على مساعدات صنهاجة الكونفدرالية، وعلى الاقتصاديات المتنوعة، وعلى المسالك الاستراتيجية التي تربط سجلماسه بالمرافئ البحرية لاغراض التجارة الدولية بين

---

* انظر د. محمد حجي، الحياة الفكرية في المغرب في عهد السعديين، (دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر) جـ١، ١٩٧٧، جـ٢، ١٩٧٨. (التفاصيل في الجزء الثاني، ص ١١١- ١٦٣).

اوروبا وافريقيا الاستوائية والسودان الغربي * . ان السعديين ابتدأوا بسياسة تعمل ضمن النطاق الديني بصورة كبيرة وعملية، وقد اختص التيار السياسي بالحيوية من سركز المغرب وبضمنه فاس ومكناس وساله وذلك لعظمة عملياتهم المستندة اساسا. ى المرجعية الاسلامية المرنة والقابلة لاستيعاب تطورات المجتمع وحركته التاريخية ، وهذه هي خصوصية المجتمع المغاربي الكبير حتى يومنا هذا.

ان السعديين قد انتهوا الى غير ما كانوا قد بدأوا به، فأثرت مجريات الاحداث السياسية على المجتمع وتراكيبه المختلفة والتي احتفظت باعراف وطنية وتقاليد عربية نقية لكن؟

خلال السنوات الاخيرة من الحكم السعدي للمغرب الذي انكمش على نفسه في مقاطعة مراكش، بدأ ظهور قوة سياسية جديدة وفعالة في منطقة الصحراء ومركزها «تافيلات»، وتمثلت تلك القوة بالاسرة العلوية الشريفة.

٢- العلويون: تواصل حكم السلطنة الشريفية:-

التكوين السياسي:

لقد جاء تأسيس حكم السلالة العلوية للمغرب الاقصى مترافقاً مع بدايات القرن السابع عشر، وعلى انقاض الدولة السعدية ١٥١١- ١٦٣٦م التي جاء انهيارها- كما عرفنا- في مدار جغرافي- سياسي يؤلفه قلب جبال الاطلس، ويتمركز منكمشاً على نفسه في مراكش.

ظهر الاشراف العلويون في الاقليم الشرقي من المغرب الاقصى، وينسبهم المؤرخون الى الحسن بن علي بن ابي طالب، وقد هاجروا من ينبع في الحجاز خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، واستوطنوا ربوع المغرب لاحقاب طويلة، فقد استقروا بتافيلات وزاولوا الزراعية (= زراعة النخيل)، وبدأ مركزهم الديني يتبلور بقوة في المجتمع المغربي، ومن خلاله بدأ دورهم السياسي يتلاحق في تطوره أثر تسنمهم القوة السياسية في البلد.

---

* للاستزادة. انظر. عمر بن خروف، «ملامح من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين» مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، العدد(٣)، السنة ١٩٨٧.

لقد بويع مولاي الشريف محمد الاول سنة ١٦٣١م اماما في مدينة سجلماسة، وقد مثل اول بادرة علوية في الحقل السياسي المغربي. ثم تطورت قوتهم وحركتهم السياسية عندما وصل احد ابنائه وهو مولاي محمد الثاني الى السلطة بعد تحقيقه البيعة كسلطان في سجلماسة سنة ١٦٣٥م. وكان لأخيه مولاي رشيد دور سياسي متفاقم في الاحداث الداخلية والخارجية، وذلك عقب وفاة والدهم المؤسس الاول مولاي محمد الاول*.

ففي خلال الفترة ١٦٥٩- ١٦٧٢م ينتزع مولاي رشيد الحكم من اخيه المولاي محمد بن محمد الشريف، ثم يبسط نفوذه نحو الشرق المغربي والشمال، ويستولي على مدينة فاس سنة ١٦٦٦م بمساعدة اعيانها. ويعد المولاي رشيد هو المؤسس الحقيقي للدولة العلوية، وقبل وفاته سنة ١٦٧٢م، استطاع ان يمد نفوذه على اجزاء كبرى من المغرب الاقصى، فقد اخضع اقليم تازا وامتد مشرقاً ومغرباً، وقضى على نفوذ الامارات المحلية الانفصالية، كما قضى على القراصنة، كما انهى نفوذ الزوايا وتدخلاتها في الشؤون السياسية، وقمع حركات التمرد.. ومن خلال الحملات العسكرية الجادة، كان المولاي رشيد قادراً لكي يبني ممراً بحرياً في البحر المتوسط لاغراض التجارة مع اوروبا، فوصل تيار ذلك الممر المهم الى عدد من المناطق الاستراتيجية.

هكذا جاءت البداية التاريخية ناجحة وموفقة في المراكز والاطراف من المغرب الاقصى، والتي اعتبرت باباً واسعاً واستطاع ان يدخل منه مولاي اسماعيل وهو السلطان الذي اعقب اخاه في الحكم، ليجد في المحصلة دولة مغربية قوية واحدة تضم الجبل والريف والصحراء والسواحل، وكانت لها القدرة على الحياة والاستمرار في ظل حكم السلالة العلوية.

حكم مولاي اسماعيل للفترة ١٦٧٢- ١٧٢٧م، اي انه حكم حكماً طويلاً يقدر بـ ٥٥ سنة، واستتبت الامور استتباباً تاماً، وقد ثبت السلطان مولاي اسماعيل السلطة العلوية في المغرب الاقصى وعلى كامل ترابه الاقليمي، مستمراً في عملية

* من الاهمية مراجعة ما كتبه كل من المؤرخين المغاربة: عبد الوهاب بن منصور وعبد الله العروي وابراهيم حركات ومحمد حجي ومحمد بن عبود وعبد الهادي التازي... وغيرهم.

توحيد البلاد، بإرساله الحملات العسكرية لاخضاع المناطق الجبلية، وقد قضى على الانتفاضات القبلية في منطقة الريف والشرق المغربي، وعلى محاولات بعث نفوذ القرصنة في طنجة، ومراقبة تحركات القبائل. اعتمد الاقتصاد المغربي على عدة من الموانئ. اما جيشه، فقد توزع في عدد من القلاع لمراقبة المسالك التجارية والمواصلات وحفظها من غارات القبائل المتمردة.. وقد فرض ضرائب على السكان والقبائل للحفاظ على الامن والاستقرار، وتطور الجهاز الحربي المغربي في عهده كثيرا، وكان للجيش دوره الفعال خاصة وهو جيش الرقيق السود (= العبيد). كما اهتم المولاي اسماعيل ببناء القلاع او السيطرة على قلاع اخرى بغية مراقبة طرق التجارة والمواصلات من غارات القبائل انطلاقاً من اقليم وجده– تازه– تافيلات – سوس – صوب الجنوب. وقد اعتمد المولاي اسماعيل على العبيد في بناء جيشه القوي في حين كان الجيش المغربي يتألف في السابق منذ عهد المرابطين من القبائل المخزنية الموالية للسلطة، الا ان المولاي اسماعيل كان يخشى النزعة الانفصالية المخزنية *

وبعد وفاة السلطان اسماعيل عام ١٧٢٧م، تعاقب على الحكم كثير من السلاطين خلال القرن الثامن عشر، وتطور خلاله نظام الحكم لدى الاسرة العلوية في المغرب الاقصى التي لم تزل تحكمه حتى يومنا هذا. ويعد القرن السابع عشر بالنسبة لموضوعنا المشار اليه آنفاً هو تاريخ التكوين السياسي للمغرب الحديث، في حين سيشهد المغرب خلال القرن الثامن عشر تطورات واسعة، ورقياً مشهوداً في الثقافة والآداب والعلوم العربية.

خصوصية المجتمع المغربي:

امتلك المغرب عواصم داخلية مهمة كفاس ومراكش ومكناس ارتبطت بها بقية الاقاليم وعلى مختلف الجهات.. وخلال العهدين السعدي والعلوي (= القرنان ١٧/ ١٨) اجتاحت المغرب الاوبئة والمجاعات والفيضانات والعواصف وانقطاع الامطار التي كثيراً ما كانت تؤثر في المحاصيل الزراعية نتيجة الجدب الذي يعقب ذلك... الخ.

---

* For details; See, Henri Terrasse, Histoire du Maroc des Origines a l etablissement du protectorat francais, Vol. I, Casablanca, 1971.

وقد تفاوتت طرق استخدام الدولة- طبقاً للظروف- لمسائل متعددة كالضرائب والعشور والمكوس والوكالات والمخازن والمقاصير.. الخ وكانت ابرز وسيلة لارتباط المغرب الاقص بالمشرق العربي تتمثل بقوافل الحج المغربية عبر القاهرة ومدن المغرب العربي. اما التجار المغاربة فهم الذين كانوا يسيطرون على اوضاع السوق الاقتصادية سواء في الدواخل ام الخارج. وكان الاقتصاد هو الذي تحصن به المجتمع المغربي.

بدأ المجتمع المغربي خلال الازمنة الحديثة بقالب تكاثري- عددي، وكان يتألف من شبه مجموعات مستقلة اجتماعياً وسياسياً، وتشتمل على. القبائل وزراع الريف والجماعات المتمدنة والشرفاء والعبيد، واليهود.. الخ وكان للمجتمع المغربي مظاهر من التعقيدات على المدى الأفقي والمدى العمودي. وتبدو تلك المظاهر واضحة اشد الوضوح من خلال المدى العمودي، وذلك في اوساط تنظيمات الجماعات الدنيا التي تميزها صفات اجتماعية خاصة، وتحتويها اعمال اقتصادية مشتركة ومتنوعة.

اما الصورة العامة لحركة المجتمع المغربي، فقد كان على غرار اي مجتمع له تركيبه وتطوره، إذ كان يحتوي على مرافق عدة تشمل: التربية من خلال المدارس ودور العلم ثم الصحة ورواقاتها، ثم القوة العسكرية وثكناتها، ثم الادارة وابنيتها. اما حركة السوق، فكانت تتماشى مع التيار الاقتصادي الذي يتصف باللامركزية. وكان لكل جامعة في المجتمع تركيبتها الفئوية الاجتماعية الداخلية الخاصة. و تحتل الصفوة، المركز الاول والمتقدم في المجتمع، وكانت تقف على رأسه.. ولكل جماعة صفوتها في المجتمع من الاداريين وعلماء الدين.

ان الاهداف التي كان يبتغيها المجتمع المغربي بدت مترسخة في ضمائر الافراد والجماعات المستقرة وكانت تلك الاهداف تنمو في قلب الايديولوجية الاسلامية التي كان فعلها مؤثراً في الافكار والاعمال، فضلاً عما كانت تخلقه من ضروريات في الحياة اليومية لذلك المجتمع الذي كان في أمس الحاجة لها *.

---

* انظر. د. سيّار الجميل «تحليل كتاب نشر المثاني لمؤلفه محمد القادري تحقيق نورمان سيكار»، المجلة التاريخية المغربية، السنة (١١)، العدد ٣٥-٣٦، ديسمبر ١٩٨٤.

لقد وجد سلاطين المغرب لأنفسهم العذر في العمل سياسياً وإدارياً من خلال الصفوة لكل جماعة في المجتمع المغربي، وذلك في غياب وفقدان البيروقراطية الواضحة والكاملة «للموديلات» أو النماذج العثمانية والملوكية والمغولية والتركمانية والجركسية هذا الى جانب انعدام الطابع الاجنبي الشرقي في نظام الحكم، كما كانت عليه الاوضاع والاحوال التي انطوت عليها المجتمعات العربية الاخرى، وخاصة في البيئات المنتشرة في المشرق العربي، مثل: الطابع المملوكي والتركماني والمغولي والايراني والعثماني.. ثم التركي والالباني والجركسي والجورجي.. تلك المجتمعات التي إصطبغت في أغلبها بآثار حكم الاجانب المشارقة لها، وتركت عليها بصماتها، بل ووّرثتها جملة من عاداتها وتقاليدها، بل سوالبها وخطاياها.

هذه هي السمات التي ميزت المجتمع المغربي.. اما السلاطين المغاربة، فكانوا يعملون على إحراز المكتسبات في فرصهم الممكنة، إضافة الى التطبيقات الاقتصادية، وهي التي ربطت المجتمع بعجلة إحتياجات الدولة سواء في رفع الضرائب أم تجهيز الحملات العسكرية. أما قوّة العبيد العسكرية التي أسّسها المولاي إسماعيل فبقيت غير مندمجة مع المجتمع المغربي، مستقلة في مهامها، ومنعزلة في حياتها وتقاليدها، ثم تلاشت، وفقدت حجمها في نهاية القرن الثامن عشر.

ويتوضح من خلال دراسة كتاب «نشر المثاني» (لمؤلفه المؤرخ محمد القادري)*، إن المجتمع المغربي قد تميز بعروبته، وحملت المدن المغربية الثقافة العربية ونافحت عنها، وطوّرت بعض جوانبها.. كما كان للاسرة العلوية التي حكمت المغرب الاقصى من خلال مولاي رشيد ومولاي اسماعيل ومولاي عبد الله.. والدور المهم والكبير في الحفاظ على عروبة المغرب ضدّ التيارات الاجنبية من طرف، والتيارات المتطرفة والمتعصّبة الداخلية من طرف آخر.. ناهيك عن ان المجتمع المغربي كان مفتوحاً في ابوابه لاستقبال القوافل والوفود والوافدين إليه

* محمد القادري، نشر المثاني بأهل القرنين الحادي عشر والثاني، تحقيق نورمان سيكار (من منشورات المجمع العلمي البريطاني)، لندن ١٩٨١، ص ١٧٠– ١٧٥ (النص العربي).

من اصقاع المشرق العربي وشمالي افريقيا، فكان هناك العراقيون والحجازيون والمصريون والتوانسة وغيرهم من الذين استوطنوه من أمة العرب الكبرى في ازمان مختلفة.

ومن الجدير بالذكر أن المغرب الاقصى كان الدولة العربية الوحيدة في شمال افريقيا التي لم يحكمها الاتراك العثمانيون.. وكان يواجه على حدوده الشرقية مصادمات مسلّحة يذكيها العثمانيون لفصائل المقاومة ضد العلويين من ايالة الجزائر، وهذا ما جرى سنة ١٦٧٢–١٦٧٣م، فضلاً عن الاحتكاك على التخوم من قبل القبائل في الحدود.. وكذلك العلاقات التجارية للجزائر مع سبته التي كانت مركزاً تجارياً في اقصى البحر المتوسط.

٣- اقليم الحجاز وأشراف مكة:-

مقدمة:

يعد الحجاز، منطقة قديمة وعريقة غربي الجزيرة العربية. مكتسبة عراقتها بوجود الكعبة المقدّسة، ومقام النبي ابراهيم، وانبعاث الرسالة الاسلامية في مكة وهي مدينة تحتضنها الجبال عند واد غير ذي زرع، وهي العاصمة الاسلامية الدينية التي إرتبطت بها جذور الاسلام. ويقسم الحجاز الى مناطق ثلاث أو أربع على نحو عمودي يمتد فيها خط الحجيج الاستراتيجي الذي ينسرب منه ركبان شهيران، أولهما هو محمل الركب الشامي،وثانيهما هو محمل الركب المصري. فضلاً عن درب «النحلة الشامية» الذي يسلكه حجيج العراق وبلاد الشرق.

كانت مكة المكرمة هي العاصمة التاريخية العريقة لقريش وجذورها واصلابها وهي قبيلة عربية قديمة بقيت متحصنة بمكة وشعابها أجيالاً طويلة، وقلما حظيت مدينة مقدسة في التاريخ بمثل تجربة هذا الاستيطان السلالي العجيب. إذ بدأت منها حياة «الشرفاء» الذين سكنوا فيها طويلاً، متخذين إمتيازاتهم وقداستهم منها هوية إنتمائهم الهاشمي، وغدا منصب «الشريف الاكبر» يكتسب في الوقت نفسه لقب «امير مكة». لقد حقق الاشراف مكانة وامتيازات كبيرة في المجتمع العربي– المحلي والاسلامي باعتبارهم اعضاء فروع العتر

الشريفة نسباً التي تتصل أسرياً برسول الله محمد (ص)، وأبرزهم عترة «الهواشم» الشهيرة. والذين عدوا سادة السادات في المجتمع، وطبقة ارستقراطية في المجتمع المكي في كسب المصالح وفرض السيادة وإدارة القبائل وايرادات الحج الضخمة.

لقد احتفظ أشراف مكة بسلالتهم العربية والمقدّسة تاريخياً منذ سنة ٨ للهجرة/ ٦٢٩م وحتى يومنا هذا (ودينياً حتى بداية القرن العشرين). ولم نشهد أية سلالة في التاريخ قد احتفظت بإمتدادها العرقي على النحو الذي إتصّف به الاشراف، وكان منصبهم الديني قد حفظ لهم بقاءهم في إدارتهم المحلية للحرم المكي سدنة لهم سلطة روحية نافذة، كما أنهم لم يتقلدوا منصب «الخلافة الاسلامية» أسوة بالامويين أو العباسيين أو الفاطميين.. فحفظوا لهم مكانتهم الاقليمية بعيداً عن السلطتين الزمنية والروحية الكبرى للعالم الاسلامي. وهناك ايضاً: تواصلهم وإستمرارهم من خلال الحفاظ على مصالحهم المادية (الاقتصادية والاجتماعية) بعيداً عن الاجراءات السياسية الخطيرة والمختلطة في تاريخ العرب العام.

أشراف مكة:

كانت مكة عاصمة الحجاز حتى سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، امارة تابعة لبغداد العباسية. ولما استولى الفاطميون على مصر في امتداداتهم على اقاليم عديدة بتفاقم قوتهم السياسية على حساب الرقعة العباسية. كان الاشراف الحسينيون يستقرون بمكة، واوّلهم جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد الثائر. وينقسم

---

* نستطيع ان نتبين السلسلة الاسرية الشرافية المتوارثة التي اعتاد كثير من المؤرخين تثبيتها، ولا سيما في الادبيات العربية التي كتبت في الظل العثماني. دعونا نتوقف عند تلك السلسلة المعروفة بمعزل عن الشك أو الشبهات.. وهي كالتالي: «بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة بن أبي نمي محمد بن حسن بن علي بن قتادة. والاخير هو. ابن ادريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان. والاخير هو ابن علي بن عبد الله بن محمد موسى. والاخير هو. بن عبدالله المحصن بن الحسن المثنى ابن الامام الحسن السبط بن الامام علي المتزوج من فاطمة الزهراء ابنة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

هؤلاء الاشـراف الى اربع طبقات اسرية* هي:

١-الموسويون (= بنو موسى)

٢- السليمانيون (= بنو سليمان)

٣- الهواشم (= بنو هاشم)

حكمت هذه الطبقات الثلاث مكة للفترة التاريخية ٣٥٨هـ- ٥٩٨هـ/ ٩٦٩م- ١٢٠٥م اي حوالي ٢٤٠سنة.

٤- القتاديون (= بنو قتادة)

وقد حكموا مكة للفترة التاريخية الطويلة بين ٥٩٨هـ- ١٢٠٩هـ/ ١٢٠٩م- ١٩٢٥ أي ٧١٦سنة، وقد انتهى فعلهم الديني والسياسي في الحجاز، ليبدأ فعلهم سياسياً في حكم كل من سوريا والعراق والاردن، ليس كأشراف وأمراء فحسب، بل ملوك وامراء وذلك خلال القرن العشرين*.

العثمانيون واشراف مكة : التحالف والاحترام المتبادل:

يعد دخول مصر المجال العثماني على عهد سليم الاول سنة ١٥١٧م، نقطة انعطاف حادة في تاريخ الحجاز واليمن، وقد بسطت الدولة العثمانية نفوذها عليهما كونهما اقليمين عربيين استراتيجيين ، عقائدياً بالنسبة للحجاز، واقتصادياً بالنسبة لليمن . وكان اشراف مكة قد وجدوا انفسهم ملزمين وهم سدنة لمقدسات الاسلام، بالاعلان عن مباركتهم للسلطان العثماني سليم الاول، فكانوا اول من اعترف به سلطاناً عثمانياً على البلاد العربية. فقد اعلن محمد الثاني بن بركات شريف مكة ١٥١٢-١٥٦٦م، عن تبريكاته وعرض ولاءه وطاعته، فابقاه سليم

---

* اعلن الشريف حسين بن علي الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦، واعلن نفسه ملكاً عربياً، ثم تولى أولاده الثلاثة عروش ثلاثة كيانات سياسية عربية: الملك علي ملكا على الحجاز والملك فيصل ملكاً على العراق/ والملك عبدالله ملكاً على الاردن .. وكان الامير فيصل بن الحسين قد وقف قبل ذلك على رأس الحكومة العربية في دمشق عقب تحريرها من الاتراك.

شريفاً حاكماً، مع انشاء «سنجقية» عثمانية في جدة. وبقي الحجاز تحت السيادة العثمانية حتى انطلاق شرارة الثورة العربية الكبرى من مكة، تلك التي اعلنها الحسين بن علي شريف مكة عام ١٩١٦م* .

سار حكم الاشراف لمكة جنباً الى جنب مع السلطة الروحية القديمة، واعتمد البلاط العثماني عليهم كثيراً ، ولا سيما منذ بداية القرن السادس عشر، إذ استطاع العثمانيون ان يوظفوا هذا النظام العربي القديم لصالحهم وفي اهم بقعة اسلامية.. وبقيت العلاقة بين «الاشراف» و«العثمانيين» ثابتة في تحالفها ما دام «الاشراف» لم يثيروا اي حقوق سلطوية عربية لهم بمقتضى النظرة الشرعية القديمة للسلطات في الاسلام. ولكن كان التطاحن والصراع الداخلي على اشده عند الاشراف وبنيتهم كطبقة عربية قديمة، كما أن سلالتهم لم تتعاون مع اي سلالة عربية اخرى.

ترسخ حكم الاشراف سياسياً نتيجة لجهود الشريف بركات في القضاء على نائب جده حسين الكردي الذي كان قد أعلن عصيانه فيها عقب عودة سليم الى عاصمته . فامر سليم الشريف بركات باستعادة الموقف وقتل حسين، فاجاب بالطاعة، إذ قبض عليه وأغرقه في البحر. لقد نجح سليم الاول باستغلال القوى السياسية والدينية وبقاياها من التي تقف على رأس بنيات المجتمع العربي عصر ذاك، وتثبيتها بعد تجييرها لصالح حكمه، واتباع الأساليب الادارية اللامركزية العثمانية.. وهذا ما لم تتوفق فيه السلطات التي اعقبت عهد سليم الاول عثمانياً باصطدامها مع بعض القوى العشائرية العربية والفئات الاثنية في المنطقة.

من خلال السباق على المصالح المحلية لدى اشراف مكة تفجرت على امتداد تاريخهم العثماني تناقضات عدة في المجتمع المحلي لمكة. والمتشربة بالنزاعات الاسرية لطبقة الاشراف، وقد ادى ذلك في كثير من العهود الى ولادة شرافات مشتركة. كما ادى الصراع الاسري الى انقسامات اجتماعية، وخلل في الجهاز الحكومي التابع للشرافة، ولم يكن ذلك الخلل يعني كثيراً بالنسبة للباب العالي، حتى وصلت الحالة إلى «خراب» شامل كي ينتبه ليبدأ بمعالجة الاوضاع.

---

* Details in, Gerald De Gaury, Rulers of Mecca, London, 1951.

ويتوضح لنا – ايضا– أن الوزارة المحلية في مكة كثيراً ما كان يستفحل امرها وخطرها من خلال الانقسام الاسري والتسلط البيروقراطي ، إذ كثيراً ما كانت حوادث وحالات شبيهة بتلك التي احدثها الوزير عبد الرحمن باشا بن عتيق الحضرمي المكي الذي استفحل امر طغيانه ، وتلاعبه بالمواريث ، واخذه لأموال الناس بوساطة السندات المزورة، وامتلاكه نحو ألف «مهر» للقضاة السابقين لغرض كتابته لتلك السندات وتواقيعه عليها زوراً .. وما ان تولى الشريف ابو طالب بن الشريف حسن شرافة مكة حتى قبض على ابن عتيق وقتله واستولى على أمواله سنة ١٦٠١م.

لقد انقسم الشرفاء على انفسهم اثر وفاة الشريف سعود بن ادريس ، بين فئتين سياسيتين منهم : شرفاء بني عبد المطلب ، وشرفاء بني محسن، إذ ظهر في الحجاز سنة ١٦٣١م، بعض الثوار الذين تابعهم نمي واخوه من ابناء عبد المطلب. وولي مكة الشريف زيد بن محسن الذي دخل مع الثوار الخارجين عن طاعة سلطة مكة قتالاً ضارياً ، وقبض على نمي واخيه، اللذين صلبهما بعد ان استفتى العلماء في قتلهما، وفي العام نفسه يدخل شرفاء مكة ولأول مرة وتحت قيادة الشريف زيد، في قتال ضد الجيش التركي الذي قدم الحجاز من اليمن، فذهب الشريف زيد ضحية الحرب بين الطرفين بعد شرافة دامت قرابة ستة اشهر.

انخفضت برودة العلاقة السياسية بين الاشراف والعثمانيين بعد اكثر من قرن كامل على ذلك التتابع السلطوي للباب العالي، وكان ذلك نتيجة طبيعية اثر الانقسام الحاد الذي حدث في البنية الطبقية التي استحوذها الاشراف في مكة، والذي جرّ الى صراع دموي بين اصحاب المطامح والمنافع والمصالح والسلطة.. ولقد ارتبكت العلاقة بين العثمانيين والأشراف نتيجة ما وقع من خلل في الممارسات الاحتدامية التي سببها استفحال الانقسام، ونضوج التناقضات الداخلية، فضلاً عن المشكلات الاقتصادية وسوء الظروف الطبيعية التي تسببها السيول الجارفة نحو مكة في كثير من السنين.

هناك غموض كبير حول موقف اهالي مكة وسكان الحجاز حيال تلك الازمات المتنوعة، ولكنهم كانوا جزءاً كبيراً من تناقضات البنية الاجتماعية التي

تنطلق رهانات القوى السياسية عليها.. اما القوى الاجتماعية فلم تكن زراعية، بل تعتمد الحرف والتجارة ..،وإن الجميع كانوا ينظرون الى الاشراف نظرة تجلة وتقديس..

تؤكد لنا الاخبار التاريخية انه حتى في اشد حالات الحجاز تعاسة لم يكن التدخل العثماني لحل الازمة بصورة مباشرة، بل بقي اعتماد البلاط العثماني على «الاشراف» قوياً حتى مطلع القرن العشرين، مع وجود الحاكم العثماني في مدينة جدّة. وتعد سنة ١٦٨٣م حداً تاريخياً فاصلاً بين مرحلتين تاريخيتين من حكم الاشراف لمكة خلال العصر العثماني، بدأت أولاهما مع عهد سليم الاول على يد الشريف بركات بن محمد، وقد ضعفت كثيراً على مدى زمني طويل يقترب من ١٦٦سنة، اي للفترة ١٥١٧ – ١٦٨٣م، لتبدأ مرحلة تاريخية جديدة في ظل التنصيب الاسمي للشريف احمد بن زيد بن محسن من قبل السلطان محمد الرابع ١٦٤٨—١٦٨٧م.

انحدرت الاوضاع الاقتصادية للحجاز خلال المرحلة التاريخية الثانية مقارنة بما كان عليه الحال خلال المرحلة التاريخية الاولى، ليس فقط نتيجة للظروف المحلية والاقليمية في مكة والحجاز، فضلاً عن عامل انحسار السيادة المركزية – العثمانية على الاقاليم العربية ولا سيما خلال القرن الثامن عشر –كما سنرى لاحقاً فالسؤال اذاً :كيف كانت احوال الحجاز؟

لقد حدثت فيه موجات غلاء مفرط، وارتفاع اسعار الغذاء، وعمت اليمن ايضاً، وفي مرحلة اخرى، وصلت الى بلاد الشام.. كما عانت مكة من غرق الحرم المكي لمرات عدة اثر هطول الامطار وتدفق السيول. وكثيراً ما كانت الظروف الاقتصادية القاسية تؤدي الى تغييرات اجتماعية كبيرة، بفعل حدوث نزاعات بين السكان، او اعتداءات من طرف القبائل وفيما بينها، ومحاصرة التجارة في البر والبحر، وانسحاق الفقراء والمعدمين.. وهيجان الاعراب في السطو واعمال العنف*.

---

* من الاهمية البالغة مراجعة ما كتبه النهروالي والمحبي والازرقي و الظاهري والمرادي وغيرهم عن تاريخ مكة.

من ناحية اخرى، فقد تمتع اشراف مكة بسيادة شبه مركزية على الحجاز، وكطبقة متنفذة عليا ليس في مكة فحسب، بل يمتد نفوذها الى البوادي والبطائح أطرافاً ولواحق تابعة لعاصمتهم مكة، وكانوا مرجعاً اعلى للفصل في الخصومات والنزاعات والقضايا المتعلقة بالحجيج. وكان لهم الحق في فرض الضرائب على المطوفين والحجاج والجمالة واصحاب المحفات. وكانت الموارد الناتجة في حصيلتها عن كل ذلك كبيرة للغاية، فأما ان يحتكروها لأنفسهم، ام يتقاسموها مع الوالي العثماني الذي يقيم عادة في مدينة جدة. وعليه، فقد ازدادت ثرواتهم على نحو لافت للنظر خلال الوجود العثماني، وذلك لسيادتهم المطلقة على الواردات والأموال التي تستحصلها مكة في كل عام.. فضلاً عن الاعطيات الكبرى التي كان السلاطين يمنحونها لكل من مكة والمدينة باسم الفقراء والمعدمين لتوزع في اثناء موسم الحج .

طبيعة حكم «الشرافة» :-

اما طبيعة حكم «الشرافة» ، فقد كانَ على نمط اسري – سلالي متنقل من طبقة اسرية الى طبقة اخرى، (التي تسمى بـ «العتر الشريفة»)، فحتى القرن الثامن عشر كان حق الانتخاب ينحصر قيادياً – طبقياً في بني بركات انتهى بآل زيد، إذ شكلت كل من الطبقتين مرحلتين تاريخيتين .. ولم يكن منصب «الشرافة» وراثيا كله، لكنه بقي منحصراً بهذه الاسرة العتيقة التي امتازت بالتعددية من طرف، وبالاستمرارية والتواصل من طرف آخر.

ويعد عهد الشريف سرور ١٧٧٢–١٧٨٨م، من الفترات الشريفية المزدهرة في التاريخ المحلي والاقليمي الحديث لكل من مكة والحجاز، إذ امتاز عهده بالسلم والأمان والعدل والرخاء قياساً لما سبقه من عهود شريفية ، وتلاه فيها : اخوه الشريف غالب بن مساعد ١٧٨٨–١٨١٣م الذي اتسم عهده بغزو كل من السعوديين – الوهابيين والمصريين للحجاز .. وانها حلقة جديدة من أحداث التاريخ في المنطقة تفجرت في بدايات القرن التاسع عشر، بتأثير الاصلاحية الدينية العربية والاصلاحية العثمانية التركية – كما سنعالج ذلك تفصيلاً في الفصل السابع – .

بقيت حياة «الشرافة» في مكة مستمرة وقد دامت اكثر من قرن كامل بقليل على حدوث تلك الأحداث الساخنة، أي للفترة ١٨١٦ – ١٩١٦م، بين هجومات السعوديين على الشرافة في مطلع القرن التاسع عشر، وبين ثورة الشرافة على الاتراك في مطلع القرن العشرين*. ولم تضع الأحداث الاولى حداً نهائياً فاصلاً لجذور الشرافة التاريخية،. بل استمرت بقاياها بعد وفاة الشريف غالب، من خلال وجود واستمرار شرفاء آخرين للجلوس على كرسي تلك «الشرافة الاسطورية».. ولم تتوهج مرة اخرى الا بعد مضي قرن كامل، لتظهر فاعليتها متمثلة بشخصية شريفية تاريخية ودراماتيكية، اثرت تأثيراً كبيراً ليس على الحجاز وحده بل على تاريخ العرب المعاصر، كما وانتهت على يديها الحياة التاريخية الاسطورية الطويلة لأشراف مكة بالتحول من نظام «الشرافة» الى «نظام المملكة» ، اي الانتقال من تقاليد القداسة الدينية الى تبني الفكرة القومية – العربية .. تلك هي شخصية الشريف الحسين بن علي – كما ستتوضح تفاصيل ذلك في الفصل العاشر –.

استنتاجات : المواصفات التاريخية للبنية الشرافية :–

تتوضح لنا عدة من المواصفات التاريخية التي تميزت بها البنية الشرافية في مكة ومكانتها في تاريخ الحجاز الاقليمي وطبيعة علاقتها بالعثمانيين، على النحو الآتي :

١. انها سلالة عربية ، وتكاد تكون اعرق سلالة في تاريخ العرب، فضلاً عن انها من السلالات القديمة في التاريخ البشري، وقد تجلت مكانتها الدينية من خلال نسبها الشرعي مع رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.. بينما السلالة العثمانية فهي تركية لا يبتعد امتدادها العرقي لأبعد من سنة ١٢٨١م، ولا مكانة مقدسة لها.

٢. استوطن «الاشراف» مكة المكرمة، وتركزوا فيها منذ سنة ٨هـ/ ٦٢٩م، بينما كان للعثمانيين انتقالات عرقية وتحولات سياسية، فأصلهم رعاة

* للاستزادة، انظر . اسماعيل حقي اوزن جارجلي، امراء مكة المكرمة في العهد العثماني، ترجمة: د. خليل علي مراد، جامعة البصرة، ١٩٨٥.

اتراك كان استقرارهم اخيرا في عاصمتهم اسطنبول، فاذا كانت مكة قبلة للمسلمين قاطبة، فان اسطنبول (= القسطنطينية) كانت مركزا عتيقا للكنيسة المسيحية الارثودكسية الشرقية.

٣. التحالف الاقليمي – الامبراطوري بين اشراف مكة والعثمانيين من اجل بناء مصالح مشتركة سليمة منذ عام ١٥١٧م، فاذا كان الاشراف قد استفادوا من القوة السياسية – العثمانية الكبرى لغرض الامن والاستقرار الاقليمي والمحلي، فان العثمانيين قد استفادوا من المقارنة الدينية المقدسة لطبقة الاشراف لغرض الاستحواذ على ولاء العالم الاسلامي قاطبة.

٤. لم تسمح الدولة العثمانية لاحد من طبقة «الاشراف» ان يعلن نفسه «سلطاناً» وحتى ولو كان ذلك بطريقة غير مباشرة فقد قمعت تجربة الشريف سرور الذي حاول ذلك من خلال الالواح الفضية التي علقها في مكة باسم« السلطان سرور» ! لقد ابقت الدولة العثمانية على «سلطنتين» عربيتين لم تسيطر عليهما واحدتهما في المغرب الاقصى، وثانيتهما في مسقط وزنجبار.

٥. لم يخبرنا التاريخ الامبراطوري / العثماني ولا التاريخ الاقليمي – المحلي / العربي بأن أياً من السلاطين العثمانيين قد حج الى بيت الله الحرام، او ان يكون قد وصل الى مكة او المدينة. وعلينا ان نتساءل : لماذا لم يحج اي سلطان وقد بلغ عددهم ٣٨ سلطاناً امتد حكمهم وعمر دولتهم ٦٤٣ سنة اي قرابة ستة قرون ونصف القرن؟ لقد اكتفى عدد منهم بارسال زوجاتهم وكريماتهم او من ينوب عنهم في اداء الفريضة من رجال الدين والادب .. علماً بان اغلبهم كان يرسل بهداياه الثمينة وعطاياه الكريمة الى مكة المكرمة*.

---

* راجع : د. سيار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث، سبق ذكره، ص ٤٧٠ – ٤٨٣.

٤- النزعة القبلية والتشكيلات المشيخية في سواحل الخليج العربي:-

خلال الاحقاب التاريخية المتأخرة تقوقعت بنيات تاريخية عريقة في شبه الجزيرة العربية والتي تعددت بيئاتها الجغرافية المعروفة حول صحارى الربع الخالي وهي : نجد / والحجاز/ وعسير / واليمن / وحضرموت / وعمان / و الساحل الاخضر / والاحساء، وقد اختلفت هذه البيئات الاقليمية في جغرافيتها الطبيعية و التاريخية بعضها عن بعض. وقد توطن في البيئات الاساسية منها عدد من الكيانات المشهورة التي مثل بعضها:- اشراف مكة في الحجاز، والائمة الزيدية في اليمن، و الطاهريون في عدن، والكثيريون في حضرموت، والازديون و الاباضيون في مسقط ..الخ.

هذه البنيات الاساسية مع لواحقها، تشكل عراقة تاريخية - عربية كتلك التي تمتعت بها اقاليم عربية اخرى من العراق ام بلاد الشام ام مصر ام المغرب العربي، و تمتاز جميعها بالنزعة الحضرية التي تطورت من خلال الاستقرار في المدن و الحواضر و الارباض مع جملة حصيلة اقتصادياتها المتنوعة، وخصوصا في المراكز العربية المهمة. وقد صبغ تاريخنا العربي الطويل بثنائية البداوة والتحضّر، و الترحال و الاستقرار ، والريف والمدينة.. وكان للتحضر والاستقرار في المدن الثقل الاكبر في صنع ذلك التاريخ وتراكيبه المختلفة وعناصره الايجابية.

اما النزعة القبلية - العربية وتشكيلاتها المحلية والتقليدية المنتشرة في الاراضي العربية، فانها قامت أساساً ومنذ القدم على النعرات العصبية والقبلية و العشائرية ، أي حكمتها رابطة «الدم» لا «الارض» وتمثلها بساطة الاعراف و التقاليد المتوارثة، و اعتمدت الرعي والترحال والصيد او الزراعات السيقية في احسن الاحوال، وعلى السلب والنهب والقتل في اسوء الاحوال كاعراف لا حياد عنها مطلقاً!

لقد اعتمدت السواحل الغربية للخليج العربي في اقتصادياتها على صيد اللؤلؤ وصيد الأسماك منذ القدم.. وان المجتمعات التي عرفت الاستيطان في تلك السواحل كانت تعتمد التجارة او المقايضة أساساً في حياتها المستقرة في المدن

الصغيرة ام في بعض الجزر.. وكانت لهم اسهامات بارزة في التجارة الاقليمية... ثم نهضت بدور نضالي مؤثر من اجل درء اخطار الاستعمار الاوروبي منذ القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر وبخاصة ضد البرتغاليين والانكليز، فبدأت تتعلق بارضها يوماً بعد آخر، لا سيما وان مواطنها بدأت تكتسب اهميتها الاقتصادية دولياً خلال الفترات المتأخرة *.

٥- بلاد السودان الغربي:-

يطلق مصطلح «بلاد السودان» على الصحراء الافريقية الكبرى امتداداً من البحر الاحمر حتى موريتانيا، وهي صحراء متسعة الارجاء ذات اقتصاديات ضعيفة ومنعدمة تقريباً، حيث لا حياة إلا في الواحات والترحال. وهناك المنطقة الاستوائية في الجنوب حيث تنتشر القبائل الزنجية البدائية، ولكنها منطقة خصبة بخيراتها الزراعية والمعدنية وغلبت عليها تجارة الرقيق لدى السودانيين الذين استخدموا الزنوج بضاعة لتجارتهم المربحة، فغالباً ما كانت تجارة اوربا وافريقيا تتم بتبادل المنسوجات والشموع والزجاجيات بالرقيق والذهب.

وتضم بلاد السودان، ممالك عدة، اهمها: مملكة غانة المتصلة بالاطلسي غرباً. مملكة مالي وسنغاي وبرنو وكانو عاصمة آل اسيليا، ثم ارض النوبة جنوبي مصر وغيرها من الممالك الاخرى. إن ابرز الاسر المالكة في بلاد السودان هي تلك التي أسّسها اسكيا محمد الاول (معنى اسكيا: المغتصب) وأصله من صنهاجة، او اسكيا الكبير، وهو المؤسس الحقيقي لدولة سنغاي الاسلامية الكبرى سنة ١٤٩٣م، اي بعد ضعف مملكة مالي وانحلالها.. ودام حكم الاسكيين اكثر من قرن كامل ترسخت خلاله العلاقات الاقتصادية مع بلاد المغرب العربي، ولاسيما حركة التّجار المغاربة. وتبادل السلع وانتشار القوافل التجارية. وكانت مدينة سجلماسة عاصمة تافيلات في الجنوب المغربي من اشهر المدن الاستراتيجية في الاتصالات الاقتصادية كمركز يصل افريقيا الاستوائية وصحراوات بلاد السودان ببلاد المغرب العربي والبحر المتوسط.

* انظر ج. ج لوريمر، دليل الخليج، ترجمة مكتب حاكم قطر، الدوحة، وانظر: د. بدر الدين عباس الخصوصي، دراسات في تاريخ الكويت الاجتماعي والاقتصادي في العصر الحديث، ط٢، الكويت، ١٩٨٣.

لقد ترسخت العلاقات كثيراً بين السعديين حكام المغرب الاقصى وبلاد السودان الغربي خلال النصف الاول من القرن السادس عشر. وكانت التحولات الخطيرة في العالم الاسلامي قد شغلت كثيراً الملوك السعديين الاوائل، وبخاصة الامتدادات العثمانية البرية. والتدخلات البرتغالية البحرية، فقللوا من شأن التدخل في بلاد السودان حتى مجيء مولاي احمد الى حكم المغرب الذي عرف عهده الاستقرار في الاوضاع الداخلية والخارجية، فرسم سياسة توسعية خاصة، تقوم اساساً على التركز الحضاري في مواقع استراتيجية مهمة جداً في جنوبي الصحراء المغاربية، للتوسع نحو السواحل اولاً، ونحو بلاد السودان ثانياً من خلال سيطرته على اشهر اقليمين عند حدوده الجنوبية، هما. اقليم توات واقليم تيكورارين، الواقعين في الجنوب الشرقي للمغرب. وكان كلاهما يتمتع بحكم ذاتي، ولكنهما يدينان بالولاء للملوك المغاربة، وقد اكتسحتها الفوضى والانحلال في اواخر عهد المرينيين ١١٩٦ - ١٥٤٩م واوائل عهد السعديين، اذ كان - كما يقول المؤرخ الناصري - «اهل تلك البلاد قد انكفت عنهم ايدي الملوك، ولم تسيّسهم الدول منذ ازمان ولا قادهم سلطان قاهر الى ما يراد منهم» *.

مراحل الامتداد المغربي:-

يعد اقليما توات وتيكورارين من الاقاليم الثرية، اولهما قريب من السودان والثاني قريب من المغرب، بل وعد من اضخم اقاليمها، وقد وصفهما المؤرخ القشتالي وصفاً دقيقاً في كتابه المعروف بـ« مناهل الصفا».

ان السيطرة السعدية المغربية عليهما قد جاءت بتخطيط يمكنه من قطع الطريق على العثمانيين في الجزائر اذا ما فكروا في التوسع والامتداد نحو غربي افريقيا وبلاد السودان. وقد تسلّم السلطان العثماني طلباً للنجدة من اسكيا ملك السودان لمساعدته ضد المنصور احمد الذي كان خصماً لدوداً للعثمانيين . وقد جاء في

---

* ابو العباس السلاوي الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى جـ ١ ، الدار البيضاء، ١٩٥٤-١٩٥٥ ص ٩٨.

احدى خطبه. وهو يستنهض همم جيوشه النظامية المغربية: اشعار الناس لكي يحموا حماها «من طوارق البغي والفساد، واستئصال شوكة اهل الغنى والعناد..» وقد جهّز جيوشه في عام ١٥٨٣م/ ٩٩١هـ التي جعلت من سجلماسة منطلقاً لها نحو الجنوب الذي داخله الرعب من كثرة عددها وعدّتها، فسيطر على اقليم تيكورارين الذي قهر تصلبه وشدّته بالقتال، ثم دخل توات التي دانت بطاعتها دون قتال، فدخل كل من الاقليمين في مجال الدولة المغربية خلال المرحلة الاولى من التوسع المغربي– السعدي.

وجاءت المرحلة الثانية بعد وفاة اسكيا داود في آب ١٥٨٢م/ رجب ٩٩٠هـ (عهد السلطان مراد الثالث ١٥٧٤– ١٥٩٥م)، لكي يسيطر احمد المنصور على المناطق الصحراوية، اي الساقية الحمراء ووادي الذهب، وتنطلق جيوشه بمحاذاة الساحل حيث تساقطت جميع القبائل بايديهم دون مقاومة، وقد استعصى اسكيا الحاج محمد، ولكنه ازيح عن عرشه اثر ثورة السودانيين عليه في عام ١٥٨٦م، تولى بعده اخوه اسكيا محمد الحكم سنة ١٥٨٧م، ثم خلفه بعد وفاته في السنة التالية اخوه اسكيا اسحق الذي تسلم خطاب السلطان المغربي والذي يتضمن مطاليبه الاقتصادية، وتحديد علاقاته السياسية، فرفض اسكيا اسحق الاستجابة لمطالب المنصور، فعجل الاخير بالتدخل قي السودان ضده.

وجاءت المرحلة الثالثة بعد فشل المساعي السلمية للمنصور في اخضاع اسكيا اسحق، لكي يعلن الحرب عليه بعد عقده لمجلس شورى في مراكش اعلن فيه عن اسباب حملته.. وقد احتج البعض في بداية الامر وذلك لصعوبة اختراق المسافات القاحلة من الصحراء، وان ليس فيما مضى من دول المرابطين والموحدين ودولة بني عبد الحق من بني مرين تجارب في ذلك، الا ان المنصور لم يقتنع بما قدموا من مسوغات، وكانت له دوافعه الاقتصادية في البحث والسيطرة على مواطن الذهب، وكانت اسلحته حديثة معتمدة على البارود والقذائف النارية تجاه اسلحة بدائية/ افريقية، وبمساعدة التجار بوصفهم ادلاء ومرشدين. وكان السودانيون قد استبعدوا اختراق المغاربة للصحراء، لكن المغاربة نجحوا في ذلك وحاصروا اسكيا

اسحق ودعوه للتسليم فرفض فاصطدم الجيشان: المغربي والسوداني ، فانهزم السودانيون أمام المغاربة، وهرب اسكيا اسحق، فدخل الجيش المغربي وقائده الباشا جودر العاصمة كاغو التي وجدوا فيها بعض الاسلحة البرتغالية، فقبل اسكيا بتقديم الطاعة. وقبل الصلح مرغماً لكنه يتمرد ثانية، وتعلن الحرب كرّة اخرى وينهار ثانية اثر معركة فاصلة.. وقد استطاع المغاربة ان يحكموا تلك البلاد زمناً طويلا. *.

---

* راجع التفاصيل في . محمد مزين، «المغرب وبلاد السودان خلال القرن ١٦، ١٧ الميلاديين»، المؤرخ العربي، العدد (٣١)، السنة (١٢)، ١٩٨٧.

لقد أوسع كل من المؤرخين المغربيين القديمين: السلاوي الناصري (المصدر السابق) والقشتالي في كتابه مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفا، تحقيق : عبدالله كنون، الرباط، ١٩٦٤ .. في المعلومات التاريخية المهمة عن هذا الاقليم الاستراتيجي والاقاليم المجاورة له. وراجع تحليلات دي لافوازييه

Hesperis Delafosse, les relation du maroc avec le Soudan a travers les ages annee

الفصل الرابع

٤ الفصل الرابع

الصراعات والزعامات والاوجاقات في الوطن العربي خلال القرن السابع عشر

التحولات والمواصفات ومآسي المجتمع العربي:-

تعلمنا مما سبق: كيف غدت الاراضي العربية واقعة في اطار الهيمنة العثمانية أو متحالفة معها، أو مستقلة عنها ومنذ النصف الأول من القرن السادس عشر. وتكاد تكون جميع المناطق متجانسة في مسألتين مهمتين في عملية التوسع العثماني، هما:

الاكتساب العثماني، أي؛ السيطرة وفرض الهيمنة بالقوة والامتداد العسكري.

التتابع العثماني، أي: سقوط اجزاء واسعة نتيجة لاكتساب المركز فيتوالى امر السيطرة تباعاً، كما حدث في العديد من الأطراف العربية.

هكذا نعلم ان القرن السادس عشر يعد عصر تحول في المصير التاريخي / العربي باتجاه الحكم العثماني و «العثمنة» في القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية اثر سيادة دامت قرابة اربعة قرون... في حين القرن السادس عشر عصر تحولات بالنسبة لاوروبا ايضاً، ولكنها تحولات من نوع آخر، وانطلقت في طريق آخر كرسته للاصلاح الديني والنهضة والاستكشافات والتفكير الفلسفي واللاهوتي... أذن، فالفارق في تحولات كل من العرب واوروبا كان كبيراً وبعيداً جداً... فارق بين التحجر والانطلاق، بين التحرك والسكونية، بين التبعية والابداع... وفعلاً فقد تركبت حقبات تاريخية - سكونية ليس في الحياة العربية فحسب، وانما في حياة العالم الاسلامي قاطبة.

وعليه، فاذا كنا قد اعتددنا النصف الاول من القرن السادس عشر هو عصر للتوسع العثماني وفرض الهيمنة العسكرية، فان النصف الثاني منه هو عصر للتأسيس العثماني وفرض القوانين واجراء التطبيقات في مختلف حقول الحياة، اي بمعنى: بناء اعراف وقوانين ونظم اقتصادية واجتماعية ستبقى سارية المفعول منذ ذلك الحين حتى مطلع القرن العشرين. ان عصر التأسيس والتطبيقات سيكفل لـ «العثمنة» ان تأخذ مديات واسعة لها. وتشكل شبه قطيعة بين ما ألفه المجتمع العربي قبل القرن السادس عشر وما آل اليه في الفترات العثمانية.

نلاحظ ايضا ان مفاهيم وافكاراً وتقاليد واعرافاً متعددة قد ترسخت ليس في اذهان الافراد فحسب، وانما عند الجماعات والوحدات الاجتماعية والثقل السكاني في المدن والحواضر، وسيخرج المجتمع بطبيعة تركيبه في حياته الاجتماعية التي تعكسها ايضا ظروفه الاقتصادية، وستتبلور بوجه خاص خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حياة عثمانية / اجتماعية جديدة ليس فها فاعليتها وحركتها، وانما لها تقسيمها الطبقي، وسوف يسود ذلك النمط معظم الولايات والاقاليم العربية حتى القرن التاسع عشر.. فماذا سنجد في القرن السابع عشر بعد فحص تكويناته التاريخية؟

في غمرة الهيمنة العثمانية، يعد عهد سليمان القانوني مكملاً في مشروعه لعهد سليم الأول، في حين ان عهد سليم الثاني ١٥٦٦–١٥٧٤م وعهد مراد الثالث ١٥٧٤–١٥٩٥م، وعهد محمد الثالث ١٥٩٥–١٦٠٣م فترة تاريخية تكميلية لعهد القانوني، عاشت على بقايا وآثار مازرعه القانوني من نظم وقوانين في الدولة، وما كفله من اعراف وتقاليد في المجتمع. فالاقتصاديات الجديدة بدأت تترسخ ادواتها ووسائلها في حلقات المجتمع يوماً بعد آخر، وتأقلمت ظروف الدولة والادارة والاقطاعيات مع واقع جديد تمخضت عنه التطبيقات العثمانية.

اذن، فالقرن السادس عشر هو مصدر تاريخي في تكوين آليات ومنتجات القرن السابع عشر الذي ضعفت فيه خلال الانتاجية الزراعية والحرفية فأثرت على حالة السكان وعلى انتشارهم، وضعفت اسواقهم وتجاراتهم، وانهارت بعض مدنهم واندثر بعضها، وساءت الاوضاع الصحية والثقافية، وضعفت حركة السفر

والهجرة والقوافل... الخ بسبب تزايد النكبات والكوارث من فيضانات وأوبئة وطواعين ومجاعات وحروب وظروف ابادة، ناهيكم عن الصراعات والنزاعات القبلية والمحلية والاقليمية... الخ.

اننا لو احصينا مجموعة الاحداث التراكمية التي عاش عليها المجتمع العربي خلال القرن السابع عشر فسنجد ان جميعها احداث جماعية سلبية تتصل بحالات من القهر الجماعي وقسوة الادارة وسوء التطبيق والقوانين والاوامر... ويمكننا ان نتوقف قليلاً لتحليل بعض العلل والمعلومات:

١ السياسة الجائرة التي اتبعت في الولايات والاقاليم العربية من قبل الولاة أو الصناجق والحكام الاقليميين، وانها سياسة ارتبطت مركزياً بالباب العالي الذي شهد ضعفاً في مكانته خلال القرن المذكور، ووصل الضعف الى السلاطين انفسهم، ولم يبرز منهم سوى السلطان مراد الرابع ١٦٢٣ - ١٦٤٠م الذي اتبع سياسة فعالة لوحده.

٢. سوء تطبيق لنظام الالتزام على امتداد القرن السابع عشر، فسبب ذلك خللا كبيرا في اقتصاديات المشرق العربي، والحق التفكك ببيئاته الجغرافية واقطاعياته التي مارس فيها الملتزمون أسوء الممارسات، كما مورست في مصر أسوء أساليب الادارة التي انتشرت فيها الرشوة والطلبة والاحتكارات والمضاربات... اما في بلاد الشام فقد ساءت اوضاع السوق والحركة التجارية نتيجة لتفاقم خطر الصراعات المحلية والنزاعات الاقليمية على يد الزعامات العسكرية ... الخ

٣ المشكلات التي خلقتها الفئات العسكرية - العثمانية كالانكشارية مثلاً الذين وطنتهم الدولة في العديد من المدن والحواضر العربية الكبيرة، فكانوا مثاراً للقلق والانقسام والنزاعات المحلية كتلك التي شهدتها حلب وديار بكر وبغداد والموصل والجزائر (التي ظهرت فيها فئة جديدة من السكان تدعى بـ«الكراغلة» والمنحدرة من أباء انكشاريين وامهات جزائريات).

٤- غلبة الصراعات الخارجية والتهديدات ضد الدولة العثمانية وممتلكاتها سواء من خلال البر أو البحر، وسواء كان ذلك في الشمال الافريقي ام الغرب الاسيوي، فقد تعرضت كل من ايالتي تونس والجزائر الى تهديدات القرصنة الاوروبية ولاسيما المناطق الساحلية. في حين تعرض العراق بولاياته الثلاث الى هجومات برية من قبل ايران الصفوية وبقي العراق محتلاً للفترة ١٦٢٣-١٦٣٨م.

٥- سلسلة الكوارث المأساوية في كثير من البيئات والاقاليم العربية، فانعدام سقوط الامطار أو مهاجمة الجراد النجدي للزروع، سيؤديان الى انعدام الانتاج، فترتفع اسعار المواد الغذائية، فتبدأ المجاعة، وكلما شحت المواد وانعدمت تساقط البشر من شدة الجوع بالمئات مما يقود الى انتشار الاوبئة والطواعين الذي يفتك بالمدن خصوصاً فتكاً شديداً.

٦- هجرة ونزوع الآلاف من المتشردين والهاربين والنازحين من الاناضول والامارات المجاورة نتيجة لظروف سياسية أو حربية أو اقتصادية خلق فئات جديدة في المجتمع كما حدث عند فئات «الصكبان» الذين استخدمتهم الزعامات العسكرية جيوشاً مرتزقة*.

١- العراق: بغداد ـــــ والصراع ضد ايران:-

لقد ضعف النظام الاداري - العثماني في العراق بسبب ضعف قدرات الولاة وقصر فترات عهودهم، وكان معظمهم من «المماليك» خريجي مدرسة القصر السلطاني في العاصمة اسطنبول. واعتمد الولاة خلال العقود الاولى من حكم السيطرة العثمانية على الجيش بتركيبته الانكشارية والسباهية، وللمشكلات

---

* من اجل التوسع في المعلومات التاريخية عن الاحداث التي عاشها المجتمع العربي خلال القرن السابع عشر، احيل القارىء الى المصادر القديمة التي كتبها كل من:

-- محمد امين بن فضل الله المحبي في كتابه الكبير «خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر» (٤ اجزاء) القاهرة، ١٨٦٨م.

-- محمد بن ابي السرور البكري الصديقي، «كشف الكربة في رفع الطلبة»، تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، ١٩٧٦.

-- ياسين الخطيب العمري، الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون»، (٣ أجزاء)، تحقيق. د. سيار جميل، اسكتلندا، ١٩٨٣.

المعقدة والمتنوعة والكثيرة، وبضمنها التمردات، واستشراء الفوضى الداخلية للقوات العسكرية العثمانية، لجأ الولاة الى تشكيل قوات محلية لاجهزتهم الادارية*... وكثيرا ما حدثت صدامات مسلحة بين القوات العثمانية/ الانكشارية والقوات البغدادية / المحلية.

وهكذا، استبد الانكشارية بالحكم في بغداد مرتين، وذلك لانهم كانوا اقوى من بقية القوات والتشكيلات الاخرى:

١. **الحركة الأولى في عام ١٦٠٣ – ١٦٠٤م:** ظهر القائد الانكشاري محمد بلوك باش بن احمد الطويل بعد ان ورث منصبه عن أبيه. وفي عام ١٦٠٥م، قاد انقلابا به مسيطراً على بغداد، وعبثا حاولت القوات التي ارسلها السلطان احمد الأول ١٦٠٣ – ١٦١٧م، بقيادة نصوح باشا والي ديار بكر ان تفعل شيئاً اذ انهزم – من بعد – بسبب خيانة الجند المرتزقة. واستتبّ الامر لابن الطويل، ولكنه اغتيل فجأة في عام ١٦٠٧م من قبل كاتب ديوانه، ونصب اخاه مصطفى بك مكانه. وعملت الحكومة العثمانية على القضاء على الانقلابيين، اذ ارسل محمد باشا ابن سنان باشا بغية اقصاء مصطفى، وتوليه باشوية بغداد، وبلغ الموصل، فدخل في مفاوضات سرية مع سحب القوات العسكرية في بغداد التي كانت واسطة لحل النزاع القائم في حكومة بغداد الانقلابية التي تنازلت لمحمود باشا عن السلطة، فنجح في مساعيه ونصب والياً على بغداد، وقام بدور تنصيب ابن الطويل والياً على الحلة عام ١٦٠٨م، ولكن هذا الاخير فر بعد ذلك الى ايران.

٢– **الحركة الثانية:** التي كانت اكثر اهمية وخطورة، تلك «الحركة» التي قادها بكر الصوباشي احد ضباط الانكشارية في بغداد (والصوباشي معناه: رئيس الشرط). وكان قد تنفذ في بغداد كثيرا مكتسبا له العشرات من الاتباع في الخفاء، وبدأ نفوذه في الازدياد حتى غدا الرجل القوي لبغداد منذ عام ١٦١٩م بحيث أصبح الوالي يخشى سلطاته، وحدت الاوضاع بالوالي يوسف باشا بترقب

---

* تفاصيل عن الحياة الادارية، انظر: د. خليل علي مراد، تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٦٣٨–١٧٥٠. (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الآداب – جامعة بغداد، ١٩٧٥.

الفرصة المؤاتية للايقاع بالصوباشي... وقد حاول ارساله على رأس قوات لتأديب بعض القبائل ونصب ابنه محمدا مقامه.

واستعد يوسف باشا لقتاله، ولكن بكر الصوباشي كان قد علم، فرجع محاصراً بغداد، ودارت رحى معركة دامت بضع ساعات سقط خلالها يوسف باشا صريعاً، فأصبح بكر الصوباشي حاكماً عسكرياً مستقلاً لبغداد... ثم بدأ يفكر بالحصول على اعتراف بحكمه لولاية بغداد من الحكومة العثمانية، فأرسل الى والي ديار بكر حافظ احمد باشا يطلب منه ان يعرض هذا الامر على السلطان مراد الرابع ١٦٢٣–١٦٤٠م فرفض السلطان ذلك الأمر رفضاً باتا، وذلك لأهمية بغداد الاستراتيجية في التفكير السياسي – العثماني، فنصب سليمان باشا والياً على بغداد.

تلقى الوزير حافظ أحمد باشا أمر السلطان بالزحف على بغداد، والاطاحة بالصوباشي وقمع تمرده، وكان ذلك الامر السلطاني – كما يبدو – قد جاء خوفاً من انحياز الصوباشي نحو ايران وتسليمه بغداد الى الشاه عباس الصفوي معاندة، فاتهم حافظ احمد باشا بممالأة الصوباشي. وعندما علم بتهمته توجه بقواته لقتال بكر الصوباشي، وقد حدث ذلك الذي خشي منه حافظ احمد باشا، اذ طلب الصوباشي المساعدة من الشاه الصوفي عباس الأول ١٥٨٧– ١٦٢٩م موضحاً انه اذا خلصه الشاه الايراني من العثمانيين فانه يسلمه بغداد، فوجد عباس الأول (وهو من ابرز الشاهات الايرانيين الصفويين) بأن الفرصة مؤاتية لاعادة السيطرة على العراق واحتلال مدنه، فأرسل بقواته.

نتيجة لذلك فقد رفع حافظ احمد باشا الحصار عن بغداد، وعقد صلحاً مع بكر ونصبه والياً عثمانياً على بغداد بمقتضى فرمان سلطاني «وعلم حافظ احمد باشا الا طاقة له بالشاه، فصالح بكر الصوباشي وخلع عليه خلعة الوزارة وولاه بغداد ورحل حافظ احمد باشا الى ديار بكر فنزل الشاه عباس على بغداد، وأرسل يطلب الوعد، فكتب له بكر: قد تصالحت مع السلطان ووليت بغداد فارجع، فغضب الشاه عباس وحاصر بغداد حتى أكل اهلها لحوم الآدميين. وكان بالقلعة محافظاً محمد بن بكر الصوباشي، فخان اباه، واتبع هواه وأرسل الى الشاه، واستوثق لنفسه

بالأمان، وفتح له باب القلعة ليلاً، وادخل عسكر الشاه اثنين اثنين الى ان امتلأت القلعة وعند الصباح ضربت طبول الشاه بالقلعة ودخل بغداد الشاه عباس ووضع السيف وقتل بكراً وأخاه والقاضي والنائب، ومن أهل بغداد اكثر من اربعين الف نسمة ثم نادى بالامان وارسل الشاه عباس احد قواده قاسم خان فملك كركوك، ثم ملك الموصل وعاد الى بغداد» – كما هي رواية المؤرخ ياسين الخطيب العمري* –.

هكذا انتهى حكم العثمانيين في العراق بعد قرابة تسعين سنة من سيطرة السلطان سليمان القانوني على بغداد عام ١٥٣٤، وهكذا وقع تحت وطأة الاحتلال الفارسي اذ اجتاز الشاه عباس الصفوي على رأس جيوشه عبر الحدود ليحتل بغداد سنة ١٦٢٣م بعد التمرد الذي قاده بكر الصوباشي على العثمانيين، وبعد الاحداث المأساوية التي حدثت ببغداد. لقد انبث الفرس على رقعة العراق، اذ سيطروا على كركوك التي استسلمت دون مقاومة، وحوصرت الموصل طويلاً، ولم تستسلم للفرس الا بعد وصول تعزيزات عسكرية فارسية مارست ضدها حرباً اقتصادية شعواء اضطرت بعد ذلك للتسليم، فقتل المئات من أهاليها واعدم واليها التركي. واستمرت السيطرة الفارسية – الصفوية على الموصل ثلاثة اعوام فقط، اذ استردها العثمانيون عام ١٦٢٦م دون مقاومة، في حين استمرت السيطرة الفارسية على بغداد حتى عام ١٦٣٨م.

لقد احتل الشاه عباس الأول العراق عام ١٦٢٣م، فقام العثمانيون بمحاولات متكررة لاعادة السيطرة العثمانية عليه، وباءت محاولات الوزير حافظ احمد باشا بالفشل وكان قد اصبح صدراً أعظم للدولة في سنة ١٦٢٥م، وبعد وفاة الشاه عباس الأول، قام خسرو باشا الصدر الاعظم بحملة اخرى عام ١٦٢٩م، وقد فشلت وانسحبت القوات العثمانية نحو الموصل. وبقيت سيطرة الفرس الثانية على بغداد حتى سنة ١٦٣٨م عندما تجرد السلطان مراد الرابع ١٦٢٣–١٦٤٠م لاستردادها ثانية، وبعد حصاره الشديد لها لمدة اربعين يوماً... فجر اسوارها، ودخلها عنوة وأنهى الحكم الصفوي فيها، ثم نظم ادارتها، وعين الوزراء عليها ثم

* ياسين الخطيب العمري، الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون، تحقيق: د. سيار الجميل، اسكتلندا، ١٩٨٣ جـ٢، ص ١٦٣–١٦٤.

رجع الى عاصمته وعد استرداده لبغداد عملاً استراتيجياً، وحدثا خطيراً في موازين تاريخ القرن السابع عشر* .

اذا ما قارنا بين الحملات الثلاث لتخليص بغداد وجدنا ان الحملتين العثمانيتين الاوليين قد فشلتا لاسباب تتعلق بالقيادة أولاً، وبانعكاس مساوئ التخطيط للباب العالي ثانياً، فقد كانت اسطنبول تعيش فوضى سياسية، واضطرابات داخلية استطاع ان يحسمها السلطان مراد الرابع الذي أعاد للدولة حيويتها... وقبل وفاته بسنة استطاع ان يعيد بغداد والعراق الى حكم الدولة العثمانية ثانية، ويلقب بعد ذلك بلقب «فاتح بغداد».

جاء في مخطوط «الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون»: «ونزل السلطان – مراد الرابع – شرقي الموصل في صحراء قرية يارمجة، ثم توجه السلطان مراد، ونزل على بغداد فحاصرها اربعين يوماً، وأمر بحفر لغم وحشوه باروداً. واطلقوا فيه النار. فانهدم جانب عظيم من سور بغداد وهجم العساكر على بغداد والسلطان في اثرهم، ووضعوا السيف بالاعجام حتى قتلوا منهم نحو عشرين الف علج من العجم واسرت جماعة من الخانات، ثم امر السلطان برفع السيف ونادى بالأمان وكان هذا الفتح ثامن رجب**، ثم أمر السلطان مراد بتعمير سور بغداد والقلعة وشحنها بالعدد وعين لمحافظتها وزراء وامراء وعساكر وامر بعمارة المراقد، وعاد السلطان الى اسلامبول (= اسطنبول)***.

لقد تحقق الحلم العثماني باسترداد بغداد على ايدي مراد الرابع الذي يعد آخر السلاطين العثمانيين من الغزاة الفاتحين، وقد عقدت بين طرفي الصراع، اي بين السلطان مراد الرابع والشاه عباس الأول، معاهدة زهاب عام ١٦٣٩م، لتحديد

---

* التفاصيل في : علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨–١٧٥٠م . دراسة في احواله السياسية ط ١، نينوى ١٩٨٤/ ١٩٨٥، ص ٤١–٨٢ (في الاصل رسالة ماجستير / جامعة بغداد).

** يقابل شهر كانون الأول / ديسمبر من عام ١٦٣٨م.

*** نقلاً عن حوليات ياسين الخطيب العمري، الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون، تحقيق: د. سيّار الجميل، جـ٢، ص ١٦٤.

الحدود السياسية بين الطرفين في العراق، وعدّت هذه المعاهدة جذراً تاريخياً للمعاهدات العثمانية – الفارسية التي عقدت فيما بعد، وقد وقعت «المعاهدة» بعد مفاوضات مطولة بين الدولتين، وتوقف الصراع العثماني – الايراني لفترة من الزمن اثر توقيع معاهدة زهاب في ١٧ مايس ١٦٣٩م، اذ اعقبها فترة هدوء نسبي، وقد نصت المعاهدة المذكورة على بنود مهمة، منها:

١– ان تكون بدرة وجصان ومندلي ودرتنك والسهول الواقعة بين تلك المدن ومجموعة العشائر المتنوعة التي تقطن تلك المنطقة تابعة للدولة العثمانية.

٢– يعد الممر الاستراتيجي المؤدي الى شهرزور حداً جغرافياً فاصلاً بين الدولتين.

٣– تعد بغداد مدينة عثمانية.

لقد عاشت ولاية بغداد بعد ذلك فترة فوضى خلال «حكم الولاة الاتراك للفترة ١٦٣٨– ١٧٠٤م، حيث تعاقب على حكمها اكثر من تسعة وثلاثين والياً لم يترك كل واحد منهم عند عزله اثراً يذكر بسبب عدم بقائهم في مناصبهم مدة طويلة من الزمن». فضلاً عن ان العثمانيين بقوا يتبعون سياستهم التقليدية، وينتهجون الاساليب القديمة في التعامل بين مركز السلطنة والولايات العراقية التابعة بتبعية مركزية، فبقيت جميع الاجهزة البيروقراطية القديمة سائدة تعمل ببطء كبير، بل وأصاب الفساد كثيراً من المرافق الادارية.. فضلاً عن تدهور القوة العسكرية العثمانية– الانكشارية. وأصيبت البنية الاقطاعية في الصميم، كما حدث تماماً في بلاد الشام الذي اصابه الانحلال العام، مؤثراً بدوره على طبيعة المجتمع وضعف تراكيبه نتيجة لظهور الانقسامات الحادة، والتي آلت الى صراعات مكشوفة في اغلب الولايات العربية.

واعتمد الولاة على قواتهم المحلية التي لم تستطع بدورها فرض السيادة الاقليمية العثمانية على جهات عدة من الولايات العراقية ولواحق المدن ودساكرها. ان كثرة الولاة الذين تعاقبوا على حكم ولاية بغداد قد أثر كثيراً على حالة تطبيق النظم والقوانين، وكثيراً ما وجد الجهاز الاداري نفسه في محنة ومشكلات لا

تحصى نتيجة لانتفاضات الجند على الولاة، وصدامات الانكشارية بالقوات المحلية.

لقد ازدادت الفوضى في بغداد خلال السنوات الاخيرة من القرن السابع عشر، وتفاقمت قوة رؤساء العشائر العربية في العراق.. وكانت بغداد بحاجة الى والٍ قوي يرتب شؤونها ويقوّم ضعفها، وينقذ العراق من الفوضى والانحلال.. حتى اتيح لحكم بغداد مجيء حسن باشا في عام ١٧٠٤، لكي تبدأ صفحة تاريخية جديدة من تاريخ العراق الحديث خلال القرن الثامن عشر *.

٢- الموصل ـــــــ الاستراتيجية والروابط الاقتصادية.-

اما الموصل فقد دخلت المجال العثماني بعد شهر مايس ١٥١٦م/ ٩٢٢هـ أي عقب معركة قرة غين دده الفاصلة، ولم يطبق فيها النظام الاقطاعي- العسكري إلاّ بعد تطبيق سليمان القانوني نظام الشرق. وكان لموقع الموصل مركزاً وولاية أهمية استراتيجية كبرى من الناحيتين العسكرية والسياسية- الاقتصادية، فقد كان على الموصل ان تمارس ضغوطاً مؤثرة على الامارات الكردية المتناثرة بعصبيتها الاثنية الداخلية والمتأرجحة في ولائها بين الاتراك العثمانيين والفرس الصفويين.

بعد سقوط بغداد بيد الصفويين عام ١٦٢٣م اثر حادثة بكر الصوباشي الغريبة توجهت حملة فارسية بقيادة قرجغاي خان الى كركوك، فاستسلمت له دون مقاومة بعد فرار واليها بستان باشا الى ديار بكر لعدم قدرته على الصمود، ثم توجه قرجغاي خان الى الموصل، فحاصرها بشدة، إلاّ ان اهليها صمدوا ضده وقاوموا جيشه الذي اضطر الى طلب امدادات ومعونة، فأرسل اليه الشاه عباس حملة قطع خطوط المواصلات عنها، فاستسلمت بعد مقاومة شديدة، فوضع الجيش الفارسي السيف في المدينة قتلاً وسلباً، وعاد قرجغاي الى بغداد، وتولى قاسم خان حكم مدينة الموصل بأمر الشاه، وقد تزوج بامرأة من عوائل «السادة» في الموصل.

---

* من المفيد جداً مراجعة تحليلات لونكريك ورسالة ماجستير حسين محمد القهواتي. العراق بين الاحتلالين العثماني الاول والثاني ١٥٣٤- ١٦٣٨م، جامعة بغداد، ١٩٧٥ (غير منشورة)

بقيت الموصل تحت الحكم الصفوي مدة ثلاثة اعوام صعبة.. قاطع اهلوها خلالها المحتل الفارسي، وقد افلح العثمانيون في ارسال حملة تحت قيادة جركس حسن باشا بالتعاون مع اهالي الموصل في طرد الفرس وقيادتهم وقاسم خان.. فعادت الموصل ا ى مجال الحكم العثماني مرة أخرى.. وعاد اليها من كان قد هرب من الحكم الصدو ي الى الجبال *.

وبقيت ا. وصل محطة أساسية في الاستراتيجية العثمانية بازاء حركة الاتصال بين مركز السلطنة واقاليم الشرق، واستفحل دورها ابان تزايد حدة الصراع العثماني- الايراني، وكان لها الدور البارز في حملة السلطان مراد الرابع الذي خلّص بغداد سنة ١٦٣٨م، وبعد موت «فاتح بغداد»، بدت العلاقات السياسية بين العثمانيين والفرس اقرب الى الالتئام الخافت، والجيرة الدبلوماسية المشوبة بالحذر لمدة طويلة.. اما بالنسبة للعراق، فلقد كان من نتائج السيطرة العثمانية عليه، هو استقطاب الموصل للدور الاقتصادي - العسكري باعتبارها مركز اتصالات العراق بعاصمة الامبراطورية، ونظراً لمكانتها الرأسية وعلاقتها باقاليم الاناضول والشام.

ويسجل الشريط التاريخي لعراق القرن السابع عشر ذلك الاطراد في علاقات الموصل ببغداد، برغم الآفات والكوارث الاقتصادية التي حاقت بشمال العراق، في سهوله ومدنه خلال تلك الحقبة.. ثم نكبات الطاعون التي حلّت بالموصل على امتداد القرن المذكور، وخلال السنوات الآتية: ١٦٢٥م/ ١٠٣٥هـ، ثم عاد الطاعون غازياً سنة ١٦٤٣م/ ١٠٥٣هـ ثم في سنة ١٦٥٠م/ ١٠٦١هـ.. وبرغم ذلك كله فقد بقي المركز الاستراتيجي للموصل ثابتاً، بل قامت قاعدته العسكرية- الاقتصادية بدور فعال لحماية بغداد ضد ما يهددها من أخطار ايرانية مستفحلة، وخزيناً احتياطياً للمواد الغذائية في اوقات مختلفة، وعلى الاخصّ مطاليبها من الحبوب وذلك عبر الخط الملاحي النهري لنهر دجلة... فضلاً عن انها محطة الارساء العسكري من بغداد والدولة وبالعكس في تموين العدة والعدد وخصوصاً

---

* من المهم مراجعة كتب المحليات القديمة للموصل، وخاصة كتابات المؤرخ ياسين الخطيب العمري (الدر المكنون/ زبدة الاثار الجلية/ منية الادباء/ غرائب الاثر...).

المارة بها الى بغداد، أو ان يكون التموين من امكانيات ولاية الموصل المحلية ذاتها، في مشاركتها بضرب التحرشات الخارجية، أو مساعدتها في اطفاء الفتن الداخلية، وما يحدث في أطرافها من العصيان.. وقد تمثل كل ذلك بمد السنوات التي مرّت بها بغداد الام والاطراف، من غزوات فارسية، او مشكلات ادارية، او انقسامات داخلية، أو اخطار قبلية.

اما اوضاع الموصل الداخلية خلال القرن السابع عشر، فلم يختلف حالها عن الاحوال السياسية في بقية ولايات الدولة، إذ سادها عدم الاستقرار، وكثيراً ما كان الولاة يتبدلون سريعاً، وهم من جنسيات متنوعة. وغدت الحالة الاقتصادية كما كانت من قبل سيئة جداً في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وذلك لتزايد الكوارث والنكبات الطبيعية، وحدوث الغلاء، وانتشار المجاعات.

اما الاوضاع الاجتماعية فقد سادت الموصل حالة من الانقسام الحاد بين الأسر الموصلية لأسباب مذهبية وسياسية تبرزها المصالح الطبقية في المجتمع المحلي، ولأسباب اقتصادية بحتة تتعلق بقضايا الزراعات والارض والري ونظام الالتزام والاقطاعات*. وقد ادى ذلك الانقسام الاجتماعي الخطير الى نتائج سيئة، إذ اذكيت الفتن المحلية والتأثير على حركة السوق، وتدهور العلاقات بين السكان.

في اجواء كهذه، كانت الاسرة الجليلية تتحضر للسيطرة على الحكم المحلي وتبدأ صفحة جديدة في حياة العراق الحديث.

٣ - البصرة ـــــ حكومة افراسياب العربية:

تعتبر مدينة البصرة من المدن العربية الصعبة والمهمة في التاريخ الاقتصادي للعالم، فهي المسيطر استراتيجياً على البر والبحر والنهر، وقد استقطبت مفاتيح الخليج العربي خلال تواريخ متنوعة. وعجزت السلطة العثمانية في نهاية القرن السادس عشر ان تبقى حياة السيطرة عليها اثر ضعف سلطة الولاة عليها، وفشلهم في درء الاخطار التي حاقت بها.

---

* انظر ما كتبه دومينيكوا لانزا في مذكراته: الموصل في الجيل الثامن عشر حسب مذكرات دومينيكوا لانزا، فصول ترجمها واطلق عليها هذا العنوان، د. روفائيل بيداويد، الموصل، ١٩٥٣.

وكان النفوذ العثماني المركزي المباشر في حالة جزر دائم، ومناخ خاص وفر عوامل عدة في قيام حكومة محلية في البصرة سوف تسمى بـ «حكومة آل افراسياب».

فان افراسياب قد تعهد ان لا يقطع اسم السلطان من الخطبة عندما اشترى البصرة بثمانية اكياس نقود رومية، وهجر الحاكم التركي علي باشا، فتسلم افراسياب زمام الامور في البصرة وضواحيها.. وينحدر آل افراسياب الى أصل سلجوقي / تركي، الا انهم مارسوا سياسة عربية محضة في علاقاتهم الخارجية المختلفة، مرسخين صلاتهم بالعثمانيين باعتبارهم حكاماً لهم شبه استقلاليتهم في البصرة ذات الموقع الاستراتيجي الحساس سياسياً تجاه الفرس، واقتصاديا تجاه الهند.. وقد استمدت هذه الاسرة شرعيتها التاريخية المحلية من ابناء المدينة / البصرة وعلى قواتهم العسكرية. وعلى انكفاء الادارة العثمانية في منافسة العرب لها في فرض النفوذ المحلي والسيادة البرية (البادية).

لقد تشكلت القوات الحربية لحكومة افراسياب البصرية من مجموعات متعددة، كان ابرزها قوات نظامية وقوات غير نظامية، تمثلت الاولى بالقوات المحلية Local Forces وتمثلت الثانية بافراد من القبائل العربية، ولكنها جميعاً كانت مستقلة تستمد من افراسياب نفسه قراراتها، فاستطاعت حكومته الاقليمية من الاعتماد عليها في فرض الامن واستتباب الاستقرار، ودعم الاقتصاد الاقليمي، ومواجهة الامتدادات وحالات التوسع للقوى الخارجية.

كانت حكومة آل افراسياب بمثابة شكل لا مركزي من اشكال الحكومات الاقليمية التي كانت تدين بالولاء شكلياً للامبراطورية العثمانية منذ القرن السابع عشر، فهي انموذج وسيط من نماذج عديدة متشابهة، اي انها كانت حلقة وصل في بناء علاقات اقليمية غير مباشرة بين الاراضي العربية وبين العثمانيين، فقد كانت تجربة المعنيين قد سبقتها في لبنان وسوريا وفلسطين منذ القرن السادس عشر ... في حين لحقتها تجارب اقليمية اخرى في القرن الثامن عشر سواء أكان ذلك في الموصل ام الجزائر ام دمشق ام بغداد والقاهرة وطرابلس الغرب وغيرها

هكذا، اكتفى العثمانيون بقيام حكومة افراسياب بذكر اسم السلطان في الخطبة، دوماً، ولم يطالبوا البصرة بدفع الجرايات (الضريبية) السنوية الى

خزينتهم، علماً بأن واردات البصرة كانت كبيرة لا تضاهي خلال القرن المذكور بشهادة اكثر من سائح ومؤرخ كبترو ديللا وفنشنسو وتافرنيه والكعبي وغيرهم من الذين عاصروا الاحداث، واطلعوا على البصرة ابان عهد حكومتها المستقلة في الاقتصاديات، واتخاذ القرارات ليس عن الاتراك العثمانيين في العاصمة اسطنبول، بل حتى عن ولاة بغداد الاقليميين في وسط العراق، لكن ابقى العثمانيون اتصالاتهم بالبصرة ضمن سياسة خاصة اتبعت تجاه البصرة بعد ان ثبتوا حكومة افراسياب بفرمان مرسل من علي باشا شخصياً في يوم ١٣ مايس / ايار ١٦٢٥م.

لقد غدت البصرة بعد عام ١٦٢٣م، اي بعد الاحتلال الفارسي- الصفوي الثاني لبغداد والموصل، معزولة عن البر والنهر العراقيين، فضلاً عن محاولات تعرضها للهجوم الفارسي لاسباب اقتصادية، ذلك انها اصبحت مركزاً للتجارة البرتغالية، وتحكمها بتجارة القطيف والاحساء وبقية السواحل الخليجية- العربية.. ولقد كان ذلك سبباً فعالاً في زيادة حجم الروابط بين حكومة افراسياب والدولة العثمانية التي لم تستطع ان تحمي البصرة مادياً أو عسكرياً او اقتصادياً، بل شكل موقفها تجاه سكان البصرة تشجيعاً متواصلاً على الصمود. وقد أنتج ذلك دفعة نفسية، وروحاً معنوية للوقوف امام خطر انقسام العراق على يد الايرانيين.

تعد تلك الاحداث التي عاشها العراق خلال النصف الاول من القرن السابع عشر، عاملاً تاريخياً مؤثراً في استمرار حكم آل افراسياب في البصرة، واستمرار اعتراف السلطة العثمانية العليا بهم. وكان آل افراسياب بحاجة الى اسناد شرعي لما كان يحيق بهم من مخاطر اقليمية، وما يواجههم من مشكلات اقتصادية، ولاسيما علاقاتهم مع شركة الهند الشرقية وحركاتهم في الخليج العربي، فضلا عن الروابط والتحالفات التي عقدتها ايران الصفوية مع القوى الاوربية كالانكليز مثلاً، علماً بأنه لم تكن هناك اية علاقات بين آل افراسياب في البصرة والانكليز في الخليج العربي وكانت هناك علاقات سياسية مطردة بين الامارتين: الافراسيابية في البصرة والمشعشعية في عربستان، وكلما تحسنت العلاقات اثرت تأثيراً كبيراً

على السياسة الفارسية التي حاولت التقرب بين الامارتين لضمان حيادهما على الاقل في حالة نشوب اي حرب صفوية- عثمانية، وخاصة في اثناء استعدادات السلطان مراد الرابع في حملة تخليص العراق من السيطرة الفارسية.

ولم تؤثر حملة السلطان مراد الرابع لاعادة السيطرة على بغداد عام ١٦٣٨م على ال افراسياب في شيء، بل بقيت العلاقات بينهم وبين الدولة العثمانية جيدة وعلى مدى زمني طويل، ولا سيما بعد ان عقد مراد الرابع الملقب بـ«فاتح بغداد» معاهدة زهاب مع الفرس عام ١٦٣٩، تعهد الشاه الصفوي فيها بعدم التحرش بالاراضي العراقية. وعدم التعرض للمدن العراقية والقصبات التابعة لكل من بغداد والبصرة. ويشير بعض المؤرخين الى ان معاهدة زهاب تعد من اقوى المعاهدات التي ضمنت للعراق فترة هدوء نسبية خلال القرن السابع عشر*.

لقد ضمنت الاوضاع التاريخية، فيما بعد معاهدة زهاب، حالة قوة لعلي باشا افراسياب الذي بدأ يمتد متوسعاً في اراضي المنتفك التي طلب سكانها من والي بغداد الانضمام بسنجقيتهم الى بغداد بدلاً من البقاء تحت حكم علي باشا، فأرسل درويش علي باشا جيشا ليستولي على المنطقة المحتلة لتغدو تابعة لولاية بغداد، وقد وقعت احداث تاريخية مشابهة حول قلعة «الزكية».

كان الوضع الذي خلقته معاهدة زهاب كافياً لاشعال فتيل النزاع الاقليمي- العثماني بين قوات والي بغداد من طرف، وقوات علي باشا افراسياب من طرف اخر. الا ان كفّة الصراع رجحت لصالح بغداد، وبدأت تتفاقم الاسباب غير المباشرة التي كان منها انزعاج الدولة العثمانية من العلاقات والروابط التي كان يمتلكها علي باشا افراسياب الذي كانت وفاته ومجيء ولده حسين باشا عام ١٦٥٠م حالة مناسبة لانقطاع الاوامر العثمانية- الافراسيابية، وبداية رجوع النفوذ العثماني- الاداري المباشر على ولاية البصرة.

ولكن كيف؟

---

*Cf. J. C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, London, 1958, Vol I, pp. 21-30.

وراجع اراء المؤرخين فون هامر بورجشتال ولونكريك وستانفورد شو وغيرهم

لقد اصدر الباب العالي فرماناً عام ١٦٦٤م بتولي مرتضى باشا قيادة الحملة نحو البصرة، اذ استطاع دخولها فاستقبلته اهاليها استقبالاً رائعاً، فقضى على الافراسيابيين وعلى قواتهم السياسية والاقتصادية منصباً احمد بك عم حسين باشا افراسياب حاكماً على البصرة، فرجع حسين باشا افراسياب فاستقبل بحرارة، وساءت العلاقات السياسية بينه وبين والي الاحساء الذي كان وراء الخلافات الاسرية التي دبّت عند الافراسيابيين، ونتيجة للمضاعفات الاقليمية والمشاكل والتوترات قاد حسين باشا افراسياب حملة عسكرية مباغتة على الاحساء وضمها الى امارته عام ١٦٦٤م.

كانت تلك الاحداث كافية لكي يصدر الباب العالي فرماناته بتجهيز حملة اشترك فيها ولاة ديار بكر والموصل والرقة وشهرزور ضد امارة افراسياب وذلك في عام ١٦٦٥م فبلغ عدد المقاتلين خمسين الف مقاتل، قبل التحرك، كتب قائد الحملة ابراهيم باشا كتاباً الى حسين باشا افراسياب يطلب منه الاستسلام، فأبى و تحصن في القرنة، ولم يستسلم، وصمدت قواته في قلعتها واستبسلت امام هجمات الجيش العثماني الذي كان يحارب في بيئة صعبة. وبدأ حسين باشا يشنّ هجمات مباغتة وسريعة في البر على القوات المسلحة، وفي النهر على العوامات والسفن التجارية، وانقسمت البصرة على نفسها بين الطرفين.

كان حسين باشا يتلقى مساعدات من الحويزة، اذ ناصره عدد من شيوخ العرب الناقمين على الحكم العثماني، ومنهم شيوخ المنتفك... ولم يستطع الجيش العثماني تحقيق اي نصر على حسين باشا مدى ثلاثة أشهر، وبدأ الاستياء يدبّ فيه، نتيجة للأوضاع المزرية التي عاشها، فعقدت اتفاقية عاجلة بين الطرفين ذات شروط بسيطة منها. بقاء حكومة افراسياب في البصرة، وشرط انتقال الحكم الى يحيى بن حسين باشا وأن يرفع حسين باشا الى حكم الاحساء، وترجع الغنائم الى السكان، وتدفع الضرائب (الجرايا السنوية) حالاً الى الخزينة العثمانية. فبدأت القوات العثمانية بالانسحاب الى بغداد، وسار يحيى افراسياب الى اسطنبول وقد اتفق فيها على خلع حسين باشا وتنصيب ولده يحيى باشا على البصرة.

ولم تنته حدة الصراع، فقد كانت الفترة الانتقالية كي يصدر الباب العالي اوامره الى الوزير قرة مصطفى باشا والي بغداد لقيادة حملة عسكرية على البصرة باشتراك ولاة اقاليم العراق: والي ديار بكر ووالي الموصل ووالي الرقة ووالي شهرزور... وكانت حملة كبيرة اشتركت فيها المدافع الضخمة وتحركت في ٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٦٦٧م، وبدأت تهاجم جميع المناطق الموالية، وتكتسح اقليم البصرة تدريجياً.

هكذا تشتت اتباع حسين باشا الذي هرب الى الحويزة نهائياً ولم تر عينه البصرة بعد ذلك، فازيلت امارة افراسياب، وعادت المركزية الادارية لولاية البصرة التي رابطت فيها حامية عثمانية قوية لم تكن تقوى على كبح جماح الاضطرابات بعد زوال امارة افراسياب بسيطرة الشيوخ العرب على الطرق التجارية ... وكانت الاوضاع في نهاية القرن السابع عشر قد أهلت مانع بن مغامس سنة ١٦٩٤م رئيس عشيرة المنتفك للزحف على رأس قواته. وفرض هيمنته على البصرة بعد طرد واليها العثماني كي تبدأ صفحة تاريخية جديدة في حياة العراق وفي ظل العلاقات المتوترة بين العثمانيين والصفويين*.

٤- منطقة الخليج العربي: تبلور القوى القبلية العربية:-

١/ التنافس الاجنبي:

كانت الاوضاع في منطقة الخليج العربي عند مطلع القرن السادس عشر تترجح بين قوتين عربيتين مؤثرتين، أولاهما: بنو جبر، وثانيتهما: مملكة هرمز.

---

* عن تاريخ البصرة الافراسيابية، احيل القارئ الى اطروحة د. طارق الحمداني.
T.N. Hamid Al -Hamdani. The Political, Adminstrative and Economic History of Basra Province 1534-1638. (Unpublished Ph. D. Thesis) The Univ. of manchester, 1980.

اضافة الى دراسته الموسومة «العلاقات بين افراسياب والدولة العثمانية ابان حكم أفاراسياب باشا وعلي باشا ١٥٩٦ - ١٦٥٠»، والخليج العربي، المجلد (١٦)، العدد (١)، جامعة البصرة، ١٩٨٤

ان ابرز مصدرين تاريخيين قديمين هما: تافرنيه، العراق في القرن السابع عشر ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد، ١٩٢٤. ورحلات بيترو ديلا في شرق الهند والجزيرة العربية (المطبوعة بالانكليزية سنة ١٦٦٥ في لندن).

انظر ايضاً. د. بديع محمد جمعة، الشاه عباس الكبير ٩٩٦-١٠٣٨هـ/ ١٥٨٨-١٦٢٩م، بيروت، ١٩٨٠.

لقد بلغ نفوذ الجبور لقب «سلطان البحرين والقطيف والاحساء ورئيس أهل نجد»، وامتدت سيادته نحو السواحل العثمانية، وكان الصراع الاقليمي يتفاعل بين الجبور ومملكة هرمز وقد واكبه وصول البرتغاليين الى السواحل الخليجية، وساعدوا على تجذير الصراع الاقليمي والقبلي والمحلي لبناء مصالحهم في السيطرة الاجنبية.

اذا كان كل من الاحساء (بشقيه القطيف شمالاً والهفوف جنوباً)، فضلا عن الساحل الاخضر يطلان على الخليج العربي* فان اقليم عمان يطل بامتداده على خليج عمان (= عمان كورفزي). كان اقليم عمان مشتتاً تتوزع السيطرة عليه قوى محلية واقليمية، فسواحل عمان في قبضة ملوك هرمز. اما الدواخل العمانية، فقد كانت بايدي الملوك النبهانيين الذين كانوا في صراع مستمر مع الاباضيين المتحمسين لنصرة الامامة الاباضية.

كان الامام عمر بن محمد الحزوصي قد نجح في انتزاع الحكم من النباهنة خلال القرن الخامس عشر، واعلن بعث الامامة الاباضية، وقد استعان ببني جبر بعد اقالة النباهنة اياه، فنجح بنو جبر في اعادته اماماً على عمان في عام ١٤٨٧م. وقد تفوق نفوذ الجبور في عمان عند القرن السادس عشر**.

دخل البرتغاليون الخليج العربي لأول مرة عام ١٥٠٧م، عندما كانت عمان تحت سيادة ملك الجبور الذي دانت له اصقاع الجزيرة العربية بالولاء، وكان الجبور يشنون هجماتهم على مملكة هرمز التي تكفلت وذلك لموقعها الاستراتيجي في التصدي للبرتغاليين، والتي لم تتعاون مع الدولة الصفوية في فارس، ولم تكن دولة هرمز دولة عربية محددة الهوية، بل تنوع السكان فيها تنوعاً كبيراً.

وعلى الرغم من التهديدات البرتغالية ، فانه لم تظهر أية تكتلات عربية في الخليج العربي من اجل التصدي للتحديات البرتغالية، وقد حدث العكس، قد بدأت

---

*وهو خليج البصرة (= بصرة كورفزي) خلال الفترات العثمانية وعلى امتداد القرون المتأخرة.

** التفاصيل في د. عبد اللطيف الحميدان، «التاريخ السياسي لامارة الجبور» ، مجلة كلية الاداب – جامعة البصرة السنة ١٤، ص ٣١–١٠٩، السنة ١٥، ص ٢١١–٢٤٠.

القوى العربية تعاني من التفكك والضعف، مما سهل على البرتغاليين البدء بعملياتهم الطويلة المدى، وانهم وجدوا السبيل في تأليب مملكة هرمز على الجبور ونفوذهم العربي.

٢ / اقليم الاحساء: قوة الخوالد العربية:

كان للبصرة تاثير بالغ على ترتيب الاوضاع السياسية في منطقة الخليج العربي خلال القرن السابع عشر الذي توسع فيه النفوذ الهولندي، واعقبه البلجيكي. ولكن الانكليز استطاعوا من خلال عدائهم للهولنديين، وتحالفهم مع بعض السكان خلال النصف الثاني من القرن المذكور، ان يقهروا النفوذ البرتغالي نهائيا بعد ان كان نفوذ هؤلاء كبيراً عند مطلع القرن المذكور، حتى وصل تأثيرهم الديني الى البصرة التي اسسوا فيها كنيسة برتغالية بعد سنة ١٦٢٢م.

وقد بلغ التنافس التجاري بين الانكليز والبرتغاليين والهولنديين كبيرا خلال عقود القرن السابع عشر في منطقة الخليج العربي، فانعكس ذلك على ابرز الحواضر الخليجية، وبخاصة على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للبصرة، والتي كانت على مدى التاريخ الطويل مستقطبة الاستراتيجية البحرية كرأس للخليج العربي وتحكمها في اقتصاديات العالم حتى عام ١٨٦٩م عندما تحولت عنها المسالك التجارية/ الدولية مستخدمة قناة السويس منذ ذلك اليوم حتى الآن.

وكان اقليم الاحساء قد غدا سنجقاً عثمانياً تابعاً لامارة البصرة الافراسيابية التي فقدت شخصيتها السياسية بأفول رجالاتها الامراء من الحكام الاقليميين في خضم الاحداث التاريخية التي شهدتها المدينة في القرن السابع عشر، في حين بقيت أسواقها التجارية مزدهرة ومسيطرة على اقتصاديات البحار العربية. فكان ذلك بمثابة الاحتياطي المخفي لابقاء التوازن الاقليمي بين البر والبحر. يقول احد الرحالة البرتغاليين في وصف البصرة عام ١٦٦٣م بانها «اعظم سوق تجاريةفي هذه البحار»* . بمعنى: حصولها على مكانة كوسموبوليتانية – دولية في اقتصاديات العالم.

* Quoted from S.H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq, Oxford, 1925. P.114.

أما في الاحساء فقد تبلورت فيه قوة الخوالد العربية، والذين استأثروا بالسلطة الفعلية مع الاحتفاظ بعلاقات من التبعية الاسمية للسلطة العثمانية الاقليمية في بغداد طوال النصف الأول من القرن السابع عشر، أي : ان الخوالد بقوا في حكم الاحساء حتى سنة ١٧٩٣م، فقد دام حكمهم أكثر من قرن وربع القرن ، وهي نفس الفترة التاريخية التي تغطي العهد الأول للعثمانيين في حكم الاحساء، الذي امتلك المزيد من الروابط السياسية والاقتصادية والقبلية باقليم البصرة شمالاً واقليم عمان جنوباً *.

٥- عمان : اليعاربة وتأسيس النظام السياسي/ البحري:-

١/ الخصوصية والتقاليد الاستقلالية والتهادن مع العثمانيين:

تقع بلاد عمان في الجزء الجنوبي - الشرقي من الوطن العربي وشبه الجزيرة العربية، وتطل سواحلها على خليج عمان والبحر العربي، وتتصل مياهها الاقليمية بالمحيط الهندي، فهي تمتلك اذا موقعاً استراتيجياً ممتازاً ساعدها كثيرا في التأثير في اقتصاديات العالم القديم. وبلاد عمان تضم الجزء الاكبر من السلسلة الطويلة من الجبال التي يطلق عليها اسم «الحجر» والممتدة من الجبل الاخضر، وتتألف اراضي بلاد عمان من : مسقط ومطرح، والمنطقة الساحلية (البطانة) بين الحجر الغربي البحر. وهناك شبة الجزيرة الشمالي (= رؤوس الجبال) ومنطقة ظفار شرق حضرموت.

وبلاد عمان تمتلك تاريخاً قديماً وعريقاً، كما كان لها نظامها التاريخي العربي القديم، وتقاليدها الاستقلالية المنفصلة معروفة منذ العصور الوسطى، فقد صبغتها الايديولوجية الاباضية بصبغتها الخاصة تاريخياً. اما جغرافياً فقد احتلت عمان موقعاً استراتيجياً استطاع ان يقدم لها خدمات كبيرة سواء في التعامل مع شعوب متنوعة ومتعددة ومع مدن واسواق وسواحل واقاليم كما تحكمت في بوابة الخليج العربي واعماق البحار الشرقية **.

---

* راجع : د. عبد الفتاح ابو علية، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، الرياض، ١٩٨٦.

** راجع توصيفات لوريمر الواضحة في دليل الخليج (القسم الجغرافي)، ترجمة : مكتب حاكم قطر، الدوحة.

لقد حكم بلاد عمان الازديون للفترة ١٤٣٥ – ١٥٦١، واعقبهم اليعاربة للفترة ١٦٢٥– ١٧٤١م، ثم الالبو سعيد للفترة ١٧٤١ – حتى اليوم. احتلها البرتغاليون سنة ١٥٠٨م، وبقوا فيها حتى منتصف القرن السابع عشر، وقد واجههم العمانيون دون تخطيط أو تنسيق مع الدولة العثمانية. وقد استطاعوا ان يحرروا بلادهم بعد نضال قاس طويل. كما تعرضت بلادهم للغزو الفارسي... فاذا كان اليعاربة قد نجحوا في تحرير عمان من السيطرة البرتغالية، فان البو سعيديين استطاعوا ان يحرروا بلادهم من قوات نادرشاه الفارسية.

ويمكننا القول ان عمان لم تصطدم بالعثمانيين وذلك لبعدها الجغرافي عن ساحتهم، وهي علاقة تهادن واحترام بين السلطتين العثمانية والعمانية.

وسنوضح ادناه اوضاع عمان المرتبطة بالنظام التاريخي – العربي خلال عهد اليعاربة وعهد الالبو سعيديين:

٢ / الدولة والمرجعية العقائدية / الاباضية:

ظهرت دولة اليعاربة في عمان من خلال الصراع البحري الفعال بينهم وبين البرتغاليين، اذ بدأت القوى الاقليمية تحسب لليعاربة حساباً كبيراً في داخل البلاد وخارجها منذ العقود الأولى للقرن السابع عشر... في حين سيكون الاحتلال الفارسي لعمان من العوامل الفعالة في نشوء وتكوين اسرة حاكمة سلالية عربية أخرى هي أسرة البوسعيد التي خلفت اليعاربة في حكم عمان وزنجبار.

نجح اليعاربة منذ البداية في تأسيس اسطول عربي – تجاري وحربي الى جانب الاهتمام بالزراعة، وبناء الحصون الحربية والقلاع، فضلاً عن نجاحهم في توحيد البلاد، واعلان الحكم المركزي بعد المعاناة من الانقسام والتشرذم في ظل زعامات قبائلية متعددة.

لقد قام نظام حكم اليعاربة على اساس مرجعيته «الامامة الاباضية»، ويستند النظام على البيعة بالانتخاب دون الوراثة ، على الرغم من بقاء الامامة منحصرة في تلك الاسرة حتى سقوطها في عام ١٧٤١م. والاباضية : مذهب ديني اسسه عبدالله بن اباض الذي خرج ثائراً في عهد الدولة الاموية على عبد الملك بن مروان،

ولجأ الى عمان حيث اقام فيها نظاماً امامياً استمر واقعاً تاريخياً يخفت وينبعث بين قرن وآخر، وخلال عهد النباهنة الذي استمر قرابة خمسة قرون كانت الامامة الاباضية تبعث تارة وتخفت أخرى، الا انها كانت قد غدت بمثابة «سلطة» تمثل الرأي العام لشرائح المجتمع العماني كافة مقابل «سلطة» النبهانيين في الدولة العمانية... والى جانب كلتا السلطتين، كانت هناك «سلطة» أخرى تمارس النفوذ والحكم في بعض المقاطعات العمانية... وهي الجبور أو بني هلال المنقسمة الى كتلتين : أولاهما في الاحساء وثانيهما في عمان.

استغل الهلاليون الجبور النزاع الخفي والمعلن بين الاباضيين والنبهانيين لكي يمتدوا في الاراضي العمانية، بيد ان تبلور الصراعات الثنائية بين الاطراف الثلاثة تمخض عن زعامة جديدة في عمان خلال أزمة الفوضى الداخلية متمثلة ببروز ناصر بن مرشد بن مالك ابي العرب في الرستاق، ومبايعته بالامامة عام ١٦٢٤م، كي يبدأ عهد اليعاربة فيها كقاعدة استراتيجية، مستفيدين - ايضا - من الضعف التاريخي الذي حاق بالبرتغاليين في الخليج العربي، اثر تهاوي معاقلهم امام ضربات الفرس الصفويين ومدافع البحارة الانكليز.

حكم اليعاربة عمان ما يقرب من مائة وعشرين سنة، وتميز عهدهم بعامة باستتباب الامن الداخلي والرخاء الاقتصادي وازدهار التعليم، والتطور العسكري في القوة البحرية. وقد قمع اليعاربة معارضيهم من الهناوية (= عرب الجنوب)، والغافرية (= عرب الشمال)، والاسرة الالبو سعيدية التي خلفتهم في حكم عمان، فضلا عن الهلاليين الجبوريين الذين ناصروا الهناويين. ونجح ناصر بن مرشد بتوحيد بلاده واخضاع الجبور في عمان، وحاول اخضاع جبور الاحساء هادفاً الى عملية توحيد أكبر، ولكن الصراع تميز بالعنف والقسوة لا سيما وان جبور الاحساء كانوا قد كسبوا تحالفات قبائلية عديدة.

لقد وصف المؤرخ ابن رزيق ناصر بن مرشد بانه كان حاكماً نزيهاً مستقيما وعادلا *، ولكن المشكلات الداخلية تفاقمت في عمان في أواخر عهد الاسرة

---

* انظر حميد بن محمد بن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر و محمد مرسي عبدالله (وزارة الثقافة والتراث القومي)، سلطنة عمان، ١٩٧٧، ص ٢٩١.

اليعاربية بعد ان استطاعت ان تحقق بنجاح معالجة لمشكلاتها الخارجية ضد الفرس والبرتغاليين، اذ ان الاوضاع الداخلية قادت الى احتلال فارسي لعمان.

٣/ العمليات البحرية والحربية والامتداد نحو شرقي افريقيا:

قام الامام اليعاربي ناصر بن مرشد بعد مبايعته بالامامة الاباضية في عمان سنة ١٦٢٢م بجهود كبيرة في سبيل القضاء على البرتغاليين. وتمكن خلفاؤه من بعده ان يقضوا على النفوذ البرتغالي في الخليج العربي وشرقي افريقيا. وغدت دولة اليعاربة من اكبر الدول البحرية – الزراعية التي ظهرت في تاريخ العرب الحديث. وتزامنت ولادتها مع سقوط هرمز، وبقي اليعاربة ينأون بانفسهم عن النفوذ الفارسي والتبعية البرتغالية... واستمرت دولتهم قوية حتى سقوطها في عام ١٧٤١م، وقد خلفتها في الحكم اسرة البوسعيد التي لم تزل تحكم عمان حتى يومنا هذا.

خاض الامام ناصر بن مرشد مؤسس أسرة اليعاربة صراعاً مريراً ضد الفرس والبرتغاليين، وقد قضى على مملكة هرمز، واستطاع ان يضم رأس الخيمة، ووقف متحدياً الفرس الذين ارادوا ان يرثوا البرتغاليين ومملكة هرمز في سيطرتهم على المواقع العمانية... وحارب البرتغاليين في الخليج بحيث لم يتبق لهم عند وفاته عام ١٦٤٩م غير تحصينات وقلاع مشرفة على مدينتي مسقط ومطرح، وكان الصراع البرتغالي – العماني قد اتخذ له صبغة دينية متحمسة من جانب العمانيين الذين دافعوا عن أرضهم وممتلكاتهم وبحارهم باسم «الاسلام»، وقد بلغ الصراع المذكور اوج قوته في عام ١٦٤٠م.

لقد قاد الامام سلسلة من الهجمات الناجحة على البرتغاليين، وفي الوقت نفسه كان يستكمل عملية التوحيد الداخلي وبناء عمان، وقد اعقبه في الحكم ابن عمه سلطان بن سيف الذي بعث بحملة كبرى لحصار مسقط، وقد اضطر البرتغاليون قبول الهدنة بعد اشتداد الحصار وقسوته، وانتشار الطاعون، ففرض العمانيون شروطهم القاسية، ومنها: هدم القلاع، وابقاء «مطرح» ميناء حرا بين الجانبين، وتدمير العمانيين لكافة التحصينات، وحرية التجارة في البحر أي دون تفتيش للسفن، وعدم جباية الضرائب من العمانيين، وعقد صداقة بين ملك البرتغال وامام عمان، والا يعتدي العمانيون على البرتغاليين أو البرتغاليون على العمانيين.

لم تستقر الاوضاع برغم توقيع الهدنة بين الطرفين، ولكن يبدو ان جلاء الاساطيل والقوى البرتغالية عن السواحل العمانية على يد الامام سلطان بن سيف «كان يعد عملاً رائعاً ونقطة تحول في تاريخ المنطقة» على حد تعبير المؤرخ جمال زكريا *....

توفي سلطان بن سيف في عام ١٦٦٨م، وخلفه بلعرب، وعلى الرغم من جهوده في تطوير بلده فان الخلاف استحكم بينه وبين أخيه سيف بن سلطان ادى الى انقسامات خطيرة نتج عنها ويلات حتى اطلق الناس على بلعرب «بلاء العرب» بدلا من ابي العرب، ودارت الدائرة على بلعرب فحوصر في قلعته جبرين على يد قوات اخيه فمات هناك، وبويع سيف بالامامة، مثبتا انه حاكم قوي ومجرب، اشتهر ببحريته الضخمة وسفنه المتعددة.

واشتد الصراع ثانية بين العمانيين والبرتغاليين حتى دمّر معقل البرتغاليين على الساحل الشرقي من الخليج العربي وخليج عمان في عام ١٦٩٥م، وبذلك ضاعت هيبة البرتغال في البحار الشرقية باعتبارها «سيدة للملاحة والتجارة في البحار» منذ حركة الاستكشافات الجغرافية، واستمرت العمليات الهجومية للعمانيين حتى مطلع القرن الثامن عشر، لكي تشمل جميع المراكز البرتغالية في البحار، اذ تعقب العمانيون السفن البرتغالية لكي يضربوها وهي في مراكز بعيدة عن مياه الخليج العربي، وخاصة عند السواحل الهندية.

هكذا، بدأت إمامة عمان تتحول شيئاً فشيئاً الى قوة بحرية عربية كبيرة في بحار الشرق، حتى استطاعت طرد البقايا البرتغالية من القواعد البحرية في شرقي افريقيا حيث سقطت كل من كلوة وزنجبار وممباسا، وكادت تسقط موزنبيق في الايادي العربية.

وقدر لليعاربة ان يرسوا جذور حكم عماني– طويل في شرقي افريقيا، تلك هي الجذور التاريخية التي تعد اسساً ارتكز عليها حكم السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦– ١٨٥٦م). لكي تظهر للوجود أول دولة بحرية عربية/ اسيوية – افريقية في التاريخ الحديث.

---

* د. جمال زكريا قاسم، الخليج العربي ... ص ١٢٣.

٤/ الانقسام الاجتماعي / القبائلي والصراع ضد ايران نادرشاه:

توفي سيف بن سلطان في عام ١٧١١م، فخلفه ابنه سلطان بن سيف الذي استمر في حربه للبرتغاليين والفرس، واخرجهم من البحرين وقشم ولارك وتوفي في عام ١٧١٨م، وانتهت بوفاته الوحدة العمانية لكي تبدأ عمان صفحة تاريخية جديدة، ولكنها مصبوغة بالحروب الاهلية التي استمرت اكثر من ثماني عشرة سنة انقسم العمانيون على اثرها الى كتلتين كبيرتين ، هما : الهناوية والغافرية بين عرب الشمال وعرب الجنوب، اي كتلة القبائل العدنانية وكتلة القبائل اليمنية، وقد أضيف الى الانقسام عوامل اخرى فضلاً عن ان الانقسام على أساس سياسي يمثل تفسيرا آخر. فالحياة السياسية في عمان قد تمخضت عن تطور كبير في التشكيلات والاجهزة والولاءات والتحالفات القائمة على اسس سياسية، ومصالح اقتصادية بعد وفاة الامام سلطان بن سيف بعد ان ورث الائمة اليعاربة حكم عمان ردحاً طويلاً من الزمن.

لقد رأى العامة ان يخلف الابن سيف اباه سلطان، ولما كان لم يبلغ بعد السن القانونية، فقد خطط العلماء لمبايعة مهنا بن سلطان الذي وجدت فيه الشروط الكفيلة بالامامة والإشراف على ممتلكاتها، وهو ينتمي الى اسرة اليعاربة، وبويع بعد خدعة انطلت على الرأي العام، وادخل مهنا الرستاق ونودي به اماما في عام ١٧١٩م، وعلى الرغم من جهوده فانه واجه معارضة ضد حكمه، وانتهى حكمه امر مقتله عام ١٧٢٠م بعد ان تمكن منه احد المناوئين وهو يعرب بن بلعرب الذي كان مسيطراً على عمان وبصحبته الامام الصبي سيف بن سلطان اثر الانقلاب الذي قاده ضد مهنا، علما بأن يعربا لم يطلب الامامة لنفسه، كونها من حق سيف. وقد اكتفى بامر الوصاية عليه بحضور مجمع من الرؤساء.

تجاهل امر الصبي كونه استحوذ على السلطة كاملة، وكان ذلك دافعا لخلعه من قبل بلعرب بن ناصر الذي عقد الامامة لسيف للمرة الثانية في عام ١٧٢٣م، وغدا وصيا على العرش، وواجه تحالفاً قوياً بين محمد بن ناصر الغافري ويعرب بن بلعرب، وقد وجدوا ان بلعرب بن ناصر قد تحالف مع الكتلة الهناوية. واشتد النزاع بين الغفارية والهناوية، واحدثت اضطرابات واسعة في البلاد، وعقدت البيعة بالامامة لمحمد بن ناصر الغافري سنة ١٧٢٤م، حيث استمر فيها حتى عام

١٧٢٧م. فاعلن تنازله معبراً عن حسن نواياه للامام سيف بعد بلوغه السن القانونية، فنودي بسيف اماماً للمرة الثالثة بتأييد الغافريين له، ولكن الحروب الاهلية استمرت قائمة في عمان حتى عام ١٧٢٨م، وانفضّ الغافريون عن تأييد الامام سيف فاعلنوا بلعرب بن حميد اماماً، في حين كرم الهناويون الامام سيفا فبايعوه بالامامة... وهكذا، يبايع الامام سيف للمرة الرابعة... فغدت عمان تحت حكم امامين يحكمانها، ويتنازعان الحكم والسلطة فيها، وقد ضعف مركز الامام سيف وذلك لسوء تصرفاته وعدم قدرته على حكم البلاد، واستعان بالعناصر المرتزقة من البلوش، وخرج بعاداته الشخصية عن التقاليد الاباضية، وعندما فشل البلوش امام قوات بلعرب، تراجع سيف الى مسقط، وازاء تلك الهزيمة المريرة قرر سيف طلب النجاة من نادر قولي خان الافشاري احد خانات ايران *، اذ كان قد الحق الهزيمة بالجيش والاسطول العثمانيين في البصرة، واحتل البحرين وتوسع في طموحاته للسيطرة على أجزاء واسعة من الخليج العربي.

ارسل نادر قولي خان، حملة بحرية كبرى الى مسقط بقيادة لطيف خان في مارس ١٧٢٧م وتتألف من خمسة آلاف جندي والف وخمسمائة فارس، للسيطرة على عمان الى وجدت لنفسها مبررات في الاحتلال، ولا سيما بعد حقبة تاريخية مليئة بالنكبات والحروب الاهلية الطاحنة.

تعاونت القوات الفارسية مع قوات سيف في بداية الامر لكي تتخلص من مقاومة بلعرب بن حميد حتى أعلن القائد الفارسي لطيف خان نفسه حاكما عسكرياً مطلقاً في عمان، ولم يترك اية سلطة لسيف الذي كان منشغلاً بمقاتلة بقايا بلعرب بن حميد ... وكان العمانيون قد بدأوا يتجمعون حول الاخير كمعارضين، ورجال دين كانوا ينتقدون سيف بن سلطان، ويندون باعماله في جلب الفرس الى عمان. وخاف سيف فارسل بطلب قوات اضافية من نادر قولي خان، والتي تمكنت من دحر بلعرب بن حميد.

---

* هو نادر شاه ايران لاحقا الذي حكمها للفترة ١٧٣٦-١٧٤٧م. وكان يسمى فيما سبق بـ «طهماسب قولي خان» اي احد قواد الشاه طهماسب الثاني الذي حكم ايران للفترة ١٧٢٢-١٧٣٢م.

لقد اصطدم سيف وقوات نادر قولي فان، اذ توضح جليا ان السياسة التي اتبعها سيف لم تكن سياسة ناجحة، فقد انتشرت الحاميات الفارسية على الأرض العمانية، وبدأت الحرب العمانية ضدها، مما جعل سيف يندم على فعلته باستقدام الفرس وتوضح له مدى اطماعهم... وهنا كان لا بد من اتخاذ اجراء استراتيجي يحفل وحدة القوى العمانية لمواجهة الموقف مع الفرس، فقد اتحد الغافريون تحت زعامة سيف بن سلطان بعد تنازل بلعرب عن الامامة.

لقد بدأ سيف الحرب على الفرس في البر والبحر، بل واعلن عن نقل المعركة الى الاراضي الفارسية، ونتيجة لتأزم الامور انسحبت القوات الفارسية من عمان، وعاد سيف الى سيرته الأولى وحياته الخاصة، فغضب الاباضيون واعلنوا الثورة التي خلعته، وبويع سلطان بن مرشد الذي سيطر على مسقط وهاجم سيف، ففرّ الاخير الى رأس الخيمة حيث يقوم معسكر الفرس، وارسل الى نادرشاه يطلب اعادته الى حكم عمان تحت الحراب الفارسية، وبدأت حملة جديدة لغزو عمان ووصلت جلفار في عام ١٧٤٢م، ونجح الفرس في فرض الحصار القاسي على الامام الجديد سلطان بن مرشد، ودام قرابة سبعة أشهر كلف كلا من الطرفين الكثير من الأرواح والجهود... وأدى الامر الى ان يستعين سلطان بوالي ميناء صحار احمد بن سعيد لكي يبقى مستمرا في المقاومة*.

---

* راجع تفاصيل التاريخ العماني في

د. جمال زكريا قاسم. دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا، القاهرة، ١٩٦٧.

ومن الضروري قراءة ما كتبه عبدالله خلفان بن قيصر، سيرة الامام ناصر بن مرشد، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي، سلطنة عمان، ١٩٧٧.

ولا بد من الرجوع ايضا الى اطروحة د. عائشة السيار، دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا في الفترة من ١٦٢٤ - ١٧٤١، بيروت، ١٩٧٥ (يتضمن تحليلات رصينة ومقارنة للاحداث التاريخية)

ومن الملاحظ ان تاريخ عمان خلال تلك الحقبة قد حفل بكتابات عربية قديمة عن مصادر اجنبية حاليا باللغة الانكليزية. انظر

L. Lockhart, "The menace of muscat and its consequences in the late 17th and early 18 th Centuries"Asiatic Review, No. 42, 1946.

وراجع «العلاقات الدولية» في د. صالح العابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ - ١٨١٠، بغداد، ١٩٧٩ (في الاصل اطروحة دكتوراه - جامعة بغداد).

هكذا بدأت صفحة جديدة في تاريخ عمان الاقليمي خلال القرن الثامن عشر و على يد مؤسس لنظام سياسي وتاريخي جديد !

٦- لبنان : الامارة المعنية:-

بعد سيطرة السلطان سليم الأول على سوريا في عام ١٥١٦م أقرّ الامير فخر الدين المعني على ملكه في جبل لبنان، وأطلق عليه «سلطان البر»، وبذلك أوجد سليم الظروف الشرعية لنشوء الامارة المعنية التي توسّعت على حساب اقطاعات عديدة كان يمتلكها التنوخيون الذين أخطأوا التقدير فيمن سيكون المنتصر: الاتراك أم المماليك؟ ففقدوا فيما بعد مواقعهم السياسية لحساب المعنيين الذين نجحوا في اجراء توازن قوي بين الاقطاعيين القيسيين (= القبائل العربية القديمة شمالا)، والاقطاعيين اليمنيين (= القبائل العربية القديمة جنوباً).

كان فخر الدين المعني من «القيسية» وقد رجحت كفتها على «اليمنية» الذين تزعمهم عصر ذاك: آل علم الدين وآل ارسلان، ولم يقتصر الامر على هؤلاء، فقد استفاد بعض الامراء المحليين من انشغال فخر الدين لمواجهة نفوذ ولاة دمشق الاتراك و أعدائه التقليديين من آل سيفا، فكان هناك حكام مقاطعات فلسطين مثل أحمد بن رضوان حاكم غزه (المتوفي سنة ١٦٠٦م)، وطراباي حاكم اللجون المتوفي(سنة ١٦٠٢م)، وكانت حيفا تابعة له، والامير فروخ بن عبد الله حاكم نابلس والقدس.

حكم فخر الدين المنطقة الممتدة من طرابلس الشام شمالاً حتى مدينة يافا جنوبا. كما ونجح في مواجهة التحديات القبلية / الاسرية / والمحلية / الاقليمية الادارية العثمانية في جو صعب تسوده الاضطرابات أو التمردات الاقطاعية، والانتفاضات المستمرة حتى وفاته في عام ١٥٨٥م اغتيالاً، بعد ان عمل أعداؤه في القضاء على إمارته بتسهيل مهام القوات العثمانية في ذلك ... لقد عمّر طويلا، وحكم قرابة ٧٠ سنة، كما وأن اغتياله لم يغيّر شيئا من أوضاع جبل لبنان، اذ خلفه ابنه قرقماز وبدأت الامارة تتحول الى دويلة سنة ١٥٩٠م، سادها شيء من الاستقرار في الأحوال الداخلية، ومن المعتقد ان قرقماز قد امتد بنفوذه حتى نابلس

لقد تمتعت الامارة المعنية بما يشبه الاستقلال الذاتي عن السلطة العثمانية. أما عهد فخر الدين الثاني فينقسم الى مرحلتين اثنتين، فقد قضى فخر الدين خمس سنوات منها في المدن الايطالية بعد أن زاحمه السلطان العثماني أحمد الأول ١٦٠٣-١٦١٧ براً وبحراً. أما أخطر الاحداث الاقليمية والتمردات المحلية التي حاولت ضرب السلطنة وحكم لبنان الذاتي، فيتمثل بتمرد ابن جانبولاد في منطقة حلب في نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر *. وقد استغل فخر الدين حالة القضاء على آل فريخ في منطقة البقاع، فامتدت سلطته من البقاع حتى صفد، كما زاد نفوذه على جبل لبنان. اذ أخضع آل الحرفوش، وهم الامراء المحليون في منطقة بعلبك والشهابيون أمراء وادي التيم.

وقد اتفق كثير من المؤرخين الذين تناولوا تاريخ الامارة المعنية بأن حدودها قد امتدت الى جميع أنحاء فلسطين وشمول شرقي الأردن، ودخل في مجالها أيضا كل من حمص وحما وحلب، وامتلكت بنية اقتصادية قوية ذات سيطرة فعالة على المراكز المدنية دون وصولها الى أرياف السناجق، ولم تؤثر في الزعماء الاقطاعيين لتلك السناجق، كما كان لها علاقاتها التجارية مع المدن الايطالية، وبخاصة موانئ بيروت وصيدا وعكا التي كانت تستقبل التجار الأوروبين، في حين كان ابن طراباي الذي عرف كيانه الاقليمي في حيفا باسم «حكم الاسرة الحارثية» قد امتاز بسياسة أغلقت الابواب بوجه التجار الاجانب.

كان أحمد طراباي الحارثي أسوة بغيره من أسياد الاقطاعات المحلية يدينون بنوع من الولاء الاقليمي لفخر الدين المعني باعتباره «سلطان البر» و «سيد عربستان» (أي . سيد بلاد العرب)، وكان ولاء إقتصادياً، إذ كانوا يدفعون على نحو دووب من الالتزام عن السناجق التي يديرونها. ولا بد من توضيح ان الهياكل الادارية في بلاد الشام وعلاقاتها كانت تؤكدها التنظيمات الرسمية – العثمانية، ونقصد بالهياكل تلك: مراكز الولايات والسناجق التابعة لها، علماً بأن ثمة اختلافات تميز تلك الهياكل الادارية في الزمان والمكان.

---

* إن أبرز من عالج هذه التفصيلات هو المؤرخ الأب بولس قرألي في كتابه: فخر الدين المعني الثاني امير لبنان، إدارته وسياسته، حريصا/ لبنان، ١٩٣٧.

وهكذا، فبينما نرى سنجقاً يتدهور في أوضاعه الاقتصادية مثلاً نكتشف ان سنجقاً آخر يمرّ في حالة ازدهار، كما هو الحال بين سنجق حيفا لآل طراباي المتدهور، وبين سنجق غزة المزدهر بفعل موقع غزة الاستراتيجي بين مصر وبلاد الشام، وتأثرها بالاقتصاديات المملوكية. وقد تسلمت السلطة فيها أسرة رضوان حتى عام ١٦٦٢م. ويشير السائح التركي أوليا جلبي * الى ذلك الازدهار الاقتصادي الذي تمتّعت به مدينة غزة من ازدهار في أسواقها ومزارعها ومينائها ومصانعها... وعمران مساجدها وقصورها الجميلة وحماماتها العمومية، فهي من أكثر المدن المشهورة في تصدير الزيوت الى أسواق مصر.

ويعجب المؤرخ فيليب حتي كثيراً بالامارة المعنية التي يوضح أن شخصيتها اللبنانية قد تبلورت على يد فخر الدين الذي كانت له ثلاثة مطامح: إقامة لبنان واسع النطاق، ومحاولات قطع الصلات مع الباب العالي، ثم السير بلبنان في طريق الازدهار **. ويؤكد بعض آخر ان فخر الدين قد انحرف بدويلته أثر تحالفه مع الاوروبيين الطامعين في أراضي الدولة العثمانية. كما ان التجار الاوربيين قد رافقهم المبشرون المسيحيون اليسوعيون الذين يعدون طلائع الغزو الكولونيالي فيما بعد القرن السادس عشر، فكان ان تسامح معهم فخر الدين، كما هو الحال عند الحارثيين في حيفا الذين تسامحوا أيضاً مع الرهبان الكرميليين ونشاطهم فيها.

تقويم التجربة المعنية: مقارنات وتساؤلات:-

أما بخصوص تقويم الامارة المعنية، فان المؤرخ ف. ب. لوتسكى يميل الى الاعتقاد بأن الظاهرة المعنية هي شكل من أشكال الاعراب عن مقاومة العرب للسلطنة العثمانية على الرغم من كون قائد الامارة كان أميراً اقطاعيا*** ويمكننا تحديد بعض المواصفات التاريخية.

---

* هو محمد ظلى درويش أوليا جلبي الذي كتب كتاباً بارزاً بعد سياحاته المتعددة وقد دعاه «سياحتنامه»، بـ ٤ مجلدات، طبع في اسطنبول سنة ١٣٠٢هـ. وفيه معلومات قيمة جغرافية وتاريخية عن الولايات العربية.

** فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جـ ٢، ترجمة ؛ كمال اليازجي، بيروت، ١٩٥٩، ص ٣٢٧.

*** ف. ب. لوتسكي، تاريخ الاقطار العربية الحديثة. موسكو، ١٩٧١ ص ٢٠٢.

١- ان تلك الظاهرة التاريخية قد تجسّدت في جبل لبنان مركزاً لها بشكل سافر. وهي تعبير عن المكانة الاستراتيجية، الجغرافية لهذه المنطقة تجاه أوربا ، في حين كانت البصرة - مثلاً - تحت حكم آل افراسياب خلال القرن السابع عشر، تشكل ظاهرة تاريخية تعبر عن المكانة الاستراتيجية - الجغرافية للبصرة رأس الخليج العربي تجاه الشرق الآسيوي.

٢- امتاز فخر الدين المعني ببراعته السياسية، ودرزيته المقنعة بالاسلام، يوما وبالمسيحية يوماً آخر. أي استخدامه «الاسلام» غطاء له أمام العثمانيين تارة والمسيحية غطاء له أمام الاوروبيين تارة أخرى . وكان يعرف كل ما يدور في العاصمة، ويرسل الجزية الى الخزينة العثمانية لكي يرضي السلطان، ثم بدأ يقاسم الغنائم الحربية، ولم يكن بمثابة وال على جبل لبنان فحسب، بل امتد نفوذ دولته على المناطق الساحلية التابعة، وعلى مناطق شاسعة من سوريا وفلسطين، وربما كان يدّبر الخطط بالاتفاق مع أوروبا ضد السلطان العثماني. اذ انه حاول الاستقلال ببلاده عن السلطنة العثمانية ... ولكن؟

هل كان مندفعاً في ذلك كله، بناء على تبلور مشاعر قومية؟

علمنا اذا ان من الصعوبة قبول الرأي القائل بالمشاعر القومية لفخر الدين المعني الثاني الذي حكم منذ عام ١٥٩٠،، ثم عاد الى الحكم للمرة الثانية عام ١٦١٨م بعد عودته من ايطاليا. وقد تاثر بالتطورات الاقتصادية على مدى خمس سنوات في المدن التي زارها، وخلال نفيه للفترة ١٦١٣-١٦١٨م، وعاد بعد عفو السلطان العثماني عثمان الثاني عنه ١٦١٨-١٦٢٢م.

إستازت المرحلة الثانية من عهده ١٦١٨-١٦٣٥م بالنشاط العسكري الفعّال الذي تركّز على بناء القلاع والحصون وتوثيق علاقاته الاقتصادية والعسكرية مع الولايات الايطالية. وخاصة مع أمير توسكانيا .. مستفيداً من إستفحال خطر إيران الصفوية في الشرق على حساب الجبهة الشرقية: ارمينيا واذربيجان والعراق، فقد بدأ الشاه عباس الاول ١٥٨٧-١٦٢٩م، يستفحل خطره.. مما توّج باحتلال العراق في عام ١٦٢٣م، وقد تخلّص العراق منه بعد سنوات على يد السلطان مراد الرابع.

لقد عاشت ولايات «الهلال الخصيب» (العراق وبلاد الشام) حالة تدهور اداري وانكشاري متفاقم، إذ إزدادت تمّردات القادة الانكشاريين على السلطة العليا، فبدأت التمردات الاقطاعية من ناحية، ونهب السكان من ناحية اخرى.. مع إزدياد المشكلات والازمات الاقتصادية. وقد قاد الى ذلك كله: الضعف الذي حاقّ بالاجهزة الادارية والعسكرية في العاصمة العثمانية نفسها، إذ أن معظم التغييرات السياسية قد تجسّدت بعدم إنضباط مؤسسة الانكشارية وتدخلاتها في مهمة تسيير الحكم، وقد وصلت الازمة إلى أوجها بقتل السلطان عثمان الثاني عام ١٦٢٢م، إذ أعادوا مصطفى الاول مرة أخرى بعد مرور أكثر من أربع سنوات على عهده الاول ١٦١٧–١٦١٨م، ولكن عهده كان مضطرباً لم يستقر أكثر من سنة تولّى بعده الحكم السلطان مراد الرابع ١٦٢٣–١٦٤٠م.

ويبدو ان حالة جديدة قد ولدت بعد ضعف الدولة العثمانية على عهد مراد الرابع الذي أخذ على عاتقه مهام القضاء على التمّردات كافة، وما كان بإستطاعته القضاء على الصفويين وإخراج قواتهم من العراق دون القضاء على إمارة فخر الدين التي كان أمرها قد استفحل كثيراً، فبادرت السلطنة منذ عام ١٦٣٤ لقتال فخر الدين المعني من خلال أحد الوزراء المشهورين أحمد باشا الملقّب «كجك أحمد» والي الشام الذي نظّم قوات كبيرة بّرية من ولايتي الشام ومصر، كما شاركت أيضا بحرياً: حركات الاسطول العثماني وقد حقّق أحمد باشا أماني السلطان بالانتصار على المعنيين الذين إنهزموا في عام ١٦٣٤م، واجبر فخر الدين على الاستسلام بعد حصاره في قلعة جزين.. فنقل الى اسطنبول مع أولاده، وعلى الرغم من استقبال السلطان الودّي له، إلاّ انه قام بقتله بمعية أولاده في ١٣ نيسان ١٦٣٥م.

لقد ماتت آمال فخر الدين بالانتصار عندما حوصر في جزين، وخاصة عندما لم تنجده الولايات الايطالية.. إذ رأى الطليان بأن مصالحهم التجارية ونشاطاتهم مع السواحل العربية كانت ستتواصل في ظروف الامتيازات حتى بدون فخر الدين، وبقتله إنتهت الامارة المعنية، حتى بادر ابن أخيه الى إنقاذ الاقطاع في جبل لبنان على الرغم من قيام المنافسين القدماء من الزعماء الاقطاعيين وبمساندة العثمانيين كآل علم الدين وآل طراباي بالسيطرة على جبل لبنان ولفترة إختتمت عام ١٦٦٦م.

وعندما نجح الامير أحمد بن ملحم المعني في العودة الى إمارة الشوف الاقطاعية المعنية القديمة، مكتسباً رضا السلطنة بعد إعلان ولائه لها، وإنتظامه في تقديم الجزية والاموال، وقد إنتهت السلالة المعنية الحاكمة بوفاته عام ١٦٩٧م، لكي تعقبها السلالة الشهابية الحاكمة التي ينتسب مؤسسها الى المعنيين بصلة القرابة.

يقول عبد الكريم رافق : «وقد أدى القضاء على فخر الدين الى حدوث شبه فراغ سياسي في جبل لبنان وفلسطين؛ ولم يستطع أي أمير محلي أن يملأ هذا الفراغ إلى أن سيطر الشيخ ظاهر العمر في القرن الثامن عشر على فلسطين وطغى نفوذه على أمراء جبل لبنان والولاة العثمانيين» *. أي بمعنى : إنتقال القيادة اللامركزية لاقاليم بلاد الشام الى الساحة الفلسطينية مع كل ما حفل به القرن السابع عشر من ظروف إقتصادية صعبة، أرهقت الفلاحين في الريف والحرفيين في المدن. وخصوصاً فرض الضرائب .. مسبّبة إنتفاضات عديدة، لكن ثمّة تطوّراً في النتاج الفكري: اللغوي والفقهي والادبي لدى المفكرين الفلسطينيين**.

٠٧ الجيش وزعامات بلاد الشام:-

دمشق : الحامية العسكرية: القلاع والابراج وأصناف الجيش***

توزعت القطعات العسكرية - العثمانية المتنوعة في كثير من الحصون والقلاع والابراج السورية التي وجدها العثمانيون عند سيطرتهم على بلاد الشام، وهي قلاع قديمة منها ما يعود في بنائه الى العصور الوسطى سواء الرومانية ام العربية الاسلامية وتتتابع في سلسلتين رئيسيتين، هما :

١- سلسة قلاع الساحل : الاسكندرونة (شمالاً)- العريش (جنوباً).

---

* د. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦، دمشق ، ١٩٧٤، ص١٦٨.

** لقد اهتم كثير من المؤرخين العرب والاجانب بموضوع «المعنيين» في تاريخ لبنان وسوريا وفلسطين اذكر منهم : محمد كرد علي ود. اسد رستم وفؤاد افرام البستاني وفيليب حتي وعبد الكريم غرايبة وعبد الكريم رافق وعدنان البخيت وأميل توما وغيرهم. ولعل من ابرز المصادر التاريخية القديمة عن «المعنيين» ، هي تلك التي كتبها : الشيخ احمد الصفدي وطنوس الشدياق وميخائيل مشاقة.

*** من الاهمية البالغة مراجعة تحليلات المؤرخ عبد الكريم رافق لهذا الموضوع.

٢- سلسلة القلاع الداخلية : حلب- دمشق ، ثم تسير في اتجاهين: الاول ، عبر فلسطين نحو مصر ، والثاني : طريق الحج الشامي نحو الكرك ومعان، ولا بد ان نتوقف عند ابرز تلك القلاع والحصون والابراج :

١/ سلسلة قلاع وابراج الساحل :

قلعة الاسكندرونة - قلعة طرابلس - ابراج بيروت - برجا صيدا (=الجلبان والخياط) - برج عكا - ابراج حيفا - برج يافا - برج عسقلان - قلعة غزة - قلعة خان يونس - قلعة العريش .

٢/ سلسلة القلاع الداخلية:

قلعة حلب - قلعة حماة- قلعة حسيا - قلعة النبك - قلعة القسطل - قلعة دمشق - (يتفرع منها اتجاهان):

الخط التجاري عبر فلسطين : قلعة القنيطرة - قلعة جنين - قلعة نابلس - قلعة رأس العين - قلعة القدس - قلعة البرك (أو قلعة مراد)- قلعة الخليل - قلعة جبرين.

الخط الثاني (=طريق الحج الشامي) : قلعة المزيريب - قلعة بصرى قلعة الزرقاء - قلعة خان الزبيب - قلعة القطرانة - قلعة معان - قلعة العقبة - قلعة ذات حج- قلعة تبوك - قلعة الاخيضر - قلعة المعظم - قلعة العلي.

اما القلاع الجبلية الداخلية ، فهي : قلعة عجلون - قلعة السلط - قلعة الكرك قلعة الشوبك - قلعة صفد - قلعة سلمية.

الحامية العسكرية:

وعلينا ان نتوقف قليلاً عند حامية دمشق باعتبارها حامية المركز الاساسي لبلاد الشام. وحامية ابرز ولاية عثمانية في سوريا، وهي التي تتكون - كما تبدو عليه عام ٩٦١هـ/١٥٥٣م - مما يأتي :

١. اربعة عشر قطاعاً (بلوكاً) من طائفة المستحفظان (= الانكشارية)

٢. قطاعان (=بلوكان) من الطوبجية .

٣٠ اثنا عشر فرداً من العربجية.

٤٠ احد عشر فردا من الجبة جية.

٥٠ عشرة افراد من المتفرقة .

وكانت الدولة العثمانية مهتمة جداً بدمشق، وذلك لما تمثله من اهمية بوصفها مركزاً اقليمياً ، فحاولت الدولة جاهدة ان تحافظ على نقاء هذه القوات بعدم تسرّب العناصر المحلية والغريبة كالطاط* – مثلاً – الى صفوفها من اجل ان تبقى محافظة على الروح العسكرية.

ولقد جددت حامية دمشق نفسها بين حين آخر، كالذي حدث سنة ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م، عندما ارسل الصدر الاعظم محمد باشا الكوبرلي ، قوة من «القابوقوليا» تقدر بـ ثلاثمائة مقاتل كي تحل محل الحامية، فاصبح هناك في دمشق نوعان من الانكشارية هما :

١- الانكشارية القابوقولية التي كان ولاؤها للدولة العثمانية.

٢- الانكشارية اليرلية (= المحلية) التي ترسخ ارتباطها بالمجتمع الدمشقيي. وارتبطت مصالحها بالسكان العرب، بل وازداد ذلك بفعل المصاهرة.

و تعد اليرلية ذات اهمية بالغة، اذ كانت متنفذة، ولها مجالها الاقتصادي وثراؤها ، واوكل الى بعض زعمائها : امارة الحج الشامي مرات عدة، وعدوا اهم المدافعين عن جميع المصالح، فساندهم السكان ضد القابوقول**.

لقد اعتمدت الدولة العثمانية في القرن السادس عشر على«السباهية» الذين حصلوا على تيمارات متعددة، وقد بدأوا بالتناقص مع مرور الزمن، اذ بدأت الدولة تستغني عنهم تدريجياً وذلك لاستخدامها التقنية العسكرية والمدافع المتطورة،

---

* الطاط هم العناصر غير التركية كالاكراد والفرس.

** راجع ما كتبه : نوفان رجا الحمود، العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، ط١، بيروت ١٩٨١.

والاسلحة النارية بديلاً عن الفرسان السباهية، ومما دفع الى فساد هياكل النظام السباهي واضمحلاله، تأثير الأزمة الاقتصادية التي مّرت بالدولة العثمانية خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر، تلك الازمة التي خلفها اكتشاف رأس الرجاء الصالح، فقلت الموارد من الخزينة، وضعفت انتاجية «التيمارات» الزراعية، فكان على الدولة ان تستبدل بذلك النظام نظاماً اخر عرف بـ «الالتزام» حيث انيطت مهمة جمع الضرائب والجبايات من جميع المناطق والمقاطعات الى موظفين غير حكوميين عرفوا بـ «المقاطعجية»، واغلبيتهم كانوا من الزعماء المحليين.

وكان الى جانب كل من الانكشارية والسباهية في بلاد الشام عناصر مأجورة استخدمها الولاة والزعماء المحليون، وابرزها :

١- **السكبان الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن السادس عشر، ثم شاع استخدامهم في بلاد الشام في عهد الامراء :** فخر الدين المعني الثاني وعلي باشا بن جانبولاد ويوسف باشا سيفا وغيرهم . واصلهم من فلاحي وبدو الاناضول .. وكانوا من العناصر المحلية الشابة ممن كانت لهم القدرة على استخدام الاسلحة النارية. وقد نظموا في تشكيلات عرفت بيـ «البلوكات». وكانت القيادة العسكرية للسكبان تناط بقوات القابوقولية حيث كان كل بلوك من السكبانية يلحق بلواء من الانكشارية.

٢- **الدالاتية:** ومعناها اللفظي الشجعان / المندفعون/ المتهورون .. وهم خليط من الاتراك والكروات والبوسنويين والصربيين. واستأجروا بالمال كتجمعات ويعرف قائدهم بـ دلي باشا، وتركزوا في دمشق التي كان لهم فيها خان خاص بهم يعرف باسمهم، وقد استخدمهم معظم الولاة في دمشق.

٣- **التفنكجية:** وهم الجنود المسلحون بالتفنك (= البنادق) ..مشاة عسكريون يقودهم تفنكجي باشي، «ولم يعرف اصلهم والمنطقة التي جاءوا منها، ففي حلب

كان يقال عنهم، انهم من اصل مغربي. وفي دمشق كانوا يعرفون بالموصليين او البغداديين*»». وكلفوا لغرض الأمن والاستقرار في دمشق، وكلفوا بمهام عسكرية خارج دمشق.

٤- **المغاربة:** عناصر جاءت من بلاد المغرب العربي، وشاع استخدامهم في زمن المماليك، وعملوا بحارة في الاسطول التركي.، وتركزوا في دمشق والقدس وطرابلس الشام. وعرفت تجمعاتهم باسم «المجاورين» الذين انتشروا في فلسطين التي كانوا يتكتلون فيها في سبع طوائف على رأس كل طائفة زعيم يعرف ب «الشيخ» . وتجتمع الشيوخ في مجلس اعلى يرأسه «شيخ المشايخ». ان اسباب قدومهم متنوعة، منها : دينية لاغراض الحج، ومنها اقتصادية لاغراض التجارة، و منها علمية لاغراض التعلم.. وقد استخدمهم الولاة كمشاة في جيوشهم وقواهم العسكرية.

٥- **اللاوند:** يعتقد المؤرخ عبد الكريم رافق أن هذا المصطلح هو تحريف لكلمة Levento، التي اطلقها البنادقة على البحارة الشرقيين المستخدمين في اسطولهم . وقد اخذ العثمانيون هذا المصطلح واطلقوه على بحارتهم الاوائل مع شيء من التحريف. وعندما سرحوا استبدل بهم اخرون، فلجأوا إلى مناطق منعزلة، فبدأوا يستخدمون كمجموعات وعناصر من قبل الولاة والصناجق** وانني اخالف رأي الاستاذ رافق اذ اعتقد ان هذه القوات برية وليست بحرية، فأصل «اللاوند» في الموصل من الاكراد وقد انتشروا في العراق ومن ثم في بلاد الشام كما يتوضح لنا من خلال ادبيات الموصل***.

---

* اعتقد ان اصل هؤلاء من الموصل وذلك لكثرتهم في مجتمع الموصل خلال القرن الثامن عشر اضافة الى تردد اسمهم كثيراً في ادبيات الموصل العثمانية.

** د. عبد الكريم رافق «مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر»، دراسات تاريخية ، العدد (١) جامعة دمشق، ١٩٨٠، ص٧٨.

*** د. سيار الجميل ، حصار الموصل: الصراع الاقليمي واندحار نادرشاه، الموصل ١٩٩٠، ص ١٥٢.

الزعامات العسكرية والصراعات المحلية :

عاشت بلاد الشام حالات متنوعة، اذ تكرست فيها خلال القرن السابع عشر، الانقسامات الاثنية والمحلية بفعل الصبغات العسكرية المتعددة التي صبغت الساحة السورية، والتي ازدحمت بالصراعات والزعامات والمقاطعات والتجمعات والمرتزقة ومختلف العناصر التي جاءت من الاناضول والعراق ومصر والمغرب العربي.. والتي وظفتها تلك الزعامات لتأدية الخدمات الحربية او الجبايات الضرائبية. وكان قد نتج الى جانب تلك «الانقسامات»، استشراء مراكز القوى المحلية في القلاع والمدن، او المقاطعية في المناطق السهلية- الزراعية. او القوى الاثنية في المناطق الجبلية الصعبة او السواحل الممتدة على البحر المتوسط..

ان الحالات التي عاشتها بلاد الشام، هي استثناءات تاريخية ترسبت عنها مشاكل متعددة، وخلفت وراءها ارثاً تاريخياً من الزعامات الاقليمية العسكرية كتلك التي ظهرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.. ويمكننا ان نوضح بعض الزعامات المحلية - العسكرية في بلاد الشام خلال القرن السابع عشر، وكان ابرزها :

١/ زعامة علي باشا جانبولاد :

هي زعامة عسكرية - اثنية بسط صاحبها نفوذه على مساحة واسعة من الاراضي السورية الممتدة من حماه جنوبا حتى اضنة شمالاً . وكان يقيم في المدينة الاخيرة حاكم معين من قبل ابن جانبولاد، والذي توثقت علاقته بالحركة الجلالية نتيجة امتداد نفوذه في الاناضول مستغلاً ضعف الدولة العثمانية في حسم قضاياها الداخلية، وكثرة حركات العصيان فيها، وخلو ولاياتها من الجيش النظامي، ولكن الصدر الاعظم مراد باشا اخذ على عاتقه تطهير الاناضول من الحركة الجلالية التي تأثرت بها بلاد الشام تأثراً كبيراً، كما واستطاع ان يخلص حلب وما يجاورها من تسلط ابن جانبولاد وزعامته، فخرج بحملة قوامها ثلاثمائة الف مقاتل، وطهّر اضنة. واراد تخليص حلب، فسار اليها في ٢٩ جمادي الثانية ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م فالتقى الجيشان، واستخدم كل من الخصمين المراوغة والحيلة

والمناورة.. وقد اندفع مراد باشا بجيشه ومدافعه فسحق جيش ابن جانبولاد، ففر الاخير برفقة عشرين الفاً بعد هزيمته الى حلب التي استقبل فيها بالعويل والبكاء والاحزان. لكنه غادرها نحو ملطية. فدخل الوزير مراد باشا حلب وضياعها، فرجعت ولاية حلب الى سيطرة الدولة واحكامها عبد انقطاع سنتين كاملتين، وبعد القضاء على سكبان ابن جانبولاد.

وذهب ابن جانبولاد الى السلطان العثماني احمد الاول ١٦٠٣ – ١٦١٧م لاجئاً معتذراً ومبرراً افعاله لمصالح الدولة العثمانية. يقال: فاعجب السلطان بحوابه وعفا عنه، ومنحه حكومه طمشوار (Temesvar=) في روميليا، اي في الجزء الاوروبي من الدولة العثمانية.

٢ / زعامة يوسف باشا بن سيفا:

تبلورت هذه الزعامة مع مطلع القرن السابع عشر من خلال مساهماتها العسكرية سنة ١٦٠٢م مع عسكر دمشق ضد عسكر حلب.لقد مثّلت هذه الزعامة سلطة الدولة في منطقة نفوذ مهمة كانت تقع بين زعامتين قويتين ، هما: الاسرة المعنية في الجنوب والاسرة الجانبولاطية في الشمال، ولا يخفى ان كلا منهما كان طامعاً في منطقة ابن سيفا الذي استطاع ان يبني له جيشاً قدر سنة ١٦٢٣م بثلاثة آلاف مقاتل جميعهم من السكبان، وهو جيش صغير مقارنة ببقية جيوش الزعامات الاخرى.

لقد دار صراع عنيف بين ابن سيفا وابن جانبولاد والامير فخر الدين المعني وابن الحرفوش، لكي يؤدي الى تناقص جيشه ونضوب خزينته، فلم يكن على السكبان من حرج للانضمام الى اعدائه في حالة عدم دفعه رواتبهم. وكان ابن سيفا قليل الإنفاق على جيشه، ولكنه كثير الانفاق على العلماء والشعراء، وقام هذا الزعيم بتحصين منطقة نفوذه بالابراج وخصوصاً في صافيتا ونجعون والقيروانية والبحصاص وحصن عكار والحصن. ورمم قلعتي جبيل وسمر جبيل اضافة الى قلعة طرابلس وكثيراً ما كان ابن سيفا درعاً – وقائياً لولاية دمشق العثمانية ضد الامراء الخارجين عن طاعة الدولة في بلاد الشام، اذ اشتركت قواته في اغلب المعارك المهمة في العقد الاول من القرن السابع عشر.

ودخل ابن سيفا في صراع مستمر مع المعنيين خلال العقد الثاني منه، وفقد قلاعه واستبسل حصن الاكراد الذي كان من ابرز قلاعه، وشارك في حصارها ايضاً والي طرابلس عمر باشا المتحالف مع الامير فخر الدين .. وتلقى ابن سيفا امراً من الدولة سنة ١٦١٨م يقضي بهدم جميع حصونه، فرفض وضع الاموال لخزينة الدولة، فوجهت اليه الامير فخر الدين المعني لتحصيلها عنوة، فقام بتحصين طرابلس، واحتمى في منطقة جبلة، وبقي صامداً برفقة دفاع سكبانيته داخل طرابلس، وقد حوصر من البر والبحر، ثم دارت رحى معركة عنيفة عند طرابلس القديمة قرب البحر، فتكبدت قوات ابن معن بعض الخسائر، ولكن انتهت بهجوم ادى الى فرار سكبانية ابن سيفا الذين استمروا في الدفاع عن القلعة التي دمرها جيش الامير فخر الدين، فكتب ابن سيفا الى الباب العالي يبلغه باطماع المعنيين في ضم طرابلس التي مشى اليها ابن سيفا، فاصطدمت قواته بقوات فخر الدين، فهزمهم ابن سيفا ولكن سكبانيته تراجعوا..ولم يرجع فخر الدين المعني من طرابلس الاّ بتدخل من والي دمشق، ونتيجة لتلكؤ ابن سيفا بعدم تسديده للأموال السلطانية، قسمت منطقة زعامته عام ١٦٢٢م، اوعزت الدولة العثمانية الى الاطراف المحلية بضبط املاكه وتوابعه لايفاء ديونه، فضعف مركزه، وانقسمت قواته، وقد توفي الامير يوسف بن سيفا سنة ١٦٢٤م، وبوفاته انهارت سكبانيته، وسلمت برج صافيتا اخر برج رابطت فيه سنة ١٦٢٥م، وانضمت الى سكبانية الامير فخر الدين بعد ان ضعفت الاسرة السيفية، واختفى افرادها، بسبب التشتت المحلي الذي فرضته سطوة المعنيين*.

٣/ زعامة ابن الحرفوش:

تعود هذه الزعامة لاسرة الحرفوشية منذ مطلع النصف الثاني من القرن السادس عشر. للامير موسى بن الحرفوش. وكان بينه وبين ابن سيفا علاقة صراع بسبب عداء اسري قديم، في حين كان صديقاً للامير فخر الدين المعني،

* من أبرز المصادر التاريخية المعتمدة كتب: البوريني والخالدي والصفدي والعطيفي... ولعل اهم من تفرد في تحليلات الموضوع هو المؤرخ عبد الكريم رافق في دراساته المحدثة عن البنى العسكرية المحلية المختلفة في بلاد الشام (بالعربية والانكليزية).

وكان يخشى قوات صديقه هذا الذي كان متحالفاً مع ابن جونبولاد ضد دمشق. ففي سنة ١٦٠٧م حاول ابن الحرفوش التوفيق في النزاع ففشل، فآثر التحالف مع دمشق ضد القوتين المحلّيتين: ابن جانبولاد وابن معن .. وقد حدث انقسام في اسرة الحرفوش نتيجة للتحالفات المحلية واهمية المنطقة التي يسيطرون عليها ومركزهم في قلعة بعلبك التي كانت ذات استراتيجية مهمة باشرافها على سهل البقاع من جهة الجنوب ، فتكون بمثابة حماية له، وكذلك حصن اللبوة في الشمال وبرج القيرانية .

طلب والي دمشق احمد باشا الحافظ سنة ١٦١٣م من الامير يونس بن الحرفوش تسليمه قلعة بعلبك وحصن اللبوة، الا ان الحرفوش ارضى الوالي بخمسين الف قرش.

وقد بدأت العلاقات بين آل الحرفوش وآل معن بالفتور في اواخر سنة ١٦٢٢م بسبب التقارب بين الحرافشة ووالي دمشق والصداقة السياسية ضد الاطراف الاخرى، فكان ذلك بمثابة اشعال لنزاع مسلح بين الاميرين: ابن الحرفوش وابن معن.. واشتعلت الحرب بين الطرفين، فكانت الغلبة للمعنيين الذين احرقوا قوى الحرافشة، وهرب الامير ابن الحرفوش، وقتل ثلاثمائة من السكبان، وبقي ابن الحرفوش ينتهز الفرص للانتقام من الامير ابن معن، فاقنع الوالي مصطفى باشا بغزو الامير فخر الدين المعني سنة ١٦٢٣م.. واحرز الاخير انتصاره في معركة عنجر، فأسر الوالي وهرب ابن الحرفوش، وتحصن السكبان في قلعة بعلبك وحصن اللبوة وبرج القيرانية .. ثم حاصر فخر الدين بعلبك، وفيها مائتي سكباني وبعض البلوكباشية، فدافع المحاصرون ببسالة، وقتلوا عدداً من سكبانية ابن معن الذي اجبر جيشه على عمل المتاريس وتقدموا بحمايتها جنوب القلعة، ولم يستسلم سكبانية القلعة الا بعد حسر زعيمهم ابن الحرفوش من قبل والي حلب مراد باشا فتمت السيطرة للامير فخر الدين المعني على مناطق الاسرة الحرفوشية التي انهى زعامتها القوية، وسيطر على استراتيجيتها العسكرية في بلاد الشام*.

---

*Abdul - Karim Rafeq, 'The Local forces in Syria the seventeenth and eighteenth centuries' in war. Technology and Society in the middle East, ed . by V.j parry and M.E Yapp London, 1975,pp. 299-4.

٨- مصر : المماليك والاوجاقات ونظام الالتزام *:-

يعدّ تاريخ مصر خلال القرن السابع عشر تاريخاً راكداً، اذ بدأت مصر تعاني منذ نهايات القرن السادس عشر من انخفاض العملات المحلية، كما وانخفضت القوة الشرائية للقوى الادارية العسكرية نتيجة ضعف مرتباتهم، كما وعانى الجهاز الاداري من التخبط والانحدار. وقد فسدت اجهزة الولاية: العسكرية والادارية. اذ بدأ الموظفون الاداريون يعوضون سوء احوالهم المعاشية بممارسة الرشوة، وبدأ العسكريون يستخدمون القوة والسلاح في فرض الضرائب والقمع لاحداث التوازن المطلوب.

كان الفرسان (= السباهية) من ابرز القوى العسكرية في مصر، وتتألف قواهم التشكيلية من اوجاقات الجوكليان والتفنكجيان والجراكسة، بدأ هؤلاء يفرضون انواعاً من الضرائب على سكان الريف المصري، وهي غير الضرائب الأصلية التي تسمى بـ «المال الميري» و«المضاف»، فظهرت في نهايات القرن السادس عشر، ضرائب «الطلبة» ومعناها: تلك المبالغ المالية التي كان الجنود السباهية يطلبون من «الكشاف» (= حكام الاقاليم) اقرارها على السكان المصريين سواء فرضها على مجموعات معينة من الناس، ام على شخص واحد، ثم تجمع وتسلم الى اولئك الجنود.. وقد قصدوا من اجراء هذه العملية، اضفاء صفة «رسمية» و«شرعية» على «الطلبة» التي ليس لها قاعدة قانونية أو شرعية..

لقد تزايدت انواع الضرائب غير الشرعية التي يحصلها العسكريون والتي يقابلها الاداريون بالرشوة، تلك الضرائب التي اسماها المصريون ب «البراني» تمييزاً لها عن الضرائب الشرعية التي كانت تسمى بـ « الميري». وقد فاقت قيمة «البراني» على مال «الميري» معنى ذلك: ان نهباً علانياً قد مورس في المجتمع

---

* لا بد ان نذكر في هذا المجال ومن خلال دراستنا التاريخية المقارنة لمصادر تاريخ الوطن العربي الحديث بأن المصادر التاريخية عن مصر خلال القرن السابع عشر تعد قليلة جداً مقارنة لما حظيت به اقاليم عربية اخرى كانت مقوماتها التاريخية اغزر مادة واوفى تغطية كما هو الحال في تاريخ المغرب الاقصى واليمن وسوريا ولبنان والعراق والجزائر وعمان!!

المصري دون ان يوقف استفحاله الولاة العثمانيون الذين ضاعت هيبتهم، بل اخذ العسكريون يعيثون في المجتمع فساداً سواء في المدن الكبيرة ام الريف المصري. وقد حاول الوالي اويس باشا (١٥٨٥–١٥٩٠) ان يقضي على تلك الاحوال الفوضوية، وان يلغي «الطلبة» والنهب العلني، فهاجمه العسكر مادياً ونفسياً فرضخ لاوامرهم .. ولم تفلح محاولات احمد حافظ باشا الخادم والي مصر ١٥٩١–١٥٩٥م، وقورد باشا ١٥٩٥–١٥٩٦م اضافة إلى نصائح قاضي القضاة ودفتردار الولاية .. وقد تصدى الوالي ابراهيم باشا ١٦٠٣–١٦٠٤م لممارسات الجيش فقابلوه بالعنف وقتلوه فاشتهر بـ«المقتول».

كانت تلك جميعها : تمهيدات لعهد محمد باشا قول قِران* ١٦٠٧–١٦١١م الذي جهّز حملة عسكرية في شباط / فبراير ١٦٠٩م، لكي تتصادم عند منطقة «الخانكة» مع الحامية، فدارت رحى معركة عنيفة، انتهت بقتل زعماء الحامية وتسليم عناصرها .. وانهى التمرد، وألغى نظام «الطلبة».

حالما انتهت معركة «الخانكة» في شباط / فبراير ١٦٠٩، فقد ولد فراغ سياسي إثر إنسحاب السباهية، ولكن ما هي الاّ أيام قلائل حتى إمتلأت مصر بـ«الصناجق» التي بدأت تتبلور بوصفها قوة سياسية فعّالة وكبيرة، لا سيما وانهم بدأوا بمساعدة الولاة في التخلص من ثورات العسكر، وهناك من إنهزم وتحالف مع ثورة العسكر! ويبدو لنا أن الصناجق قد أتخذت لها أهمية بارزة في مصر، بإعتبارهم شغلوا وظائف ومناصب خطيرة كالقائمقام والدفتردار وأمير الحج، وأمير الخزنة وحاكم الصعيد والسردار وقواد الحملات .. ومع توالي الايام، بدأت الصناجق تتحوّل الى أبرز المنافسين للولاة وعاشوا على التناقضات الداخلية التي أفرزتها حالة الصراع بين الولاة ورجالات الحامية من السباهية المشردّين!

إن ابرز من دعم البنية الصنجقية – المصرية دخول المماليك الاقوياء فيها مستغلين الظروف الصعبة، وحالة النزاع المسلّح بين الولاة والجند، وبقيت حالة

---

* أطلق عليه هذا اللقب بعد انتصاره على الحامية العسكرية، ومعنى «قول قران» قاهر المماليك!

الفوضى السياسية، وعدم الاستقرار الداخلي سبباً أساسياً في ضعف السلطة المركزية / الادارية العثمانية اثر تعدّد مراكز القوى بعد أن بدأ الولاة يعتمدون على «الصناجق» في التوسّط بينهم وبين العساكر الثائرة.

وخلال النصف الاول من القرن السابع عشر، تحالف العسكريون مع الصناجق، وإتحّدوا لاملاء ارادتهم على إسطنبول، فرفضوا بعض الولاة، وكانت الدولة العثمانية قد غدت ضعيفة في موافقة سلاطينها عصر ذاك على ما يريده منها اتباعها. ولقد شغل كبار المماليك في العصر العثماني وظائف الصنجقية، وشاركهم فيه أتراك وأبناء أتراك. أما منصب «الصنجقية» بالذات، فقد غدا حكراً على زعماء المماليك الذين ازداد نفوذهم الداخلي خلال القرن السابع عشر. لقد تطورت «الصنجقية» على يد المماليك، ولم يعد الصنجق المملوك يكتفي براتبه، بل كان يسيطر على إيرادات الالتزامات العقارية، وايراد «الكشوفيات» التي كان يتولى عليها. ونتيجة لازدياد نفوذ الصناجق، إلتفتت حولهم طوائف وجماعات مملوكية، وقد إستخدمت الدولة العثمانية بعض الصناجق ولاةً لها في اليمن والحبش، فضلاً عن قيادتهم للحملات.

وفي ثلاثينات القرن السابع عشر، تركز النفوذ المحلّي بيد زعماء من المماليك كان منهم قاسم بك ورضوان بك الفقاري وغيرهم. وهكذا، بدأت البنية المملوكية – المصرية تجتمع على شكل طائفتين تنسب الاولى للفقاري وتنسب الثانية لقاسم بيك، وكان الولاء مطلقاً. أما رضوان بيك فقد إعترفت الدولة بنفوذه في عام ١٦٤٨م، ثم نصّبته قائداً للحملة العثمانية ضد الفرس الصفويين.

وفي أربعينات القرن السابع عشر، بدأت بوادر النزاع. إذ كان الانقسام بين القوى المملوكية قد إتخّذ له ائتلافين يسميان بـ«الفقارية» و«القاسمية» كفريقين تنازعا على السلطة والمناصب المهمّة كإمارة الحاج والقائمقامية، وحكم ولاية جرجا (-الصعيد)، فوصل الحكم العثماني في مصر درجة ضعيفة شديدة الضعف.

وفي غمرة الصراع الداخلي لمراكز القوى المتنفذة في مصر كانت طائفة المماليك الفقارية متفوّقة على طائفة المماليك القاسمية. وعبثاً حاول الولاة الاتراك من العثمانيين كبح جماح الصراع الداخلي لصالحهم من خلال الدّس على زعماء

المماليك البكوات لدى السلطان العثماني.. فضلاً عن محاولات الوقيعة بين الطائفتين الفقارية والقاسمية لابقاء جذوة الصراع الداخلي متوقدة. أمّا دور الحامية العسكرية العثمانية، فلم تكن لها القدرة على فرض ارادتها على مجمل الصراعات: كونها لا تدين أوجاقها أو الاوجاق المصرية في شيء للولاة العثمانيين.. إضافة إلى آنهم بدأوا يمارسون أعمال الزراعة والصناعة والتجارة لتنمية مواردهم فما كان على الولاة إلا الاعتماد – مرة اخرى – على البكوات المماليك من الصناجق وقواتهم.

لقد حاولت الاوجاقات الوقوف الى جانب الوالي خلال النصف الثاني من القرن المذكور، وبخاصة بعد الضعف الذي حاق بالمماليك الفقارية والمماليك القاسمية. وقد استطاعت الحامية العسكرية – العثمانية بعد محاولات عدة من القضاء على الفقارية لتنفرد القاسمية بالنفوذ بعض الوقت.

ولكن ؟ كيف حدث ذلك؟

في سنة ١٦٦١م، حصلت وقعة الصناجق، وهي وقعة هائلة انقسمت فيها الامراء احزاباً، واشتعلت نيران الحرب في شوارع القاهرة وضواحيها، وامتد ذلك الى الاقاليم القبلية، وجهز فيها عدة تجاريد حتى انتهت بقتل أغلب الامراء الفقارية.

كان كل ذلك كافياً لتشجيع الوالي العثماني أن يضرب الطائفة المملوكية القاسمية في ستينيات القرن السابع عشر، فدبّر مقتل زعيمهم أحمد بيك بشناق في شهر تموز/ يوليو ١٦٦٢ ونفي اتباعه. ويبدو لنا من خلال المقارنة. بأن هذه الاحداث الاقليمية قد ترافقت مع مجيء الصدر الاعظم أحمد فاضل باشا الكوبرلي (الذي تولى الصدارة العظمى بعد وفاة أبيه في ٣١ تشرين الأول / اكتوبر ١٦٦١م. وبقي في الحكم ١٥ سنة أي حتى ١٦٧٦م) الى السلطة، فقرر إعادة نظام الادارة المركزية الى مصر والقضاء على المماليك.

وهنا تبدأ مرحلة تاريخية جديدة، وهي من أخطر المراحل، إذ تنشأ فيها البيوتات العسكرية التي تتيح لزعمائها التدخل في الشؤون السياسية، وتتبلور

في كل بيت طائفة يؤثر زعماؤها على المسرح السياسي في الربع الاخير من القرن السابع عشر... وأنها بدأت في الدخول بتحالف مع الطوائف القديمة المنتهية: الفقارية والقاسمية، مما أدّى الى عودتها الى الظهور على المسرح السياسي في مصر مرة اخرى، وعودة الصراع الداخلي واستمراره.

لقد سيطر العسكريون على مقاليد الامور خلال الربع الاخير من القرن السابع عشر، وبدأوا بمعارضة الولاة كونهم امتلكوا السلطة واستبدّوا بها، فأخذوا يطالبون السلطان بتغيير الولاة.، ولم يعترض السلاطين على ذلك ... فانكفأ نفوذ الصناجق وضعفت الطائفتان من المماليك، وتقلّصت سلطة الوالي... وعلينا ان نتوقّف قليلاً عند تركيب البنية العسكرية – العثمانية في مصر:

تكوّنت البيوت العسكرية في مصر على نفس النهج المملوكي – العسكري، إذ اخذ أغوات الفرق العسكرية السبع (انظر أدناه = الاوجاقات) يجلبون الشباب الروم (روم أوشانجي) من الاناضول وبحر ايجه لغرض استخدامهم في الحرس الخصوصي، ثم يلتحق بالاوجاقات دون انقطاع رابطته بسيده. وهكذا يتزايد عددهم ليؤلفوا البيوت العسكرية التي تنتسب الى أبرز القواد الكبار.

أما الحامية العسكرية العثمانية فقد نظّمت في مصر وفقاً لـ «قانونامة في مصر» الصادر في عام ١٥٢٥م/ ٩٣١هـ في ستة أوجاقات، ثم أضيف اليها أوجاق سابع عام ١٥٥٤م هو أوجاق «المتفرقة»، وهما:

١– **أوجاق الجوكليان:** وهم فرسان سباهية ويعملون في حفظ الامن في الريف.

٢– **اوجاق التفنكجيان:** وهم فرسان سباهية أيضا يعملون في تأمين الريف.

٣– **أوجاق الجراكسة:** وهم من المماليك الجراكسة الفرسان، ويعدون من السباهية ايضا.

٤– **أوجاق مستحفظان قلعة مصر:** هم الانكشارية الذين يحافظون على

القلعــة وهـم من المشــاة المسلحـين بالبنادق . ويتــزعم قــائدهـم (= أغــا الانكشــارية) جـمـيـع الاوجـاقـات والقـوات العـسكرية في مـصـر، يتـركـز الاوجاق في العـاصـمة قـرب مـركز السلطة الادارية، وكان للاوجاق نفـوذ فاعل.

٥- **أوجـاق العـزبان:** وهـم من المشــاة المسلحـين بالبنادق، ويتـولون مـهـام التشـريفـات وحـراسـة القلعة الى جانب المسـتحـفظان، فكثـيراً مـا حـدثت منازعات بين الاوجاقين.

٦- **أوجـاق الجـاووشان:** هـم من بقـايا العنصـر المملوكي الذين اعلنوا ولاءهم للعـثمـانيين، وانخـرطوا في خدمـتـها كفـرسـان الجـراكسة . وقد خـدمـوا «الديوان» الذي يرأسـه البـاشـا العثماني.

٧- **أوجاق المتفرقة:** تكون من أفـراد جلبـوا من اسطنبـول الى جـانـب بعض المماليك الذين دخلوا خدمة الدولة... ويقوم أفراده كونهم الحـرس الخاص للباشـا العثماني في مصـر.

لقـد ظهـرت شـخـصـيـات عـسكرية في مـصـر، وولدت نزاعـات داخليـة بين الطوائف العـسكرية في ذلك الوقت فـأدت الى دعوة «الصنـاجق» وطائفتي المماليك الى نفـوذهـم السـابق، كي يتولوا المناصب المتعددة كإمـارة الحج ورئاسـة الحمـلات العـسكرية للدولة... وعـاد الصـراع الداخلي يشـتـعل بين الطائفـتين المملوكـيـتين: الفقارية والقاسمية.

يمكننا ان نستنتج أن ظاهرة «الصراع الداخلي» قد صبغت تاريخ مصـر خلال تلك العـهـود، وقد وصلت الى درجة من التفـاعلات خلال القرن السـابع عشـر في التفكك السياسي والاداري ... وعلينا ان نتعرّف على الوجه الآخر من مصر ونطّلع على الحالة الاجتماعية فيها خلال القرن المذكور . إذ ان أبرز قانون عثماني أثرّ في تاريخ المجتمع المصـري الحديث هو «نظام الالتزام»*.

---

* راجع تحليلات سـتانفورد شـو وعبد الكريم رافق بشكل خاص وآراء هاملتون كيب وخليل انالجيك بشكل عام.

– نظام الالتزام في مصر القون السابع عشر: –

لقد طبّقت الدولة العثمانية نظام «الالتزام» في مصر عام ١٦٥٨م، إذ تولاه في التطبيق البكوات المماليك من الاثرياء، ويتعهدون بجمع الضرائب من الفلاحين نيابة عن «زمام» معين، والذي يشمل قرية واحدة أو عدة قرى فيقوم بدفع الضريبة كلها أو بعضها مقدماً الى الحكومة التي تساعده سلطاتها في جمعه للضرائب.

وكان الملتزم يلتزم ضريبة ناحية ما لمدة سنة أو أكثر، ويتم الالتزام بالمزايدة أو الاتفاق بين الملتزم «والروزنامة» بعد موافقة شيخ البلد على عقد الالتزام.. ويصبح الاهلون بمثابة «أرقاء» للملتزم الذي يحلّ محل الحكومة في جمع الضرائب، إذ يتمتع بسيادة كاملة على الأرض والانسان فيها. وقد حمل نظام الالتزام في مظاهره سمات النظام الاقطاعي ليس في مضمونه وواقعه بل في شكله وأوصافه، وإن الاختلاف بينه وبين النظام الاداري إنما يكمن في وجود قيادة أو قيادات من الاقطاعيين تتزعم المعارضة والمقاومة ضد الحكومة. ولكن الاحوال مختلفة في مصر لان الملتزمين كثيرا ما يحافظون على مصالحهم بتبعيّتهم لأجهزة الادارة. باعتبار أن أغلبهم لم يكن من خارج الريف فقط، وإنما كان من خارج اهل البلاد أنفسهم ... إذ يوضح ذلك الامراء المماليك والعسكريون العثمانيون... وعليه، فقد بترت المعارضة على نحو كبير.

لقد تطورت أحوال نظام الالتزام، إذ غدت حقوق الملتزم مورثة لأولاده وأحفاده، أو لمماليكه البيض، ولا ترجع حصته (= ملكيته) الى الحكومة الا في حالة إنقراض ذريته أو صلبه.. كما أصبح باستطاعته مع توالي السنين أن يسقط حصته، أو بعضاً منها الى النهاية، أو لمدّة معيّنة، أو يرهن التزامه أو يؤجّره!

وتنوعت بنية نظام الالتزام في مصر: بحيث نجد شرائح اجتماعية عديدة قد عملت في داخله مثل الاوجاقات العسكرية، والمماليك والجلبية. وتجار ونساء وعربان ورؤساء طرق صوفية، ومشرفون على تكايا وأضرحة وعلماء ومشايخ ووكلاء... وكل فئة دخلت في اطار نظام الالتزام ضمن دواع وأسباب مختلفة.

هكذا، كانت الحياة الاجتماعية المصرية/ العثمانية، فكان لها خصوصيتها التي طغى عليها المدّ الديني / الصوفي. وقد شجعت الدولة العثمانية ظاهرة

التصوف فخصّصت الحياة الدينية لتأثير المشايخ والطرقية أكثر مما خضعت لتاثير السلطة الرسمية للدولة .. وقد غلبت على التفكير الجماعي وعلى النزوع النفسي أشكال الشعوذة والسحر والخرافة التي لبست لبوساً دينياً. وسيطرت على شؤون الحياة الاجتماعية متخذة لها صورة لسلطة قهرية ، أبطالها من المشعوذين الذين أدعوا الطب – مثلاً – ومارسوا الابتزاز.

وقد ضمّ المجتمع المصري تركيبة من المسلمين والمسيحيين واليهود العرب، وقد غلب على سكان الوجه البحري الطابع المدني، وفي حين غلب على سكان الوجه القبلي الطابع البدوي الذي مثّله «العربان» الذين كانت تحكمهم العصبية القبلية وروح التعاون والتأثر والكرم والمصالح الاقتصادية بحيث سيطروا بأنفسهم في صعيد مصر على «الالتزام» ، وبخاصة عرب الهوارة الذين كانوا لا يتورعون في الدخول بصراع ضد من يحاول السيطرة على «التزاماتهم» ، فتضطر السلطات المركزية لمساندتهم وترك الالتزام بيدهم . إن العربان بمصر عموماً كانوا ينظرون الى الحكام المماليك «نظرة ازدراء وإحتقار»*.

---

* من أبرز المراجع التاريخية المعتمدة ، انظر:

د عبد الوهاب بكر ، الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ط ١، القاهرة ١٩٨٢.

P.M. Holt, Egypt and The Fertile Crescent 1516- 1922, cornell Univ., 1966.

اللواء محمد مختار باشا ، كتاب التوفيقات الالهامية في مقارنة النواريخ الهجرية ، المجلد الثاني، دراسة وتحقيق وتكملة : د. محمد عمارة ، ط ١، بيروت ، ١٩٨٠.

Standford J. Shaw, Ottoman Egypt in the Eighteenth Century, Harvard Univ., 1962.

(بضمنه وثائق نظامنامه مصر)

وللمزيد من التوسع بالعربية ، انظر

- عراقي يوسف محمد، «الاوجاقات العثمانية في مصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر» (رسالة ماجستير غير منشورة) جامعة عين شمس/ كلية الاداب ١٩٧٨.

- د. ليلى عبد اللطيف . الادارة في مصر في العصر العثماني» (رسالة دكتوراه)، مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٧٨.

(وفي هاتين الرسالتين تحليلات تاريخية جيدة في تاريخ مصر العثماني)

٩- تونس : الدايات والاسرة المرادية*:-

لقد تزعم الدايات في الايالة التونسية انقلاباً عسكرياً عام ١٥٩١م ضد الممارسات السلطوية المطلقة للباشا والديوان، ونصّبوا احدهم مسؤولاً عن شؤون الجيش. ومنذ ذلك الوقت بدأ الدايات يعملون على ابعاد «الديوان» من الحكم ، ونقل السلطة الحقيقية الى يد الداي، وبقي «الباشا» في منصبه معزولاً عن ممارسة السلطة، على الرغم من تنصيبه المباشر من قبل الباب العالي في اسطنبول بدلا من الجزائر.

كان من ابرز الدايات المعروفين الذين حكموا الايالة التونسية عثمان داي وابراهيم روسلي ويوسف داي واسطا مراد داي الذين تميزت عهودهم باستقرار البلاد. وانتعاش المقاومة البحرية وازدهار الاقتصاد التونسي، وذلك بفضل قدوم الموارسكة الاندلسيين على نحو أكثر من ٨٠ ألف نازح، برفقة مهاراتهم وآلياتهم وافكارهم. فعنوا عناية بالغة بزراعة البساتين في الريف التونسي والنشاط التجاري – البحري في الموانيء، والعمليات الحرفية والخزفية في المدن . هكذا، نشطت الحياة الجديدة في تونس وبقية البلاد المغاربية الاخرى، نتيجة لكثرة الاحتكاك بالوافدين والنازحين من الاندلس ، وازدحام البحر المتوسط بالسفن وعمليات القرصنة في حين ذبلت الحياة القديمة في المشرق العربي نتيجة لتفاقم الصراعات الاقليمية والزعامات العسكرية، واحتدام المواقف، والنهب الاقتصادي وخصوصاً في العراق وبلاد الشام ومصر.

وفي عهد يوسف داي ١٦١٠– ١٦٣٧م، استطاع الاسطول التونسي ان يفرض وجوده في البحر المتوسط، ويعود تأسيس القنصليات الاجنبية الأولى الى هذا العهد ، فبدأ النشاط الدبلوماسي مع اطراف ودول اجنبية في حين نشأ نزاع الحدود مع الجزائر والذي انتهى لصالح الايالة الجزائرية ، ولكن يوسف داي استطاع من جانبه ان ينتزع جزيرة جربة التونسية من سيطرة طرابلس الغرب

---

* لم ينل تاريخ حكم هذه الاسرة لتونس حصته من الدراسة الكاملة مقارنة بدراسة تواريخ حكم الاسرة الحسينية لتونس، ونأمل من الزملاء المؤرخين التوانسة إثراء تاريخ القرن السابع عشر من خلال دراساتهم وتحقيقاتهم للمخطوطات والوثائق التاريخية في المستقبل.

عليها ، وقد عرف يوسف داي ببناء المساجد والمدارس ، وعرف عهده من طرف آخر: الامراض والاوبئة التي أودت بحياة المئات من أبناء الفئات الاجتماعية المسحوقة.

وقد حدثت اعمال شغب نتيجة جباية الضرائب، فاستنجد يوسف داي باحد موظفيه الاكفاء لاخضاع السكان المشاغبين، ومنذ ذلك الحين، اصبح مراد باي هو المسؤول عن الامن والضرائب، ثم تنازل مراد باي لابنه حموده باشا الذي يعد عهده فترة انتقالية وتاسيسية في آن واحد من الدايات الى البايات من اجل مجيء اسرة حاكمة جديدة لتونس العثمانية. لقد عظم شأن حمودة باي اذ انهى الانتفاضات القبلية، ولأنه هو الذي انتزع ثانية جزيرة جربه من حاكم طرابلس الغرب، وبعد وفاة اسطا مراد باي، استطاع ان يسعف ميناء حلق الواد التونسي الاستراتيجي من هجمات فرسان مالطة، وفي عام ١٦٥٨م قلدته اسطنبول رتبة الباشوية .

الاسرة المرادية:

حكمت الاسرة المرادية تونس خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، ففي عام ١٦٥٩ تنازل حمودة باي عن منصبه لولده مراد الثاني، فغدا الحكم منذ ذلك التاريخ وراثياً في اسرة «اسطا مراد». وقد حكم مراد الثاني للفترة ١٦٥٩-١٦٧٥، واستطاع ان يقضي قضاءً مبرماً على نظام الدايات التونسي الى غير رجعة. فقد اغتنم فرصة غضب الشعب على الداي فالقاه خارج تونس، ونصب بدله دايا طيعاً لاوامره عام ١٦٧١م، ودخل مراد الثاني بعد ذلك في نزاع مسلح ضد فرق الانكشارية التي لم تعترف بالداي الجديد حتى عام ١٦٧٣م، فاتفق مراد الثاني مع أخيه والي القيروان على محاصرة الانكشارية العصاة، فانتصر عليهم، فاستتب الوضع، ونفذت سياسته، وقام قبيل وفاته عام ١٦٧٥ بعملية توريث على العرش ، وابقاء السلالة المرادية في حكم تونس.

ولكن؟

دخلت تونس عهد تفكك وفوضى خلال ازمة الحكم المرادي ١٦٧٥-١٧٠٥م، فعند وفاة مراد الثاني، انتشرت الفوضى في البلاد، وذلك لوجود اكثر من مرشح واحد على الحكم ، وهما الابنان: محمد وعلي وعمهم محمد الحفصي،

وكذلك بسبب تدخل كل من الجزائر وطرابلس الغرب لاعانة احدهم على الآخر، وكسب المواقف السياسية على حساب التفكك الاقليمي.

ويقسم المؤرخون حقبة الازمة المرادية الى مرحلتين اثنتين، هما:

المرحلة الاولى ١٦٧٥-١٦٨٦م: وهي الفترة التي احتد فيها التنافس السياسي والنزاع القوي بين المرشحين الثلاثة، وقد دام النزاع مدة ٢٠ سنة، خلص الامر في النهاية لمحمد باي الذي تمكن من ابعاد عمه الحفصي، وقتل اخيه علي وذلك بمساعدة من قبل الجزائر.

المرحلة الثانية: ١٦٨٦-١٦٩٦م، استطاع محمد باي خلالها من اخماد انتفاضة جديدة دبّرها صهره ابن شكر الذي استعان باتراك الجزائر وقد انتهت انتفاضته عندما عقد محمد باي صلحاً مع أولئك الاتراك الذين تخلوا بسهولة عن صهره.

نخلص في النهاية الى القول بتميز هذا العهد التاريخي بوصول شخصيتين ضعيفتين الى الحكم مثل: رمضان باي وهو آخو محمد باي وحكم البلاد ١٦٩٦-١٦٩٨م. ثم مراد باي الذي حكم للفترة ١٦٩٨-١٧٠٢م. وقد تسبب هذا الاخير في هلاكه عندما قام بالاستيلاء على مدينة قسنطينة، وعين احد الضباط واسمه «ابراهيم» باياً وداياً في آن واحد. واعتمد في سياسته الداخلية والخارجية وفي امر حروبه وعلاقات دولته على الكاهية حسين بن علي...

وفي عام ١٧٠٥م، تنتهي الازمة المرادية في الحكم بانتهاء حكم السلالة المرادية وتواصلها، عندما نصب ديوان الاوجاق حسين بن علي داياً جديداً على ايالة تونس العثمانية، لكي تبدأ صفحة جديدة في التاريخ الاقليمي - العربي خلال القرن الثامن عشر*.

---

* انظر ابن ابي الضياف، اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان، جـ١، ط٢، تونس، ١٩٧٦. وانظر ايضا محمد بن عثمان الحشائشي التونسي، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب (رحلة الحشائشي الى ليبيا)، تقديم وتحقيق: علي مصطفى المصراتي، بيروت ١٩٦٥.
وانظر 1 - Ch A. Julien, Histoire de L' Afrique du Nord, Paris, 1952 (ترجم هذا الكتاب الى العربية محمد مزالي وراجعه البشير بن سلامة تحت عنوان: تاريخ افريقيا الشمالية).

١٠- الجزائر: التركيب التاريخي: البايلربايات - الباشوات - الاغوات:-

عاشت الايالة الجزائرية مراحل تاريخية متناسقة ، يمكننا تفسيرها في ضوء المقارنات مع ايالات عربية اخرى:

١- امتدت مرحلة حكم البايلربايات ، للفترة ١٥١٨ – ١٥٨٨م، أي هي المرحلة التاريخية التي غطت عقوداً طويلة من القرن السادس عشر، مبتدئة بحكم خير الدين بربروسه، لتشكل فجوة تاريخية عمرها ٧٠ سنة، نظمت الجزائر على النسق الاداري الذي اقره السلطان سليمان القانوني، وقد نضجت القوى العسكرية في الجزائر، واستمرار فعالياتها في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، لمواجهة التحديات الاوروبية القاسية، وقد نجحت الجزائر في تصفية جيوب السيطرة الاسبانية على اجزاء من اقليمها الغربي، وموانئه الاستراتيجية كوهران والمرسى الكبير، وقد استمرت هذه المرحلة قرابة سبعة عقود.

٢- عاشت الجزائر مرحلة اخرى يمثلها عهد الباشوات الذي استمر ٧١ سنة، اي شغل الفترة ١٥٨٨ – ١٦٥٩م، ارتبطت الجزائر خلالها بالسلطة المركزية - العثمانية ارتباطاً مباشراً وقوياً، بعد ان كان مطلقاً وحراً لا مركزياً في المرحلة الأولى (وهذا ما وجدناه ايضاً في اغلب الولايات العربية) ، وذلك لتفاقم نفوذ القوى الانكشارية وهيمنتها على السلطات المحلية في العاصمة الجزائر ومراكز الاقاليم الأخرى. ولقد تحددت عهود الولاة الباشوات للجزائر بثلاث سنوات لكل واحد منهم بعد أن كانت مفتوحة في عهد البايلربايات، وقد شارك الباشا نفوذ ديوان «الاوجاق» أو قوة الجيش مع الديوان... وخلال هذه المرحلة، سار الحكم العثماني في مسار جديد كانت له طبيعته الادارية التي غرقت بسلبياتها وخطاياها على حساب مجموع السكان الاقليمي والمحليين في المدن، منها: الرشاوي والتعدي على الحريات الشخصية ، والسيطة على الموارد الاقليمية ومصادرتها، فسقطت هيبة الحكم، مما جعل الانكشارية ان يجترئوا عليه، وقاد ذلك كله الى حدوث اضطرابات ومكابدات عاشتها الإيالة بأجمعها..

٣ – أما المرحلة الثالثة، فهي فترة النفوذ الانكشاري التي مثلها اغوات الانكشارية والتي تمتد بين ١٦٥٩ – ١٦٧١م، أي انها كانت عهداً قصيرا مقارنة بالعهود السابقة ، أو عهد الدايات اللاحق، فالانكشارية من «الأغوات» قد انتزعت السلطة العليا من الباشوات، لكي يتسلمها الدايات فيما بعد . وقد جمدت الدولة العثمانية الادوار الحقيقية في الحكم عند اولئك الحكام. ولقد خلقت تلك الاحداث حالة انفصال بعد تأزم في العلاقات الادارية لدى الجهاز الحاكم، فأدى ذلك الى اختلال الامن ، فعمت الفوضى البلاد... فضلاً عن الصراعات الداخلية بين الاغاوات انفسهم نتيجة المنافسات غير المبدئية للوصول الى الرئاسة . وقد وقف وراء الاغاوات، رياس البحر الذين سحبوا البساط من تحت أرجلهم من اجل التخلص من سيطرتهم السيئة على مقاليد الامور.

ولكن ؟ ستبدأ مرحلة تاريخية جديدة تشكل فصولها فعاليات مهمة من تطور تاريخ المجتمع الجزائري ودوره في المنطقة المتوسطية.

السؤال الآن: ما طبيعة الحكم العثماني في الجزائر خلال القرن السابع عشر ؟

حكم الاقلية التركية:

كان الحكم العثماني في ايالة الجزائر منذ بدايته حكماً عسكرياً – لوجستياً يعتمد على السلطة المركزية في مجمل المسائل الاقليمية وعلاقاتها... ومع تطور نظام الحكم الاقليمي ظهر هناك شبه انفصال بين مركز السلطة العثمانية في العاصمة والايالة الجزائرية . أما اجتماعياً فقد تبلورت فيها بنية خاصة ومؤتلفة من السكان، وقفت على رأسها الجالية التركية التي استقرت في الجزائر ، واعتبرت نفسها في أعلى السلم الاجتماعي في كامل ربوع الايالة (ولم تزل بقاياه موجودة حتى يومنا هذا بعد استعرابها. وينظر اليها انها من الصفوة ذات الخصوصية) إذ ان عناصرها وجدت نفسها فوق المجموع العام، وكأقلية ميّزت نفسها عن الاغلبية، فلم تختلط ببقية السكان من قبائل العرب وقبائل البربر سواء كان ذلك في المدن أم الريف. كانت الاقلية التركية هي التي تحكم البلاد تقريباً، عدا المناطق الجنوبية – الصحراوية التي ينتشر فيها البدو والاعراب والطوارق وبقايا الاباضية.

لقد ميزت الاقلية التركية في الجزائر نفسها حتى عن «الكراغلة» ، الذين لم يكونوا متمتعين هم الاخرين بالحقوق والامتيازات التي كانت الاقلية الحاكمة تتمتع بها. والكراغلة: هم فئة اجتماعية من المولدين الذين افرزهم الانشطار الاجتماعي والانثروبولوجي بين الاتراك الحاكمين وابناء الجزائر المحكومين. وبقيت تلك الفئة تعاني من عقدة نقص اجتماعية وسايكلوجية حتى ابان الاحتلال الفرنسي. أما من اين جاء الكراغلة ؟ فهم نتاج ضعيف لزيجات نادرة كانت تحصل بين رجالات من الاتراك بنساء جزائريات. وقد اعتبر بعض المؤرخين، عنصر الكراغلة صورة اجتماعية بائسة من صور ذلك الامتزاج القليل للبعض وليس للكل كما حدث في اقاليم وولايات عربية اخرى التي اختلط فيها الحابل بالنابل بين جميع العناصر التي صهرتها البيئة العربية على مدى القرون المتأخرة.

لقد رسمت خلال القرن السابع عشر الحدود الاقليمية بالنسبة للايالة الجزائرية . ويريد عدد من المؤرخين تكريس هذا المفهوم الذي يقترب بشيء من الصحة، ذلك لأن الجزائر خرجت على يد الدايات، ومن خلال الصراع البحري ضد الاوربيين (= ظاهرة المقاومة البحرية) مكتسبة مقوماتها الخارجية ، وقد تبلورت تلك المكتسبات في القرن الثامن عشر... على الرغم من حركات التمرد والانفصال والانشقاقات ، ولكن بقي الدايات حتى عام ١٨٣٠م، أي حتى الاحتلال الفرنسي للجزائر ، يدينون بالولاء الرسمي للسلطان العثماني * - كما سنرى لاحقاً.

---

* من أبرز المراجع التاريخية بالعربية

--د. ابو القاسم سعد الله ، ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، ط٢، الجزائر ، ١٩٨٢، وكتابه الآخر . تاريخ الجزائر الثقافي ، ط ٢ الجزائر ، ١٩٨٥.

- أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ١٤٩٢ - ١٧٩٢، ط٢، الجزائر ، ١٩٧٦.

- د. ناصر الدين سعيدوني «دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي بالايالة الجزائرية ». مجلة الاصالة ، العدد (٣٢) ، الجزائر، ١٩٧٦.

- نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من اقدم عصورها الى انتهاء العهد التركي ، (كلية الاداب الجزائرية)، قسنطينة ، ١٩٦٥.

- د. عبد الجليل التميمي، موجز الدفاتر العربية والتركية بالجزائر و تونس ، ١٩٨٣.

أما ابرز الكتابات التاريخية بالفرنسية ، فيمكن الاعتماد على :

Ch. A. Julien, Histoire del'Algerie Contemporaine, Paris, 1964. H. de Grammont , Histoire d' Alger sous la Domination Turqe. Paris 1887.

Boyer, Beys et Beylikes " in Atti dell Comgresso internazionale di studinord African, Cagliar, 1965.

استنتاجات : تقويم تاريخ الولايات العربية خلال القرن السابع عشر

كانت الامبراطورية العثمانية قد وصلت أوج قوتها العسكرية والسياسية والاقتصادية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ، في حين بلغت اقصى اتساعها الجغرافي في قارات ثلاث : آسيا وأوربا وافريقيا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر ... ولكن سرعان ما بدأت عوامل الانحلال والضعف تدبّ في أوصالها خلال القرن السابع عشر، ثم ازدادت نكوصاً بعد الكارثة التاريخية التي ألمت بها على أيدي جيوش التحالف الاوروبية أثر الحصار العثماني الثاني لـ فينا عاصمة الهابسبورك النمساوية عام ١٦٨٣م.

كان الجهاز العثماني العسكري والاداري الحاكم قد أصيب بخلل كبير، فضلاً عن البلاط والمؤسسات السياسية التي انتابها فساد عام... ولم تنفع إصلاحات بعض من السلاطين الذين أرادوا الحفاظ على الدولة من الانهيار بوساطة وزرائهم ... وفي حين كان النظام الانكشاري ، ذلك العمود الفقري لكيان الدولة قد دخل في نطاق التدهور ، إذ غدا آلة للفساد والفوضى والانتكاسات ، كانت اقتصاديات الدولة تضعف شيئاً فشيئاً. وفي حين كانت أوروبا قد بدأت في بلورة كياناتها السياسية على أساس الدولة القومية المركزية نجد أن الدولة العثمانية تسلك مسلكاً مغايراً ، إذ انحسرت سلطاتها المركزية عن اقاليمها العديدة والمتنوعة وخاصة الاقاليم العربية، مما دعا هذه الاقاليم الى بناء وتأسيس حكومات محلية ترتبط فيما بينها بروابط اقليمية، وترتبط بالعاصمة اسطنبول على نحو اداري شبه مركزي.

لقد باركت الدولة العثمانية هذا التوجه الذي وجدت فيه اسلوب الحفاظ على ممتلكاتها من التفكك والانفصال، فدعمت المحليات والعصبيات والاوجاقات والاثنيات والزعامات في طول الامبراطورية وعرضها ، بعد أن أخرجت نفسها من القرن السابع عشر وهي مثقلة بأزمات خطيرة، ومشاكل حادة ومزمنة في ميادينها المتعددة. فما لبثت تلك الاقاليم خلال القرن الثامن عشر أن خرجت على نطاق الحكومة المركزية في صنع القرار السياسي الداخلي، والسيطرة على المؤسسات الاقتصادية بشكل مباشر.. ومن ثم تبلورت البنى الاجتماعية في الاقاليم والادارات المتعددة من خلال ذلك الانحسار السياسي للسلطة المركزية في الامبراطورية العثمانية.

وعلى الرغم من إصابة نظام الحكم العثماني بالانهيار كونه لم يجدّد منذ عهد السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠ – ١٥٦٦م. فإن العلاقة بين الاقاليم العربية والسلطة المركزية العثمانية بقيت قائمة، ولكنها كانت تحكمها مؤسسات مختلة التوازن السياسي والاداري، وهناك ايضا فوارق كبيرة ظهرت واضحة وجلية، بين قوانين السلطان والحكومة التي يمثلها الصدر الاعظم، وبين سوء تطبيقاتها في أجهزة الاقاليم الادارية وفي معظم الولايات العربية مع اختلاف طبيعة تلك «التطبيقات» من ولاية الى اخرى ومن سنجق الى آخر، ويمثل السلطات الاقليمية والمحلية: الباشوات من الوزراء والولاة، ثم امراء السناجق والحاميات العثمانية وقوادها كالبيكلربيكات والبيكات والاغوات والمقاطعجية والملتزمين والجلبية ... الخ.

هكذا، تبلورت الادارات الاقليمية عن انحسار المركزية، وليزداد فعل العصبيات والقوى المحلية في المنطقة العربية. ولكن تلك الادارات لم تكن ثابتة من بقائها وتواصلها، إلا من خلال خدماتها الحربية للدولة، ونفعها المادي للسلطة. ومن هنا حافظت على مدى أكثر من قرن كامل على ولائها السياسي المطلق، علماً بأن حكومة الصدر الاعظم لم تكن ثابتة في تعاملها مع تلك الادارات.

إذا كان سلاطين القرن السابع عشر قد اعتمدوا على الصدور العظام في تسيير أمور الدولة فإن سلاطين القرن الثامن عشر قد اعتمدوا على «الوزراء» الباشوات في حكم الاقاليم وحكوماتها المحلية، فمنذ بداية ذلك القرن بدأت السلطة المركزية العليا بانحسارها عن الحكم المباشر للاقاليم التي كانت قد تبلورت انساقها الاقتصادية منذ فترات طويلة، فبدأت تنشأ وتتكون عدة أنماط اقليمية ومحلية وخصوصاً في الولايات العربية.. تلك الانماط التي تطورت كثيراً عن الصورة التي كانت عليها خلال القرن السابع عشر.

لقد حدث كثير من التغيرات في الانظمة الادارية والانشطة الاقتصادية والفعاليات الاجتماعية، حتى حدوث تجديدات في ثقافة بعض الحواضر العربية... إضافة الى تطور العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين كل مجموعة من الاقاليم المجاورة ردءاً للمخاطر التي كانت تهدد الوطن العربي براً وبحراً.

ومن الاسباب الاخرى – ايضا – أن الامبراطورية العثمانية كانت تجتاز أزمة اقتصادية تجمّعت عناصرها منذ زمن طويل ، ولا شك ان الادارة الفاسدة قد زادتها خطراً، إلا ان سببها الحقيقي كان خارجياً ، يعود الى توسع أوروبا الجغرافي شرقاً وغرباً، إذ أن المراكز التجارية الاوربية التي تكونت في المحيط الهندي كانت قد تفككت من خلالها الخطوط والمسالك التجارية التقليدية بين الامبراطورية والعالم الخارجي في كلّ من آسيا وأوروبا، وكان لاستكشاف أمريكا تأثير أشد من ذلك ايضا، إذ أدى الى تحول الذهب والفضة الى بلدان البحر المتوسط ، ومن بعد الى ارتفاع الاسعار، مما زعزع مالية الدولة ، وأضرّ كثيراً بالفئات الاجتماعية المنتجة . ونتيجة لذلك ، فقد ازدادت الضرائب، وتقهقرت الزراعة، وهزلت الحرف، وبدأت الهجرة من الارياف الى المدن* .

ويمكننا ان نستخلص ابرز النتائج التي تمخضت عن مجمل الحالات المتشابهة التي اشتركت فيها أغلب اقاليمنا وولاياتنا العربية خلال القرن الثامن عشر :

١– ولادة أسر محلية حاكمة داخل الولايات العربية، وهي أسر سلالية - عثمانية ، استطاعت ان تبقى السلطة الادارية المتصلة بجوانب اخرى سواء كانت سياسية أم اقتصادية ولفترات طويلة .

٢– ظهور عدة من الزعامات العسكرية – المحلية في أماكن كثيرة من الأراضي العربية ... تلك الزعامات التي استقطبت اهتمام الحكومة المركزية - العثمانية . وثبتت مواقعها على امتداد قرن كامل ولا سيما في اقاليم بلاد الشام .

٣– لقد استطاعت تلك «الحكومات» ' لية أن تستحصل على اعترافات رسمية بها، من أجل بقائها سلا، حاكمة أو أنظمة شبه مستقلة لكنها تلتزم بأداء الخدمات الامبراطوريه متى احتاج اليها الباب العالي سواء في الدواخل أم الاطراف .

---

* Cf. Lavender Cassels, The Struggle of the Ottoman Empire 1717-1740, London 1966, P. 112.

٤ – ولادة طبقة جديدة من الاقطاعيين المحليين الذين أفرزهم تاريخ القرن الثامن عشر، بامتلاكهم للاقطاعات والاراضي الزراعية.. فضلاً عن الجباة والملتزمين والمضاربين والوكلاء والشركاء والعملاء ... الخ الذين سيطروا على الاقتصاديات المحلية ، مما نتج عنه بروز حالات اقتصادية لم تكن معروفة في السابق.

٥ – كان الوطن العربي عصر ذاك ينوء تحت وطأة علاقات انتاجية تقليدية ... كي تتبلور بيروقراطيات عثمانية محلية واقليمية لا مركزية ضمن سلطويات عسكرية متنفذة وقاسية أو قوى وهيئات عرقية وعصبية ... الخ بقيت جميعها تدافع يوماً بعد آخر عن الاوضاع الاجتماعية السائدة، وعن حدودها الجغرافية الاقليمية ، وعن مصالحها الاقتصادية المتوارثة.



الفصل الخامس



٥ الفصل الخامس

التكوين الاقليمي واللامركزية العثمانية في الولايات العربية خلال القرن الثامن عشر

مقدمة:

نستطيع القول بأن تاريخ الوطن العربي في القرن الثامن عشر سيسلك مسالك اخرى متعددة تختلف فيها عما كانت عليه الأوضاع السياسية والادارية معاً خلال القرنين السابقين وابرز ظاهرة بنيوية في حياة ذلك التاريخ هي: الاقليمية واللامركزية الادارية التي يجب ادراكها بابعادها الواسعة والمؤثرة. ان ظاهرة نمو «الاقليم العربي» كانت قد بنيت على مهل مستندة على ركائز تاريخية السيطرة العثمانية للقرن السادس عشر، وعلى المخلفات الصعبة التي تركها القرن السابع عشر وراءه سواء كان ذلك في المشرق ام في المغرب العربيين.

وما كان كل ذلك ليكون لولا تبلور ابرز عامل تاريخي في حياة الدولة العثمانية، والمتمثل بانحسار السلطة المركزية عن ادارة الولايات ولا سيما في الوطن العربي بعد الضعف والانحلال السياسي والاقتصادي الذي حاق بأجهزة الدولة والمؤسسة العسكرية والاقطاعية فيها.. ولم تنفع مجهودات السلطان مراد الرابع ١٦٢٣- ١٦٤٠م، الذي يكاد يكون عهده استثناء في حياة القرن السابع عشر وفي النصف الاول منه.. كما ولم تنفع الاساليب والجهود المخلصة التي بذلتها الصدارة العظمى التي تمتع بها وزراء آل كوبرلو محمد باشا وولده احمد فاضل باشا (١٦٥٦- ١٦٨٣م).. فقد قادت الأحداث التاريخية الى هزيمة الجيوش العثمانية هزيمة ساحقة ابان حصارها الثاني لڤينا عاصمة الهابسبورك النمساوية

عام ١٦٨٣م، فكان ذلك بمثابة انهيار بطيء للدولة منذ عهد محمد الرابع ١٦٤٨-١٦٨٧م. وتفتقد مركزيتها السياسية عن حكم اقاليمها القوية والمهمة اقتصاديا واستراتيجيا.. كي تعتمد على زعامات واوجاقات واسر محلية واقليات مملوكية في الدواخل العربية.. وعلى اثنيات وعصبيات أقلياته، ومشيخات قبلية في الاطراف العربية.

لنتوقف ادناه على عدة من «النماذج» الاقليمية في حياة الولايات العربية خلال القرن الثامن عشر، تلك التي تبلورت على مدى عقود زمنية عديدة كتشكيلات بنيوية، وستغدو مع توالي السنوات والازمان: ركائز تاريخية للوحدات الكيانية السياسية- العربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين... ولكن؟ لنبدأ مع نماذج ما افرزه النظام التاريخي- القبلي العربي في منطقة الخليج العربي منطلقين منه نحو الاجزاء الاخرى من الوطن العربي الكبير:-

١- تطور كيان البوسعيد في عمان وزنجبار:

في ازمة السيطرة الفارسية على عمان برز فجأة على المسرح السياسي قائد قوي بدأ ينهض بدور تأريخي بارز في تخليص بلاده من الاحتلال الفارسي.. ذلك هو الامام احمد بن سعيد البوسعيدي الأزدي الي يعّد المؤسس الاول لدولة البوسعيد وقد لقي تأييدا كبيراً من زعماء القبائل الشمالية، فكان ذلك مدعاة لشكوك الامام سيف الذي حاول تدبير مؤامرة للتخلص من الامام احمد بن سعيد الذي وصلته تحذيرات بعدم لقيا سيف، فآثر التراجع الى مسقط، وعلى الرغم من محاولة سيف قتال احمد، فإنه آثر التراجع عن تحالفه مع الفرس، فانزوى في الرستاق حتى مات.

بقي الفرس على الارض العمانية خاصة وإن جيش عمان كان بالنسبة للجيوش الفارسية «كالشعرة البيضاء في الثور الاسود»، وقد جرح الامام سلطان بن مرشد. وهكذا، تهيأت الظروف بعد وفاة الامامين سيف وسلطان لوالي صحار احمد بن سعيد، لكي يرتقي الاخير سلم الامامة، وقد نفدت ذخيرته في مقاومة الفرس مما اضطرته الظروف الى التسليم. ويرى بعض المؤرخين ان الفرس هم الذين طلبوا الصلح، في حين أن بعض المصادر الفارسية تنفي ذلك، وتؤكد ان

تعاوناً قد جرى بين احمد بن سعيد وقائد القوات الفارسية تقي خان الذي ابقاه حاكماً في حين انسحب بمعظم قواته في عام ١٧٤٣، لكي يشعل ثورة في اقليم فارستان ضد نادرشاه الذي فشل في قيادته لجيوشه الكبرى نحو العراق وحصاره للموصل عام ١٧٤٣م، وقد فشل ذلك الحصار فشلاً ذريعاً.

رحل تقي خان فانحسر الوجود الفارسي عن مسقط ومطرح مع استقرار بعض الحاميات الفارسية، وقد نجح احمد بن سعيد في خطته باخراج من تبقى من القوات الفارسية، وبدأ بمعالجة الاوضاع الاجتماعية وحل المشكلات الداخلية، وتوطيد نفوذه، في الدواخل، وضمان تأييد العثمانيين له، وعمل على اعادة توحيد البلاد وارجاع تماسكها. وقد عرف بذكائه ودهائه وكفاءته، واستطاع ان يعيد القلاع العمانية تحت هيمنته، وعد ذلك بداية تاريخية حقيقية لعهد البوسعيد ونهاية لحكم اليعاربة في عمان.

وهكذا نجح احمد بن سعيد في توحيد عمان وجعلها دولة استراتيجية مؤثرة في تاريخ الخليج العربي خلال القرن الثامن عشر، بعد ان استطاع اخذ البيعة بالامامة في عام ١٧٤٥م بعد القضاء على الفرس(حسب رأي المؤرخ السالمي)، في حين يبدأ آخرون بعام ١٧٤١م، وهو عام بداية صراعه مع الفرس (حسب رأي المؤرخ ابن رزيق).

التأسيس والترسيخ السياسي:

يعد احمد بن سعيد هو المؤسس الحقيقي لسلا. البوسعيد، فهو لم ينحدر من اسرة حاكمة عريقة، بل كان ينتمي الى فئة التجار، ولكنه اتصف بالقوة والجرأة والشجاعة، فتمكن من الوصول الى حكم ولاية «صحار» التي نصبه اليعاربة عليها، واستطاع ان يرسخ دعائم حكمه بعد مبايعته إماماً، وقد حكم للفترة ١٧٤١– ١٧٨٣م، وقد واجه في مستهل عهده ثورات اليعاربة بسبب فقدانهم الحكم، فضلاً عن المعارضة الكبرى التي قادها الغفاريون.. ولكنه نجح نجاحاً باهراً في توثيق علاقاته القبلية والاقليمية من خلال المصاهرة والاحلاف حتى وصلت صلاته الى عربستان وشط العرب والمناطق الساحلية الشرقية من الخليج العربي.. كما توثقت علاقاته السياسية بالحاكم المغولي. ووقع الاتفاقيات مع

شركة الهند الشرقية البريطانية. وأقام علاقات طيبة مع فرنسا ذات النفوذ التجاري في العراق.. وامتاز عهده بالازدهار الاقتصادي على الرغم من الاضطرابات السياسية. ولعل من ابرز الاحداث في عهده: رحلة كريستيان نيبور (C. Neibuhr) الذي زار مسقط في عام ١٧٦٥م، مؤكداً على جانب مهم في الحياة العمانية، متمثلاً بالتسامح الديني وحرية الاجانب التجارية.

لقد اعتمد احمد بن سعيد على اسرته كثيراً في توزيع المناصب على ابنائه، وجعلهم حكاماً على الاقاليم متبعاً نظاماً لا مركزياً في الادارة الاقليمية على غرار ما فعله اليعاربة، وقد نتج عن ذلك المزيد من التكتلات والتجزؤ على حساب دولته القوية.. وقد دخل في اخريات أيامه في صراع ضد المتمردين من ابنائه. وفي سنة ١٧٨٣م، مات الامام احمد بن سعيد، فبويع بعده ابنه سعيد. فسلكت الأسرة الالبوسعيدية اسلوب التوارث في الحكم كما فعل اليعاربة، فنجحوا في ذلك عن تطبيق ابرز المبادئ الشرعية في مبايعة الائمة، فضلاً عن ان البوسعيديين ورثوا الاسلوب الذي اتبعه اليعاربة في الحكم.

نجح الامام سعيد بن احمد في فصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية، فقد استحوذ على الثانية في الرستاق في حين ترك الاولى لابنه حمد بن سعيد في مسقط فكان حكم ولده حكماً زمنياً في الساحل، اما حكمه هو بالذات فكان دينياً في الداخل. وبذلك يعد عهد السيد حمد بن سعيد بداية انفصام بين الروحي والزمني والذي لاحقته مضاعفات كي يصل الى حالة انفصال بين الإمامة الممثلة للروحي وبين السلطة الممثلة للزمني، وبخاصة عندما بدأت القوى السياسية والدولية الخارجية تتعامل مع حمد بن سعيد كونه هو صاحب السلطة الشرعية في عمان، وليس مع الامام الذي انزوى عن الحياة السياسية طويلاً.

بعد وفاة السيد حمد بن سعيد عام ١٧٩٣م، جاء الى حكم السواحل السيد سلطان بن احمد ١٧٩٣– ١٨٠٤م، الذي اراد تعزيز قوته السياسية في مسقط التي سادها الاضطراب إبان عهد سعيد بن سلطان الذي كان يافعاً صغيراً، فتولى الوصاية عليه بدر بن سيف، فبرز التنافس بين هذا الأخير وبين الشيخ محمد بن ناصر الجبري، وما ان وصل سعيد بن سلطان الى الحكم عام ١٨٠٦م في مسقط حتى ضرب المتنازعين على الوصاية وقد تطورت علاقة سلطنة مسقط مع بريطانيا بعد عقد اتفاقيتين: ١٧٩٨م، ١٨٠٠م، الا انها بقيت في حالة قلقة في

علاقاتها بين انجلترا وفرنسا، إذ كانت سياسة حكامها تتغير على حساب قوة احدى الدولتين او ضعفها.

عمان وشرقي افريقيا: حكم زنجبار والهيمنة على البحر

نجح اليعاربة في تأسيس حكم عربي على السواحل الشرقية لافريقيا ممتداً نحو الداخل بعد اقصاء العرب للبرتغاليين. وعلى اثر سقوط دولة اليعاربة، انفصل الحكم العربي في زنجبار عن الوطن الام. وقد قدر لممباسا زعامة الحركات الانفصالية في شرقي افريقيا، اثر نجاح محمد بن عثمان المزروعي من تأسيسه للاسرة المزروعية في عام ١٧٣٩م. لقد انفصل المزروعي عن تبعيته لعمان اثر انهيار حكم اليعاربة، ورفض الاعتراف بالولاء لاسرة البوسعيد.

لقد واجهت دولة البوسعيد في مطلع عهدها تلك الحركات الانفصالية التي رفضت اعلان ولائها للنظام الجديد، بل ابقت ولاءها لنظام اليعاربة الشرعي حتى بعد سقوطه، ولم تكن الظروف الصعبة التي واجهت احمد بن سعيد سبباً في اشغاله عن اعادة توطيد السيطرة العمانية على الانفصاليين. واكتفى بالجهود المتواضعة لتوطيد حكم مسقط في الشرق الافريقي... وكانت اعماله بمثابة دعامة اساسية ارتكز عليها خلفاؤه من بعده، فقد نجح سعيد بن سلطان في تأسيس امبراطورية عربية افريقية – اسيوية متحدة ازدهرت في التجارة كثيرا، وقد اعترفت الممتلكات الافريقية بسيادة الامام احمد بن سعيد، وانه لم يفرض علاقة حربية بين الطرفين، بل كان يرى في العلاقة الاقتصادية ضمانة لاستمرار الصلات القوية بين عمان والسواحل الافريقية، لا سيما وان تلك السواحل كانت متفوقة بخيراتها ومواردها اكثر مما كان عليه اقليم عمان، فليس من المعقول ان يقتنع حكام عمان بحكم ضعيف عليها.

لقد تولى السيد سعيد بن سلطان حكم عمان ١٨٠٦–١٨٥٦م، ومورس التحول الايديولوجي في عهده من الناحية الدينية الى الناحية السياسية، وأخذ ببناء سياسة افريقية واضحة المعالم. وعمل على نقل مركز حكمه الى زنجبار بعد جهوده في السيطرة الكاملة على شرقي افريقيا، أي نقل عاصمته من مسقط الى افريقيا، وما لبث ان واجه بعد سنة: حركة انفصالية تزعمها المزروعيون في ممباسا، وهي حركة تمرد بعد انتزاع المدينة من ايدي النبهانيين.

ووجد سعيد ان السيطرة العمانية لن تتم دون القضاء المبرم على الاسرة المزروعية في ممباسا، وخاصة عندما حكمها عبدالله بن محمد المزروعي في عام ١٨١٤ الذي اتبع سياسة اسلافه في الانفصال عن مسقط، وتوفي عام ١٨٢٠. خطط السيد سعيد بن سلطان للقضاء على الاسرة المزروعية في ممباسا، ومارس حصاراً اقتصادياً عليها بتحريم التجارة معها، ومع من يحاول الانفصال عن سيطرة دولته، ثم تبع ذلك بممارسة القوة المسلحة، فنجح في اعادة بعض المدن الى سيطرته فضلاً عن جزيرة بات التي اعاد اليها حكم الاسرة النبهانية، لإعادة الانقسام والصراع بينهم وبين المزارعة بهدف اضعافهما والسيطرة على السواحل الافريقية،وعليه فقد طلب المزارعة الحماية البريطانية خوفاً من التهديدات العمانية عام ١٨٢٣م، ولكن بريطانيا تراخت في بداية الامر بتنفيذ الطلب لعدم تقديرها الاهمية الاستراتيجية لتلك السواحل. وقد اخطأ المزارعة في التقدير، وذلك للعلاقة الوطيدة بين مسقط والانكليز الذين نفذوا طلب المزارعة، وفرضت الحماية البريطانية على ممباسا، وبدأت التدخلات البريطانية سافرة في السواحل الافريقية، ثم بدأت القوات البريطانية تنسحب من ممباسا عام ١٨٢٦م، فأذعن المزروعيون للاعتراف بالسيادة العمانية عليهم بعد استيلاء السيد سعيد على قلاع المدينة وحصونها واقتسمت الممتلكات والمقاطعات بين البوسعيديين والمزروعيين.

وفي عام ١٨٢٩م، قام السيد سعيد بحملة على ممباسا ولكن لم يحقق مكاسب سياسية أو استراتيجية نظرا للتحرشات السعودية على المقاطعات العمانية، على الرغم من انه كان يحلم بتأسيس دولة بحرية تمتد بين عمان وزنجبار، ولكن وطأة الاطماع الاقليمية والانقسامات السياسية، فضلاً عن تهديدات بريطانيا وفرنسا ونفوذهما حالت جميعها دون تحقيق حلمه الكبير، ولكن مغامراته ستنجح في عام ١٨٣٧م اثر وفاة الشيخ سالم المزروعي عام ١٨٣٥م، فاستولى السيد سعيد على حصون مهمة على طول الساحل الشرقي لافريقيا، ونكل بالمزروعيين وشتت بقاياهم، من خلال مساعدة ابنه الكبير خالد الذي كان حاكماً في زنجبار نيابة عنه.

لقد اتخذ السيد سعيد من زنجبار قاعدة له في السنوات السابقة بعد الانتقال من مسقط، وذلك لاهمية موقعها واقتصادياتها، وهدوئها السياسي مقارنة بتعقيدات مسقط الداخلية في الحكم المحلي والمشاكل الاقليمية التي اثارها بوجهه

كل من السعوديين والقواسم وهجوماتهم على مقاطعاته. هكذا، اصبحت زنجبار عاصمة جديدة لدولة عربية جديدة بنيت على أسس سياسية للسلطنة التي قامت على أكتاف البوسعيديين في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

نظام الحكم لدولة البوسعيد:

لم يختلف ذلك النظام كثيراً عن ذلك الذي كان متبعا في مسقط من حيث بساطة الاعراف الادارية والتشكيلات الاقليمية التي ادارها السيد سعيد، وقد ظهر انه امتلك مقاطعات شاسعة في شرقي افريقيا، استطاع ان يعين في كل مقاطعة حاكما محليا من ابناء البلاد، يدين الجميع له بالتبعية، وكثيرا ما كان يستبدلهم اذا شعر بفقدان الثقة بهم. كان يمدهم بحاميات عسكرية للحكام المحليين مهمة توزيع الحاميات من اجل النفوذ والاتساع.

اما قضائيا، فكان الجهاز القضائي مبسطاً جداً، اذ اعتمد القرآن الكريم اصلاً للتشريعات ومصدراً للاحكام. كان السلطان السيد سعيد يحكم في القضايا الكبرى، ويقوم بنفسه بذلك. اما القضايا الاقل اهمية، فكان ابنه الكبير خالد يتولى انجازها، أو انها تكون من نصيب حاكم زنجبار. اما القضايا العادية، فانها تترك للقضاة الذين ينصبهم السيد سعيد لهذا الغرض، وخاصة المنازعات التجارية واليومية.

وقد تطور نظام الحكم هناك اثر التوسع الكبير في نشاطات الدولة وقطاعات المجتمع. وكانت النشاطات الاقتصادية قد ميزت على نحو واضح كلاً من الدولة والمجتمع عصر ذاك... ولم تسلم الدولة من معارضة للحكم الابو سعيدي، فكان يلجأ السيد سعيد الى القوة العسكرية لقمع التمردات والقضاء على الاضطرابات، ولكنه كان يلجأ دوماً الى سياسة الليونة واستخدام الطرق السلمية لضمان استقرار الحياة الاقتصادية وازدهارها. وهكذا نجح الرجل اقتصاديا وفشل سياسيا وعسكريا.

لقد تكبد نظام الحكم الالبوسعيدي في زنجبار تضحيات مادية كبرى نتيجة اشتراكه مع بريطانيا في قمع تجارة الرقيق التي كانت رائجة على مدى قرون طويلة وذلك من خلال توقيع معاهدة مشتركة بين الطرفين عام ١٨٢٢م تقضي بتحريم بيع الرقيق للدول المسيحية ومصادرة السفن التي تشتغل بتلك التجارة

البشعة. وقد رفض السيد سعيد تسلم اية تعويضات من الحكومة البريطانية نتيجة خسائره الفادحة اثر تطبيق معاهدات الغاء تجارة الرقيق... بل اشتهر عنه انه اتصف بكرم عربي من خلال هداياه السخية التي اشتمل بعضها على سفن من اسطوله مثلاً!

ومن ابرز الاخطاء التي وقع بها نظام الحكم: تشجيعه الاجانب على الاقامة في بلاده، ومنحهم تسهيلات تجارية فتأسست قنصليات اجنبية في زنجبار، غدت مراكز حقيقية لعمليات في التدخل السياسي والعسكري السافر.. وعملت – فيما بعد – على اقتسام السلطنة العربية واستعمار شرقي افريقيا، وازدهار النشاطات التبشيرية والاستكشافية وتفاقم الاطماع الاقتصادية... ثم دخول امريكا للميدان ايضا، وعقد المعاهدات مع الولايات المتحدة الامريكية التي نشطت كثيرا في تجارة الرقيق، وقد بقي النفوذ البريطاني فعالاً وازداد قوة خلال العهد الفيكتوري، في حين تخوف السيد من النفوذ الفرنسي بالرغم من صداقته الحميمة مع الانكليز.

ومهما يكن من امر فإن السيد سعيد أثر تأثيراً بالغاً في شرقي افريقيا اثر بناء سلطنته العربية فيها اكثر بكثير من ممتلكاته الاصلية في عمان، ولكنه في المحصلة فشل في الحفاظ عليها اولاً، ثم فشل في الابقاء على امبراطوريته الافريقية ردحا طويلا من الزمن.

وعلينا ان نجمل ابرز المواصفات التاريخية للنظام العربي الذي تكون في زنجبار وشرقي افريقيا من قبل العمانيين.

١– يشكل هذا التكوين السياسي العربي في مجمله ظاهرة جديدة في تاريخ العرب الحديث عندما اسس العمانيون دولتهم البحرية الآسيو – افريقية الاستراتيجية.

٢– لقد نجح السيد سعيد بن سلطان ببناء اقتصاد دولي كبير له تأثيره الواسع في البحار الشرقية من خلال مسقط – زنجبار، وكان لذلك امتداد لبقية المراكز الحيوية: مدغشقر وموزنبيق وجزر القمر.

٣– لقد استقر على امتداد تلك السواحل من خلال مركزية زنجبار: المئات من عرب عمان، مما قاد الى تغير في البنية السكانية لصالح الاقتصاديات

العربية التي اثرت ايضاً في الدواخل الافريقية على مر السنين، فقامت عدة مستوطنات عربية كانت ملكياتها تعود الى السلطنة العربية.

٤– لم يكن هناك أية قوى سياسية او عسكرية في اطار حماية المصالح العربية سوى القوى الاقتصادية التي حددت اتساع الدولة العربية في الاراضي الافريقية من خلال البحر. وقد تميزت انظمتها الاقتصادية بالمرونة، وتبسيط الضرائب على الواردات والصادرات.

٥– تميز عهد السلطنة العربية في زنجبار بالنظام المبسط للنقد بديلاً عما تعارف عليه الافارقة من نقود اوروبية متنوعة.

٦– شجعت السلطنة العربية الزراعة في زنجبار والممتلكات الافريقية من جزر وسواحل، وخصوصا قصب السكر والقرنفل.

٧– تحولت زنجبار الى أعظم ميناء تجاري في المحيط الهندي، وغدت مستودعا رئيسيا للتجارة الافرو–آسيوية، وبدت من ابرز الاسواق الدولية في تجارة المطاط والعاج وبضائع استراتيجية اخرى*.

---

* لقد اعتمدت في كتابة هذا الموضوع على مراجع تاريخية مهمة مثل:

– د. جمال زكريا قاسم في كتابيه: «دولة بوسعيد في عمان وشرقي افريقيا» ١٧٤١–١٨٦١ القاهرة ١٩٦٨. «الخليج العربي: دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الاوروبي ١٥٠٧–١٨٤٠، القاهرة، ١٩٨٥.

- Sir Reginald Coupland., East Africa and its invadess from Earliest Time to the Death of Seyyid Said in 1856, London, 1938.

- رودولف سعيد روت، سلطنة عمان خلال السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١–١٨٥٦، ترجمة: عبد المجيد حسيب القيسي، جامعة البصرة، ١٩٨٣. (في نهايته قائمة ممتازة بالمصادر الاجنبية القديمة في تاريخ عمان وزنجبار).

اما ابرز المصادر العربية القديمة

– نور الدين السالمي، تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان، القاهرة، ١٩٦١.

انظر ايضاً:

Norman R. Rennett, A History of Arab State of Zanzibar, London, 1978.

اضافة الى ما كتبه لوريمر في «دليل الخليج»:

J. G. Lorimar, Gezetteer of.. Gulf, Oman and Central Arabia, Vol., (= Historical Part), London, 1970.

٢- الساحل الأخضر: إقليم بين اتحادين : اتحاد القواسم + اتحاد بني ياس:-

مقدمة:-

لقد تميز جنوب الساحل الغربي للخليج العربي (= الساحل الاخضر) بحياته وتركيبته القبلية المعقدة التي تؤلفها عشرات العشائر العربية والتي يرتبط بعضها ببعض من خلال «الزعامات القبلية الحاكمة» التي تدين بالولاء كلياً أو جزئياً للقبيلة الكبرى في المنطقة. وقد تطورت البنية القبلية - العربية في هذه المنطقة عبر مئات السنين حتى وصلت الى الحالة التي تمخضت عنها التواريخ الحديثة خلال القرنين المتأخرين (= القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر)، وما نتج عن تلك التواريخ من افرازات خلال التاريخ المعاصر (= القرن العشرون).

لنتوقف أدناه على دراسة بنية قبيلتين عربيتين أساسيتين شكلتا خلال القرن الثامن عشر، اتحاداً تاريخياً متفاعلاً في المنطقة المذكورة أعلاه (التي تبرزها اليوم أراضي دولة الامارات العربية المتحدة*) ، وهما:

١- القواسم.

٢- بنو ياس.

لقد برز اتحادان كبيران لدى كل من القبيلتين الى الوجود، واستمرا قرابة منتصف القرن الثامن عشر، وتقاسما السلطة السياسية جغرافياً: القواسم شمالاً وبنوياس جنوباً نحو الساحل العماني.

١ / اتحاد القواسم:-

كانت هناك ثمة عوامل تاريخية وراء نشوء هذا «الاتحاد» القبلي، نجملها في ما يأتي :

١- إنكسار التفوق البرتغالي - البحري في الخليج العربي منذ مطلع القرن الثامن عشر، اذ كان البرتغاليون يسعون لتكوين «دولة بحرية كبرى» في المنطقة منذ مطلع القرن السادس عشر.

---

* انظر: فالح حنظل، المفصل في تاريخ الامارات العربية (جزءان)، نشر لجنة التراث والتاريخ بدولة الامارات العربية المتحدة، ١٩٨٣.

٢- ظهور قوى أوربية جديدة في البحار الشرقية/ العربية كالهولنديين والبلجيك والانكليز والفرنسيين ... تلك القوى التي اهتمت بالاقتصاديات كثيراً والتي سمحت بتشكيل قوى أقليمية عربية تمارس نشاطها الاقليمي الى جانب القوى الاوربية الكبيرة، دولاً وشركات كبرى تلك التي مارست نشاطاً دولياً من خلال الاستحواذ على تجارة الشرق.

٣- الفراغ السياسي الذي حصل بعد انهيار دولة اليعاربة في عمان، والتي وقفت بوجه الامتدادات البرتغالية في البحر... ولكن أنهاها التمزق الداخلي، وحدّة الانقسام الثنائي القبلي (= الهناوية × الغفارية).

٤- قيام دولة البوسعيد في عمان من خلال الصراع الداخلي والخارجي ضد ايران معاً، جعل المعارضة السياسية ضد الحكم الجديد تتكتل وتتجمع وتتوحد في الشمال مسببة الفرز الطبيعي لنشأة الاتحاد القاسمي.

٥- انهيار قوى نادرشاه الحربية بعد فشل حصاره للموصل شمال العراق عام ١٧٤٣م حربياً، وبعد وفاة نادرشاه بالذات عام ١٧٤٧م سياسياً؛ ذلك الانهيار الذي خلق حالة فوضى وتخلخل أمني في ايران... بدأ القواسم يسيطرون على أجزاء من الاسطول الفارسي، ويؤسسون لهم قوة بحرية في الخليج العربي.

التكوين السياسي:-

لقد انتشر القواسم في مدن كرأس الخيمة والشارقة وأم القوين وجزيرة الحمراء وغيرها من المدن الساحلية التي تنوعت فيها المجاميع القبلية أو المنتمية للبنية الاتحادية للقواسم بشكل عجيب... أولئك الذين اتصفوا بثنائية مزدوجة في الحياة، فقد كانوا قوة برية الى جانب قوتهم البحرية التي شكلت تفوقاً واضحا على المستوى الاقليمي خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

أما أصلهم التاريخي، فقد اختلفت المصادر التاريخية حول ذلك، ولكن تشير الأغلبية منها، الى أنهم من عرب الهولة أو من نزار وهم قدماء انتشروا بين القبائل العربية واختلطوا بها على كلا الساحلين: الشرقي والغربي من الخليج العربي. وقد برزت زعامتهم على عهد زعيمهم كايد بن عدوان في أوائل القرن السابع عشر،

ولكن ظهورهم يكتنفه الغموض... وعلينا ان نوضح نقطة مهمة، ذلك أن ظهور القواسم قد جرى خلال القرن السابع عشر. أما ظهور اتحاد القواسم كان خلال القرن الثامن عشر، ذلك «الاتحاد» الذي يعد من أكبر التجمعات القبلية العربية التي شهدتها منطقة الخلية العربي.

وتتباين الروايات التاريخية حول المكان الذي انطلق منه القواسم، وتنسب احدى الروايات ان انتماء القواسم الأول كان للشيخ قاسم الذي بنى مدينة رأس الخيمة، والمقصود خيمته التي نصبها عند الساحل العربي.. في حين ان رواية أخرى تنسب القواسم الى كايد بن عدوان، لجبروته وقهره. ويبدو ان ذلك التأسيس القبلي الأول قد ساعد بقوته على إجراء المزيد من التجمعات والتكتلات حول الراية القاسمية والتي ستساهم في بناء تاريخ عربي/ قبلي لمنطقة الساحل الاخضر خلال القرن الثامن عشر الذي شهد الخليج العربي أبان بعض عقوده تخلخلاً سياسياً كبيراً.

لقد اشترك القواسم أيضا في بناء تاريخ عمان منذ عهد اليعاربة، كما استعان بهم أحمد بن سعيد مؤسس دولة الالبو سعيد باعتبارهم أولئك الذين عاصروا سقوط اليعاربة ونشأة البوسعيد. أما نفوذ القواسم فقد امتد منذ منتصف القرن الثامن عشر من رأس مسندم حتى دبي، فضلاً عن سيطرتهم على بعض الموانئ والجزر الخليجية. وكان لهم اسطولهم الكبير، فقد وضعوا أيديهم على السفن الفارسية اضافة الى سيطرتهم على بعض السفن الاوربية.

تعاقب على المشيخة والحكم بعد وفاة الشيخ رحمه بن مطر في عام ١٧٥٨م الشيخ راشد بن مطر، وبقي في زعامة الاتحاد القاسمي حتى سنة ١٧٧٧، وتمكن القواسم استغلال الضعف الاقليمي بالوصول الى السواحل الشرقية للخليج العربي بعد ازدياد نفوذهم السياسي، وتحالف الشيخ راشد بن مطر مع الامام أحمد بن سعيد ضد الفرس ثم اختلفا وتنازعا في عام ١٧٧٥م.

بعد ثلاثين سنة من حكم اتحاد القواسم القبائلي وتنازل الشيخ راشد بن مطر عن المشيخة لابنه صقر الذي استمر في حكم ذلك الاتحاد للفترة ١٧٧٧-١٨٠٣م، وحينما اعتزل الاخير وصل الى الزعامة الشيخ سلطان بن صقر الذي تمتع بحكم طويل مقارنة بغيره من الشيوخ، اذ حكم أكثر من نصف قرن، أي للفترة ١٨٠٣-

١٨٦٦م. وقد شهد عهدُه أحداثاً خطيرة في تاريخ المنطقة، وتخللته فراغات سياسية، اذ كان قد عزله السعوديون، فاتجه للتعاون مع السيد سعيد سلطان مسقط، واستطاع الشيخ سلطان بن صقر من استرداد حكمه بعد فراره من سجنه في الدرعية عاصمة السعوديين، ووصل الى العاصمة مسقط عن طريق اليمن. وعلى الرغم من عودته فانه لم يستطع اعادة تشكيل الاتحاد القاسمي الى سابق وحدته.

ظهرت للقواسم زعامتان احداهما في رأس الخيمة التي وقف على رأسها الشيخ حسن بن رحمة، وثانيهما في الشارقة التي استقر بها الشيخ سلطان بن صقر منذ عام ١٨١٦م، واستمر الوضع قائماً حيث نزل الانكليز في رأس الخيمة عام ١٨١٩م. وكانت القوة البحرية الحقيقية للقواسم قد تطورت وازدهرت كثيراً للفترة ١٧٤٧– ١٨١٩م اذ أقلقوا حركة السفن البريطانية، وهاجموا أية سفينة تحمل العلم البريطاني... ولقد تحدّوا النفوذ البريطاني في المنطقة. وامتاز القواسم بالصلابة والشجاعة والمغامرة، فاكدوا سيادتهم على مناطق نفوذهم في الخليج العربي.

السلطة والصراعات:–

أما السلطة، فلم يمارس الزعماء اي استبداد، وكان الشيخ الاعلى لاتحاد القواسم بيده السلطة العليا، وكان لكل ميناء شيخه القاسمي... وهناك مجلس كبير يرأسه الشيخ الاعلى، ويضم الشيوخ التابعين وكبار رجال القبائل. أما نظام الحكم، فقد كانت تسيره مجموعة من الاعراف والتقاليد القبلية. ويسيطر الشيخ القاسمي على النواحي الاقتصادية والعسكرية التي تشكل قاعدة أساسية لقوته السياسية، وذلك بهيمنته على المراكز التجارية والموانئ.

لقد اعتمد القواسم على البحر في ممارسة نشاطاتهم السياسية والاقتصادية، وتميزوا بطابعهم العسكري الذي عمل على حمايتهم، ومن أبرز مواردهم الاقتصادية صيد اللؤلؤ والاسماك والتجارة البعيدة. ويمتعنا الرحالة الدانماركي كريستيان نيبور بحديثه المسهب عن القواسم ونشاطاتهم الحيوية عند السواحل التي تبلورت عندها تشكيلاتهم الاجتماعية * . كما ويحدثنا ايضا الرحالة

---

* عن مواصفاتهم، انظر. سالم بن محمود السيابي، ايضاح المعالم في تاريخ القواسم، دمشق، ١٩٧٦.

البريطاني بيكينغهام الذي زار منطقتهم في مطلع القرن التاسع عشر عن صفاتهم الخلقية ومهاراتهم وبعض وقائعهم المشهورة.

تقلد حكم اتحاد القواسم زعيمهم حسن بن رحمة بعد ان اطاح السعوديون بالشيخ سلطان بن صقر... وكان عهده امتداداً طبيعياً لمجمل نشاطات القواسم التي سجل عنها العديد من الكتاب والرحالة الاجانب كتاباتهم التي اتصفت بعضها بالموضوعية والبعض الآخر بالكراهية والتحامل. لقد وصفوا بنشاطهم السلمي قبل ان يطبعوا اتحادهم بالطابع العسكري اثر التوسع الاستعماري وتأسيس الشركات التجارية الكبيرة... وكثيراً ما وصفت النشاطات التجارية للقواسم، بأنها أعمال قرصنة وسلب ونهب، وخاصة اذا ما علمنا بأن تلك «الاعمال» وجهت أساساً ضد المغامرات البحرية للانكليز والهولنديين والفرنسيين الذين عبثوا بالمقدرات الاقتصادية للمنطقة، ومارسوا هم بالذات ظاهرة «القرصنة» في المحيط الهندي وبحار الشرق منذ الامتداد البرتغالي في القرن السادس عشر.

وعليه، فان العمليات العسكرية للقواسم كانت بمثابة حروب رسمية في الدفاع عن الأرض والمياه الاقليمية. اذ كان القواسم قد تعرضوا لهجمات بريطانية عمانية تحملت رأس الخيمة ثقلها الرئيسي... ووقّع شيوخ الساحل اتفاقية السلم مع بريطانيا وعندما توفي الشيخ سلطان بن صقر عام ١٨٤٥، خلفه الشيخ ابراهيم بن سلطان ثم الشيخ خالد بن سلطان بعد ١٨٦٧م. وبعد توقيع الهدنة، برزت للوجود امارات قبلية جديدة وقعت على الهدنة، فكانت هناك إمارتا: الحمرية وعجمان والاخيرة حكمها النعيم، كما وأسس بنوعلي امارة في أم القيوين، فنجحت بريطانيا في ترتيب تشكيلة من الدويلات القبلية الصغيرة (ذات السيادة والاستقلال) والتي دخلت في منازعات فيما بينها على أشبار من الأرض، والتسارع لتقديم الولاء لبريطانيا بدل صيغة التوحد الاقليمي وفرض السيادة العربية الحقيقية!

٢/ إتحاد بنو ياس:-

هو الاتحاد القبلي الثاني الممتد على الساحل الجنوبي - الغربي من الخليج العربي ابتداء من جنوبي قطر الى دبي، وتزعمته عشيرة بني ياس التي برزت للرئاسة منذ مطلع القرن السابع عشر، وكان اعتمادها على القوة البرية لا البحرية في بداية الامر ولا سيما من خلال ادارة آل بو فلاح القبلية للشؤون السياسية، ثم بدأت قوتها البحرية تظهر للوجود شيئاً فشيئاً عندما اتخذوا جزيرة أبو ظبي قاعدة

مركزية لهم، ويكاد يكون التنظيم القبلي لهذا الاتحاد يشابه كثيراً ذاك الذي وجدناه عند القواسم، علماً بأن بني ياس هم من أضخم القبائل في ذلك الاتحاد.

يعدّ الشيخ ياس هو المؤسس الأوّل للتكوين الاماراتي / القبائلي، ثم الشيخ فلاح الذي ينتسب إليه آل نهيان. ولم يرتبط كل من الاتحادين: القاسمي والياسوي فيما بينهما على الرغم من التحديّات القوية والمؤثرة التي كانت تهدّد المنطقة بالكامل خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ويفسّر المؤرخ جمال زكريا ذلك برجوعه الى أن انتماء بني ياس الى الكتلة الهناوية وإنتماء القواسم الى الكتلة الغافرية *، وقد أدّى ذلك كله الى قيام صراعات فيما بينهم، وإن كانت المصالح المشتركة قد حتمت في أحيان كثيرة قيام علاقات حسن الجوار بين الاتحاديين القائمين.

ويتكون اتحاد بني ياس من عدة من القبائل والفصائل والعشائر، أبرزها:

١- **البو فلاح**: المتألفة من بطون متعددة أبرزها آل نهيان في أبي ظبي وآل محمد في ليوا.

٢- **الرواشد**: المتألفة من أكبر أقسام الاتحاد سكانيا، وينتمي اليه آل مكتوم حكام دبي أهم فروع الرواشد.

ويشتمل الاتحاد على مجموعات قبائلية عديدة، مثل: الهرامل والمناصير والمحارقة والقبيسات والرميثات والمزاريع وغيرها.

ويعتبر الاتحاد المذكور صاحب أقوى التنظيمات القبلية تماسكاً وتحالفاً وزعامة موحدة منذ عهد بعيد، أما الاختلافات بينه وبين إتحاد القواسم، فبنو ياس يعتمدون البر أساساً لهم في التعامل مع الحياة، في حين يعتمد القواسم البحر أساساً في بناء إتحادهم وإقتصادهم.

لقد ساهم بنو ياس في التصّدي للسيطرة البرتغالية بالاتفاق مع اليعاربة خلال القرن السابع عشر، وبخاصة في تعقّب السفن البرتغالية وطردهم من مسقط في عام ١٦٤٩ نحو السواحل الهندية والافريقية، ومن المحتمل أن تكون أسرة المزروعي أحد فروع بني ياس، والذين وصلوا الى ممباسا مذ أزبدتهم موجة الصراع المحتدم بين العرب والبرتغاليين.

---

* د. جمال زكريا قاسم، الخليج العربي..، ١٩٨٥، ص٢٥٧.

وبعد الانهيار البرتغالي، إنفسح المجال أمام بنو ياس لتكوين تنظيمات سياسية مستقرّة إنطلاقاً من أبو ظبي التي إكتشفت فيها مياه صالحة للشرب. وقد برز عيسى بن نهيان بعد أن دعا الى الاستقرار على السواحل. وتعرّض الاتحاد في عهد ولده دياب الى إضطرابات أسروية عنيفة قادت الى إغتيال دياب في عام ١٧٩٣م من قبل إبن أخيه هزاع بن فايد. فإنقسم تحالف الاتحاد الى قسمين: فريق يؤيد هزاعاً، والفريق الآخر يؤيد شخبوط بن دياب، فنجح إتباع الاخير في إعادة الوحدة الداخلية الداخلية لبني ياس عندما تولى الزعامة السياسية القبلية الشيخ شخبوط بن دياب في عام ١٧٩٥م الذي حكم حتى سنة ١٨١٦م. وكان من أبرز اعماله: الانتقال الى جزيرة أبي ظبي بوصفها مركزاً للحكم الاتحادي بدلاً من ليوا، فتطوّرت المنطقة الساحلية كثيراً. وإنتعشت الحياة الاقتصادية للاتحاد، وتبلور الوضع عن تحالف قوي من القبائل الرئيسية في تلك المنطقة، وعلى الاخص بين بني ياس والظواهر والعوامر والمناصير... فأدى ذلك كله الى توسيع رقعة الاتحاد كثيراً.

وفي عام ١٨١٦م تنازل الشيخ شخبوط عن الحكم لابنه محمد الذي حكم إمارة أبو ظبي لمدة عامين ١٨١٦ – ١٨١٨م، ثم خلفه أخوه صحنون بن شخبوط الذي حكم للفترة ١٨١٨ – ١٨٣٣م، ثم خليفة بن شخبوط الذي حكم للفترة ١٨٣٣ – ١٨٤٥م.

إستنتاجات ومقارنات:

نستنتج من خلال المقارنة أن الاتحادين الكبيرين: القواسم وبني ياس قد تكوّنا تاريخياً على مبدأ التحالف العربي/ القبلي. وقد بدأ تفككهما مع بداية الزحف البريطاني الى منطقة الخليج العربي. إذ كان من الممكن أن تغدو التحالفات القديمة تكوينات دول كبيرة مع تطور الحياة وآلياتها في الوعي والاستنارة، ولكن مع هجمة الاستعمار البريطاني ظهر التفكك على حساب الصراع المحلي والقبلي، وبدأت بالظهور تجمعات قبلية تنتمي الى أسس جغرافية/ محليّة غير اقتصادية.. أخذت تبتعد عن مفهوم التحالف الاكبر تحت زعامة عشائرية قوية ومتنفّذة *.

* د. جمال زكريا قاسم، «الاسس التاريخية لوحدة الامارات العربية ودور الاستعمار في تجزئتها»، في أعمال ندوة التجارب الوحدوية العربية المعاصرة: تجربة دولة الامارات العربية المتحدة، (بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية)، مارس/ آذار ١٩٨١.

هكذا، فإن الاتحاد القاسمي، ما لبث ان تفكك وتشرذمت عناصره، لكي تظهر على أنقاضه مجموعة من «المشيخات» عقب الحملة البريطانية العسكرية في عام ١٨١٩م، فظهرت «إمارة الشارقة» التي ضمّت إليها لفترة من الزمن إمارة رأس الخيمة، وظهرت مشيخة أم القوين وإمارة عجمان وامارة أبو ظبي لآل نهيان وأبو ظبي لآل بو فلاسة. ثم إندلع صراع بين الاتحادين السابقين: القواسم وبني ياس، إثر تفاقم الاسباب الداخلية والعوامل التي أذكتها الخلافات المحلية.. فكانت هناك نزاعات قبلية متنوعة بين الامارات الصغيرة. وبقيت المواقف السياسية متوترة ردحاً طويلاً من الزمن.

نتج عن ذلك كله: المزيد من التفكك السياسي والتجزؤ الاقليمي والتشرذم القبلي (= الاجتماعي) والضعف الاقتصادي (= البري+ البحري) لصالح القوى الاستعمارية البريطانية.. فضلاً عن المزيد من الهجرات السكانية، والخسائر المادية والانعزال الاجتماعي، وتنافر الكيانات الهزيلة التي عشّشت بريطانيا في خضّم مشاكلها الاقليمية المتنوعة. وبقيت المنطقة على هذه الوضعية حتى قيام إتحاد الامارات العربية الذي جمع المشيخات من جديد في كيان سياسي واحد خلال النصف الثاني من القرن العشرين *.

---

* لا بد من الاشارة الى أبرز المراجع العربية المختصة بهذا الموضوع على درجة من الرصانة واللقانة والاهتمام.-

-- د. جمال زكريا قاسم، الخليج العربي: دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الاوروبي ١٥٠٧-١٨٤٠، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٢٤٠- ٢٥٢.

-- د. صالح محمد العابد، دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧- ١٨٢٠، بغداد، ١٩٧٦.

-- د. عبد الامير محمد أمين، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن، بغداد، ١٩٦٦.

اضافة الى كتابات المؤرخين. أبو حاكمه وعبد الكريم غرايبه وعمر عبد العزيز عمر... أما أبرز المصادر الاوروبية، فهي تلك التي كتبها: كريستيان نيبور و.ج.ج لوريمر وبيكينغهام.

-- راجع ايضاً جي. بي. كيلي، الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية، تعريب وتعليق. خيري حماد، بيروت، ١٩٧١، وانظر؛

John Duke Anthony, "The Union of the Arab Amirates", Middle East Jaurnal, Summer, 1972.

٣- الاحساء والحليات القبلية- العربية:-

دخل العثمانيون القطيف، أي القسم الشمالي من الاحساء عام ١٥٥٠م، بعد ان تمكن العثمانيون من دخول بغداد عام ١٥٣٤م، وركزوا جلّ نفوذهم في البصرة وجنوبي العراق عام ١٥٤٦م. إن وصول اليد العثمانية القوية الى القطيف، كان قد تم عن طريق ولاية البصرة براً، ولم يتم من خلال البحار الجنوبية، اذ تعد القطيف هي القسم الشمالي من الاحساء الذي استند في شرعيته العثمانية على قوى جنوبي العراق. ومن خلال القطيف، امتد العثمانيون نحو الهفوف. القسم الجنوبي من الاحساء.

السؤال الآن: ما التحديد الجغرافي والاداري لاقليم الاحساء؟

هو اقليم يمتد على الشريط الساحلي الغربي للخليج العربي، ويقع «من جنوبي الكويت حتى قطر وحدود عمان وصحراء الجافورة شرقاً، والى أرض الصمان غرباً بتحديد دليل لوريمر عن «الخليج العربي»، وغيره من المؤرخين المحليين *. لقد امتد الحكم العثماني في سنجق الحسا على مدى مرحلتين عثمانيتين مباشرتين: الاولى منذ دخول العثمانيين منطقة القطيف عام ١٥٥٠م. أما الثانية امتدادهم في منطقة الهفوف عام ١٥٥٥م. أما الجزء الجنوبي، فقد تم جلاؤهم عنه بعد سيطرة الخوالد عليه عام ١٦٦٩م. أي على يد آل حميد من بني خالد الذين استولوا على السلطة وانحسروا بأقليمهم التابع الى مركزه الاقليمي في العراق. فهو إذاً جزء من الاطراف، اذ غدت سواحل الخليج العربي كلها أطرافاً، ارتبطت ارتباطاً جذرياً بالمركز الاقليمي أي «الدواخل»، في خضم السيطرة العثمانية. وعلينا ان نتساءل الآن: كيف بدأت التشكيلات القبلية – الشياخية؟

لقد بدأت أصلا مع هجرة «العتوب»، فمن هم «العتوب»؟

لم يكشف التاريخ بوضوح عن جذرهم أو أصلهم! فلا يمكن تحديد مسارهم بدقة ولا يمكننا تحديد سنة هجرتهم بصورة مؤكدة.

---

* أبرزهم: محمد الانصاري الاحسائي والجزيري الحنبلي والفاخري وعثمان بن سند البصري وابراهيم فصيح الحيدري وغيرهم.

العتب : مصطلح فعل معناه: الاكثار من الترحال من مكان الى آخر. وقد اطلق مصطلح «العتوب» على الجماعات المرتحلة من منطقة الهدارفي هضبة نجد، وهي الموطن الاصلي، اذ صادفهم قحط شديد، فسبب ذلك، هجرتهم نحو البحر، ومن هناك انطلقوا عبر البحر نحو جنوب العراق الذي وجدوا فيه أراضي زراعية صالحة للتوطن والحياة. وكان العتوب يؤلفون تحالفاً من الانساب المتباينة (برواية ابن سند البصري)، ولكن لم يستطع المؤرخون تحديد السنة أو الزمن الذي انطلقت فيه هجرة العتب، ولكن أقرب تاريخ لهجرتهم هو العقد التاسع من القرن الحادي عشر الميلادي/ العقد الثامن من القرن السابع عشر الميلادي.

لقد حدث ذلك كله، أثر الفراغ السياسي الكبير الذي عاشته الاقاليم التي كانت تدين بالولاء للامبراطورية العثمانية، والتي كان الضعف قد أصابها بعد اندحارها أمام جيوش قوى التحالف الاوربية عام ١٦٨٣م، وانحسار استراتيجياتها القوية في البحار الشرقية، وخصوصاً في الخليج العربي شرقاً.وقد افتقدت البصرة بوصفها منفذاً استراتيجياً قوياً وفعالاً مكانتها الاقليمية مذ أنهار حكم آل افراسياب الذين حكموا أقليم البصرة حقبة تقدر بثلاثة أرباع القرن للفترة ١٥٩٦ -١٦٦٨م.

هكذا بدأت هجرة العتوب الى الاطراف الجنوبية من العراق مذ أصاب الانحلال السياسي والاقتصادي ولاية البصرة، وما كان بطبيعة الحال كل ذلك ليحدث، لولا ضعف استراتيجية الدولة العثمانية في الجنوب، عند البحار العربية التي دافع العثمانيون عنها منذ منتصف القرن السادس عشر، وعلى مدى قرن كامل.

لقد برزت إمارة «الخوالد» العربية في أقليم الاحساء سنة ١٦٦٩م، أي بعد عدة شهور من انهيار قوة آل افراسياب في اقليم البصرة سنة ١٦٦٨م، وقد دامت إمارة «الخوالد» حتى عام ١٧٩٢م. أي حتى العقد الاخير من القرن الثامن عشر. وقد انهارت بفعل الضربات السعودية من هضبة نجد الغربية. ولم تأت الضربة من الشمال، أي من العراق لممتلكاته القديمة، أي أطرافه ولواحقه الجنوبية.

كان بنو خالد يمتدون في سيطرتهم على سواحل الخليج العربي (أقليم الاحساء) والذين احتضنوا العتوب المهاجرين ورعوهم.في كل الاماكن التي انتشروا فيها، أو حلّوا واستقروا بها من أقليمهم الواسع، وما أن حلت سنة

١٧٩٣م، حتى غدت الاحساء الواسعة عند نهاية القرن الثامن عشر: «امارة سعودية يحكمها أمير من غير أهلها» - كما يقول المؤرخ عبد الكريم غرايبة* - ، ضمن التغيرات السياسية والاجتماعية التي شهدتها مناطق متعددة في الجزيرة العربية، من ضمنها تهاوي إمارة بني خالد في الاحساء... أمام ضربات السعوديين، وانهيار قوتهم العسكرية في معركة غريل سنة ١٧٨٩م (أي خلال السنة التي اندلعت خلالها الثورة الفرنسية). ويتابع د. غرايبه قوله: «ولاول مرة في تاريخ الاحساء منذ صدر الاسلام تخضع الاحساء لحكام قادمين من الغرب. وكانت قد برزت إمارة محلية جديدة في المناطق الشرقية قبيل زوال امارة بني خالد، فقد استقر آل خليفة في الزبارة القطرية قادمين من الكويت عام ١٧٦٦م، وبعد عشرين سنة من ذلك قام آل خليفة بزعامة أحمد بن محمد بغزو البحرين وانتزاعها من العمانيين سنة ١٧٨٣م**.

لقد انقسم «الاحساء» أقليماً، واصطبغ مجتمعاً منذ ذلك الوقت بالقسمة والصبغة السعودية، ويدعى اليوم بـ «المنطقة الشرقية» من «المملكة العربية السعودية» بعد ان استطاعت إمارة آل السعود المنطلقة من الدرعية ان تضم إمارة حائل في الشمال، وتقهر حكامها من آل الرشيد، وتضم الحجاز وعسيراً ولواحقهما، والقضاء على أشراف مكة وحكام الاقاليم الاخرى***.

أما إنقسام اقليم الاحساء (أو كما يطلق عليه اسم أقليم الحسا) فكان قد حدث لأول مرة أيضاً، عندما فصل رأسه في البصرة عن جسمه الاقليمي الذي مزقته هجمات العتوب، فاستقر كل من آل الصباح في البصرة ثم في القرين (= الكويت)، وآل خليفة في الزبارة القطرية، ثم في البحرين سنة ١٧٨٣م. لقد هجر العتوب هضاب نجد الجرداء، ووصلوا البحر عند قطر عام ١٦٧٦م، ثم أخذوا ينتشرون ويستقرون مع أبرز عائلاتهم، وهي آل خليفة والزايد والجلاهمة قرب شط العرب، وفي المكان الذي يسمى اليوم بـ «أم قصر». وهناك عملوا بالبحر، وكان ذلك العمل

---

* د. عبد الكريم غرايبة، تاريخ العرب الحديث، ص ٦٠.

** المرجع نفسه، ص. ن.

*** راجع اخبار عسير وحكامها من آل عائض؛ واخبار الحركة الدينية الادريسية فيها عند عبد الكريم غرايبة، تاريخ العرب الحديث، ص ٢١٧-٢١٩.

آنذاك من الأعمال المألوفة والسائدة في خليج البصرة، كما يدل مجمل الاحداث التاريخية على ذلك.

كان من أبرز الدوافع والمبرّرات الاقتصادية وراء هجرة العتوب : انتشار الاسواق والتجارة وبيع اللؤلؤ في أماكن متعددة كالبحرين وقطر... ثم المنتجات الزراعية في اقليم البصرة. وهناك أسباب أخرى، اذ كان العتوب وراء حدوث مشكلات أمنية وإجتماعية متعددة، فكان استفحال أساليبهم سببا وراء تهجيرهم من قطر التي أمروا بمغادرتها بواسطة البحر، نحو الشمال حيث يقع جريان المياه العذبة، وتنتشر الاراضي الغنية بمحاصيلها الزراعية وخيراتها المتنوعة.

لقد ركب العتوب البحر، واخترقوا الخليج العربي شمالاً حتى نزلوا المخراق قرب الفاو عند البصرة، ولما لم تطب لهم طبيعة الحياة المدينية / الحضرية تحولوا نحو الصبيّة (شمال شرقي الكويت على بعد ١٦ ميلاً)، وقد لاحقتهم السلطات العثمانية بحجة ما أحدثوه من اعتداءات على القوافل، وخرقهم للقوانين الحكومية، واثارة القلاقل والاضطرابات الامنية ، فاضطروا الى الهجرة جنوباً، كي يحتضنهم الخوالد، ويسمحوا لهم بالاستقرار هناك بعد أن منحوهم اقطاعات كبرى من الأراضي اذ بدأوا يستحوذون على مسافات شاسعة بحكم توطّنهم الذي نشأ – كما رأينا – بسبب وجود عاملين أساسيين :

١– ضعف الاستراتيجية العثمانية بعد انحسار مركزيتها الادارية القوية على الاقاليم المهمة.

٢– ضعف السياسة الاقليمية لولاية البصرة في جنوبي العراق، وتأثر اقتصادياتها بذلك.

فكان ان فتح المجال على مصراعين لتشكيل ادارات محلية، وحكومات لا مركزية، وكان من نصيب سواحل الخليج العربي : ولادة نمطية متشابهة من الشياخات القبلية في كل من الكويت والبحرين وقطر عند مطلع القرن الثامن عشر بعد استقرار الاوضاع اللامركزية على حساب التجزؤ الخليجي، وضعف ولاية البصرة ولواحقها الاقليمية التي تفككت يوما بعد آخر الى «وحدات» أو «قسمات» ضعيفة (= كانتونات) أخذ تتوسع شيئاً فشيئاً لتغدو في الصورة التي آلت اليها أوضاعها السياسية في القرن العشرين... في حين أخذ العتوب يبتلعون أماكن

أخرى، فقد استطاعوا – مثلا – «أن يضموا جزيرة فيلكا التي كانت مستقلة عن الكويت إدارياً)*.

وساهم الاستعمار البريطاني بصورة خاصة، مساهمة فعالة في تكريس التجزؤ والانقسام والانكسار، أمام ضعف القوى العثمانية، وعجز المجتمع العربي عن التصدي والمجابهة الحقيقية لتصحيح تاريخه العربي، وتقويم مساره الطبيعي.

لقد حدثت تطورات مهمة في وضع الاوروبيين في الشرق خلال منتصف القرن الثامن عشر، كان لها آثارها على الخليج العربي، اذ شرع الهولنديون والانكليز في تنفيذ مشاريعهم التوسعية، الاستعمارية جنبا الى جنب مع ظهور عدد من القبائل العربية ذات القوة البحرية الفعالة والحيوية على الساحل الشرقي من الخليج العربي ... وفي المناطق المجاورة من بوشهر خاصة. كان هناك عدد من رؤساء القبائل العربية الصغيرة ممن اتصفوا بالجرأة والشجاعة منهم: شيخ ناصر حاكم بوشهر، ومنهم أيضا: مير ناصر وولديه: مير حسن ومير مهنا حكام جزيرة خارك (= خرج) وميناء بندر ريق القريب منهم. وفي أقصى الشمال، أي في منطقة شط العرب بالذات كانت قبيلة كعب.. وجميعها وقفت سداً منيعاً في وجه المحاولات الهولندية والانكليزية التوسعية، بعد أن تطور نفوذ كل من الهولنديين والانكليز كثيراً في الخليج العربي **.

٤- المماليك الكَولة منذ في بغداد:-

تختلف نمطية مماليك بغداد عن البنية المملوكة القديمة في القاهرة اختلافاً كبيراً فمماليك القاهرة هم بقايا نظام تاريخي / سلطاني حكم في مصر طويلاً،

---

* د. ميمونة الصباح «نشأة الكويت وتطورها في القرن الثامن عشر»، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد (٤٦)، السنة (١٢)، ابريل ١٩٨٦، ص ١٨- ١٩.

** من أبرز المؤرخين العرب الذين اهتموا وعالجوا تواريخ إقليم الاحساء: د. أحمد مصطفى أبو حاكمة، وعبد العزيز الرشيد، د. عبد الفتاح أبو علية، ود. ميمونة الصباح .. فضلاً عن كتابات بعض المؤرخين في تاريخ العرب الحديث. ويعتبر «دليل الخليج» الذي كتبه لوريمر أفضل تاريخ وثائقي في قسميه الجغرافي والتاريخي، انظر:-

J. J Lorimar, Gazetter of the .. Gulf, vol. I (Historical part), IB. Holand, 1970.

وعندما دخلت مصر المجال العثماني استخدمتهم الدولة في اجهزتها الادارية في مصر منذ بدايات القرن السادس عشر. اما المماليك في بغداد فقد تبلور حكمهم بعد ان تبلور وجودهم الواضح مذ انفصل امر الباشوات فيها، ببروزهم فجأة كي يحكموا ولاية بغداد، ويؤثروا في سياسة العراق الاقليمية خلال القرن الثامن عشر.

اذن، فليس لمماليك بغداد اية علاقة عِرقية او تاريخية مشتركة مع مماليك القاهرة القدماء الذين كانوا قد ترسخوا في كل من الدولة والمجتمع المصري، كما وارتبطت مصالحهم التاريخية بارض مصر فدافعوا عنها باستماتة ضد كل الغزاة في البر والبحر. وسواء كانوا من الاسيويين ام الاوروبيين.

اما في بغداد، فقد قيض لولايتها العثمانية المهمة ان ينصب عليها الوزير حسن باشا عام ١٧٠٤م، وليحكمها حكماً لا مركزياً طويل المدى حتى عام ١٧٢٣م. ويعتبر حسن باشا هو المؤسس الحقيقي لحكم مملوكي شبه وراثي (= غيرسلالي)* بعد أن تخرج وتدرج في المناصب لكي يصل الى باشوية بغداد، ويحاول فرض سيطرته على بقية الولايات العراقية، اذ قام بحملات متعددة، منها حملته على البصرة في عام ١٧٠٨م لردع الاضطرابات العشائرية في المنتفك وفي نفس العام. وان يسند ولاية شهرزور الى ولده الوزير احمد باشا، فدانت اغلب الجهات العراقية لحكمه الطويل.

لقد ترسخ حكم حسن باشا في العراق من خلال التغيرات السياسية التي اصابت بنية العلاقات التاريخية للمنطقة، فقد كان الحكم الصفوي قد انتهت فعالياته في عام ١٧٢٢م اثر الاطاحة به في موقعه «جولنا باد» من قبل قائد افغاني اسمه مير محمود الذي قاد قواته القبلية ليؤسس دولة سنيّة في ايران تحت رئاسته واطاح بالشاه حسين الأول ١٦٩٤- ١٧٢٣م الذي وقع اسيراً، فهرب ابنه طهماسب الثاني ١٧٢٢- ١٧٢٣م شمالاً، ويعقد معاهدة مع القيصر الروسي بطرس الاكبر في عام ١٧٢٣م. تعهد الاخير بمقتضاها مساعدة طهماسب الثاني على استعادة ملكه مقابل تنازل الشاه عن بعض مقاطعته الشمالية، وتوغلت

---

* انظر شجرة البيت المملوكي في: س. هـ. لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر خياط، مراجعة وتعليق. د. مصطفى جواد، بغداد، ١٩٦٢.

الجيوش الروسية في الاطراف الايرانية واراضي التخوم مخالفة شروط المعاهدة العثمانية – الروسية في ١٦ يناير / كانون الثاني عام ١٧٢٠م، ولكن الصدر الاعظم داماد ابراهيم باشا ١٧١٦ – ١٧٣٠م ،كان قد اتبع سياسة سلمية تجاه روسيا والنمسا وايران لاعتقاده بأن ليس باستطاعة القوى البرية والبحرية العثمانية خوض ايةحرب في الغرب ضد اوروبا أو حرب شرقية ضد ايران، واضطر نتيجة اخلال روسيا بالعهود وتحت ضغوط العلماء والانكشارية ان يصدر اوامره لحسن باشا والي بغداد دخول الحرب.

لقد اشتعل الصراع العثماني – الايراني كرة اخرى من خلال الجبهة العراقية، ودامت الحرب حوالي ربع قرن من تاريخ القرن الثامن عشر، برغم ان فترات سلم تخللتها بين آونة واخرى. فانطلق الوزير حسن باشا والي بغداد على رأس جيشه لغزو غربي ايران عبر مسلك خانقين – كرمنشاه التي استسلمت، ومات حسن باشا في عام ١٧٢٣م، لكي ينصب ولده الوحيد الوزير احمد باشا والياً على بغداد فضلاً عن ولايته البصرة، وقائداً عاماً للحملة، واستمر عهده للفترة ١٧٢٣– ١٧٤٧م ، فكان عهده اطول من عهد ابيه، وعاد احمد باشا لكي يمضي مستمراً في حملته نحو ايران، اذ قام بغزوها مستولياً على همدان، وجعل الاقاليم الغربية من ايران تحت حكم السيطرة العثمانية... وتقدمت الجيوش العثمانية في عمق ايران نحو اصفهان، ولكن فشلت في السيطرة على العاصمة، كي تبدأ سلسلة مفاوضات للصلح انهت المرحلة الأولى من الصراع الاقليمي.

في خضم سيطرة الحكم الافغاني على ايران (= بلاد فارس ولواحقها)، ظهر قائد شرس لقبيلة الافشار التركمانية يسمى بـ «نادر قولي» (= الذي سيسمى بـ نادرشاه بعد اعتلائه العرش) ، بدأ يتدرج بالتقرب من الصفويين المبعدين نتيجة للخدمات الحربية التي اضطلع بها، ولقي تأييداً مطلقاً من قبل الشاه طهماسب الثاني، فاستطاع نادر قولي ان يحتل اصفهان، ويطرد الافغان من ايران في عام ١٧٢٩. وعاد الصفويون الى ايران ، فأرسل الشاه الصفوي يطالب العثمانيين بإعادة الاراضي التي ضموها الى دولتهم.

وفي عام ١٧٣٠م، أعاد العثمانيون بقيادة الوزير احمد باشا بن حسن باشا الاستيلاء على مدينة كرمنشاه، ثم أوقعوا هزيمة ساحقة بالجيش الصفوي في عام ١٧٣١م، وبدأت مفاوضات الصلح كرة أخرى انتهت بعقد معاهدة بين الطرفين

المتنازعين في كانون الثاني/ يناير ١٧٣٢م، وانهت تلك المعاهدة المرحلة الثانية من الصراع العثماني -الايراني في القرن الثامن عشر واستطاع الشاه الصفوي ان يستعيد اقاليم ايران الغربية باستثناء جورجيا وارمينيا*.

لم يرض نادر قولي عن المعاهدة التي وقعها الشاه طهماسب الثاني مع الدولة العثمانية، فرفض المعاهدة وعزل الشاه، وولي مكانه ابنه الطفل عباس ميرزا ونصّب نفسه وصيا عليه. وفي اوائل عام ١٧٣٣م، زحف نادر قولي بجيوشه نحو بغداد، وحاصرها حصاراً شديدا دام اشهراً عدة، كابد فيه سكانها من القسوة والجوع والمرض دون ان تستسلم البتة، وتشكل تلك البطولة الغريبة صفحة ناصعة في تاريخ العراق الحديث.. وفي شهر تموز/ يوليو ١٧٣٣م، وصلت القوات العثمانية التي يقودها الصدر الاعظم طوبال عثمان باشا لانقاذ بغداد، والتقى الجيشان شمال شرقي بغداد قرب ديالى، ودارت رحى معركة قاسية، انهزم على اثرها نادر قولي ، فانسحب من ميدان المعركة نحو ايران، ودخل طوبال باشا بغداد، فاستقبله اطفالها بالزهور، وبدأت المدينة تتعافى يوماً بعد اخر .. وفي شهر تشرين الاول/ اكتوبر ١٧٣٣، رجع نادر قولي على رأس قواته ليلتقي بجيوش طوبال باشا. وكان هذا الاخير قد سّرح معظم جيوشه، فاصطدم الجيشان قرب كركوك، فانهزم الجيش العثماني هزيمة مريرة، وسقط الصدر الاعظم القائد العثماني طوبال باشا صريعاً مضرجاً بدّمه .. ولكن نادر قولي لم يستطع السيطرة على الاقاليم العراقية، اذ اجبر على قبول الصلح، ووقع معاهدة مستعجلة مع الوزير احمد باشا ابن حسن باشا والي بغداد.. وذلك للثورة التي قامت في ايران، وبذلك تنتهي المرحلة الثالثة من تاريخ العلاقات الاقليمية للعراق الحديث .

لم توافق الحكومة العثمانية على بنود المعاهدة. فنقل الوزير احمد باشا من حكم بغداد الى حكم ولاية اخرى . وفي شهر آذار/ مارس ١٧٣٦م، اعلن نادر قولي نفسه شاهاً على ايران، فاختفت بذلك الاسرة الصفوية من مسرح الاحداث التاريخية الى الابد، واقترح عقد صلح بين الطرفين.. وعلى الرغم من التوقيع على

---

* من ابرز المؤرخين القدماء الذين اهتموا بتواريخ بغداد: سليمان فائق ورسول حاوي الكركوكلي وياسين الخطيب العمري وعبد الرحمن السويدي وغيرهم.

معاهدة اعترفت بصلاحية حدود عام ١٦٣٩م، فان نادرشاه لم يتخل ابداً عن مطامعه وآماله المكرسة لتحقيق مكاسب اقليمية ..فضلاً عن ان نادر شاه كان قد ارتبط اسمه بالغزو والتوسع. وفي اعماق الهند وتركستان وجورجيا وقوقاسيا وترانس قوقاسيا وغيرها، فبدأ يذكي روح الحرب، ويستعد للدخول في صراع تاريخي جديد منذ عام ١٧٤١م، واستطاع ان يجهز جيشاً كبيراً على مدى سنتين ١٧٤١-١٧٤٣م، لكي يغزو العراق، ولكنه لم يحاصر بغداد هذه المرة، بل شرع بالاعداد للسيطرة على الموصل وقد استطاع ان يحاصرها بعد ان سقطت بيديه مسالك العراق وخطوطه كاملة، وكل المدن العراقية المهمة وخاصة اجتياحه لمدينتي كركوك وأربيل، وتوجهه لمحاصرة الموصل حصاراً شديداً من قبل قواته التي بلغ عددها ثلاثمائة الف مقاتل، وقد دافع ابناء الموصل دفاعاً مستميتاً مسجلين صفحات لامعة في البطولة والدفاع بقيادة واليها الوزير الحاج حسين باشا الجليلي، ففشلت خطط نادر شاه فشلاً ذريعاً، ثم استتبت الامور بعد ان تهاوى كل من الطرفين، واستمّرت الحرب بين الفرس والعثمانيين حتى عام ١٧٤٦م التي وقعت خلالها معاهدة سلام نهائية بين الطرفين.

وفي شهر حزيران / يونيو ١٧٤٧م، اعلنت وفاة نادرشاه، ثم توفى الوزير احمد باشا ابن حسن باشا بعد ذلك بشهرين .. ولكن احمد باشا لم يخلف ولداً، ولكنه نجح مع ابيه بالبقاء في حكم العراق قرابة اربعين سنة .. كان الاب وزيرا عثمانياً مجرباً وخبيراً وغدا الابن وزيراً مؤثراً وخطيراً، وللاثنين مكانتهما لدى البلاط العثماني .. فاستطاعا ان يرسيا بناء قاعدة تاريخية بتأسيسهما لاول حكومة بغدادية قوية. وقاما بجلب المماليك الكيرليميين (= الارقاء البيض) من قوقاسيا وجورجيا، وبدءا بتدريبهم وتنظيمهم وتثقيفهم، ليشكلوا خلال القرن الثامن عشر، طبقة عسكرية وادارية حاكمة في بغداد. وقد تمكنت بصورة طبيعية من الاستحواذ الى الحكم الذي دام اكثر من ثمانين سنة، عاش العراق عصراً اكثر استقراراً، مذ بدأت صفحة تاريخية جديدة من حياته الحديثة.

لقد استمر حكم المماليك الكولة منذ للعراق للفترة ١٧٤٩- ١٨٣١م، وبذلك، اقترب مماليك العراق من حيث التنظيم من مماليك مصر – على حد تعبير المؤرخ عبد الكريم غرايبة* – ولكن ؟ لم يكن مماليك العراق صفوة عسكرية فقط كما حدث

* د. عبد الكريم غرايبة، تاريخ العرب الحديث، ص ٥٦.

في مـصـر، بل كـوّنوا صـفـوة ادارية، فـقـد نظمـوا في ديوان الوالي وتـدربوا في مدرسة السراي، وغدا لرؤسائهم دراية في الشؤون الادارية وقضايا الحكم نتيجة احتكاكهم بالبيت الحاكم على مدى اربعين سنة*

وهناك عامل المصاهرة، اذ استطاع الوزير احمد باشا من تزويج ابنته لاحدهم ويدعى سليمان باشا ابو ليلة، وبعد وفاة احمد باشا رفض المماليك الولاة الذين نصبهم السلطان العثماني، فتدهور الموقف في ١٧٤٧-١٧٤٨م، واضطر السلطان ان ينصب سليمان باشا والياً على بغداد في عام ١٧٥٠م ، وبقي في الحكم حتى وفاته عام ١٧٦٢م، واستمر سليمان باشا ايضاً في تطوير نظام المماليك، وتدريبهم وجلب مماليك آخرين من جورجيا، واقصي عن وظائف الدولة ومناصبها المهمة كثير من رجالات العرب والاكراد. وسيطر المماليك على كل الدوائر والمرافق والاجهزة الادارية.

بعد وفاة الوزير سليمان باشا ابو ليلة ظهر في الساحة متنافسان على ولاية بغداد التي وصلت الى درجة من العمران والثراء. واستطاع احدهما وهو علي باشا ان يحصل على تفويض بحكم ولايتي بغداد والبصرة. أما عمر باشا فكان يحظى بتأييد من جانب عادلة خانم زوجة سليمان باشا... وفي عام ١٧٦٤م، تمكنت قوات عمر باشا الخاصة من طرد علي باشا وتم اعدامه. ووافق السلطان العثماني على تقليد السلطة لعمر باشا الذي واجه التهديدات الصفوية - الايرانية من جديد، ولكنه لم يقم بأي مهمة لمواجهة التهديدات الفارسية التي اذكاها كريم خان الزندي، وقد ارسلت الحكومة العثمانية خليفة عمر، ولم يكن في اصله مملوكاً، ارسلته، فاستسلم دون مقاومة، وغادر بغداد الى معسكره، ولم يلبث الوالي الجديد ان هاجم معسكره فهرب ومات في اثناء هربه، ثم عاشت بغداد المزيد من الفوضى السياسية التي دامت ثلاث سنوات... لقد شكل المماليك عصبة ادارية... سلطوية قوية.

---

* تفاصيل عن الحياة العراقية في اواخر القرن الثامن عشر نجدها في رحلة اوليفيية الى العراق ١٧٩٤ ١٧٩٦م، ترجمة: د. يوسف حبي، بغداد ١٩٨٨م.

ثم اشتهر والي بغداد سليمان باشا الكبير ١٧٨٠- ١٨٠٢م بسبب مجهوداته ضد العدوان الايراني على البصرة، وقضائه على تمردات العشائر، ثم رده للهجمات الوهابية على العراق. ثم حكم بعده الوالي سليمان باشا الصغير للفترة ١٨٠٨-١٨١٠م ، اثر باشوية شاغرة، واوضاع مضطربة، وحكم ضعيف لـ علي باشا ١٨٠٢-١٨٠٨م.

لقد ازداد النفوذ البريطاني والتدخلات الفرنسية خلال باشوية سليمان الصغير، وعندما عزل انقسم المماليك انقساماً شديداً، وعاشت بغداد صراعاً داخلياً، برزت عنه شخصية سياسية مؤثرة: تلك هي شخصية الوزير داود باشا الذي حكم للفترة ١٨١٧- ١٨٣١م، فورث مشكلات لا تحصى، ابرزها: مشكلة العشائر وتمرداتهم. والانكليز وتزايد نفوذهم، فضلاً عن غزو فارسي للعراق بين ١٨٢٠-١٨٢٢م.

لقد نجح داود باشا في اخضاع العشائر، وايقاف الخطر الايراني - الحربي بنجاحه في عقد معاهدة ارضروم الأولى مع ايران في ٢٨ تموز/ يوليو ١٨٢٣م. وعلى الرغم من ان نهاية المماليك في العراق قد جاءت على عهد داود باشا، فان الرجل قد اشتهر باصلاحاته الشهيرة. كان يريد ان ينشيء دولة جديدة، واهتم بعمارة بغداد، مساجد ومدارس وحدائق واسواقاً، وحفر الانهر وانعش الزراعة، فزادت الموارد الاقتصادية خلال عهده وتطورت الحركة العلمية في بغداد.

استطاع الجيش الذي قاده علي رضا باشا اللاز ان يحاصر بغداد ويرسل بداؤد باشا اسيراً الى اسطنبول، وبدأ علي رضا باشا يحكم بغداد، واتيح له المجال لكي يقضي على المماليك قضاء تاماً بعد ان حكمت دولتهم قرابة قرن كامل من الزمن*.

٥- الجليليون في الموصل:-

لقد بقيت ولاية الموصل طويلاً في حالة ادارية مضطربة بسبب ضعف الباشوات وقصر عهودهم، فضلاً عن الحالة السياسية المزرية، ونقص خطير في

* التفاصيل عند: د. علاء نورس، حكم المماليك في العراق ١٧٥٠- ١٨٣١م، بغداد، ١٩٧٥. (في الاصل رسالة ماجستير - جامعة بغداد).

الخزينة. وكانت هناك اسرة امتهنت التجارة بدأت ترتفع منزلتها عند السلطة العثمانية نتيجة لمواقفها تجاه الدولة اولاً والمجتمع ثانيا، كما واكتسبت لها مكانة اجتماعية خاصة اثر ازدياد شعبيتها نتيجة للتبرعات المالية. وعندما اتخذت الدولة العثمانية قرارها سنة ١٧٢٣م بغزو الاراضي الايرانية بعد سيطرة الافغانيين عليها. وقرر اسماعيل الجليلي بدفع نفقات قوات الموصل التي شاركت بذخائرها واموالها، ويكفي ان تكون هذه المبادرة نقطة تحول في تاريخ الموصل، اذ كوفئت الاسرة الجليلية بأن منح اسماعيل رتبة الباشوية بطوغين وهي رتبة «البيكلربكي»، فابتدأ حكم الجليليين في الموصل *.

عرف «الجليليون» بهذا اللقب نسبة الى جدهم الاكبر عبد الجليل، وقد اختلفت المصادر التاريخية في اصله الذي يقال بانه من ديار بكر أو حصن كيفا في الاناضول. وكان عبد الجليل تاجرا اقليمياً بين ولايتي ديار بكر والموصل بواسطة نهر دجلة، فازداد ثروة ونفوذاً بحيث أصبح من اكبر التجار في بلاد الجزيرة، وليست هناك معلومات أكيدة وكافية عن الزمن الذي استوطن فيه عبد الجليل مدينة الموصل التي توفي فيها سنة ١٦٨٨م/ ١١٠٠هـ، وترك سبعة ابناء، كان اسماعيل احدهم وهو أول والٍ تولى الحكم في الموصل من الجليليين، فبدأت الحياة الاقليمية – المحلية لولاية الموصل التي سيبرز دورها السياسي والاقتصادي / الاستراتيجي على مدى القرن الثامن عشر، وخاصة من خلال الصراع الخارجي بين العثمانيين والصفويين.

عزل اسماعيل باشا عن منصبه لولاية الموصل بعد سنة واحدة من توليه اياه، وبعد تنصيب اثنين من الولاة الاتراك، اعقبه ابنه الحاج حسين باشا الجليلي سنة ١٧٣٠م الذي قدر له ان ينهض بدور تاريخي خطير ليس في تاريخ الموصول فحسب، بل في تاريخ العراق والمشرق العربي، الا انه عزل بعد عشرة أيام فقط... ثم اعيد الى تولي الموصل في مطلع سنة ١٧٣٣م، بسبب تفاقم خطر ايران، لكي

* تعتبر كتابات ياسين الخطيب العمري واخوه محمد امين الخطيب العمري من ابرز التواريخ المحلية الشاهدة على احداث الموصل خلال العهد الجليلي.

يبرز اسم الحاج حسين باشا الجليلي ١٦٩٧ – ١٧٥٨م على نحو مؤثر من خلال الخدمات الحربية التي قدمها للدولة العثمانية ضد الفرس. وقد نال رتبة الوزارة، وتولى حكم عدة من الولايات العثمانية منها: مشاركته في احتلال همدان سنة ١٧٢٧م، ومشاركته في الحرب ضد الشاه طهماسب سنة ١٧٣١م رفقة والي بغداد، وانتصاره على قوات نركز خان الايرانية سنة ١٧٣٢م، ثم مشاركته لقوات طوبال عثمان باشا الوزير الاعظم، ثم حربه وانتصاره على نادر شاه سنة ١٧٣٣م ، وقد جعلت الموصل مركزاً للمراقبة والتجمع والإسعاف الطبي ضد الفرس، ثم مشاركته في معركة كركوك القاتلة ضد نادرشاه، وقد انسل نحو الموصل بعد مصرع طوبال عثمان باشا، اما دوره الخطير فيتجسد في قيادته لقوات الدفاع المشتركة، وتخطيطه وسياسة حربه ضد نادرشاه وقواته التي حاصر بها الموصل عام ١٧٤٣م.

فعلينا ان نتوقف قليلا عند هذا الحدث التاريخي البارز:

لم يلتفت السلطان العثماني محمود الأول ١٧٣٠ – ١٧٥٤م، الى الشروط التي قدمها نادرشاه الى الدولة العثمانية، والتي تتضمن مطاليب تعجيزية منها:–

١– هدم اسوار بغداد.

٢– تنازل الدولة العثمانية عن كل من ولايتي ارمينيا وديار بكر المتحورتين استراتيجيا في شمال العراق.

٣– اعتراف السلطنة العثمانية بالمبادئ والنزوعات الصفوية!

٤– موافقة السلطنة العثمانية على تعيين امير ايراني للحج.

وقد علم نادرشاه بأن العثمانيين رفضوا تحقيق شروطه،فبدأ يعد لحربه ضد العثمانيين، ولكن وجهته الحقيقة هذه المرة كانت نحو «الموصل» اذ يستطيع من خلال سيطرته عليها: تأمين جميع مسالك الشرق نحو كل من الاناضول وبلاد الشام، زحف بقواته نحو العراق، وكانت بغداد تعيش حالة اقتصادية سيئة، فضرب حصاره المتباعد عنها، وبدأت مفاوضات مطولة بينه وبين واليها الوزير

احمد باشا ابن حسن باشا الذي اخبر نادرشاه انه يريد التعايش معه بتفاهم، وتبادل كل منهما الهدايا في حين ارسل والي بغداد يناشد البلاط العثماني قائلاً: انه ما من احد يستطيع ايقاف زحف الشاه الايراني الا جيش امبراطوري كبير، وتحت قيادة الوزير الاعظم للامبراطورية.

وضعت امكانات الامبراطورية في حالة دفاع قصوى في الوقت الذي كان نادرشاه قد سيطر على مدن العراق الكبيرة كالحلة والبصرة والنجف.. وقد بلغت اعداد قواته ٣٧٥,٠٠٠ الف جندي. وقد سيطرت قواته على اراضي الاقليم كافة بما فيها كركوك واربيل بعد افنائه لقرى وارياف ومستوطنات عريقة.. اسقط كركوك بسهولة، ثم استولى على قلعة اربيل بعد أربع ساعات من القصف المدفعي، ثم سيطر عليها *.

عند وصول الانذار الاول رفضت حكومة الموصل بعد عقد مؤتمر استشاري كبير شارك فيه الكبير والصغير من ابناء الموصل كافة، رفضت الموصل الاستسلام أو الخضوع لنادرشاه، أو حتى المساومة على شروطه. كان البلاط العثماني قد انتابه الذعر الشديد، فعين والي حلب حسين باشا القازوقجي محافظاً لولاية الموصل ولكي يقف الى جانب الحاج حسين باشا الجليلي في محنة الموصل، وكانت مدن المشرق العربي تعيش ذعراً كبيراً.

كانت الموصل قد استعدت عسكرياً واقتصادياً، فاشترك الجميع في الاعداد الروحي والعسكري، فقد حفر الخندق وجددت اعماقه واصلحت الاسوار والابواب والمزاغل، وحفرت عشرات الابار العميقة، وازيلت التلول، واتخذت المتاريس، ورفع الجسر، وكافة السفن والعوامات... وتشكلت القوات الدفاعية من الانكشارية والاهالي والجند الخاص بوالي الموصل ووالي حلب، وقوات قوج باشا الكردية.. ثم بنيت الابراج وملئت المخازن بالحبوب والغذاء.

---

*R.W. Olson, The Siege of Mosul and Ottoman - Persian Relations 1718-1743. Indiana Univ. 1975.

(وهو من الكتب الرصينة في تحليل عوامل الصراع وابعاده).

وظهرت طلائع جيوش نادرشاه التي نازلتها فرقة موصلية من الكوماندوز، فدارت رحى معركة دموية شرسة، ولكن التف حولها الأعداء، ولكنها استطاعت ان تجد لها ثغرة من بين الصفوف، ورجعت مسرعة قاطعة لنهر دجلة العميق، ودخلت البلد وسدّت الابواب من ورائها ، بعد نجاح مهمتها برغم سقوط كثير من الشهداء.

اشتد طوق الحصار على الموصل بعد ان اقيمت الابراج الهجومية، ونصبت عليها المتاريس والمدافع، وبدأ الهجوم الايراني الكاسح في فجر يوم الجمعة ٢٥ ايلول/ سبتمبر ١٧٤٣م/ ٦ شعبان لـ ١١٥٦هـ، من خلال القذف المدفعي على مدى ثمانية ايام سقطت خلالها ٥٠ الف قنبلة، واحدث دماراً واسعاً، واحدث القصف الشديد ثغرة في السور الغربي عولجت واصلحت، ثم ظهرت ثغرة عريضة اخرى اخذت تتوسع بحيث اصبحت الموصل على قاب قوسين او ادنى من السقوط، لولا ان انقذ الموقف المدافعون الاقوياء الذين كانت شظايا القنابل تأخذهم وتصيبهم لتمزقهم ارباً .. وفي تلك اللحظة التاريخية الحاسمة صاح الوالي الحاج حسين باشا بالجميع يستثير هممهم، ويقوي عزائمهم بأن «ابواب الجنة قد فتحت لمن يسقى كؤوس الشهادة» فاستطاع المدافعون الأشداء ان يسدّوا تلك الثغرة الخطيرة بالاجساد والاحجار والاتربة المضرجة بالدماء .. فيحكموا السيطرة بقوة وجلد وثبات*...

مارس نادرشاه حرباً اقتصادية شعواء فضلاً عن هجومه المسلح، وقد فشلت مخططاته، كما فشلت محاولاته في شق الانفاق من تحت الاسوار، او حتى من تحت نهر دجلة، وحفرت قواته اربعة انفاق كبرى وطويلة، والغمت جميعها بالبارود استعداداً لتفجيرها واكتساح مدينة الموصل الصامدة .

قرابة الساعة الخامسة من فجر يوم الجمعة المصادف ٤ تشرين الاول/ اكتوبر ١٧٤٣/ ١٥ شعبان ١١٥٦هـ، اهتزت الارض بمن عليها اهتزازاً جباراً عندما انفجرت الالغام،اثنان منها تفجرا تحت الارض التي كانت تحتشد فوقها الآلاف المؤلفة من جيوش الغزاة، فانقلبت عليهم الارض بعد انشقاقها فطوتهم بين

---

* راجع الرواية المحلية للاحداث في . محمد امين الخطيب العمري، منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء، تحقيق : سعيد الديوه جي، جـ١، الموصل ١٩٦٧.

احشائها، ولم يصب السور بأية اضرار. اما اللغمان الآخران، فقد تعطل مفعولهما عن الانفجار بفعل الآبار العميقة.. وخسر نادرشاه اربعة آلاف من قواته، فقرر الاكتساح عنوة بالهجوم المسلح الكاسر، واستخدام السلالم، فبدأت معركة رهيبة كانت غاية في العنف والقسوة، ولم يفلح الهجوم الذي شنّه نادرشاه على الموصل بتشتت جنده وتساقطهم كالاوراق من فوق الاسوار، وامتلأ الخندق بالدماء والجثث والرؤوس بعد ان استخدم ابناء الموصل التروس والزيوت والمياه الحارة بل وتجاوزوا سورهم لكي ينزلوا خارجه فتقع معركة ضارية شرسة بالسلاح الابيض حسمت الصراع لصالح قوى دفاع الموصل، ففي الساعة الثامنة ليلاً هبت نسائم النصر، وارتفعت صلوات الشكر لله عالياً.. وبدأت مفاوضات الصلح بين الطرفين.

وفي ٢٣ تشرين الاول/ اكتوبر ١٧٤٣م، رحل نادرشاه عن الموصل بعد ان خابت مساعيه وفشلت خططه، ففتحت ابوابها بعد ذلك الحصار الضاري، وبعد انتصارها المبين الذي احتفلت به العاصمة اسطنبول اياماً واطلقت المدافع اطلاقاتها ابتهاجاً به. وتقهقرت الحملة الايرانية الكبرى لنادرشاه، ولقد أفاد دفاع الموصل كل من الدولة العثمانية والمشرق العربي، وقد اخفق نادرشاه في غاياته، ورجع مندحراً بعد ان تكبدت قواته خسائر جسيمة.. ويعد ذلك الفشل هو أول اخفاق لنادرشاه خلال حياته السياسية والحربية المضمخة بالدماء في اصقاع متباينة من الشرق *.

وقد اضطلع الجليليون من حكام الموصل بدور دفاعي ذائع الصيت وبطولي بارز في احداث تلك الايام والساعات العصيبة، واكتسبوا بذلك الحدث التاريخي الكبير شرعية تاريخية وسياسية في حكم وادارة الموصل وتوارثهم ذلك فيها. ويعد عهد الحاج حسين باشا الجليلي المتقطع من ابرز العهود التي عاشتها الموصل العثمانية، ولكن سرعان ما اخذت الموصل تعاني من نزاعات اقليمية وانقسامات محلية كبيرة اثر الانشقاق العائلي الذي حدث في الاسرة الجليلية نفسها، وقد أدت تلك الانقسامات السياسية الى انشطارات اجتماعية، وقد بلغ عدد من تولى منهم

---

* التفاصيل في: د. سيار الجميل، حصار الموصل: الصراع الاقليمي واندحار نادرشاه، الموصل، ١٩٩٠.

حكم الموصل وخلال حكم المماليك لبغداد خم ـة عشر حاكماً اختلفت مواصفاتهم وطبيعة عهودهم، لا سيما وأن بعضاً منهم قد تولى الحكم في ولايات اخرى.

حاول الولاة المماليك التدخل في شؤون الموصل، وأن يفرضوا سيطرتهم عليها وعلى ولاتها، إلا انهم فشلوا في مساعيهم، مما قاد الى تحالفات جرت بين الجليليين والبابانيين (=حكام شهرزور) الاكراد.. كما كان للجليليين ذلك الدور المبرز في الحد من سيطرة بغداد، مما ادى الى أن تتحسن العلاقات بين الطرفين. وكان الجليليون في حالة صراع سياسي قوي بينهم وبين امارة بهدينان الكردية في العمادية التي حاولت ان تتملص من تأثير السياسة الادارية اللامركزية التي عاشها العراق خلال القرن الثامن عشر، إذ بقيت العلاقات متوترة، كما كانت العلاقات ساخنة ودموية بين الجليليين ويزيدية منطقة الشيخان شمالي الموصل قرب جبل المقلوب، فضلاً عن حملات حكومة الموصل المتكررة على يزيدية جبل سنجار غربي الموصل دون أن يجنى ذلك النزاع شيئاً يذكر.

شهد الحكم المحلي الجليلي في الموصل ايضاً حدثين اساسيين، يتمثل الاول بنشر المذهب الكاثوليكي وانتشاره من خلال الارساليات المتعددة، فكان منهم: «الاغسطينيون» و «الكرمليون» و «الكبوشيون».. ويتمثل الثاني بولادة الحركة الاصلاحية السلفية الدينية على يد بعض الشيوخ العلماء في الموصل خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

اما من الناحية الاقتصادية، فقد تطورت علاقات الموصل الاقتصادية بغيرها من الاقاليم والسناجق والدساكر والتخوم المجاورة لها او المرتبطة بها من خلال المسالك البرية والنهرية، سواء كانت في اعالي الجبال، ام في البراري الغربية. وبقيت الموصل مدينة منتجة وذات مؤسسات بيروقراطية مسيطرة على جميع تلك المسالك التي تربط الشرق بالغرب مستثمرة حركة التجارة العالمية من خلال تطور التجارة الاقليمية والمحلية.

وتطورت صناعاتها التي اعتمدت اوربا عليها كالسروج والاحزمة والسجاد الحريري المطرز بالازهار، ومصانع الحديد والنحاس.. فضلاً عن مصنوعات المنسوجات المختلفة. وخاصة صناعة «الموصلين» الذي كان يصدر إلى اوروبا.. وقد كانت شهادات الرحالة الاجانب كافية في توضيح تلك التطورات الاقتصادية

إذ ادت بدورها الى تطور في التنظيمات الحرفية، والعلاقات الانتاجية بين الاصناف المختلفة، وتطور المبادئ النقابية والعمل من خلالها.. وقد عجت المدينة بفصائلها الاجتماعية المتنوعة التي يشكل الحرفيون والصناع اساساً في طبيعة العلاقات المحلية منذ ازمان بعيدة، وقد زاد التضامن في التطور الحرفي بين مختلف العناصر، وزاد من روح العمل النقابي وتطور تكويناته وحقول ميادينه *

وعلى الرغم من هذه التطورات مع بقاء سريان النظام الضرائبي يعمل به، فإن ثمة كوارث اقتصادية ألمت بالموصل وباقتصادياتها.. لكن المدينة تحولت من مركز دفاعي عسكري الى مركز مدني وثقافي وتجاري، في حين بقيت اسيرة للظروف الطبيعية نسبة الى ازدهار او دمار المنتوجات والمحاصيل الزراعية والآفات الطبيعية. وتحولت الموصل بعد ان كانت تحكمها العلاقات الاقطاعية الى مركز يتصرف في حياته الاقتصادية اصحاب رؤوس الاموال والتجار مما زاد في تعقد احواله عما كان عليه في السابق.

اما الجانب الآخر من النهضة، فقد حفلت الموصل بارتقاء المدونات الادبية التي كتبت أو ألفت في فترات مختلفة من القرن الثامن عشر، وتنوعت فيها حقول الآداب والعلوم ضمنتها العشرات من الكتب والرسائل والمساجلات والمجاميع والدواوين الشعرية والتراجم. كما ازدادت المدارس العلمية التي تخرج فيها العشرات من الادباء والعلماء، وازدهرت اللغة العربية وعلومها، فضلاً عن الفنون الادبية على مستوى الشكل والمعاني والمضامين.. كلها تعبر عن المكانة التي ارتقت اليها الثقافة والادبيات التي نتحسس فيها نزوعاً عربياً صارخاً ابرزه كثير من الكتاب والشعراء واصحاب المؤلفات المتنوعة، وقد أفصحت عن تفاصيلها مخطوطات المؤرخ الموصلي ياسين الخطيب العمري **.

---

* التفاصيل التاريخية في : د. عماد عبد السلام رؤوف ، الموصل في العهد العثماني: فترة الحكم المحلي ١١٣٩- ١٢٤٩هـ/ ١٧٢٦-١٨٣٤م، النجف ١٩٧٥.

** راجع ، د. سيار الجميل ، «الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل في العهد الجليلي ١٧٢٦-١٨٣٤» ملف أعمال المؤتمر العالمي الثاني للدراسات العثمانية / تونس ١٩٨٦: الحياة الاجتماعية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني (الجزءان الاول والثاني)، جمع وتقديم . الاستاذ عبد الجليل التميمي، زغوان / تونس ١٩٨٨.

اما خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، فيزداد نفوذ داود باشا والي بغداد الشهير قوياً في الموصل خصوصاً بعد اعلان الدولة العثمانية الحرب على ايران سنة ١٨٢١م، في حين كان الانقسام قد اشتد في الموصل، واستفحل الصراع المحلي على النفوذ والزعامة، والاوضاع الاقتصادية السيئة، ولم تنفع محاولات الوالي يحيى باشا الجليلي امام انفجار ثورة شعبية قادها العمريون (من الاسر العثمانية القديمة في الموصل) سنة ١٨٢٦، ففر الوالي الى بغداد، واشير بأصابع الاتهام الى داود باشا،وقد تمكن يحيى باشا الجليلي بعد أشهر من العودة الى الموصل بقوة السلاح الذي امده داود باشا، وقد اعتقل الثوار واعدموا.. ونشبت ثورة اخرى ضد الجليليين قادها قاسم باشا العمري ادت الى مصرع الوالي عبد الرحمن باشا الجليلي.. فقضى على الجليليين، وابعدوا عن حكم الموصل بعد ان حدثت اضطرابات عنيفة ومناورات سياسية قام بها قاسم العمري ويحيى الجليلي الذي انتهى عام ١٨٣٣م *.

وعلى الرغم من النزعة العربية التي امتلكها يحيى باشا الذي تخبرنا وثائق تايلر عنه انه كان على اتصال بابراهيم باشا ابن محمد علي باشا في بلاد الشام من خلال عشائر شمر والشيخ صفوك، فإن الضعف السياسي كان قد تمكن عند الباشوات الجليليين المتأخرين مقارنة باجدادهم الاوائل **، وبدأ بعضهم يتملص عن تأدية او تنفيذ اوامر السلطان في مواجهة الوهابيين مثلا .. فضلا عن الاوضاع السيئة التي بدأت تكتنف الموصل، فكان التغيير تحصيل حاصل، ولا سيما وقد كان عهد السلطان محمود الثاني ١٨٠٨ - ١٨٣٩م مليئاً بالاصلاحات في المراكز والاقاليم.

٦- آل العظم في دمشق/ الشام:-

لقد عانى اهالي بلاد الشام كثيراً من سوء سياسة المماليك وظلمهم، وكابدوا ايضاً من النكبات الاقتصادية نتيجة للكوارث الطبيعية والاوبئة، فضلاً عن استبداد جامعي الضرائب ومفاسد الولاة. وقد سجل الكثير من المؤرخين ظواهر الغلاء

---

* انظر: القس سليمان صايغ، تاريخ الموصل، جـ١، القاهرة ١٩٢٧

** من اشهر الولاة الجليليين: الغازي محمد امين باشا الجليلي وسليمان باشا الجليلي وعبد الفتاح باشا الجليلي ومحمد باشا الجليلي.

والسرقات وعزل الولاة، واضطراب السوق، وانقسامات العسكر، والفوضى الداخلية، والصراعات المحلية... الخ· وفجأة يتبلور الحكم في ولاية دمشق خلال القرن الثامن عشر الى حالة جديدة، يستقر الحكم فيها قليلاً، على أثر إناطة الولاية الى اسرة آل العظم التي حكمت دمشق اكثر من ستين عاماً، نتيجة لمساعدتها الدولة العثمانية في تثبيت نفوذها الكامل على بلاد الشام. ويكفي دورها الفعال في الصراع الطويل بين طوائف الجند القابيقول واليارلية.

اختلف الباحثون في اصل اسرة «آل العظم»: عربا كانوا أم اتراكاً. وقد اقامت فئتهم في بلاد الشام متركزين في العاصمة دمشق، وكانوا يهتمون كثيراً ببناء المدارس وتقريب طبقة العلماء والادباء *، ولكن الدولة العثمانية استطاعت ان تستخدمهم في الحكم والادارة، وبدأوا يتمتعون بمنصب «باشا» في دمشق وحلب وطرابلس وصيدا في مطلع القرن الثامن عشر، كما نصب بعضهم في كل من الموصل ومصر.

نشأت الاسرة مع بروز أول من عرف منهم، وهو، ابراهيم العظم الذي كان جنديا سكن واسرته في معرّة النعمان، وخدم بها، واشترك في صراعاتها المحلية.. ثم آل الحكم الى يد ابنه اسماعيل باشا العظم، الذي حكم في معرّة النعمان اولا، ثم نقل منها الى مدينة حماة ومدينة حمص برتبة ميراميران (= امير الامراء) وكانت كل من حماة وحمص من السناجق المهمة في باشوية بلاد الشام، ثم تمتع برتبة «الوزارة» (= الباشوية)، ولي طرابلس، ثم بدأ بحكم ولاية دمشق سنة ١٧٢٤م التي استمر في حكمها سنوات، قضى خلالها على الاضطرابات.

يعد اسماعيل باشا العظم هو المؤسس الحقيقي لنظام الحكم المحلي في دمشق الشام مركزا واقليمياً.. واستفاد كثيراً من فرض هيمنته على جنده من مماليك البوسنة والمغاربة فضلا عن قوات موصلية، الاّ انه عزل واعتقل في قلعة دمشق، وقامت الدولة بمصادرة امواله واملاك ذويه، ثم مات في جزيرة كريت عام ١٧٣٠م. وتأثرت اسطنبول العاصمة الأم بالحوادث الدمشقية إذ عزل السلطان

* تصدرهم الشيخ محمد خليل المرادي الذي يعتبر كتابه (من ابرز المصادر العربية في التراجم) سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر، (٤ اجزاء) القاهرة، ١٢٩١هـ.

احـمـد الثـالث ١٧٠٣– ١٧٣٠م عن منصبـه، وهو الذي كـان يدافع عن اسـرة ال العظم، فاستبعدت عناصـرها من جميع المناصب والوظائف، وما لبثت ان عادت الى السلطة بعد عام.

ويبـدو لنا أن السلطان أحـمـد الثـالث هو الذي كرّس نظام الادارة اللامركزية والاعتماد على الاسر المحلية في الولايات العثمانية، وتولّى سليمان باشا العظم وهو أخو إسماعيل باشوية صيدا، ثم باشوية الشام، وأقام بها خمس سنوات ١٧٣٣–١٧٣٨م. ثم نقل الى ولاية مـصـر في سنة ١٧٣٩م، ولم يمكث الا سنة واحدة بعد أن ساءت علاقته بامراء الصناجق من المماليك بتدبير مكيدة للايقاع بينهم، والفتك بهم، فعزل.. وفي سنة ١٧٤٣م، ولي دمشق للمرة الثانية. وكان نفوذ القابيقول قد تعاظم، فبناء على طلب المجتمع الدمشقي المتمثّل باعيانه وعلمائه، إستحصل سليمان باشا موافقة السلطان محمود الاول ١٧٣٠–١٧٥٤م على طردهم، أو إذابتهم في المجتمع. وقد تحدّث المؤرخ البديري الحلاق كثيراً عن هذا الوالي في كتابه «حوادث دمشق اليومية» وهو يعده وزيراً كبيراً، أنجز أعمالا بارزة منها إصالح أمر الجند وحمايته لمواكب الحج الشامي، وتعمير نهر الفرات وترميمه من ماله الخاص، وأخضع الدروز وظاهر العمر الزيداني، وتوفي في سنة ١٧٤٦م، وصودرت أمواله الكثيرة حتى غيّر الناس رأيهم فيه «ولهجوا بالذم والنكال وقالوا قد جرّع النساء والرجال والبهائم والاطفال حتى جمع المال من أصحاب العيال ولم يراقب الله ذا الجلال» *.

وجاء بعده أسعد باشا العظم الذي كان حاكماً على حماه من قبل، وله شأنه فبقي والياً في دمشق ١٤ عاماً، فهي أطول فترة حكم لباشوات آل العظم، تولي ولاية الشام في ظروف معقّدة، فالدولة العثمانية تصادر أموال عمه سليمان باشا ودفتردار دمشق يعينها في مهامها، وقد إستطاع أسعد باشا من القضاء عليه ومصادرة أمواله. كما أنه حاصر الانكشارية المحلية التي كانت قد إستبدت بالناس وأموالهم، وحارب الدروز والشيخ ظاهر العمر، فدعاه ذلك الى بسط النظام وإقرار

---

* احمد البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية، تحقيق : د. أحمد عزت عبد الكريم: القاهرة. ١٩٥٩. ص ٥٦.

الأمن، فاستعان بالقابيقول الذين هزم الانكشارية بهم فغدا زعيماً مرهوباً، وكما يقول المؤرخ البديري الحلاق: «أرهب الكبار والصغار وعظم صيته حتى في البراري والقفار» *. إذ عيّن أخوين أحدهما في طرابلس والآخر في صيدا، ثم نقل أسعد باشا الى حلب عام ١٧٥٦م، ومنها الى ولاية مصر، ولكن أهالي حلب تمسكّوا به، فزاد ذلك من تخوّف العثمانيين، فأمرت الدولة العثمانية بقتله ومصادرة امواله وأملاكه، فانفرطت الحالة الأمنية، وعادت دمشق الى الفتنة والنهب والفوضى والخوف. ويبدو لنا من خلال المقارنة أن الجليليين في الموصل قد إكتسبوا ثقة العثمانيين أكثر من ال العظم في دمشق الذين طالما إنتهت حياة زعمائهم بالنفي أو القتل والمصادرة.

تولّى الحكم من آل العظم أيضاً- سعد الدين باشا أخو أسعد باشا، الذي حصّل على مرتبة الوزارة سنة ١٧٤٦م، كان والياً على طرابلس ثم نقل الى باشوية حلب، وأعيد مرة أخرى الى طرابلس، وعندما قرّرت الدولة العثمانية عزل أسرة آل العظم من الحكم في بلاد الشام أرسل والياً الى جدّة ثم ضبطت أمواله وأملاكه بعد قتله، وقد غدت «المصادرة» للاموال والاملاك عرفاً في بلاد الشام، ووسيلة عثمانية لاسترداد الاموال التي يجمعها الموظفون السامون من ذوي المناصب الادارية والاقطاعية، وكان آل العظم يقفون في رأس القائمة.

أما مصطفى باشا العظم فكان قد نال رتبة وولاية صيدا في عهد باشوية أخيه أسعد سنة ١٧٤٧م، وكان في حرب أقليمية مريرة ضد دروز لبنان، وبقي والياً على صيدا، حتى نقل سنة ١٧٥٦م، الى ولاية الموصل بعد أن فقدت الدولة العثمانية مصداقيتها تجاه آل العظم.

وهناك محمد باشا العظم الذي اشتهر كثيراً بعد منحه رتبة أمير الامراء ورتبة الوزارة، وغدا والياً على صيدا ثم نقل منها الى حلب سنة ١٧٦٢م ثم ولي دمشق عام ١٧٧١م، فكان أول والٍ لها من آل العظم بعد اسعد باشا الذي حكمها قبل ١٥ سنة من توليته. وقد عمّرت دمشق في عهد محمد باشا، وتكاثر سكّانها، وازدهرت الحركة العلمية والادبية، فضلاً عن ان حكومته قضت على بعض

* المصدر نفسه، ص٥٧.

الخارجين عن سلطتها. ويرى المؤرخ الدمشقي القاضي خليل المرادي، أنّ محمد باشا كان من أفضل حكام دمشق في القرن الثاني عشر الهجري.

تولى إبنه عبد الله باشا العظم ولاية حلب، ولكنه كان ضعيفاً إزاء الطغاة الانكشاريين، فعزل عنها وولي دمشق التي كانت الهجمات الوهابية قد إزدادت على أراضيها وأراضي العراق، حتى وصلت الى حوران .. وقد إكتشفت أجهزة الدولة العثمانية ان عبد الله باشا كان يميل الى المبادئ الوهابية فعزلته عن الحكم فاقام في مدينة حماة.

أما يوسف باشا العظم وهو ابن محمد باشا العظم - ايضاً - فقد تولى باشوية حلب عام ١٧٨٠م*، ثم تولى طرابلس وكان سيء السيرة مكتنزاً للاموال، فلم يقم طويلاً فيها، إذ أخرجه أهلها بعد محاربته، ولم يفعل شيئاً إزاء تخليص الحجاز من السيطرة الوهابية على الرغم من الاوامر المشدّدة التي وصلت اليه من العاصمة إسطنبول، فقرّر السلطان محمود الاول عزله ومصادرة أمواله.

هناك اخرون من أسرة آل العظم، تولّوا حكم طرابلس كعبد الرحيم بك العظم حاكم حمص سنة ١٧٧٥م وخليل باشا والي طرابلس سنة ١٧٩٦م، وكذلك ناصيف (أو نصوح) باشا العظم ابن سعد الدين باشا، وأيضاً عثمان الصادق الذي تزايد خلال عهده خطر الشيخ ظاهر العمر في أيالة صيدا. وكان الاخير قد توسّع في إمكانياته وقدراته العسكرية الاقليمية، فإستسلمت دمشق بقيادة حاكمها عثمان باشا العظم، دون مقاومة تذكر.

لقد تعددت طوائف العسكر في بلاد الشام، مما تسبّب في حدوث مشكلات متعدّدة، وإنقسامات كبيرة، وإختلالات إجتماعية واسعة النطاق في المدن والاقاليم، وقد حظيت دمشق خلال القرن الثامن عشر، بمكانة إستراتيجية مهّمة بإعتبارها أكبر مدينة عربية تقع على حافة الصحراء السورية، وتناصف أقصر طريق بين العاصمة إسطنبول العاصمة العثمانية وبين الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، فغدت دمشق تمثّل مركزاً أساسياً في الشرق العربي وإصطبغ بالصبغة

---

* وردت ١٨٧١م خطأ عند د. أحمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب، بيروت، ١٩٧٠، ص١٩٤.

المقدسة فاطلق عليه إسم «الشام الشريف» الذي تمتّع بثقل مهام ركب فريضة الحج في الاسلام خلال العصور الحديثة، مستفيدة من قوافل الحجيج (= الركب الشامي).

وتمتعت دمشق بالاستقرار النسبي والانتعاش الاقتصادي اللذين وفرهما لها ولاتها من ال العظم، فكان أن إزدهرت فيها الصناعات والحرف والاسواق وتوفير المؤن والعدد، وغدت مركز إيواء وإستقبال وتموين وتسويق سياحي للعدد الكبير من الحجاج الذين يجتمعون فيها من مختلف الاقاليم الاسلامية خلال موسم واحد، ذلك الموسم الذي يزدهر تجارياً، وتصبح اسواقها ممتلئة بالمبادلات والبضائع والمنتوجات.

لقد كان ذلك كلّه سبباً في ولادة تطورات محلية وأقليمية، منها:

١ - كثرة خاناتها وعماراتها وإتساع أسواقها كثيراً بعناية بالغة من باشواتها الكبار الذين إهتموا بالتجارة كثيراً.

٢ - جني ارباح كبرى من خلال عمليات تجارية متنوعة مارسها التجار الدمشقيون الذين نمت تجارتهم البحرية، لكي تصل بحلب والموصل كمحطتين تجاريتين في الشرق من الطراز الاول.

٣ - إكتناز الولاة المال والذهب والاملاك والذخائر، فكان ذلك عليهم نقمة متلاحقة سبّبت نهايات مفجعة للعديد منهم.

٤ - كثرة الجاليات العربية والاجنبية في دمشق بخاصة سواء من البندقية أو إيران أو الهند. ناهيك عن عمق الصلات التاريخية بين بلاد الشام والعراق.

٥ - كثرة الغارات البدوية وحلول الاضطرابات على طرق القوافل الدينية او التجارية.. مما أفقد بلاد الشام الامن المحلّي والاقليمي في فترات عدة *.

---

* لقد إهتم بالتواريخ المحلية لأل العظم كل من المؤرخين د. أحمد عزت عبد الكريم، د. عبد الكريم رافق، د. محمد انيس، د. كارل باربير وغيرهم

٧. الشهابيون في لبنان :

ورث الشهابيون، وكانوا من اقوى الاسر القيسية عصر ذاك حكم جبل لبنان الذي كانت سيادته قد تزعزعت والفوضى قد ضربت أطنابها، والعلاقات الاقليمية قد ساء عملها .. فحكموا للفترة ١٦٩٧- ١٨٤١م، أي أنهم حكموا قرابة قرن ونصف القرن.. ونقلوا عاصمتهم من بلدتهم راشيا الى العاصمة التقليدية دير القمر، وأثبتوا جدارتهم بزعامة القيسية، ففي عام ١٧١١م، إستطاع الامير حيدر شهاب أن يجمع الفئات القيسية التي تشترك فيها كثير من الاسر اللبنانية كالمعنيين وبني المازن وحمادة وجنبلاط وتلحوق وغيرهم من الدروز والموارنة وهاجم اليمنية في عين داره، فأندحر اليمنيون ونزح عدد كبير من الدروز الى جبال حوران .. حيث تمكنوا هناك وأسّسوا لأنفسهم وطناً جديداً، صار يسمّى فيما بعد بـ «جبل الدروز» ولكن الامارة تقلّصت في عهد الامير حيدر (توفي عام ١٧٢٩) بعد ان سلخت صفد وجبل عامل.

لقد وصل الصراع المحلي اثر الانقسام الثنائي مرحلة بالغة الخطورة، وانهت معركة عين دارا ذلك النزاع والصراع بين القيسيين واليمنيين ، وتركزّت السلطة بين القيسية وقد توزّع «الاقليم» بين سلطويات متعدّدة لابرز الأسر مثل آل ابي اللمع الذين غدوا بمرتبة «الامراء» وحصلوا على «المتن» ، كما أقطع آل جان بولاد، الشوف. وبقيت كسروان تحت سيطرة اسرة الخازن .. وانحصرت البقية الباقية من اليمنيين علي إمتداد ساحل الشويفات الذي تزعّمه آل ارسلان .. فتوّطد نظام «إقطاعي» جديد، سيفرز بعد زمن قصير فئة جديدة في المجتمع اللبناني تؤلفها «المقاطعجية»

تبلورت الانتاجية الزراعية في لبنان على نحو واضح، كما وتطورت انتاجية الحرير.. وقد خضع كل من الدروز والمارونيين لبيوت ارستقراطية عرف زعماؤها بـ«المشايخ» الذين يديرون المقاطعات، ويلتزمون بدفع اموالها قبل اميرها، هذه البنية الاقطاعية وقف على رأسها الاعلى الامير الشهابي وهو امير الجبل، وبيده السلطة العليا على العامة والمشايخ وغيرهم * .

---

* للتوسع في هذا الموضوع، انظر : د. مسعود ضاهر، تاريخ لبنان الاجتماعي ١٩١٤- ١٩٢٦، ط، بيروت ١٩٨٤، ص ٦- ٢١.

بقي الاضطراب سائداً حتى بعد موقعة عين دارا، إذ بدأت النزاعات الاسروية والانقسامات العائلية تظهر عند الشهابيين بصورة لافتة للنظر، وهذا أمر لا نجده أبان العهد المعني الطويل. ولقد إنقسم القيسيون الى حزبين إثنين: جانبولادية ويزبكية، وتوالت الانقسامات بين الفئات المذهبية وبين المسيحيين والمسلمين، ولكن لم يتميّز أي إنقسام الى جانب الشهابيين أو الوقوف ضدّهم.

لقد نجح الشهابيون في توطيد الأسس القيسية في لبنان. جاء في تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي «وقاتلت اليمنية أشد القتال وما زالوا كذلك حتى ملكت القيسية يمن داره وما سلم من اليمنية الا القليل»* . وتوالى على منصب الامارة الشهابية ثمانية امراء كان بعضهم معاصراً لبعض، فإزدادت المنافسات بينهم مما جرّ ذلك الويلات على بلادهم وعلى المجتمع المصائب والمآسي. وقد إستغلّ أحمد باشا الجزار جملة تلك الاوضاع والمنافسات، فابتزّ الامراء وفرض عليهم تعهّدات ماليّة بدأوا بجبايتها بوساطة القسر والقهر والقسوة.. مما أثار الشعب عليهم، فتفجرت عدة من الثورات الشعبية ولكنها لم تؤت بنتائج فعالة تذكر.

ولا بد لنا ان نقف قليلاً عند التطور الشهابي لامارتهم في لبنان:

في عام ١٧٣٢م تنازل حيدر بن شهاب عن الحكم لابنه ملحم ١٧٣٢-١٧٥٤م، وبعد فترة حكم ناجح، ثم تنازل «ملحم» عن الحكم وعاد الى بيروت عام ١٧٥٤م، ثم تنازع اخواه على حكم الامارة من بعده، فتقرّب احدهما وهو منصور، نحو حزب الجانبولادية، وانحاز أحمد الى حزب اليزبكية، واسفر النزاع المستتر في بدايته عن استقلال الامير المنصور بالحكم الذي دام للفترة ١٧٦٣-١٧٧٠م.

وما أن بلغ منصور بن ملحم الكبر حتى تنازل عن حكمه الى يوسف بن ملحم الذي بلغ أشدّه بعد أن عجز الشهابيون أمام متطلبات أحمد باشا الجزار. وقد تزايدت في عهد يوسف بن ملحم ١٧٧٠-١٧٨٨م، التناقضات وتدخلات الجزار كثيرا، كما ازداد النفوذ المسيحي خلال عهده، وقد إنتهى يوسف الشهابي بصورة مأساوية على يد الجزار، شنقاً حتى الموت في عكا عام ١٧٩١م، بعد ان كان قد اقرّ بدله بشير الثاني عام ١٧٨٨ الذي حكم حتى عام ١٨٤٠م.

* انظر. الامير حيدر أحمد الشهابي، الغرر الحسان في حوادث الزمان، نشره: نعيم مغبغب، القاهرة، ١٩٠٠ ١٩٠١، ص ٧٥٣.

وغدا الامير بشير الثاني الشهابي ١٧٨٨–١٨٤٠م، سيداً للبنان، وقد عاصر عهد كل من أحمد باشا الجزارفي فلسطين،، وعهد محمد علي باشا في مصر، وداود باشا في العراق وغيرهم من الرجال الذين برزوا في البيئة العربية في النصف الاول في القرن التاسع عشر. لقد تقاعس الامير بشير عند مشاركة الجزار في الدفاع عن عكا امام نابليون فحلّت عليه النقمة، وهرب الى مصر على متن إحدى السفن الانكليزية، واضطر أن يهرب مرة اخرى عام ١٨٢١م، عندما حلّ النزاع مع والي الشام وطرابلس، وعقد في مصر اواصر الصداقة مع نظام محمد علي باشا. وكان خير حليف لحملة ابراهيم باشا المصرية على بلاد الشام عام ١٨٣١م. اذ ساعد اللبنانيون الجيوش المصرية في إكتساح عكا التي حوصرت بعد إحتلال ابراهيم باشا ليافا والقدس .. وحينما أعلن ابراهيم باشا نزع السلاح من أهالي بلاد الشام أصدر ثوار لبنان في ٨ حزيران ١٨٤٠م، بياناً يشجب ذلك، وباءت جهود إبراهيم باشا بالفشل اثر فشل الحملة المصرية.

إن إنهيار حكم إبراهيم باشا في بلاد الشام كان ناقوساً يدق مؤذناً بنهاية عهد الامير بشير الشهابي، ففي يوم ١٠ تشرين الاول / اكتوبر ١٨٤٠م، هزمت القوات المصرية في معركة غير متكافئة عند «بحر صاف» في المتن، وبعد يومين غادر الامير بشير قصره في بيت الدين الى صيدا، ومن هناك تمّ نفيُه في جزيرة مالطة.

وفي مؤتمر لندن الذي عقد في ١٥ تموز ١٨٤٠، الذي بحث مصير الوجود المصري في بلاد الشام، ومثّل فيه مندوبون عن الدولة العثمانية وعن النمسا وبروسيا وانكلترا، وقد إختاروا الامير بشير الشهابي الثالث ليكون حاكماً على لبنان، وقد صادق البلاط العثماني على ذلك، علماً بأنّ هذا الامير كان ضعيفا عديم الكفاءة، فأستخدم ألعوبة في يد الدول الكبرى وتنفيذ مصالحها في لبنان.

اما الأمير بشير الشهابي فقد ارسل في ٢٧ آذار ١٨٤١م، من منفاه رسالة الى اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا ملتمساً إعادته الى حكم لبنان.. ولكن لم يلتفت إليه وفي ٢٦ كانون الثاني ١٨٤٢م سقط الشهابيون متأثرين بمشكلاتهم الطائفية التي أجّجها الاستعمار .. فكانت ان توافرت الفرصة للعثمانيين كي يعيدوا حكمهم المباشر تطبيقاً للسياسة الادارية المركزية التي إتبعتها إسطنبول ضمن حركتها الكبيرة في الاصلاحات فأقيل بشير الثالث من

منصبه ونصّب عمر باشا حاكماً على الجبل، ولكن سرعان ما إشتعلت الصراعات الدموية التي وصلت الى اقساها سنة ١٨٦٠ لهول ما حدث فيها من مذابح في دير القمر والشوف والمتن والبقاع وزحلة وغيرها، وهو أمر إستدعى تدخلات الدول الاوروبية وعلى رأسها فرنسا التي وصلت قطعها البحرية السواحل اللبنانية فاضطرت الدولة العثمانية الى الاعتراف سنة ١٨١٦م باستقلال لبنان بموجب نظام اداري طائفي له مشكلاته وتعقيداته *.

٨- زعامتا الشيخ ظاهر العمر واحمد باشا الجزار في فلسطين/ الجليل + عكا:-

١/ الشيخ ظاهر العمر الزيداني:

لقد ازدادت استقلالية الحكام العسكريين-الاقطاعيين مع ترّهل المجتمع العربي وتراخيه من جانب، ومع احتدام وقوّة الازمة الداخلية المعقدة للنظام العسكري العثماني. وازدادت فعالية الحكم الاوليغاري (= الزعاماتي العسكري) المطلق لمن تمتّعوا بقوة السلطة العسكرية النافذة، امتداداً متوازناً لزعامات القرن السابع عشر في بلاد الشام. مطبقّين سياسات اغتصابية، ومنتهجين لاحكام في اللامركزية الادارية في التسلّط الاقليمي العثماني المركزية التي كان ينتهجها السلطان او الصدر الاعظم.

ان الدارس للاساليب الزعاماتية- المطلقة خلال القرن الثامن عشر سيجد دون شك ان بعضها قد انتهجته بصورة مباشرة أم غير مباشرة، انظمة ادارية عديدة، تنتمي الى انماط متعدّدة من الحكم الوراثي او الاسرى او العرقي في اقاليم المشرق العربي الاقطاعية.

---

* من ابرز المراجع التاريخية المعول عليها في تاريخ الشهابيين:

د. اسد رستم، الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي، جـ٢، بيروت، ١٩٣٣

سليمان ابو عز الدين، ابراهيم باشا في سورية، بيروت، ١٩٢٩.

د. عبد الكريم غرايبه، تاريخ العرب الحديث، بيروت ١٩٨٤.

د. عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي.. ود. عبد الكريم رافق «القوى المحلية..».

قارن المعلومات اعلاه بالمصادر القديمة التي كتبها حيدر الشهابي والخالدي والصفدي ولويس معلوف..

لقد تركزّت زعامات بلاد الشام بصورة كبيرة عند الشيخ ظاهر العمر الزيداني وأحمد باشا الجزار الذي يعد امتداداً للاول .. وهناك زعامات اخرى، ولكن كلاً من هاتين الشخصيتين العسكريتين تواصلتا خلال القرن الثامن عشر في اجزاء متعددة من بلاد الشام، وخاصة في «فلسطين» التي تفاقمت فيها حركة الشيخ ظاهر العمر والتي تأسس عليها حكمه ودولته الزيدانية.

ينتمي الشيخ ظاهر العمر الى الزيادنة، فجدّه «زيدان» الذي نُسب – كما يقال – الى اشراف بني زيد بن الحسين بن علي بن ابي طالب. ارتحل مع اسرته الى بلاد الشام في اواخر القرن السابع عشر. واستقّر بهم المقام في منطقة صفد وحول بحيرة طبرية. وكانت تتبع إيالة صيدا، ولما توُفي زيدان تمكّن ابن عمر ان يصبح شيخاً على بلاد صفد عام ١٦٩٨م، بكفالة الامير بشير الشهابي امير الدروز وصديق والي صيدا. ولما توفي عمر، اتجّهت انظار اهالي طبرية وصفد الى ابن «ظاهر» فاختاروه حاكماً عليهم، واضطر محمد باشا، والي صيدا تثبيته عام ١٧٣٣م.

كان ظاهر العمر منذ بداية حكمه رجلاً طموحاً، انهمك في توسيع ممتلكاته التي منحها امير لبنان لوالده، فبدأ يوسّع منطقة نفوذه على حساب دمشق وصيدا، حتى نصّب متصّرفاً في صيدا عام ١٧٣٣م ثم على يافا وحيفا والرملة ونابلس عام ١٧٣٥م، وصفد عام ١٧٣٩م، واستطاع ان يرسّخ حكمه فيها مستغلا حالة الصراع المزمن بين العثمانيين والدروز، والتي اتخذها مركزا استراتيجياً لعملياته العسكرية، وبوساطة الشحنات القوية للعلاقات الاقتصادية مع التجار الفرنسيين اتخذ ميناء عكا مقّراً له سنة ١٧٤٦م، في حين عمّق العلاقات الودّية– الاقليمية مع آل العظم في دمشق ..ولا سيما مع اسعد باشا العظم الذي اقام علاقات سلمية معه خلال فترة حكمه الممتدة بين ١٧٤٣م–١٧٥٧م.

هكذا تدعّم مركز ظاهر العمر في الجليل والاقاليم الساحلية في فلسطين، وقد وافقت الحكومة العثمانية رسمياً على الاعتراف بممتلكاته ومكتسباته برفضها طلب والي دمشق عثمان باشا الصادق اعداد حملة حربية ضد ظاهر العمر؛ اذ كانت له علاقات من نوع خاص مع اسطنبول، فقد سانده فيها احد كبار المسؤولين العثمانيين، وبوفاة الاخير ، بدأ عثمان باشا الصادق بدفع الرشاوي من اجل

تاليف اتحاد اقليمي او قوة متحدّة ضد ظاهر العمر وباركتها السلطة المركزية العثمانية، فاختلّ بذلك توازن القوى الاقليمية في جنوبي بلاد الشام وفي غير صالح دويلة ظاهر العمر. فكان لا بد من التحالف مع مصر علي بيك الكبير لاعادة صيغة التوازن الاقليمي.

هكذا، قطع علي بيك الكبير علاقاته مع الباب العالي ونال مساعدة روسيا التي ارسلت اسطولها في شرقي البحر المتوسط، وكأول حملة بحرية- برية مشتركة هدفها نجدة ظاهر العمر في كانون الاول/ ديسمبر عام ١٧٧٠م يقودها اسماعيل بيك وبوصول الحملة الى مدينة يافا ارتد عثمان باشا الصادق الى دمشق، في الوقت الذي التقى جيش ظاهر العمر بجيش حليفه المصري. واتّجه الجيشان معاً نحو دمشق، ولكن الحملة المشتركة لم تستطع تنفيذ مهامها، فعاد اسماعيل بيك الى يافا، وعاد ظاهر العمر الى عكا بعد مرضه، فارسل علي بيك الكبير حملة اخرى في ربيع عام ١٧٧١م، بقيادة نائبه محمد ابو الذهب الذي التقى جيشه بجيش ظاهر العمر والذي كان يقوده اثنان من ابنائه، واتّجه الجيش المشترك، فاحتّل صيدا، وبدأ بالتقدم نحو دمشق، ولم تنفع دفاعات عثمان باشا الصادق، إذ انهزم جيشه وفّر نحو حمص.

ويبدو ان التوازن الاقليمي بدأ يميل لصالح قوى التحالف المصري الفلسطيني ضد المحليين العثمانيين. باستقطاب علي بيك لثمرة الصراع المرحلي متطّلعاً لتحقيق اهدافه في التّوسع ضد الدولة العثمانية.. وافلح في خطّته بالاتفاق مع الروس ضد الاتراك، لكن ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه، إذ كانت قد اختمرت خيانة القادة المماليك ضدّ سيدهم الذي كان يراقب الاحداث من عاصمته القاهرة.. فتغّير مجرى الاحداث بصورة فجائية، قد سحب ابو الذهب جيشه فجأة من دمشق وعاد الى مصر، وشرع في النضال ضدّ علي بيك، فانحازت اكثرية البكوات المماليك الى صف ابي الذهب فاندحر علي بيك سياسياً وعسكرياً، وفرّ لاجئاً الى حليفه ظاهر العمر في عكا. ويبدو ان العثمانيين قد نجحوا سياسياً في احداث ذلك الانكسار المفاجئ.

لقد اصبحت اوضاع ظاهر العمر معقّدة وصعبة، إذ عاد عثمان باشا الصادق ثانية ليقاتل عدوّه القديم، وطلب المساعدة من الشهابيين وقواتهم الدرزية، الاّ ان

ظاهر العمر هزم الصادق قبل ان تنتظم القوات الدرزية بقواته. وبدأ زعماء الدروز يساعدون ظاهر العمر، مما قاد الى هزيمة يوسف الشهابي. ونتيجة لذلك، فقد عزل عثمان باشا الصادق، وتسلم قيادة الجيش عثمان باشا المصري الذي بدأ العمل بالتحالف مع يوسف الشهابي باسترجاع صيدا ولكنه فشل.

وصل الاسطول الروسي السواحل السورية مؤيّداً ظاهر العمر وحليفه الطريد علي بيك الكبير، فقويَ مركزه، واعلن الثورة ضد الحكومة العثمانية، التي لم تستطع فعل اي اجراء ضّده بسبب الحرب الروسية – العثمانية. وقام الاسطول الروسي بقيادة جورج ريزو بضرب بيروت بحراً، واستولى عليها في مايس ١٧٧٢م، ولكنه غادرها، لكي تغدو تحت حكم الاتراك ثانية، اذ كانوا قد ارسلوا قوات من جديد يقودها قائد له امكانيات لامعة اسمه احمد باشا الجزار. ولما فشل ظاهر العمر وحليفه علي بيك في الاستيلاء على بيروت، اتّجها جنوبا لمحاصرة يافا التي ثارت عليهما. ولكنها سقطت في شباط / فبراير ١٧٧٣م.

استطاع علي بيك من تنظيم قواته البالغة ستة آلاف محارب لقتال البكوات المماليك المتمردين على شرعيته، ولكنه هزم مع جيوشه في معركة قرب الصالحية شرقي الدلتا، وجرح علي بيك، واخذ اسيراً ومات في القاهرة في ٨ أيار / ماي ١٧٧٣م. واسقط بيد ظاهر العمر اثر القضاء على حليفه، فواجه اعداءه بمفرده، ضمن سلسلة من العمليات العسكرية مستفيداً من الحرب الروسية – العثمانية والخلافات المحلية، وقد حاول ظاهر العمر اغراء احمد باشا الجزار الدخول في خدمته وتأكد من عداء ابي الذهب، وبدأ يلتمس العفو من الدولة العثمانية. فعمدت الى خداعه، إذ اصدرت فرماناً في عام ١٧٧٤م، معلنة العفو عنه، فعاد الشيخ ظاهر العمر حاكماً على صيدا وعكا وحيفا ويافا والرملة ونابلس وصفد.. ووجدت الدولة العثمانية ان مصير مصر وفلسطين (= الجليل) قد اصبح بيد حاكمين اشتركا في السابق ضدّها، وبدأ كل منهما يكرّس استقلالية لاقليمه، فلجأت الى ضرب احدهما بالآخر. فاستعد محمد ابو الذهب لغزو سوريا اثر التحالف مع شريكه السري «علي» ابن الشيخ ظاهر العمر الذي خان اباه نظراً لطول بقائه في السلطة. فانطلقت الحملة من مصر في مارس ١٧٧٥مستولية على يافا التي فتحت عنوة، وقام «علي» بطرد ابيه من عكا التي استولى عليها ابو الذهب فهرب الى صيدا.

بدأ ميزان القوى يتغّير لصالح مصر البكوية – المملوكية على غير ما خطّطت له الدولة العثمانية التي خشيت ان تؤول ممتلكات ظاهر العمر الى حكومة مصر المملوكية القوية، فارسلت حملة بقيادة حسن باشا لاحتلال عكا وبقية الاقاليم. و في عكا، كان المرض قد تفشّى في جيش ابي الذهب وقد قضت الحمّى الشديدة على حياته فعاد الجيش بجثمانه الى القاهرة.

اسرع ظاهر العمر نحو عكا التي خشيَ ان يسلّمها المرتزقة الى ابنه علي، وكان احد قواد ظاهر العمر، واسمه احمد الدنكزلي على اتّصال سرّي بحسن باشا، وقد تعهّد له بتسليم مدينة عكا ومعها رأس ظاهر العمر، وكان امير لبنان الشهابي قد تحالف مع الجزار والي دمشق العثماني الذي قامت قواته البرّية بمحاصرة عكا برّا، كما كان الاسطول العثماني يحاصرها بحراً.. وعندما تأكّد ظاهر العمر من خيانة الدنكزلي، حاول الهرب، ولكنه قُتل في اثناء ذلك بيد احد رجاله الذين خانوه.

وبوفاة الشيخ ظاهر العمر في عام ١٧٧٥م، تنتهي صفحة زعامة قوية لرجل شديد المراس، وتنتهي معه حياة دولته المستقلة، وينتهي عهده الطويل، لكي تنشأ من بعده زعامة رجل جديد سيكون له أثره البالغ ايضا في حياة بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر. وسينطلق من عكا ايضا، العاصمة التي قتل فيها ظاهر العمر الزيداني، والتي ستغدو مقراً للرجل الثاني احمد باشا الجزار.

ولنا ان نستنتج بعض النتائج المهمة حول ظاهرة زعامة ظاهر العمر، ذلك:

ان حركته قد ظهرت لتملأ فراغا سياسياً قد ولد اثر انهيار النظام العثماني المركزي في الولايات العربية، وان مركزي النفوذ الاقليمي لكل من ولاية دمشق وامارة لبنان لم تستطيعا من فرض سيطرتهما على الجليل الفلسطيني الذي كان يتمتع بمواصفات اقليمية ذات خصوصية مشتركة. ولكن ظاهر العمر لم يعتمد على عناصر مخلصة. بل اعتمد على المرتزقة الذين خذلوه بخياناتهم، وقد تفاقم خطرها كي تصل الى حدّ خيانة ولده له. ولم تكن زعامته متفردة في قيادتها، بل تحالف مع اعداء الدولة العثمانية كالروس مثلا، فكان على الدولة ان تدبر للاطاحة به مهما كان الثمن.

لقد أخطأ كما أخطا حليفه علي بيك الكبير، بالاعتماد على الروس الاجانب الذين وجدوا الطريق مفتوحاً لهم كي يضرب اسطولهم بيروت ويحتلوها بعد سيطرتهم على الحياة الاقليمية العثمانية، ولكن برغم ذلك كله فان حركة الشيخ ظاهر تعتبر ظاهرة تاريخية نبّهت الرأي العام العربي - والعثماني الى حجم الهوة بين المركزية العثمانية والاطراف العربية... وأثارت جملة من التناقضات في التركيبة الاقطاعية للمجتمع...

كان ظاهر العمر زعيماً قوياً، يقول عنه المؤرخ فيليب حتي: «وحكم هذا الحاكم الجديد بيد من حديد، فمحا اعمال الشقاوة والفساد، وشجع زراعة القمح، وصناعة الحرير والقطن وعامل رعاياه النصارى باللين والتساهل. وقد قال عنه مؤرخ سيرته (= ميخائيل الصباغ العكاري): «حتى المرأة كانت تسافر في عهده حاملة الذهب بيدها دون خوف من ان تتعرض للاذى». هذا فضلاً عن احياء ظاهر العمر لثغر عكا بعد هجره واعداده لتصدير القطن والحرير. وكذلك اعتياده توزيع البذور على الفلاحين، واعفاؤهم من الضرائب في السنوات المجدبة*.

٢ / أحمد باشا الجزار

اما احمد باشا الجزار فهو احد الزعماء المستبدين في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر. كان في الاصل مسيحياً من ابناء البوسنة، ولد سنة ١٧٢٠م، وقد ارتكب في صباه - جرماً اخلاقياً، فهرب الى العاصمة اسطنبول حيث باع نفسه من تاجر يهودي، وانتهى امره مملوكا في قصر علي بيك الكبير بالقاهرة. واختلف المؤرخون في سبب تلقبه بـ «الجزار»، ويعتقد بأن الخدمة الممتازة التي قدمها لسيدة حاكم مصر كجلاد قد اكسبته لقب «الجزار». وقد يكون اللقب قد جاء بسبب قسوته وغدره وساديته، وهرب الجزار من مصر الى سورية... أو انه قد يكون استقر في بلاد الشام من خلال العلاقة التي تربط سيده بظاهر العمر.

---

* انظر: ميخائيل الصباغ العكاري، تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني، نشرة: قسطنطين الباشا، حريصا / لبنان، د. ت.، ص ٥٠

وراجع: د. فيليب حتي وآخرون، تاريخ العرب (مطول)، جـ، ط ٣، بيروت، ١٩٦١، ص ٨٦١

كان له دوره في حصار عكا ضد ظاهر العمر، وكان قد نصب واليا على دمشق سنة ١٧٧٥م، ثم نصب واليا على ولاية صيدا سنة ١٧٧٧م، واتخذ عكا عاصمة له. وقد اختلف في حكمه الاقليمي عن غيره من الباشوات لتكريس النفوذ العثماني في بداية الامر، ثم بدأ بممارسة سلطوية لزعامة لامركزية بعد ان اطمأن له الباب العالي، وكرّس قسوته في معاملة الاهالي، فتوطد حكمه على باشوية صيدا ربع قرن من التاريخ الاقليمي لبلاد الشام، اي للفترة ١٧٥٥- ١٨٠٤م.

اتجهت سياسته الداخلية، اثر حصوله على باشوية صيدا مباشرة لتكوين جيش من الالبانيين، وجيش آخر من المغاربة، وأنشأ اسطولاً صغيرا في مينائه الكبير (= ميناء عكا). واتبع سياسة تعسفية في جني الضرائب من الاهالي. وهذا ما كرره لأكثر من مرة. فعندما تولى ولايتي طرابلس ودمشق سنة ١٧٨٥م، فرض على سكانهما ضرائب ثقيلة ادت الى نشوب عدة ثورات منها: ثورة الفلاحين في دمشق، لكنها اخمدت بقسوة من قبل قوات الجزار، ثم ثورة ١٧٨٩م التي استولى الثوار خلالها على بيروت وصيدا وصور واقتربوا من العاصمة عكا، لكن الخيانة التي حدثت بين صفوف الثوار من الاقطاعيين... ساعدت الجزار في اخماد الثورة عند وصولها الى اسوار عكا.

اما سياسته الخارجية فقد كانت متوترة مع الشهابيين، وبخاصة في عهد الامير يوسف الشهابي ١٧٧٠-١٧٨٨م الذي كان حاكما اكبر على جبل لبنان والبقاع والاقاليم الساحلية مثل بيروت وجبيل. اصطدم الاثنان اثر التوسع الذي بدأه الجزار، واشتعلت الحرب بينهما، فقضى على خصمه يوسف في معركة ساخنة دارت رحاها في قب الياس عام ١٧٨٨م، ثم طلب من الاهالي انتخاب الامير الشهابي بشير الثاني حاكماً على لبنان، وقد كان لعبة بيد احمد باشا الجزار اذ كان الاخير يتدخل في شؤونه السياسية، حتى انه اعاده الى الحكم بعدما عزله خصومه والطالبون بالامارة من آل الشهاب. وارسل الجزار وهو والي صيدا، مراسيمه ينذر فيها الدروز واهالي الشوف والمتن وكسروان ان يطيعوا الامير بشيراً *.. هكذا كان الجزار يعتمد سياسة المراوغة تجاه الشهابيين من اجل

* للتوسع وثائقيا، انظر: د. عبد العزيز نوار، وثائق اساسية في تاريخ لبنان الحديث، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٥٠- ١٥١، ١٦٦.

حدوث الانقسام الاسري والابقاء عليه كي يضعف من نفوذ لبنان السياسي والاقتصادي..

استطاع احمد باشا الجزار – ايضا – ان يقضي على بقية الزيادنة بمقتل علي بن ظاهر العمر. وبدأ بفرض ضرائب على أهالي المناطق التي تقع تحت سيطرته، مستغلاً النفوذ الذي منحته اياه الدولة العثمانية، وبدأ يحصّن عكا ويؤلف له جيشاً كبيراً جمعه من شرائه للمماليك والمرتزقة من البوسنويين والارناؤوط الالبان والمغاربة والبدو.

لقد خفت دور ولاية دمشق كثيراً على عهد محمد باشا العظم، حفيد اسماعيل، الذي نصب عليها سنة ١٧٧١م، اذ انحسرت دمشق سياسياً امام توسعات الجزار. وتجنبت اي صدام معه. ولكن الجزار بقي ينظر الى دمشق، ويتطلع للسيطرة عليها، ومد نفوذه اليها. وهكذا. عمل الجزار للحد من نفوذ اسرة آل العظم في دمشق، واسرة آل الشهاب في لبنان. وقد استغل الظروف السياسية التي عاشت عليها دمشق بعد وفاة محمد باشا العظم بتولي مقاليدها ابناء عثمان باشا الصادق. وفي عام ١٧٨٥م، عينت الحكومة العثمانية احمد باشا الجزار، فقام بتوكيل اثنين من مماليكه على صيدا وطرابلس، وسيطر على دمشق لمدة عامين، ولم تعد باشوية دمشق لآل العظم بعد عزله عن دمشق التي عاشت اياماً صعبة وظالمة.

وقد وقعت خلال عهده – ايضا – ثورة ثالثة عام ١٧٩٨م وهي تعد من اشد واخطر الثورات على احمد باشا الجزار، لكن الدولة العثمانية تدخلت في تسوية النزاع الدائر بين اهالي دمشق والجزار، فنجم عن هذه التسوية توليه وال جديد على دمشق. وكانت أسباب ذلك متمثلة اساساً بالاحكام المجحفة التي فرضها الجزار على الاهالي. وعليه، فعندما عزل عبر الناس عن فرحهم وسرورهم بتزيينهم البلد، واشعال الشموع حتى في النهار * احتفالاً حياً من خلال النصر النفسي الكبير الذي انتابهم.

---

* د. زاهية قدورة، تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٧٥، ص ١٨٩.

لقد جمع احمد باشا الجزار كل التناقضات، فبينما يعجب به بعضهم، يذمه آخرون، وبينما يسفك الدماء ظلماً كان يقود قافلة الحج الشامي مراراً وبقيت مدينة عكا قاعدة حصينة للجزار، وازداد نفوذه كثيراً وشراسته غرابة بعد قضائه على مملوكية سليم باشا وسليمان باشا اللذين كان قد نصبهما على صيدا وطرابلس، اذ تحالفا مع يوسف الشهابي ضده، وزحفا على عكا بجيشهما، ولكنه تمكن من التخلص منهما ومن مخاطرهما، وقد غدا الجزار أكثر شراسة حين عدّ يوسف الشهابي شريكا للثوار. وبعد الهزيمة التي مني بها يوسف اجتمع زعماء لبنان، واختاروا ابن عمه الصغير الامير بشيراً الثاني خلفاً له... وقد وجد الجزار فيه ألعوبة لكي يفرض سيطرته على لبنان، في حين خضع بشير الثاني خضوعاً كبيرا للجزار.

أدرك الجزار أن افضل سياسة له في لبنان انما تتمثل في الاستمرار بعملية ضرب القوى، واحدتها بالاخرى، وابقاء الصراع الداخلي مستعراً، وتلك هي خير وسيلة من جانبه لكي يحفظ ولاء امير الجبل له. وتبارى كل من يوسف وبشير الثاني في عرض الاموال على الجزار، اذ قام الأول بذلك من اجل اعادته الى الامارة فرد الثاني بعرض اموال اكثر، فأمن بذلك مركزه من خلال هذه المزايدة السياسية، على حساب انهيار البلاد، وانحطاط ابناء الشعب الذين كانوا يعانون كثيراً من كثرة ازدياد الضرائب.. وكان ان وضع الجزار نهاية للامير يوسف، اذ قادته خطواته الى عكا كي يأمر الجزار بشنقه فيها.

وبقي الجزار يمارس سياسته الماكرة في لبنان لسنوات طويلة وعلى حساب الانقسام الشهابي بين بشير وابناء يوسف ولكن سينشغل كثيراً في تحصينه لمدينة عكا التي يحاصرها نابليون بونابرت في عام ١٧٩٩م، فيبلغ الجزار ذروة المجد... وتمكن بمساعدة الاسطول الانكليزي بقيادة سدني سميث الدفاع عن المدينة دفاعاً مستميتاً، وانشغلت الدولة العثمانية بامتدادات بونابرت الحربية، وما ان فشلت الحملة الفرنسية على كل مصر وبلاد الشام... حتى بدأت الدولة العثمانية تناور بين قوتين سياسيتين: قوة الجزار الاقليمية، وقوة بشير الشهابية المتنامية، وفي ظل معاناة ورهبة واضطرابات لم تنته.. وما ان توفي احمد باشا

الجزار في عكا في شهر نيسان / ابريل عام ١٨٠٤م. حتى وجد الامير بشير نفسه طليقاً فبدأ في سحق اعدائه في الداخل، وذلك بعد ان ركز السلطة في يده وعمل على توحيد ممتلكاته، وتثبيت حكمه، وتقوية علاقاته الاقليمية*.

ويبدو لنا من خلال دراستنا المقارنة لكل من عهدي ظاهر العمر الزيداني واحمد باشا الجزار، انهما يشكلان ١): قيمة جغرافية في تأسيس دولتيهما العسكريتين في الاراضي الفلسطينية، والانطلاق الاقليمي منها براً وبحراً، سياسة واقتصاداً قوياً مقارنة بما كانت عليه أوضاع بقية المناطق من بلاد الشام. ٢) ظاهرة تاريخية متواصلة بحيث ما ان اقترب حكم ظاهر العمر من نهايته، كان حكم احمد باشا الجزار قد بدأ ليغطي بنمطه الزعاماتي - العسكري ما تبقى من حقبة القرن التاسع عشر، وهي الظاهرة التي ستفتتحها وفاة الجزار سنة ١٨٠٤، والتي ستؤدي الى «ازمة حكم» عالجتها الدولة العثمانية من خلال اعادة حكم نظام المركزية الادارية المباشر.

٩- المماليك الجراكسة في مصر:-

التحزبات والانقسامات السياسية:-

المماليك في مصر هم العناصر التي تشكل ركيزة سلطوية اساسية / تاريخية في نظام الحكم المصري خلال العهد العثماني، وهو «نظام» استند بالدرجة الاساس على «التوازن» الدقيق بين مختلف السلطات الفعالة (= الوالي + اغوات

---

* من ابرز المراجع التاريخية المعول عليها في دراسة ظاهرتي: ظاهر العمر واحمد باشا الجزار في بلاد الشام:

د. عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ - ١٩٥٢، الاسكندرية، د. ت، ص ١٨٣- ١٨٥.

د. عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦-١٧٩٨م دمشق، ١٩٦٦.

وانظر الاستنتاجات التاريخية التي خرج بها د. كمال سليمان الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، بيروت، ١٩٦٧. وللتعمق في تاريخ الصراعات الداخلية، انظر.

- حسين سليمان، «لبنان في فترة الصراع الداخلي ١٧٥٣- ١٧٩٠» (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الاداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٨.

Fr. Charles - Roux, Les Echelles de Syria et Palastine au XVIIIE Siecle; Paris, 1928.

الحامية واختياريتها + كبار الموظفين العثمانيين + بكوات المماليك وهم حكام الاقاليم والصناجق).

وكما وجدنا من خلال دراستنا للاوضاع الداخلية المصرية خلال القرن السابع عشر أن مصر قد عاشت في حالة سيئة للغاية، إثر تفشي الفساد في الدولة ونشوب التمردات، وقتل الولاة، والانقسامات، واندلاع الثورات العسكرية. وعليه، فقد كان لا بد من ان ينهار «التوازن» بين العناصر السلطوية المختلفة.

والبكوات المماليك في مصر الذين انتقلت اليهم السلطة العليا كانوا قد حازوا النفوذ والقوة كصفوة عسكرية Military Elite مع استمرار الصراع السياسي في مصر وقد نتج عنه : صراع على السلطة في الداخل واتصال مبكر بالقوى الاجنبية، والحرمان العثماني من الموارد المصرية (حسب رأي المؤرخ عبد الوهاب بكر). لقد استطاع البكوات المماليك وهم بقايا المماليك القدماء الذين كانت لهم دولتهم الكبيرة ان يستعيدوا قوتهم المتنفذة في الولاية لكي يقتربوا من القمة، ويملأوا الفراغ السياسي الناجم عن السلطة حتى استأثروا بها... ثم بدأوا شيئاً فشيئاً يزاحمون غيرهم على السلطة فأيدهم الكثير من الاهالي. ومن الاحزاب والبيوتات العسكرية التي تكونت اثر جهود تفاعل زعامات تشكلت حولها كتل من المناصرين.

وفي خضم تلك الصراعات التي انتجها الانقسام السياسي والاجتماعي بين ثنائي الصراع الداخلي: القاسمية والفقارية، كان الشعب المصري هو المسؤول عن تعويض المتصارعين عما بذلوه من ذخائر وأموال انفقت في سبل شتى كشراء الذمم والحلفاء وتجنيد الجيوش ... فتعرض الناس لعمليات متعددة من الابتزاز والضغط وفرض الضرائب والكلف والمغارم والطلبة، حتى اضطر ان يخفي امواله، فضلا عن تعرض المجتمع للمشكلات الاقتصادية اثر تعرض الدولة للازمات المالية، فازدادت احوال الفساد الاداري، وكثر الفساد والرشوة بين عناصر الاجهزة الحكومية، وارتفعت اسعار السلع والحاجات، وانخفضت القيمة الشرائية للنقد، ولقد نتج عن حالة الصراع الداخلي على السلطة – وهو صراع اقترن بغياب شخصية الدولة ونفوذها– ان غدت السلطة الفعلية في أيدي البكوات المماليك، وهم الذين استأثروا بموارد البلاد المالية الى جانب ازالة ما لممثل الدولة من اي نفوذ سلطوي مؤثر.

لقد ظهرت القوى المحلية عند منتصف القرن الثامن عشر، نتيجة للاوضاع السابقة فاستأثرت بالسلطة وكل مظاهرها، واستطاعت ان تجري المزيد من التغيرات في الاستراتيجية السياسية، وبعد الامتناع عن الوفاء بالحقوق الشرعية للدولة المتبوعة والتزاماتها. فبدأت مصر تتجه نحو القوى الخارجية والاستعانة بها لتحقيق حالة لامركزية، والانفصال قليلاً عن الروابط القديمة التي توثقت مع الدولة العثمانية.

كانت القاسمية قد زالت سلطتهم المملوكية، فانفرد بالامر المماليك الفقارية ونمت الى جانبهم شخصيات عسكرية شكلت « أوجاقاً» له عصبيته واختصاصاته وكان من اشهر البيوتات العسكرية «بيت القازدغلي»، فتحول الصراع بين القوى الفقارية والبيت العسكري «القازدغلية» على النفوذ في ثلاثينات القرن الثامن عشر. وقد استعان كل فريق بقوى تسانده، فانضم عربان الهوارة في الصعيد الى الفقاريين، وانضم بيت «الجلفية» العسكري الى القازدغليين. وقد انتصر البيتان العسكريان (= القازدغلية / والجلفية) ليستأثرا بالسلطة في مصر، وبدأ «الباشا» الممثل الحقيقي للسلطة الشرعية يمارس دوراً تآمرياً للايقاع بين الحليفين، فينكشف امره ويعزلوه عن منصبه، فيغادر البلاد.

وما لبث ان تفكك الاتحاد بين القازدغلية والجلفية في عام ١٧٥٤م، وانفراد زعيم الجلفية رضوان الجلفي بالسلطة في مصر، ودار صراع ثنائي او صل القازدغلية الى السلطة في العام نفسه، ويبدأ الصراع من نوع جديد بين اعضاء البيت القازدغلي الواحد، واستمر الصراع الداخلي من اجل السلطة للفترة ١٧٥٤-١٧٦٨م بين بكوات البيت القازدغلي حتى ظهر من بينهم على بيك بلوت قبان Bulut Kapan أي: «قابض الغمام» لكي يتولى مشيخة البلد عام ١٧٦٠م، فبدأ يزيد من شرائه للمماليك وتجنيده للمغاربة، وما أن استقر عام ١٧٦٩ - ١٧٧٠م، حتى امتلك سلطة فعالة له في مصر. ولكن كيف تأسس نظامه؟

قابض الغمام (الشيطان) علي بيك الكبير:-

لقد وجد في مصر على امتداد زمن طويل، كثير من الزعماء الذين اطلق عليهم لقب «شيخ البلد» في بقية الايالات العثمانية - المغاربية: طرابلس الغرب وتونس والجزائر. وكان «شيخ البلد» في مصر، قد امتد نفوذه واتسعت صلاحياته

السلطوية نحو الريف، بحكم مرجعيته المملوكية في مصر، وقد برز مملوك يوناني الاصل عرف باسم قابض الغمام أو «الشيطان» علي بيك الكبير الذي سيتزعم المماليك من خلال منصبه «شيخ البلد» لفترة ليست بالقصيرة ١٧٥٨- ١٧٧٢م، استطاع خلالها ان يهيمن على التقاليد الامنية، ففرض هيمنته السياسية على الدواخل المصرية، وتوقفت الاعتداءات القبلية، وتجاوز كثيراً بطموحاته امكانات مصر البكوية، وغدا «علي بيك» الحاكم الفعلي لمصر، وخلال السنوات التي اعقبت ذلك، اي بين ١٧٦٩-١٧٧٢م، يكاد ينفرد علي بيك الكبير بحكم مصر الذي يكاد يشبه الانفصال التام عن السلطة المركزية، بقطع علاقاته مع العثمانيين، وتولى الحكم «نيابة» عن الدولة، لكي يمارس سياسة استقلالية توسعية، فغزا الحجاز في سنة ١٧٧٠م. وفي العام ١٧٧٠- ١٧٧١م يمتد نحو بلاد الشام حتى لتغدو متحررة من السيطرة العثمانية.

لقد عزل الوالي العثماني، ومنع وصول الولاة العثمانيين الى مصر. ونصب نفسه قائمقاماً للولاية، وأصدر نقوداً تحمل اسمه واسم السلطان العثماني، وقد أشارت بعض الوثائق الرسمية الى اتخاذه لقب «عزيز مصر» ولهذا اللقب اكثر من دلالة ضمنية واسطورية توضح طبيعة العلاقة بين مصر المملوكية والدولة العثمانية. أما من الناحية التاريخية فقد ارسل علي بيك الكبير حملة عسكرية الى الحجاز، لكي تفرض مرشحه شريفاً على مكة المكرمة، ثم حالف الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا، لكي تهزم قواتهما المشتركة الجيش العثماني، ثم تدخل دمشق، ولكن تنسحب لاسباب غامضة. ان خلافاً قد نشب بينه وبين مملوكه قائد الحملة محمد ابو الذهب الذي اجبر سيده على بيك الكبير للفرار الى عكا بعد نزاع داخلي... وكانت تلك هي بداية النهاية التاريخية لحكم «عزيز مصر»، وعلى الرغم من تحالفه مع الروس ومع ظاهر العمر بغرض التنسيق وترتيب العودة الى القاهرة، فأنه هزم وجرح وأسر ومات في ظروف غامضة.

لقد عرفت مصر «الاتفاقيات» التجارية مع الاجانب في تلك الفترة، فكانت هناك اتفاقية (بروس - علي بيك) سنة ١٧٧٢، ثم اتفاقية (مشو- ابو الذهب) سنة ١٧٧٥م - ثم اتفاقية (ترجو - مراد) سنة ١٧٨٥م وغيرها من الاتفاقيات وكانت مصر قد دخلت في اتصالات خارجية من اجل دعم نفسها عسكرياً ابان الحرب ضد الدولة العثمانية، فاتصل علي بيك الكبير بفرنسا خلال عام ١٧٧٠م للحصول على المدفعية كما انه اتصل بالبندقية في العام نفسه لاغراض حربية.

ونستنتج : أن طموح علي بيك الكبير كان يرمي الى بناء مشروع تاريخي استيراتيجي بشأن خلق دولة مملوكية سورية – مصرية تتحكم في السواحل السورية اساسا وربطها بالساحل المصري على البحر المتوسط، وتوثيق العلاقات الخارجية مع دول اوروبا وروسيا.

ان طموحات افراد بيته ايضا كانت السبب الاساس في سقوط علي بيك الكبير اذ تراجع قائد جيشه محمد بيك ابو الذهب من بلاد الشام بعد احتلاله لاجزاء واسعة منها منسحباً نحو مصر، اذ استطاع عثمان باشا حاكم دمشق ان يحذر ابا الذهب من انتقام الدولة العثمانية من علي بيك الكبير، فاستجاب ابو الذهب مؤكدا انه لم يشارك في التمرد او خيانة السلطان، تاركاً الشام في خريف ١٧٧١م عائدا بقواته الى مصر برفقة اسماعيل بيك احد قواد علي بيك الكبير، فدار الصراع بين علي بيك وتابعه ابو الذهب انتهى لصالح الاخير في شهر ابريل ١٧٧٢م ففر علي بيك الى عند حليفه ظاهر العمر حاكم عكا لمدة عام : حاول العودة الى مصر فهزم عند الصالحية في شهر نيسان / ابريل ١٧٧٣م، ثم مات بعد ايام.

فعادت مصر كرة اخرى الى السيادة الاسمية للدولة العثمانية خلال حكم محمد بيك ابو الذهب الذي كان تابعاً لعلي بيك الكبير. وكان عضواً في البيت القازدغلي وقد نصبت الدولة العثمانية باشا جديداًلمصر ١٧٧٤– ١٧٧٥م بناء على طلب ابي الذهب الذي بدأ بغزو ظاهر العمر الذي تمرد على العثمانيين سنة ١٧٧٥م. وقد توفي ابو الذهب في ١٠ حزيران / يونيو من العام نفسه، كي ينتقل الحكم الى مماليكه الذين غلب على تسميتهم «المحمدية» تمييزاً لهم عن معارضيهم في الحكم «العلوية» نسبة الى علي بيك الكبير.

وعاد الصراع الداخلي من جديد على الساحة المصرية من خلال الانقسام السياسي بين «المحمدية» التي التزمها كل من ابراهيم بيك ومراد بيك، وبين «العلوية» الذين انضموا الى احد تابعي علي بيك واسمه اسماعيل بيك، لكي يفوز هذا الاخير في الصراع في ١٧٧٧م، ثم يشتد التآمر عليه، فيهرب الى اسطنبول، كي تخضع مصر الى ابراهيم باشا ومراد باشا القازدغلية، وقد تنازع الاثنان على السلطة حتى تصالحا في عام ١٧٨٥م، وغدا الحكم ثنائياً الذي تقاسمته هذه الثنائية حتى الحملة الفرنسية الى مصر في تموز / يوليو ١٧٩٨م.

ان ابرز المواصفات التاريخية لمصر العثمانية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر هي:

١– ان السيادة العثمانية على مصر بقيت اسمية لامركزية.

٢– اعتمد العثمانيون كثيراً على المماليك في الحكم المحلي.

٣– ان الدولة العثمانية كانت تستجيب دوماً لمطاليب المماليك.

٤– لقد سادت الصراعات المحلية والانقسامات الثنائية الشديدة.

٥– استخدام البكوات– المماليك لقب أو منصب هو «شيخ البلد» للتدليل على عظم بكواتهم، وهو لقب غير عثماني، بل انه مرادف مصر يقتصر استخدامه عند المماليك فقط.

٦– ساعدت الانقسامات المملوكية الى تبلور تراكيب اجتماعية اقتصادية قوية في بنية المجتمع المصري.

نستنتج ايضا ان حكم علي بيك الكبير يعد ظاهرة تاريخية في التفرد اللامركزي، وصولاً الى حكم الاستقلال عن العثماني، وذلك ما لم يتم، علماً بان تلك «الظاهرة» قد سبقت ظاهرة محمد علي باشا بنصف قرن. معنى ذلك: ان اللامركزية – العثمانية في مصر قد ولدتها الصراعات الداخلية التي عاشتها أزمة الحكم العثماني فيها. لقد أدى تفسخ المماليك ونزاعاتهم في مصر الى تنامي القوى الشعبية وجمهرة فئات الحرفيين وطائفة المشايخ... ولاسيما شيخ مشايخ الجامع الازهر، فانعزل المماليك الذين زجرتهم اقطاب المجتمع. ينبئنا الجبرتي ان الشيخ الحفناوي صرخ في المماليك قائلاً: «.. خربتهم البلاد والاقاليم وعلى أي شيء هذا الحال وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد ... »* ولكن؟ لم يأت آخر القرن الثامن عشر حتى كانت كراهية الحكم التي اصبحت تعم اهالي مصر قاطبة**.

---

* عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الاثار في التراجم والاخبار، جـ ٢، بولاق، ١٨٧٩– ١٨٨٠م، ص ٣٢٤.

** انظر تحليل ذوقان قرقوط، تطور الفكرة العربية في مصر ١٨٠٥– ١٩٣٦، بيروت، ١٩٧٢، ص ٦٢.

الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية:-

١ / **الاوجاق**: اما بشأن «الاوجاق»، فكانت مسؤوليته توطيد الامن في الريف وترسيخ السلطة العثمانية، ومراقبة الاراضي الزراعية، والمحافظة على قنوات الري والاشراف على توزيع المياه بالقرى، وكان اعضاء الاوجاق يستغلون نفوذهم الاداري والسياسي في السيطرة على الاراضي (= اراضي الالتزام)، اي بمعنى : سيطرتهم على ابرز اقتصاديات مصر في العهد العثماني. ان الملتزم بارض قرية معينة — مثلاً ، كان يوزع جزءاً من ارضها على الفلاحين بخراج معين، والجزء الآخر يحتفظ به لنفسه .. ان سيطرة الملتزمين على الاراضي الزراعية تتحول يوماً بعد آخر الى «ملك صرف له» يزرعها لحسابه ويستخدم الفلاحين لزرعها بوساطة السخرة القاسية، وتصبح تلك الارض يوماً بعد آخر من الاملاك الفعلية للملتزمين ما دام بيده رفع ضريبتها وتخفيضها ، وماد دامت له حقوق فيها او بيعها لملتزمين آخرين نظير مبالغ معينة. فضلا عن ان تلك الارض تقدر من بعد موت «صاحبها » الملتزم ملكاً له ولاولاده وورثته، أو انه يخول من يمنحها الى اعوانه المقربين.

٢ / **نظام الالتزام**: ولقد تطور نظام الالتزام بمصر في أواخر القرن الثامن عشر، واقترابه من الملكية دون ان يكون كذلك بالفعل، وذلك لما أصاب الدولة العثمانية من الضعف، ولكن استمر احتفاظ بعض الملتزمين بالارض كالتزام لسنوات طويلة، ونقلها الى ورثتهم... وهذه هي السيطرة الفعلية على الأرض (= وسيلة الانتاج) وليس امتلاكها.. وهو وضع سيتطور خلال القرن التاسع عشر ليأخذ له شكلاً آخر، يمكننا توصيفه بـ «الملكية الفعلية»، وهي الملكية التي مارست القسر على الفلاحين للعمل في الأرض سخرة وتكليفهم بالضرائب الباهظة، ناهيك عما تعرضوا له من نهب وسلب على ايدي البدو الرحل الذين لم يختلطوا بأحد من الفلاحين او النوبيين، وكثيراً ما ثار البدو العربان ضد المماليك والعثمانيين نتيجة تفاعل مسببات معقدة لها ابعادها الاقتصادية والاجتماعية ؛ ولها نزوعاتها النفسية — السلوكية.

٣ / ظاهرة الانقسام:

لقد كان «الانقسام» ظاهرة تاريخية في حياة مصر العثمانية، سواء على مستوى الادارة ام المجتمع ام كليهما معاً، بوصفه نوعاً من الصراع بين البيوتات

المملوكية، وان ابرز انقسام داخل بنية المجتمع المصري، هو ذاك الذي عرفه كثير من المؤرخين بين الفقارية(= الانتماء الى ذي الفقار امير الحج)، وبي القاسمية (= الانتماء الى قاسم بيك الدفتردار)، والمعروف ان هذا الانقسام الشهير قاد الى صراعات طوال قرون من اجل الحصول على اعلى المناصب والثروات والسلطات. وكان المجتمع المصري كثير الاستلاب نتيجة تلك الانقسامات التي احدثت ازمات اقتصادية واضطرابات امنية على رقعة اقليم مصر كاملاً، بل ان الانقسام الداخلي والنزاعات المحلية قادت في فترات من التاريخ العثماني الى ان يبرز صراع خفي ثم علني ضد الدولة العثمانية التي كانت ترسل القوات لمحار بة القبائل المتمركزة في الصعيد ... واستمر الصراع الداخلي في مصر حتى الحملة الفرنسية عليها عام ١٧٩٨م.

٤ / التنظيمات الحرفية:

هناك التنظيمات الحرفية في مصر التي كانت انتاجياتها موجهة نحو الاستهلاك المحلي متمركزة في القاهرة، والتي وصلت الى أوج عطائها في عهد محمد علي خلال القرن التاسع عشر بعد ان كانت قد تدهورت خلال العهد العثماني بعد ازدهارها في العهود المملوكية. وقد نهضت في مصر عدة من الحرف والمهن والصناعات المحلية حتى خلال القرن التاسع عشر. اما الزراعة، فقد ارتبطت بملكية الاطيان وتقسيماتها بين الوجهين: القبلي (= الصعيد)، والبحري (= الدلتا)، وما ساد فيهما من اعراف ونظم وزراعات كلها تختص بالمنطقة ذاتها، وما يستهلك داخل مصر، وما تصدره الى الخارج من محاصيل.

وقد اتبع نظام الاقطاع الحربي. اذ يمنح السلطان ارضاً زراعية لأمراء من سلاح الفرسان السباهية والخيالة، يستقرون فيها، ويشرفون على زراعتها بمعاونة الفلاحين الذين كانوا يتولون زراعتها بصفتهم مستأجرين. واعتمد السباهية في معيشتهم على المحاصيل الزراعية من اقطاعياتهم الممنوحة لهم. وكانوا يمدون الفلاحين بالماشية والبذور، ويستولون على نصف المحصول، وبجباية حصيلة العشر وضرائب اخرى على الفلاحين والأرض*.

* انظر كتاب محمود الشرقاوي، مصر في القرن الثامن عشر (دراسة في تاريخ الجبرتي)، جـ ٢، القاهرة، ١٩٥٦.

اما التجارة ودور مصر الاستراتيجي الكبير في عبور الترانسيت الدولي بين دول عدة كملتقى لقارات ثلاث... وأهمية السلع المصدرة الواردة وتأثير تلك الحركة على جعلها من الاسواق الاقليمية والدولية . وقد اسهمت مصر العثمانية ببعض المنتجات الزراعية، مثل الرز والقمح في تزويد بلاد متعددة، اذ كانت تحقق نمطاً زراعياً يسد الحاجات الاساسية الغذائية للسكان وتصدر الفائض. أما العوائق التي حالت دون انتعاش التجارة الداخلية والخارجية فأبرزها : مشكلة المواصلات وكثرة الرسوم الداخلية... وفوضى النقد والمكائيل والموازين وغارات العربان وقرصنة نهر النيل، والفقر العام... كما وكانت الاوبئة تجتاح مصر دورياً فتفتك بالآلاف من الضحايا*.

١٠- الفوج في السودان الشرقي : السلطنة الزرقاء

امتاز السودان الشرقي الذي يتكون من بلاد النوبة ودنكلة وكردفان والمنطقة الساحلية للبحر الاحمر فضلاً عن الاقاليم الاخرى غرب النيل ام جنوبي السودان الاستوائي ...بأنه العمق الجغرافي - الحقيقي للاقليم المصري اي انه الجزء المكمل

---

* لعل ابرز مؤرخ مصري اهتم بهذا الموضوع ومن خلال دراساته وترجماته وتعليقاته هو د. عبد الوهاب بكر في كتابه «الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر»، ط ١، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٥٤ وما بعدها . وانظر ترجمته وتعليقاته المهمة لكتاب دانيال كريسيليوس، جذور مصر الحديثة، جامعة القاهرة، ١٩٨٥.

لقد عولت ايضا في كتابتي للموضوع اعلاه على اطروحة ستانفورد شو الممتازة والموسومة
Stanford J. Shaw, Ottoman Egypt in the 18 th Century, Harvard Univ. press 1962, pp. 91-156.

وبخصوص الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية لمصر، انظر ما كتبه

د. صلاح هريدي، دور الصعيد في مصر العثمانية ١٥١٧ - ١٧٩٨، تقديم د. عمر عبد العزيز عمر، القاهرة، ١٩٨٤. راجع ايضاً د. محمد رفعت رمضان، علي بيك الكبير، القاهرة، ١٩٥٠ ومن المهم ايضا قراءة «الاطروحة» المخصصة عن علي بيك الكبير ومماليك مصر لـ

John William Livingston , "Ali Bey Al - Kabir and the mamluk resurgence in Ottoman Egypt 1760 - 1772" (Unpublished Dissertation presented to the Faculty of Arts), Princeton Univ., 1968.

اضافة الى . د. ليلى عبد اللطيف، الادارة في مصر في العصر العثماني، مطبعة جامعة عين شمس، ١٩٧٨.

لوادي النيل جغرافياً، ويرتبط بمصر بمسالك برية ونهرية معروفة ورئيسية . أما سكانه فلم نجدهم في تاريخ ما قبل القرن التاسع عشر، كتلة متراصة انثربولوجيا أو اجتماعياً ضمن تنظيم الوحدات الاجتماعية الموحدة، كما عرفت ذلك بقية الاقاليم العربية، تلك التي جمعها ووحدها في كل اقليم نظام سياسي ونزوع ديني واحد يسود عند الاغلبية... اذ نجد ان السودان بقي مجزءاً الى بضع دويلات اسلامية صغيرة، واقاليم قبائلية متعددة، وفي الجنوب القصي حيث الجغرافية الاستوائية كان يسود نظام المجتمع المشاعي – البدائي.

ان ابرز اسرة حاكمة للسودان خلال القرن الثامن عشر هي اسرة «الفونج» التي حكمت سنار، وكانت من أكبر الدويلات، وبلغت اقصى قوتها خلال القرن المذكور، ممتدة من شلال النيل الثالث شمالاً حتى فازوغلي جنوباً، ومن البحر الاحمر شرقا حتى كردفان غرباً... وقد تفككت هذه الدولة فعلاً قبيل مطلع القرن التاسع عشر وكانت دولة الفونج تسمى بـ« السلطنة الزرقاء» التي امتدت حياتها للفترة ١٥٠٤–١٨٢١م. وقد ظهرت في عطبرة وعلى ساحل البحر الاحمر وفي دنكله دويلات منفصلة ومجزأة، وكان قد احرز المماليك في دنكلة نفوذاً بالغاً، اولئك الذين أبعدهم محمد علي باشا عن مصر. ولقد أنهار الفونج اثر احتلال جيش محمد علي باشا لعاصمتهم سنار في عام ١٨٢١م.

وكانت هناك دويلة اخرى اسمها مملكة فازوغلي تطّل على النيل الازرق، وقد اعترفت بتبعيتها الاقطاعية لاسرة الفونج، في بعض الاحيان. اما اقوى دويلات شرق السودان حينئذ، فكانت سلطنة دارفور التي اقامت خلال القرن التاسع عشر علاقات مع السلطان العثماني بوصفه اكبر زعيم قوي في العالم الاسلامي. وامتّدت حياة سلطنة دارفور للفترة ١٦١٠–١٨٧٥م / ١٨٩٦–١٩١٦م.

اما السمات العامة التي اتّصفت بها تلك المماليك والسلطنات والدويلات فانها تشكّل مجموعة من تشكيلات بدائية تضّم قبائل مختلفة عربية وبربرية في الشمال وعربية وزنجية مختلطة في الوسط، اما في الجنوب، فقد قطنته قبائل النيل الزنجية، وكان الحضريون قليلي العدد*.

* P.M.Holt. A Modern History of the Sudan. London 1960.

١١٠ القرمانليون في طرابلس الغرب :

إن العهد القرمانلي ١١٢٣-١٢٥١هـ/ ١٧١١-١٨٣٥م هو امتداد فاصلٌ بين العهد العثماني الاول لطرابلس الغرب ١٥٥١-١٧١١م، وبين العهد العثماني الثاني لها ١٨٣٥- ١٩١٢م وقد تميّز بسماتٍ واضحة، إذ برزت ملامح عهد وصفه المؤرخ عمار جحيدر بـ«المستعرب»، المحليٍ، المستقلّ، فالعهد القرمانلي ادّى الى الاستقلال السياسي عن السلطة المركزية للدولة العثمانية، وهو من الحركات الاستقلالية المبكرة التي شهدتها بعض الولايات العربية في المشرق والمغرب. وقد منحت هذه الحركة للبلاد شكلاً نسبياً من اشكال الدولة بالمفهوم الحديث..»* .

تميز حكام طرابلس خلال هذا العهد بقوة شخصيتهم ، وتكاثر في بلاطهم عنصر جديد تمثلّ بالكراغلة او «الكرغولية» وهم المولدون من آباء اتراك وامهات ليبيات او جوار اوربيات .. وقد اتيحت لهم امتيازات مشهودة .. وطبعوا شكل الحكومة اللامركزية ونزوعها المحلي بالاعتماد على العناصر الليبية، واستخدمت اللغة العربية في ايام القرمانليين وعلى ايدي الكراغلة، وقد كان احمد باشا مؤسس الاسرة القرمانلية نفسه من هؤلاء !

ويصف المؤرخ الليبي الفقيه ابو عبد الله محمد بن خليل بن غلبون (ت ١١٧٧هـ/١٧٦٣-١٧٦٤م) بلاده الطرابلسية وقد شهدت بوادر حركة فكرية عربية واضحة المعالم. وكان الامن مستتباً والاوضاع الاقتصادية حسنة. وكان الباشا نفسه يرعى العلماء. ويهتم بهم على عكس من سبقه في حكم طرابلس من الولاة الاتراك .. فضلاً عن شهوده لمجالس القضاء للفصل بين الناس بحضور العلماء. وكان الاستقرار السياسي قد هيأ المناخ اللازم للازدهار النسبي في الحياة الادبية، وغدت طرابلس مقصد العلماء والادباء والرحالة، وتّوسع المجتمع

---

* د. عمّا جحيدر، مصادر الحياة الفكرية في ليبيا العهد القرمانلي ١١٢٣-١٢٥١هـ/ ١٧١١-١٨٣٥م»، المجلة التاريخية المغربية ، السنة (١٧) ، العدد (٥٩-٦٠)،اكتوبر ١٩٩٠، جـ٣، ص ٥٨٦.

كثيراً وتميز رجالاته وصفوة شخصياته، وزخرت ادبياته بكتب التاريخ والتراجم واليوميات والشعر والادب*.

كما كان للجزائر تاثير بالغ على تونس فقد كان للايالة تأثيرهم البالغ على ولاية طرابلس الغرب التي تأسست فيها اسرة سلالية حاكمة عرفت بالأسرة القرمانلية والتي نجحت في حكم تلك «الايالة» المطلة على البحر المتوسط وتمتلك موقعاً استراتيجياً عليه، وهي جزء جغرافي من البلاد التي اطلق قديماً عليها اسم «سيرينايكا» (Cyrenaica) المقابل للصحراء الكبرى والفاصل بين تلك الصحراء والبحر، ويتاخم ذلك الاقليم المجاور لتونس اقليم برقة المجاور لمصر ويرتكز كل منهما على رأس مثلث تمثّله واحة فزان في الصحراء. والتي تعتبر نقطة اتصالات تجمع خطوط التلاقي لكل من السودانيين: الشرقي والغربي معاً، فضلاً عن انها نقطة انطلاق نحو اعماق افريقيا.

نجحت الاسرة القرمانلية في حكم تلك «الايالة» من خلال ابنائها الستة على مدى قرن وربع القرن اي للفترة ١٧١١–١٨٣٥م، فقد استطاع احد الجنود الاناضوليين، من الاستيلاء على الحكم فيها، واسمه احمد بن يوسف بن مصطفى، وذلك في ٢٩ تموز/ يوليو ١٧١١م، أي بعد ست سنوات من استيلاء حسين بن علي على الحكم في تونس، وقد قضى احمد على معارضيه بقسوة، حين تمكّن من تأسيس حكمه، وانقسمت الاسرة القرمانلية على نفسها ايضاً كمؤسسة حاكمة لاقليم تنّوعت اقتصادياته ومسالكه ومنافذه الخارجية.

---

*راجع التفاصيل في: ابي عبد الله محمد بن خليل بن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار، عني بنشره وتصحيحه والتعليق عليه: الطاهر احمد الزاوي، القاهرة ١٣٤٩هـ (اعيد طبعه بطرابلس / ليبيا، ١٩٦٧)، ط١، ص ٢٠١–٢٠٦ وانظر ايضاً. عمر علي بن اسماعيل، انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا ١٧٩٥–١٨٣٥، طرابلس ١٩٦٦ –د. كولا فولايان، ليبيا اثناء حكم يوسف باشا القرمانلي، ترجمة د. عبد القادر مصطفى المحيشي، مراجعة د. صلاح الدين السوري، طرابلس (مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي)/ ١٩٨٨.

-- اسماعيل كمالي، وثائق عن نهاية العهد القرمانلي، عربها وعلق عليها. محمد مصطفى، بيروت، ١٩٦٥

كان حكم الاسرة القرمانلية اضعف قليلاً من الحكم الحسيني للايالة التونسية، فكثيراً ما تدّخل الحسينيون لحّل المشكلات المستعصية التي عاشتها طرابلس الغرب عندما كانت علاقتها مع الباب العالي علاقة اسمّية والتي انتهت لصالح المركزية العثمانية اثر الحملة البحرية التي قادها نجيب باشا، وبتوجيه من السلطان محمود الثاني ، فتمّت السيطرة على ميناء طرابلس الغرب سنة ١٨٣٥م، وانتهى عهد الاسرة القرمانلية هناك*.

ولقد كان من اهم أسباب اعادة سيطرة الادارة المركزية على طرابلس الغرب.

١- سياسة السلطان محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩م، في التنظيمات الاصلاحية، وسياسة عبد المجيد الاول ١٨٣٩- ١٨٦١م في التنظيمات الخيرية.

٢- احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠م ، شكّل خطراً حقيقياً على بلدان المغرب العربي بصورة كاملة .

٣- نمو خطر محمد علي باشا في مصر، من خلال سياسته التوسّعية لتاسيس دولة مصرية قويّة.

هكذا - عادت طرابلس الغرب الى الحكم العثماني المباشر، فبدأ عهد الولاة الاتراك الذي استّمر حتى الاحتلال الايطالي لليبيا عام ١٩١١م.

١٢. الحسينيون في تونس :

علمنا - ممّا سبق - عن كيفيّة انتهاء حكم الاسرة المراديّة في الايالة التونسية خلال الفتنة العائلية والانقسام بين اولاد الباي مراد، لكي يأتي الحسينيون من البايات الجدد على ايدي الجزائريين ، وذلك بعد ان انتخب العلماء والاعيان احدى الشخصيات المدعوة بـ« اغا الجند» حسين بن علي بن تركي باياً على تونس في يوم ١٠ تموز/ يوليو ١٧٠٥م، وقد نجح الباي الجديد في اخراج الجزائريين من

---

* من افضل المراجع التاريخية في هذا الموضوع . رودلفوميكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلي . ترجمة : طه فوزي (حرر عربيا تحت اشراف د. محمد شفيق غربال) القاهرة، ١٩٦١.

بلاده، وحصوله على مرسوم يجعل منصبه وراثياً في اسرته. وقد حكم تونس تسعة عشر باياً حسينياً على مدى قرنين ونصف القرن، أي حتى يوم ٢٥ تموز / يوليو ١٩٥٧م؛ وقد أثّر هذا التكوين السياسي / الاقليمي في بناء شخصية تونس وخصوصيتها الحديثة في تاريخ العرب الحديث.

شكّل الحكم الحسيني اذاً، ظاهرة تاريخية مقارنة بتواريخ السلالات الحاكمة في تاريخ العرب الحديث*، فهو اطول عهد اداري لا مركزي - عثماني متميّز، ثم اكتسب له شخصيته الوطنية بعد الانهيار العثماني، وبقي عهداً سياسياً في ظل الحماية حتى اعلان النظام الجمهوري الجديد، والغاء نظام البايات الذي كان قد افتقد قاعدته العثمانية، وبقي مستّمراً معتمداً على بنيته الاقليمية، وعلى صمود التوانسة خلال ايام النضال الطويلة.

لقد ترسّخ نظام الحكم الحسيني في تونس على الرغم من الانقسام الذي عاشته الاسرة: وأثره على انقسام البلاد. حكم حسين بن علي بن تركي للفترة ١٧٠٥-١٧٤٠م، استطاع ان يثّبت مكانة اسرته بعد أن ردّ هجوم الجزائريين على تونس ويلغي منصب «الداي» ويقرر نظام الحكم في اسرته ١٧١٠-١٧٣٧م، إذ يقضي خلال هذه السنوات على التمّرد العائلي ويخمد انتفاضة ابنه الذي كان قد تمكّن من الاستيلاء على العاصمة عام ١٧٣٧م، بساعدة اتراك الجزائر، وخلال الفترة ١٧٣٧-١٧٤٠م، لجأ حسين بن علي وابناؤه الآخرون الى القيروان، فانقسمت تونس الى قسمين: قسم خاضع لحسين وابنائه وهو القسم الجنوبي، والقسم الآخر: تابع لنفوذ ابنه علي باشا.

اما العهد الاخر ١٧٤٠-١٧٥٩م، فقد تميّز بمحاولات استعادة ابناء الحسين لسلطان ابيهم، وخاصة خلال الفترة ١٧٥٢-١٧٥٩م، عندما شقّ يونس بن علي باشا عصا الطاعة على ابيه، ويتمّرد وينتفض الا انه يفشل في حين يعيد محمد الشريف الابن الثاني لعلي باشا التجربة المريرة ويقتل اباه سنة ١٧٥٩م.

---

* ان ابرز مؤرخ تونسي للبايات الحسينيين في تونس هو احمد بن ابي الضياف في كتابه المشهور، اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان، ط ١، تونس، ١٩٦٣.

ويبرز عهد حكم علي باي الثاني ١٧٥٩-١٧٨٢م. وهو محمد الشريف الذي نشأ خلال هذه الفترة خلاف بينه وبين فرنسا بسبب ضم فرنسا لجزيرة كورسيكا، فقام علي باي بتحطيم الممتلكات الفرنسية، ويأتي الردّ الفرنسي متمثلاً بغارات على ميناء حلق الوادي التونسي، وعلى مدن مثل : بنزرت وسوسه والمونستير. وينتهي الخلاف على المناطق الاستراتيجية - الساحلية - البحرية عام ١٧٧٠ بعقد الصلح، واقرار المصالح الفرنسية في كثير من المدن التونسية.

لقد تقدّم علي باي الثاني في السن، فبدأ باشراك ابنه حمودة باشا في الحكم عام ١٧٨٢م. وفي العام الموالي، توفى علي باي الثاني لكي يبدأ عهد جديد متمثلاً بحكم حمودة باشا ١٧٨٣-١٨١٤م الذي يعد من اشهر بايات تونس في عهدها الاول، والذي حكم تونس فترة طويلة *. وتميّز حكمه بالقوة وصراع القوى الخارجية، إذ اشتعلت الاحداث الساخنة للفترة ١٧٨٤-١٧٨٥م، بنشوب حرب ضدّ البندقية وتعود اسبابها الى استئجار التوانسة مركبة بندقية خرجت بهم الى مالطه. وهناك القي القبض عليهم، واحرقت بضاعتهم، فطالب حمودة باشا من البندقية بتعويض التجار، فردّت البندقية برمي موانيء سوسه وحلق الوادي باسطولها، وفي عام ١٧٨٥م، رضيت البندقية بدفع الغرامة .. وخلال تلك الفترة استعيدت بشكل نهائي جزيرة جربه من حاكم طرابلس الغرب.

وفي عام ١٨١١م، ينتفض الجيش الانكشاري، بخروج فرقة منه على الباي، وتعتصم في قلعة القصبة بسبب خطط حمودة باشا بابعادها عن السلطة، وقد استطاع حمودة باشا من القضاء على انشقاق الجيش باغتنامه الفرصة المؤاتية، وقيامه بالغاء نظام الانكشارية في تونس. واعتمد في تكوين جيشه العربي الجديد الذي تألفّ من قسمين :

جيش المخازنية وجيش المزارقة. اما علاقاته الدوبلوماسية - الخارجية، فقد توطّدت علاقات تونس توطداً كبيراً مع فرنسا والدانمارك وبلدان اوروبية اخرى.

يمكن القول بأن الباي حمودة باشا هو المؤسس الحقيقي للاقليمية التونسية الحديثة التي انبثقت بشكل منظّم ومؤسس خلال النصف الثاني من القرن الثامن

---

*Detalis in ,Mohamad Salah Mzali, L'Herdite dans la dynastie Husseinite , maison tunisienne de L'Edition 1969.

عشر، وأنه دون شك قد تأثر باحداث الثورة الفرنسية وأفكارها ومبادئها التي عاصرت عهده التاريخي المخضرم بين قرنين، فانبثقت خلاله المعالم السياسية، وبرزت الشخصية الدولية التونسية اسوة ببقية التكوينات «الادارية» اللامركزية في بقية الاقاليم العربية ذات الوزن الاقليمي / الجيوبولتييكي في الدواخل العربية..

ان نهج الاسرة الحسينية الحاكمة قد مورس في تونس بفعالية بالغة، وقد خدمته عناصر جغرافية واقتصادية. لقد ترافق عهد الباي حمودة باشا بعهد السلطان سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧م، ابو التحديث العثماني .. فضلاً عن ان حمودة باشا يمّثل اهمية بالغة في التطورات الاقتصادية التونسية، ومباشرته اقامة توازن داخلي بين الدولة والاقليم (= الايالة)، وبين الاخذ بالتعريب الى مختلف المجالات القيمية في حياة المجتمع التونسي، الى انعاشه للاقتصاديات التونسية، واصلاحه للموانئ، وتأمينه للاسعار والاسواق والانتاجيات .. الخ.

فكيف جرى ذلك؟

لقد استعان حمودة باشا بالعرب في المؤسسة العسكرية والمناصب الادارية، فضلاً عن استخدامه اللغة العربية، لغة البلاد الاصلية بدلا من اللغة التركية في الدواوين الرسمية والمعاملات الادارية والمخاطبات الدوبلوماسية .. كما انّه سلّح الجيش تسليحاً حديثاً على النمط الاوروبي، واستعان بالخبراء والمهندسين والاطباء للعمل في تونس، كما أنّه انشأ المصانع الحربية، والابراج، وبسط الأمن. وصار الاقتصاد التونسي منتعشاً بتأمينه لاسعار رابحة، واسواق خارجية للانتاج الزراعي التونسي وخاصة بعد سنة ١٧٨٧م، وحال دون النفوذ الاجنبي، إذ حافظ على استقلال تونس ولكن ابقى علاقة ايالته (= دولته) التونسّية وثيقة بالعاصمة اسطنبول من خلال الادارة العثمانية اللامركزية، فلم تنفصل تونس، كما انها لم تحاول الانفصال عن الدولة.

تولّى الحكم عبد ذلك محمود باي ١٨١٤-١٨٢٤م، وفي عهده وقع الصلح مع الايالة الجزائرية ورسمت بموجبه: الحدود على نحو نهائي بين الايالتين، بعد ان عاشتا نزاعاً مستديما منذ مطلع القرن التاسع عشر.

معالم تونس السياسية والادارية :

في عهد حمودة باشا برزت المعالم السياسية والادارية، ويعود ذلك الى سياسة الحسينيين، وبخاصة الى حمودة باشا الذي عمل على وضع مؤسسات ادارية ثابتة، وقد تأثر حمودة باشا في وضعه لهذه المؤسسات بالنظام الحفصي وبالنظم العصرية الاوروبية في آن واحد. ويمكننا توضيح ابرز تلك المعالم ادناه:

المناصب السياسية : ابتداء من القرن الثامن عشر، اعتبر «الباي» في تونس، هو الحاكم المطلق الذي يجمع السلطات الاساسية في يده. وقد استطاع ان يستقل وينفصل ذاتياً وليس رسمياً عن العاصمة الاستانة، إذ لم تكن بينه وبينها الا العلاقات الوديّة بين المركز والاقاليم، إذ انه يعترض بالسلطة الروحية للسلطان العثماني ، ويصكّ النقود باسمه مقابل تقليده منصب «الباشا» اي اعتراف الاستانة بحكمه الاقليمي، واحترامها للراية والشخصية التونسية. وفي سنة ١٨٠٧م، استطاع حموده باي ان يلغي الجزية السنوية التي كان يقدّمها الباي التونسي الى داي الجزائر، فضلاً عن السلطة السياسية إذ كان الباي يملك حق السيطرة والتصرّف بالموارد الاساسية كتجارة الملح والجلود والحبوب .. وكان يعين اناساً يقومون بالتزام تلك الموارد والاحتكام في قضاياها.

الوزارة والكتبة : يعيّن الباي وزراء وكتاباً من بينهم الاتراك المقيمون في البلاد، واعيان حاضرة تونس، اي : كبار التجار والعلماء وملاك الاراضي. ومن اهم هذه المناصب : منصب «صاحب طابع» ويقابله حالياً حافظ سر الدولة ومنصب الخزنة دار أي : وزير المالية ، ومنصب باش كاتب او وزير البلاد ومنصب الكاهية او وزير الحربية .. ولم يكن هؤلاء اي سلطة فعلية بعكس ما تبرزه مضامين عناوينهم، فقد كانوا ينفذّون اوامر الباي فقط.

- **الديوان** : عرف الديوان الحاكم عدة تغيرات ، ففي البداية كانت صلاحياته عسكرية فقط، منها - على سبيل المثال - : البت في المنازعات بين اعضاء الجالية التركية، ودفع رواتب الجيش، وتوسّعت صلاحياته قليلا قليلاً في عهد البايات والدايات، إذ كانت قد اضيفت اليها صلاحيات سياسية وادارية ولكن جزئية.

- **المؤسسات الادارية**: لقد قسّمت الايالة التونسية الى (٢٤) مقاطعة وهذا العدد لم يأخذ شكله النهائي، الاّ في اواخر النفوذ الحسيني الاول، ويشرف على كل مقاطعة قائد (ويدعى بالتونسية قايد او كَايد) يعينه الباي من بين ضباط الجيش، او أعيان القبائل الموالية للسلطان. ويجمع «القايد» مهام متباينة كقيادة عساكر، وجباية ضرائب، وفصل في الشؤون الادارية .. في المقاطعة، ويساعده «قاض» للبت في الشؤون العامة للسكان. وقد كان القايد يختص بقسم من الضرائب التي يجمعها لصالح الباي .. وفي اغلب الاحيان كانت حصة القايد تتعاظم على حساب السكان المحليين. وأن أهم المقاطعات التونسية في العهد الحسيني، كانت تدعى «اعمال» أو «عملات» ومن ابرز المقاطعات: قابس و صفاقس وسوسة والمونستير وتوزر ..الخ.*

٠١٣ الدايات الجمهوريون في الجزائر :

مقدمة :

الداي: مصطلح تركي قديم معناه «الخال» ولم يستخدم هذا المصطلح بصورة رسمية الاّ في ايالتي تونس والجزائر .. ويمنح حامله مرتبة فخرية في الدولة. وكان من العسير الحصول عليه، إذ يجب ان يكون صاحبه قد اثبت جدارة وكفاءة في القتالات التي نشبت في عرض المتوسط، ثم اصبح هذا اللقب يمنح لرئيس فرقة الحرس الوطني من الانكشاريين، وتطّور نظام العمل في هذه المنظومة العسكرية لكل من تونس والجزائر على مدى اكثر من قرن كامل .. وابتداء من سنة ١٧٠٥م، وغدا لقب «الداي» من حق الطبقة التاسعة في الايالة التونسية .. وكثيرا ما تّردد المصطلح في عدة من العقود الدبلوماسية للقرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر.

وعليه، فان «الداي» كان اعلى منصب اداري في الايالة الجزائرية، وقد تمتّع الداي الجزائري بعد انحسار السلطة المركزية - العثمانية منذ سنة ١٧٧١م،

---

* لا بّد من الاشارة الى الجهود العلمية التي بذلها بعض المؤرخين في تاريخ تونس (الحسينية) اذكر منهم. د. عبد الجليل التميمي وتوفيق بشروش ورشاد الامام ومحمد العزيز بن عاشور. و من المؤرخين الغربيين: شارل اندريه جوليان وكارل براون وروبرت منتران ومايكل ايبالزا وغيرهم.

بصلاحيات سياسيّة وادارية شبه مطلقة. ويتم الحصول على شرعيته الادارية باقرار الباب العالي لحكمه الرسمي الذي يقف فيه على رأس السلطة التنفيذية في الايالة، فضلاً عن تمتعه بصلاحيات فوق العادة باعتباره الحاكم الاعلى لها، والقائد العام للجيش الذي يتوزّع في اركانها .. فضلاً عن قيامه بمهام السياسة الخارجية. اما انتخابه فيّتم من قبل الاوجاق والديوان ويمثلهما كبار موظفي الدولة من مدنيين وعسكريين .. ومن بين ثلاثين داياً حكموا الجزائر، لقي اربعة عشر منهم مصرعه قتلاً .

يشّكل عصر الدايات في الجزائر المرحلة الرابعة والاخيرة من الحكم العثماني لها. وتعد فترة تاريخية طويلة مقارنة بالمراحل التي سبقتها، فقد دامت اكثر من قرن ونصف القرن من تاريخ الجزائر العثماني ١٦٧١-١٨٣٠م، تتابع على حكمها ٣٠ دايا، كانت سلطتهم محدودة ومراقبة من قبل «الديوان» (أي : ديوان الاوجاق) الذي يمّثل هيئة مراقبة لسياسة الحكام التنفيذية، اي انه كان بمثابة «مجلس سيادة» او «قيادة» او «رئاسة جمهورية» مقارنة بما هو الحال في تاريخنا المعاصر.

اما القّوة السياسية في الجزائر كأبعد ايالة عثمانية غرباً خلال عصر الدايات فقد تذبذبت بين سلطة «الداي» من طرف ونفوذ «الديوان» من طرف اخر، فاذا كان الداي يمتلك قوة سياسية نافذة، فهو دون شك سيتمتّع بسلطة مركزية متمّرسة وفعالة، ويفتقد «الديوان» نفوذه السياسي - الاقليمي . اما اذا كان العكس فان الحاكم سيصبح مسيّرا وفقاً لرغبات اعضاء «الديوان»*.

التركيب التاريخي للجزائر :

وينقسم عصر الدايات الى ثلاث فترات تاريخية ، هي :

١- فترة الحكم المحلي لريّاس البحر ١٦٧١-١٦٨٩م (خلال القرن السابع عشر)

إذ كان الداي ينتخب من طائفة ريّاس البحر، وهي الفئة التي قامت باسترجاع الحكم من يد الاغاوات. واصبح لقب «الداي» يحمله حاكم الايالة ابتداءً من سنة

---

* انظر محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني حتى الاحتلال التونسي، دمشق، ١٩٦٩.

١٦٧١م، ولم يكن هذا قد تبلور في وجوده مع بداية القرن السابع عشر في الجزائر. كان الداي في بداية الامر تختاره سرية الرياس البحريين الضعيفة، ثم اصبح ينتخب من ضباط الجيش ابتداءمن سنة ١٦٨٣م (السنة التي خسر العثمانيون فيها امام جيوش قوى التحالف الاوروبية اثر الحصار العثماني الثاني لـ ڤينا بتاريخ ١٤-١٧/ تموز- يوليو ١٦٨٣م). وتعد هذه الفترة قصيرة .. تذبذب الحكم فيها بين ريّاس البحر والانكشارية. وانتهت بتمرد الانكشارية ضد الداي. فقاد الاخير نفسه للهرب نحو اسطنبول، وهو الداي ابراهيم خوجة، فنصّب مكانه الداي الحاج شعبان خوجة في عام ١٦٨٩م، وهو من طائفة الاوجاق الانكشاريين.. لكن تبدأ مرحلة تاريخية مهمة اخرى من عصر الدايات. يقول المفكّر سمير أمين: «كان القرن السابع عشر عصر القرصنة الذهبي، وقد بلغ عدد سكان مدينة الجزائر مائة الف نسمة في ذلك العصر، فضلا عما بين ٢٥ و٣٥ الف اسير استطاعت قدرة اوروبا البحرية في القرن الثامن عشر، ان تحّد من نشاط القراصنة المتجمعين في طوائف (طائفة الريّاس Rais)»*.

٠٢ **فترة الحكم الانكشاري شبه المطلق ١٦٨٩-١٧٧١م:** والتي تنتهي خلالها مداخلات طائفة ريّاس البحر في السلطة الادارية للبلاد، وتغدو السلطة كاملة بأيدي ضباط الانكشارية، إذ اصبح الداي منذ سنة ١٦٨٩م، يختاره الضباط الانكشاريون بينهم. ان هذا الاسلوب المتفّرد هو الذي منح الجزائر العثمانية نظاماً حكوميا يشابه الى حد كبير الحكم الجمهوري المعاصر في طبيعته السياسية التي تمخض عنها هذا القرن، اذ كان الداي يمارس سلطة شبه مطلقة في مجال جمع الضرائب، وحفظ الامن الداخلي في ايالته باقاليمها المتعددة.

٠٣ **فترة الحكم المطلق للداي: انحسار المركزية كاملة:** انحصرت هذه الفترة بين ١٧٧١-١٨٣٠م، إذ تعززت سلطة الداي كثيراً واعتبرت سنة ١٧٧١م حدا فاصلاً بين عهدين تاريخيين مختلفين. تميز العهد الجديد ببلورته للكيان الاقليمي الجزائري، بحيث تخلّص الدايات من الباشا المبعوث الذي اعتاد الباب العالي ارساله الى ايالة الجزائر، ليّمثل الدولة العثمانية اصدق تمثيل في علاقته

---

* سمير امين، المغرب العربي الحديث: ترجمة: كميل ق. داغر، ط٣، بيروت، ١٩٨١، ص١١٧.

الادارية بالسلطة المركزية. لقد تقرر ذلك بعد منع مبعوث السلطان الى الجزائر عام ١٧٧١م، فامتنعت اسطنبول عن تنفيذ اسلوبها القديم. واسندت لقب الباشا الى الدايات، فغدوا يجمعون بين اللقب القديم (الداي) واللقب الجديد (الباشا) ويستحوذون على مهام الجهاز التنفيذي المحلي لحكم الجزائر. وقد انتهى هذا العهد باحتلال فرنسا للجزائر، وهو اخر عهد عثماني عرفته الجزائر قبل وقوعها بيد الاستعمار الذي دام احتلاله عليها ١٣٢ سنة، اي للفترة ١٨٣٠–١٩٦٢م.

نظام الحكم :

اعتمد نظام الحكم في الجزائر العثمانية على تشكيل هيكلي للسلطة التنفيذية التي يسّيرها «الاوجاق» وهو الجهاز العسكري. وقف «الداي» المنتخب من قبل «الاوجاق» من بين اعضائه رأساً للنظام، يساعده «الاغا» وهو حاكم ينتخبه الاوجاق ايضا، وهو منصب يقابل «وكيل الوالي» او «المتسلّم» في الاعراف التنفيذية / الادارية في ولايات المشرق العربي. وهناك «الخزناجي» الذي يشرف على خزينة الدولة، وتتوزع الانفاقات في قضايا شتى تتصل بمتطلبات الايالة البحرية والوقفية والعسكرية والخيرية والخدمات العلمية والقضائية وخدم القصر والصدقات والتركات والهدايا للحرمين الشريفين والدنوش (=الهدايا المرسلة الى اسطنبول) . والعمران والاصلاحات، وبناء القصور والحدائق وتوفير المياه. وترميم الموانئ والجسور والابراج والطرق والاسواق ..الخ.

وكان من اكبر المسؤولين على بيت المال «وكيل الحرج الكبير» مع مهمته في مراقبة الاسطول البحري .. وتتراكم في بيت المال مجاميع الايرادات المستخلصة عن المواريث ، وعمليات النشاط البحري والغنائم والرسوم.. وتشكل عائداته مصدراً مهماً للدخل القومي في جزائر الديات .

اما مناصب الجهاز الاداري الكبرى الاخرى، فهناك: المكتباجي الذي يشرف على السجلات الرسمية للحكومة. والدفتردار – اي المفتش العام للدولة، والرقماجي المختص بسجلات الشؤون الخارجية يساعدة في مهامه ترجمان خاص تحت تصرفه. وهناك جملة من الموظفين الصغار الذين ينتشرون في مختلف الاجهزة والهياكل الادارية، وهم على شكل مجاميع، فهناك: مجموعة

الخواجات ومجموعة القياد ومجموعة الحكام ومجموعة الضباط المتقاعدين، ومجموعة الخدم والشواش . اما بقية الوظائف المهمة فهي: الشيخ الناظر (= المشرف على الحبوس)، والمحتسب (صاحب الشرطة الضبطية) والمزوار (المكلف بتطبيق العقوبات)

اما التقسيم الاداري للايالة الجزائرية ، فقد قسمت الى اربعة اقاليم ادارية دعيت بـ «البايلكات» ، هي :

١. اقليم مدينة الجزائر (= دار السلطان) وقاعدته العاصمة الجزائر.

٢. بايلك الشرق، ومركزه مدينة قسنطينة.

٣. بايلك الغرب،، ومركزه مدينة وهران (التي غدت مركزاً له سنة ١٧٩٢م، بعد ان ابتدأ مركزه بمدينة مازونة، ثم انتقل الى مدينة «معسكر» سنة ١٧١١م).

٤. بايلك التيطري (= الوسط) ومركزه مدينة المّدية (وهو اصغر البايلكات الثلاثة وافقرها).

وهكذا، فإن سلطة الدايات في العهد العثماني لم تتجاوز في واقع الامر سدس بلاد الجزائر الحالية .. اذ كانت تنتشر في باقي اللواحق الصحراوية والنجود والبطائح امارات محاربة وطرقية ودويلات قبلية وقبائلية - بربرية.

اما اقاليم ايالة الجزائر والمذكورة آنفاً ، فيقف على رأسها«بايات» يستمدون سلطاتهم الادارية من الداي نفسه الذي يقيم في عاصمة الجزائر (مركز دار السلطان) . ويقوم الداي بتعيينهم في مناصبهم الادارية،حسب اختياره الفردي، وغالباً ما يكون الباي من المقربين، وله سمعته وحظوته في مجلس الديوان. اما اختصاصات الباي الحقيقية، فهناك تشابه كبير في المناصب الادارية، والصلاحيات التنفيذية في البايلكات الثلاثة، برغم اختلاف اوضاعها واقاليمها من النواحي الجغرافية والاقتصادية والاثنوغرافية. فالباي يقوم باقرار السلطة المحلية ، وتنفيذ صلاحياته الادارية على وجه اكمل للحيلولة دون انتفاضة وعصيان القبائل في الارياف الخارجية جغرافياً عن نطاق المدن والحواضر

الكبرى. كما ويهتم بالمرافق العامة في المدن التابعة لاقليمه، ويحرص ايضاً على ضمان خزينة البايلك ومواردها، ثم توفيره لمبالغ ضخمة يبعث بها فصليا الى مركز السلطة (=الداي)، وذلك مع خليفته، وهي التي يطلق عليها اسم «الدنوش الكبرى» ، فهي التي يتّوجه بها الباي شخصياً للداي وحاشيته كل ثلاث سنوات.

ولكل بايلك جهاز اداري تحت تصرف وامرة الباي وادارته، ويتألف من مناصب عديدة تتوّزع المسؤوليات التي تخص الديوان المحلي للاقليم، ومن ابرز المناصب: الخليفة والباش خزناجي واغا الدائرة او «اغا العرب» كما يسمى ايضاً، وهناك شيخ البلد، وقائد الدار والباش كاتب .. فضلاً عن وظائف اخرى كالباش سايس والباش علام وغيرها*.

---

* انظر . د. سيار الجميل ، العثمانيون وتكوين العرب الحديث، ص ٤٥٦ — ٤٥٧ .



الفصل السادس



٦ الفصل السادس

تكوين مصر الحديث في القرن التاسع عشر
الحملة الفرنسية- وظهور محمد علي باشا

مقدمة:

في مطلع القرن التاسع عشر، وقع في مصر، اي في قلب الوطن العربي حادثان تاريخيان خطيران اطاحا كثيراً بتوازن القوى السياسية في المشرق العربي. ومنذ تلك اللحظة التاريخية، بدأت التغيرات الواسعة باتجاه الغرب تتبلور عند العرب. كان الحدث الأول: احتلال نابليون بونابرت لمصر ومباشرته غزو بلاد الشام بين عامي ١٧٩٨– ١٨٠١م مشكلاً بذلك تهديداً كبيراً لقوة بريطانيا الاستعمارية في الهند، والسيطرة على خطوط مسالكها البرية والبحرية في اكثر من مكان، مما ادّى الى تدخل بريطانيا العسكري وهزيمة بونابرت براً وبحراً،علماً بأن محاولات الدولة العثمانية من خلال ولاتها وامرائها من الحكام والزعماء الاقليميين والمماليك قد دافعت دفاعاً مستميتاً امام الزحف الفرنسي، الاّ أن القوى البحرية البريطانية حسمت كل شيء لصالح اهدافها، وظهرت صورة بريطانيا في الوطن العربي كونها دولة تصون استقلال هذه الامبراطورية «الاسلامية»، وتحافظ على سلامة اراضيها. وعدت حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام من ابرز الاحداث التاريخية الخطيرة في حياة التاريخ العربي الحديث، وفاتحة بارزة للقرن التاسع عشر، اضافة الى كونها من ابرز وقائع التاريخ البشري الحديث.

اما الحادث الاخر فكان احدى نتائج الحادث الاول، وذلك هو تعاظم نفوذ محمد علي باشا في مصر، ذلك الرجل الذي يعد المؤسس الحقيقي للكيان السياسي المصري الحديث. كما يعد عهده: قاعدة تاريخية صلبة تطوّر عليها ومن خلالها المجتمع المصري ودولته الحديثة. لقد التفت محمد علي الى الجيش باعتباره السند القوي لدولته في البر والبحر بعد ان وجد جيش مصر القديم، وقد اصبح بالياً رثا باجهزته وانظمته واعرافه وتقاليده، وانه لا يستطيع الصمود أمام القوى العسكرية المتقدمة، كما اوضحت التجربة المصرية المدافعة امام جيوش بونابرت، كما وأدرك محمد علي باشا بان تقدم الاوروبيين كان كبيراً في هذا الميدان وميادين اخرى. وعليه، فقد كان طموحه ان يبني جيشاً مصرياً عصرياً في اجهزته وقوانينه واسلحته وعلى النمط الاوروبي. لقد نجح محمد علي باشا في بناء دولة جديدة وتحديث مجتمع جديد، كما واستطاع ان يؤسس كياناً سياسياً واجتماعياً متأثراً كبيراً بالمظاهر التاريخية التي تميزت اوروبا بها خلال القرن التاسع عشر.

١- حملة نابليون بونابرت على مصر

١/ الاسباب والظروف التاريخية:-

لقد ازداد تأثير الموقع الاستراتيجي لمصر منذ القرن الثامن عشر بفعل نضوج عوامل ودوافع متعددة، كان من ابرزها: تفاقم حدّة الصراع الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا بعد أن عقدت شركة الهند الشرقية البريطانية (East India Company) في ٧ آذار/ مارس ١٧٧٥م مع حاكم مصر المملوكي محمد بيك ابو الذهب، وقبل وفاته بأشهر قليلة. وفي سنة ١٧٧٨م، اعلنت فرنسا الحرب على انكلترا التي بدأت تستفيد من موقع مصر كثيراً.. وفي حين اشتعلت الثورة الافرنسية في ١٤تموز/ يوليو ١٧٨٩م، وفي حين اشتد الغلاء بمصر كثيراً، وشاعت المجاعة في المجتمع المصري، وصار يموت كل يوم جملة من السكان المصريين في الوقت الذي كان الفرنسيون يصدرون حكم الاعدام على ملكهم لويس السادس عشر، ويؤسسون جمهوريتهم في سنة ١٧٩٢م، وعلى مدى سنوات، كان بونابرت يحرز انتصاراته الفرنسية على حساب اراضي ايطاليا والنمسا.. وفي حين كانت تقارير الرحالة والقناصل الفرنسيين تصل الى باريس مطالبة الحكومة الفرنسية باحتلال مصر والاستفادة من موقعها الجغرافي بين

القارات القديمة الثلاث، فضلاً عن استثمار مواردها الاقتصادية والسيطرة على البحر الاحمر الذي يهدد مسالك انكلترا في البحار الشرقية نحو الهند والشرق البعيد، وأن طريق مصر سيزهر التجارة الفرنسية واختراق نهر النيل نحو أعماق اقريقيا، فضلاً عن مركزيتها تجاه آسيا الغربية وشمالي افريقيا... وكلها ستكون اسواق رائجة لمستقبل الاقتصاديات الفرنسية.

هكذا، فان صيرورة فرنسا على ذلك الشكل سيجعلها تهدد الاحتكارات الصناعية للرأسمال الانكليزي.. وقد صرح القادة الفرنسيون بأن احتلالهم لمصر سيفتح الطريق امامهم الى الهند، وما كان ذلك ليتم دون انشاء مستعمرة من اجل مستعمرات العالم.. وخشيت فرنسا من الاسطول البريطاني اولاً، ومن غضب الدولة العثمانية ثانيا، إذ كانت بريطانيا تمتلك اعظم الأساطيل في العالم عصر ذاك، وربّما ستمنى فرنسا بكارثة بحرية على يديه. اما الدولة العثمانية فقد كان لفرنسا علاقات طيبة معها منذ عهد السلطان سليمان القانوني في النصف الاول من القرن السادس عشر، وقد حصلت على اعتراف السلطان سليم الثالث بالجمهورية الفرنسية عام ١٧٩٤م، ولكن حكومة الادارة في فرنسا اقتنعت في نهاية المطاف بغزو مصر واتخاذها مركزتوسع وامتداد في الوطن العربي، وقاعدة لضرب المصالح البريطانية في البحار الشرقية والهند والشرق البعيد، وخرجت على العالم باسباب واهية.

٢ / الاحداث التاريخية للحملة الفرنسية:-

نصب الجنرال بونابرت من قبل حكومة الادارة قائداً لجيش الشرق في ١٢ نيسان/ ابريل ١٧٩٨م، واصدرت بياناً توضح فيه أسباب الغزو، ذلك، بأن حكومة الادارة لما وجدت أن البكوات المماليك حكام مصر، وقد اتصلوا بالانكليز بصلات وثيقة.. وانهم يمارسون الاعمال العدائية، والمظالم المريعة ضد الفرنسيين، وان الحكام المماليك يضطهدونهم وينهبونهم ويقتلونهم. وعليه، فقد كلفت الجنرال بونابرت لقيادة حملة عسكرية كبيرة على مصر، وطرد الانكليز من بلاد الشرق والقضاء على مراكزهم التجارية، وعهدت اليه مهمة حفر قناة السويس من خلال البرزخ الموصل بين البحرين: المتوسط والاحمر، وضمان حرية الملاحة الفرنسية في البحر الاحمر.

أبحرت الحملة الفرنسية من ميناء طولون في ١٩ أيار/ مايس ١٧٩٨م، وهي مولفة من ٣٦,٠٠٠ مقاتل مع عدّتهم من الاسلحة والمؤن، ورافقها ١٤٦ رجلاً من العلماء والمستشرقين والاطباء والفنانين والرسامين برفقة ادواتهم وكتبهم وأجهزتهم، كان من بينهم اعضاء في الاكاديمية الفرنسية، لغرض تقديم صورة مفصلة عن مصر وتوابعها.

استولت الحملة الفرنسية على جزيرة مالطة في ٩ حزيران/ يونيو ١٧٩٨م، واتخذها بونابرت قاعدة عسكرية موصلة بين الطرفين، علماً بأن الحملة كانت تمضي دون أي اعلان، إذ كانت سرّية في تحقيق اهدافها تخوفاً من الانكليز ومطاردة اسطولهم القوي الذي كان يسيطر على البحر المتوسط بقيادة الادميرال نلسون Nilson وبعد جزيرة كريت، التفت الحملة البحرية في أواخر شهر حزيران لكي تقترب من الشواطئ المصرية ، وكان نلسون قد غادر ميناء الاسكندرية قبل ذلك بثلاثة ايام بحثاً عن اتجاه الاسطول الفرنسي في البحر المتوسط.

نزلت قطعات الفرنسيين قرب مدينة الاسكندرية في ١ تموز/ يوليو ١٧٩٨م وكان اهالي الاسكندرية يستعدون لتحصين قلاعهم، ويتطوعون للقتال، وارسل حاكم الاسكندرية يطلب النجدة العسكرية من مماليك القاهرة الذين لم يأخذوا الامر مأخذ الجد، ولا سيما وان الفوضى السياسية كانت قد عمت مصر، بتنازع ابراهيم بيك ومراد بيك على حكمها، واستهانوا بتحذيرات المسيو روستيه Rosetti قنصل النمسا في القاهرة.

دافع سكان مدينة الاسكندرية عن مدينتهم وانتشر الجيش الفرنسي في المدينة بعد فقدانهم قرابة ١٢٠ قتيلاً وجريحاً.. ثم سيطر بونابرت على الوضع واندفع مباشرة زاحفاً نحو القاهرة، وصادف جيشه مشكلات واتعاباً كثيرة، منها: قلة الغذاء والماء والحر الشديد، وغارات العربان، وقرب اهرام الجيزة كانت معركة «امبابه» أو «الاهرام» بين الجيش الفرنسي الحديث والجيش المملوكي المتخلف الذي لم يصمد امام نيران الفرنسيين فأنقسم الى قسمين:

رحل الاول الى بلاد الشام بقيادة ابراهيم بيك، وانحدر الثاني نحو الصعيد بقيادة مراد بيك، متكبدين خسائر جسيمة، مقارنة بالخسائر الفرنسية القليلة. واستسلمت القاهرة التي دخلها الفرنسيون في ٢١تموز/ يوليو ١٧٩٨م، وانتشر

فيها الجنود الفرنسيون يوزعون منشور بونابرت بالعربية الذي كتبه بعض المستشرقين الذين رافقوا حملة بونابرت.

اعلن قائد الحملة بونابرت في منشوره عن مشروعه مشيراً بعد ان بدأه بالبسملة الى المبادئ الحرة للثورة الفرنسية في الحرية والعدل والمساواة، ودورها ضد التسلط الذي يمارسه منذ زمن بعيد سناجق المماليك والذين ظلموا واذلوا واحتقروا وأذوا وتعدّوا على التجار، وإن المماليك قد أفسدوا في «الاقليم الحسن» «يا أيها المصريون.. إنني ما قدمت اليكم الاّ لاخلّص حقكم من يد الظالمين...». وإن الجميع يتساوون عند الله، ولم يميزهم الا عقلهم وفضائلهم وعلومهم فقط، وبين هذه والمماليك بون كبير، ثم هدّد بونابرت من يتفق مع المماليك ضد فرنسا بالاعدام وحرق القرى.

شرع بونابرت بتنظيم الادارة المصرية، ومن ابرز اجراءاته: تشكيل ديوان حكومي في مدينة القاهرة، ودواوين في المديريات المصرية تعمل الى جانب الحكام العسكريين الفرنسيين، فضلاً عن تشكيله مجلسا استشارياً للنظر في مختلف القضايا ومناقشتها.. وقد طرح هذه المسألة بهدف بلورة الآراء للاعيان المصريين. لقد حاول بونابرت ان يخلق نظاماً جديداً بديلاً عن النظام المملوكي القديم، ولكن على وفق الاسس والمرتكزات التي ارادها بونابرت، كان ان رفض الشعب المصري تلك الاجراءات، وانتشرت المقاومة الشعبية بين صفوفهم ضد الفرنسيين.

بقي الجيش هو الذي يمتلك السلطة الفعلية، ولم يكن لسلطة «الديوان العام» الذي تألف من ٤ أيار/ سبتمبر ١٧٩٨م من أثر فعال؛ إذ هيمن عليه الفرنسيون فلم يخالف اوامر الجيش. وقد ضمّ الاعيان والملاك والتجار والمشايخ والعلماء من الذين رحبوا ببونابرت، ووصل عددهم الى (٢٥) عضواً يشكل تسعة منهم اعضاء للديوان الخاص الذي يواصل اجتماعاته في القاهرة، فضلاً عن ان في كل مديرية ديواناً خاصاً بها يتألف من (٩) اعضاء.

٣/ نابليون بين نار الانكليز وثورة المصريين:-

عاد الاسطول البريطاني بعد سقوط القاهرة بيد بونابرت الى السواحل المصرية بقيادة نلسون. فدّمر الاسطول الفرنسي في موقعة ابي قير البحرية في ١

آب / أغسطس ١٧٩٨م، أي بعد شهر تماماً من نزول الافرنسيين أرض مصر، لقد قضى نلسون على احلام بونابرت في استخدام البحر لمواصلة القضاء على المراكز البريطانية الاستراتيجية وخاصة في الهند، وكان لتلك الموقعة تأثير نفسي بالغ على الفرنسيين، إذ انقطعت ا الاتصالات بين فرنسا وبونابرت، فاضطر للاعتماد على مصر في كلّ ما يحتاج إليه جيشه من ذخيرة وغذاء.

لقد أدّى احتلال فرنسا لمصر الى توّجه الدولة العثمانية للتحالف مع روسيا عدوّتها القديمة ضد فرنسا صديقتها القديمة في ٢٣/ ١٢/ ١٧٩٨م، كما تّم عقد معاهدة تحالف بين العثمانيين وبريطانيا في ٥/ ١/ ١٧٩٩م، وبذلك ضمن كل من الروس والانكليز مصالح استراتيجية لهم في الدولة العثمانية ومياهها الاقليمية.. وعبثاً ذهبت محاولات القائم بالاعمال الفرنسي في اسطنبول المسيو روفين -Ruf fin، وقد أوحى للمسؤولين فيها أن الحملة الفرنسية لمصر لم توّجه ضد الدولة العثمانية، وأن فرنسا ترغب جدياً وبصدق ابقاء العلاقات الودّية القديمة بينهما. ولم يقنع العثمانيون بذلك، بل قاموا باعتقال القناصل والرعايا الفرنسيين و مصادرة املاكهم وممتلكاتهم.

لقد اختمرت عدّة اسباب لانفجار الثوة في مصر، كان من ابرزها اعلان السلطان العثماني الحرب على فرنسا، وعما كان من تذّمر المصريين من الاجراءات الاقتصادية والضرائبية والمصادرة.. وما كان من اختلاف سبل الحياة المعيشية وانقطاع التجارة، وتأثيرات الحصار البحري.. وغدا الجامع الازهر بؤرة من بؤر الثورة، إذ تشكلّت في افنائه قوى المقاومة واعلنت الخطب وشارك في التجمعات الخطباء والعلماء والمشايخ والمدرسون.. فاعلن العصيان في ٢١/ ١١/ ١٧٩٨م، وبدأت الاضطرابات والاضرابات والتظاهرات التي سارت الى مركز القيادة الفرنسية تعلن سخطها وشكواها، واشترك الفلاحون في الحركة، ووقع بعض الفرنسيين قتلى قرب مخافرهم، وازدادت الفوضى اثر الهجومات على العسكريين والموظفين والجباة..

سارع بونابرت الى قمع الثورة باطلاق جنوده الرصاص، وضرب الجامع الازهر بالمدافع، وتفجّرت القنابل، وسقط العشرات من الشهداء، واحرقت عدة من القرى والمزارع. وكان قاسياً جداً بحيث قدّر عدد الذين سقطوا قتلا وحرقاً وتحت الانقاض بأربعة آلاف شهيد.. فتقدّم اليه المشايخ يطلبون منه وقف القتال، ولكن

حتى بعد توقفه انتشر الرعب في كل مكان؛ إذ بدأ فتك الجنود الفرنسيين بالمصريين، ولكن أثمرت الثورة نتائج بالغة الاهمية، منها تغيير بونابرت سياسته التي إتبّعها سلفاً، والقائمة على التودّد والمجاملة، فقد عطّل مجلس ديوان القاهرة مدة شهرين. ولكنه اعاده بعد مدة زمنية، ثم بدأ بزرع الشقاق الطائفي في مصر بين المسلمين والاقباط.

٤ / نابليون يغزو سورية:- محاولة فاشلة

ما ان علم بونابرت بالحملة العثمانية المتوجهة نحو مصر في شهر شباط / فبراير ١٧٩٩م، حتّى قرّر تجهيز حملة برّية بهدف غزو سورية، لكي يسيطر على موانئها، فيقف حائلاً بين العثمانيين ومساعدات الاسطول البريطاني لهم بالمؤن والتجهيزات والعدد، فسقطت العريش بيده ثم الرملة وغزة ويافا. وفي شهر آذار / مارس ١٧٩٩، ضرب بونابرت وجيشه حصاره حول مدينة عكا ودام الحصار ثلاثة أشهر، واستبسل اهاليها بالدفاع عنها تحت قيادة زعيمها احمد باشا الجزار، واضطر بونابرت للانسحاب لما واجه من المصاعب والتعقيدات، وانتشار الطاعون بين قواته.. فضلاً عن كثرة الاسرى الذين وقعوا بايديه، فأمر باعدامهم جميعاً. ولكن مكوثه لم يطل كثيراً.. إذ سرعان ما عاد الى مصر ليوكل بونابرت الجنرال كليبر امور قيادة الحملة، فواجه كليبر سنة ١٧٩٩م ثورة عارمة اخرى في القاهرة، واطلق عليها في كثير من الكتابات التاريخية بـ« ثورة القاهرة الثانية». وقد تفوّق النضال كثيراً، فأقيمت المتاريس، ونجح الثوار في إقامة معمل بارود وصنع القنابل، وسادت مصر روحٌ تعاونية. وقد قاوم كليبر الثورة الثانية بقسوة ورهبة، وقد طوّق القاهرة، وقصفها بالمدفعية، واضرم النارَ في الاحياء المصرية الثائرة، فذهب العشرات من الناس تحت الانقاض..

كانت الثورة بمثابة انذار مصري للفرنسيين بالرحيل.. وهكذا، شعر كليبر بعدم القدرة على البقاء في مصر، فأرسل الى العثمانيين يطلب فضّ حالة النزاع القائم بين الدولتين، وبدأت المفاوضات الفرنسية- العثمانية التي انتهت بمعاهدة العريش في كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٠٠م، والتي كان من ابرز بنودها: جلاء الفرنسيين عن مصر بصورة كاملة، والرحيل على سفن عثمانية وفرنسية دون

قيد او شرط، واعترضت الحكومة البريطانية ان يتسلم الفرنسيون اسرى حرب، فرفض الفرنسيون ذلك، وبعد تغيّر الموقف الاوروبي، اشترك الفرنسيون في المفاوضات مع الانكليز، وتّم الاتفاق على الجلاء سنة ١٨٠١م.

وسعى السلطان سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧م الى عقد اتفاقية جديدة مع فرنسا والتي وقعّت في شهر حزيران/ يونيو سنة ١٨٠٢م، لكي تنتهي حالة الحرب بين الطرفين. برز على أثرها ما يعرف بـ«الامتيازات الاجنبية» التي أضرّت بالمصالح العليا والتاريخية لمعظم الاقاليم العثمانية.

٥/ نتائج الحملة الفرنسية:-

كان من ابرز نتائج الحملة الفرنسية على مصر العسكرية والمدنية ذلك التأثير البالغ الذي اصاب مصر لكي تبدأ حياتها النهضوية الحديثة في قلب الوطن العربي و تأثّر بقية الاقاليم العربية بها... وعلى الرغم من فشل الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام وقصر حياتها، وانها لم تحقّق اهدافها السياسية والاستراتيجية والعسكرية الا ان تلك الحملة:

١- شكلت صدمة قوّية للمجتمع المصري الذي كان يعيش حياة سبات وسكونية مطلقة على مدى عصور الحكم المملوكي ولا سيما خلال العهد العثماني الطويل، فكانت الحملة الفرنسية بمثابة اليقظة والأنتباه.

٢- تعد الحملة الفرنسية اول تحدّ استعماري- غربي تعرّضت له دواخل الوطن العربي خلال التاريخ الحديث،إذ تعرضت مصر وبلاد الشام الى التحدي الاوروبي بالقوة.

٣- أثرت الحملة الفرنسية في تنبيه الشعور القومي/ العربي مقارنة بالشعوب والقوميات الاخرى، والتعاطف العربي مع مصر، ونصرتها من قبل بلدان المغرب العربي وبلاد الشام والحجاز والعراق.

٤- أتاحت الحملة الفرنسية للمصريين ان يقفوا عند ظواهر التفّوق الاوروبي الذي لم يألفوه في السابق، وبدأ- منذ ذلك الوقت- الجدل حول ما هو تقليدي وما هو عصري مستحدث!

٥ – ولدت الحملة الفرنسية اتجاهاً في المجتمع المصري يرمي نحو التغريب Wester- nization- بعد ان تزعزعت الافكار والمفاهيم والنزوعات، فكان للحملة تأثير بالغ في بناء مفاهيم جديدة في المجتمع المصري.

٦ / اعمال الحملة الفرنسية :–

اما الاعمال العلمية والخدمية لبونابرت في حملته على مصر، فيمكن حصرها بالجوانب المهّمة التالية :–

١– تأسيس مجمع علمي في ٢٢ آب/ اغسطس سنة ١٧٩٨م، وكانت له أهدافه في تقدّم العلوم والمعرفة والدراسة والبحوث الطبيعية والتاريخية الخاصة بمصر، ثم ابداء الاستشارة للحكومة، كان من ابرز منجزاته: تأليف كتاب مهم جداً عنوانه: «وصف مصر» بالافرنسية "Discription De' L' Egypte" والمتألف من مجّلدات عدة.

٢– تأسيس مطبعة عربية وأخرى فرنسية، وهما أوّل مطبعتين أسّستا في الوطن العربي، اصدرتا جريدتين فرنسيتين الاولى للاخبار والثانية للعلوم.

٣– العثور على حجر رشيد الذي نجح العالم شابيليون في حل رموز الخط المصري القديم (– الهيروغليفي)، ومن خلاله كشف عن جوانب واسعة من التاريخ المصري القديم.

٤– الاهتمام الكبير بالفنون والروايات التمثيلية من خلال تأسيس المسارح واقامة دار الاوبرا في قلب القاهرة.

٥ – قرر بونابرت تحقيق فكرة ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر، فانيطت دراسات عدة لذلك المشروع الكبير الى المسيو ليبير الذي قال بأن فتح القناة سيغرق مصر، ونشر المشروع في كتاب «وصف مصر»، فاستفاد منه فيما بعد رجل الاعمال الفرنسي فرديناند دي ليسبس F. De. lesseps.

٦- الاهتمام بالخدمات العامة كانارة الشوارع، وفتح المدارس والمستشفيات*.

٢- محمد علي باشا بين صراع القوى الداخلية وتكوين الدولة الحديثة

١/ عهد التحوّلات:-

يعّد عهد محمد علي باشا في مصر عهد تحوّلات كبيرة ليس في التكوين السياسي والاقليمي فحسب، وإنما الاقتصادي والاجتماعي، وتأثّر به الوطن العربي تأثراً كبيراً وعليه، فقد عده أغلب المؤرخين والدارسين العرب والاجانب «مؤسس مصر الحديثة» على الرغم من الاختلاف في وجهات النظر حول تقويم سياسته الداخلية، وتطلعاته وعملياته الخارجية.. وعلينا أن نوضّح على درجة من التفصيل والدّقة عملياته الواسعة في سبيل بناء الدولة وتحديث المجتمع ضمن سلسلة من الاجراءات والتطبيقات التي أنجزها في ميادين شتّى، والتي قضت على البنية المملوكية القديمة وتبعاتها، وأصابت في تركيب بنية مصرية جديدة لا تزال نتائجها فعّالة وعملية في مختلف مفاصل المجتمع المصري بقدر او بآخر حتى يومنا هذا وعلى امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين.

أ- انحسار القوى السياسية:

غادر الفرنسيون ارض مصر بعد احتلالهم الذي دام ثلاث سنوات، ووجدت مصر نفسها تواجه ثلاث قوى سياسية مؤثرة، هي: القوات البريطانية والعثمانية

---

* من الاهمية البالغة مراجعة كتابات ثلاثة مؤرخين قدماء تحدثوا عن تجربة نابليون في مصر و هم. عبد الرحمن الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والاخبار»، وحيدر الشهابي في كتابه «الغرر الحسان» ونيقولا الترك الذي خصّص كتابه «ذكر تملّك جمهور» عن الحملة الفرنسية على مصر. انظر:

Pierre Giffard, Les Francais en Egypte, Paris, 1883.

- د. محمد فؤاد شكري، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة ١٩٤٩.
- احمد حافظ عوض، فتح مصر الحديث او نابليون بونابرت في مصر، القاهرة، ١٩٢٥.

والمملوكية التي احتلت مصر بعد الفرنسيين. وبدأت بالنهب التجاري، والاجبار على دفع الضرائب التي بلغت أربعة اضعاف الضرائب السابقة.. قتلوا وذبحوا واغتصبوا، واستولوا على البضائع والاموال وحمولات السفن،وأهملت الزراعة، وكان التذّمر قد وصل الى أعلى درجاته.

وكان هناك صراع بين العثمانين والبريطانيين حول سيطرة كل منهما على مصر المملوكية، وقد رأى السلطان سليم الثالث ١٧٨٩–١٨٠٧م، الذي كان يرى أن أهم وسيلة لتعزيز السياسة العثمانية في مصر إنما يتمثل بابادة المماليك. وقد نجحت بعض الحوادث التاريخية بين الاتراك والمماليك في مدن عدة.. وكان المماليك قد أحتجز عدد كبير منهم من قبل العثمانيين، وعندما هدّد الانكليز بقصف القاهرة، اضطر العثمانيون الى اطلاق سراح ٢٥٠٠ مملوك وتسليمهم للانكليز الذين استقبلوهم وكرموهم وطلب قائد الاسطول العثماني بشكل مهين سحب الاسطول العثماني من مصر، وبرغم التهديدات البريطانية، فأن السيطرة البريطانية انتهت بصورة سريعة، وغادر الانكليز مصر بعد تنفيذ شروط معاهدة صلح إميان بين انكلترا وفرنسا التي وقعت في ٢٧/ ٣/ ١٨٠٣م. لقد غادر الانكليز مدينة الاسكندرية في شهر آذار عام ١٨٠٣م، ولكنهم لم يوقفوا خططهم التوسعية كما هو حال فرنسا التي خبرت شؤون الشرق، وبدأ كل من الانكليز والفرنسيين بالتمهيد لتمثيل فصول تاريخية أخرى في الحركة الاستعمارية التي ستكون في اعنف حالاتها خلال القرن التاسع عشر التي ستقفل عند مطلع القرن العشرين ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى.

ب– الصراع القديم:–

اما مصر فقد بدأ فيها صراع دموي بين العثمانيين والمماليك للفترة الواقعة بين ١٨٠٢–١٨٠٤م إثر مغادرة الانكليز. وقد منيت القوات العثمانية بخسائر فادحة بعد تحالفات أجراها المماليك مع شيوخ البدو والنوبيين، فتمكّنوا من سحق الاتراك، واستمرت الخلافات والتمرّدات، كما وتواصلت حالة التخّبط العثماني، ففي خلال شهر واحد مارس الحكم ثلاثة باشوات على التوالي.. وتآلف المماليك مع وحدة من الالبانيين كانت منضّمة الى عداد الجيش العثماني، وهي وحدة عسكرية من

المرتزقة. وفي شهر أيار/ مايس ١٨٠٣م، استولت القوات المملوكية– الالبانية المتآلفة على القاهرة، وبدأ حكم سلطة ثلاثية تتكّون من «بكين» مملوكين ومن قائد الباني اسمه محمد علي وكان شاباً في ريعان الشباب كي تبدأ صفحة جديدة لتاريخ مصر الحديث على يديه.

السؤال الآن. من محمد علي باشا؟

٢/ شخصية محمد علي باشا:–

ولد محمد علي عام ١٧٦٩م، في مدينة كافاله(قوله) باقليم مكدونيا، وتنطوي قصة حياته على أساطير وتناقضات، الاّ انه علي ما يبدو، عاش طفولة يتيمة مترعرعاً في احضان اسرة غريبة، واشتغل في تجارة التبغ. وعندما بلغ الثلاثين من العمر التحقّ بكتيبة البانية، وأظهر في الجيش موهبة وشجاعة، فغدا قائدا للقوات الالبانية التي دخلت في عداد الجيوش العثمانية المرسلة الى مصر.. وفي مصر، رسم وخطّط لكي يكون على رأسها في يوم من الايام فتحالف مع المماليك، معلناً، معهم حرباً على الباشوات العثمانيين، فتمكّن المماليك من فرض ارادتهم في مصر لأول مرة بعد عشرات السنين عاشوا خلالها جملة من التناقضات والانقسامات والصراعات الداخلية. وعليه فقد استعادوا سلطتهم وممتلكاتهم، فابعدوا الاتراك وبدأوا بنهب الشعب برئاسة عثمان البرديسي الذي وقف ضدّ الانكليز من خلال عميلهم المملوك محمد الالفي الذي أبيدت كتيبته العسكرية أمام المماليك، وهرب بنفسه الى الصحراء.

لقد انفجرت الثورة ضد المماليك من قبل ابناء الشعب المصري بطبقاتهم الاجتماعية المختلفة إثر تأثرهم بالسياسة الجائرة التي اتّبها الاقطاعيون المماليك. فانتهز مفجّرو الثورة تلك الانقسامات الموجودة داخل معسكر المماليك، وكان على رأسهم شيوخ الازهر من رجال المسلمين، وجرى التخطيط بامتناع السكان عن دفع الضرائب في وقت واحد وبدأوا بقتل الجباة، فدارت رحى حرب شوارع في مدينة القاهرة. وقد حوصر قصر زعيم المماليك عثمان البرديسي ودّمر في يوم ١٢ آذار/ مارس ١٨٠٤، وفّر البرديسي من القاهرة.

كاد الامر يعصف بتحالف حلفاء المماليك في الامس القريب من الالبانيين. وفي لحظة تاريخية من لحظات الثورة كان محمد علي بارعاً في اختيارها لكي ينحاز الى جانب الثوار بعد ادراكه تعاظم نفوذهم في الشوارع التي تؤدي جميعها الى مركز اشعاعهم من الجامع الازهر الذي وصله محمد علي لكي يلقي هناك خطابا في اجتماع كان يعقده الشيوخ الكبار، وقد وعدهم ببذل جهوده لالغاء الضرائب عن كاهل الجماهير المصّرية. وان يكون حامياً للمصالح الشعبية المشتركة. موجّهاً كتائبه الالبانية القّوية لمحاربة المماليك .

كانت عملية مناورة بارعة، وربما كان هناك اتفاق سابق بين المشايخ الذين قادوا النضال السّري، ثم الثورة العلنية، وبين محمد علي ضد المماليك.. فاختاره مجمع الشيوخ «قائمقاماً» اي : نائباً لباشا مصر . اما الباشا وهو منصب يقع في الصدارة فقد اختير خورشيد باشا الحاكم العثماني في الاسكندرية لكي يمثله .

٣/ تنصيب محمد علي باشا :

حاصرت قوى المماليك مدينة القاهرة بعد طردهم منها، ومنعوا حركة الاتصالات معها، الاّ انها قاومت الحصار الذي استّمر اكثر من اربعة اشهر، فتراجع المماليك منها بعد ان تنامت قوة محمد علي، وشاعت مواصفاته في قيادته الدفاع عن القاهرة، فعده الشعب زعيماً منقذاً له.. وقد أثار هذا كلّه السلطة المركزية في اسطنبول : كيف ان ضابطاً ألبانياً يرتفع مقامه بهذه السرعة، فوصل أمر ارجاعه الى وطنه، ولكن اثار ذلك التذمر عند مختلف الاوساط المصرية، وأعلن الاحتجاج بالاضرابات التي قام بها التجار والحرفيون والصناع، واعلن المشايخ عن الاستياء، وارسلت تنديدات بالقرار العثماني، فاضطر الباب العالي الى الغاء مرسومه.

لقد كانت الفرصة مؤاتية امام محمد علي لكي يرسخ اقدامه خلال شتاء عام ١٨٠٤– ١٨٠٥م بملاحقته على رأس قواته شراذم المماليك في الوجه القبلي، في حين بدأ خورشيد باشا يمارس سياسة قمع واضطهاد بمعونة انكشاريته، فرض الضرائب القاسية، واستأنفت حالات النهب والعنف وأخذ الرهائن، وظهرت صورة الانكشارية مشابهة جداً لصورة المماليك ..في حين كان الشعب بدأ

الاستقامة إثر الصدمة التي سببتها له حملة بونابرت، والثورة على المماليك، فلم يكن مستعداً لتحمل إضطهاد الانكشارية له، فاندلعت انتفاضة شعبية جديدة في القاهرة في شهر أيار / مايس ١٨٠٥م، فلوحقت فلول الانكشارية واطيح بزعيمهم خورشيد باشا .. لكي ينادي مجمع الشيوخ بمحمد علي هذه المرة حاكما على مصر.

لقد تحّدث في ذلك المجمع عمر مكرم داعياً الى تعيين والٍ جديد، فاشار الى محمد علي، وكتبت وثيقة بتاريخ ١٣ أيار/ مايس ١٨٠٥م جاء فيها «تمّ الامر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيره بالعدل، وإقامة الاحكام والشرائع وانه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن». واضطر السلطان سليم الثالث ان يعترف بمحمد علي والياً على مصر، لأنه كان مقتنعا بضعف جيشه العثماني ليس على التّوسع بل عن الدفاع .. وعلى الرغم من محاولاته عزل محمد علي، فانه تراجع عن قراره ، وكان سليم الثالث قد اتّبع خططاً تحديثية لتخليص الدولة والمجتمع والجيش من طابع القرون الوسطى، الا ان نظامه الجديد باء بالفشل نتيجة الحركة التراجعية المضادة له، وفي عام ١٨٠٧م أطاحت به الانكشارية ثم قتل بعد ذلك، لكي يغدو مثلاً تاريخياً بارزا في تفكير محمد علي الزعيم الجديد لمصر عند مطلع القرن التاسع عشر.

٤ / الزعامة والتكوين السياسي :

لقد استغل محمد علي المسرح السياسي المصري لصالح زعامته وسياسته معاً في حين بدأت تتفاعل عليه دسائس كل من الدولتين : بريطانيا وفرنسا ضد مصر، واستطاع محمد علي بحذقه وحنكته استغلال الصراع الداخلي في البنية المملوكية، وقضى على زعيمي المماليك : محمد الالفي وعثمان البرديسي منقذاً المصريين منهما، ثم طارد المماليك دون توقّف .

كان من نتائج الحرب الفرنسية – الانكليزية انحياز الدولة العثمانية الى جانب فرنسا، ورفضت انذارات بريطانيا، ومطالبيها المتعددة.. ولّما لم تفلح خطط انكلترا من اقتحام البوسفور وتدمير اسطنبول ، قرر الانكليز بالهجوم على مصر ، فانزلوا في ٢٧ أذار / مارس ١٨٠٧م قواتهم في الاسكندرية ، فخاض المصريون

نحت زعامة محمد علي حربهم ضد المحتل، وسحقوا عدة وحدات انكليزية كانت تتقدم نحو القاهرة التي بدأ اهاليها بتحصينها، ولما لم يكتب للانكليز النجاح في التقدم نحوها انسحبوا بعد فشلهم في اثارة المماليك بتمرّد جديد .. زحف محمد علي نحو الاسكندرية مما دعا قائد القوات البريطانية الى طلب الصلح. وفي شهر ايلول / سبتمبر ١٨٠٧م ركبت القوات البريطانية الباقية سفنها وغادرت السواحل المصرية. وعندما دخل محمدعلي الاسكندرية صفقت له الجماهير بحرارة، وعدّ بطلا وطنيا ذاد عن اراضي مصر ضد الاجانب.

هكذا، وجد محمد علي باشا ساحة مصر مفتوحة كلها امامه دون ان ينازله احد السلطة عليها، ولكنه كان يخشى بقايا المماليك الذين سهل امامه مطاردتهم. واخيرا، نظّم مذبحة القاهرة في شهر اذار / مارس ١٨١١، ثم مذبحة سنا بعد عام، فقضى عليهم قضاءاً مبرماً لم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وبقي عدد قليل ينتشر في الفلوات فاراً نحو السودان. لقد قضى عليهم بعد ان استمر وجودهم في مصر قرونا طويلة كانوا عليها من اسوء الحاكمين.

ولم يتخلص محمد علي باشا من المماليك فحسب، بل استطاع يوما بعد آخر من التخلص من نفوذ المشايخ وعلماء الدين ونقيب الاشراف بعد ان اكتشف مخاطرهم ونقاط ضعفهم في المجتمع والسلطة معا. فاستطاع ان يبعدهم ويفرقهم واحدا بعد الآخر.

بدأ محمد علي باشا يعمل على ترسيخ كيانه السياسي بعد انفراده بالسلطة ومزاحمته القوى الخارجية في البحر، وابعاده شبح المماليك ونفوذ المشايخ وزعماء الشعب في البر. وكان على راسهم عمر مكرم الذي نفاه الى دمياط. ولم يبق الا الجنود الالبانيون الذين تخلص منهم ايضاً بعد ان وجدهم يميلون نحو السكان. وكان عدد اولئك الجنود قليلا. ولم يعد اخضاعهم للانضباط العسكري.

لقد استمر عهد محمد علي باشا اكثر من اربعين سنة استطاع خلاله ان يغيّر كثيرا من واقع مصر المملوكية العثمانية، كي تأخذ دورها السياسي في الحياة

الدولية والاقليمي في الحياة العثمانية، والعسكري في الحياة العربية*.. فكيف تّم ذلك؟ لنتوقف قليلاً عند تفاصيل تلك التجارب التاريخية :

٣- التوسع المصري في الاراضي العربية والصراع الدولي :

مقدمة :

كان لمحمد علي باشا والي مصر، كثير من الاهداف السياسية من وراء بنائه لجيش مصري كبير، واسطول بحري ضخم، وقد أعلن مرارا عن رغباته الجامحة في التوسع والامتداد، وكانت اقواله وتصريحات (ولده) إبراهيم باشا تعلن بصراحة عن خط معتقداتهما بخصوص وضع اليد على الاراضي السورية، وعسكرة الجيوش المصرية عند ضفاف نهري دجلة والفرات. وكان يجد في الروابط التاريخية، والعوامل الجغرافية صورة مركزية لمصر ضمن اتجاهات متعددة، اكسبتها مزايا استراتيجية واقتصادية في مطلع القرن التاسع عشر.

لقد خاض جيش محمد علي باشا حروباً متواصلة في البر والبحر، واستطاع ان يسيطر على اجزاء شاسعة من المشرق العربي: بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، فضلاً عن السودان الجنوبي، واليونان وجزرها ، واجزاء من الاناضول. وعلى الرغم من تطلعاته للوصول الى المغرب العربي، الاّ انه لم يخضع للارادة الفرنسية بكسب جولة او مغامرة من نوع آخر على أراضي تونس او الجزائر .. مكتفيا بأخذ واحة سيوه ، ناهيك عن ان محمد علي باشا لم يفكر باحتلال طرابلس الغرب برغم قربها منه وسهولة تنفيذ ذلك عسكريا.

---

* لقد كتب الكثير عن محمد علي باشا وتاريخه، لا بدّ من الاشارة الى ابرز الاعمال العلمية:

- د. محمد فؤاد شكري، الحملة الفرنسية وظهور محمد علي (القاهرة، د ت) وكتابه الآخر بناء دولة مصر محمد علي، مصر ١٩٤٨، وانظر د. محمد شفيق غربال، عصر محمد علي، القاهرة، ١٩٥٤. ايضاً : احمد صادق سعد ، تاريخ العرب الاجتماعي : تحول التكوين المصري من النمط الاسيوي الى النمط الرأسمالي، بيروت، ١٩٨١، وانظر بالفرنسية :

Mohammad Sabry, L'Empire egyptein sous Mohammad- Ali et la question d'Orient , 1811-1848, Paris: Geuthner , 1930.

اختلفت الاسباب التاريخية والعوامل المباشرة وغير المباشرة في توسعاته وامتداد جيوشه في المنطقة العربية والبحر المتوسط. وقد تدخلت الدول الاوروبية الكبرى ضد فعالياته الحربية ومغامراته الجريئة. وسنوضح ادناه تفاصيل التحركات العسكرية لجيوشه وتوسعاته في البيئات العربية خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر

١/ الجزيرة العربية : المرحلة الاولى

كانت عملياته العسكرية في شبه الجزيرة العربية هي اول حرب خارجية يخوضها جيشه ضد الوهابيين الذين كانوا قد بدأوا بتنفيذ مشروعهم الخطير ضد الدولة العثمانية، ونالوا من السيادة الاقليمية للسلطنة اثر مصاهراتهم السياسية مع السعوديين (كما سيتوضح ذلك في الفصل السابع). وقد عدّ السلطانان سليم الثالث ومحمود الثاني الدولة الوهابية الفتية من ابرز التهديدات لحياة العثمانيين، ولما عجز ولاة بغداد والموصل ودمشق العثمانيون عن مواجهة الوهابيين الذين بداوا بمهاجمة القوافل والمدن على حوافي الصحاري العراقية السورية، وقد قام بصدها باشوات بغداد ودمشق دون قيامهم بهجمات مضادة ولما لم يكن باستطاعة العثمانيين تشكيل جيش قوي لسحق الوهابيين، والقضاء على حركتهم المتفاقم خطرها على المدن والمراكز الاقتصادية ولما نجم من المشكلات الداخلية والخارجية التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، فقد عهدت بهذه المهمة سنة ١٨١١م الى محمد باشا والي مصر، وهو التابع القوي للسلطان محمود الثاني، فسارع محمد علي باشا بتبني هذا الاقتراح، والعمل على تنفيذه بكل سرور، لا سيما وقد كانت مصر قد تضرّرت اقتصادياً نتيجة توقف أعمال الحج

كان محمد علي باشا يهدف للسيطرة على التجارة، والاستيلاء على خطوط المواصلات وحركة القوافل، وعدت الجزيرة العربية مفتاحاً استراتيجيا له للتقدم نحو العراق وبلاد الشام. نصّب محمد علي باشا ولده احمد طوسون بك قائدا عاما للجيش، وكان يبلغ من العمر (١٦) سنة، وبلغ عدد الجيش بين (٨) الى (١٠) الاف

مقاتل. وكان طوسون بيك يستعين بمستشاره احمد اغا الملقب بـ«بونابرت» الذي كان من خيرة جنرالات محمد علي باشا.انطلقت الحملة المصرية في شهر رمضان/ ايلول ١٨١١م برّاً وبحرا. وفي شهر تشرين الاول / اكتوبر ١٨١١م، احتل المصريون ميناء ينبع الذي اتخذ قاعدة هجوم وثبات عملياتهم الحربية الواسعة ضد الوهابيين، فتكبّدوا خسائر فادحة لاسباب الحّر والجوع والعطش وسريان الامراض المعدية، وفقد المئات بصرهم من لهيب شمس الصحراء، وقتل العطش مئات آخرين، فضلاً عن الرمال المتحركة، والطبيعة القاسية، والناس الذين لا يرحمون ، ممثلين في القبائل البدوية التي تهاجم القوات المصرية ، وقوافل المؤونة من الخلف .

كان الوهابيون يعّدون بالآلاف، إذ يتفوقون عددياً على المصريين الذين كانوا يمتلكون اسلحة حديثة ومدفعية صائبة، وقادة مدرّبين، فاتسغرقت هذه المغامرة القاسية زمناً طويلاً، وكان النصر سجالاً.وفي شهر كانون الثاني / يناير ١٨١٢م، اتجه الجيش المصري نحو المدينة، فهوجم هجوماً مباغتاً ، فانهزم شّر هزيمة وهلك (٥) آلاف مصري من اصل (٨) آلاف. وعاد الباقون الى مركز عملياتهم في ينبع، وحاول المصريون بث روح الشقاق عند الوهابيين، فاستمالوا بعض شيوخ القبائل البدوية الى جانبهم في حين وصلت اليهم نجدات مصرية جديدة وفي شهر تشرين الثاني / نوفمبر ١٨١٢م، استحوذ الجيش المصري على المدينة المنّورة .. ثم استولى في شهر كانون الثاني / يناير ١٨١٣م على مكة المكرمة ومدينتي الطائف وجدّة، وهكذا، وقع اقليم الحجاز بايديهم، لكنهم لم يستقبلوا بالترحاب والمحبة من قبل السكان الحجازيين الذين كانوا يكيدون للقوات المصرية كيداً كبيراً. وكانت هذه العمليات العسكرية قد اكسبت تلك القوات مهارات متنوعة، وخبرات في التوسع البري وتحت وطأة ظروف طبيعية قاسية .. وانفتح الطريق امام محمد علي باشا لاختراق شبه الجزيرة العربية بعد سيطرة قواته المصرية على اقليم الحجاز.

- محمد علي باشا يقود جيشه بنفسه ١٨١٣ - ١٨١٥م

وصل محمد علي باشا على رأس قواته الى جدّة في شهر ايلول / سبتمبر ١٨١٢ برفقة امدادات واسعة، فاستطاع ان يفرض النظام، ويوطد المواقع في الحجاز، واستطاع ان يخمد المقاومة الاهلية المسلحة، واشترى ذمم بعض رؤساء القبائل باموالهِ، ونشط بعملياته جنوبي الحجاز وعسير، فقاتل الوهابيين بحملات عدة. وفي ٢٠ كانون الثاني / يناير ١٨١٥م، اي بعد اكثر من سنة على تحركاته هنا وهناك، انزلت قواته هزيمة نكراء بالوهابيين الذين كان يقودهم الامير فيصل اخو عبد الله قرب بسل شرقي الطائف، واحتل المصريون عدداً من المدن منها بيشه. وفي شهر أيار / مايس ١٨١٥م، غادر محمد علي باشا شبه الجزيرة العربية عائدا الى مصر دون احتلال اليمن. وقد كانت عملياته العسكرية في الجنوب ناجحة، في حين كانت قوات طوسون بيك في الشمال تناضل ببسالة ضد القوات الوهابية التي انزل بها المصريون في نهاية الشوط هزائم متلاحقة، فاضطر الطرفان الى عقد معاهدة صلح. إذ اتفق على جملة بنود، منها ابقاء نجد والقصيم بيد الوهابيين، وترك الحجاز تحت الهيمنة المصرية. وتعهد الامير الوهابي عبد الله الذي ترأس المقاومة في الشمال بتبعيته للسلطان العثماني شرط ان يخضع للوالي المصري في المدينة. وتكفل بتأمين سلامة الحجيج، واعادة الاموال المنهوبة من مكة، والتخلي عن الافكار الدينية الجديدة ..الخ.

انتهت المرحلة الاولى من الحرب بعد ان تركت حاميات مصرية في المدن الحجازية، فرحل طوسون بيك الى مصر.

٢ / الجزيرة العربية : المرحلة الثانية

استؤنفت الحرب في عام ١٨١٦م، وذلك لعدم التزام عبد الله ببنود المعاهدة المهينة المفروضة على الوهابيين بالقوة، واستعدّوا لخوض حرب ضد المصريين. ولم تصادق السلطنة العثمانية و محمد علي باشا على المعاهدة المذكورة. إذ اعتبر ا الأمير عبدالله لم يلتزم بها أصلا، فاستؤنفت الحرب. إذ أرسل محمد علي باشا جيشا مصريا برفقة مدربين عسكريين فرنسيين، مع وحدة عسكرية مختصة بالألغام و المتفجرات و قاد الجيش المصري ابراهيم باشا (الابن الأكبر) لمحمد علي باشا. و الذي قرر أن يسحق الحركة الوهابية، و يقضي على كيانها

السـياسي في عُقر دارها. و بدأت تلك القوات تحاصر خلال سنتين، أهم المراكز التجارية في القصيم، ومارست اقسى العمليات بالحرق والاجتثاث والتخريب والابادة والاعتداء... وبدأ الناس يهربون نحو الواحات فقتلهم الجوع والعطش.

استولى المصريون عام ١٨١٧ على الرس وبريدة وعنيزة. وفي بدايات عام ١٨١٨م اخترقوا نجد، ثم اقتربوا من الدرعية عاصمة الوهابيين المحصّنة، وبدأ حصارها في ٦ نيسان/ ابريل ١٨١٨م على مدى خمسة أشهر، أي حتى يوم ١٥ ايلول/ سبتمبر ١٨١٨م، فسقطت الدرعية، وتحولت الى مجموعة انقاض، وهرب السكان. واستسلم عبد الله الامير الوهابي، فأرسل الى القاهرة، ومنها نحو اسطنبول حيث كان ينتظر مصيره، عندما قطع رأسه في شهر كانون الاول/ ديسمبر ١٨١٨م. وبدأت القوات المصرية تخضع القطيف والبحرين، وأرسل قادة الوهابيين اسرى الى مصر، وازيلت الدفاعات، وبدأت الاحتفالات المصرية بالنصر المؤزر.

وفي شهر كانون الاول/ ديسمبر ١٨١٩م، رجع ابراهيم باشا مع قواته الخاصة الى عاصمته بعد ان وزع الحاميات المصرية في نجد والحجاز... ولكن بدأت حركة الانتفاضات الوهابية للفترة ١٨٢٠–١٨٤٠م، في حين غدا الحجاز اقليماً مصرياً، وبات اشراف مكة ألعوبة بيد محمد علي باشا. وتعرضت سواحل اليمن ايضا الى الاحتلال المصري عام ١٨١٩م وبالاستقلال الذاتي، ولكن بقيت الادارة في القبضة الزيدية بصنعاء وجرّد محمد علي باشا بعض الحملات نحو اليمن ١٨٢٣– ١٨٢٦م، فضلاً عن حملة عام ١٨٣٤م.

اما نجد فقد تولاها ولاة مصريون لم يأبهوا بالامير مشاري بن مسعود، وكانت البلاد تعاني من كوارث وخراب وجوع، وتكابد من الاختلافات القبلية. واندلعت انتفاضة وهابية في الدرعية عام ١٨٢٠م، وانتفض الوهابيون عام ١٨٢١، وبدات الحاميات تخلو من نجد عدا منطقتين هما: القصيم وشمر، ثم طردوهم عام ١٨٢٧م وفي عام ١٨٣٠ احتلوا الاحساء مجددا. أما شريف مكة فقد قام بانتفاضة سنة ١٨٢٧م، الاّ انها منيت بالفشل. وبقي المصريون يحتفظون بالحجاز.. وقد شغلهم عن شؤون الجزيرة العربية امتداداتهم في اليونان والبلاد السورية.

٣/ الجزيرة العربية: المرحلة الثالثة:

قاد الانقلاب مشاري بن عبد الرحمن داعياً الى عرش وهابي عام ١٨٣٤م، واتخاذه الرياض عاصمة لدولته الوهابية، وقرر محمد علي باشا ان يصل الى سواحل الخليج العربي. ففي عام ١٨٣٦م اقتحم جيش مصري كبير كان يقوده خورشيد باشا منهياً الصراع بانتصار المصريين باستيلائهم على الرياض والإحساء والقطيف. وحاولوا الاستيلاء على البحرين، وقاد ذلك كله الى تدخلات بريطانية، وتأزمت العلاقات مع الانكليز، حتى اضطر محمد علي باشا الى سحب قواته عام ١٨٤٠م، واخلاء شبه الجزيرة العربية من المصريين.. واسترجع الوهابيون سلطتهم الشرعية في الرياض.

٤/ السودان الشرقي:-

كانت حملة محمد علي باشا على السودان ثاني حملة كبرى في عهده. وقد كان السودان يثير الاعجاب، فهو الذي يعد عمق مصر الاقليمي، فضلاً عن مكانته وقيمته الاقتصادية في نفائسه وخطوط اتصالاته بافريقيا الاستوائية، ولا سيما وان محمد علي باشا كان قد خسر جيشه الكثير، وان اعادة بنائه تحتاج الى اموال طائلة!

لم تنجم عن حرب السودان صعوبات كالتي طبعت بها حرب الخليج العربي، وذلك لعوامل متعددة معقدة، بل اكتسحت جيوش محمد علي باشا السودان الشرقي نظراً لحداثة تسلحها بالاسلحة النارية والمدفعية الممتازة.. إذ قاد الجيش اسماعيل باشا احد ابناء محمد علي باشا في شهر تشرين الاول/ اكتوبر ١٨٢٠، وكان تعداده (٥) آلاف مقاتل، فاخضع قبائل النوبة ودنكلة، وبلغ المصريون رأس الخرطوم في فصل الربيع من عام ١٨٢١م، واسّسوا عند ملتقى نهري النيل الازرق بالابيض معسكراً لهم، ثم زحفوا نحو سنار عاصمة الفونج التي دخلوها دون مقاومة، ثم انقسم الجيش المصري الى قسمين: الاول بقيادة اسماعيل باشا، واصل التقدم عند اعماق مجرى نهر النيل الازرق، فاستولى على فازوغلي، ثم عاد عام ١٨٢٢. أما القسم الآخر: فكان تحت قيادة محمد بيك الدفتردار صهر محمد علي باشا، والذي استطاع اخضاع كردفان الوسطى في نهاية عام ١٨٢١م.

لقد استولى المصريون على كامل التراب السوداني وانتفض الشعب السوداني في سنار وغيرها، كان من جملة تلك الانتفاضات، المؤامرة التي دّبرها

احد الزعماء المحليين لاسماعيل باشا، وخيرة قادته، فقد احترقوا جميعهم وسط اكوام من القّش، فتوجه الدفتردار الى سنار، وكان ثأره قاسياً، إذ احرق جيشه اكثر من ثلاثين ألف سوداني، الذين لم يكن باستطاعتهم الدفاع امام وسائل الابادة والقهر الجماعي انتقاماً لمصرع اسماعيل باشا.. ولم يكن ردّ الفعل المصري ازاء بقية الانتفاضات السودانية بأقل من ذلك ابداً، فكان ان توسع نفوذ محمد علي باشا حتى جنوبي السودان واقتربوا من تخوم دارفور غرباً، وسيطروا ايضاً على مينائي سواكن ومصوّع على البحر الاحمر شرقاً. ثم انضمت الى ممتلكات محمد علي باشا منطقتا كسلا والتاكه في عام ١٨٤٠م.. وكان محمد علي باشا نفسه قد قدم الى السودان مجهزاً الارساليات الخاصة بالبحث عن الذهب.

كان الخرطوم مقراً للحكمدار المصري، وقسمت السودان في عام ١٨٤١م، الى سبعة اقاليم، هي: فازوغلي/ وسنار/ والخرطوم/ والتاكه/ والبربر/ ودنكله/ وكردفان.

لقد مارست السلطات المصرية- العثمانية حكماً قمعياً في السودان، وفرضت ضرائب واتاوات باهظة، كما وغدا السودان مزرعة للغذاء والبضائع النادرة كالعاج والخامات الاستوائية مثلاً. فضلاً عن تجارة الرقيق.. وسيطر محمد علي باشا على خيرات وادي النيل برمّته !

٥/ محمد علي باشا واليونان :

كان لمحمد علي باشا مغامرة من نوع آخر، عندما اتجه اسطوله يمخر عباب البحر المتوسط نحو اليونان وجزيرتي كريت وقبرص، تلبية لامر السلطان، وكانت حملته اليونانية تهدف الى قمع الثورة في اقليم المورة (=اليونان) إثر التمرد الذي قاده الثائر الالباني علي باشا يانينا، وتهدف ايضاً للقضاء على القرصنة اليونانية في بحر ايجة، ومنع انتشار الثورة المسلحة الى جزر عثمانية مثل جزيرتي كريت وقبرص. وكان اليونانيون قد شكلوا جمعية وطنية لهم اعلنت الاستقلال والسيادة لكي تحتضنها الدول الاوروبية بالمال والسلاح والمتطوعين.

وصلت قوات محمد علي باشا الى جزيرة كريت في صيف عام ١٨٢٢م، وتم اخماد ثورتي قبرص وكريت المناصرتين للتغيرات الثورية اليونانية. ونجح

الاسطول المصري بشل فاعلية القرصنة اليونانية في البحار الداخلية في حين زاد اشتعال الثورة اليونانية في الداخل. واسندت القيادة المصرية لابراهيم باشا – فيما بعد والذي احتل اثينا وغالبية البر اليوناني. وكان ينتصر للسلطان العثماني باخماده للثورة :

ولكن دارت الدائرة على العثمانيين ، وعلى خطط محمد علي باشا بعد تدخل القوى الاوروبية واساطيلها البحرية التي حطمت الاساطيل الاسلامية (العثمانية / المصرية / الجزائرية / التونسية / الطرابلسية) في معركة نافارينو الحاسمة يوم الثلاثاء ٢ تشرين الاول / اكتوبر ١٨٢٧م، ودخلت روسيا الحرب ضدّ العثمانيين لنصرة اليونانيين، فانتصرت على السلطان، وفرضت عليه معاهدة ادرنة، فتم الاعتراف العثماني والدولي باستقلال اليونان في ٣ شباط / فبراير ١٨٣٠ وهي نفس السنة التي خسرت فيها الدولة العثمانية ولاية الجزائر البعيدة بعد احتلال فرنسا لها في ١٤ حزيران / يونيه ١٨٣٠م.

هكذا انسحبت القوى البحرية – المصرية عائدة الى مصر تحمل الخيبة بعد خسرانها لاسطولها الذي دمر عن آخره .. وبعد عدّة اشهر . انسحبت قوات الداي حسين حاكم الجزائر مع حاشيته واعضاء حكومته من الجزائر التي تسلمها الفرنسيون، فأضاعت الدولة العثمانية بلدين استراتيجيين ، اولهما : في شرق اوروبا . وثانيهما : في شمال افريقيا .

٦ / محمد علي باشا والمسألة الجزائرية *

السؤال الآن: هل كان ثمة علاقة بين محمد علي باشا والمسألة الجزائرية؟

يذكر المؤرخ احمد عزّت عبد الكريم: انّ محمد علي باشا كان يتطلع الى الزحف نحو سورية ولكن القنصل الفرنسي حاول اقناعه بالاتجاه الى المغرب بدل المشرق، وبذلك يكسب عطف اوروبا ، ويبعد نفسه عن الاصطدام بالعثمانيين، ولكن محمد علي باشا برغم استمالته الى هذا الاقتراح، لم يظهر ارتياحه بصدده، ولكن ذلك القنصل استطاع ان يصور لحكومته ان محمد علي باشا مستعد للاشتراك معها في السيطرة على نيابات المغرب العربي.

---

* ان ابرز مؤرخ عالج هذه المسألة بالتفصيل هو : د. احمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٧١، ص ٣٦٢- ٣٩٦.

لقد كان المقترح ان يحقق لاوروبا ولفرنسا بالذات مصالحها الاستعمارية على يد حاكم مسلم كانت شهرته قد طارت في البلاد، وبذلك يستطيع اخضاع ابناء المغرب من قبل جنود مصر وبقيادة محمد علي باشا نفسه بالاتفاق مع فرنسا، وبذلك يرفع مستوى تلك البلدان الى الدرجة التي وصلت اليها مصر، والمصريون قادرون على تحمل المناخ المغاربي، ولا يمكن للوسائل الحربية لكل من تونس وطرابلس الغرب ان تصّد الزحف المصري اذا بدأ، وان مقاومة الداي الجزائري لن تطول، إذ ان العرب الجزائريين سيتخلون عنه حالما يجدون ان المصريين يأتونهم برا، وسفن فرنسا بحرا.

اما النتائج فستكون ناجعة، اذ ان الباب العالي سيرتاح لعودة تلك الايالات الى سيادته من خلال تحركات محمد علي باشا، وسيحقق هذا الأخير طموحاته في التوسع ويشبع رغباته في فرض الارادة، وستقضي اوروبا على استفحال خطر القراصنة. حاولت فرنسا ان تستحصل عن طريق سفيرها في اسطنبول على فرمان لمحمد علي يأذن له بارسال الحملة الى الجزائر، والاّ ستقوم فرنسا بذلك لوحدها. ولكن في وقت كانت الغيوم تتلبد بين محمد علي باشا والباب العالي وذلك لاشتداد الازمة المالية للدولة العثمانية، وكذلك ازدياد قوة محمد علي باشا العسكرية.

كان محمد علي باشا قد بدأ يستمع الى مقترحات فرنسا بعد ان تلقى درساً في الحملة اليونانية وليبقى ينظر الى اي مدى ستبقى فرنسا متوازنة معه ماديا وعسكرياً .. وما هي المخاطر وردود الفعل الدولية، وخصوصا البريطانية منها. لقد بدأ بالمباحثات مع فرنسا في هذا الموضوع مثيراً لعدة مسائل عملية وفنية، وكمحاولة لمعرفة النوايا، وسبر اغوار السياسة الدولية والأوروبية، وعرضت عليه فرنسا ان يقوم بالحملة لوحده، اما فرنسا فستؤيده باسطولها امام الساحل، وتساعده بـ(١٠) مليون فرنك بصفة قرض... وان يبدأ العمل دون انتظار الفرمان العثماني، واستمع محمد علي باشا الى العرض الفرنسي باهتمام كبير، ولكنه قدم مطاليب عدة من المساعدات والقروض فضلاً عن مطاليبه بأربع سفن حربية ذات (٨٠) مدفعاً بصفة هدية تأخذ شكل البيع والشراء، وعمل الباب العالي على تحطيم المشروع الفرنسي، وامتنع عن اصدار الفرمان معتذراً بظرفه. اما فرنسا فقد رأت ان شروط محمد علي باشا يصعب تنفيذها لأنها تشكل اضعافاً للبحرية الفرنسية، ومهانة للكرامة الفرنسية.

وتقدمت فرنسا لمحمد علي باشا بعروض أخرى للمشروع الذي اثار موقف الدول الكبرى منه، ثم تقدمت بمشروع ثانٍ حرص ايضاً على اشراك محمد علي باشا في الاعمال الحربية في شمال افريقيا بعد ان تقوم فرنسا وحدها بالحملة على الجزائر، وعرض المشروع الجديد على محمد علي باشا في حين كان موقف الباب العالي معارضاً، فضلاً عن معارضة الدول الاوروبية الكبرى. وكان البلاط العثماني يطالب محمد علي باشا بمطاليب مالية متكررة، في حين كان السلطان يرفض الاستجابة لمطاليب محمد علي باشا القاضية باقالة الذين عرفوا بعدائهم له ولخططه في اسطنبول، وان يمنحه حكم الولايات السورية.

كان شعور محمد علي باشا قد اشتد بازاء الخروج من الدوامة التي حصره الباب العالي ضمن نطاقها.. ويعلق المؤرخ احمد عزت عبد الكريم متسائلاً الى اين خروج محمد علي باشا؟ إلى المغرب العربي حيث فرنسا تجذبه وانكلترا تحذره ليدون اداة في محاربة بني دينه؟ ام الى المشرق العربي حيث ينقسم الافق للعمل السياسي والحزبي لمصلحته ومصلحة مصر وحدها؟

حاول محمد علي باشا ان يثني فرنسا عن المشروع بحجة عدم وصول «الفرمان». وكان يرى ان مصر أضعف من فرنسا، فاذا تحالف معها فسوف يلقى لوما من شعبه وحكومته. وحاول ان يساوم الباب العالي على المشروع لكونه مسلماً لا يحارب اهل الجزائر المسلمين وكانت انكلترا له بالمرصاد إذ بقيت تحمل موقفاً عدائياً ضدّه، صرّح يوماً يقول:

«... ان الشعب في كافة انحاء الامبراطورية (العثمانية) قد فقد ثقته في حكومة الباب العالي، وهو متعلق بي... ولكن عداوة الحكومة البريطانية تعرقل جهدي، انها المأساة إننا لا نستطيع ان نصل الى اتفاق، وإنهم - أي الانكليز - لا يعلمون حقيقة موارد دي مع الانكليز كاصدقاء استطيع أن افعل كل شيء، وبدون صداقتهم لا استطيع ان افعل شيئاً. ان انكلترا قوية جداً وقد ادركت منذ زمن طويل أني لا استطيع أن انهض بعمل كبير دون اذنها، وحيثما ادرت وجهي وجدتها امامي تعرقل مشروعاتي»[٣].

---

[٣] المرجع نفسه، ص ٣٧٩، نقلاً عن
(S. Douin, Mohamed Ali et l' Expedition d' Alger 1829 - 1830).

لقد بقيت انكلترا عدوّة له تعارض المشروع الفرنسي، وأصدرت الدولة العثمانية مشروعها الذي أيدته انكلترا وسيلة لمعالجة الازمة الجزائرية بالاساليب التي تقطع على محمد علي باشا وفرنسا التدخل العسكري، وبقيت الاشهر الستة الاولى من عام ١٨٣٠ساخنة بالمفاوضات والمقترحات والبعثات السياسية. ولما علم الباب العالي بعدم اشتراك محمد علي باشا في العمليات نزع السلطان اعتراضه الرئيس على الحملة الفرنسية على الجزائر. وحاولت فرنسا ان تشرك محمد علي باشا بالسيطرة على ولايتي طرابلس الغرب وتونس ابان احتلالها للجزائر وقد رفض محمد علي باشا ذلك، فكانت الحملة الفرنسية على الجزائر لوحدها في شهر حزيران/ يونيو ١٨٣٠م (كما سنعالج ذلك في دراستنا في الفصل العاشر). ويظهر لنا انه لولا تخوف محمد علي باشا من انكلترا لما تمهل دقيقة واحدة في التوسع تجاه المغرب وتنفيذ خططه المشتركة مع فرنسا، اذ لم تكن علاقاته مع جيرانه المغاربة علاقات ودّية، كان يفكر منذ زمن طويل بالاستيلاء على المغرب العربي.

٤/ التوسع في المشرق العربي: صراع اقليمي من أجل سوريا وفلسطين واتصالات مع العراق:

كرس محمد علي باشا جهوده كلية للتوسع في الاراضي السورية التي لم يوافق السلطان العثماني ان يوليه على ولاياتها. أي بمعنى: التنازل العثماني عنها له... واتخذ محمد علي باشا حجة أو سبباً واهياً، ذلك ان ستة آلاف فلاح مصري قد هربوا الى عكا، وعبثاً ذهبت مطاليبه بارجاعهم من والي عكا باعتباره رعايا دولة واحدة، فبدأ محمد علي باشا عملياته الحربية مواصلاً تظاهره بالولاء للسلطان. متخذاً قرار الحرب ضد والي عكا، وليس ضد الباب العالي... ولكن كان ذلك كافياً لاشتعال الحرب العثمانية – المصرية الكبيرة.

١/ حملة ابراهيم باشا ١٨٣١– ١٨٣٣م:–

كان الجيش المصري متفوقاً على الجيش العثماني المفكك. فقد امتاز جيش محمد علي باشا بتنظيمه وتسليحه وانتصاراته وتجاربه الحديثة التي مارسها في الجزيرة العربية والسودان واليونان والبحر المتوسط. وبدأ المصريون يستقبلون كمنقذين ومحرّرين من النير العثماني، ولم يستعد الباب العالي للحرب، فتردّد باتخاذ القرار او القيام بالاجراءات الضرورية على مدى ستة أشهر، في حين استغل المصريون الزمن لصالحهم.

قاد ابراهيم باشا الحملة المصرية في تشرين الاول/اكتوبر ١٨٣١م، فاحتل جيشه غزة ويافا وحيفا دون مقاومة شديدة. وفي اوخر شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٣١م، اقترب جيشه من عكا فسقطت بعد حصار(٦) أشهر، أي للفترة. (٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٣١- ٢٧ ايار/ مايس ١٨٣٢). وتوغلت قوة مصرية نحو العمق السوري فاشتبكت مع الاتراك في معركة كبيرة في ٨ تموز/ يوليو ١٨٣٢م، قرب حمص، فدحر الاتراك وخسروا قرابة (٤) آلاف بين قتيل وأسير، كما خسروا مدافعهم وعرباتهم. وبلغ عدد الشهداء من المصريين (١٠٠) مقاتل فقط. وبعد ذلك استولى الجيش على مدينتي حماة وحلب.. واتجه بعد ذلك الى ثغور الجبال الفاصلة بين آسيا الصغرى والوطن العربي، فدخل ابراهيم باشا ليهاجم العثمانيين في ٢٩ تموز/ يوليو ١٨٣٢م، فدحرهم دحراً فتملّك محمد علي باشا بلاد الشام كاملة، ثم دخلت القوات المصرية اصقاع الاناضول، واستولت على مدينة اضنه، وتوالت المعارك هنا وهناك، فاستطاع العثمانيون تحشيد كل قوتهم البالغة (٦٠) الف مقاتل لمواجهة (٣٠) ألف مقاتل من المصريين، نحو العاصمة العثمانية اسطنبول والتي غدت تتوجس الخطر المصري القادم!

تلمس السلطان محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩معونة الدول الكبرى، ولكن فرنسا ساندت مصر علانية، أما روسيا فقد وقفت الى جانب العثمانيين، وكانت بريطانية متخوفة من الانقسام: قسم يبتلعه الروس، وقسم يضعه محمد علي باشا في جيبه! فعملت بريطانيا ما في وسعها ضد مشروع محمد علي باشا، واعلنت روسيا استعدادها المسلح في وقف الزحف نحو اسطنبول. وحدثت في الاناضول تمرّدات عدة أثارها عملاء ابراهيم باشا، وفي ٢شباط/ فبراير ١٨٣٣م، احتل المصريون مدينة كوتاهية، فطلب السلطان محمد الثاني رسمياً المعاونة من روسيا في اليوم التالي.

دخل الاسطول الروسي مياه البوسفور يوم ٢٠شباط/ فبراير ١٨٣٣م، وانزلت القوات البرّية التي قوامها (٢٠) الف محارب على مقربة من قصر السلطان الصيفي ففزعت كل من انكلترا وفرنسا وقد بادرتا لمصالحة محمد علي باشا مع السلطان العثماني محمود الثاني خوفاً من بقاء الجيوش الروسية عند ضفاف مياه البوسفور... وعلى اثر الجهود الدولية المكثفة وقعت «معاهدة» كوتاهيه في يوم ٤أيار مايس ١٨٣٣ م بين مصر والدولة العثمانية. وفي الحقيقة لم يكن الصلح

معاهدة قانونية دولية، بل أصدر السلطان محمود الثاني فرمانه الذي ثبت فيه حقوق محمد علي باشا في مصر والجزيرة العربية والسودان وجزيرة كريت، ونصّبه حاكما على فلسطين وسوريا وكيليكيا.. فبدأت القوات المصرية بالجلاء عن الاناضول وفقاً للمشيئة الدولية، واعترفت بسيادة السلطان العثماني عليها، في حين كانت في الحقيقة قد غلبته!

لقد تم الاتفاق سراً بين تركيا وروسيا على الحيلولة دون بسط نفوذ محمد علي باشا على الاقاليم الاوربية من الامبراطورية العثمانية، ولكن كان من نتائج الحرب العثمانية – المصرية عام ١٨٣٣ ان انقسم العالم العثماني الى قسمين اثنين حقيقيين على ارض الواقع التاريخي الضمني، في حين كانا يظهران في اطار شكلي موّحد تحت اسم «الامبراطورية العثمانية». فالقسم الاول بقي بيد السلطان العثماني واعتمد مماتبقى من البلقان ثم الاناضول واراضي العراق. اما القسم الآخر فقد غدا بيد محمد علي باشا، ويضم مصر والسودان وسوريا وفلسطين وشبه الجزيرة العربية وكيليكيا وكريت.. وعلى هيئة امبراطورية قوية اكثر سكانا، واقوى اقتصادا، وأوسع واشد بأساً وثراء من سلطنة محمود الثاني.. وقد آضر هذا الانقسام الحاد تاريخيا بمصالح كل من السياستين: السياسة العثمانية في الباب العالي الذي اصابه الضعف. والسياسة المصرية في القاهرة التي كانت تلاحقها عراقيل انكلترا على وجه التأكيد. كما وأضرّ ذلك الانقسام بمشاريع كل من الزعيمين التركي والمصري في تحديث مؤسساتهما ومجتمعاتهما وأساليب الحياة السياسية لكليهما.. وعندما نعلم أن كلاً منهما قد باشر برنامجاً تحديثيا واسع النطاق. ان ذلك الانقسام التاريخي قد أثرّ تأثيراً بالغاً على البنية التاريخية والجغرافية للعالم الاسلامي الذي كان لابد ان يظل ويبقى موّحدا تجاه الهجمة الاوربية – الاستعمارية في تلك الظروف الصعبة التي عاشها الوطن العربي والعالم الاسلامي ودولهما كافة.

٢/ ابراهيم باشا في بلاد الشام ١٨٣٢– ١٨٤٠م

نصّب محمد علي باشا (ولده) ابراهيم باشا حاكماً أعلى لسوريا. وكان ابراهيم يحمل نزعة عربية صادقة. وبدأ يعمل على تحقيق فكرة تأسيس دولة كبيرة في البلاد العربية لها قوتها واستقلالها. ومن المحتمل ان سياسة ابراهيم باشا كانت تجسيداً للطموحات التي كان يعيشها محمد علي باشا دوماً، والوصول الى الهدف الحقيقي بتكوين مملكة قويّة في الاراضي العربية منفصلة عن

العثمانيين. كما أشار الى ذلك عدد من الساسة وبعض القناصل والدبلوماسيين الاجانب. لا سيما وان ابراهيم باشا كان يعشق لغة الضاد، ودائماً ما كان يمجد التاريخ العربي، ويحيّي الاصالة العربية، ويتعاون مع العرب، ولكن لم تكن الاوضاع السياسية والفكرية عند العرب قابلة لاستيعاب مشروع قومي متكامل، خاصة وان التخلف كان ضاربا اطنابه،فضلاً عن انعدام الوعي السياسي القومي، واضطراب المجتمع، وضعف الاقتصاديات!

ويمكننا القول بان ابراهيم باشا قد خدم سوريا كثيرا خلال السنوات الثمان التي تولى الحكم خلالها ١٨٣٢- ١٨٤٠م، اي خلال العقد الاخير من حكم السلطان محمود الثاني. ويمكننا ان نقرن ايضاً جهود ابراهيم باشا الاصلاحية في بلاد الشام بجهود محمود الثاني في تركيا، وجهود محمد علي باشا في مصر.. ونجح في اجراء تغييرات واسعة في البنية الاقتصادية، فقد حدد مقدار الضرائب التي تجبى من الفلاحين، واوقف الابتزازات الاقطاعية التعسفية، والغى الضرائب على الاراضي البكر في زراعتها.. وحاول ان يوطن البدو ويوقف حركتهم بدفعهم الى الاستقرار، فنشأت قرى جديدة في سوريا، واقر بحرث حوالي (١٥) الف فدان من الاراضي غير المزروعة، فزادت مساحة الاراضي الزراعية خلال سنتين من الفين إلى (٧) آلاف فدان في حرّان، وحافظ على الغلال الزراعية من السرقات والآفات الطبيعية.

استطاع ابراهيم باشا ايضاً ان يوّسع كثيراً في تطوير التصنيع والتجارة، وانتهت عمليات السلب المنظم، وابتزاز الاموال الذي عرفته مصر وبلاد الشام على مدى قرون طويلة.. وبدأت رؤوس الاموال تتراكم شيئاً فشيئاً، وبدأت تتطور تجارتها، وساد الامن فيها، وازدهرت اسواقها بالبضائع.

وبدأ ابراهيم باشا يخفض نضاله ضد مراكز القوى من الاقطاعيين والمتنفذين الذين ضربت مصالحهم التي كان لها اسلوب في الانتاج الاقطاعي، ومستحوذة من خلاله على الاقتصاديات المحلية والاقليمية. وقد استعاض ابراهيم باشا بعناصر خضعت له ولسياسته واعتمد ابراهيم باشا على الامير بشير الشهابي الثاني الذي كانت له سياسته ايضاً حيال الاقطاعيين اللبنانيين.

بعد ان توطدت السلطة المركزية في دمشق بدأ ابراهيم باشا بالتنظيم الاداري لبلاد الشام، وعلى غرار النسق المصري، فقسمت سوريا وفلسطين وكيليكيا الى ست مديريات، ولكل مديرية نظامها الاداري، اما السلطة القضائية فقد انيطت مهامها بابراهيم باشا نفسه. وقد اجريت اصلاحات اخرى في حقول التعليم والثقافة، فتأسست دار للطباعة في لبنان في عام ١٨٣٤م، وتأسست اجهزة النظام التعليمي باللغة العربية. وكان النظام المدرسي قائماً على انضباط حربي صارم، وتشديد على غرس الوعي القومي.

٣/ ردود الفعل:-

استطاعت سياسة ابراهيم باشا القومية، واصلاحاته المحلية الفعالة ان تضمن حركة انماء لدى القرى المنتجة، فتحسنت اوضاع التجار والكسبة والحرفيين والزراع والصناع اي نمو الطبقة الوسطى في شرائح المجتمع السوري، ولكن اجراءات ابراهيم باشا قد أثارت سخطاً واستياء كبيرين عند الطبقتين الاجتماعيتين الأخريين:

١/ الطبقة الارستقراطية العليا في المجتمع والمتمثلة بالاقطاعيين الذين حرمهم امتيازاتهم المتوارثة. ٢/ الطبقة الاجتماعية الدنيا، والمتمثلة بالبدو الصحراويين والجبليين الذين ساقهم للخدمة العسكرية. فضلا عن الضرائب التي فرضها على الجميع.

كانت حدّة الازمة الاجتماعية تشتد عاماً بعد آخر إثر استعداداته للحرب، فأمضى باساليبه السياسية تلك شعور الفلاحين، وأثار حفيظة هاتين الطبقتين على حكمه. فثارت الانتفاضات الفلاحية ضدّه، اذ قامت أول انتفاضة فلاحية كبرى عام ١٨٣٤م ضدّ قوانين التجنيد، وقد شملت كامل التراب الفلسطيني. وقد حاصر الثوار ابراهيم باشا في القدس، وكاد يهلك لولا النجدات العسكرية التي قدمت من مصر بقيادة ابيه محمد علي باشا لفّك حصاره والتنكيل بثوار الانتفاضة.

واشتعلت في نهاية عام ١٨٣٧م انتفاضة الفلاحين الدروز في حوران والجبل الشرقي لأسباب تتعلق بالتجنيد والخدمة العسكرية، فتحصّنوا في حصون

طبيعية منيعة، وباءت محاولات القوات المصرية للاقتحام والتنكيل بالحورانيين بالفشل، إذ هوجمت القوات المصرية وابيدت في اعماق الجبال الصعبة.. ولم تنفع مجهودات الاف الجنود الذين ارسلهم ابراهيم باشا للسيطرة على الحورانيين الذين تصلّبوا في مواقعهم، واظهروا مقاومة عنيفة، وحاول ابراهيم باشا تجويعهم، الاّ انهم كابدوا آلام الجوع ولم يستسلموا، ونسف ينابيع المياه لتعطيشهم فشربوا المياه الآسنة.. وعندما سمّم المياه لم يستسلموا له، بل دخلوا في دائرة الصراع وقاتلوا دون استسلام، واخترقوا الحصار، فكان مصيرهم ان سحقوا، وتبدّد شملهم في خريف ١٨٣٨م.

٤/ مسألة استقلال نظام الحكم في مصر والصراع الاقتصادي على المنطقة العربية:

بذل محمد علي باشا جهوده الواسعة للاعتراف بحقوق اسرته المالكة الوراثية على نظام الحكم وممتلكاته ومشروعية الاستقلال الدولي. فقد قدّم اقتراحاً عام ١٨٣٤م الى الدول الكبرى والباب العالي خلال ١٨٣٦– ١٨٣٧م للنظر في حسم القضية المصرية، خاصة وانه كان قلقاً ازاء غموض ما حفلت بهُ معاهدة كوتاهيه عام ١٨٣٣م، ولكن جهوده باءت بالفشل، إذ كانت دول اوروبا واقفة الى جانب الباب العالي الذي لم يكن بمقدوره التنازل عن المشروعية والممتلكات خوفاً من ضياع هيبته ومكانته في الداخل والخارج، ولكنه اعترف بالحقوق الوراثية لاسرة محمد علي باشا في مصر، شريطة أن تعاد جميع الممتلكات التي اكتسبها محمد علي الى الدولة العثمانية.

توترت العلاقات بين مصر والدولة العثمانية وكبرت شقّة الخلاف بين الطرفين، وكان العرب والمصريون من المؤيدين لمشروع الاستقلال ومشروعيته، وتمثل ذلك بالمساندة التي اعلنها علماء القاهرة عام ١٨٣٨م، في حين اصطفت الدول الاوروبية الى الجانب العثماني ضد محمد علي باشا. وكانت انكلترا على رأس تلك الدول، والتي اتخذت موقفاً معادياً، واعقب ذلك توقيع معاهدة تجارية– اقتصادية بين العثمانيين والانكليز في ١٦ آب/ اغسطس ١٨٣٨م، ضمنت انكلترا مصالحها الحيوية في الاراضي العثمانية التي غدت من اهم المصادر التي بدأت تزود المصالح الاوروبية بالمواد الاوّلية والزراعية، وسعت الشركات التجارية

الانكليزية ان تجد اسواقا لها هناك لتسويق بضائعها ومنتجاتها، بل ولتضمن خطوط مواصلاتها التجارية الاستراتيجية، والتي وجدت في محمد علي باشا وبروزه الاقليمي عائقا كبيراً امامها في فرض سيادتها الاقتصادية في منطقة شرقي المتوسط. لاسيما وان محمد علي باشا رفض رفضاً باتا شمول اراضيه ببنود المعاهدة تلك، وجعل أسواق مصر سوريا مصدرا للتوريد.. وتجاوز الاحتكار الاقليمي الذي فرضه محمد علي باشا، ناهيك عن تخفيض أسعار القطن والصوف والحرير والجلود على نحو خاص. فضلاً عن معارضته لانكلترا فتحها لمسالك تجارية برية ومائية تخدم مصالحها، اضافة الى رفضه انشاء قناة عبر البحرين: المتوسط والاحمر عبر بورسعيد– السويس.

كان هناك سباق كبير من نوع آخر للامتداد في الخليج العربي بين انكلترا ومصر والعراق، فقد كان استياء محمد علي باشا كبيراً تجاه العراق الذي امتد جنوبا لشمول لواحقه الاقليمية بالسيطرة العثمانية، ولما نفذ المصريون الى الخليج العربي قادمين اليه من نجد غرباً اثار ذلك استياء الانكليز كثيراً، الذين قاموا بدور خطير في تحجيم سياسة محمد علي باشا في مصر، وسياسة دواد باشا في العراق، وقد نجحوا في عملياتهم السياسية ضدّ كل من القطبين التاريخيين.

كما لعبت السياسة البريطانية دورها في اضعاف النفوذ الفرنسي والروسي في المنطقة. ففرنسا معروفة بانها حليفة قوية لمحمد علي باشا وسياسته الاقليمية، وانها قد سيطرت في المنطقة المغاربية على الايالة الجزائرية، معنى ذلك: ان نفوذها قد اتّسع كثيراً في كل من المغرب والمشرق العربيين. اما روسيا فقد قوي نفوذها السياسي في تركيا العثمانية.. فكان لابد ان تقف انكلترا حيال محمد علي باشا. والعمل على اقصائه معارضة استقلال مصر، ومعارضة نظام حكم محمد علي باشا. ودخلت الى جانب العثمانيين لكي تضمن بدورها حماية اراضيهم، وبدأ العثمانيون يستعدون للحرب محشدين جيشاً قوامه مائة الف قرب الحدود السورية.. وكانت التعبئة السياسية لانكلترا ضد محمد علي باشا سبباً مباشراً في التصادم وللمرة الثانية.

٥ / الحملة الثانية وتهديد الدولة العثمانية:–

تغلغل الجيش العثماني في ممتلكات محمد علي باشا السورية في ٢١ نيسان/ ابريل ١٨٣٩م، ونشبت معركة كبيرة بين الطرفين صباح يوم ٢٤

حزيران / يونيو ١٨٣٩م قرب مدينة نصيبين، وفشل العثمانيون في كسب الجولة، في حين احتلت قوات ابراهيم باشا مواقع استراتيجية وفتحت النار على القوات العثمانية فدمرتها، وانفتح الطريق كرّة اخرى امام ابراهيم باشا نحو اسطنبول.. ولكن ما أن مرّت ستة ايام على معركة نصيبين حتى توفي السلطان محمود الثاني في ٣٠ حزيران/ يونيو ١٨٣٩م، وبعد أيام انضم الاسطول العثماني الى اسطول محمد علي باشا، ففقد العثمانيون سلطانهم وجيشهم واسطولهم في غضون ايام قلائل.. فانتصر المصريون للمرّة الثانية. وقال المؤرخون المحليّون بأن السلطان محمود الثاني مات كمداً عندما سمع بخبر اندحار جيشه، ولكن؟

لم يقم ابراهيم باشا بغزو العاصمة اسطنبول، بل احتل اورفه (= الرها) ومرعش، ولم يتوغل المصريون في اعماق جبال طوروس حسب مشيئة محمد علي باشا، ورغبة الفرنسيين خوفاً من التدخل الروسي، ولا سيّما وأن الروس كانوا يراقبون الاوضاع عن كثب، وقد اكتفى محمد علي باشا بمطالبة البلاط العثماني ايضاً بحقوقه عائلته الوراثية في حكم مصر وممتلكاتها الاقليمية. وكان العثمانيون هذه المرّة اكثر ميلاً لتقبل شروط الوالي القوي، ولكن؟ تخوفّت دول الكتلة الاوربية المعادية لمصر من قبل تركيا العثمانية بشروط محمد علي باشا من اجل ترقب المصير السياسي، ونتائج التعاون والتحالف ضدّه، وتألفت تلك الكتلة من بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا، وقد شاركتهم فرنسا ايضاً تلك الرغبة السياسية، وهي حليفة لمحمد علي باشا، ولكن تخوّفت من ان تكون معزولة في اتخاذ قراراتها، فتؤدي بذلك مصالح برجوازيتها الفرنسية النامية في كل من مصر وسوريا ولبنان.

وجرت مفاوضات على مدى سنة كاملة، كان لفرنسا فيها دور مؤثر في اقناع دول الكتلة الاوربية. فضلاً عن الدولة العثمانية بحلّ القضية سلمياً، والاعتراف بالحكم الوراثي لمحمد علي باشا على مصر وعموم سوريا، فاقتنعت النمسا وبروسيا بالحل شرط ان تتنازل الدولة العثمانية عن قسم من سوريا، في حين أبدت روسيا حرصها على الاحتفاظ بالحالة الراهنة، واسكات هذا الصوت الاقليمي، اما الانكليز فقد اقترحوا انتزاع سوريا كلها من يد محمد علي باشا.

واتخذت هذه القضية طابعاً اعلاميا بعد ان غدت قضية دولية، وذلك بالترويج الاعلامي- الاوروبي لها، كونها أزمة معقدة أسموها بـ «المسألة الشرقية» دون ان يعرفوا بأن اصل المشكلة هو اقليمي بحت بين تركيا العثمانية والاقليمية العربية التي تزعمها محمد علي باشا، وانه من الطبيعي تسوية الخلافات تلك، بين الطرفين دون تدّخل القوى الدولية.

واخيراً، نجحت فرنسا التي عملت بصمت دون اطلاع الدول الاوروبية الاربع المتحالفة ضد مصر، ونجحت بعقد اتفاقية بين تركيا العثمانية ومصر العربية في شهر ايار / مايس ١٨٤٠، ومنحت سلالة محمد علي باشا ملكها الوراثي لكل من مصر وسوريا. ولكن الدول الاوربية المذكورة قرّرت ايقاف العمل بالاتفاقية واستغلال الانتفاضات المسلحّة في سوريا ضد سياسة محمد علي باشا (وابنه) ابراهيم باشا، وابرزها انتفاضة شعب لبنان في شهر أيار / مايس ١٨٤٠، وقد قمعها ابراهيم باشا بسهولة لأنها انحصرت في المناطق المسيحية، فنهبت القرى واحرقتها في الجبال، وأرسل قادة الانتفاضة مأسورين الى سنار في اعماق السودان.

٦ / التدخل الدولي واتفاقية لندن والاستسلام:-

هكذا، تدخلت الدول تدّخلاً سافراً باتخاذ قرار لحلّ المسألة الشرقية في ١٥ تموز/ يوليو ١٨٤٠م وقعّت عليه انكلترا والنمسا وروسيا وتركيا العثمانية.. وكان ذلك بمثابة انتصار للارادة السياسية الاستعمارية - البريطانية في لندن، في حين انعزلت فرنسا، واشتملت اتفاقية لندن على البنود الآتية:

١- تسلّم مقاليد مصر بيد محمد علي ملكاً وراثياً.

٢- تناط فلسطين (= ولاية عكا) بادارته ملكاً عليها مدى الحياة.

٣- اعادة جميع الممتلكات الاخرى التي استحوذ عليها الى السلطان العثماني.

٤- في حالة عدم موافقة محمد علي على هذه الشروط خلال عشرة ايام، يحتفظ بمصر لوحدها فقط.

٥- وإن لم يوافق خلال عشرين يوماً على الشروط تلك عند ذاك، يبدأ العمل على عزله بجهود مشتركة للحلفاء الاوربيين مع العثمانيين.

بعد أن اطلع محمد علي باشا على تلك الشروط، رفضها ورفض انذارات اوروبا، واعلن بأنه سيبقى بالقوة، لأن ما ربحه كان بالقوة.. فبدأت انكلترا والنمسا تعملان مع تركيا بالتحضير لعمليات حربية ضدّه، فوصل الى سواحل سوريا اسطول انكليزي ونمساوي، كانت بضمنه بواخر جديدة. وانزلت القوات في ١١ ايلول/ سبتمبر ١٨٤٠ شمال بيروت قوامها (١٥٠٠) انكليزي و (٧٠٠٠- ٨٠٠٠) تركي عثماني. وبدأوا يمدّون الجبليين بالمال والسلاح. وقامت انتفاضة لبنانية ضد المصريين.

اعتمدت مصر على فرنسا الا انها لم تساعدها ابداً، إذ تخوّفت من ان تكون هناك مواجهة اوربية عند شرقي البحر المتوسط، أو في قلب اوروبا اذا دعت الحاجة. فتركت مصر لوحدها تواجه اقدارها.. ولكن عملت السياسة الخارجية الفرنسية على تخويف الدول بمذكرة انذار تقول بعدم السماح باقصاء محمد علي باشا، ولكن لم تبق فرنسا على موقفها نتيجة ظروفها الداخلية، فكان جيش ابراهيم باشا في وضع لا يحسد عليه، فقواته مبعثرة تعاني من الجوع، وسوء التغذية، وانعدمت خطوط المواصلات، وحوصرت الموانئ، وقصفت التجمعات، واحتلت السواحل السورية، وتدفقّت الاسلحة الى قلب البلاد..

وفي ١٠ تشرين الاول/ اكتوبر ١٨٤٠م. سحقت القوات المصرية قرب بيروت، فأخلوا المناطق الجبلية، واستسلم الامير بشير الثاني الشهابي الى الانكليز، وكان متحالفاً مع محمد علي باشا، فارسل منفياً الى جزيرة مالطة، وعين بشير الثالث اميرا على لبنان فاصطف الى جانب الانكليز في محاربته المصريين، وتقدّمت القوات الاوروبية العثمانية المتحالفة الى فلسطين التي ثارت على قوات محمد علي باشا الذين بدأوا يتقهقرون دون ان تنفع مقاومتهم، او تجدي استحكاماتهم نفعاً.

كان الاسطول البريطاني يقترب من السواحل المصرية عند الاسكندرية في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٨٤٠م فانذر محمد علي باشا بالتهديد واطلاق

النار.. وقد أدرك محمد علي باشا أنه لا يفلح في المقاومة، وعجز عن فهم تكالب القوى الدولية ضده، فاضطر الى توقيع الاتفاقية المقترحة في ٢٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٤٠م تحت الحراب الانكليزية. واجلى قواته عن سوريا وفلسطين، وأعاد الاسطول التركي- العثماني لقاء تأمين حقوق اسرته الحاكمة في وراثة حكم مصر.

وفي ٢٩ كانون الاول/ ديسمبر ١٨٤٠م، غادر ابراهيم باشا دمشق زاحفا على رأس قواته نحو الجنوب- وكان الانكليز قد احتلوا القدس، فسلك ابراهيم باشا الطريق الصحراوي- الاردني، فأثر ذلك على قواته وجنوده، الذين اخفاهم البعد، وهلك معظمهم، ولم يبق من اصل (٦٠) الف مقاتل سوى (٢٤) الف جندي.. إذ هلكوا من جراء الجوع والعطش والامراض والهجمات المضادّة *.

احتفظ محمد علي باشا بمصر والسودان بعد أن تمّت تسوية القضية المصرية، وأعاد ممتلكاته الى السلطان العثماني، وقلّص جيشه الى (١٨) الف جندي، وحرم حق تعيين الجنرالات في جيشه، ومن حق بناء السفن الحربية، واعترف بتبعيتّه للسلطان، وتعهّد بدفع اموال كبيرة الى الخزينة العثمانية **.. فكان ذلك فقداناً حقيقياً لاستقلال مصر، وغدت تابعة للنفوذ البريطاني، كي تبدأ صفحة جديدة من تاريخها الحديث.

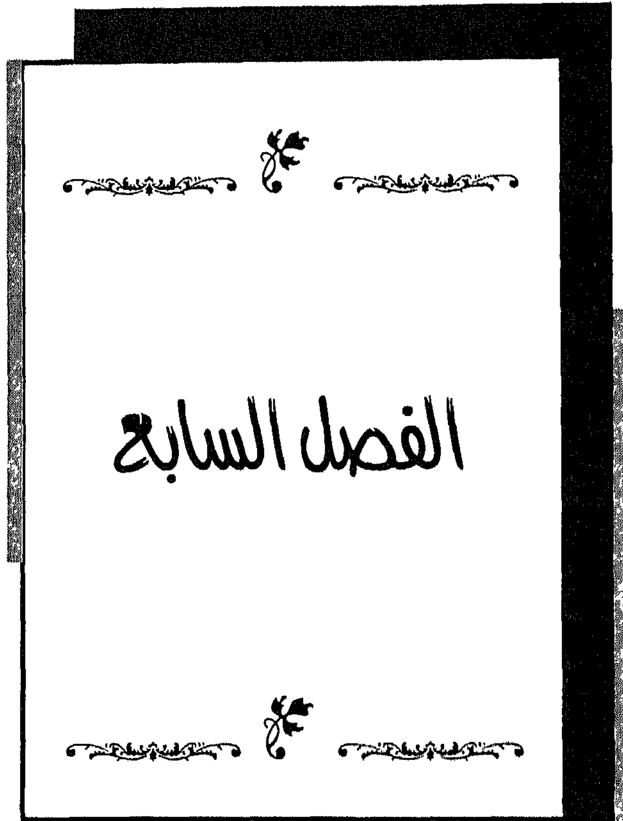
---

* عن نتائج حكم ابراهيم باشا لبلاد الشام، انظر:

محمد كرد علي، خطط الشام، جـ٣، مطبعة الترقي، ١٩٢٥، صفحات ٦٨- ٧٠.

سليمان ابوعز الدين، ابراهيم باشا في سوريا، صادر- بيروت، ١٩٢٩، ص ٣١٥- ٣١٦.

** انظر: د. محمد فؤاد شكري واخرون، بناء دولة مصر محمد علي، القاهرة، ١٩٤٨، ص ١١٧.



الفصل السابع

٧ الفصل السابع

تجربة مصر التحديثية والحركات الاصلاحية العربية

١- مصر: تكوين الدولة وبناء المجتمع المصري الحديث

مقدمة:

لقد نجح محمد علي باشا في بناء دولة كان لها مؤسساتها السياسية- فيما بعد- وخططها للمستقبل. وكان يتمتع بطول عهده الذي يقترب من نصف قرن، بحس براغماتي، إذ خلق توازناً حقيقياً بين اللامركزية الادارية- العثمانية والاستقلال الذاتي - المصري، بحيث حقّق استقراراً سياسيّاً على نطاق واسع.. اتاح له تنفيذ برامجه في البناء الاقتصادي والثقافي والاجتماعي. وقبل هذا وذلك، عمل على تطوير آلياته وعناصرها العسكرية التي خدمته ليس في الدفاع عن كيانه السياسي، وإنما في التوسع على أطراف عديدة.

يعّد استقلال مصر محمد علي باشا عن الدولة العثمانية اول انجاز كبير أكسبه المزيد من الشرعية السياسية والتاريخية، بل، وكان تهديده لعاصمة اسطنبول بمثابة إثارة سياسية أرعبت اوروبا، وقد سارعت الى نجدة «الرجل المريض» الذي كانت تركيا العثمانية تمثله اصدق تمثيل.. كما وكان ذلك كلّه بمثابة دلالة تاريخية بالغة في خضم التكوين السياسي الحديث لمصر، فضلاً عن ان محمد علي باشا قد وفّر مناخاً سياسياً في مصر مستقلاً عن الدولة العثمانية. من خلال التمثيل الدوبلوماسي، والبعثات السياسية، وتوقيع المعاهدات، واتخاذ القرارات الفعّالة. وقد جرى كل ذلك بعد القضاء على الاجهزة والعناصر القديمة، وكان على رأسها. المماليك والمشايخ وزعماء البلاد...

وقد استطاع محمد علي باشا أن يقّرب وجهات النظر بالاعتماد على ملاكات جديدة في الاجهزة الحديثة التي بناها، فضلاً عن استعانته بالاقباط، واستخدامه للوسائل التي كانت تخدم واقعه السياسي والاجتماعي، ومنها: اصداره لجريدة «الوقائع المصرية» التي صدرت باللغة التركية، فعندما وجد ان ليس هناك مستقبل لتركية في مصر، اصدرها باللغة العربية، واتّخذ هذه اللغة، لغة رسمية في اجهزة دولته كافة. واستعان ايضاً بالخبرات الاوربية المتفوّقة في بناء اجهزة دولته ومجتمعه معاً، ويمكننا الوقوف عند ابرز الاجراءات التي اتخذها في بناء الدولة :-

الاجراءات والخطط التحديثية:-

١/ المؤسسة العسكرية:-

إن ابرز الميادين التي شغلتها اجراءات محمد علي العسكرية هو الجيش الذي عده دعامة أساسية في ترسيخ التكوين السياسي- المصري وبناء دولته الحديثة. كوسيلة فعّالة في التوسع والامتداد على اطراف عديدة، فنجح في تطوير جيشه العربي وتقوية اسطوله البحري، إذ أدخل الاسلحة الحديثة، وطبّق التدريبات الاوروبية مستفيداً من خبرات فرنسا بهذا الخصوص، وذلك باستضافته بعثة عسكرية فرنسية رسمية لتدريب جيشه، كما استعانَ بخبرات فرنسية اخرى في التنظيم العسكري، وانخرط الآلاف من المصريين والسودانيين في التدريب الذي اشرف عليه ضابط فرنسي لقبه المصريون بـ«سليمان باشا الفرنساوي».

قام محمد علي باشا ايضاً بفتح المدارس الحربية، وإعداد الملاكات القيادية- المصرية، واهتم بمدارس المشاة والخيّالة والمدفعية، فضلاً عن انشائه كلية عسكرية في مصر. وفي عام ١٨٢٦م، انشأ اكاديمية للاركان العامة، وأسس عدداً من المصانع الحربية للمدافع والبنادق الحربية التي طوّرها الشباب المصري الذي درس فن بناء السفن في اوروبا، وتدّرب الآلاف من المصريين على فنون القتال في البحر بعد دراستهم في المدرسة البحرية العسكرية.. وترجمت الانظمة والتعليمات العسكرية الفرنسية الى اللغة العربية، واستخدمت في انشاء ذلك الجيش المصري النظامي الكبير الذي كانت القوة الالبانية نواته الاولى؛ ثم تّم تجنيد الفلاحين المصريين وقد احرز محمد علي باشا من خلالهم انتصاراته في بلاد الشام.

لقد اتسع حجم جيش محمد علي باشا اتساعاً كبيراً، لكي يبلغ ١٨٠ الف جندي نظامي، وبلغ عدد القوات غير النظامية، حوالي ٤٠ الف مقاتل، في حين بلغ الاسطول البحري قرابة ٥٠ قطعة بحرية، وفضلاً عن كل ذلك فقد قام محمد علي باشا بتشييد عدد كبير من الحصون والثكنات والمعسكرات، اضافة الى تعميده القلاع القديمة

لقد خطط محمد علي باشا سياسياً في بناء مؤسسته العسكرية الحديثة التي استعان بالخبرات الفرنسية لتدريب جيش ضخم لم يقتصر على المصريين فحسب، بل شمل الافارقة والسودانيين. ولم يأت ذلك البناء الا بعد اجراءاته التحديثية في التحولات الاجتماعية التي تغيرت بعدها البنية الاقطاعية. لقد بدأ بمحاولاته في التغيير الاجتماعي سبيلاً من سبل تكوين الدولة الحديثة، وليس العكس مستفيداً من التجربة التاريخية المريرة التي وقع فيها السلطان سليم الثالث ومصطفى باشا البيرقدار اللذان ذهبا ضحية عام ١٨٠٨م على أيدي مراكز القوى الرجعية، وعلى رأسها الانكشارية التي كانت تمثل روح القرون الوسطى واعرافها، يقابلها بالمثل في مصر اولئك المماليك الذين استطاع محمد علي باشا بذكائه أن يتغدى بهم قبل ان يتعشوا به. اما مثله الاعلى في التحديث الشرقي، فكان القيصر بطرس الاكبر، اذ كان يحلو له تشبيه نفسه بمصلح روسيا العظيم، وقد رسم المزيد من اعماله على نفس الخطى التي خطاها بطرس الاكبر، وهي خطة تقدمية في كل الاحوال.

٢ / الاستحداثات الادارية:

أما الاجراءات الادارية التي مارسها محمد علي باشا، فقد كانت جزءاً اساسياً في عملية تكوين الدولة الحديثة، ولم تزل الممارسات البيروقراطية في مصر حتى يومنا هذا. لقد الغى محمدعلي باشا التشكيلات الادارية القديمة التي عاشت قروناً طويلة على امتداد العهود العثمانية، وأعاد تنظيم جهاز الدولة على نحو تجديدي بتشكيلات حديثة...

كانت مصر احدى الولايات العربية التابعة للامبراطورية العثمانية، وبين محمد علي باشا والياً يخضع للسلطان العثماني دون ان يعلن استقلاله رسمياً، وبقي يحمل رتبة «الباشوية»، ويحتفظ بقناع الولاء التقليدي ضمن اطار الاحكام اللامركزية العثمانية، لكنه لم يكن ينفذ اوامر الباب العالي، إذ يتجاهل كلّ ما لم يتفق ومصالحه.. فغدت مصر دولة لها استقلالها الواقعي والرسمي، اذ كانت

تمتلك حكومة وجيشاً وقوانين وانظمة متنوعة خاصة بتسيير واقعها السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وعلى الرغم من دفع محمد علي باشا ضرائب سنوية الى السلطان تقدر بـ ٣٪ من مجموع نفقات ميزانية الدولة، فقد بقي يتسلم من السلطان العثماني التقليد المتعارف عليه، وبقي ذكر السلطان سارياً في خطبة الجمعة والعيدين.

لقد اهتم محمد علي باشا بـ «الادارة»، فاستحدث مصطلح «المديرية» التي تقابل اليوم مصطلح «المحافظة». وظهر مصطلح «رئيس المركز» الذي يعني باشرافه الى القصبات والقرى، وهناك مصطلح «الحكمدار» الذي يعد حاكما عسكرياً ومدنياً في الاقاليم التي تستولي عليها مصر من غير اراضيها.

كانت الحياة الادارية في مصر قد تعقّدت كثيراً باجهزتها وعناصرها على عهد محمد علي باشا، إذ أثرت التغييرات الاقتصادية والتحولات الاجتماعية على طبيعة الادارة والنظام المالي، فضلاً عن التوسع في الجيش وتشكيلاته المرتبطة بالادارة العسكرية المنفصلة عن الادارة المدنية، وكل هذا شيء جديد على الحياة المصرية-العثمانية. واستفاد محمد علي باشا من معطيات خططه وتطبيقاته في مجالات اخرى، إذ استطاعت المدارس والمعاهد المصرية الحديثة ان تخرج في أروقتها شبابا كفوءاً كان يتطلبهم الجهاز الحكومي وتحتاجهم التشكيلات الادارية المتنوعة التي اخذت تزداد يوماً بعد آخر.

ألّفَ محمد علي باشا مجلساً للحكومة اسماه «الديوان العالي» ومقره في القلعة وكسلطة تنفيذية في البلاد، وألف بعد ذلك مجلساً اسماه «المجلس العالي» يتكون من «نظار» (مديري) الدواوين وكبار رجال مصر، واثنين من العلماء يختارهم شيخ الجامع الازهر، فضلاً عن اثنين من التجار يختارهما كبير تجار القاهرة. لقد الغى محمد علي باشا اكثر تلك «المجالس» لأنه وجد انها لم تؤد واجباتها بالصورة المثلى، ثم اصدر لائحته الادارية الشهيرة بـ «القانون الاساسي» (= قانونامه سي) في سنة ١٨٣٧م، وبرزت التشكيلة الحكومية التنفيذية متركزة بسبعة دواوين (=وزارات)، هي:

١- ديوان الخديوي (= وزارة الداخلية)، ويختص بالشؤون الامنية والشرطة والتحقيق.

٢– ديوان الايرادات (= وزارة المالية).

٣٠٠ ديوان الجهادية (= وزارة الحربية).

٤ – ديوان البحر (= وزارة البحرية).

٥ – ديوان المدارس العام (= وزارة التربية)

٦– ديوان التجارة (= وزارة التجارة).

٧– ديوان الفاوريقات : الفابريكات (= وزارة الصناعة).

يقف على رأس كل ديوان من تلك الدواوين ، «مدير» يقدم تقريره الاسبوعي عن أوضاع مالية، وكشف بالحسابات.

لقد استطاع محمد علي باشا ان يحل مشكلة الملاكات الوظيفية في التشكيلات الادارية بالاعتماد على المصريين بديلاً عن الاتراك والمماليك الذين كانوا ينتشرون كبكوات وكشاف وموظفين، وهم يمارسون اعمالهم باستبدادية وعنف. وكان محمد علي باشا قد انشأ جهازاً ادارياً مركزياً يرتبط بقصره. اما وزاراته فقد أقرها على النمط الاوروبي محددا وظائف وواجبات كل وزارة (= ديوان) . وقد استحدث فيما بعد ديواناً للخارجية... وفي كل ديوان مجالس تنظر في القضايا الخاصة.

قسم محمد علي باشا مصر الى اقاليم عدة (= سبع مديريات)، يترأس كل واحدة منها، مدير لمركزية مصر الاقليمية، وتقسم المديرية الى «مراكز» يترأس كل مركز منها «مأمور». أما الوحدات الادارية الاصغر، فيطلق عليها «الناحية» ، ويترأسها «الناظر» والناحية تتكون من وحدات اصغر، هي «القرى» . ويقف على رأس كل قرية «الشيخ» و «العمدة»..

هكذا استطاع محمد علي باشا أن يرسي قاعدة راسخة للادارة المصرية في العصر الحديث، وتسيطر حكومته على كامل التراب المصري، وقد نجح هو نفسه في ادارة جميع حلقات جهاز الدولة.

نستنتج أن محمد علي باشا قد نجح في مشروعه لتحديث الحياة الادارية بمصر. على النمط الاوروبي الفرنجي، وقد تهيأت له ملاكات من المثقفين

البورجوازيين الذين استخدموا في عملية جعل مصر : دولة حديثة وعلى النمط الاوروبي *.

ولكن؟

اعتمد محمد علي باشا في توزيع المناصب العليا والمهمة على اولاده وعلى افراد عائلته واصهاره واتباعه المقربين الذين أغدق عليهم الأموال والاقطاعات بعد أن تخلصت تلك المناصب من سيطرة الاقليات كاليهود والاقباط والشوام والعلوج... (العلوج : هم الاوربيون الذين اسلموا). وكان ابراهيم باشا قد اصبح دفترداراً للولاية، فأنهى بذلك احتكارات الاقليات، ثم نقل الى حاكمية الصعيد، ثم ولاه (ابوه) محمد علي باشا قيادة الحملة المصرية نحو بلاد الشام.

٣/ التحولات الاقتصادية والاجتماعية:-

عدّ محمد علي باشا «الأرض» مصدر الثروة الاساسية في تحقيق الرخاء الاقتصادي والرفاه المادي للبلاد، لذا كان هذا الرجل من ابرز زعماء العصر الحديث يشجّع الزراعة ويطور نظام الري، ويدخل محصولات جديدة الى البلاد. لقد بدأ مشروعه في البناء الاقتصادي والاصلاح الزراعي من خلال سحقه للنظام الاقتصادي القديم، وانزاله ضربات قاضية بملكية الأرض للملتزمين والمماليك ... اذ قام في عام ١٨٠٨م بمصادرة املاك الملتزمين الذين امتنعوا عن دفع الضرائب. وفي عام ١٨٠٩م حرمهم من نصف الفائض. وفي عام ١٨١٢م أمم الاراضي، ووضع يده على جميع مساحاتها التي كانت في حوزة المماليك، وفي عام ١٨١٤م ألغى نظام الالتزام بكامله بشكل قطعي، فصار الفلاحون يدفعون الضرائب الى الدولة مباشرة، لا الى الملتزمين، فقضى على التبعية الاقطاعية القاسية، ورق الالتزام.

الغى محمد علي باشا نظام الالتزام وعوّض الملتزمين كثيراً، وبدأ باعادة تنظيم الارض وتوزيعها، فصادر الاواسي (= وهي الأرض المعفاة من الضرائب)، واستولى على اراضي الرزقة (= المعطاة لكبار رجال الدولة)، واراضي الأثر (= الموروثة) ... ولكنه لم يتعرض للابعاديات (= الاراضي البور التي استصلحها اصحابها شرط الا ينقل حق الانتفاع بها لغير الورثة الشرعيين). وأجرى مسدا

* راجع ما كتبه كل من المؤرخين : دودويل ودوين وهولت وعفاف لطفي السيد وستانفورد شو.

شاملاً للارض الزراعية عام ١٨١٣م، ثم بدأ بتوزيعها على الذين باستطاعتهم استثمارها وشملهم بحق التصرف والنفعة بها لا حق التملك لها.

هكذا، اعاد توزيع الاراضي الزراعية على الفلاحين، فأعطى كلا منهم خمسة أفدنه لاستثمارها، ولكن حسب الاسس والتعليمات التي تقررها الدولة التي لها حق استرجاع الارض اذا عجز الفلاح عن استغلالها استغلالاً أمثل، أو عجز عن دفع الضرائب المترتبة عليها، فضلاً عن ان الدولة هي التي حددت نوعية الزراعات لكل منطقة واقليم، وعند جني المحاصيل، فان الدولة تتسلمها وتخزنها بعد ان تأخذ حصصها نظير الضرائب المقررة، ثم تقوم بشراء الباقي باسعار تقررها هي دون ان تصل الى اسعارها الحقيقية، فتقوم ببيعها الى التجار الاجانب بتلك الاسعار الحقيقية، فتحقق ارباحاً كبرى.

يعد الغاء الالتزام في مصر من ابرز الانجازات في تحديث المجتمع المصري، اذ شعر الفلاح ولأول مرة انه عضو في دولة ومجتمع.. ولكن أفسحت الدولة المجال لتبلور طبقة جديدة في المجتمع المصري هي الطبقة الارستقراطية من الملاكين والاقطاعيين المحدثين والذين قدر لهم ان يقوموا بدور خطير في تاريخ مصر الحديث على مدى (١٥٠) سنة، أي خلال عهود أسرة محمد علي باشا، لم يسمح محمد علي باشا في بداية مشروعة ببنائه الاقتصادي، ان تكون هناك ملكيات واسعة حتى لا تقوم طبقة من المالكين والاقطاعيين. وكان يعد نفسه وحده هو المالك الحقيقي لمعظم اراضي مصر وزراعاتها، واحتكار ارباحها باسم «الدولة»، وأراد تخفيف هذا النظام الذي حمله على كاهله لوحده، فبدأ بتحويل الاراضي الاميرية الى أراض خاصة مرة أخرى.. ففي الثلاثينات بدءا من كانون الأول / ديسمبر عام ١٨٢٩، أخذ محمد علي باشا يوزع الاراضي الاميرية على نحو واسع على اقاربه ومقربيه وكبار الاعيان والموظفين وافراد اسرته وضباط الوحدات الالبانية والكردية والجركسية والتركية فسميت الاراضي الزراعية الممنوحة لافراد اسرته باسم «جفالك» (ومعناها في التركية: «ملك»)، واعفيت من الضرائب، وتعطي بها وثائق تسمى «تقاسيط» أو حجج محرّرة في المحاكم الشرعية. أما الاراضي الزراعية الممنوحة لحاشيته وكبار موظفيه وقواده المخلصين، فسميت بـ «الابعاديات» وذلك لانها مستبعدة عن المسح.

لقد استطاع محمد علي ان يطور الزراعة، ويزيد من المساحات المزروعة، فأنشأ ديواناً(= وزارة) للزراعة عام ١٨١٥م، لكي يشرف على تنظيم الزراعة واستغلال الوادي الجديد، واصلح الارض، وحفر اكثر من الف ترعة وساقية، وزرع اشجاراً ونباتات جديدة... وجمع المزارعين في «كفور» (= قرى)، كما جلب اناساً من بلاد الشام في تطوير مشروعه التحديثي.. كما وأدخل زراعة المحاصيل الجديدة التي لها استراتيجيتها الاقتصادية والمدرّة عليه عملات اجنبية، مثل القطن. كما واهتم بالزراعة الصيفية المروية السيقية، واستحدث نظام القروض للمزارعين اموالاً وبذوراً. واحتاجت الزراعات الجديدة الى توفير المياه، فبدأ بشق العشرات من الترع، ومن أهمها: ترعة المحمودية، وسخّر ثلث مليون فلاح في العمل، حتى مات الكثيرون من شدة التعب والبرد.

لقد غدا الفلاحون يوماً بعد أخر برفقة اراضيهم التي يقطنونها ويزرعونها منذ مئات السنين، من جملة الاملاك التي حصل عليها الاقطاعيون الجدد الذين صاروا يدفعون ضريبة «العشر»، فاشتق منها مصطلح «العشرية» فيما بعد. ونستنتج ان محمد علي باشا الذي قضى على الملتزمين والمماليك والطبقة الاقطاعية القديمة قام بتأسيس طبقة جديدة من النبلاء الاقطاعيين المنتمين لنظامه والذين عدوا سنداً للاسرة الحاكمة التي ارسى قواعد حكمها محمد علي باشا، ولكن البقايا المملوكة المبعثرة التي سكنت القاهرة بقيت تتأسّى على ممتلكاتها الضائعة وسلطاتها المفقودة، ولم تنفع عملياتهم وعصيانهم لاعادة النظام الاقطاعي القديم للمماليك.

هكذا، نجح محمد علي باشا في اجراءاته تلك، وحقق المزيد من التحولات الواسعة في مصر كبلد زراعي في المقام الأول، موفراً لمشروعه الاستراتيجي الادوات والوسائل، ومنها: أساليب الري واستصلاح الأراضي، وتصدير المحاصيل .. ساعدته جميعها في انتاج سلع محلية، وتطوير مرافق اخرى في الحياة المصرية الحديثة.

أما بشأن التطوير الصناعي فقد حدثت انتقالات اجتماعية واقتصادية في الآليات الحرفية والمهن المرتبطة بها الى ورشات كبيرة ومصانع يدوية عرفت بـ (المانيفا توارث)، وهناك شيّدت ايضا معامل لصب المعادن والحدادة في مدينتي

القاهرة ورشيد. فضلا عن مصانع للاسلحة على غرار المصانع الفرنسية، ومصانع نترات البوتاس والبارود، وهناك الانسجة من القطن والكتان اضافة الى الاجواخ والحبال والطرابيش.. ومصانع للسكر والالبان. وتعود ملكية تلك المصانع لاحدى قوتين كبريين في مصر؛ الدولة أو لافراد الاسرة المالكة.

وقد استفادت الحلقات الصناعية في مصر كثيراً من التطور في الانتاجية الزراعية، وخاصة القطن والسكر الى حد بعيد. وكان للقطن المصري قيمة دولية كبيرة في السوق العالمية .. فضلاً عن بقاء الانتاج الحرفي في المدن المصرية. فكان أن اصبحت الحكومة تسيطر على الانتاجية متعددة الرؤوس والميادين الزراعية والحرفية والصناعية. وقد تحققت السيطرة تلك من جراء فرض نظام للاحتكارات اذ يعد جهازا له طابعه الخاص في التنظيم والمركزية الادارية في حياة البلاد الاقتصادية. وقد جاء تكوين نظام الاحتكارات في الاساس على مدى اربع سنوات للفترة ١٨١٦ - ١٨٢٠م. وكان له مساوئه بالنسبة للفلاحين والحرفيين الذي تضوّروا جوعاً بسببه، في حين بدأ يدّر بايرادات خيالية على الحكومة المصرية، فمنحها إمكانات ضخمة في بناء جيش مسلّح وأسطول قوي... فضلاً عن الفوائد التي جناها التجار من جراء احتكار البضائع بالجملة.

اما الحالة الاجتماعية المصرية فيكفي ان نقول ان جملة هذه التطورات في الميادين كافة قد أثرت بدون شك في مختلف الشرائح الاجتماعية سلباً وايجاباً نسبة الى الموقع الاجتماعي للافراد والجماعات والوحدات الاجتماعية، فضلاً عن نوعية العمل وطبيعة التعامل بين الحكومة والشعب. اي نوع العلاقة بين الدولة والمجتمع. ولقد كانت احوال مصر الاجتماعية قد سبقت غيرها من الاقاليم العربية في الشروط الموضوعية التي حكمتها من جراء التحولات السياسية والتحديثية التي جاء تحقيقها على حساب الشغيلة والمزارعين والحرفيين الذين بدأوا يعيشون ظروفاً صعبة، بل ويكابدون مشقات اكبر مما كانت تتعرض له البروليتاريا الصناعية - الاوروبية.

كانت البضائع في مصر محمد علي باشا اشبه بثكنات ومعسكرات تتبع فيها اساليب وانظمة وتعليمات صارمة. وكان العمال منظمين في فصائل وسرايا وكتائب. وهم يخضعون لامراء وزعماء يلزمون باجراء التمارين العسكرية بعد انتهاء العمل. كانت الاجور زهيدة، وحياة اغلبهم بائسة، ولم تكن تلك أوضاع الفلاح المصري بأحسن حالاً مما تقدم آنفاً، اذ لم يجر اي تحسن على أوضاعه مذ

تخلص من البكوات المماليك والملتزمين والسباهية وضرائبهم الباهظة والبغيضة ... لم ينتشل من أوضاعه ويحسن من حياته... كان عليه أن يعمل (٦٠) يوماً من كل عام سخرة في اراضي محمد علي باشا وحاشيته ، وازدادت الضرائب بنسب عالية. وغدا الفلاح المصري معرضاً للخدمة العسكرية ومهدداً بخدمه الاحتياط . وامام الضغوط التي كان يمارسها في حياته كان يسلم منتوجاته الى محتكري الحكومة باسعار مخفضة، لأن ليست له الحرية في حق التصرف بمحاصيله ومنتوجاته.

لقد حصلت تمردات في الاوساط الفلاحية في الريف، والحرفية في المدن، بعد ان غدا الكثيرون تحت وطأة مظالم شتى، فلاذ قسم من اللاجئين الى سوريا، وثار قسم آخر، الا ان الحكومة استطاعت ان تقمع الانتفاضات الاجتماعية بالقوة، وخاصة تلك التي حدثت عام ١٨٢٢م، وعام ١٨٢٣م في مدينة المنوفية، وعام ١٨٢٤م في الوجه القبلي، وعام ١٨٢٦م في منطقة تلبيس ... وبرغم ذلك كله فقد بقيت الدولة اقوى كثيراً من تحركات المجتمع ومطالبيه الكثيرة*.

٤/ التعليم والمدارس وتطوير الثقافة العربية:-

يعود الفضل في ارساء قواعد الثقافة المصرية الحديثة وأسسها الى الاجراءات التي مارسها محمد علي باشا الذي اهتم كثيراً بتطوير التعليم والمدارس على النمط الحديث .... واذا كانت عملياته تلك بهذا الخصوص قد استهدفت تطوير آليات مؤسساته الاخرى العسكرية والمدنية بالكفاءات والمهارات والاساليب الجديدة من لدن حملة الاختصاصات، فان نتائجها قد افادت حركة المجتمع المصري، وطورت فعالياته، ببروز النخب المثقفة، وذوي الاختصاص والمهندسين والموظفين والخبراء، ولا سيما في المدن المصرية. وبدأ هؤلاء يتزايدون على حساب الفئات الازهرية القديمة التي كانت تحمل ثقافة دينية تقليدية فقط، وتمتلك نزوعات محافظة على قيمها واعرافها الاجتماعية الموروثة.

---

* راجع مقارناً ما كتبه: لوتسكي وغرايبه وعمر عبد العزيز عمر وابراهيم خليل احمد والبطريق...

استقدم محمد علي باشا عدداً من المدرسين الاجانب الذين لا يجيدون اللغة العربية فبدأ المجتمع المصري يتعرف على ما هو جديد، بخاصة وان التعليم كان مجانياً، بل ويكافأ الطلبة والتلاميذ بمرتبات شهرية. وأوفد محمد علي باشا العشرات من الشباب المصريين الى اوربا (وعلى الاخص: فرنسا) لدراسة العلوم العسكرية والطبية والهندسة والزراعة واللغات والقوانين . وبدأ المتخصصون من الاساتذة العلماء يترجمون الى اللغة العربية الكتب المتخصصة والمدرسية تمهيداً لتمصير الدراسة، فقد انشئت في عهد محمد علي باشا أول مدرسة للهندسة عام ١٨١٦م، ثم اسست مدرسة للطب عام ١٨٢٧م، واعقبها تأسيسات لمدارس الصيدلة والالسن والصنائع والزراعة والبيطرة، وكلها تنتمي الى «ديوان المدارس» الذي يشرف على المؤسسات والاجهزة التعليمية والتربوية، ويقوم بوضع المناهج واللوائح والقوانين ... واكتمل النظام التعليمي بين سنتي ١٨٣٦– ١٨٤٠م، حين كان في مصر (٥٠) مدرسة ابتدائية وثانويتان، الأولى في القاهرة والثانية في الاسكندرية.

كما اشرف «ديوان المدارس» على نظام البعثات العلمية الى دول أوروبا المختلفة منذ عام ١٨١٣م، وكان للبعثات دور كبير في انتشار الاستنارة والوعي، وغسل الاذهان، والمشاركة في التحديث، وبلورة العصرنة من خلال فعاليات النخب المثقفة والمستفيدة التي عاشت فترة من حياتها في أوروبا واطلاعها على الاساليب الاجتماعية والفكرية الحديثة... وكان ان رجعت الى مصر وشاركت فيها لأول مرة - ايضا - في تاريخها : المدارس العلمانية العامة، ثم المدارس العسكرية والمدارس العليا في الآداب والعلوم والفنون... فضلاً عن نشاط الفئة المستفيدة المصرية في التأليف والترجمة والصحافة والوظائف الحكومية. ثم الممارسات البيروقراطية والتكنوقراطية. وكان قد بلغ عدد الطلبة الذين أرسلهم محمد علي باشا للفترة ١٨١٣- ١٨٤٧م الى دول اوروبا الغربية (٣١٩) طالباً مبعوثاً. وكانت البعثة الاولى تضم فئة من الطلبة الازهريين الذين كان من بينهم رفاعة رافع الطهطاوي (المولود عام ١٨٠٤م) والذي كان له دوره الفعال في بشائر النهضة الفكرية المصرية بعد رجوعه من فرنسا. وهناك علي مبارك ايضاً وغيرهما.

انشأ محمد علي باشا ايضا في عام ١٨٢٢م ولأول مرة في تاريخ مصر داراً للطباعة في بولاق. والتي بدأت بطبع الكتب باللغات العربية والفارسية والتركية.

وصدرت في عهده أول جريدة مصرية هي «الوقائع المصرية» .. واكتسبت مطبعة بولاق شهرة عريضة في ارجاء الوطن العربي. وكان لها دور كبير في ترصين الثقافة العربية والتراث الاسلامي ونشرهما. اما جريدة «الوقائع المصرية» فهي تعد أول جريدة عربية رسمية تصدر في الوطن العربي.. ثم تعددت الصحف المصرية خلال القرن التاسع عشر.

وبفضل ما وصلت اليه مصر من حالة في التطور والتحديث فقد غدت ميداناً فعالاً للهجرة، اذ استقطبت هجرة السوريين اليها في اعقاب مذابح ١٨٦٠م، وخلال عهد السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ – ١٩٠٩م. وقد شارك اولئك السوريون في تطوير الصحافة والآداب العربية في مصر.. وخاصة عندما نعلم بانه ما أن حلّت سنة ١٨٨٢م حتى كان عدد الصحف اليومية في مصر ثلاثاً وثلاثين صحيفة ، ولا تزال احداها وهي جريدة «الاهرام» تصدر حتى يومنا هذا منذ القرن التاسع عشر.

أما المدارس والمعاهد المتخصصة فقد تطورت كثيرا، وكان لها شأن كبير في النهضة الفكرية المصرية والعربية بعامة، وقد اشرف على نظارة تلك المعاهد والتدريس فيها أولئك المصريون الذين رجعوا من أوروبا محملين بثقافة حديثة وتخصصات نادرة وكان من ابرز تلك المدارس هي مدرسة الالسن. وكانت المناهج الدراسية المتبعة هي مناهج عصرية تتفق وطبيعة الحياة العلمية والفكرية التي كانت أوروبا تعيشها.

هكذا، حققت مصر تقدماً بالغاً في هذا الشأن، وسبقت غيرها من الاقاليم والبيئات العربية التي اخذت تتأثر بها شيئاً فشيئاً، ولا سيما وان مشروع محمد علي باشا في هذا المجال قد امتد الى مختلف الميادين العسكرية والمدنية ليكسبها بالمزيد من الكفاءات والتخصصات. ويتفق اغلب المؤرخين على ان الفضل في ذلك كله الى محمد علي باشا الذي يعد اول حاكم شرقي يفكر في ذلك وينفذّه بجدية وفعالية ونشاط وعلى مستوى رصين وباللغة العربية التي لم يكن يجيدها، ولكنه عزّز آدابها وعلومها من خلال مشروعه الثقافي والتعريبي الكبير*.

---

* التفاصيل في : د. جمال الدين الشيّال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، القاهرة، ١٩٥١.

٥ / استنتاجات : تقويم تجربة محمد علي باشا

نستنتج أن محمد علي باشا هو أول الحكام في المنطقة الذين آمنوا بفكرة التحديث الشرقي. ومارس عملياتها الأولى في مصر بجد ونشاط. وقد حملت سياسته طابعاً تقدمياً واضحاً، على الرغم مما أوقعه على كاهل شعبه من الضرائب والاعمال. واستطاع الرجل ان يغير الانماط الانتاجية القديمة قليلاً، لكي يزحزح المجتمع المصري من اطره ومرجعياته المنتمية للعصور الوسطى، ويخلّصه من البنية المملوكة ومخلفاتها العتيقة، وخاصة في المدن المصرية المكتظة بالسكان. كما وأنه استطاع ايضا ان يعزز «الدولة» بالتنمية الاقتصادية، والدفاعات العسكرية البرية والبحرية... وصنع جهازاً وظيفياً وأمنياً فعالاً في الداخل، مع ما رافق ذلك من اصلاحات جديدة.

لقد قضى محمد علي باشا على رواسب التفكير عند المثقفين والدارسين الذين اكتسبوا وعياً جديداً. ونجح في بناء مؤسسات تربوية وتعليمية علمانية مستبدلاً بالاساليب القديمة مناهج حديثة، متخذاً من فرنسا مثالا للرقي والازدهار والتطلع والحيوية ... ولكنه كان قاسياً في ممارسة سياسته التوسعية وكان يحلم ببناء امبراطورية واسعة تحمل اسمه وتحتوي على قوميات واقليات عديدة. واتسمت سياسته بالنير والحروب المتواصلة والتوسعات، ومناهضة الدول الكبرى، وبخاصة انكلترا التي وقفت حجر عثرة امام تحقيق طموحاته وآماله وتطلعاته... وقد قوّض حكمه في نهاية الأمر. ولم تحقق مصر الاماني الوطنية والاقليمية التي عاشت عليها زماناً طويلاً!

وفي الجانب الاقتصادي فان محمد علي باشا لم يفرض على مصر نظاماً اقتصادياً معيناً وجديداً تماماً، بل انه حدث النظام القائم ووسع مجالاته. كما ان نظام حكمه كان بمثابة استجابة لمتطلبات ذلك النظام الاقتصادي الذي ولد في مصر خلال القرن الثامن عشر قبل تولي محمد علي باشا السلطة. ان تحديث مصر لم يأت من الفراغ، بل وان الدولة المصرية التي بناها هذا الزعيم لم تولد من ذات نفسها، اذ ان لها سوابق ومرجعيات تاريخية تعود الى القرن الثامن عشر، فقد كان هناك في مصر خلاله حلف قائم بين المماليك والتجار الذين كانوا يحركون بعملياتهم التجارية السوق الدولية في مصر وعلاقتها الاقتصادية بالاراضي والبيئات العثمانية براً، والبيئات الاوروبية بحراً. فأتيح لهم أن يسيطروا على

مساحات شاسعة من الاراضي .. وقد أضفى الصدام مع نابليون بونابرت عاملاً بارزاً آخر في جعل مصر مهيأة للعمليات التحديثية.

لقد كانت تجربة مصر ابان الحملة الفرنسية عليها ١٧٩٨- ١٨٠١م، تجربة حافلة بالتفاعل السلبي والايجابي على حد سواء.. وقبلها كانت تجربة علي بيك الكبير المملوكية الذي كان قد سعى الى اقامة حكومة مركزية مصرية لها شخصيتها المستقلة قليلاً عن لا مركزية البلاط العثماني : حكومة تتمتع بالقانون والنظام ممّا أدّى الى حالة استقرار داخلي كانت مصر قد افتقدته، فقد عاشت حالة صراع داخلي(كالذي وجدناه في دراستنا المتقدمة / الفصل الرابع).

ان كل تلك الدوافع التاريخية جعلت من مصر على عهد محمد علي باشا دولة لها تجاربها التاريخية، وقادتها التطورات الى التوسع في بلاد الشام والحجاز، وتكوين جيش من المرتزقة يستعمل الاسلحة النارية كالمدفعية،. انه برنامج مترابط في حلقاته التاريخية التي لم تتواصل في بيئات عربية اخرى تمتّعت بامكاناتها الاقتصادية وعلاقاتها اللامركزية خلال القرن الثامن عشر اكثر من مصر بالذات!

لقد تطور عدد السكان في مصر – مثلاً – كثيراً حتى وصل في نهاية القرن الثامن عشر الى ٢,٥ مليون نسمة. ونجح محمد علي باشا باستخدام السكان والايرادات في خلق دولة عسكرية ومركز سياسي فعال، متيحاً نصف ايرادات دولته كتخصيصات للجيش واقامة التحصينات وانتاج الاسلحة، واتبع سياسة اقتصادية فعالة وخاصة للاراضي والضرائب .. وان نزعته التحديثية كانت تركز على دعم مركزه الشخصي معتمداً على التصنيع السريع. الذي يتطلّب امكانيات مالية وبشرية غير قليلة.

اما ابرز السلبيات التي رافقت عمليات محمد علي باشا في التحديث الشرقي لمصر فتكمن في ما يأتي :

١. فشل تجربته بسبب فرض صناعة حديثة على قاعدة بدائية من جماهير الفلاحين.

٢. لم تكن المشاريع المتواضعة لمحمد علي باشا في ميدان التعليم والتخصص كافية لتغطية ما تطلبه التحديث من اجهزة ومرافق وادوات، ولا سيما في الدراستين: الاعدادية والمهنية.

٠٣ انخفاض المستوى الفني للعمال الذين عجزوا عن استغلال الآلات بكفاءة وجدّية.

٠٤ التخلف الاجتماعي والثقافي ... كان كفيلاً بعدم انضاج التجربة التحديثية في المجتمع المصري... الذي لم يشهد ظروف تغيير ذهني في حياته، وبناء وعي جديد!

٠٥ تدعيم محمد علي باشا لمركزه الذاتي من خلال استبداده، وجهله، ونهبه، ولكن ذلك لم يمنعه ان يكون اكثر حكام عصره استنارة ورقياً، فقد استطاع ان يزحزح القوالب القديمة في مصر كي يجعلها دولة حديثة ذات اقتصاد حديث... اثرت في بلورة مفاهيم جديدة في المجتمع المصري خلال القرن التاسع عشر.

٢) الحركات الاصلاحية العربية

مقدمة: الجذور الأولى

لقد خلت البيئة العربية طوال القرون المتأخرة من محاولات التجديد الفقهي/ الديني. وكانت قد حدثت محاولات وعمليات تجديدية سابقة للعهد العثماني الطويل كمحاولات وأفكار الغزالي وابن تيمية وغيرهما... كما ولابدّ للدارس المؤرخ ان يقف متأملاً آراء وطروحات ابن خلدون وفيما كتبه عن الواقع التاريخي وعن العثمانيين والدويلات التركمانية والانقسامات العربية.

ان غلو العثمانيين في منع عملية «الاجتهاد» الفقهي، واعتبار السلطة عملية الاجتهاد تهمة يعاقب عليها القانون... قد أثر تأثيراً كبيراً في الحياة الفكرية واليومية الاجتماعية للاقاليم العربية، وزادها استرخاء وسكونية، وخمولاً ذهنياً فسيطرت الجبرية والتواكلية والتصوفية... وكانت الارضية صالحة لانتشار الفكر الخرافي، الذي أبعد الأمة عن اداء دورها الحقيقي في البناء الحضاري والانساني.

ويبدو ان البيئة العربية كانت قد عاشت منذ القرن الثالث عشر الميلادي احاسيس بالضعة الثقافية امام الآخرين، عندما صودرت حريتها الفكرية، وغلقت

أبوابها امام التفكير السكوني المغلق على التوارث والتقليدي، دون ان تفتح الابواب في المجتمع على مصاريعها للالتقاء مع تجارب الآخرين، كما حدث في العهود الاموية والعباسية والملوكية وغيرها.. تلك العهود التي لم تتحجر فيها الارادة الفكرية، بل كنت الحريات الفقهية قد اطلقت فيها... وقد تردد الحكام العثمانيون في عدم مؤازرة الاحكام والاراء الفقهية الجديدة، بل استمرت السلطة العثمانية العليا في تقييدها حتى التفكير الديني، بل وقامت بمصادرة ارث «الخلافة العربية» الذي كان مستمراً تحت ظلّ مماليك القاهرة، وذلك على عهد السلطان سليم الأول ١٥١٢ – ١٥٢٠م، اذ قام بالغاء منصب «الخليفة» لأول مرة في تاريخ الاسلام!

لقد كانت ازمة الأمة العربية ولم تزل – في حقيقتها – هي ازمة فكرية تتجسد بوضوح في اهمال كثير من المنطلقات والاركان والمنظومات التي يحتاج اليها المجتمع العربي الذي انفضت منذ مطلع القرن العشرين علاقاته التاريخية بالشعوب الاخرى. ولكن السؤال الان : ما هي الاسبقيات التاريخية التي جعلت هذا المجتمع الكبير يكابد ويعاني كثيراً؟ وهل كان يحتاج الى اصلاحية عربية فقط، لكي يقوّم حياته، ويبعث مقوماته؟

العلل والمسببات:–

لقد انبثقت ولأول مرة بعد عهود طويلة من السكونية الاجتماعية، وفي عدد من الولايات العربية ولواحقها، بعض الحركات العربية التي اعتبرها المؤرخون: حركات اصلاحية أو «تجديدية»... والتي بلغت أوج مداها خلال القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من عمق جذورها التاريخية الممتدة الى القرن الثامن عشر، الا ان هناك اسباباً وعوامل تاريخية معقدة كانت وراء انبثاق تلك «الحركات»، وكان من ابرز العلل والاسباب:

١. السيطرة العثمانية على اجزاء واسعة من الوطن العربي، ومنذ اوائل القرن السادس عشر، كانت كافية لتوليد ردود فعل تاريخية عربية بعيدة المدى ضد تلك السيطرة واجراءاتها فيما يخص التشريعات والقوانين والانظمة.

٢. عانى المجتمع العربي من الانغلاق والسكونية المريرة، والفساد والاستغلال والانحلال، اضافة الى المعاناة اليومية من سوء الاقتصاديات،

وانتشار الاوبئة والامراض والكوارث الطبيعية التي وصلت الى درجة متدنية في القرن السابع عشر بوجه خاص. وقاد ذلك كله الى انحطاط اجتماعي كبير برز واضحا في ابرز المدن والحواضر العربية – كما تخبرنا بذلك اوثق المصادر التاريخية .

٠٣ حالات الصراع الاقليمي والمحلي والبحري التي عاشها الوطن العربي في معظم ارجائه، وخاصة في دواخله الاستراتيجية، فاذا كان العراق والخليج لعربي عاشا صراعاً اقليمياً ضد ايران والقوى الاجنبية الاخرى، فان كلا من مصر وبلاد الشام عاشتا صراعاً محلياً داخلياً بين مختلف الطوائف والفئات العسكرية والزعامات القوية التي استحكمت في المدن والادارات والاقتصاديات... في حين عاش المغرب العربي صراعاً بحرياً خارجياً ضد القوى الاوربية في مياه البحر المتوسط الاقليمية.

٠٤ الشلل الكبير الذي اصاب معظم النظم الاجتماعية والفكرية في الحياة العربية، اثر الضعف الذي اصاب المعطيات الحضارية والثقافية منذ سقوط بغداد عام ١٢٥٨م/ ٦٥٦هـ/ وما نتج عن ذلك من اعراف وتقاليد اصابت القيم اليومية والعقائدية والاجتماعية للافراد أو للوحدات الاجتماعية.. للمدن ام للاقاليم العربية معاً ... بحيث ارتبط الذهن العربي – الاسلامي بالاسطورة والخرافة والعرافة والتنجيم والدروشة والخوف من ظواهر الطبيعة والرعب من احداث التاريخ ووقائعه المريرة.

٠٥ كان القرن الثامن عشر قد هيأ مناخاً فكرياً وثقافيا مناسبا لكي تلوح في الافق اولى البوادر في التحرك المضاد من خلال الحركات الاصلاحية العربية اي بمعنى التحرك من خلال اصلاح للاساليب القديمة بهدف اصلاح الواقع الاجتماعي والسياسي، بل ولتتبنى بعض الحركات شكل الثورة المسلحة ضد النظام القائم في الامبراطورية، أو النظم المحلية الحاكمة في الاقاليم وتتجاوز بعض الحركات تلك الصيغ، لكي تغدو ادوات وطنية فعالة ضد التغلغل الاستعماري الاوروبي.

السؤال الآن: هل من بحث عن جذور الحركات الاصلاحية العربية التي عرفها العرب خلال القرن التاسع عشر ؟

إن الدعوات الدينية للاصلاح لم تبدأ مع الحركة الوهابية في اقليم نجد، أو الحركة السنوسية في المغرب العربي، بل سبقتهما افكار ودعوات للاصلاح قبل ظهورهما بعشرات السنين وعلى مساحة الوطن العربي الشاسعة، الا ان تلك الافكار والدعوات لم تنتشر أو تذيع كونها لم تأخذ لها بعداً سياسياً أو تنظيمياً / ايديولوجياً في المدينة أو الاقليم الذي ظهرت فيه، فبقيت مغمورة الذكر والمعلومات، ففي القرن السابع عشر ظهر على سبيل المثال الشيخ عبد الكريم الفكّون في مدينة قسنطينة بشرقي الجزائر، والذي كتب كتابه الموسوم «منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية» (لم يزل مخطوطاً)، في مدينة عربية عريقة كانت هي الاخرى تعيش انحطاطاً اجتماعياً كبقية المدن العربية، وكان الشيخ الفكّون يلقب بـ «شيخ الاسلام»، وقد عاش في وقت إشتدت خلاله القطيعة بين العالم الاسلامي الجامد والعالم الاوروبي المتحرك، وازدهر فيه التصوّف المزعوم والدروشة والامّية، وكثر فيه ادعياء العلم من الفئة التي تسمي نفسها حامية الشريعة، وهي«فئة الفقهاء» * .

---

* من الممكن الاطلاع الموّسع على آراء عربية بخصوص الانحطاط العثماني خلال القرن السابع عشر فيما كتبه:

– محمد امين بن فضل الله المحّبي: خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر (٤ اجزاء)، القاهرة، ١٨٦٨م.

– احمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي (ت ١٦٥٩م): ريحانة الالبا وزهرة الحياة الدنيا (جزءان)، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، القاهرة ١٩٦٧.

– عبد الكريم الفكّون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية (مخطوط) نسخة مصورة منه اطلعت عليها في المكتبة الوطنية بالجزائر سنة ١٩٨٤م.

وراجع المقالة الرصينة التي كتبها المؤرخ البرت حوراني :

Albert Hourani "The changing face of the fertile crescent in the 18th century" studia Islamic, No. 8,1957.

انظر آخر دراسة حديثة عن هذا الموضوع كتبها د. رفعت علي ابو الحاج «آراء عربية عن الانحطاط العثماني في القرن السابع عشر»، المجلة التاريخية المغربية، السنة (١٧)، العدد (٥٧–٥٨) جويلية ١٩٩٠، تونس، ص ١٧–٢١.

١- الحركة "السلفية" في الموصل :-

انتعشت طبقة العلماء والادباء في الموصل كثيراً خلال القرن الثامن عشر، فغدت تشكّل قطاعاً كبيراً، وشريحة اجتماعية لها مكانتها، وأثرها في التركيبة الاجتماعية بالموصل وكانت هذه الطبقة الاجتماعية في عموم الامبراطورية العثمانية تتميز باتصالها بكل الفئات الاجتماعية المتّنوعة، وتتصل رؤوسها بالطبقة العليا في المجتمع المحلي بالموصل في دعم اركان السلطة السياسية ونفوذها من اجل منافع مادية او معنوية او سياسية .. كما انها كانت تعمل ضمن ما يشبه القداسة العثمانية، من اجل الحفاظ على المكتسبات الإيديولوجية السامية للعثمانيين، فمنهم يعّين القضاة ورجال الافتاء والدفاترة .. وكان اغلبهم من اسر عربية اولئك الذين خدموا في ولايات عربية او اناضولية .

لقد شهدت الموصل خلال القرن الثامن عشر حركة فكرية وأدبية وعلمية مزدهرة ويشهد على ذلك كثير من المدونات والمصنفات في مختلف الآداب والعلوم. واذا تتبعنا دراسة ما انتجته تلك «الطبقة» في الموصل خلال العهد الجليلي ١٧٢٦-١٨٣٤م، نجدها قد تميزت بميزات عدة في كثرة التصانيف في العلوم المختلفة، فضلا عن تطور العلاقات الثقافية ، وجذور ارهاص قومي.. ولكن ما يفيدنا في هذا المجال هو قيام حركة فكرية متوقّدة تلك التي ابرزتها عدة من الافكار الاصلاحية في التفكير الاسلامي، والتي يعّد تنظيمها القديم : جذراً تاريخياً للحركات الاصلاحية – الدينية التي ظهرت بعد ذلك.

لقد تمثلت النزعة الاصلاحية بولادة الحركة السلفية التي اظهرها عدد من علماء الموصل ،كان اشهرهم الشيخ الفقيه احمد بن الكَولة وبعض من الدارسين والتابعين، وهي حركة دينية تدعو مبادئها الى الرجوع الى اسس السلف الصالح. ونبذ البدع والتبرك والخرافات التي كانت تعج بها افكار المتصوّفة في الموصل .. ولا سيما التبرك بضريح النبي جرجيس (الواقع في قلب مدينة الموصل). وقد ردّ احد علماء حلب على هذه الدعوة السلفية ووصفها بالمروق عن الاسلام، وقد توفي الشيخ احمد بن الكولة سنة ١٧٥٩م، بعد ان لاقى استصغاراً من بني قومه.

وفي اخبار سنة ١٧٩٤م / ١٢٠٨هـ، يخبرنا المؤرخ الموصلي الشهير ياسين الخطيب العمري (في حولياته المخطوطة المهمة : «الدر المكنون في المآثر الماضية في

القرون»)* الذي يترجم «للشيخ الوهابي» بأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان قد حل بالموصل سابقا عندما كان طالباً للعلوم الدينية، ودرس على يد العالم الفقيه الشيخ الملا حمد الجميلي وغيره .. ثم سافر الى مكة المكّرمة. ومن خلال وجود مؤسس الحركة الوهابية في الموصل شهد النزاع الفكري المحتدم فيها بين السلفيين المواصلة من الاحرار المجددّين وبين المتصوّفة والفئات المحافظة القديمة، ورجع الى بلاده متأثراً بالافكار الاصلاحية الدينية التي دعت الى رفض المألوف من البدع والخرافات واتباع نهج السلف الصالح.. وليبدأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب بنشر دعوته الوهابية التي ستأخذ لها فيما بعد طابع الحركة التاريخية الشهيرة، من خلال انتشارها في مجتمع قبلي مفتوح، في حين ستبقى الحركة السلفية الموصلية أسيرة داخل اسوار مدينة الموصل، ولا تتعدّاها منذ العهد الجليلي وحتى يومنا هذا إذ لم يزل تنظيمها الديني ساري المفعول اعرافاً اجتماعية عند فئات قليلة من ابناء مجتمع الموصل.

٢- الحركة الوهابية في نجد وولادة الدولة "السعودية":

كانت شبه الجزيرة على امتداد التواريخ الوسيطة و الحديثة تتوزعها عدة اقاليم استراتيجية، هي : نجد في الشمال، والحجاز وعسير في الغرب، واليمن وعدن وحضرموت في الجنوب، ومسقط وعمان والساحل الاخضر والدهناء والاحساء في الشرق.. وتقع صحاري الربع الخالي في قلب الجزيرة العربية. وقد تمكّن الائمة الزيديون من حكم اليمن، والاشراف في مكّة (= الحجاز)، والطاهريون في عدن، واليافعيون والكثيريون في حضرموت. والأباضيون (الآزديون+ اليعاربة) في مسقط و عمان ،ثم تبعهم الآلبو سعيديين، وبنوياس والقواسم والنعيم وآل علي في الساحل الاخضر، ثم الخوالد في الاحساء، اما اقليم نجد. فقد كان من نصيب آل الرشيد الذين كان مستقّرهم مدينة حائل شمالي نجد.

كان الصراع القبلي قد بلغ مداه بين القوى النجدية وبدرجة عنيفة وحادة انتج بعض الاسر القبلية الحاكمة في نجد، امثال :آل معمّر في العيينة وآل سعود في

* انظر. د. سيار الجميل في دراسته وتحقيقه لحوليات (الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون) لياسين الخطيب العمري، (الاجزاء الثلاثة)، جامعة سانت اندروس، اسكتلندا ١٩٨٣.

الدرعية. وقد أصبح للسعوديين قوة وسياسة فعّالة اثر المصاهرة السياسية بينهم وبين الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وغدوا يمتلكون نفوذاً كبيراً في نجد، ساعدهم في التوسع يوماً بعد آخر على حساب الاقاليم الاخرى شرقاً وغرباً وجنوباً، لكي تنشأ اقوى دولة في شبه الجزيرة العربية فيما بعد، فتستولي على الاحساء شرقاً، وعلى الحجاز وعسير غرباً، وتكرر التحرشات المزمنة على وسط العراق واقليم البصرة على امتداد القرن التاسع عشر.

ويبدو من خلال الاختلاف في وجهات النظر حول تقويم الاوضاع الاجتماعية لسكان اقليم نجد انهم كانوا يتوزعون بين بدو وحضر... وكان الانتماء القبلي واعرافه يأتي في الدرجة الأولى في نجد قبل الدين وطقوسه... هناك زراعة قليلة وتجارة اقل نتيجة مشكلات صعبة كان يتعرض لها النجديون من جراء قسوة المناخ والمواصلات والنواحي الامنية، فكثيراً ما كانت قوافل الحجيج تتعرض الى السلب والنهب والقتل في البادية النجدية... أو تتعرض القوافل الى فرض «الخوّة» من قبل رؤساء العشائر. ولم يكن «الدين» مقوماً اساسياً في تنظيم الحياة الاجتماعية هناك، ولا في سلوك حياة الافراد – كما يجمع على ذلك عدد من المؤرخين – فقد وصفت الحالة بـ«الجاهلية» على لسان احدهم، وجاء آخر ليقول بانتشار عقائد مذمومة تنتشر في نجد.

هكذا كان الواقع الاجتماعي قابلاً لاستيعاب دعوة دينية أو عقائدية عديدة، لكي تغدو سبيلاً لتنظيم المجتمع أولا، وايديولوجية سياسية تقوم عليها «الدولة» ثانيا. وقد غدت تلك «الدعوة» الدينية حركة سياسية تنظيمية من اجل خلق كيان دولة جديدة لم تعرف نجد بمثلها من قبل، خاصة وانها جمعت من خلال الزيجات القبلية جميع القبائل والبطون والافخاذ المتصارعة حول السيطرة على المسالك وطرق القوافل والواحات وموارد المياه، ومواطن العشب والكلأ للرعي.. وقد ساعدتها عوامل جغرافية وتاريخية على النمو والاتساع منها: انشغال السلطات الاقليمية في كل من العراق والحجاز والاحساء عنها – وايضا – البعد الجغرافي للسلطة المركزية العثمانية عنها... فضلا عن انسجام الدعوة الوهابية مع النزعة الحنبلية السائدة في المدن.

ولنتوقف قليلاً عند الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

١/ الشيخ محمد بن عبد الوهاب : شخصيته وحياته وتفكيره

الشيخ محمد بن عبد الوهاب ١٧٠٣– ١٧٩١م ، هو مؤسس هذه الحركة «المؤدلجة» الاصلاحية التي شغلت حيزاً معتبراً من تاريخ الجزيرة العربية الحديث! ولد هذا الرجل في العيينة احدى قرى نجد الصحراوية، وكان ابوه قاضياً فيها فعلمه قراءة القرآن الكريم والفقه الحنبلي، ونشأ كثير القراءة ... ثم بدأ الرحلة، إذ حج الى مكة، ورحل الى المدينة المنورة وعدة من البلاد الاسلامية المجاورة، مستفيداً من العلوم الاسلامية، زار الاحساء، وأقام في البصرة قرابة اربع سنوات. وفي بغداد خمس سنوات، ثم زار الموصل ودرس في مدارسها وتعلم على علمائها، وشهد الحركة السلفية – الاصلاحية فيها ، وزار دمشق وبلاد الشام، وأمضى في كردستان سنة كاملة، ومنها انتقل الى ايران، فمكث في همدان واصفهان فدرس التصوف والاشراق، ثم ذهب إلى مدينة قم، وبعدها عاد إلى نجد حيث بدأ دعوته من هناك...

لقد كانت تجاربه في المدن العربية، ولا سيما في العراق ذخيرة حية في تكوينه الفكري ونضوجه، اذ قضى شبابه الأول متنقلاً في طلب العلوم الدينية والفقهية النقلية والعقلية ، مستفيداً – أيضا – من رؤيته للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للبلاد العربية، خاصة، وانه شهد التطورات الادارية للأقاليم التي بدأت تتمتع بالنظام اللامركزي خلال العقود الثلاثة الاولى من القرن الثامن عشر، إذ كان عمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب عند رجوعه الى موطنه في نجد نحو ٣٥–٣٦ سنة.

عاد ليبدأ دعوته بجدال ابيه وقومه متخذاً من «التوحيد» منطلقاً له فاطلق عليه وعلى اصحابه اسم «الموحّدين» ، في حين اطلق عليه خصومه والرحالة والدارسون اسم «الوهابي» وعلى جماعته بـ«الوهابيين»، وجرى الاسم الاخير مجراه على الألسنة وقد اوضح ابن غنام، تلميذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومؤرخه اسباب قيام الدعوة الوهابية في كتابه : «روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام» قائلاً : «ان المسلمين قد عدلوا الى عبادة الاولياء والصالحين، وخلعوا ربقة التوحيد والدين، فجدوا في الاستغاثة بهم في النوازل والحوادث، والخطوب المفصلة

والكوارث ، واقبلوا عليهم في طلب الحاجات، وتفريج الشدائد والكربات من الاحياء منهم والاموات..».

لهذه الاسباب بدأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب يحارب البدع، وزيادة القبور، والنذور ، والتبرك بالاولياء، وتقديس الجمادات والنباتات، والادعية وطقوس المتصوفة، والاستغاثة ..الخ.

لقد رأى هذا الشيخ بأن ليس من ضمان لحركته الاصلاحية الا بالتعاون مع قوة سياسة قبلية، لا سيما وانه وجد أن أية حركة اصلاحية تمثل بالنسبة للدولة العثمانية خطرا عليها، فاتصل بأمير الدرعية محمد بن سعود، فناصره وتعاهد كلاهما على نشر الدعوة في شبه الجزيرة العربية سلماً وحرباً.. فبدأت تنتشر الدعوة الوهابية بين قبائل نجد، ومن يعارضها تشّن الحرب ضدّه من قبل الرجلين «الشيخ» و«الامير» . وكل مدينة او قرية يدخلانها ينشران فيها التعاليم الجديدة القائمة اساسا على مبدئين اساسيين هما .

١. التوحيد: اي الدعوة الى الله وحده دون شريك، والاعتماد على القرآن والسنة واثار السلف والجهاد في سبيل نشر عقيدة التوحيد، اي اتباع (التكفير والقتال) وسيلة اساسية .

٢. الاجتهاد: أي تفسير ما يستعصى فهمه بشرط عدم مخالفة ذلك لنصوص القرآن والسنة وآثار السلف الصالح، والائمة الاربعة، ومحاربة النزوعات الاخرى من خلال الاجماع على «الامامة».

وقد ساعدت الشيخ محمد بن عبد الوهاب مؤلفات الامام تقي الدين بن تيمية الذي عاش للفترة ١٢٦٣ ١٣١٧م. ويعتقد كثير من المؤرخين بأن الحركة الوهابية ما هي الا تعبير عملي عما كان ابن تيمية قد كتبه من انتقادات وآراء في كتابه المشهور «السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية» الذي دعا فيه الى تنقية الاسلام من البدع والفوضى والتقاليد والطقوس .

٢/ العثمانيون والوهابيون : الصراع السياسي

كان ردّ الفعل العثماني قوّياً تجاه هذه الحركة التي رأت الدولة فيها خطرا سيؤدي نجاحها الى فصل اقاليم الحجاز عن العثمانيين، اي افتقاد الدولة للحرمين

الشريفين، ومعناه. فقدانها الزعامة الدينية للعالم الاسلامي بحكم اشرافها المباشر على الحرمين، وبخاصة في عهد محمود الاول ١٧٣٠-١٧٥٤م، الذي بدأت الاقاليم خلاله تمارس الادارة اللامركزية في الحكم. وما تلاه من عهود السلاطين الضعاف. عثمان الثالث ١٧٥٤-١٧٥٧م، ومصطفى الثالث ١٧٥٧-١٧٧٤م، وعبد الحميد الاول ١٧٧٤-١٧٨٩م، ثم انطلاق الحركة التحديثية والاصلاحية العثمانية علي عهد كل من سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧م ومحمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩م، وبينهما عهد مصطفى الرابع ١٨٠٧-١٨٠٨م.

لقد استطاعت الحركة الوهابية خلال هذه العهود التاريخية - العثمانية ان تنتشر وتسود على اجزاء كبيرة من شبه الجزيرة العربية، بعد ان غدت عقيدة سياسية، ولم تنفع معها دفاعات القوات المملوكية - البغدادية ضد الغارات على المدن العراقية المقدسة لاسباب اقتصادية ومذهبية، ثم غاراتهم ضد بلاد الشام مهددين دمشق وحلب وشرق الاردن، مما حدا بالسلطان العثماني ان يطلب العون - كما رأينا - من والي مصر محمد علي باشا بعد ان عجز ولاة العراق والشام في القضاء على الوهابيين الذين اتهمهم العثمانيون بالكفر والخروج عن طاعة السلطنة والدين. وبدأ علماء المسلمين يسفهون مبادئ تلك الدعوة، وبدأ بمعارضتها المجتمع الاسلامي ليس بسبب مبادئها الاصلاحية، بل لأنها اتبعت اسلوب القوة والعنف لتنفيذ تعاليمها، والتوسع على حساب الإقاليم الاخرى، والسيطرة على موارد المدن الغنية. وكان الوهابيون إذ دخلوا بلداً استخدموا كل الوسائل العنيفة لحمل السكان على اعتناق آرائهم.. بل وجردوا ما كانت تحفل به كل من مكة والمدينة والنجف وكربلاء من الكنوز والحلي والمعادن الثمينة والاحجار الكريمة والنقوش والاثاث.. الخ.

قد فشلت الدعوة الوهابية في مطلع امرها فشلاً مؤقتاً، إذ سرعان ما قام السعوديون بتكوين دولتهم، وانتعاش نفوذهم السياسي مرة اخرى بل وبدأت الحركة الوهابية تؤثر في بيئات عربية اخرى.

٣- الدعوة الشوكانية : الآراء الجريئة

كان للحركة الوهابية صداها في محيط الجزيرة العربية، فكان احد مؤثراتها في اليمن، وعلى يد محمد بن علي الشوكاني الذي ولد عام ١١٧٣هـ/ ١٧٦٠م في

هجرة شوكان باليمن، ودرس في صنعاء علي يد كبار علمائها، فأجيز للتدريس والافتاء في سن مبكرة، واتخذ ذلك الى جانب القضاء عملاً له دون مقابل. ثم ارتقى في المناصب الدينية حتى وصل الى القضاء الاكبر.

والمعروف عن المجتمع اليمني، انقسامه الى مذاهب متعددة إذ يسوده الانحطاط والجهل والفقر.. أما سياسياً، فكان التسلّط في الحكم، وفساد الادارة، ونشوب الفتن الداخلية والنزاعات القبلية، وكان المستوى الفكري والثقافي منحدراً بانتشار الخرافة ،والضلالة والبدع والجهالة والتقاليد العمياء.. ضمن هذا الوضع المأساوي ظهر الشيخ محمد بن علي الشوكاني بآرائه وافكاره السلفية التي كان يدعو من خلالها الى الاصلاح من خلال «المبادئ» التي شرحها في كتبه المتعددة، موضحاً فيها الاسس التالية (التي نجدها صورة مصوّرة عن المبادئ الوهابية في حدّها الادنى):

١- الاعتماد على القرآن والسنة في اصدار الاحكام، وما عدا ذلك من اجماع وقياس عرضة للنقد، وتبيان الخطأ والصواب.

٢- تكريس مبدأ التوحيد لتنقية الاسلام مما لحق به من بدع وضلالات كتلك التي أوضحها الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٣- رفض التقليد وبطلانه، وعدم قبول أقوال الغير دون حجّة، أو البدع المحدثة.

٤- الدعوة الى قبول مبدأ الاجتهاد والعمل به بعد هجر التقليد لمذاهب الائمة الاربعة، وهاجم الزيدية لكونهم «اشد تعصباً من غيرهم» - كما يذكر الشيخ الشوكاني -.

٥- الاعتماد على شروط الامامة وشروط الاجتهاد في عملية بطلان العادات والبدع.

٦- دعوة المرأة الى العمل ومساعدتها لاهلها وزوجها في كسب العيش.

يقول المؤرخ علي المحافظة: «والحقيقة ان الشيخ الشوكاني قد نادى بالافكار نفسها التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، إلاّ أنه امتاز على الاخير بكثرة مؤلفاته التي ضمنها اجتهادات، وآراء اصيلة وجريئة تدّل على فهم عميق للعقيدة

الاسلامية، ونظرة علمية وموضوعية للاصول والاحكام الدينية. ان من ابرز مؤلفات الشيخ الشوكاني كتاب «البدر الطالع» *.

٤- الحركة السنوسية في المغرب العربي: النضال ضد الاستعمار الفرنسي والايطالي

١/ التكوين الاصلاحي:-

ظهرت السنوسية ، حركة اصلاحية - دينية فعّالة تدعو للعودة الى صفاء الاسلام واحياء صالح الاعمال، والى البساطة في الحياة ، والى الاعتماد على النفس، والى ابتعاد الانسان عن الشوائب والسكونية والابتذال ، وجعله عضوا في مجتمع منتج، ويعتمد على قواه الذاتية ..

ومؤسس هذه الحركة هو محمد بن علي السنوسي ** من اصل جزائري، ولد في قرية «الواسطة» قرب مدينة مستغانم الساحلية في اقليم وهران بغربي الجزائر، في سنة ١٧٨٧م، (أي قبل اندلاع الثورة الفرنسية بسنتين). وكانت اسرته تحظى بسمعة علمية لائقة، يحترمها المجتمع الجزائري، وبدأ يتعلم منذ صغره، وعندما كبر تحفز على الاستزادة من العلم، فرحل نحو مدينة فاس حيث يقوم فيها مسجد القرويين الشهير، فأقام يدرس فيه سبع سنوات العلوم الاسلامية - الفقهية والشرعية والتفسير. ويتطلع الى احوال العالم الاسلامي، ويسمع بما كان يجري في مصر على يد نابليون بونابرت، ويتعرف الى الطرق الصوفية كالقادرية والشاذلية.. وقد شعرّ باحباط شديد عندمارأى الضعف الذي حاق بالعثمانيين وعجزهم عن مواجهة الاستعمار الاوروبي الذي بدأ يتغلغل في المغرب العربي .. فبدأ يفكر في ايجاد اساليب تدرأ حالة الانهيار الكبير الذي يتعرّض له الوطن العربي والعالم الاسلامي .

---

* علي المحافظة ،الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٨٧٨-١٩١٤م، بيروت ١٩٨٣، ص ٤٤ - ٤٩

** ترجمته بالتفصيل كتبها علي الجميل الموصلي في كتابه المبكر عن السنوسيين، «التحفة السنية في المشايخ السنوسية» مطبوع سراً في مطبعة سرسم بالموصل سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١١م. وقد صادره الاتحاديون واحرقوه نظراً لما ورد فيه من آراء قومية عربية جريئة . ونعمل اليوم على تحقيقه اعتماداً على نسخة نادرة مطبوعة منه.

رحل من فاس نحو مدينة لاغوات في جنوبي الجزائر، وكانت مركزاً مهماً للمسالك الصحراوية التجارية، ثم رحل متوجهاً نحو مدينة قابس، ثم طرابلس الغرب وبني غازي، ثم وصل الى القاهرة سنة ١٨٢٤م، فأقام فترة زمنية في الجامع الازهر اتّصل بعلماء مصر وساجلهم وحاورهم حول الاسس الفكرية لدعوته، وطبيعة الاسلوب والمنهج الذي اتخذهما لغاية الاصلاح الاسلامي، ثم رحل نحو الحجاز سنة ١٨٢٥م، وفيها التقى بعلمائها، فشاع ذكره.. وكان الفرنسيون قد احتلوا الجزائر عام ١٨٣٠م وعندما قرر العودة اليها بعد زمان طويل، وخاصة الى مسقط رأسه، فبقي يجوب في الصحراء جنوبي الجزائر الذي لم يكن قد سقط في اليد الاستعمارية – الفرنسية .. ولكن اتعبته الحياة الصعبة هناك، فهاجر مرة اخرى الى القاهرة، ثم وصل الحجاز مرة ثانية.. وفي الحجاز انشأ زاويته الاولى وجعلها فوق جبل ابن ابي قبيس بمكة سنة ١٨٣٧. وقد بقي في الحجاز حتى عام ١٨٤٠م، إذ رحل بعدها الى مصر فطرابلس الغرب، واحبّ زيارة الجزائر لكنه مضى نحو مراكش، ليستقر في فاس ممارساً التدريس الديني، ولكن مراكش خشيت دعوته، فضيقت عليه كثيراً، فغادر مضطراً الى طرابلس الغرب سنة ١٨٤١م، ومنها بدأ رفقة اصحابه يسهمون في مقاومة الفرنسيين بالجزائر للفترة ١٨٤٨-١٨١٦م.

كان في نية الشيخ السنوسي التوّجه الى مسقط رأسه في الجزائر، الاّ انه خشي سطوة الاستعمار الفرنسي الذي مثل بالنسبة اليه تحدّياً تاريخياً دفعه الى«الاعتكاف والعودة» نتيجة دافع المعاقبة بالحرمان النفسي من وطنه الأم وأهله.. بدليل (نظرية التحدّي والاستجابة) للمؤرخ البريطاني أرنولد توينبي إن التحدي والاستجابة قد دفعا الشيخ السنوسي الى تكوين انطلاقته للتبشير بدعوته جزءاً من مواجهة التحديات الاجنبية، مستلهماً فكرته التنظيمية من الرُّبط الاسلامية (جمع: رباط)، فأسّس زاويته التي غدت مركز تجمع حيوي جديد.

لقد استقر السيد السنوسي عند الساحل الليبي متّخذاً من برقة نقطة التقاء لجولاته وحركاته بين المشرق والمغرب العربيين، ولكن سرعان ما عاد الى الحجاز مرّة اخرى ليقيم فيها والطائف وينبع وجده والحمراء ورباح ووادي فاطمة والمضيق واصفان وابان، اي نزولاً نحو عسير واليمن .. لقد قضى [illegible] الحجاز الفترة الممتدة بين ١٨٤٨-١٨٥٦م، (أي خلال السنوات التي [illegible] محمد علي باشا في مصر)، ثم غادر الحجاز عائداً الى الجبل [illegible] ذكر

بعض المؤرخين انه استقرّ نهائياً في ليبيا منذ عام ١٨٥٤م، مؤسساً الكثير من الزوايا كي تكون مراكز لا تقتصر على العبادة والدراسة فحسب، بل لكي تغدو مراكز انشطة انتاجية اقتصادية واجتماعية*.

إن «الزاوية» هي مكان شبه رسمي يرتبط برأس التنظيم السنوسي من خلال قائد لها يدعى بـ «مقدّم الزاوية» وهو الذي يرشد الناس، ويعمل على حلّ مشكلاتهم ويساعدهم على مزاولة الانتاج الزراعي والحيواني. وهناك «شيخ الزاوية» الذي يتولى شؤون التدريس والقضاء. ويرتبط بمقدّم الزاوية «الوكيل» الذي يشرف على الزراعة والادارة والاقتصاد. ولكل زاوية مجلس يتألف من ذوي المناصب الثلاثة: المقدم / الوكيل / الشيخ .. فضلاً عن رؤساء القبائل المنتشرة حول الزاوية.. كاجراء تعاوني منظم. اما «الزاوية» فتتألف من مسجد للصلاة ومدرسة للتعليم، ومنزل للقائد والوكيل والشيخ وفيها بيوتات للضيوف والزائرين والرحالة وعابري السبيل. وهناك مأوى فيها مخصص للفقراء، ومسكن للخدم، ومخزن للمؤن، واصطبل للخيول، ومتجر، وفرن، ومطبخ وسوق. ولكل زاوية ، ارض زراعية صالحة للزراعة وخاصة بها، وصهاريج لحفظ المياه .. ويكون العمل جماعياً دون أجر، اما الانتاج فيسوق وتنفق الاموال على الزاوية ومرافقها، غذاءً وكساءً وتعليماً ..ويذهب ما يتبقّى من اموال الى المركز.

لقد انتشرت الزوايا، فبلغ عددها (١٨٨) زاوية. (٢٥) زاوية منها في الجزيرة العربية، و (٩٧) منها في ليبيا، و(٤٧) زاوية في مصر، و(١٧) في السودان، و(٢) في تونس. وكان لتلك الزوايا الفضل الكبير في بناء انسان تعاوني مرتبط بنظام انتاجي، ومؤمن برسالة سامية وانسانية، وله انتماؤه للارض والسماء، ولحياته ضمانات اكيدة.. وانطلق الدعاة السنوسيون الى قلب افريقيا الاستوائية ينشرون مبادءهم، ويقيمون زواياهم، ويحاربون الاوضاع السيئة، والتقاليد والاعراف البدائية ، ويدعون الى قتال المستعمر، والحيلولة دون سيطرته في اعماق افريقيا، والوقوف ضدّ اساليبه التبشيرية والعسكرية **.

---

* For detail see E.E. Evans pritcharad, The Sanusi of Cyrenaica, Oxford Univ. Press, Oxford 1968.

** من اجل الاطلاع على اكبر قدر من التفصيلات ، يراجع ما كتبه كل من المؤرخين. احمد صدقي الدجاني واحمد امين وعلي المحافظة ومحمد عماره.. اضافة الى : ايفانز – بريجارد وهاملتون كَيب وفلاديمير لوتسكي وغيرهم.

٢ / الانتشار الجغرافي :

لقد كان قائد الحركة السنوسية محمد بن علي السنوسي الكبير ١٧٨٧-١٨٥٩م، قد اختار واحة جغبوب الليبية مركزا لحركته ودعوته التنظيمية، إذ تقع في قلب جغرافي يتوسط طرابلس الغرب، وبرقة ومصر والسودان الشرقي والسودان الغربي (الصحراء الكبرى). اضافة الى كونها ملتقى للقوافل المارة في مختلف الاتجاهات. بدأ ذلك المركز على شكل مدرسة دينية مزوّدة بالمئات من الكتب، وقد كانت تلك المدرسة تضّم كل سنة قرابة ثلاثمائة من طلبة العلم الذين يتحوّلون حال تخرّجهم الى دعاة للحركة، ثم قادة لها ..

هكذا ، فبعد انقضاء مدة زمنية، انتشرت الدعوة السنوسيّة في اصقاع كبيرة تمتد على امتداد الشمال الافريقي ، وبفضلها انتشر الاسلام الى أعماق افريقيا، فوصلت تأثيراتها الى النيجر، والكونغو، والكاميرون، وداهومي وتشاد وغيرها .. والتي تأثرت جميعها نتيجة انتشار الدعاة السنوسيين الذين وفدوا إليها بطريق التجارة، اوعلى هيئة سواح افادوا كثيراً افريقيا الاستوائية بتوغلهم في المناطق التي شهدت امتدادات اوروبا الاستعمارية، وقد خشيت الدوائر الاستعمارية منهم ومن تأثيراتهم .. وكانوا يرتدون الأردية البيض المخططة بالسواد، وكانوا يتميزون باخلاقهم العالية، وبدأوا يقاومون الغزاة، لا سيما وأنّه أوّل من تنبّه الى فعالياتهم اعضاء تلك الارساليات التبشيرية، فبدأت تضغط على حكوماتها لايقاف المدّ السنوسي، ونشاطات السنوسيين ، والتوسط لدى الدولة العثمانية.

وعلى الرغم من عدم اصطدامهم بالعثمانيين والدولة العثمانية، فانهم اقترحوا منهاجاً سياسيا تقف على رأسه مؤسسة «الخلافة» التي اشترطوا ان تكون عربية قريشية !

٣ / الحركة السنوسية والسلطان عبد الحميد الثاني:

اعقب السنوسي الكبير ولده الزعيم المهدي السنوسي ١٨٤٤- ١٩٠٢م، والذي قاد الحركة في اصعب الظروف، ويعود اليه فضل تحويل الحركة من كونها حركة اصلاحية منهاجية اجتماعية الى حركة سياسية - عسكرية. أي باختصار :

غدت الحركة تنظيماً اجتماعياً له ايديولوجيته القوية للوقوف بوجه الفرنسيين بشكل خاص، متخذة من «الكفرة» مركزاً قيادياً لها، وقد ذهبت محاولات السلطان عبد الحميد الثاني لاحتواء هذ الحركة والسيطرة على نفوذها السياسي.

لقد حدثت صدامات واسعة بين السنوسيين والفرنسيين، وحققت خلالها نجاحات بالغة، ولكنها انتكست بمرارة عام ١٩٠٠م، إثر هزيمة فادحة، ومات زعيم الحركة المهدي السنوسي عام ١٩٠١م، ولم تمر الا سنوات قلائل حتى تعرضت ليبيا الى ابشع غزو عرفته في تاريخها الحديث، عندما هاجمها الطليان بغزوهم طرابلس الغرب بهدف استعمارها، فما كان من السنوسيين الا ان يبدأوا صفحة نضال بعد عام ١٩١١م،ليقود النضال الوطني هذه المرة خلفاء المهدي السنوسي، وخاصة ابنه محمد ادريس (فيدخل ذلك كله وما اعقبه في طور التاريخ العربي المعاصر).

٤/ النضال ضد الاستعمار:

كانت الاعتبارات والعوامل الاقتصادية من أساسيات الغزو الايطالي، وكذلك الموقع الاستراتيجي لطرابلس الغرب الذي يمكن ايطاليا من تهديد تونس (الفرنسية) ومصر (الانكليزية). وسبقت ايطاليا الاحتلال بعقد مجموعة من الاتفاقيات مع بعض الدول الاوروبية لتحديد مناطق النفوذ في منطقة البحر المتوسط، وبخاصة فرنسا وانكلترا والمانيا والنمسا واسبانيا منذ عام ١٨٨٧م، وحتى روسيا عام ١٩٠٩م، على الرغم من وقوف الرأي العام،ضد التوسع والمطامع الايطالية. وقد استغلت ايطاليا الازمة الدولية عام ١٩١١م للاستيلاء على طرابلس الغرب وبرقة بعد ان اختلقت سبباً مباشراً ضد الباب العالي بتواطؤ دولي صامت، فاعلنت ايطاليا الحرب على تركيا العثمانية في ٢٩ ايلول/ سبتمبر ١٩١١م. وكانت الاحوال الادارية والاقتصادية قد ساءت كثيرا في ليبيا*.

كانت القوة المسلحة العثمانية تقدّر بـ (٧) آلاف مقاتل، في حين كان قوام الجيش الايطالي (٣٤) الف مقاتل، ثم وصل الى (٥٥) الف مقاتل عام ١٩١٢م،

---

* راجع تحليلات د. فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحدبث، بيروت، ١٩٧٩

فضلاً عن المدفعية والتلغراف وسلاح الطيران (الذي استخدم لاول مرة في العمليات الحربية لتلك الحرب القاسية) . واحتّلت ايطاليا طرابلس الغرب في ٥ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١١م، ودرنه في ١٨ تشرين الاول ، وبنغازي في ١٩ منه.. واعلنت روما ضم ولاية طرابلس الغرب بتاريخ ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١١م، وعرفت تلك البلاد منذ ذلك اليوم باسم «ليبيا».

بدأت المقاومة السنوسية والنضال الليبي الحقيقي ضد المحتل الجديد الذي استخدم الاسلحة الفتاكة والمدفعية والطيران لاول مرة. وبدأت المدن الليبية تتساقط واحدة إثر الاخرى بيد الطليان ... ولّما لم تستطع الدولة العثمانية مواصلة الحرب ضد ايطاليا بسبب من ثورة البلقان فقد عقد الصلح بين الطرفين في ١٥ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٢م. وصدرت بنود المعاهدة التي لم تراع أحكامها في حقيقية الأمر الحقوق التاريخية المشروعة، ولكنها اختصت بأقامة حكم تنائي ايطالي تركي من نوع خاص، واعتبرت ايطاليا ليبيا مستعمرة اعتيادية تابعة لها، الاّ ان تركيا العثمانية رفضت ذلك، ولم تتنازل عن سيادتها وحقوقها في طرابلس الغرب، الاّ عقب الحرب العالمية الاولى وفق اتفاقية لوزان عام ١٩٢٣م، في حين اعترفت الدول الاوروبية بالسيادة الايطالية على ليبيا * .

٥ / الاستنتاجات :

لقد اعلن السنوسيون الجهاد المقدس ضد القوى الاستعمارية – الايطالية، فتراجعت تلك القوى عن امتداداتها الداخلية نحو السواحل، والتراجع الى المدن الكبيرة والمراكز والمرافئ. واشتعلت الحرب بين فصائل الانصار التي كونها السنوسيون والقوات الايطالية. وقد استطاع الليبيون ان يحققوا مكتسبات تاريخية كبرى، فضلا عن ان الايديولوجية – السنوسية قد خدمتهم كثيرا خلال النصف الاول من القرن العشرين.

ولا بد لنا ان نقول بأن الحركة السنوسية بتاريخها وايديولوجيتها لم تكن حركة دينية سلفية فحسب، بل كانت حركة تعاونية وسياسية لتنظيم الحياة الاجتماعية والعلاقات الاقتصادية من خلال الروح الانتاجية، والاهتمام بالزراعة

---

* راجع التفصيلات التاريخية للحركة في د. احمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، بيروت ، ١٩٧٦.

والتعليم والفروسية والرياضة والزهد والقناعة والفنون والسياحة والتجارة والانفتاح على الآخرين، ونشر الاسلام في اعماق افريقيا الاستوائية .. كما وكانت حركة مسالمة مهادنة للقوى الاجتماعية كافة، ولم تتخذ من السلب والقتل والنهب والتحرشات والغزو اساليب لها في التغيير او التوسع .. كما واستطاعت ان تنظم المجتمع تنظيماً روحياً وعملياً، فنجحت في درئها للمخاطر الاستعمارية من خلال التجارب الساخنة التي تعاملت معها سواء مع فرنسا او ايطاليا.

كما ولا بد ان نقول بأن هذه الحركة غدت ايديولجية وطنية نتج عن تفاعلها في الاقاليم الليبية ان جمعت تلك الاقاليم الثلاثة في اتحاد سنوسي خرجت به على العالم تحت اسم «المملكة الليبية المتحدة» التي تكونت من طرابلس الغرب وبرقة وفزان .. لكي تعيد من جديد وحدة اقليمية لبلاد «سرينايكا» القديمة.

٥- الحركة المهدية: ترسيخ القيم الوطنية والنضال ضد الانكليز وولادة دولة

١/ مقدمة

غدا السودان الشرقي تحت الحكم المصري إبان القرن التاسع عشر وعلى يد محمد علي باشا، فانعكست الظروف السياسية والاقتصادية التي عاشتها مصر على السودان انعكاساً مباشراً، بحيث تحمّل السودان ثقلاً كبيراً كان يفرضه «الحكمداريون» المصريون الذين يتسلمون اوامرهم من خديوات مصر، وفضلا عن دلك، فقد أصبح السودان مرتعاً للبعثات الاوربية والمغامرين الجغرافيين الذين افتتحوا العهد الاستعماري للسودان الشرقي. وكان الانكليز في مقدمتهم، وقد انتشروا في السودان والتغلغل منه نحو أفريقيا الاستوائية تحت حجج عديدة أبرزها : منع تجارة الرقيق.

كان السير صموئيل بيكر S. Baker من اوائل الجغرافيين الانكليز الذين منحهم الخديوي اسماعيل سنة ١٨٦٩م ادارة مديرية خط الاستواء، وجاء من بعده الجنرال غوردون Gordon منذ سنة ١٨٧٤م، ليتولى مهمة توطيد الادارة المصرية، ويعمل على تنفيذ الخطط البريطانية الموكولة اليه .. مع ازدياد حجم النشاطات التبشيرية البريطانية والفرنسية في عهد غوردون الذي تّولى حكم السودان عام ١٨٧٧م.

وفي عام ١٨٨١م، وهو العام الذي نشبت فيه الثورة العرابية في مصر، انفجرت في السودان، ثورة عارمة على النير الاستعماري. وقد قاد هذه الثورة احد السودانيين الذي اطلق على نفسه «المهدي المنتظر» ! فمن هذا الرجل ؟ وما حقيقة حركته؟ وما آثارها التاريخية على تاريخ السودان؟.

٢ / مؤسس الحركة محمد المهدي وتطور ايديولوجيته :

ولد محمد احمد بن عبد الله في سنة ١٨٤٤م، في جزيرة لبب في نهر النيل بالغرب من مدينة دنكلة، ومارس حرفة النجارة كأبيه واخوته.. ثم ساح في بلاده منذ شبابه، فاكتسب تجارب مهمة، وتعرف على حياة الناس، ثم التحق بالطريقة الاسلامية السمانية في مدينة بربر او المخيرق في شمالي السودان، ودرس هناك علوم الدين .. ثم استوطن جزيرة آبا الواسعة التي ستغدو بؤرة نشاط له ولتابعيه فيها .. داعيا الى التنسّك والوقوف ضد سوء الاخلاق والمعاملة التي يمارسها الجنود الاتراك والمصريون والاوربيون في اراضي السودان. ودعا الى انقاذها منهم ، ثم انقاذ ديار الاسلام من خطر الاستعمار والاتراك.

لقد تميّز المهدي ببساطته وزهده وقدرته على الاقناع ، فالتفت حوله الآلاف المؤلفة من الفلاحين والفقراء والدراويش والبدو والعاطلين فاسماهم بـ «الانصار».. في حين ابتعد عنه الأثرياء والرؤساء واصحاب المصالح الاتراك والاقطاعيون الذين دعاهم الى تقسيم الاموال والاقطاعيات والاراضي على الفقراء البائسين .. واذا رفضوا فلتنتزع بالقوة انتزاعاً .. كما دعا الى الثورة بغية ايقاف النهب الاوروبي العلني، والحدّ من نير الباشوات . وقد جاء ذلك كلّه ضمن النهج الاصلاحي الديني الذي رسمه .

وعليه، فان الحركة المهدية ذات النزوع الاصلاحي قد نشأت اصلاً دعوة سياسية وطنية تقوم على مبدأ التحرّر والانعتاق السياسي والاقتصادي لبناء مجتمع سوداني عادل. ولقد وجد السيد المهدي الفرصة التاريخية سانحة امامه لاعلان «الثورة» في شهر آب / اغسطس عام ١٨٨١م، داعياً الشعب اليها بعد ان أبادت «انصاره» قوّة مسلحة جاءت للتنكيل به، وفي مقدمتها مدفع واحد، فنزح المهدي الى اقليم كردفان حيث كان ينتظره الآلاف من المؤيدين والانصار، وتحولت الجموع الغاضبة خلال ايام الى قوات ثورية ضاربة من الذين بهرتهم

دعوات المهدي بالعدالة والتحرر، فأسس المهدي معكسراً في جبال كردفان الجرداء. ونظّم الجيش بعدّته واعداده، وبدأوا بالهجوم على المراكز الحكومية والحاميات العسكرية، وعلى الموظفين من جباة الضرائب والسعاة، فبدأت تترسخ يوما بعد آخر عند السودانيين روح العزة بالسيادة الوطنية بعد افتقادها لستين سنه.

وبدأ جيش المهدي يصدّ الحملات المصرية – البريطانية التي كانت تباد ابادة تامة، وتستخدم كل وسائل الدفاع خلال عام ١٨٨١م، وعام ١٨٨٢م و ١٨٨٣م التي أتّموا خلالها السيطرة على كامل كردفان، وهو العام الذي حقق المهديون فيه انتصاراتهم، وخاصة بعد ان اصطدم المهديون بالجيش البريطاني – المصري، واستمرار عملياته على مدى ثماني شهور. وتوالت الهزائم بقوات الجنرال هكس وقوات الجنرال بيكر .

وفي مطلع عام ١٨٨٤م غدت كل البلاد السودانية من جهتي النيل الغربية والشرقية بيد المهدي، ولم يبق للسلطات البريطانية المصرية الاّ مساحة ضيقة من وادي النيل. ولكن الانكليز استطاعوا تدبير مناورة ناجحة باعلان استقلال السودان عن مصر على يد غوردون الذي نصّب حاكماً على الخرطوم في ١٨ شباط / فبراير ١٨٨٤م، ونصّب المهدي سلطاناً على مديرية كردفان، واحتفظ لنفسه بمنصب حاكم عام لنفسه.. ثم الغى الضرائب، وأعلن العفو العام، ولكن المهديون اكتشفوا هذه المناورة فردّوا على ذلك بحصار الخرطوم بدءاً من شهر آذار / مارس ١٨٨٤م . وبقي هكذا الحال حتى توجّه من مصر جيش قوامه (٧) آلاف مقاتل بقيادة الجنرال ولسلي، لكنه لم يبلغ الخرطوم وفي ٢٣ كانون الثاني / يناير ١٨٨٥ استسلم المحاصرون، فاحتلها الثوار ، وقتل غوردون اثناء عمليات الاقتحام، وقضي على الانكليز، فعاد ولسلي بجيشه الى مصر. فانفتح الطريق امام الثوار للسيطرة على جميع اراضي شرقي السودان، فتأسست الدولة المهدية على مدى اربعة أعوام، ولم يبق بيد الانكليز الاّ منطقة صغيرة في شمالي دنكلة، اضافة الى مديرية خط الاستواء.

٣/ تكوين الدولة المهدية وترسيخ الوطنية السودانية من خلال الصراع ضد الاستعمار :

لقد انتصرت الحركة السلفية – الاصلاحية – المهدية بتأسيس «دولة» على يد صاحبها المهدي الذي توفي بعد فتح الخرطوم، فانتقل الحكم الى يد صديقه عبد

الله التعايشي، الذي لقب بـ «الخليفة» . وعاشت هذه الدولة (١٣) سنة، اي حتى عام ١٨٩٨م .تهددها المخاطر من كل حدب وصوب. وبقيت في حالة دفاع عن النفس، اذ نظم الجيش واصلحت السفن، وظهرت الصناعة الحربية، وحاول العملاء في الداخل نسف الكيان الداخلي للدولة الفتيّة المستقلة.

كانت دولة المهدي تتمتع بالبساطة والحرية، وخفضت الضرائب عن كاهل ابناء الشعب، وكان الزهد والتقشف من سمات الضباط والقادة ، وتمتع الناس بالمساواة وعوقب اللصوص، ومورست سياسة تقشفية مخلّصة من اجل اصلاح الحياة الاقتصادية للمجتمع ..ولكن لم يقض على طبقة الاقطاع لحاجة الدولة الى الوقت اللازم ، فضلاً عن ان البرامج كانت عفوية، ولكن المهدية حركة ودولة، ايديولوجية وتكويناً .. قد انتصرت للفلاحين الذين عانوا كثيرا على مدى قرون طويلة ا ولم تستطع الدولة المهدية من القضاء على الرق على الرغم من اتخاذها بعض الاجراءات ضد تلك الظاهرة المقيتة.

لقد بقي نظام الرق اضافة الى بقاء واستشراء بعض الظواهر السلبية الاخرى كالانشقاق القبلي، وتبلور مصالح جديدة على حساب السلطة الجديدة، و بخاصة المكاسب التي حصلت عليها قبائل كردفان، مما أثار استياء قبائل النيل التي خاضت نضالا ضد القبائل المتنعمة.

وبدأت الانتفاضة ضد الحكومة المهدية التي ارتدّت عن بعض اهدافها الاولى، وقاد ذلك كله الى صراع قبلي وطبقي عنيف مما اضعف الدولة المهدية كثيراً في بنيتها الداخلية، وكانت احوج ما تكون الى القوة وهي تقاوم الاعداء من الخارج.

فكيف كانت طبيعة العلاقات بين الدولة المهدية والاطراف الخارجية؟

كانت الدولة المهدية مضطرة للقيام بمحاربة اعدائها، اذ استمر القتال ضد الجيش الانكليزي - المصري في مناطق عدة من الجهة الشرقية للفترة ١٨٨٥ ١٨٨٩م، فضلاً عن الصراع ضد سلطان دارفور في الجهة الغربية وضد نجاشي الحبشة.. وفي عام ١٨٩٦م، كان الصراع ضد دول اوروبا قد بلغ ذروته، اذ كان هناك تنافس كبير بين بريطانيا وفرنسا لتقويض تلك المرحلة الفيكتورية هي من اشد المراحل توتراً في حالة الصراع الاستعماري الانكلوفرنسي لانقسام افريقيا، ثم دخل الايطاليون للاستقرار في ارتيريا .. ثم دخلت بلجيكا مناطق النفوذ في

مطلع القرن العشرين . ولكن في سنة ١٨٩٦م، عندما قررت فرنسا الزحف بقيادة مارشان من اواسط السودان الى اعالي نهر النيل. جردّت انكلترا في آذار / مارس من العام نفسه حملة انكلو – مصرية بقيادة كيتشنر على شرقي السودان ..

هكذا بدأت كل من فرنسا وانكلترا الهجوم، اولاهما من الغرب، وثانيتهما من الشمال. وبعد سنتين، أي في عام ١٨٩٨ م اقترب الجيشان من عاصمة الدولة المهدية. ونشبت معركة بين المهديين من طرف، واولئك الذين استعملوا الاسلحة الرشاشة التي حصدت الالاف من المهديين، فاندحر الجيش المهدي اندحاراً تاماً، وتراجعت فلوله غرباً نحو كردفان واسرع كيتشنر نحو فاشودة في الجنوب التي كانت تهددها القوات الفرنسية، ولكن حسم النزاع ، وسّويت القضية على اساس توازن القوى في العالم. فتراجع مارشان عن فاشودة، واستسلمت فرنسا، ولكن لم تمض الا شهور قليلة حتى عقدت الاتفاقية الانكلو – فرنسية في شهر / مارس ١٨٩٩م حول توزيع مناطق النفوذ في العالم.

وبموجب الأتفاق المذكور سيطرت انكلترا على شرقي السودان .. ثم بعد مفاوضات بريطانية – مصرية، وافقت الحكومة المصرية على السماح لبريطانيا بادارة السودان لقاء معونات قدمتها الى مصر في السودان .:ومنذ عام ١٨٩٩م ، عرف السودان رسمياً بـ «السودان الانكليزي – المصري»، واقيم فيه نظام سياسي ثنائي او مزدوج، وخلال ذلك الحكم، شرعت انكلترا بتصفية اخر الجيوب والبقايا المهدية التي كانت متركزة في كردفان وقتل الخليفة عبد الله في المعركة، وفي ١٧ كانون الاول / ديسمبر ١٨٩٩م، استولى الانكليز على «الابيض» عاصمة المهديين رغم المقاومة المشتتة التي سحقت في أرجاء السودان.

وعلى مدى الربع الاول من القرن العشرين، كان حكم الانكليز للسودان، حكما صعبا جدا، نظرا لتزايد الانتفاضات في اماكن متفرقة دون ان تجد لها شمولية وزعامة ثورية توحد الجهود النضالية الوطنية .. وقد باءت جميع المحاولات تلك بالفشل المرير*.

---

* لقد كتب فلاديمير لونسكى كتابة جيدة بخصوص «المهدية» كتابه «تاريخ الاقطار العربية ، ص٣٠٧-٣١٢، وقارن معلوماته بتحليلات المؤرخ تيوبالد والمستشرق هولت

A.B Theobald. The mahdiya, Longmans, London, 1965,pp. 40-73: See also .p.m. Holt The mahdist State in the Sudan, Oxford, 1970.

وانظر كتابات المؤرخين العرب : مكي شبيكة، د. محمد فؤاد شكري، نعوم شقير، د. جلال يحيى د. فهمي جدعان ، د. علي المحافظة



الفصل الثامن



الفصل الثامن

٨

الاصلاحات الرسمية والتحديث العثماني

١- الاسس والخلفيات التاريخية والعلل والبدايات:-

مقدمة:

مع نهايات القرن السابع عشر، وعلى إثر الهزائم المرة التي منيت بها الامبراطورية العثمانية منذ عام ١٦٨٣م، إثر التراجع العثماني المهول امام الحصار الثاني العثماني لـ فيّنا وتحالف القوى الأوربية ضدّها وخسرانها دفاعاتها التاريخية القديمة *. بدا واضحاً ان أوروبا الغربية والوسطى قد تفوقت كثيراً في مجالات شتى ابرزها التقدم العسكري والتطورات الاقتصادية. وفي الحقول السياسية والاجتماعية في حين لم تزل العقلية العثمانية جامدة. والحياة العثمانية مقلّدة، وقد غلّفت المجتمعات العثمانية سكونية مقفلة. وإن تجاوز اوروبا لحلقات العصر الوسطى قد تقدم على حالة النهضة والاستكشاف اللذين عاشتهما خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

ان الوعي العثماني بهذا الامر كان قد جاء متأخراً، وبدأ بعضهم يؤمن بأنه اذا لم تستيقظ الدولة، ويستفيق المجتمع العثمانيان معاً عاجلاً ام آجلاً فسوف ينهاران عمّا قريب امام سطوة التقدم الاوروبي. كما حدث أن هزمت الجيوش العثمانية وتلاشت قوتها ومعداتها امام الاسلحة الحديثة، والتقنية الاوربية، والخطط الحديثة.. فكان عليها ان تبدأ من حيث التمكن من الدفاع عن نفسها اولاً، او على اقل

---

* راجع التفاصيل في. د. سيّار الجميل، «الحصار العثماني الثاني لـ فيّنا عاصمة الهابسبورك النمساوية عام ١٦٨٣م»، المجلة العربية للعلوم الانسانية، جامعة الكويت، العدد (١٦)، المجلد (٤)، خريف ١٩٨٤.

تقدير، محاولات السلاطين وحاشيتهم من دعاة التجديد باقناع الغرب ان اصلاحات تجري في دواخل الدولة ومؤسساتها من اجل رفع شأنها بين الامم ثانياً.. ثم، ايقاف التدخلات السياسية والايديولوجية والدبلوماسية الأوربية تحت ذرائعيات متباينة كان من ابرزها: شعار حماية الاقليات المسيحية المضطهدة في الولايات العثمانية.

وهكذا، انحصرت كل عمليات التفكير بالاصلاح للنواحي العسكرية رغبة من الدولة في الحفاظ على كيانها التاريخي من الاخطار الخارجية التي تهدده، لا سيما وان دول اوروبا القوية كانت تتقدم وتتوسع معاً على حساب الامبراطوريات القديمة. ويؤكد بعض المؤرخين أنه ليس ثمة امة في العالم اظهرت استعداداً كبيراً مثل «الامة التركية» للاستفادة من الاختراعات الاوروبية في ميدان استخدام المدافع وغيرها من الاسلحة الاوروبية الحديثة. ولم تتوقف التجربة عند الاتراك فحسب. بل نجدها واضحة المعالم عند تجربة محمد علي باشا في مصر، وتجربة حمودة باشا في تونس، وتجربة مدحت باشا في العراق.. وغيرها من المناطق الاستراتيجية، مما يعطينا الدليل الكافي على ان العالم الاسلامي كان مستعداً برغم استفاقته متأخراً ان يدافع عن تاريخه امام العالم الاوروبي... وايجاد البدائل القوية امام الانقسام والتبعثر الاسلامي.

١ / الاسبقيات التاريخية: المحاولات الاولى

تعد الثورة الفرنسية من أعظم الحركات الغربية التي قلبت الاوضاع التاريخية رأساً على عقب واقعياً وايديولوجياً، وهي من ابرز الاحداث الاوربية التي أثرت تاثيرا حقيقياً وعميقا في العالم الاسلامي.. فكل ما جرى في اوروبا على ثلاثة قرون من تطورات في النهضة والتقدم والاستكشافات والتوسع لم يؤثر على البيئات الاسلامية، وبخاصة العثمانية منها لقربها من اوروبا، إذ بقيت منعزلة عن مجالات الاصلاح والتفكير والتخطيط والتعليم.. الخ وعلى الرغم من الاتصالات والارساليات والهيئات والقناصل والسفراء فانها ومؤثراتها لم تجد لها اي صدى او استجابة من قبل الشعوب العربية والاسلامية التي كانت تنظر الى العالم الاوروبي نظرة ازدراء وغرابة وأنه «بلاد الكفر والشرك».

لقد كانت ولم تزل كل من الذهنيتين. الاوربية والاسلامية تختلف في النظرة والحضارة والديانة، بل وتنافس واحدتها الاخرى في طبيعة الرؤية والحياة، إذ كان ذلك كله ناتجاً دون شك عن تأثير الرواسب التاريخية للصراع الطويل المدى بين العالمين المختلفين، والاحتكاك المباشر بين نظامين تاريخيين، ودينين متناقضين، وحضارتين متباينتين. ومن بعد فان العقليتين كانتا وستبقيان الى امد غير منظور تنظران الى الامور بمنظارين مختلفين. وتلك هي سنة الانعكاس الثنائي في التاريخ البشري بين الشرق والغرب، او الشمال والجنوب.

اما بالنسبة للعثمانيين فان الواقع التاريخي يخبرنا ان العلاقات العثمانية- الاوربية لن تكون دوماً علاقات صراع وعداء، بل كانت هناك ايضا علاقات ودّ وسلام وتفاهم وتفاوض وتعاهد وتعاضد وتصاهر ومواثيق وتجارة وامتيازات وعمل واقامة.. الخ وقد جرى كل ذلك بين الطرفين، ومن قبلهما بالذات، فليس نشوء او بروز التحديث والاصلاحيات العثمانية خلال القرن التاسع عشر معناه قد انحصر في اطار هذا القرن لا غير، فقد وجدنا بعض الاستخدامات الاوربية في بناء المدافع، وصنع الخرائط وبناء السفن واحواض السفن وفن العمارة والهندسة. . خلال القرون الثلاثة الخامس عشر والسادس عشر السابع عشر.

وبمجيء السلطان احمد الثالث ١٧٠٣-١٧٣٠م، اخذت محاولات الاصلاح تأخذ طريقها بصعوبة وسط التحديات القاهرة للقوى الرجعية القديمة التي وقفت الانكشارية على رأسها، وفي عام ١٧١٨ تنصّب ابراهيم باشا صدرا اعظم، وأخذ يعمل طوال اثنتي عشرة سنة على ادخال الاقتباسات الغربية الى الدولة العثمانية. لقد حثّ هذا السلطان على البدء بالاصلاحات العسكرية فتحسن سلاح المشاة وسلاح البحرية وصناعة السفن. وبدأ الصدر الاعظم ابراهيم باشا بارسال البعثات الى فيّنا وباريس.. وبدأت صورة الاتصال مع الغرب واضحة جلية في الحياة الاجتماعية والثقافية في الدولة العثمانية.

٢ / المحاولات في القرن الثامن عشر وتجربة ابراهيم متفرقة الاصلاحية:-

عندما كانت قوة ايران الافشارية تتفاقم باتجاه الصراع ضد العثمانيين في عقد الثلاثينات من القرن الثامن عشر كانت اسطنبول تعيش ثورة طاغية اثر ازدياد الاستياء ضد البلاط العثماني وتصرفاته السلبية، وقد تزّعم الثورة قائد انكشاري

ألباني هو خليل بترونة باشا وموصللو اغا اللذان ارغما السلطان احمد الثالث على التنازل عن عرش الدولة.. وفي خضم تلك السنين العجاف، برز اسم ابراهيم متفرقة المجري الاصل الذي قدم برنامجاً اصلاحياً بتشجيع الصدر العظم ابراهيم باشا الذي اعدم في [illegible] الثورة نكان ان نشأت اول مطبعة باللغة التركية، اذ كان الحظر قد استمر على الطباعة باللغة التركية حتى القرن الثامن عشر من قبل السلطات العثمانية انصياعاً لمعارضة رجال الدين والجماعات المحافظة، وبجهود كبرى حصلت موافقة شيخ الاسلام على اصدار فتوى تجيز الطباعة التركية للكتب العلمية والتاريخية فقط، ولكن استثنيت الكتب الدينية في الفقه والشريعة والتفسير..

لقد قام المصلح ابراهيم متفرقة بدور بارز في بث الوعي بضرورة معرفة التطورات التي لحقت بالعالم في مجالات عدة، وتوضيح موقع الدولة العثمانية من ذلك العالم.. وفي مطلع حكم السلطان محمود الاول ١٧٣٠ – ١٧٥٤م، قدم اليه ابراهيم متفرّقة مذكرة مطولة تفيد بأهمية الحكم السليم للشعوب والدول، واوضح اهمية بعض العلوم والفنون، وطالب بالالتفات الى اصلاح القوات المسلحة بعد معرفة ما كان في ميادين اوروبا.. وفي عام ١٧٣٢م، كتب ابراهيم متفرّقة مقالة تحت عنوان «اصول الحكم في نظام الامم» انتقد فيها العقلية العثمانية الجامدة والمغلقة، وقارن بين حرمان الاوربيين من مصدر الوحي والالهام، ولكنهم عملوا من اجل بناء حياتهم واخترعوا النظريات القتالية التي مكنتهم من هزيمة العثمانيين بالاعتماد على العقل. وخلال حكم السلطان محمود الأول قدم الكونت الفرنسي دي بونيفال De Bonneval ليعمل جنرالاً ويعتنق الاسلام. ويطالب الصدر الأعظم طوبال باشا باصلاح فرق المدفعية على النمط الأوروبي.. ويتم افتتاح «مدرسة العلوم الهندسية» عام ١٧٣٤، ثم «مدرسة لتدريس الرياضيات» وقد اغلقتا نتيجة لموقف الانكشارية المناهض منذ ذلك الوقت للتجديد والاقتباس..علماً بأن الاوضاع الأمنية في الدولة العثمانية كانت قد ساءت كثيراً نتيجة للضعف التي يحاق بالمؤسسة العسكرية – العثمانية. فكانت ان بدأت الدولة تعتمد على القوى المحلية والاقليمية في ولاياتها القوية... ويكفي ما جدناه من تجارب كتلك التي ابرزها فشل حصار نادرشاه للموصل عام ١٧٤٣م *!

---

* راجع ما كتبه د. خالد زيادة في كتابه: اكتشاف التقدم الاوروبي. دراسة في المؤثرات الاوروبية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، ط ١، بيروت، ١٩١٨.

٢- خطط سليم الثالث في التحديث العثماني

١/ الاوليات التاريخية:-

ازداد اهتمام الاتراك في عهد السلطان مصطفى الثالث ١٧٥٧ - ١٧٧٣م، بالاعتماد على خبراء اوربيين. وفي عام ١٧٧٤م، نشرت الفئة البيروقراطية كتاباً قالت فيه أن «النظريات الجديدة تتعارض مع المؤسسات القديمة، وأن الامبراطورية بحاجة الى مؤسسات جديدة».. وبعد أن ضمّت روسيا بلاد القرم عام ١٧٨٣م، دفع العثمانيون برنامج الاصلاح دفعة جديدة الى الامام بتشجيع فرنسي. وقد تأخر هذا البرنامج عن موعده مائة سنة، أو قرناً كاملاً بالضبط، وكان على الدولة العثمانية البدء به، بعد هزيمتها امام اسوار ڤينا بعد حصارها العثماني الثاني لها.. ولكن ذلك لم يتم؟

في نفس السنة التي اندلعت فيها شرارة الثورة الافرنسية، اعتلى العرش العثماني السلطان سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧م، لكي يبدأ عهد جديد بالنسبة لتحديث بلاده، ومواصلة حركة الاصلاحات في الدولة. ويعدّ سليم الثالث من أكفأ السلاطين مقدرة ووعياً وفهماً واطلاعاً. وكانت له صداقاته مع بعض المثقفين والرجالات الاوروبيين الذين كانوا يعرّفونه بالامم، غربي اوروبا، وبالمدنية والتفوق. وقد حدث ذلك قبل تسنمه العرش، وعند اعتلائه العرش في ٦ نيسان/ ابريل ١٧٨٩م، كانت امبراطوريته تتعرض لمخاطر شتى، وبخاصة الاطماع الروسية، واستيلاء روسيا على القلاع الشمالية، وبدأت الدولة العثمانية تفقد ولاياتها الأوربية.

لقد عبّر علماء الدولة في اعمالهم وكتاباتهم وخطبهم ومجالسهم عن تأييدهم للاصلاح، ودافعوا عن افكارهم التي استندوا فيها - ايضاً - على الشرعية الاسلامية وتاريخ الاسلام، وقدموا مسوغات مقنعة بخصوص اصلاح القوات العثمانية تمهيداً للجهاد ضد «الكفار»، وإن الواجب الديني يقضي بناء جيش قوي، لا سيما وان الدولة العثمانية كانت تعاني من الضعف والانحلال، وكانت قد منيت بخسائر وهزائم متكررة وخطيرة على الوجود العثماني برمته* ؛

---

* For details; see stanford J. Shaw, Betwen Old and New: The Ottoman Empire under Sultan Selim III; Harverd Univ. Press; 1971.

٢ / التشكيلات الجديدة والمعوّقات القديمة:-

كانت الانكشارية كمؤسسة وتاريخ، هي ابرز مانع في الدولة والمجتمع تقف حائلا دون الاصلاح، ايا كان نوعه، وقد حاول السلطان سليم الثالث في البداية معهم حول الاسلحة الجديدة والمناهج الغربية بسبب مصالحها القديمة، وآلياتها الاجتماعية المتوارثة، وابقاء نفوذها المسيطر والذي احتكرته قروناً طويلة. ولما رفضوا مقترحات سليم الثالث وآراءه، ركز السلطان على انشاء جيش جديد ليحل محل الهيئات والجماعات الانكشارية، بعد ان قدم له عدد من الخبراء والمستشارين رأيهم القاضي بعدم صلاحية الجيش القديم الذي كان سبباً في ضعف الدولة، وأن الاصلاح لا يتم الا ان قضيَ عليه، وتأسس بدله جيش على الطراز الاوربي.

وقد وافق سليم الثالث على تشكيل الفرقة العسكرية العثمانية الجديدة في منطقة «ليفانث شفتلك»، وابقائها فرقة سرية تخوفاً من اثارة الانكشارية... ثم إتفق السلطان مع الديوان على انشاء جيش جديد باسم «النظام الجديد» يكون منفصلاً عن الانكشارية الذين يسمح لمن يرغب منهم الانضمام الى ذلك «النظام»، واستقدمت الحكومة العثمانية ضباطاً من فرنسا، وتجهزت ببعض الاسلحة الأوربية الحديثة، وافتتحت مدارس عسكرية وعربية جديدة. والتزم جميع الطلبة بدراسة اللغة الفرنسية.

وبقي أمر التشكيلات الحديثة سراً بين السلطان وحاشيته، وأعضاء الديوان العام حتى عام ١٧٩٤م، إذ اعلن السلطان في شهر ايلول/ سبتمبر عن انشاء الجيش الجديد، ومع انتهاء عام ١٧٩٦م، حتى اكمل بناء ثلاث ثكنات جديدة و مصنع للبنادق... الخ ثم بدأت المشكلات تتفاقم يوماً بعد آخر إثر تباين الجيشين الجديد والقديم في الانضباط والنظام، وبدأ يتكاثر الجنود النظاميون الجدد حتى عام ١٧٩٦م، فقد كشفت الاوضاع عن دخول اباء المناطق القبلية لكي يغدو ٩٠٪ من مجندي «النظام الجديد» هم من الفلاحين الاتراك والقبليين الذين قاد اقحامهم الى اسوء النتائج· إذ افتقد النظام والانضباط، وانقطع الكثير منهم عن التدريب، وصدرت عام ١٨٠١م تنظيمات جديدة تؤكد على التدريب *.

---

* راجع بخصوص ذلك· التقرير الذي اعده بالافرنسية محمود رئيف افندي، «التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية»، عربه وحققه وقدم له: د. خالد زيادة، ط ١، طرابلس- لبنان، ١٩٨٥، ص ٣٢- ٨٥.

٣/ الانجازات السياسية والعلاقات الدولية:-

استطاع سليم الثالث ان يطور ايضاً جهاز الدوبلوماسية والداخلية في دولته، ويشملها بالاصلاح لأن الدولة العثمانية لم تخدمها الدبلوماسية، بل خدمتها على مدى قرون طويلة المؤسسة العسكرية / الاقطاعية، ولكن غدت الدولة العثمانية بحاجة دوماً الى «مفاوضين» سياسيين، ولا سيما بعد تداعي امر الدولة الى حافة الانهيار، فبدأت الدبلوماسية تأخذ مكانتها الخاصة في التفكير الاصلاحي- العثماني. وعليه، فقد استقر السفراء الأوربيون الاوائل في العاصمة اسطنبول، ولكن افتقدت حالة البروتوكولات التي عرفتها اوربا فضلاً عن عجزها في النظام الوزاري، وفشل الصدر الاعظم في الدولة ان يكون على مستوى الانظمة الوزارية في اوربا، وكان رئيس الكتاب (سكرتير الصدر الاعظم) يقوم بادارة العلاقات الخارجية، وكثيراً ما كان يجهل طبيعة السياسات الاوربية..

اعتنق السلطان سليم الثالث مبدأ التحالف مع الدول الأوربية، لتوفير الامن والقوة للامبراطورية، وبقي العثمانيون يطلبون المساعدات الخارجية لعدم قدرتهم على توفير ذلك.. وعليه، فقد آمن سليم الثالث بمباديء جديدة في تحديث الدولة، فانحرف عن المفاهيم والتقاليد السياسية القديمة، متبعاً سياسة العزلة. كما انهيت المساعدات العثمانية للبعثات الاجنبية في اسطنبول، إذ جرى ذلك العرف طويلا لاسباب عدة، منها: الترفع العثماني والضيافة، عطف السلطان.. فضلاً عن الاقتصاد في النفقات للدبلوماسيين الأوربيين.

٤/ مبادئ التحديث العثماني عند سليم الثالث:-

يعد عهد السلطان سليم الثالث ١٧٨٩- ١٨٠٧م، أول انطلاقة تاريخية في تحديث الدولة العثمانية على أسس قوية، وقد دفع سليم الثالث حياته ثمناً لذلك التحديث، إذ عاصر عهده احداث الثورة الفرنسية ومؤثراتها التي اخترقت الحواجز السياسية والدينية للمجتمعات الاوربية التي كانت معظم دولها غارقة في نظمها الاوتوقراطية القديمة. وقد اعتمد العثمانيون على المدرسين والخبراء الفرنسيين، فكان لا بد أن تتأثر المجتمعات العثمانية بافكار الثورة الفرنسية، واستطاعت ان تؤثر في التفكير السائد، وخاصة المباديء الحرة في الحرية والاخاء والمساواة، فضلاً عن اعلان حقوق الانسان الذي أصدرته الجمعية التأسيسية للثورة

الافرنسية، واكتسبت تلك المبادىء صفات سياسية ضد السلطات المطلقة في كل من الدولة المجتمع. معنى ذلك. البحث عن الادوات والوسائل التي تحقق الافكار والمبادئ على أرض الواقع، فكان هناك المطالبة بالدستور والحكومات التمثيلية، وحكم القانون، والاضراب، والانتخابات، وتحديد السلطات والحرية العامة والصحافة والتشريع.. وفصل الدين عن الدولة. أي: القضاء على النقائض التي خلّفها أولئك الذين حكموا اتوقراطياً قروناً طويلة.

ومع كل ذلك، فإن المجتمعات الاسلامية لم تعرف التفاوت الطبقي والحواجز الاجتماعية الصارمة والامتيازات والمصالح الكبرى وسلطة الكنيسة التي عرفتها المجتمعات الاوروبية.. ولكن ما لم يعرف عند المسلمين هو المفهوم الغربي لمصطلح «الأمة» مفهوماً قوياً يرتكز اساساً على اللغة والعرق والاقليم (= الوطن)، إضافة الى ان مفهومهم لم يكن في الاساس مبدءاً لوحدة الجماعات في الحياة التاريخية، بل ان الفهوم الاسلامي يعتمد مبدأ الاخوة في الايمان ضمن النزوع الديني الذي يتطلب دوماً ارث الماضي، ويتصلّب بالتحالف الاسروي في المدن والحواضر، وبالعصبيات القبلية في البوادي والارياف ضمن ولاءات متعددة: الخليفة/ الملك/ السلالة الحاكمة/ الشيخ/ الامير... الخ ويعمل المفهوم ضمن إطار مزدوج للحياة الدنيا والحياة الآخرة.

٥ / اجهاض التجربة التحديثية ومأساة سليم الثالث

لقد تخوف احمد عاطف افندي سكرتير السلطان سليم الثالث من تأثير الثورة الفرنسية على الامبراطورية العثمانية إذ ان الثورة خطر يهددها ويهدد الدول المسيحية معاً، وقد صدقت رؤيته بعد احتلال نابليون بونابرت لمصر في شهر تموز/ يوليو ١٧٩٨م، وحالما انتهت الحملة وفشلت، عاد مفعول الامتيازات القديمة لفرنسا، وتوثقت العلاقات العثمانية الفرنسية. وقد وقف ضد سياسة الوفاق هذه، حزب تزعمه حالت افندي الذي عمل سفيراً لبلاده في فرنسا للفترة ١٨٠٢ – ١٨٠٦م، وكشف عن سلبيات الفرنسيين، وخططهم التآمرية. وقد اتهم حالت افندي وحزبه كونهم من الرجعيين الذين وقفوا ضد التفكير السياسي الحر، وذلك بالاعتماد على مساندته للنظام الملكي البوربوني. وقد وقفت الرجعية

العثمانية الى جانب الانكشارية التي ساءتها قرارات السلطان سليم الثالث، فقامت الثورة في روميليا، وابادوا الجيش الجديد الذي ارسله السلطان لمقاومتهم. وتمكنت الانكشارية وجماهير العاصمة من تعطيل الاصلاحات، وتخوف سليم من سوء العاقبة، فطرد مستشاريه المصلحين، ونصب أغا الانكشارية صدراً اعظم، ولكن وجهت لسليم ضربة قاسية بوفاة سيخ الاسلام في اوائل عام ١٨٠٧م، وقد كان صديقاً حميماً لسليم الثالث، ومن المؤيدين لبرنامجه الاصلاحي، وتقلد المنصب محمد عطا الله ليقود الرجعية والانكشارية ضد العرش. فقامت الثورة الرجعية متهمة الاصلاحات كونها «بدعة غير شرعية»، وأفتى شيخ الاسلام الجديد بعزل سليم، فتولى مصطفى الرابع حكم الدولة، حيث أعلن الغاء النظام الجديد، وأمر باعدام سليم الثالث، فقاد البيرقدار باشا الذي وقف على رأس التجمع الاصلاحي، وانتقاماً من اعدام سليم، وزحف البيرقدار باشا. وكان قائدا لجبهة الدانوب ووالي سلسترة، ومؤيداً لسليم، بقواته في ٢٨ تموز/ يوليو ١٨٠٨م، وكانت تقدر بين ١٨ ألفا و ٤٠ الفاً معظمها من الالبانيين والبوسنيين فضرب القصر السلطني، واعتقل السلطان مصطفى ١٨٠٧- ١٨٠٨م، وكان الامير محمود الثاني قد هرب اثر محاولة قتله، فسيطر البيرقدار باشا على الوضع اثر انقلابه المضاد وسلم السلطة الى محمود الثاني، فنصب السلطان البيرقدار باشا صدرا اعظم، وبدأ بتنفيذ مشروعه الاصلاحي، واعلنت «وثيقة» رسمية الاصلاح بتأييد فتوى شيخ الاسلام، والتوقيع عليها من كبار رجالات الدولة دون ان يقدر تفكير الجماهير وموقف الرأي العام، فادت سياسته الى عداء الموظفين والعلماء..

في ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٠٨م، عاد الانكشارية الى الثورة مرة اخرى، وطوقوا الباب العالي مقر الصدر الاعظم، وقتل البيرقدار باشا الذي كان قد اوجد قوة عسكرية جديدة أسماها بـ «السكمان» واحرقوا ثكناتهم ومقراتهم العسكرية الجديدة *.

---

*Kemal H. Karpat (ed). The Ottoman State and its place in World history, Leiden and E. J. Brill, pp. 179- 190.

٣- الاصلاحات في عهد السلطان محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩م والقضاء على المؤسسة الانكشارية.

١ / القضاء على الانكشارية: أبرز خطط الاصلاح :-

يمثل عهد السلطان محمود الثاني فترة صعبة من تاريخ القرن التاسع عشر، والذي عاصرته تغيرات اوروبية كبرى، ورجالات كبار في مصر والعراق وتونس ولبنان والمغرب.. وفي الوقت نفسه تفاقمت مخاطر الوهابيين في نجد، وثورات الانكشارية وتمرداتهم في العاصمة اسطنبول والولايات العثمانية في الاعوام ١٨٠٨م، ١٨٠٩، ١٨١٠، ١٨١١، ثم تمردوا عام ١٨١٤، وباءت جهود السلطان محمود الثاني بالفشل لاعادة تنظيمهم من جديد، وقد وجد أنّ مشكلة الانكشارية هي أخطر مشكلة يواجهها، وذلك للافكار القديمة التي يحملونها ودفاعهم المستميت عنها، فقام بتنفيذ خطة جريئة ودقيقة ومعقدة بالاتفاق مع شيخ الاسلام والصدر الاعظم وأغا الانكشارية في عام ١٨٢٦م، لكي يضربوا ضربة قاضية في شهر أيار/ مايس من هذه السنة، عندما أعلن انشاء فرق عسكرية جديدة، فأثار ذلك الاعلان انقساماً في الصفوف.

بدأ السلطان محمود الثاني خطته الاستراتيجية في عام ١٨٢٢م، باتخاذه سلسلة من العمليات الفعالة، منها: تنصيب قادة مخلصين لاهدافه، والقضاء على العناصر البيروقراطية، والحصول على رضى طبقة العلماء الذين بدأوا بالانقسام والتشرذم للحصول على المصالح والامتيازات والوظائف، وتقربوا من السلطان الذي قام بالتقرب منهم ايضاً نفسه. اما الخطوة الاخيرة فتتمثل بالحصول على تأييد الرأي العام لاصلاحاته، إثر توعية العلماء للناس والاشادة بسياسة السلطان محمود الثاني الاصلاحية، فضلاً عن تكفير «البكتاشية»، وتقرر في شهر أيار/ مايس ١٨٢٦؛ صدور مرسوم خاص بانشاء «الاسكنجي»، ويشتمل على (٤٧) مادة إصلاحية، جزءاً من برنامج ينسجم مع حدود الشريعة الاسلامية.

وبدأ التمرد من بعض قادة الانكشارية الذين اقسموا على النضال في سبيل تحطيم البرنامج الاصلاحي، والوقوف ضده.. وانتشر المتمردون في ٢ حزيران/ يونيو في شوارع العاصمة يهتفون بالموت للذين أصدروا المرسوم، فاجيزت فتوى تقضي بقتل المتمردين وطلب السلطان منهم الاستسلام وعدم معارضة الاصلاح،

فأصرَّ الانكشارية على موقفهم فكانت «الواقعة الخيرية» وهي المعركة التي قتل فيها من الانكشارية ثلاثة آلاف انكشاري داخل الثكنات، وعشرون ألفاً في شوارع اسطنبول.

وفي ١٧ حزيران/ يونيو، تقرر الغاء الانكشارية وفرقها وانظمتها في جميع الولايات العثمانية، وحلت محلها تنظيمات عسكرية جديدة تحت اسم «عساكر محمدي المنصورة» كما أصدر السلطان مرسوماً أثنى فيه على الدين والشريعة الاسلامية، وعلى الجنود الشجعان من الانكشارية الذين خدموا الدولة باخلاص، ولكنهم تدهوروا واصابهم الانحلال، ورفضوا الطاعة، وتخلوا عن الحصون للاعداء، وعملوا على «تدميرنا»، وقطعوا صفحات القرآن بالسكاكين، وتمردوا على الشرع والسلطان.. وأثنى على العساكر الجديدة، وقدرتها في الرد على العدو..

٢ / التحولات والتشكيلات الجديدة العثمانية خلال القرن التاسع عشر:

لقد قرر السلطان محمود الثاني تطبيق اصلاحاته بكل قوة في جميع الولايات العثمانية، وتكوين نظام عسكري جديد لجيش نظامي استطاع ان يوثق العلاقات بين الولايات وبينها وبين السلطة المركزية في العاصمة. وقد دُرّب الجيش العثماني (= النظامي) الجديد ونُظم حسب الاساليب العسكرية الاوروبية، وتفرقت تشكيلاته في ولايات الامبراطورية، اي انه قسم الى دوائر عسكرية. واشرف عليها قائد يلقب بـ«سر عسكر» وهو قائد الجيش الاول عادة، ثم غدا يسمى بـ«ناظر الحربية» و«رئيس اركان حرب الجيوش العثمانية»، وكان لكل جيش دائرة عسكرية تختص بشؤونه وتحتل مكانة المقر له.

١ الجيش الهمايوني الاول (برنجي اوردو همايوني)، ومقره الدائرة العسكرية الاولى في العاصمة اسطنبول، ويتفرق في ولايات عدة، منها قسطموني وانقره وبروسه.

٢ - الجيش الهمايوني الثاني (ايكنجي اوردو همايوني)، ومقره الدائرة العسكرية الثانية، في مدينة أدرنة، وينتشر في اقاليم الروميليا.

٣ الجيش الهمايوني الثالث (اوجنجي اوردو همايوني)، ومقره الدائرة العسكرية الثالثة، في مدينة سلانيك، وينتشر في سواحل بحر الادرياتيك واليونان.

٤- الجيش الهمايوني الرابع (دردنجي اوردو همايوني). ومقره الدائرة العسكرية الرابعة، في مدينة ارزنجان، وينتشر في ولايات شرق الامبراطورية (= الاناضول).

٥- الجيش الهمايوني الخامس (يشنجي اوردو همايوني)، ومقره الدائرة العسكرية الخامسة، في مدينة دمشق، وينتشر في ولايات بلاد الشام (= الرقة وحلب ودمشق وبيروت)، ثم متصرفيتي القدس ودير الزور، اضافة الى ادنه، وقد عرف هذا الجيش باسم «جيش عربستان» (وتعني عربستان- هنا- بلاد العرب).

٦- الجيش الهمايوني السادس (التنجي اوردو همايوني)، ومقره الدائرة العسكرية السادسة، في مدينة بغداد، وينتشر في ولايات العراق (= بغداد والموصل والبصرة) فضلاً عن لواحقها الجغرافية.

٧- الجيش الهمايوني السابع (يدنجي اوردو همايوني)، ومقره الدائرة العسكرية السابعة، في ولاية اليمن *.

٣/ عودة الادارة المركزية العثمانية:-

عاشت الامبراطورية العثمانية خلال عهد السلطان محمود الثاني المزيد من الازمات والانتفاضات والحركات الانفصالية في اوروبا الشرقية، فضلاً عن المشكلات الاستعمارية على اطراف متعددة منها، ناهيك عن حالات الصراع الاقليمي التي برزت في كل من مصر والجزيرة العربية. فوجد السلطان ان من الخطورة بمكان ابقاء حالة السياسة العثمانية اللامركزية سارية المفعول في الحياة الادارية- العثمانية، لأن ذلك معناه تكريس ظاهرة الانفصال والضعف. وعليه، فقد قرر اتباع سياسة مركزية جديدة باعادة نظام حكم الادارة المباشر الى الولايات العثمانية كافة، حتى ان تلك الاقاليم ذات الظروف الصعبة التي لم تعرف حياة الادارة المركزية- العثمانية في يوم من الايام برغم السيادة العثمانية عليها.

---

* انظر د. ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦- ١٩١٦، جامعة الموصل، ١٩٨٦، ص ١٨٤- ١٨٥.

هكذا، قضى على المماليك في بغداد سنة ١٨٣١م، وعلى الحكم الجليلي- المحلي في الموصل سنة ١٨٣٤م، وعلى الاسرة القرمانلية في طرابلس الغرب سنة ١٨٣٥م، وعلى الشهابيين في جبل لبنان سنة ١٨٤١م... الخ في حين كان محمد علي باشا في مصر قد انفرد بالسلطة هناك، وناضل كثيرا من اجل ان يجعل حكمه وراثياً فيها.. أما دايات الجزائر، فقد انهار حكمهم العثماني سنة ١٨٣٠م، إثر الاحتلال الفرنسي للجزائر* !

وقد فشلت اسطنبول في القضاء على الحركة الوهابية في اقليم نجد قلب الجزيرة العربية. لكن الباب العالي استعان بمحمد علي باشا- كما رأينا- الذي أخمد الحركة سنة ١٨١٨م فقوي شأن مصر، وازداد نفوذها في اسيا العربية. في حين بقي نفوذ البايات الحسينيين في الايالة التونسية، الذين ابقوا حالة الاستقرار مستمرة في تونس، اضافة الى قلة مشكلاتهم، وتمكنهم من التعامل الفعال مع الدول الاوروبية.

وفي العاصمة اسطنبول، إتخذ السلطان محمود الثاني؛ عدداً من الاجراءات الاساسية لدعمم عودة نظام المركزية، وأنشأ وزارات عدة كالمالية والاوقاف والحربية والداخلية.. كما ظهرت وزارة الخارجية التي تطورت من خلال تأسيسه لادارة الترجمة. تأسس ايضاً، مجلس الوكلاء (= الوزراء) على غرار التنظيم الاوروبي. وفي سنة ١٨٣٧م، الغي منصب الصدر الاعظم مؤقتا لتسند السلطات الى الوزير الاول (= رئيس الوزراء)، فظهرت مكانة الباب العالي (= السلطة التنفيذية)، فضلاً عن تأسيس «المجلس الاعلى للقضاء».. وكذلك اتخاذه اجراءات اخرى، كانت جميعها تشكل جملة من التحولات في كل من الدولة والمجتمع العثمانيين.

٤/ تقييم تجربة محمود الثاني الاصلاحية:-

لقد استفاد السلطان محمود الثاني من تجربة سلفه السلطان سليم الثالث المريرة، فاكمل البرنامج الاصلاحي- العثماني الذي يعد اساساً لما تلاه من اصلاحات وتحولات.. يمكننا ان نتوقف قليلا عند ابراز اعمال محمود الثاني الاصلاحية الاخرى -

* استنتاجات تاريخية مستنبطة من خلال دراسة مقارنة لتواريخ الاقاليم العربية المهمة، والتي سادت فيها الادارات اللامركزية على امتداد القرن الثامن عشر

١- اصدر مرسوماً عام ١٨٢٤م، اعلن مسؤولية الدولة عن التعليم الابتدائي، اي رفع ايدي الهيئات والجماعات والعلماء المسلمين من الاشراف على التعليم، فاقيمت المدارس «الرشدية» في كثير من المدن والحواضر والاقاليم.

٢- ارسال السلطان محمود الثاني لبعثات دراسية الى جهات عدة من العالم سنة ١٨٢٧م، منافساً في ذلك خطط محمد علي باسا في مصر في ارساله لبعثات طلابية الى فرنسا سنة ١٨٢٦م.

٣- افتتح السلطان محمود الثاني مدرسة الطب في اسطنبول سنة ١٨٢٧م.

٤- الاعتماد على صفوة من العلماء والمترجمين، كان من ابرزهم: شاني زادة، واسحق افندي اللذان خدما العلوم والتعليم والمصطلحات والتربية والتاريخ.

٥- تعامل السلطان محمود الثاني مع القوى الدينية والعسكرية والبيروقراطية بمنتهى المرونة والذكاء، فقضى على عناصره القديمة، مستغلاً الخلافات بين هذه العناصر لمصلحته. كما وقضى على حالت افندي قطب الرجعية العثمانية في اسطنبول.

٦- اعتمد على ابرز الرجالات من القادة المصلحين المؤسسين في الاقاليم، والذين بدأوا بتطبيق افكار السلطان وارائه وخططه ومشاريعه.. وغدوا نصيراً له في تطبيق قوانينه الجديدة وتنظيماته الاصلاحية.

٧- كانت لمحمود الثاني جهوده البالغة والصريحة حول الغاء كل ما يمثله القديم في حياته وحياة دولته، مغيراً- مثلاً- ازياء الموظفين، فارضاً الزي الاوروبي للافندية، وقد الغى «العمامة» واقر «الطربوش» بدلها!

٨- خطط لاصدار دستور ومجلسين نيابيين، ولكنه لم يشأ ان يفقد «المطلق» ويلتزم «الدستور».. ويعود الفضل في بناء «التنظيمات الخيرية» الى عهده، تلك «التنظيمات» التي سيبدأها خلفه السلطان عبد المجيد الاول *.

* للاستزادة انظر: د. محمد عبد اللطيف البحراوي، حركة الاصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨- ١٨٣٩، القاهرة، ١٩٧٨.

استنتاج:–

هكذا، نستنتج، انه اذا كانت مشاريع السلطان سليم الثالث هي الانطلاقة والمثل النير لما يسمى بـ «التحديث Modernization، فان تجربة السلطان محمود الثاني فيما يسمى بـ «الاصلاحية Reformism كانت قدوة انارت طريق المصلحين الاتراك.. كما وكانت جهود واصلاحات محمود الثاني واضحة الاثر في المجتمع العثماني والدولة العثمانية قاطبة.

٤– عصر التنظيمات العثمانية

مقدمة:–

لقد اعقبت عهد السلطان محمود الثاني ١٨٠٨– ١٨٣٩م فترة اصلاحات متواصلة اخرى، عرفت باسم «التنظيمات العثمانية» أو «التنظيمات الخيرية»، تمثلت باجراءات وقوانين ونظم متواصلة منذ وفاة محمود الثاني عام ١٨٣٩م، حتى الغاء السلطان عبد الحميد الثاني الدستور العثماني عام ١٨٧٨م، فاذا كانت التنظيمات Tanzimat قد ارتبطت باسم السلطان عبد المجيد الاول ١٨٣٩- ١٨٦١م، فإن مشروع «الدستور» (= المشروطية) قد ارتبطت باسم السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦- ١٩٠٩م، ولكن لم يكن كل من عبد المجيد الاول وعبد الحميد الثاني وراء المشروعين الآنفي الذكر وبنائهما والتخطيط لهما.. فلقد كان السلطان محمود الثاني قد بذل جهوده ونشاطاته، والاعتماد على خبزاء ومستشارين في انجاز مشروع «التنظيمات» الكبرى، ولكنه مات قبل اعلانها، فجاء خلفه عبد المجيد الاول لكي يقوم باصدارها فترتبط بعهده وباسمه.. وقد حدث الامر نفسه بالنسبة لمشروع «الدستور العثماني» الذي اصدره السلطان عبد الحميد الثاني مذ تولى عرش الدولة، في حين ان المشروع يعود في رمته الى عهد السلطان عبد العزيز الاول ١٨٦١- ١٨٧٦م...

التنظيمات العثمانية*:–

وسنتناول ادناه مشروع «التنظيمات العثمانية» (= الخيرية) من خلال دراسة التحولات البنيوية، وتوضيح القوانين المتعددة التي اصدرتها الدولة العثمانية

---

* Ed. Engelhardt, La Tuurquire et la Tanzimat, ou histore des Reformes dens L'Empire Ottoman, 2 vols, Paris , 1882-4.

ضمن المشروع الاصلاحي الكبير (= التنظيمات)، تلك القوانين التي لفتت انظار الدوائر الاوروبية والمؤرخين عموماً كان ابرزها: خط شريف كولخانه الذي صدر في ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٣٩م. وهناك خط شريف همايون (أي: القانون السلطاني). والذي اصدره السلطان عبد المجيد الأول في ١٨ شباط / فبراير سنة ١٨٥٦م. فماذا يتضمن كل من القانونين؟

١/ خط شريف كولخانة سنة ١٨٣٩م:-

كان هذا «الخط» بمثابة قانون الاصلاح الرئيس للدولة العثمانية، والذي صرف في ترتيبه وانجازه الوزير المصلح مصطفى رشيد باشا ١٨٠٠- ١٨٥٨م، جهوداً بالغة، وعند اعتلاء السلطان عبد المجيد الأول العرش، دعا هذا الوزير الوزراء والعلماء ورجالات الدول والسفراء الاجانب الى قصر كولخانة (= قصر الورد)، وفي ميدان القصر، قرأ الوزير مصطفى رشيد باشا «القانون» على مسمع من السلطان والمدعوين. وقد تضمن هذا «القانون» البنود الآتية:

١. يمنح السلطان رعيته امنية الروح والعرض والناموس والمال.

٢. وعد السلطان باصلاح الادارة والقضاء، ثم يقضي على تجاوزات الولاة الذين يمارسون القتل والمصادرة باسمه.

٣. اجراء القرعة العسكرية / الشرعية دون خلل في منافع الزراعة والتجارة.

٤. جباية الأموال وتوزيعها بمقتضى الاحكام الشرعية.

٥. القضاء على الرشوة والفساد في اجهزة الدولة، التي سادها الخلل نتيجة قلة الرواتب وانعدامها.

٦. استمرار الاصلاح باصدار القوانين والنظم واحترامها والعمل بها، وعدم مخالفتها ابداً.

٧. تنازل السلطان عن بعض سلطاته لمجلس الاحكام العدلية الذي كلف لوحده بسن القوانين، والتي ترفع الى السلطان للمصادقة عليها فقط.

٨. اعمام الصدر الاعظم «للقانون» كولخانة على جميع ولايات الدولة للعمل به رسمياً.

٠٩ ابلاغـه لسـفـراء الدول الاجنبـيـة رسـمـيـاً، للاطلاع على الاجـراءات الاصلاحية – العثمانية.

٠١٠ القـضـاء على «نظام الالتـزام» القـديم الذي خـرب العـلاقـات بين الدولة والرعية اي بين الدولة والمجتمع.

٠١١ تنظيم التجنيد، وتجديد فترة الخدمة العسكرية للمجندين الاجباريين.

٠١٢ المسـاواة بين المسلمين وغيرهـم في محاولة لمنع دول اوربا، التدخل في شـؤون الدولة بحـجة حـمـاية الجمـاعـات والاقليات غير الاسـلامـيـة في المجتمع العثماني.

التطبيقات والاجراءات:-

لقـد رافـقت تطبـيـقـات هذا «القـانون»، جـملة من الاجـراءات العـمليـة لتنظيم المناصب والوظائف والرواتب ابتداء من عـام ١٨٤٠م، وكان لهذه التنظيمات ردود فعل في الاوسـاط الاوربية، فقد ايدّتها بريطانيا وفرنسا لأنها عملت على ادخـال النظم الاوربية الى الادارات العثمانية. وقد توقف العمل بالنظم الجديدة في مطلع عام ١٨٤١م، وعزل مصطفى رشيد باشا المهندس الحقيقي لحركة الاصلاحات (= التنظيمـات)، وعـادت الدولة الى نظام الالتزام القـديم... ولكن بعد خمس سنوات يعـود الى الصـدارة العظمى مـرة اخرى، فـيـعـود تطبـيق القـوانين الجـديدة عـام ١٨٤٦م، ويستمر مصممها ومنفذها في ذلك حتى تولي السلطان عبد العزيز الأول عرش الامبراطورية ومقاليد الامور.

٢/ خط شريف همايون سنة ١٨٥٦م

صـدر هذا المرسـوم الـهمـايوني في ١٨ شبـاط / فبراير ١٨٥٦م، عـقب نهاية حـرب القـرم ١٨٥٤- ١٨٥٦م، وقد اندلعت بسـبب الصـراع بين روسـيـا وفـرنسـا على حمـاية الاماكن المقدسـة بفلسطين، وكانت الدولة العـثمـانية قد انتصـرت رفقة حـليفـتيـها انكلترا وفرنسـا على روسيا في تلك الحـرب. اتخذ العـثمـانيون في هذا «الـخـط»، اجراءات اصلاحية عملت على كسب رعاياها. فاقر السلطان العثماني عبد المجـيـد الأول المبـادئ التي اعلنهـا في خطي شـريف كـولخـانة... ولكن تتـعلق كل بنودها بحقوق الطوائف والاقليات غير الاسلامية ومصـالحها.

ويمكننا ان نجمل ادناه ابرز البنود التي احتوى عليها هذا الخط الشريف:

١٠ ابقاء الحقوق والامتيازات للطوائف المسيحية بعد مراجعة تنظيماتها بالاعتماد على المقترحات التي تقدمها كل طائفة الى الباب العالي، بما يتفق ودرجة الرقي التي طرأت على الدولة العثمانية.

٢٠ حرية الطوائف غير المسلمة بممارسة شعائرها الدينية، وبناء معابدها بشرط التسامح.

٣٠ المساواة في المعاملة بين جميع الطوائف وتأمين الحرية الدينية لأهل كل مذهب، وتحريم الحط من القيمة الدينية للافراد.

٤٠ مساهمة جميع الرعايا لخدمة الدولة العثمانية من خلال الوظائف، والاستفادة من الخدمات التعليمية للدولة والانخراط في الوظائف.

٥٠ انشاء محاكم مختلطة للفصل في القضايا المدنية والجنائية، وبين قضايا الاحوال الشخصية والوقفيات والميراث التي تحال الى المحاكم الشرعية.

٦٠ المساواة بين جميع رعايا الدولة في الحقوق والواجبات، وخاصة من الناحية العسكرية. اذ يخضع المسيحيون في التاريخ العثماني/ الاسلامي لأول مرة الى قرار الدولة في ادائهم للخدمة العسكرية.

٧٠ سمح القانون للاجانب بالتملك في الدولة حسب التعليمات والانظمة البلدية المرعية.

٨٠ منع القانون موظفي الدولة في العمل بالتزام الضرائب بعد ابطال الالتزام العثماني القديم منذ عام ١٨٣٩م.

٩٠ التقيد بتسجيل المصروفات والايرادات بكل ضبط ودقة في دفاتر وقيود ومستمسكات وضبطيات خاصة لمراعاة شؤون «ميزانية الدولة».

١٠٠ وعد السلطان باشراك رؤساء الملل والجماعات والطوائف والاقليات في المناقشات التي يعقدها «المجلس العالي» وفي القضايا المتعلقة بشؤونهم.

١١٠ وعد السلطان باجراء اصلاحات شاملة وأساسية في حقول المالية والمواصلات والمعارف والزراعة والتجارة والخدمات.

هكذا، نجد ان خطي شريف همايون يساوي مدنياً واجتماعياً بين جميع رعايا الدولة، ثم وان الدولة اعترفت بتلك الطوائف والملل والاقليات الدينية اذ ان افرادها متساوون امام القانون العثماني في خدمتها. واستطاعت ان تتجاوز الفروق الدينية وتختص بالتسامح الديني وحرية العبادة.. لقد اقترب القانون قليلا من مفهوم عصري هو مفهوم «المواطنة»، لكن مبدأ المساواة لم يطبق تماماً، ولا سيما في مسالة الخدمة العسكرية ، اذ بقيت منحصرة بالمسلمين فقط. ودفع المسيحيون الاعانة العسكرية والبدلات النقدية بدلا من الخدمة ... كما وبقيت الوظائف الادارية والقضائية منحصرة بين المسلمين فقط ... ولكن ؟

بقيت الدول الاوربية وخاصة فرنسا تدعى حماية الطوائف المسيحية في الشرق. ففرنسا تريد حماية الكاثوليك، في حين بقيت روسيا تعد نفسها حامية للارثودكس، وبقيت انكلترا تعد نفسها حامية البروتستانت.

كان من ابرز النتائج التي ابرزتها تطبيقات خطي شريف همايون، ازدياد حجم الامتيازات والحقوق للاقليات والطوائف المسيحية في الداخل، وتثبيت اسس التدخلات الاوربية الخارجية في الشؤون الداخلية ، ولا سيما في المجتمع المشرقي/ العربي الذي تزداد في شرائحه ومدنه وحواضره ودساكره وقراه الكثير من التشكيلات العرقية والدينية والوحدات الانثروبولوجية المتباينة *.

---

* من ابرز الكتب العربية المعول عليها في هذا الموضوع :-

د. عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢، الاسكندرية ، د.ت ص ٢٧٤ وما بعدها.

د. شفيق حجا، «التنظيمات أو حركة الاصلاح في الدولة العثمانية ١٨٣٩- ١٨٧٦» مجلة الابحاث (الجامعة الامريكية في بيروت) السنة (١٨) ، جـ(٢١) ، حزيران ١٩٦٥.

د. احمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، ط ١، بيروت ، ١٩٨٢.

ومن المفيد جدا مراجعة ما كتبه كل من المؤرخين الغربيين.

برنارد لويس وهاملتون كيب وستانفورد شو وانكلهارت ووليم ميلر وورودريك ديفيسون والتأكيد على التفاصيل التي حللها ستانفورد شو وزوجته ايزل كورال شو.

اما أهم مصدر بالتركية فهو «مجموعة التنظيمات العثمانية»، ترجمها: نوفل نعمة الله نوفل، المجلدان الاول والثاني، بيروت ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م

٣/ قانون الاراضي:-

على إثر صدور خطي شريف همايون اصدرت الدولة العثمانية قوانين عدة، واهمها تلك التي تخص حيازة الاراضي. كان قانون الاراضي قد صدر في سنة ١٨٥٨م، ثم صدر قانون الطابو سنة ١٨٥٩م، ثم صدر قانون الولايات سنة ١٨٦٤م ومعظم هذه القوانين وغيرها جاءت لتثبيت اسس جديدة للنظام العثماني - الاصلاحي وهدفت الدولة العثمانية من قانون الاراضي وقانون الطابو: وضع اسس ثابتة في مسألة التصرف بالاراضي في ارجاء الدولة.

صدر قانون الاراضي في ٢١ نيسان / ابريل ١٨٥٨م = ٧ رمضان ١٢٧٤هـ بغرض الفصل بين ما لاصحاب تملك الاراضي، وما للحكومة من الحقوق فيها، وجاء هذا القانون في (١٣٢) مادة مستمدة من الشريعة الاسلامية والاعراف والتقاليد ومن القوانين والشرائع المدنية الاوربية كالقانون الالماني والقانون الفرنسي والقانون الانكليزي. ويعتبر هذا القانون بداية لعمل تشريعي قامت به الدولة العليّة لأرساء قواعد الاقطاع بشكله الجديد الذي يتلاءم مع متطلبات الحفاظ على كيانها وتأمين حكم السلاطين.

بنود القانون :

حددت المادة الاولى من مقدمة القانون : أنواع الاراضي الموجودة في بلاد الدولة العلية بخمسة اقسام :

١. القسم الاول : الاراضي المملوكة وتعني المحلات الحاصل التصرف بها على وجه التملك .

٢. القسم الثاني : الاراضي الميرية (= الاميرية) وتعني اراضي الدولة.

٣. القسم الثالث : الاراضي الموقوفة .

٤. القسم الرابع : الاراضي المتروكة .

٥. القسم الخامس : أراضي الموات.

وحددت المادة الثانية، انواع الاراضي المملوكة بأربعة أنواع : هي :

١. النوع الاول: العرصات الموجودة داخل القرى والقصبات :

٠٢ النوع الثاني : الاراضي التي افرزت من الاراضي الميرية ، وتملكت تملكاً صحيحاً .

٠٣ النوع الثالث : الاراضي العشرية .

٠٤ النوع الرابع : الاراضي الخراجية .

كما اكدت ان رقبة الاراضي المملوكة كافة تعني ذاته، وملكيتها تعود الى الشخص الذي هو صاحبها وشاغلها، وانها تتوارث مثل الاموال وباقي الاشياء، وتجري على الاحكام مثل : الوقف والرهن والهيئة وهذه الاراضي «لا يطبق بشأنها قانون الاراضي وانما تكون شايعة للقواعد الشرعية والقانونية التي تضمنتها الكتب الفقهية، ومجلة الاحكام العدلية وبعض القوانين والانظمة الخاصة..» كما جاء نص ذلك في «الدستور» ص ١٤). في حين وضحت المادة الثالثة : طبيعة الاراضي الميرية، وعرفتها بأنها ماكان عائداً الى بيت المال من المزارع والمراعي والمسارح والمشافي والمحاطب، وامثال ذلك من الاراضي التي يجري امر احالتها وتفويضها من طرف الدولة العلية، طبقاً لاحكام قانون الاراضي العثماني وكانت هذه الاراضي قبل صدور القانون يجري التصرف القانوني بها واحالتها باذن من اصحاب «الخاصة، والزعامت والتيمار» الذين كانوا يعتبرون أصحاب الارض ثم من قبل الملتزمين والمحصلين .. وبصدور قانون الاراضي أصبحت هذه المهمة من واجبات مأموري المال، ثم من واجبات موظفي الدفتر الخاقاني وكتبة الطابو، حيث كانت تعطى للمتصرفين بها سندات الطابو المتوّجةُ بالطغراء السلطانية، وأن اصحاب حق التصرف بها لا يملكون فيها الا حق الانتفاع والاستعمال مجرداً عن الرقبة.

وجاء في المادة الرابعة : تحديداً للاراضي الموقوفة : وهي الاراضي التي اوقفت توظيفاً الى الشرع الشريف من الاراضي المملوكة. ومثل هذه الاراضي تكون رقبتها وجميع حقوق التصرف بها عائدة الى جانب الوقف ، ومن الاراضي الموقوفة ايضاً : الاراضي المفرزة من الاراضي الميرية التي اوقفها السلاطين العظام بالذات أو آخرون بالاذن السلطاني. وهي عبارة عن تخصيص منافع قطعة مفرزة من الارض الميرية من أعشارها ورسوماتها للجهة الموقوفة عليها.

اما بالنسبة للاراضي المتروكة فقد فصلت فيها المادة الخامسة، وحددتها بقسمين، احدهما : متروك لاجل عموم الناس ، مثل الطريق العام، وثانيهما : الاراضي المتروكة المخصصة لعموم اهالي القرية او القصبة، وتبقى رقبة هذه الاراضي لبيت المال.

كما اوضح القانون في المادة السادسة : أراضي الموات ، وعّرفها بأنها · «الاراضي غير الخاضعة لتصرف احد من الاشخاص ، ولا متروكة مخصصة للاهالي ، وهي بعيدة عن مراكز العمران او السكن، وغير صالحة للزراعة، او من اية استفادة منها» ، وتفوّض اراضي هذا النوع لمن احياها دون مقابل بل مع بقاء رقبتها لبيت المال.

اما باقي المواد فقد قسمت الى ثلاثة ابواب، كما جاء في المادة السابعة من القانون بخصوص الاراضي الاميرية والمتروكة والموات ومسائل اخرى شتى. والجدير بالذكر ان الاراضي الاميرية سجلت في دائرة الدفاترخانة بموجت سجلات الدفتر الخاقاني. وقد بلغت سجلات العراق فقط خلال العهد العثماني (٩٧٠) سجلاً ، تحتفظ العاصمة بها جميعاً.

٤ / قانون الطابو :

ولكي تؤسس الدولة «المشروعية» في تسوية الحقوق المتعلّقة بالاراضي الاميرية وتحديدها على أسس أصح من القانون السابق (= قانون الاراضي) ، أصدرت في ١٣ كانون الثاني / يناير ١٨٥٩م = ٨ جمادى الثانية ١٢٧٥هـ، قانون «الطابو» * الذي تضمن (٣٣) مادة مع ملحقين للتعليمات، أنشأ بموجبها نظاماً

---

* اختلف الكتاب في معنى مصطلح (طابو)، فمنهم من ذكر بأنه رومي الاصل عن (طابوس) وتعني (الارض) . كما قيل بانه مصطلح تركي اصله (الطابوق) ويعني «الطاعة» ، بينما حدده رأي ثالث كونه كلمة مشتقة من الفعل (ثاب- ماك) ومعناها : الاعتراف بالجميل والشكران وتقديم الولاء للمزارع الاقطاعي .. يقابل معناها في قانون الاراضي ما يقابل مصطلح « التسجيل العقاري» . فالطابو اذاً : نظام المتصرف بالارض او من جعل الحكومة العثمانية تخول بموجبه التصرف بالاراضي العائدة رقبتها للخزينة العامة، بعد وضعها بالمزايدة العلنية وتفوض من تؤول اليه، قطعة من الارض الاميرية حق الانتفاع بعد دفع البدل. ويبقى الملك للحكومة، ويرث الابناء حق الانتفاع عن آبائهم. وإذا اهمل صلاح الارض اربع سنوات تعطى لغيره. اما سندات الطابو فقد دعت الحاجة لاعطاء الاهلين وثائق خاصة من أجل طمأنتهم على اموالهم غير المنقولة. وكانت هذه الوثائق تسمى سابقاً بالحجج الشرعية. فلما صدرت قوانين الاراضي، سميت الوثائق بـ «سندات الطابو». (انظر . قائمة المصادر الملحقة) وراجع : د. عماد الجواهري ، تاريخ مشكلة الاراضي في العراق ١٩١٤-١٩٣٢، بغداد ١٩٧٨، ص ٤٧٦.

قانونيا لسجل الحجج والعقود، والمتخصصة بالاراضي وحوزة تفويض الاراضي الزراعية الاميرية، ببدل الى الاشخاص المتصرفين بها مع ابقاء الرقبة لبيت المال، ولاثبات هذا الحق، تصور امانة الدفتر خاقاني «سندا» يسمى «السند الخاقاني» تذكر فيه حدود الارض حسب الموقع.

ومن خلال القاء نظرة سريعة على القانون المذكور نجد انه قد ارتكز على شروط التفريغ وقيمة الرسم وكيفية اتمام عملية التوزيع، وتنظيمها، وكتابة السندات (أي : سندات الطابو) الرسمية الخاصة بها ، وعملية حفظها، مع تأكيده تفويض او بيع الاراضي غير الخاضعة او المفرغة لاحد بالمزايدة العلنية .

وقد حددت المادة الثالثة : شروط التفريغ – كما يقول النص القانوني – «اذا اراد احد ان يفرغ من اراضيه لآخر، فينبغي ان يأخذ علماً وخبراً مختوماً باختام امام ومختاري حارته او قريته، مبيناً ان المتفرغ متصرف حقيقة بتلك الارض، مع صحة مقدار المبلغ الذي يتفرغ به، وبيان القضاء والقرية الداخلة بها وحدودها وتخومها، ومقدار دونماتها، ثم يحضر المتفرغ له كلاهما الشرعيان الى محل المدينة ليؤخذ العلم والخبر اقرارا ثم يحفظ بعد ان يختم ويوقعون خرج الفراغ» ثم تحفظ منه مضبطة في المقر الذي حصل فيه الفراغ.. مع ارسال نسخة منه الى الدفترخانة للمنطقة .

وعالجت المادة الرابعة عملية الافراغ التي يقوم بها أي شخص لآخر في (دار السعادة) اما المادة الخامسة ، فتعالج عملية الفراغ للاراضي التي توفي اصحابها وآلت الى الورثة. وحددت المادة السادسة، قيمة الرسوم ،.. وفي المادة السابعة، حدد القانون مقدار الخرج في حالة قيام مبادلة الاراضي مجموع قيمة (الارضين) تفريداً، ويؤخذ الخرج بقيمة (٥٪) عن النصف .. وهذا الخرج يحصل استيفاؤه مناصفة بين اصحاب الارضين. بينما حددت المادة الثانية عشرة. تفويض الاراضي (مجاناً) للذي يقوم باستصلاح الاراضي البور، أو يأخذ ارضا من الاراضي المتروكة. وأكدت المادة الرابعة عشرة على ضرورة تحديد الاراضي في سندات الطابو أي «يتوّج بها محل وجود الاراضي داخل قضاء او قرية و مقدار دونماتها ثم «يختم بالخاتم المخصص في أمانة الدفتر» وجاء في المادة السادسة عشرة. تحديداً لطبيعة الحصول على التفويض بخصوص الارا[illegible] لم تفوض لأحد وذلك بعد «التحقيق من أرباب التصرف الحالي .

وفي البند الاول من «لائحة التعليمات» المرفقة بالقانون تأكيدات على ضرورة تسجيل الاراضي، والحصول على السندات .. والاّ فلا يحق لأي شخص كان التصرف بالاراضي، واجبرتهم «اللائحة» على ضرورة أخذ سندات بذلك، وتجديد القديمة منها، وذلك بابدالها بـ «سندات الطابو المتوجة بالطغراي» .. واوكلت واجب التحقق من صحة هذه السندات بـ «الولاة العظام، والمتصرفين الكرام، والقائمقامية، واعضاء المجالس، ومأموري المال، ومديري القضاءات، وكتاب الطابو ..» وفي حالة وقوع «قصور او تكاسل تعود المسؤولية على جميعهم».

وحدد البند السابع من «اللائحة» قيمة الخرج المفروض على الابنية والمزارع الموجودة في الاراضي بـ ٥٪ قروش عن مجموع قيمة أراضيها وأشجارها ومبانيها .. الخ من البنود والمواد القانونية *.

هكذا، حدد نظام الطابو بالمواد والبنود الملحقة بها عملية تفويض الاراضي .. ولم تعد الاراضي بعد ذلك منحة يستردها الحكام والسلاطين والولاة متى شاؤوا .. كما ان العلاقة بين الارض والمقطع اليه علاقة غير ثابتة قد انتهت .. اذ غدت الارض مفوضة، واصبح المقطع اليه صاحب حق التصرف بارضه، وبموجب علاقة قانونية مستقرة ومتوازنة، ولا يجور بموجب الانظمة والتعليمات الجديدة استرداد الارض، الا في حدود ما يجيزه القانون فقط.

٥ / قانون الولايات :

شرّع هذا القانون الجديد سنة ١٨٦٤م، اي في عهد السلطان عبد العزيز الاول ١٨٦١–١٨٧٦م، جزءاً من العمليات العثمانية الواسعة في تنظيم شؤون الدولة، وضبط مركزيتها الادارية على الاقاليم العثمانية كافة. كما وكان القانون يهدف الى تصفية العلاقات الاقطاعية القديمة، وتحديد الصلاحيات للموظفين الاداريين – العثمانيين الجدد. كولاة والمتصرّفين والقائمقامين والمدراء .. وقد اعتمد هذا القانون في احكامه على التنظيم الاداري الفرنسي .

---

* جمعت هذه البنود القانونية في مجلدين بعنوان «الدستور» او مجموعة الانظمة العثمانية، وترجمها الى العربية : نوفل افندي نعمة الله نوفل. (مجلدان) وراجعها: خليل الخوري، (بيروت المطبعة الادبية)، ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م.

هكذا الغيت النظم القديمة التي كانت تعتمد على «التيمارات والزعامات» وأكد القانون على انشاء «المجالس الادارية» للموظفين الكبار الذين تدار الولاية من قبلهم، ويقف الى جانبهم عدد من الاعضاء المنتخبين. ويقف على رأس المجلس «الوالي» الذي يعدّ رئيساً للوحدة الادارية، والممثل السياسي للحكومة العثمانية، فضلاً عن اختصاصات بيروقراطية متنوعة في الادارة وضبط الامن الداخلي والمراقبة الادارية على الموظفين في الولاية، اضافة الى مراقبة الشؤون المالية، والعمل على رفع المستويات: العلمية والزراعية والصناعية والتجارية والصحية والعمرانية، اضافة الى مواجهة الحركات المتمردة والانتفاضات بتدابير خاصة. ويُساعده في العمل، مجموعة من المدراء والموظفين.

اما في الالوية فان «المتصرّف» هو رئيس الوحدة الادارية، ويكون «القائمقام» مرؤوساً له، وله مهام ادارية وامنية. وينقسم كل لواء الى اقضية، ولكل قضاء «قائمقامية» خاصة ترعى شؤونه المختلفة. اما النواحي التي يتألف منه القضاء فيقف على رأسها مدير الناحية الذي له مواصفاته في بث الامن وجباية الضرائب، ويكون ارتباطه بالقائمقام... وقد عدت «القرية» هي اصغر وحدة ادارية يكون «المختار» مأمورا ادارياً في سكان القرية، ويرتبط بمدير الناحية .. وهناك ايضاً «المختارية» في المحّلات والحارات التي تؤلف المدن كوحدات ادارية صغيرة.

لقد أقّر قانون الولايات «بتأسيس» مجالس ادارة «للتشارك في ادارة الوحدات الادارية الى جانب رؤسائها كالوالي والمتصرف والقائمقام ومدير الناحية.. وتختلف المجالس الادارية عن المجالس البلدية. فهي :

١- **مجلس الولاية العمومي** : يتألف من اربعة أعضاء منتخبين عن كل لواء، يترأسهّ الوالي او نائبه في حالة غيابه، اجتماعه سنوي، ويستمر على مدى اربعين يوما، وتعتبر الوظيفة فيه بمثابة استشارة، وعلى الوالي ارسال توصيات المجلس الى العاصمة اسطنبول لاستحصال الموافقة عليها.

٢- **مجلس ادارة الولاية** : يتألف من الوالي والدفتردار والمكتوبجي والمفتي فضلا عن اربعة اعضاء منتخبين اثنين من المسلمين واثنين من غيرهم. ويكون

هذا المجلس مسؤولا عن تسيير الخدمات العامة كالطرق والسكك والابنية والمبايعات والمقاولات والتزام الواردات والرسوم والتدقيق .. وله الحق في حسم الخلافات بين الدوائر والمجالس ، اضافة الى مهامه في تحديد الصلاحيات، والنظر في الدعاوي من الناس.

٣- **مجلس ادارة اللواء:** وهو مجلس يتألف من اركان اللواء: المتصّرف ونائبه والمفتي والمحاسب ومدير التحريرات، فضلا عن ثلاثة اعضاء منتخبين ..ومهامه تدقيق الميزانية، ومراقبة اموال الحكومة ، والخدمات العمرانية والصحية والتعليمية والاقتصادية في اللواء.

٤- **مجلس ادارة القضاء :** ويتألف من القائمقام والمفتي ومدير الاموال وكاتب التحريرات ، وعدد مناسب من الاعضاء المنتخبين ، وابرز مهامه : ادارة اموال الحكومة ، وتدقيق الميزانية، والنظر في احتياجات القرى ، والبت في المقاولات والمزايدات الحكومية .

٥- **مجلس ادارة الناحية :** الذي يكوّنه مديرالناحية وهيئة استشارية تتألف من اربعة اشخاص يمثّلون مجالس الختيارية في القرى التابعة. ويجتمع المجلس اربع مرات في السنة.

٦- **مجلس الختيارية في القرية :** اي مجلس الكبار في السن، ويضّم عدداً من الاعضاء المنتخبين يتراوح من ٣-١٣ شخصاً. وتنصّب اعماله على سّد احتياجات القرى، وتوصيل الخدمات اليها، فضلاً عن حل المشكلات والمحافظة على مصالح الحكومة .

التقسيمات الادارية :

بدأت الدولة العثمانية تنشر كل سنة حولية رسمية، تسمّيها «سالنامه دولت عليه عثمانية» بمعنى (الكتاب السنوي للدولة العلية العثمانية) ، كما كانت كل ولاية تصدر لها «سالنامه سي» خاصة بها وبشؤونها. وكانت تلك الحوليات تبين تفاصيل التقسيمات الادارية، وتذكر اسماء رؤساء الموظفين في الولايات والالوية والاقضية كافة. ويتوضح لنا من تلك التفاصيل التي ذكرتها احدى «السالنامات العثمانية» ، بأنّ البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية كانت تقسّم الى تسع ولايات واربع متصرفيات مستقلة(غير مرتبطة بأي ولاية بل ارتباطها بالمركز اسطنبول) وايالتين ممتازتين .

ويمكننا ان نجمل ادناه التقسيمات الادارية للولايات العربية عند مطلع القرن العشرين:

١- **ولاية الحجاز**: تضم متصرفيتين: جدة والمدينة و(٥) اقضية و (٦) نواح. إضافة الى إمارة مكة المكّرمة (كان امير مكة المكرمة يتمتع بـ الشرافة) وهي اسمى مقام يقف الى جانب منصب الصدر الاعظم في الاستانة، ومنصب الخديوي في مصر.

٢- **ولاية اليمن**: تضم اربعة ألوية، هي: صنعاء / الحديدة/ عسير/ تعز، و(٢٧) قضاء/ و (٥٤) ناحية و (٣٨١) قبيلة/ و (٢٧٦) عزلات / و(٦٣٣٩) قرية.

٣- **ولاية البصرة**: تضم اربعة ألوية، هي البصرة / المنتفك / نجد / العمارة، و(١٠) اقضية / و (٢٩) ناحية / و (٢١٠) قرى.

٤- **ولاية بغداد**: تضم ثلاثة ألوية، هي: بغداد / كربلاء/ الديوانية (١٧) قضاء / و (٣٤) ناحية / و (٤٧) قرية.

٥- **ولاية الموصل**: تضم ثلاثة الوية، هي: الموصل / كركوك / السليمانية و (١٤) قضاء/ و (٢٣) ناحية / و (٣٣٢١) قرية.

٦- **ولاية حلب**: تضم ثلاثة ألوية، هي: حلب / أورفة / مرعش. و (٢١) قضاء/ و (٧٢) ناحية / و (٣٨٠٠) قرية.

٧- **ولاية سورية**: تضم اربعة الوية، هي الشام الشريف / حمادة/ حوران/ الكرك و (٢١) قضاء/ و(٢٨) ناحية / و (١٢١) مزرعة / و(١٠١٧) قرية.

٨- **ولاية بيروت**: تضم خمسة ألوية: هي. بيروت / عكا / طرابلس / اللاذقية/ ونابلس. و (١٥) قضاء / و (٤٢) ناحية /و (٢٩٥٩) قرية ومزرعة

٩- **ولاية طرابلس الغرب**: تضم خمسة ألوية، هي: طرابلس الغرب/ الجبل الغربي/ خمس / فزان/ غات./ و (١٦) قضاء/ و (٢٢) ناحية.

١٠- **متصرفية القدس الشريف** : علاقتها بوزارة الداخلية العثمانية مباشرة. كانت تضم اربعة اقضية ، هي يافا / غزة/ بئر السبع/ خليل الرحمن، اضافة الى (١١) ناحية / و (٣٨٤) قرية ومزرعة.

١١- **متصرفية بنغازي** : وهي ادارة متصرفية مستقلة، تتبعها (٣) اقضية و (٩) نواحٍ.

١٢- **متصرفية دير الزور**: وهي ادارة متصرفية مستقلة، تتبعها (٤) اقضية، و(٤) نواحٍ و (١٣٩) قرية.

١٣- **متصرفية جبل لبنان**: هي متصرفية ممتازة، لها نظام خاص في الادارة، تضم (٨) اقضية، هي : الشوف / المتن/ كسروان / البترون/ جزين/ الكورة/ زحلة/ دير القمر (= كقصبة)، وتحتوي على (٤٠) ناحية، و (٩٣٤) قرية.

١٤- **ايالة مصر** : ايالة خديوية ممتازة علاقتها رمزية بالدولة العثمانية *.

١٥- **ايالة تونس** : ايالة البايات الممتازة علاقتها رمزية بالدولة العثمانية .

٦ / قانون البلديات : المجالس البلدية

تأسست البلديات في مدن الدولة العثمانية منذ عهد بعيد فقد تشكلت عام ١٨٢٧م نظارة الاحتساب للمدن، وعين بعد ذلك بسنتين مختارين لاحياء العاصمة اسطنبول. وكانت مدينة القاهرة السباقة في تشكيل مجلس تنظيم للمدينة عام ١٨٣٥م وقد غدا بعد ذلك مجلساً بلدياً. اما العثمانيون فقد شكّلوا مجلس تنظيم لاسطنبول عام ١٨٥٥م، وألغيت نظارة الاحتساب. وقد تأسست أوّل بلدية عثمانية في حي بيوغلو – غلطة من اسطنبول في ٧ تموز/ يوليو ١٨٥٨م، وأسميت بالدائرة السياسية على غرار بلدية باريس.

---

* لقد اعتمدت في كتابة هذا الموضوع على :
ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ط٢، بيروت، ١٩٦٠، ص ٢٣٠-٢٤٩.
وانظر :
Zeine N. Zeine ,Arab - Turkish Ralations and the Emergence of Arab Nationalism , Beirut, 1958.

ايضا :
محمد انيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤، ط١، القاهرة ، د.ت.

كما وأسّس المصريون مجلساً انتهى امره بجلائهم عن الحجاز. وتمتعت مدينة الموصل بتاريخ بلدي طويل بدأ مع انشاء بلدية اسطنبول .. وتوالى تأسيس البلديات في المدينة وجدة والطائف. وتأسّست في ولاية بغداد ثلاث بلديات عام ١٨٧٨م، وتم تعيين اعضاء المجالس البلدية الاولى لمدة ثلاث سنوات بدون اجور.

وطرأت تحسينات كبيرة على الخدمات في المدن العربية، منها: الصحة والبريد والانارة خلال النصف الثاني من القرن الماضي. ولم يختتم ذلك القرن الماضي نهايته عام ١٩٠٠م حتى لم تخل اية مدينة عربية من بلدية، لكي تصبح اعمال البلدية جزءاً من التنظيمات الادارية في الولاية.

اما بشأن المجالس البلدية، فان المجلس البلدي يتألف من ٦-١٢ عضوا، يساعدهم مستشارون فنيون كمهندس وطبيب وكاتب ومحاسب، ويترأس المجلس رئيس البلدية، ويتم انتخاب الاعضاء كل اربع سنوات، شرط ان يكونوا من ابناء المدينة، ومن اعيانها ووجوهها، في حين ينّصب رئيس البلدية من قبل الدولة، ولا بد ان تتوافر فيه الشروط... اما نشاطات المجالس وواجباتها، فمنها: اداء الخدمات العامة، والمحافظة على الصحة العامة، وصيانة المواصلات وتطويرها، والعناية بالبنايات والاخلاق والايتام والمعوزين والنظافة والعجزة والمقابر والمعابر والاسالة والانارة والمذابح والبساتين والمرافق العامة والمقاهي والملاهي والرسوم والاوزان والفنادق والخانات والاسعار والاسواق والمجاري والحدائق والمساجد والكنائس .. الخ*.

ان واردات البلدية متعددة، فهناك مبالغ تخصّصها الحكومة، فضلاً عن الرسوم والغرامات، والاكتتابات والهبات والاعانات والتبرعات..الخ. اما الانفاقات فتذهب الى ما تصرفه البلدية على الخدمات العامة كانشاء الطرق والمعابر والانشاءات ..الخ وهناك دفع رواتب موظفي البلدية والصرف على الادارة، وعلى الرقابة وعلى الميزانية وعلى الخطط والخرائط والمشاريع ..الخ.

---

* انظر الدستور ترتيب ثاني، جلد اول، د. سعادة / اسطنبول ١٣٢٩هـ، ص ١٨-١٩.

يكون رئيس البلدية مسؤولا عن جلسات المجلس البلدي، ومسؤولاً ايضاً عن أوجه الصرف وتنفيذ القرارات التي يتخذها المجلس الذي يجتمع كل اسبوعين. و يجتمع المجلس البلدي مع مجلس الادارة مرتين في السنة ليؤلف في المدينة ما يسمى بـ «الجمعية البلدية» التي من ابرز مهامها فحص الاحوال العامة للبلديات، ورفع تقرير الى «الوالي» يتضمن ما يتعلق بالميزانية والحسابات والتغييرات والخدمات والمصلحة العامة *.

نستنتج من خلال دراستنا للقوانين الادارية والبلدية أنّ تطّوراً كبيراً قد لحق بمرافق الدولة العثمانية نتيجة تطبيق تلك القوانين، والتي غدت بمثابة تحوّلات كبيرة من اجل بناء مؤسسات حديثة لها نظمها وتنظيمها وارتباطاتها المركزية .. وكانت تلك التجارب كافية، لو لم يسأ استخدامها في اعطاء الفرص امام رعايا الدولة لكي يطورّوا نزعتهم في الانتخابات وبناء مؤسسات تمثلهم اصدق تمثيل، بعد تدريبهم على الممارسات الحرّة في ابداء الآراء والتمثيل في الحكم، ومراعاة القوانين والانظمة والابقاء على «الدستور» وتطوير الاصلاحيات ..الخ.

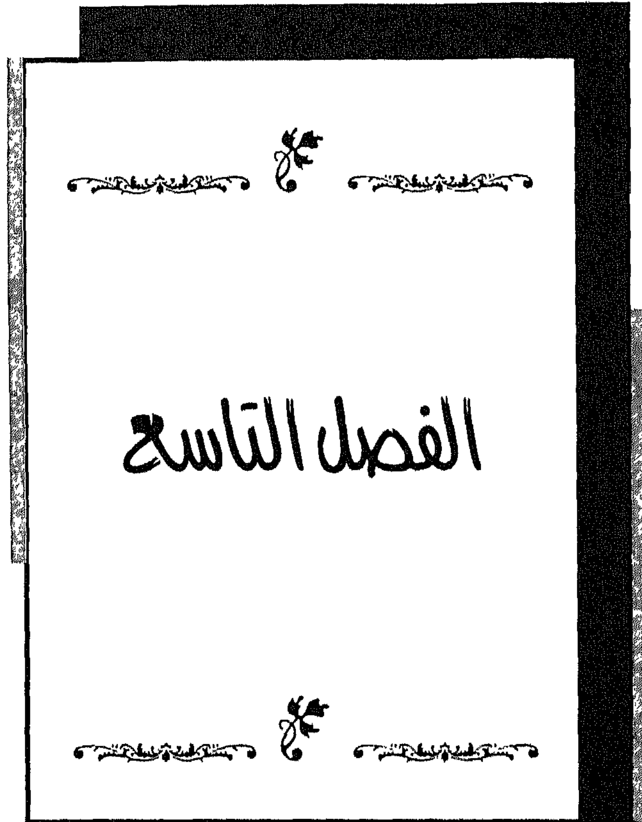
ولكن ؟

الغاء السلطان عبد الحميد الثاني للدستور العثماني بعد اعلانه عام ١٨٧٦م، حال دون توفير ذلك المناخ الحر ومعالجة السلبيات، فضلاً عن تصادم التيارات الفكرية الحديثة مع الحالات والبقايا القديمة كالتي تمثلها الانقسامات المتنوعة والاقطاعية واللاوعي، ثم الحكم المطلق، وخاصة داخل تلك المجالس، اضافة الى امراض ومعوقات كالتسلط والمحسوبية والمنسوبية والمصالح الخاصة، واستغلال المواقع الادارية والبلدية في النهب والاستغلال والمكافآت والامتيازات والرشوة.. الخ كلها عوامل اضعفت الجهاز الاداري– البلدي– المدني العثماني، وحالت دون بناء الاصلاحات ..

---

* انظر : عبد الكريم غرايبة، تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٨٤، ص ٢٥٨–٢٦٠، وانظر Bernard Lewis, "Baladiyya" in The Encyclopedia of Islam, 2nd ed, vol I, Leiden, E.J. Brill, 1960,p.972

وفضلا عن معارضات واسعة النطاق من قبل رجال الدين والفئات الاقطاعية، والرجعية والمؤسسة الوقفية المتعصبة ضد الاصلاحات، إذ يعدونها تقليداً للاوربيين، واقتباساً لنظمهم واعرافهم وافكارهم .. وهكذا فهي – عندهم – مخالفة للشرع والاسلام .. وقد تحول هذا الصدام الفكري الى صدام مسلّح، فانفجرت احداث دموية متعددة ولا سيما في بعض الولايات المهمة. كلها كانت من الاسباب التي ابقت المجتمع على تأخّره في حين نجحت تجارب تحديثية واصلاحية اخرى لدى شعوب متعددة اخرى في انحاء متعددة من العالم.



الفصل التاسع

٩ الفصل التاسع

التطبيقات الاصلاحية والتكوينات الحديثة في الولايات العربية خلال القرن التاسع عشر

(١) العراق:

١/ تجربة الوالي داود باشا ١٨١٧- ١٨٣١م

احتدم الصراع البريطاني الفرنسي من أجل العراق والسيطرة عليه بحكم موقعه على طريق الشرق، فاكتسب أهمية متزايدة، فأنشأت في نهاية القرن الثامن عشر . شركة الهند الشرقية التي كان العراق مسرحاً لعديد من فعالياتها القوّية على وجه السرعة؛ إذ ساد نفوذ بريطانيا كثيراً في الشرق الادنى، في حين انحسر النفوذ الفرنسي ما عدا مصر التي كانت تحت حكم محمد علي باشا، ففي حين كرّست فرنسا مؤثّراتها في مصر، عزّزت بريطانيا مركزها الاقليمي الى درجة كبيرة في العراق الذي كان يسيطر على استراتيجية الخليج العربي.

عانى العراق كثيراً من الغارات الوهابية في العقد الاوّل من القرن التاسع عشر، ولم تقتصر تلك الغارات على العراق فحسب، بل طالت بلاد الشام ايضا، ولم تتوقف تلك الغارات القاسية، الا بعد الانتصارات التي حققها الجيش المصري على الوهابيين سنة ١٨١١م، وهدّدت تلك القوات بالقضاء على الدولة السعودية التي قامت إثر المصاهرة السياسيّة مع الوهابيين.

ولقد فشل الولاة المماليك في العراق بفرض الهيمنة والسيادة والاستقرار في أنحائه التي عرفت الاضطرابات والقلاقل الدائمية، حتى غدت ماكنة الدولة العثمانية متدنية جداً عند سكان العراق الذين حكمهم المماليك حكماً ذاتياً أقره

العثمانيون، وادارة المماليك «الكُوله مند» وفي عام ١٨١٧م، تسلم الحكم داود باشا الذي اشتهر كثيراً بمكانته السياسية في العراق، ودوره في تطبيق اصلاحات مهمة جداً.. كان داود باشامملوكا جورجي الأصل اشتراه سليمان باشا الكبير والي بغداد، فبرز ممتلكاً لمواهب شتى فاختلف عن بقية المماليك، إذ تفوق في الادب والدبلوماسية واللغات الشرقية، فأصبح سكرتيراً للوالي، ثم تزوج ابنته، ثم كوّن له اتباعاً وجماعات.. اوصلته اخيراً الى الحكم بعدما منح رتبة الباشوية.

حكم داود باشا العراق من خلال هيمنته السياسية الفعالة على ولاية بغداد واثره البالغ في الولايات الاخرى.. حكم حكماً مطلقاً مستبداً على مدى (١٤) سنة، متخذاً من والي مصر محمد علي باشا انموذجاً في الاصلاح والحكم، ثم أقدم على اتخاذ اجراءات تخدم الاقتصاديات العراقية بالقضاء على نظام الامتيازات الذي كانت تستفيد منه شركة الهند الشرقية، ووكلاؤها من الفرس الذين جردوا من امتيازاتهم الواسعة، وتساووا مع التجار المحليين، فكان ردّ فعل الشركة قويا مباشراً، إذ مارست حرباً اقتصادية ضدّ العراق بقطعها المواصلات بين مدينتي بغداد والبصرة، من خلال اسطولها النهري الذي كان يجوب انهار العراق عصر ذاك، فصادر داود باشا بضائع الشركة، وحاصر مقرها في بغداد، وانتهى الخلاف بانهاء اعمال الشركة في العراق، وابعاد موظفيها من البلاد، ولكن الشركة استطاعت الرجوع الى وضعها السابق مع عملائها وموظفيها، مجبرة داود باشا دفع ما صادره من بضائع وممتلكات..

كان ابرز مشكلة يعانيها حكام العراق هو مشكلة «العشائر» والعلاقات القبلية، فقام داود باشا بنضال دؤوب ضدّ الاقطاعية والعشائرية، من اجل اكتساب الولاء له، واخمد الانتفاضات العشائرية، وأقصى من لم يواله من الشيوخ العرب، في حين اصطدم مع البكوات والاغاوات الاكراد الذين اراد ان يضع حداً لعلاقتهم مع الفرس ضد حكومة بغداد، ولكنه فشل في رأب الصدع، فبدأ بالانتقام من البعض الموجودين في العراق، ولسبب ذلك كله، ازدادت حدّة الصراع العثماني– الايراني بازدياد المشكلات الاقليمية، فاندلعت الحرب بين الطرفين ١٨٢١–١٨٢٣م.

ولكن خسر جيش داود باشا الحرب، لعوامل مختلفة، فوقعت معاهدة ارضروم في شهر آذار/ مارس ١٨٢٣م، كانت تلك الحرب بمثابة الضوء الاخضر لداود باشا الذي تحسس بقيمة التفوق والتنظيم في الاساليب الحربية– الاوروبية، فضلا عن تأثره باصلاحات سيده السلطان محمود الثاني، فشرع بتاسيس جيش

نظامي مستخدما الانكليز في تدريب قواته، وباشراف الكولونيل تايلر -Tylor- الذي كان ممثلاً جديداً لشركة الهند الشرقية المقيم في بغداد، فكون الوحدات المنظمة والمدرّبة، وتزود بالمدفعية الحديثة والاسلحة الكثيرة.

احتكر دواد باشا شراء المنتوجات العراقية وتصديرها، كما واستملك البواخر التجارية الصغيرة النهرية والبحرية. لقد استثمر داود باشا تجربة محمد علي باشا في مصر كثيرا، فقد وجد داود باشا نفسه ان الوقت مناسب لإعلان استقلال العراق، اذ كان السلطان محمود الثاني قد طالب ولاة الدولة من الباشوات ان يدفعوا للدولة الاموال لمجابهة ما فرض عليها من غرامات حربية. عندما ارسل السلطان مبعوثه الى داود باشا امر هذا الاخير بقتله بعد وليمة الغداء مباشرة، فكان هذا التصرف بمثابة ردّ وتمرّد علني لحكومة بغداد على الباب العالي. وكان داو د باشا قد استعدّ للحرب والدفاع عن مصالحه العراقية، ولا سيما وانه كان قد نجح في بناء جيش عراقي مدّرب ومسلّح تسليحاً يسمح للمواجهة الى حدّ ما، إذ كان يتشكل من و حدات نظامية وفيلق تعداد مقاتليه (٢٥) الف جندي من المشاة و الخيالة اضافة الى (٥٠) الفا من أبناء العشائر والقبائل المتنوعة غير المنظمة.

ار سل السلطان محمو د الثاني ضد حكومة بغداد قوات يقودها علي باشا رضا اللاز و الي حلب، و على الرغم من ايمان داو د باشا بالنصر لثقته العالية بقواته فان الاو ضاع جاءت معاكسة للتمنيات الوطنية.. إذ يحل الفيضان والقحط والوباء فجاءة لكي يضعف العراق و قوته السكانية، ويكون الجيش عرضة للهلاك إثر انتشار الطاعون بينهم.. هكذا وجدت قوات علي باشا رضا اللاز الطريق سالكة و مفتوحة للدخول الى بغداد، فاحتلت العراق دون مقاومة.

كان المجتمع العراقي قد انهكت قواه، و قد عزل داو د باشا في ١٠ ايلول / سبتمبر ١٨٣١ و أرسل الى اسطنبول على الرغم من محاولات عدة لقتله في بغداد و قد انتهى عهد الباشوات المماليك بنهاية عهده، و انتهت السياسة اللامركزية العثمانية.. و بدات الدولة تعيّن الباشوات على بغداد. ثم عزل داو د باشا والي العراق، و اعتقل و ار سل الى اسطنبول، و بعد فترة من الزمن، أعفي عنه وولى ولاية/ نيابة البوسنة سنة ١٨٣٣م، ورئاسة مجلس الشورى سنة ١٨٣٨م، ثم ولاية انقرة سنة ١٨٣٩م، ثم تولى مشيخة الحرمين الشريفين للفترة ١٨٤٥- ١٨٥١م. و توفي في مكة سنة ١٨٥١م ودفن فيها.

لقد اهتم داود باشا بالعلماء والادباء والفقهاء. ويعد أول راع للنهضة الادبية في العراق الحديث، كما ونشطت في عهده الحركة التعليمية– المسيحية، ولكنه بنى المساجد، وجدد الادارة، وفتح المدارس حتى بلغ عددها ثمانياً وعشرين مدرسة، كما برز كثير من العلماء العراقيين في عهده، امثال: عبد الله الآلوسي وعبد الرحمن الروزبنهاني وعثمان بن سند وغيرهم.. اهتم ايضاً بشق الترع وحفر الانهار وكريها، كما افتتح بعض المصانع، وعلى الرغم من انه يمتلك معرفة واسعة في العلوم. ويحمل اجازة علمية فان اعماله لم تكن مخططة ومدروسة كتلك الاعمال والمنجزات التي نفذها محمد علي باشا، علماً بأن هذا الاخير لم يكن مثقفا ثقافة داود باشا!

نستنتج اذا، ان حكم داود باشا قد اختلف عن حكم محمد علي باشا من نواح كثيرة وصادف داود باشا مشكلات معقدة لا تحصى كالقلاقل الداخلية والصراع الخارجي مع ايران، وازعاج بريطانيا له، ومطاليب الباب العالي، واوامر السلطان محمود الثاني.. كما نستنتج ايضا، بأن داود باشا يشكل ظاهرة تاريخية في حياة العراق الحديث، إذ عاصر عهده عهد محمد علي باش ولكنه لم يرق الى مستوى سياسة الاخير. وقد وجدنا أن امتداد مصر على يد ابراهيم باشا نحو الخليج العربي كان سبباً مباشراً وراء اندفاع عراق داود باشا لحماية توازنه الاقليمي المؤثر. وقد قدّر داود باشا أهمية اقليم الاحساء، واهمية ارتباطه بالعراق لأنه يمثل عمقه الاستراتيجي البحري.

هكذا، انتهى عهد داود باشا، وانتهى حكم المماليك للعراق، فضلا عن نهاية حكم الاسر المحلية في شمال العراق.. وان تاريخا اصلاحيا جديدا بدأ يعمل في تجربة من نوع آخر، ازدادت فيها تدخلات الحكومة في شؤون المجتمع الذي نظر الى الاصلاحات نظرة غير مطمئنة، إذ لم يثقوا بالنوايا الجديدة.

لقد حكم العراق من نهاية عهد داود باشا الى عهد مدحت باشا سنة ١٨٧٦م. احد عشر واليا، كان اولهم علي باشا رضا اللاز الذي حكم احدى عشرة سنة للفترة ١٨٣٠– ١٨٤٢م، وجاء من بعده الوالي محمد نجيب باشا الذي حكم حتى عام ١٨٤٩م، وكلاهما اضطهد الشعب العراقي مادياً ومعنوياً. لكن أثرت التنظيمات الخيرية في العراق بدون شك، وقد بدت الاصلاحات غريبة على المجتمع من خلال تطبيق القوانين الجديدة في ما يتصل بالخدمة العسكرية والضرائب،

ونظام «المختارين» (أي: جمع مختار. وهو موظف شبه اداري يكون مسؤولا عن محلة معينة). وبعد سنوات ثلاث، بدأ العمل بالحجر الصحي، وجوازات السفر، وتأسست المدارس الرشدية.. وقد اثارت قراءة مرسوم «خطي شريف كولخانة» في بغداد سنة ١٨٣٩م، المخاوف من سلطة الدولة على المجتمع الذي ازداد نفرة وابتعاداً عن التسلط الذي فرضته المركزية- العثمانية.

يخبرنا عدد من المؤرخين * نقلاً عن القنصل الانكليزي في بغداد تايلر Tylor الذي كان قد ذكر في كانون الاول سنة ١٨٣٣م، أن أهالي بغداد اخذوا يتطلعون الى محمد علي باشا في مصر، والتخلص من الضيم الذي الحقه بهم علي رضا باشا.. وذكر أن بغداد «كانت ترزح تحت اسوأ حكم عرفته في تاريخها» وقد أحسّ علي رضا باشا اللاز بالامر، فتحالف مع السعوديين ضد المصريين واختلف علماء بغداد في طبيعة ولاءاتهم، الا انهم تعاطفوا مع سياسة علي رضا باشا. اما تعاطف كل من اهالي الموصل وشمر الجربا، فكان مع محمد علي باشا، من خلال اتصالاتهم بابراهيم باشا حاكم بلاد الشام.

لقد تقرب علي رضا باشا اللاز من علماء بغداد الذين ناصروه، وقد جعلهم يحملون حملة دينية قاسيّة على محمد علي باشا، لانه رفع السيف بوجه الدولة العلية، فوصفوها بالفتنة التي قام بها البغاة «وان قتال البغاة افضل من جهاد الكفار» وان محمد علي باشا قد اثار المخاوف عند الجميع، فقد عرفنا أنّ الخوالد في اقليم الاحساء قد استنجدوا بداود باشا للسيطرة على الاحساء الذي داهمته القوات المصرية بُعيد سقوط الدرعية، فانسحب الجيش العراقي، لكن داود باشا استحصل على فرمان من السلطان يقضي بتبعية اقليم الاحساء للعراق، فاستطاع اخلاءه من المصريين، واعادته الى الخوالد الذين رضخوا للحكم العراقي.

ان المراسلات والتحالفات بين علي رضا باشا اللاز والامراء السعوديين: تركي وفيصل وخالد كانت السبب الذي دفع بمحمد علي باشا الى ارسال خورشيد للقضاء على المحاولات الرامية لتأسيس الدولة السعودية الثانية. وقد اسر فيصل بن تركي، وتسلم خورشيد المراسلات السعودية- العراقية في شهر

---

* احصن منهم بالذكر المؤرخ د. عبد العزيز نوار في كتاباته عن تاريخ العراق الحديث.

نيسان / ابريل ١٨٢٨م، وتحمس ذلك القائد المصري لغزو العراق من خلال السيطرة على اقليمي الاحساء والبصرة، لا سيما وان الرأي العام العراقي كان يتطلع الى حكم «افندينا محمد علي باشا»، وطلب خورشيد من سيده محمد علي باشا ان يأذن له باحتلال العراق، لانه كما قال: «مُلْكٌ عظيم يضاهي مُلك مصر، وهو الان كالحسام الجوهر الذي سقط في حفيرة، فالتقاطه الان واجب، والشيء الذي صار وقته لا ينبغي تركه». وكان الامر يقضي بوصول المصريين بغداد، ولكن التدخلات البريطانية حالت دون تحقيق ذلك المشروع الخطير. وبعد اشهر عاد خورشيد من حيث اتى* ...

٢/ الموصل: اجراءات محمد باشا اينجة البيرقدار**

يأتي محمد باشا اينجة البيرقدار في مقدمة ولاة الموصل الذين طبقوا اجراءات صارمة في الحكم، ومنجزات كبرى في الاصلاحية، فقد تولى حكم ولاية الموصل للفترة ١٨٣٣-١٨٤٣م بعد اقصاء الحكم المحلي اثر الاضطرابات الداخلية،

---

* من المفيد جداً قراءة ما كتبه المؤرخ عبد الكريم غرايبة عن هذا الموضوع في كتابه؛ تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٢٤-- ١٢٥. وللمزيد من التحليلات انظر:-- فلاديمير لوتسكي، تاريخ الاقطار العربية الحديث، موسكو، ١٩٧١، ص ٩٠. اما التفاصيل التاريخية فقد اوضحها د. عبد العزيز نوار،، داود باشا والي بغداد، القاهرة، ١٩٨٦. ايضاً: د. يوسف عز الدين، داود باشا ونهاية المماليك في العراق، ط٢، بغداد، ١٩٧٦.

ان ابرز مصدر تاريخي في اخبار داود باشا وعهده، هو الذي كتبه· عثمان بن سند الوائلي البصري «مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود» الذي حققه مؤخراً د. عماد عبد السلام رؤوف، الموصل، ١٩٩١. وكان مختصره؛ «خمسة وخمسون عاماً من تاريخ العراق ١١٨٨هـ-١٢٤٢هـ قد اعده الشيخ امين بن حسن الحلواني، وحققه. محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٧١هـ.

اما اهم المصادر الأوروبية لعهد داود باشا، فهو الذي كتبه كلوديوس ريج.

C' Rich, Narrative of a Journey to the Site of Babylonia in 1811, London, 1839.

(يحتوي على معلومات واسعة)

وانظر ما كتبه كل من سليمان فائق (مرآة الزوراء)، والمحامي عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين).

** انظر: ذنون يونس الطائي، الاتجاهات الاصلاحية في الموصل في اواخر العهد العثماني وحتى تأسيس الحكم الوطني، (رسالة ماجستير غير منشورة باشراف د. سيّار الجميل)، كلية الاداب. جامعة الموصل، ١٩٩٠، ص ٥٤- ٥٦.

والصراع الاهلي بين الاسر الموصلية المتنفذة والطامعة في الحكم. كان آخر والٍ حكم الموصل هو محمد سعيد باشا آل ياسين المفتي الذي عزل سنة ١٨٣٥ حيث تبدأ صفحة جديدة من تاريخ الموصل العثمانية وقد عادت السيادة المركزية العثمانية الى حكم الولايات، وذلك قبل صدور «خطي شريف كولخانة» سنة ١٨٣٩م. وكان حكم الوالي محمد سعيد باشا آل ياسين ضعيفاً في السيطرة على الاوضاع الداخلية، كما وفشل في وضع حلول للتهديدات الخارجية.. مما جعل امر تنصيب محمد باشا اينجه البيرقدار واليا على الموصل امراً محتماً.

يعد البيرقدار من الولاة الاتراك الاقوياء الذين فرضوا مقدرتهم ادارياً طوال حكمه للموصل. وكان لوالي بغداد علي رضا باشا اللاز دور كبير في تعيين البيرقدار عام ١٨٣٣ فقدم البيرقدار على رأس قوة مؤلفة من ثلاث كتائب من الجند النظامية وقرابة ثلاثمائة من الخيالة، ودخل الموصل.. للعمل على استتباب الامن والسيطرة على الاوضاع الداخلية، ومعالجة المشكلات المحلية وتوطيد الحكم العثماني.. فضلاً عن بسط النفوذ العثماني على المناطق الشمالية للعراق، واخضاع الامارات الكردية في شمال العراق. كالبابانية في السليمانية (= شهرزور) والبهدينانية في العمادية وامارة محمد باشا (ميركور) في راوندوز.

يعد محمد باشا اينجة البيرقدار احد الزعماء العثمانيين الاقوياء خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر. وقد استمر حكمه للموصل على مدى سنوات طويلة استطاع ان يقدم خلالها المزيد من الانجازات الواضحة باتخاذه اجراءات اصلاحية. واتباعه ادارة شرسة تنفيذاً للسياسة المركزية التي كانت ترسخها اسطنبول، ولا سيما بعد صدور التنظيمات العثمانية التي حددتها جملة من القوانين والتعليمات.

اهتم البيرقدار بانشاء حكومة محلية قوية في الموصل استطاع الاعتماد عليها في تنفيذ اصلاحاته. وكان «الموظفون» الاكفاء قوام حكومته. اما بشأن مالية الحكومة، فقد اعتمد على الضرائب المفروضة التي تجمع بوساطة. المكوس والاعشار والمسقفات ومن تعداد الاغنام.. وعشر الحاصلات الزراعية. وكان البيرقدار يدفع رواتب الجند والموظفين وخطباء الجوامع من هذه الاموال.

وبغية القيام باعمال تجديد وبناء بنايات الحكومة، جمع البيرقدار، وجهاء المدينة والتجار والملاكين، وطلب منهم ان يساهموا بالمصاريف المطلوبة، فنجح في تعمير دور الحكومة التي كانت تسمى بـ«القشلات». وكان ان زار الموصل القائد الالماني الشهير (فون مولتكه) فطلب من البيرقدار ان يضع له مخططا لهذه المنشآت الحكومية، ففعل ذلك مولتكه فجازاه بأن قدم له البيرقدار ساعة ثمينة.

اهتم البيرقدار ايضاً بشؤون جيشه وتنظيم اموره الاقتصادية والصحية. فأسس عدة آفران خاصة، كما وأنشأ معملاً لصنع المدافع والقنابل والبارود اسماه بـ«الطوبخانة» مستخدما بعض الخبراء من راوندوز، فاكملوا صنع ثمانين مدفعا باشراف «الاسطة رجب» كما قام بتشييد مستشفى في الموصل، وفتح شوارع عدة فيها. فضلا عن تجديده بعض المساجد. واهتم ايضاً بالنواحي الاجتماعية اذ وضع العقوبات على من يتعاطى الخمر وارتكاب الرذائل والمحرمات.. كما نجح في تنظيم الامن بالغائه لبعض الاجهزة القمعية القديمة واستحدث جهاز الدرك والشرطة كقوات نظامية مخصصاً لهم كلفة خاصة بهم. وأنشأ الثكنات العسكرية الخاصة بالجيش كل حسب صنفه كالمشاة والخيالة والمدفعية. ناهيك عن فرضه «التجنيد الالزامي» فسبب بذلك اثارة الاهالي عليه، فقد عارضوا ذلك بشدة فهددهم ونفى بعض زعمائهم، فاذعن الاهلون لذلك القانون. ومن الجدير بالذكر ان الموصل دون بقية المدن والاقاليم العراقية قد انفردت بذلك، اي كانت السّباقة في تطبيق القانون الذي لم يطبق في بقية انحاء العراق حتى عام ١٨٧٠م *.

ولم تقتصر اعمال الشغب في ذلك على مدينة الموصل لوحدها، بل ثارت تلعفر وسنجار ومناطق اليزيدية، مما حمل البيرقدار ان يتعامل مع الانتفاضة بشدة حتى قمعها وبخاصة ضد اليزيدية وعشائر شمر العربية. وكان في اجراءاته قاسياً فظاً ضد الثوار، وله شراسته في الادارة السياسية وضد الفئات الاجتماعية ولا سيما اهالي مدينة الموصل الذين اعتادوا حكم اللامركزية العثمانية على مدى اكثر من قرن كامل. علماً بأن جميع اجراءات البيرقدار كانت مقتصرة على الجوانب العسكرية المقرونة بالشدة الادارية سواء في المدينة ام في اقاليمها وتوابعها اذا ما قورنت اعماله باعمال وانجازات ولاة اخرين اهتموا بالنواحي العلمية والاجتماعية

* التفاصيل التاريخية من القس سليمان صايغ، تاريخ الموصل، جـ١ القاهرة ١٩٢٧، ص ٣١٧

والاصلاحات المدنية. إذ لم يهتم البيرقدار بالمدارس ولم يقدم على انشاء دور للعلم بسبب النزعة العسكرية التي اتصف بها. خاصة وان شمال العراق كان يعّج بالمشكلات والصعوبات والاضطرابات.

و توفي البيرقدار سنة ١٨٤٣م بعد ان حكم الموصل قرابة عشر سنوات، كان لها اهميتها بالنسبة لتاريخ العراق الحديث. ثم تعاقب كثير من الولاة الاتراك على حكم الموصل لم يبرز منهم احد في الاصلاحات وكانت سنوات عهودهم قليلة، اذ تعاقب على حكمها حتى الاحتلال البريطاني لها قرابة تسعة وخمسين والياً، صادفت المدينة والولاية معاً ادارة سيئة واقتصاداً ضعيفاً ومجتمعاً مفككاً ومحروما من الامن والاستقرار والثقافة والاصلاحات الكبرى.

(٣) العراق في عهد الادارة المركزية ١٨٣١- ١٩١٧م

١-٠ مرحلة التنظيمات ١٨٣١- ١٨٧١م

بعد القضاء على سلطة المماليك في العراق عام ١٨٣١م، اثر عزل داود باشا والي بغداد، والقضاء على الحكم المحلي- الجليلي في الموصل عام ١٨٣٤م، إثر عزل يحيى باشا الجليلي.. خضع العراق بولاياته الثلاث: الموصل وبغداد والبصرة الى السلطة المركزية- العثمانية. ولم يكن قد تأثر باصلاحات كل من محمد علي باشا في مصر، او السلطان سليم الثالث أو السلطان محمود الثاني في اسطنبول.. بل أصبح العراق منذ زمن طويل مجال نفوذ واسع النطاق لشركة الهند الشرقية *.

لقد كان كل شيء في العراق متدهوراً نتيجة ضعف الحكومات في القرن التاسع عشر ، والمشكلات المتنوعة التي عاشها ، وكانت قواه الانتاجية قد اصيبت بضربة قاصمة نتيجة الاوبئة والكوارث التي اجتاحت مجتمعه على مدى زمني طويل، وغلبت فيه الصراعات القبلية والنزاعات المحلية، وكسدت التجارة كساداً خطيرا، وقد سادت الفوضى الاقطاعية، والاعراف العشائرية، ودمرت الزراعة، وقنوات الري، فتدهورت اقتصاديات العراق بشكل لم يسبق له مثيل من قبل في تاريخ العراق، بل وقد اندثرت مدن وقرى كثيرة.

---

* تفاصيل تاريخية في: د. عبد الوهاب القيسي. «حركة الاصلاح في العهد العثماني وتأثيرها في العراق ١٨٣٩ ١٨٧٧»، مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد، (العدد ٣)، كانون الثاني ١٩٦١.

ولما كان داود باشا يخطط لاستقلال العراق عن الدولة العثمانية، ولكن الولاة الذين تقلدوا حكم بغداد بعده اذعنوا لحكومة اسطنبول، وارتبطوا ارتباطاً وثيقا بالمركزية العثمانية التي عادت من جديد، فلم تستطع القضاء على مقاومة العشائر العراقية التي بدأت تتمرّد على نحو متواصل ضد بغداد، بل واشتعلت بينها صراعات او تحالفات اقطاعية نتيجة لتضارب المصالح الزراعية والرعوية، و لا سيما قبائل المنتفك وشمّر واعنزة.. ناهيك عن العشائر الكردية في شمالي العراق التي تألب بعضها ضمن اطار من الامارات القبلية الاثنية- المحلية، والتي غدت معرضة للتنكيل من العثمانيين الذين كانوا في صراع تاريخي مع الايرانيين حول الحدود المشتركة.. وبقيت حالة الصراع تلك، حتى حسمت بمعاهدة ارضروم الثانية في ٣١ ايار/ مايس ١٨٤٧م بين الطرفين والتي تنازل العثمانيون فيها لايران عن المحمرة والساحل الشرقي من شط العرب لقاء مدينة السليمانية العراقية..

هكذا عاشت كردستان في حالة انتفاضة مستمرة كما عاش جنوب العراق. ولم تفلح الجهود العثمانية سواء من خلال ادارة بغداد ام ادارة الموصل ان تحسم المشكلات الداخلية التي أضرّت كثيراً بالمصالح المستقبلية للشعب العراقي الذي لم يعرف الاستقرار طوال التاريخ الحديث.

لقد أضرّت اعادة المركزية الادارية كثيراً بشؤون العراق الداخلية، إذ اعادت اليه مرة اخرى الولاة من الباشوات الاتراك الطغاة الذين كانوا بعيدين جداً عن روح العراق ومصالحه التاريخية، وهم الذين تمتّعوا بنفوذ عسكري وسلطات مطلقة، ولكن عندما اسّس الفيلق السادس للجيش العثماني، اتخذت بغداد مقرّاً قيادياً لها عام ١٨٤٨م، فصلت كل من السلطتين العسكرية عن المدنيّة لاول مرة. فغدا لكل من الوالي وقائد الجيش السادس كيان مستقل عن الآخر. وقد جرى تنظيم جهاز الادارة العراقية، فالغيت بعض الانظمة القديمة كالالتزامات.. وبدأ التخصص يسري مفعوله عند الموظفين في الشؤون المالية والوقفية والضرائبية والكتابية.. الخ اي بمعنى: ولادة بيروقراطية عراقية جديدة لم تكن تعرف في السابق. وقد تشكلت الآن على اسس اوربية حديثة. لكن؟

من الصعب جداً وصف تلك الاجراءات بالحداثة او التحديث، ذلك لأن الممارسات الادارية المدنية والعسكرية كانت مشبعة بروح التخلف والفساد

والاستبداد، إذ عانى العراقيون كثيراً من التعامل الفظ، والقسوة والاساءة من قبل الموظفين الاداريين او الضباط العسكريين الذين كانوا يفرضون الاتاوات والرشوة، ويبتزون كثراً، ويسيئون معاملة الاقليات الدينية، ولا فرق عندهم بين العالم والجاهل.

اما اقتصاديات العراق فقد تدهورت جداً الى الحد الذي لم يستطع السكان في المدينة او الريف من مجابهة المصاعب الطبيعية، وهكذا ، بقوا عرضة للكوارث والمجاعات الرهيبة حتى مطلع القرن العشرين. وقد انتعشت بعض المنتوجات الزراعية، مما زاد في تصديرها كالحبوب والتمور من اجل المقايضة بالبضائع الاجنبية التي اثارت تطلعات السكان الذين اقبلوا في الريف على توسيع المساحات المزروعة، في حين اقبل بعض المتنفذّين من تجار المدن للتعامل الدولي مع السوق العالمية، وخاصة مع ايران، وقد استفاد العراق من ترانسيت التجارة الخارجية لايران. كما واصيبت الكمارك والمكوس بتغيرات كبيرة اسهمت في انتعاش التجارة على نحو بالغ وقد ادّى ذلك كله الى زيادة حركة الاتصال بين الريف والمدينة من طرف، وبين العراق وجيرانه من طرف آخر، فتطورت طرق المواصلات فيه سواء كانت النهرية او البرية، إذ اسهم جسني Chesney على تنظيم الملاحة في نهر الفرات، ولكنه لم يكتب لمشروعه النجاح لاسباب شتّى.. كما وبدأت الحكومة التركية تسّير بواخر منتظمة من نهر دجلة بين بغداد والبصرة في عام ١٨٦٢م. وقد تأسست في العام نفسه شركة لنج البريطانية للملاحة في نهر دجلة.. وكانت الملاحة البحرية مزدهرة بين البصرة وموانئ الخليج العربي والمحيط الهندي.. كما واتّصلت بغداد لأول مرة مع اسطنبول بخط تلغراف، ثم اتصلت مع طهران والبصرة والهند والموصل في عام ١٨٦٤م، وشكل ذلك الحدث التاريخي اهمية بارزة في تاريخ العراق الحديث *.

مدحت باشا واصلاحاته في العراق ١٨٦٩- ١٨٧١م

اشتهر اسم مدحت باشا كثيراً في تاريخ تركيا الحديث ذلك انه كان بطلا للحركة الدستورية التي شهدتها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر. وهو واضع قانوني لـ «الدستور العثماني» لعام ١٨٧٦م. وكانت له مكانته في الحياة

* من المفيد جداً قراءة ما كتبه د. زكي صالح. مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني، القاهرة، ١٩٦٦.

الاصلاحية والتنظيمات الخيرية. وعاش للفترة ١٨٢٢- ١٨٨٣م وتثقّف بثقافة اوروبية. وكانت له قدراته الادارية في ادارته لعدّة اقاليم غير بغداد، منها الدانوب ودمشق.. قد نصب واليا في بغداد بعد ان منح صلاحيات استثنائية، فكان واليا وقائدا للفيلق السادس في الوقت ذاته، وامتلك السلطتين المدنية والعسكرية، لهذا اطلق عليه «والي العراق»، فضلا عن تزويده بصلاحيات واسعة في كل من الولايتين: الموصل والبصرة. وقد جاء في فرمان تنصيبه بأنه الرجل المناسب لاجراء التقدم المنشود الذي يحقق اهداف السلطان في ولاية من اهم ولايات الامبراطورية، وان موقعها وتربتها يجعلانها تستحق كل انواع التقدم، وأن اعز رغبة للبلاط العثماني ان يرى ولاية بغداد تحظى بكل التطور والازدهار *.

وصل مدحت باشا بغداد في ٣٠ نيسان/ ابريل ١٨٦٩م، ودام حكمه قرابة ثلاث سنوات، بذل خلالها جهودا كبرى في تحديث العراق، واصلاح اوضاعه، كما عمل على تغيير حياته الاقتصادية والاجتماعية.. وقد دلّت اصلاحاته على انه كان قد تفّهم اوضاع العراق ودرسه عن كثب.

ويمكننا اجمال أبرز منجزاته في العراق، التي كانت ولم تزل الحجر الاساس الذي بنيت عليه منجزات انظمة وتغييرات اخرى:

١- اصدر نظام الطابو الذي (لم يزل حتى يومنا هذا) إذ يعد ذلك ابرز اعمال مدحت باشا الاقتصادية، وأراد من خلال تطبيقاته له: ايجاد حلول لمشكلة العشائر وتوطينها، واسكات انتفاضاتها المتواصلة، وتحويل ابناء العشائر الى مواطنين صالحين مستقرين، وذلك بتوزيع ملكيات الاراضي وتثبيتها، وتحسين سبل العيش، وتوفير المياه. وقد قصد مدحت باشا بذلك تحويل الولاء من العشيرة الى الارض. وعلى الرغم من اصالة هذا القانون واهميته فأنه ادّى الى تحويل شيوخ العشائر الى ملاكين كبار للاراضي الزراعية.. وعندما كان افراد العشيرة يتساوون داخل وحدتها الاجتماعية اصبحوا يتميزون بقدر ما يملكون بل وغدوا عمالا وعبيدا في ارضهم.. فنجحت الحكومة فعلا في توطينهم، بل وفي فرض الضرائب، وفي فرض الخدمة العسكرية.

* انظر صديق الدملوجي، مدحت باشا، بغداد، ١٩٥٢/ ١٩٥٣.

٢- اصلاح النظام العسكري بتحسين التشكيلات العسكرية لسنة ١٨٤٨م، علماً بأن بغداد كانت قد غدت مركزاً للجيش الهمايوني السادس. لقد استهدف مدحت باشا ادخال العراقيين بدلا من العناصر الاجنبية، لضمان ولاء السكان للجيش الذي ينتشر على اراضيهم، فضلاً عن تعويض اولئك الذين يتركون العراق نحو اوطانهم

وعلى هذا الاساس، فقط طبق مدحت باشا نظام التجنيد الاجباري الذي نجح به في بعض المدن، ولكنه فشل بتطبيقه في منطقة الفرات الاوسط، وذلك لرفض العشائر له، مما قاد الى اندلاع ثورة «الدغارة» التي استمرت قرابة شهرين معلنة عن رفضها لمشروع التجنيد الاجباري، ونظام الضرائب ونتيجة الصدامات الدموية، ذهب آلاف الضحايا من الطرفين، ولكنها انتهت بتفوق الجيش العثماني، واعدام بعض شيوخ العشائر، كما قام مدحت باشا بقهر التمرّد الذي قامت به عشيرة شمر الجربا المنتشرة في بوادي العراق وبلادالشام وقرب الموصل، والتي كانت تعيش على «الخوة» (الخوة: هي الضريبة التي يفرضها شيوخ العشيرة على القوافل). وقد انتهى التمرّد باعدام الشيخ عبد الكريم شيخ مشايخ شمر في الموصل. وجاء بعده اخوه الشيخ فرحان الذي تحالف مع الحكومة، وبدأ يتقاضى راتبا منها. اما عشيرة المنتفك فقد استطاع مدحت باشا ان يحلّ مشكلاتها دون عمليات حرب و ضرب، اذ ارتبط شيوخها بالتزام ضرائب الميري، وكانوا من آل السعدون الذين غدوا أداة بيد الحكومة لتنفيذ سياستها في المنتفك.

وهكذا، فقد تضاعف عدد افراد الجيش، وصار يؤلف من (١٦) كتيبة مشاة وكتيبتين من الخيالة، وكتيبة من المدفعية. واسس مدحت باشا مدرستين عسكريتين في بغداد، لكي يجهز جيشه بالضباط العراقيين.. وكانت من ابرز المدارس والمعاهد العسكرية في المنطقة. ويعود الفضل في كلتيهما في تخريج العشرات من الضباط العراقيين الأكفاء الذين سيكون لهم شأنٌ تاريخي بارز و سمعة عسكرية لامعة ليس في تاريخ نهايات حياة الامبراطورية العثمانية فحسب، بل في مجريات الحياة السياسية العربية وتكوين العراق المعاصرفي مطلع القرن العشرين.

٣- ومن منجزات مدحت باشا ايضاً: تشكيله شركة الادارة العثمانية «النهرية»، وأصلح البواخر القديمة، واشترى بواخر جديدة وكبيرة. تمخر عباب البحارمن البصرة نحو اسطنبول عبر قناة السويس التي كانت قد افتتحت سنة

١٨٦٩م، وبنى محطات لتزويدها بالوقود. وكانت تلك «الادارة» تملك ثماني بواخر، اربع منها تبحر عبر البحار خارج العراق، والاربع الاخرى تستعمل عبر الانهار داخل العراق. ومن مشاريعه الاخرى في المواصلات: انشاء «ترومواي» بين بغداد والكاظمية من خلال تاسيس شركة ثنائية اهلية وحكومية مساهمة وبنى المشروع على مدى سنة كاملة. ووصلت العربات من انكلترا، وافتتح المشروع عام ١٨٧١م، بكلفة (٢٤) الف ليرة تركية *.

٤- انشأ مدحت باشا ايضاً المدارس الحديثة، إذ ادخل التعليم الرسمي/ المدني الحديث للعراق، فأسس المدرسة الرشدية الملكية (المدنية)، تكون الدراسة فيها بعد المرحلة الابتدائية لمدة اربع سنوات، ثم انشأ مدرسة الصناعة بعد المرحلة الابتدائية والدراسة فيها اربع سنوات ايضا، وتخصصاتها متنوعة: كالخياطة والتجارة والحدادة والطباعة..

وفي التعليم المدني الذي لم يعرفه العراق قبل ذلك التاريخ (ما عدا المدارس التي اسستها الارساليات الدينية التبشيرية الأوروبية)، بدأ المدرسون يعلّمون اللغة التركية واللغة الفرنسية والجغرافيا والتاريخ والجبر والفيزياء والدين والرسم... فازدادت نسبة المتعلمين قليلاً عما كانت عليه سابقاً.

اما في ميدان الطباعة والصحافة فقد أسس مدحت باشا مطبعة حكومية باسم «مطبعة الولاية» وأصدر جريدة رسمية تحت اسم «زوراء» في ١٥ حزيران/ يونيو ١٨٦٩م، وهي اول جريدة عراقية تبعتها في الصدور جرائد اخرى في كل من الموصل والبصرة، وكانت «زوراء» تصدر في الاسبوع مرتين بالعربية والتركية. واستمرت تصدر حتى احتلال الانكليز بغداد عام ١٩١٧م، وكانت تحتوي على الاخبار ونصوص القوانين والمقالات والرسائل.

٥- قام مدحت باشا ببناء مدينتي الناصرية والرمادي في العراق، وبنى المستشفيات والدور الجديدة للحكومة، ومزارع نموذجية. وبدأ بتنظيم الري، وسعى لتأسيس المحاكم المدنية والبلديات، وبدأ بحماية الامن الداخلي، وأهتم باصلاح الضرائب الزراعية، كما أسس بعض المصانع الزراعية ومصفاة للنفط في بعقوبة، ومعملاً لاصلاح السفن في البصرة. واقام متنزهاً عاماً في بغداد يرتاده

---

* انظر خلاصات ما كتبه: نمير طه ياسين، بدايات التحديث في العراق ١٨٦٩- ١٩١٤، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة المستنصرية بغداد، ١٩٨٤.

الناس اوقات فراغهم.. وحاول حل المشكلات المستعصية بين العراق وايران على الحدود مستغلا زيارة الشاه ناصر الدين القاجاري لبغداد على مدى ثلاثة اشهر، الا انه لم يحصل على نتائج ايجابية.

و هناك اعمال اخرى كثيرة انجزت على يد مدحت باشا وخلال عهده القصير جدا. وهكذا، نرى ان الرجل قد بذل جهوداً كبيرة في عمليات تحديث العراق وفي ميادين عديدة، وخاصة الاقتصادية والاجتماعية والادارية والعسكرية والتثقيفية. ويعد مدحت باشا رائدا للاصلاحية العثمانية في العراق الحديث، ولكنه فشل في كثير من مشاريعه وذلك لعوامل عدة، منها مشاريع الري واصلاح الانهار، كما و يسجل عهده تفاقم عدد الملاكين الكبار واستحواذهم على مقاطعات زراعية كبرى، مستفيدين من تطبيقات قانون الاراضي وقانون الطابو العثمانيين.

و قد استقال مدحت باشا من منصبه إحتجاجاً على تصرفات بعض السياسيين، فقبلت استقالته، وانتهت ولايته الرصينة لبغداد بعد ان دامت حوالي ثلاث سنوات فقط! و قد توالى عدد من الولاة الاتراك على حكم ولاية بغداد التي سينتهي الحكم العثماني لها على يد الانكليز الذين سيحتلونها عام ١٩١٧م.. ويبدأ سجل تاريخ العراق المعاصر *.

(٢) الاصلاحات العثمانية في بلاد الشام : سوريا ولبنان

١- ولاة دمشق :

لقد وجدت بلاد الشام نفسها خلال عصر محمد علي باشا متألفة من اربع ولايات هي حلب ودمشق وطرابلس الشام وصيدا.. ولم تتغير الاوضاع في ولاية حلب كثيراً، اذ حكمها ستة عشر والياً خلال (٢٥) سنة، وكانوا لا يختلفون بعضهم عن بعض، اذ يرتبطون بالسلطان ويدينون له بالولاء، ولكنهم لا ينفذون فرامينه، بل يرسلون اليه ما يريد من ضرائب الميري. ولعلّ ابرز الولاة كان كل من جلال الدين بن جوبان ١٨١٣-١٨١٩م، وخورشيد باشا ١٨١٩-١٨٢١م، ومن ابرز منجزات ابن جوبان. قضاؤه المبرم على الانكشارية الذين قتل على يديه ثمانية عشر زعيماً. اما خورشيد باشا، وكان والياً سابقاً لمصر، فقد واجه الفتنة الطائفية سنة ١٨١٢ ١٨١٨م، ثم الثورة الحلبية سنة ١٨١٩-١٨٢٠م.

---

* للمقارنة والتفصيل، نراجع كتابات لونكريك وعباس العزاوي والبرتين جويدة ومحمد سلمان حسن وعبد العزيز نوار وعلي الوردي وغيرهم (اضافة الى جريدة الزوراء العراقية).

وكانت دمشق قد اكتملت فرحتها سنة ١٨٠٤م بوفاة احمد باشا الجزار الذي اذاقها المرارة والتعاسة، فتعاقب على حكم دمشق عدد من الولاة العثمانيين .. وقد عانت اقتصاديا وأمنيا، وعجز الولاة الضعاف عن قمع الفساد، وازدادت الهيمنة السعودية على الاطراف الجنوبية وتهديدها لقوافل الحج الشامي. وقد صدرت تعليمات من قبل يوسف باشا الدلّي ١٨٠٧–١٨١٠، وفيها منع للخمر، وصنع للمعجنات وغلق للمقاهي، وتحريم الذهب على النساء .. ثم غزا النصيرية، وقد دخل في نزاع مع والي عكا سليمان باشا، لكن هذا الاخير لاحقه فقّر كنج يوسف باشا الى مصر، ثم جاء سليمان باشا والياً على دمشق بعد معركة المزة في ١٩/٧/١٨١٠م، ودخل سليمان باشا دمشق ومعه انصاره من الدروز الذين اثاروا مشاعر بعض السكان.

قام الوالي الجديد باحتكار تجارة الحبوب، واهمل دمشق في حين اهتّم كثيراً بعاصمته عكا، فاعفى من منصبه في دمشق، وبقيت له ولاية صيدا (= عكا)، ثم تولى دمشق خمسة عشر والياً على مدى خمس عشرة سنة، اي حتى قدوم ابراهيم باشا.. وكانت الفترة تعجّ بالتناقضات والاضطرابات والخلافات المحلية والتعصب والفتن اللبنانية والنزاع مع والي عكا، ثم غزو مصر. وكان اليهود قد سيطروا على الصيرفة واحتكار رؤوس الاموال. وقد شغل الجميع باحداث الغزو المصري وحملة ابراهيم باشا .. وكانت معركة داريا التي لم تدم طويلاً، اذ استسلمت دمشق لقواته يوم ١٦ حزيران / يونيو ١٨٣٢م، ونصب احمد بيك اليوسف الدمشقي حاكماً مصرياً عاماً على بلاد الشام يساعده مجلس في الحكم، واطلق العنان لاقامة القناصل في دمشق *. وبعد اشهر تعدلت ادارة مصر لسوريا، فنصّب محمد شريف باشا والياً مصرياً وحاكماً عاما على بلاد الشام في تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٨٣٢م فعرفت دمشق نظاماً ادارياً جديداً في حياتها التاريخية، هو اكثر دقة وصرامة في فرض هيبة الدولة، وتدخلها في الشؤون المالية والعسكرية **.

* انظر محمد ابو السعود الحسيبي، «لمحات من تاريخ دمشق في عهد التنظيمات» نشر وتحقيق د. كمال سليمان الصليبي، مجلة الابحاث (الجامعة الامريكية في بيروت)، السنة ٢١، اذار ١٩٦٨

** من الاهمية مراجعة ما كتبه كل من فرديناند توتل اليسوعي والمستشرق سوفاجييه ود. اسد رستم والاب لويس شيخو في أعداد عديدة من مجلة «المشرق» اللبنانية.

لقد أثرت اصلاحات السلطان محمود الثاني كثيراً في كل من سوريا وفلسطين، وكان التذّمر من سياسته الاصلاحية بالغاً، وخاصة من قبل القطاعات الاجتماعية الدينية العريضة، متّهمة التجديدات التي اقرها السلطان ارتداداً وخيانة وكفراً. وكان من تلك التجديدات: اعادة تنظيم الادارة نحو المركزية العثمانية والاهتمام بالموظفين في الدولة، واستبدال العمامة بالطربوش، وارتداء الازياء الاوربية بدل الجبّة القديمة جزءاً من حالة التغريب Westernization للامبراطورية العثمانية.

ولقد تاثرت كل من حلب ودمشق كثيراً بحالات التمرد ضد اجراءات السلطان محمود الثاني الذي قضى على الانكشارية، وعاقب حماتهم شيوخ الطريقة البكتاشية ليس في العاصمة فحسب، بل حتى في اقاليم الدولة. وكان البكتاشيون يتمتعون بمكانة متنفذة ومتاصلة في قلوب البسطاء من السكان والحرفيين والصناع على نحو خاص وصغار التجار الذين تحملوا اعباء مضافة من الذبحات في المدن والحواضر، فانخفضت الاجور، وارتفعت الضرائب. وبدأ التذّمر يتحول الى كراهية ومقت لاجراءات السلطان وللسلطان نفسه. وقد حمل البكتاشيون والمتصوفة والفئات العامة حملات مضادة وقاسية على الاصلاحات، وبدأوا ببث الدعاية عن اجراءات غير معلنة، ورافق ذلك كله التردي في الحالات الاقتصادية، فتأججت الانتفاضة في المدن العثمانية، ولا سيما المدن السورية التي بلغت ذروتها في كل من حلب ودمشق.. وخصوصاً سنة ١٨٢٥م، التي تخللتها اضطرابات واسعة النطاق في دمشق، وانتفاضات في القدس وبيت لحم ونابلس .. واعقبتها انتفاضات اخرى في سنوات اخرى.

لقد كانت جميع الاحوال السيئة في بلاد الشام، سواء تلك التي سببتها فرامين السلطنة، ام ردود الفعل لدى السكان عليها، والمتمثلة بالانتفاضات العفوية نتيجة السخط والاوهام، كلها تفاعلت على الساحة السورية لصالح تحركات محمد علي باشا الذي كان يخطط للسيطرة على آسيا العربية.

هكذا، نجد انّ السوريين اجمع قد رحبّوا بالقوات المصرية التي يقودها ابراهيم باشا منقذا لهم من سياسة السلطان العثماني محمود الثاني.

٢- أوضاع لبنان : الامير بشير الثاني

عاش لبنان انهياراً اقطاعياً كبيراً في ظل السيادة الاثنية (= العرقية)، وفي خضم المشكلات الاجتماعية . وقد بدأ الامير بشير الثاني الشهابي ١٧٨٨-١٨٤٠م نضاله الدؤوب من اجل اصلاح الاوضاع اللبنانية، واشاعة نظام المركزية - الادارية فيه، وقد استفاد من اواصر الصداقة التي عقدها مع محمد علي باشا والي مصر، فحملت منجزاته روحاً تقدمية، وساعدت خططه الموضوعية على تطوير لبنان اقتصادياً برغم انه لم يؤسس جيشاً نظامياً، ولا معامل كبيرة، ولا مدارس جديدة.

لقد اتصف بشير الثاني بالقسوة والرهبة.. وكان اسمه يثير الرعب والذعر لدى رعيته، وقد اتصف بأساليبه القهرية الخاصة التي مورست في العهود الاقطاعية، ولكنه استخدمها في القضاء على استبدادية المقاطعجية، وتأمين ظروف جديدة وضرورية لتقدم المجتمع اللبناني وتجديد اقتصادياته.

كانت سياسته الاصلاحية تهدف الى تكوين دولة مركزية ذات سيادة وقوة، والقضاء على الفتن والحزازات والتكتلات والمنازعات الداخلية .. فضلا عن الفوضى الاقطاعية، متخذاً قراره بالبقاء على الاسر الاقطاعية المتنفذة مستولياً على اراضيهم، ووزع الفلاحين القادمين من الشمال عليها، ودفعهم بدلات ايجار قليلة، وتخفيض الضرائب ، وتأمين طرق القوافل ضد قطاع الطرق الذين كانوا يستحوذون على البضائع من خلال تحركاتهم السريعة في ممرات جبل لبنان.

لقد استفاد الامير بشير الثاني كثيراً من مشروعاته الاصلاحية للاقتصاديات اللبنانية، فاستغلّ منصبه في الهيمنة على جهود الفلاحين اللبنانيين. وكان مسلماً ولكنه اعتنق المسيحية خفية لتمرير سياسته، ولايجاد صيغة وئام مع الموازنة ، وكان يبغي من وراء ذلك توحيد جغرافية جبل لبنان، وابقاء استمرارية حكم الشهابيين .. ولم يكن يهتم للمسألة الدينية او الطائفية، ولم يكترث بقضية الدين الذي يعتنقه، فهو يجاري كل دين، ويتوافق مع اية طائفة ، ولكنه ما كان يتردد في اضطهاد المقربين اليه وحتى اهله اذا تعارضت افكارهم مع خططه الاصلاحية ضد الاقطاع المطلق *.

---

* انظر : د. اسد رستم ، بشير بين السلطان والعزيز، بيروت ١٩٦٦.

وفي ١٨٢٢م، هرب الى مصر اثر الصراع مع الدروز، فاستولى الاقطاعيون الدروز على السلطة برئاسة الشيخ جان بولاد الذي نصب احد الشهابيين الضعفاء في الحكم، فعادت الانظمة القديمة والاقطاعية والاستبدادية المطلقة الى لبنان.. ثم عاد الامير بشير الثاني الى بلاده بعد ان عفا عنه الباب العالي ، ولكن الاقطاعيين لم يقبلوا عودته، فآثروا العصيان، فنكّل بهم الامير بشير الثاني تنكيلاً شديداً ، وخاصة بالجانبولاديين والارسلانيين ، وبقي حليفاً قوياً لمحمد علي باشا حتى عام ١٨٤٠م، عندما غادر السلطة الى غير رجعة !.

٣/ بلاد الشام : سوريا ولبنان في عهد المركزية العثمانية

١. مقدمة:

لقد قلبت بلاد الشام صفحة تاريخية من التغيرات على عهد ابراهيم باشا، فعادت الى السلطة العثمانية – المركزية بعد أن غادرتها القوات المصرية. وشرع العثمانيون مباشرة تنظيم الادارة والجيش خلال تطبيق القوانين الجديدة، وأعطيت للموظفين الذين نصّبهم الباب العالي صلاحيات بالاتصال مباشرة به، وبوزارة المالية. وابقي على نظام الالتزام القديم بكل تبعاته وخطاياه. وغدت سوريا قاعدة للجيش العثماني الخامس(يشنجي اوردو همايوني) ، وغدت دمشق مقّراً للدائرة العسكرية الخامسة، والذي اطلق عليه بـ «جيش عربستان» وهو مستقل تماما عن السلطة المدنيّة ويقوده قائد فيلق برتبة «مشير» يتسلم اوامره مباشرة من وزارة الحربية .

وبقي النظام الاقطاعي سائداً في سوريا، ولم تنفع كثيراً التغيرات الادارية البسيطة التي ادخلت في عام ١٨٤١م، وهي تقسيمات كان يفرضها الواقع الاقليمي بعد جلاء القوات المصرية. ولم تحدث تلك التغيرات نهوضاً جديداً واستقراراً في الاوضاع، بل على العكس زادت الانتفاضات في البلاد ضد الممارسات الاقطاعية القاسية، وكان اهمها انتفاضة حلب عام ١٨٥٠م، وانتفاضة حوران عام ١٨٥٢–١٨٥٣م.

٠٢ التغيرات في لبنان

زادت التدخلات الاجنبية السافرة من ضراوة التناقضات (في لبنان خاصة) مضافاً اليها مشكلات عرقية وطبقية ودينية .. وخلافات حادة بين الدروز والموارنة، والمزاحمة السياسية بين انكلترا وفرنسا، وكانتا تقوّيان التناحر القائم،

وإذكاء الخصومات وابقاء التناقضات، ففي حين ساندت انكلترا الدروز، ناصرت فرنسا الموارنة، اما الاتراك، فقد اثار ولاتهم مشكلات لا تحصى، ولا سيما اعمال الابادة الجماعية التي مارسوها ضد الاقليات والطوائف، وبخاصة عمر باشا. وقد اضطرت الحكومة العثمانية ان تحسم المشاكل اللبنانية المعقدة في عام ١٨٤٣م بالامتناع عن حكم لبنان مباشرة ووافقت على تسليم البلد الى قائمقامين اقطاعيين محليين، إذ اختير احدهما درزياً والآخر مارونياً، وابعد الشهابيون عن السلطة الى الابد. وكان هذا الاجراء السطحي سبباً في اندلاع حرب اهلية قاسّية قادت الى المذبحة المشهورة بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤٥م بسبب المناطق المختلطة، فاشتعلت انتفاضة تطورت الى حرب ابادة لكل من فلاحي الطرفين المتنازعين. وكانت الانتفاضة قد بدأت في ايار / مايس ١٨٤٥م، وقبيل خريف السنة نفسها، اخمدت حرائق لبنان الطائفية، ونزع سلاحه على ايدي القوات العثمانية.

لقد اثار انقسام لبنان الى قائمقاميتين خلافات واسعة النطاق انقسامات عدة وحادة داخل بنية الطائفة الواحدة.. فضلاً عن ان الحكومة الفرنسية ارسلت بمذكرة الى الباب العالي، طلبت فيها الغاء تقسيم الجبل، واعادة الشهابيين الى الحكم، ولم توافق بريطانيا اضافة الى عدم موافقة العثمانيين على قيام امارة موحدة في لبنان، ورفض الباب العالي تدخل الدول الاوربية في الشؤون الداخلية لدولته.

دعيت الحرب الطائفية في لبنان عام ١٨٤٥م– وعند العامة – «بالحرب الثانية»، فرأت فرنسا ان الحلّ يكمن بالغاء نظام القائمقامتين، والعودة الى نظام الامارة اللبنانية في حين أصر العثمانيون على التقسيم او العودة الى الحكم المركزي المباشر، وصدر الفرمان بتنصيب وزير الخارجية العثماني شكيب افندي بالذهاب الى سوريا بغرض ادخال تعديلات على نظام القائمقامتين، وهي المعروفة باصلاحات او ترتيبات ديسمبر عام ١٨٤٥م، مؤمنين على ذلك عسكرياً بفرض هيمنة الجيش الخامس على المواقع الاستراتيجية.. وقد اوضح شكيب افندي مهمته الى الدول الاوربية التي تتلخص بمهام التقسيم وتحديد الصلاحيات وبراءة ذمة الدولة العثمانية من الحوادث المأساوية اللبنانية، وردّها جميعها الى آثار السياسة التي يتبعها القناصل الأوربيون في بيروت وتدخلاتهم في جميع شؤون البلاد.

وصل شكيب افندي بيروت في ١٤ كانون الاول / ديسمبر ١٨٤٥م طالباً من القناصل الاوروبيين الخمسة عدم التدخل مطلقاً في شؤون الجبل الداخلية، و أمرهم باستدعاء كل رعاياهم من الجبل بما فيهم الارساليات البروتستانية والكاثوليكية خلال عشرة ايام ، حتى بدأ العمل بنظام جديد في ادارة الجبل، وامر شكيب افندي بنزع السلاح من الجبل فاعترضت فرنسا عليه بشدة، ثم استدعى رؤساء الطائفتين المارونية والدرزية الى دير القمر، لابلاغهم مقترحاته بهدف توطيد السلام الدائم والعادل. وما ان اجتمعوا حتى امر بتوقيفهم لكي يفرغ الجبل من القيادات الاقطاعية التي اشبعته قمعا وحرباً واقتتالا ، ولكي يقمع كل معارضة او انتفاضة عليه .. ثم اوقف القائمقامين وامر بسجنهما فاعترضت بريطانيا هذه المرة، فاجرى ترتيباته الضرورية، ونصب قائمقاماً جديداً على الدروز .. ثم اعلن باسم الباب العالي مساواة الدروز والمسلمين والمسيحيين في الجبل بكل القضايا التشريعية .

ثم انصرف شكيب افندي لتطبيق ما كان قد اصدره من القرارات سابقا. و قد عرف ذلك بنظام شكيب افندي إذ ابقى على تقسيم الجبل الى قائمقاميتين، و أوجد مجلساً ادارياً و يرتبط القائمقامان بوالي صيدا، وله حق عزلهم، واستطاع من خلال اجراءاته ان يقضي على المقاطعجية حكاماً وطنيين ينصبان ولا يورثان منصبهما. وان لا يتمتع القائمقام بسلطة الامير شبه المقدسة. ويقف على رأس المجلس الذي يعاونه في الادارة والحكم والاستشارة وينتخب فيه الاعضاء انتخاباً. وعليه ان يتصف بمزايا خاصة ابرزها انه لم يضلل بالحماية الاجنبية، و لم يستخدم لدى المعتمدين الاجانب. ان ابرز اصلاحات شكيب افندي تتمثل بالقضاء على النظام الاقطاعي القديم، فاكمل اجراءات الامير بشير الثاني الشهابي التي ابطلت ضمناً امتيازات المقاطعجية .. كما كان للنظام الجديد مزاياه الاخرى التي منها . دعم السلطة المركزية في العاصمة اسطنبول، واصبح الباب العالي متنفذاً في الساحة الجبلية اللبنانية، وتطورت ايضاً الادارة في لبنان على اسس حديثة.

لقد تمشّت هذه الاصلاحات مع الخطط التي جاءت بها التنظيمات العثمانية التي اذاعها خطي شريف كولخانة عام ١٨٣٩م، مشددة على المركزية، مع اعطاء شكيب افندي اهمية بارزة لاقليم لبنان الذي استعصى كثيراً على العثمانيين في

السابق.. وكان ساحة مفتوحة لتحركات الاجانب. هكذا اصبح للوالي العثماني الكلمة النافذة في تعيين الموظفين ، والسيطرة على جميع القضايا المتعلقة بالادارة الفعلية. كما ان نظام شكيب افندي وجه ضربة قاتلة للتقاليد القديمة والامتيازات الاقطاعية، واقام ادارة مركزية تستمد شرعيتها من السلطة العثمانية – العليا، كما قضى على عدد من السلطات الاثنية والاجتماعية سواء في المدن الكبيرة ام القرى الصغيرة. اما بشأن المناطق الدرزية والمارونية المتماثلة، فان نظام شكيب افندي لم يكن فعالا الى الدرجة التي يقضي على رواسبها ومؤثراتها وهيمنة الرؤوس الكبيرة على الاراضي والمقاطعات. ولكن؟

ما ان عاد شكيب افندي الى اسطنبول حتى رجع قناصل الدول الى اوروبا الى فعالياتهم ، وقد كان القنصل الفرنسي مؤيدا لتنفيذ نظام شكيب افندي، ولكن بذل كل من زميليه البريطاني والروسي اقصى جهدهما لمقاومته،.. ناهيكم عن انقسامات اجتماعية جديدة حدثت بعد عام ١٨٤٥م.

يمكننا القول -- ايضا - بأنّ تنظيمات شكيب افندي الادارية في ٢ تشرين الاول / اكتوبر ١٨٤٥م. كان لها دور بارز على نمو الولاء السياسي في لبنان، إذ ان الولائين السياسي والطائفي في عهد الامارة ١٥١٦–١٨٤١م مثل ثنائية راسخة من الولاء الجامع لفئات «المقاطعجية» في ظل مناخ حر ومحتدم: حزب قيسي وحزب يماني حتى سنة ١٧١١م، ثم حزب يزبكي وحزب جنبلاطي حتى سنة ١٨٤١م. اما بروز الصراعات السياسية ذات الطابع الطائفي خلال القرن التاسع عشر، فقد جرى بعد تحولات ديموغرافية واسعة، وانحسار قوى المقاطعجية المسيحيين لمصلحة الاكليروس والمؤسسات الدينية ، وبروز الصراعات بين الدروز والموارنة بعد امتدادات ابراهيم باشا العسكرية.. وتدخلات اوربا بحجج حماية الطوائف المسيحية، تأثر كل ذلك سلباً على علاقاتها الداخلية، فنشأت بينها منازعات وحروب اهلية في السنوات : ١٨٤١م، ١٨٤٥م، ١٨٦٠م...

وجاء أخيراً اتفاق الدولة العثمانية مع الدول الاوروبية على تقسيم جبل لبنان الى قائمقاميتين سنة ١٨٤٢م درزية ومسيحية، للقضاء على وحدته التي مثلتها الارادة اللبنانية في ١٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٤٢م، إثر إجتماع «المختارة»

واختيار اسعد شهاب حاكماً للجبل. ويرى بعض المؤرخين ان الطائفية قد تكرست في الحكم والادارة مع تنظيمات شكيب افندي ، والقانون الاساسي لجبل لبنان، وتأسيس «المجالس» على اساس الانتماء الطائفي، ودور رجال الدين المسيحيين والمسلمين في اختيار المرشحين لعضويتها، فزاد ذلك من تصاعد الولاء الطائفي. ويمكننا ان نضيف بأن الصراعات الطائفية كانت قد تأسست سياسيا بتغذية من الدول الاوربية ، بهدف خلق فرص للتدخل وتعميق الانقسامات الاقليمية

٣- خطي شريف همايون ومؤثراته : التدخلات الدولية

ما ان صدر خطي شريف همايون عام ١٨٥٦م، حتى انفجر الوضع في بلاد الشام، إذ كان عاملاً مباشرا لنشوء ازمة، فقد فسر بأنه «وتيقة» تنادي بمساواة الفلاحين وتحريرهم من الاعراف الاقطاعية ، وظهر الاستياء ، وازداد ابتزاز الاموال، والشكاوي والتعسف .. كما اندلعت عام ١٨٥٩م، انتفاضة مسلحة اخرى اثرت على كسروان، وتحولت الى مذبحة مارونية درزية جديدة في ايار / مايس ١٨٦٠م، أذكى فصولها القنصل الفرنسي في بيروت. وفي تموز / يوليو ١٨٦٠م وقعت فجائع في دمشق باستمرار مذبحة دموية على مدى ثلاثة ايام، واريد منها ابادة المسيحيين واحراق كنائسهم والمدارس التبشيرية، وقد تدخل الامير عبد القادر الجزائري شخصياً إذ كان يقيم في دمشق بوصفه بطلا جزائرياً شهيرا. وقد ذهب حوالي عشرين الف انسان من المسيحيين، ودمرت (٣٨٠) قرية مسيحية ، و (٥٦٠) كنيسة و (٤٠٠) دير، فضلاً عما تكبّده المسلمون من ضحايا وخسائر فادحة .

وكانت تلك المذبحة بيد فرنسا لكي تتخذها ذريعة للتدخل في شؤون سوريا، فأثارت خططها مخاوف الدول الاوربية والدول العثمانية. وكان والي دمشق فؤاد باشا قد نصبه السلطان عبد المجيد الاول. فكان ان مارس حملة اعدامات كبرى إرضاء لفرنسا، مقتصراً على انزال العقاب بالمسلمين.. فتمكن الجيش العثماني من اعادة فرض النظام، وايقاف المذابح .

ولم تكن كل من روسيا وانكلترا تريدان ان يسمح لفرنسا الاستيلاء على بلاد الشام..وفي ٥ ايلول / سبتمبر ١٨٦٠م، وقعت ست دول هي : انكلترا وروسيا وفرنسا والنمسا وبروسيا والدولة العثمانية على اتفاقية حددت النفوذ

الفرنسي هناك، ولكن نزلت قوات فرنسية في بيروت عشية الاتفاقية ، أي في اواخر شهر آب / اغسطس ١٨٦٠م. وحاول نابليون الثالث ان يتجاهل اتفاقية ٥ ايلول / سبتمبر ١٨٦٠م، وان يبقى على رأس قواته في سوريا تحت حجج واهية، الاّ ان انكلترا والنمسا اصرتا على انسحاب الفرنسيين، ولم تفلح الجهود، فسرعان ما أجليت القوات الفرنسية متوجهة نحو اوروبا، ففشلت الحملة الفرنسية الاولى.

وفي شهر حزيران / يونيو ١٨٦١م، انبثق نظام اساسي جديد للبنان، وكان على شكل اتفاقية بين الدولة العثمانية وجيرانها في ٩ حزيران / يونيو ١٨٦١م، الغي فيها نظام القائمقاميتين . واصبح جبل لبنان دون الساحل منطقة ذات حكم ذاتي، والمتصرّف مسيحي — كاثوليكي، يعينه الباب العالي، واسّس مجلس اداري تابع له يؤلفه (١٢) شخصاً، يمثل كل شخصين احدى الطوائف والمذاهب، فكان هناك: المارونية والدروز والسنة والشيعة والروم الارثودكس والروم الكاثوليك. وللمجلس وظائف استشارية وقسم لبنان الى ست مديريات اخضعت لها النواحي والقرى والقضاة والكتبة ..الخ.

هكذا برز لبنان بعد عام ١٨٦١م في شكل كيان جديد يرتكز على «النظام الاساسي» بمواده السبع عشرة، وتبلورت شخصيته السياسية والادارية بالرغم من الاختلافات الاجتماعية والانثروبولوجية التي ازدحم بها لبنان*.

---

* للاستزادة ، انظر
د. احمد طربين ، لبنان في عهد المتصرفية الى بداية الانتداب، القاهرة ، ١٩٦٨.
فلاديمير لوتسكي، تاريخ الاقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، موسكو، ١٩٧١.
يوسف خطار ابو شقرا ، الحركات في لبنان في عهد المتصرفية، بيروت ، ١٩٥٢.
د. اسد رستم، آراء وابحاث، (منشورات الجامعة اللبنانية) ، بيروت ، ١٩٦٧.
الاب فيليب الخازن، كسروان عبر التاريخ، حريصا / لبنان، ١٩٧٠.
المطران يوسف الدبس، تاريخ سوريا ، المجلد ٨ ، بيروت ، ١٩٠٥م.
د. اسد رستم، لبنان في عهد المتصرفية، بيروت ، ١٩٧٣.
ومن الاهمية ، مراجعة ما كتبه عدد من المؤرخين اللبنانيين المحدثين ، واخص بالذكر:
د. وجيه كوثراني / د. كمال الصليبي / د. عصام خليفة / د. عبد الرحيم ابو حسين / د. بطرس لبكي / د. سمير صيقلي / د. مسعود ضاهر ..
كما وعليّ ان اشير الى :
د. سيار الجميل، «الولايات العربية والامبراطورية العثمانية : الحياة الادارية ...الملل والاقليات . التنظيمات وبروز القوميات مجلة المستقبل العربي، العدد (١٣٨)، السنة (١٣) ، آب / اغسطس ١٩٩٠

٤- سـوريا : عـودة المركـزيـة العـثمـانيـة :

في عـام ١٨٦٤م، صـدر قـانون الولايات - كمـا وجدنا- ، فكان له اثر واضـح في اعادة التنظيم الاداري لبلاد الشـام، فقد ضـمّت ولاية سـوريا كلاً من دمشق وبيروت ولكن الدولة أعادت الانقسـام الاداري، فولّدت ولاية بيروت، وأصبح لكل ولاية مجلس ادارة، كما وحدّدت صلاحيات المحاكم والفتوى والاوقاف والاحكام الشرعية والاحكام الشـخصية .. وتشكلت محاكم جديدة.

وفي عـام ١٨٨٩م، فتح ميناء بيروت، ومنحت الامتيازات لشركات اجنبية لبناء خطوط مـواصـلات بريّة ونهـرية (= طرق/ جسـور) ، ولم يكن في سـوريا مواصلات معبّدة، او سكة حديد قبل عام ١٨٧٦م، فبدأ يمتدّ أوّل خط حديدي عام ١٨٨٢م، وفي العقد الاول من القرن العشرين: بدأ العمل في سكة حديد الحجاز.. كمـا وصل التلغراف الى حلب سنة ١٨١٢م، ووصل الى دمشـق سنة ١٨٩٤م، وخـدمـات بريدية منذ سنة ١٨٨٥م.. وخـلال النصف الثـاني من القـرن التـاسـع عشر، تأسست البلديات في المدن السورية، وصـدر قانون انتخاب المجالس البلدية وقانون البلديات .

ونصّب مـدحت باشـا واليـا على سـوريا في ٢٤ تشـرين الثـاني/ نوفـمـبـر ١٨٧٨م، وبقي في منصـبـه حـتى ٣١ آب / اغـسـطس ١٨٨٠م، فنظم الادارة والضـرائب ، وشـجّع الحـركة التعليمية المدنية، لأن المدارس كانت دينية حتى ذلك الوقت. و تشكّلت في عـهده جمعية من العلماء للنظر في اصلاح التربية والتدريس .. وكان من ابرزهم الشيخ طاهر الجزائري ، وقد اطلق على الجمعية اسم «جمعية المقاصد الخيرية » ونجحت في انشاء (٨) مدارس بلغ عدد تلاميذها نحو (١٢٠٠) تلميذ ، اضافة الى انشائها مدرسة للبنات استوعبت (٥٠) تلميذة.

وعلى هذا الاسـاس، فـقـد كـانت سـوريا سبـّاقـة في ولادة جيل من المثقفين والملاكات المتعلمة. ولاهتمـام مـدحت باشـا بدور الثقافة والعلم فقد عمل الشيخ طاهر الجزائري على تأسيس مكتبة عامرة بالكتب والمخطوطات التي جمعت من المساجد الموقوفة في قبة الملك الظاهر بدمشق، فاطلق عليها اسم «المكتبة الظاهرية» التي تعد اليوم من المكتبات العربية النفيسة. وقد كان للشيخ طاهر الجزائري الدور

المؤثر في البناء الثقافي – العربي سواد بعقد الندوات والاجتماعات ، ام الاهتمام بالتراث وتاريخ العرب واللغة العربية. وقد برز حوله عدد من المثقفين الذين عدوا من رجالات النهضة العربية في سوريا، مثل : عبد الحميد الزهراوي ورفيق العظم ومحمد كرد علي وسليم الجزائري .. كما عرفت سوريا عدة تجديدات في الفنون الادبية، وولدت الحركة المسرحية منذ منتصف القرن التاسع عشر. ولقيت دعما من مدحت باشا، فكان ان ظهرت فرقة ابي خليل القباني ١٨١٠-١٩٠٢م ، وانجزت عددا من المسرحيات الناجحة بديكورها واضاءتها واخراجها واغانيها الجماعية .. حتى وشى بها الى السلطان عبد الحميد الثاني لانها تفسد الاخلاق، فامر باغلاقها .. فاضطر القباني الى ترك المسرح في سوريا والهجرة الى مصر سنة ١٨٨٤م حيث اكمل فيها مسيرته الابداعية .

اما بالنسبة للطباعة والصحافة، قد اسّست في دمشق اول مطبعة سنة ١٨٦٤م، وصدرت منها جريدة «سوريا» بالعربية والتركية وهي جريدة رسمية، كما صدرت في حلب جريدة «الفرات» الاسبوعية بالعربية والتركية والارمنية عام ١٨٦٧م اثر تأسيس واليها جودت باشا مطبعة حكومية فيها.. ثم توالى صدور بقية الجرائد والمجلات السورية .*.

٥- التشكيلات الادارية وآثارها :

اما من الناحية الادارية فقد حكم الشام خلال عهد اعادة المركزية العثمانية ستة وثمانون واليا بمعدل والٍ واحد كل سنة ونصف السنة. وأننا نلحظ بأنّ ما نالته بلاد الشام من الاصلاحات العثمانية كان اكثر بكثير مما نالته بقية الولايات العثمانية الاخرى مجتمعة ولكن غلبة المشكلات الادارية والصراعات المحلية، وسوء الاوضاع الاقتصادية دفعت باعداد كبيرة من الشوام واللبنانيين الى الهجرة باعداد مذهلة الى العالم الجديد ومصر وافريقيا الغربية. وكان للسوريين واللبنانيين دور بارز في ادخال الطباعة والصحافة والثقافة الى اماكن عدة من بلدان العالم، اضافة الى التطورات الثقافية التي اكتسبتها مصر على ايديهم .. فضلا عن العاصمة العثمانية.

---

* انظر د. عبد الكريم غرايبة، سوريا في القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٦٢.

لقد حدثت تغييرات جزئية مستمرة على الوضع الاداري في عموم بلاد الشام، فقد اختفت ولاية طرابلس الشام، وغدت لواءً تابعاً لولاية صيدا التي بقبت الى جانب كل من ولايتي حلب ودمشق على حالها مع بعض التغيير في الويتها، فضلاً عن اجزاء من اللوائين اورفة ومرعش ضمن الحدود السورية. اما اكثر الاجزاء منهما فقد ذهبت الى داخل الاراضي التركية بعد سلخها ناهيك عن اقليم الاسكندرونة بمدنه العربية العريقة .

اما فلسطين فقد تعرضت ايضا الى تغييرات ادارية، فقد غدا لواء القدس بعد فصله عن ولاية صيدا – بيروت، متصرفية ممتازة لا ترتبط بأي اقليم او ولاية بلد يكون ارتباطها بوزارة الداخلية في مركز العاصمة اسطنبول. وقد ضمت متصرفية القدس اربعة اقضية هي : يافا وغزة وبئر السبع والخليل ، فضلا عن احدى عشرة ناحية وثلاثمائة وواحدة وثمانين قرية ومزرعة ..وضمت بقية الاراضي الفلسطينية الى ولاية صيدا – بيروت مقسمة الى لوائين ، هما عكا ونابلس بكل اقضيتهما ونواحيهما وقراهما.

اما ولاية حلب فقد توّسعت كثيراً لتغدو من اكبر الولايات السورية كثرة في السكان مشتملة على اكبر عدد من الوحدات الادارية (كما هو حال ولاية الموصل في العراق)، وكانت غنية بخيراتها، وازدهار تجارتها .. كما وحافظت حلب على بنيتها الاجتماعية كاكبر المدن السورية، واكثرها صناعة وحرفيين وتجارة برغم المنافسة التي تعّرضت لها من قبل دمشق وبيروت. وقد ربطت دير الزور بحلب بعد ست سنوات من جعلها لواء، ثم فصلت عن حلب لتغذو متصرفية مستقلة متألفة من اربعة اقضية واربع نواح ومائة وخمسين قرية.

وحدثت تغييرات في جنوبي الشام، وبدأت ادارة لواء حوران في المزيريب، والحقت به نواحي جبل الدروز وعجلون والقنيطرة.. ثم فصلت الكرك عن حوران سنة ١٨٦٨م، والحقت بلواء نابلس الذي كان يسمى بـ «البلقاء» ، ثم الحق قضاء السلط احيانا بلواء حوران، ثمّ تمّ تشكيل لواء معان في الجنوب .

إن كل التغيرات الادارية التي اصابت هيكل الحكم الاداري في بلاد الشام لم تحقق اهدافها لغرض الامن والسيطرة العثمانية المركزية عليها، ناهيك عن زيادة

الجبايات والضرائب، إذ بقي الامن مختلاً ، والانتفاضات والفتن قائمة، واعتداءات القبائل على المزارعين مستمرة والقوافل التجارية مستمرة..

وعلى الرغم من توارد عدد قليل من الولاة المصلحين، فان الامكانات المادية كانت قليلة من اجل اجراء تغييرات واسعة، فعجزوا عن ذلك، فضلا عن طبيعة المشكلات المعقدة التي ابتليت بها المنطقة، وابرزها الفتنة التي حدثت عام ١٨٦٠م، التي كان لها نتائج وخيمة، وهي الحوادث التي ادت الى احداث متصرفية ممتازة لجبل لبنان، وقد شعر المسلمون بأنهم اذلاء في دولة ترفع شعار الاسلام، إذ تحملوا لوحدهم نتائج الفتنة والعقوبات والغرامات. ومنذ ذلك التاريخ فقدوا ثقتهم بايديولوجية الدولة، فضلاً عن فقدانهم الامل في اصلاحها. وقد وصل الاحباط حتى لدى الولاة انفسهم بفقدانهم كل الامال بالاصلاح والتغيير، وكان منهم: مدحت باشا ومحمد رشدي إذ تؤكد تقاريرهم عمق الاسى والالم الذي اتصفوا به.

اما في عهد ناظم باشا ١٩١٠-١٩١٢، فقد جرت سلسة اصلاحات عدة في سوريا، منها. جلب مياه الاسالة الى دمشق، وتزويدها بالكهرباء والترمواي، وتبليط الشوارع، وبناء الاحياء الجديدة، ويعده السوريون خير من تولّى سوريا من الولاة العثمانيين*.

(٣) تكوين الدولة الخديوية في مصر

١ / التحولات والعلاقات الدولية: **.

استطاعت بريطانيا ان تحدّ من نفوذ محمد علي باشا حاكم مصر، وازدادت المصالح الاقتصادية الانكليزية في مصر. اما سياسياً، فقد غدت مصر تابعاً من توابع الباب العالي بعد ان كانت دولة قوية لها كيانها السياسي المؤثر.. ولكن

---

* ان ابرز مرجع تاريخي يمكننا التعويل عليه هو كتاب د. عبد الكريم غرايبة، تاريخ العرب الحديث ص ٢٣٦-٢٣٧. وانظر. ساطع الحصري البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٢٣١ ٢٣٥ وعبدالعزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤-١٩١٤، القاهرة ١٩٦٩.ايضاً محمد ابو السعود الحسيبي «ملحات من تاريخ دمشق في عهد التنظيمات»، نشر وتحقيق: كمال سليمان الصليبي. مجلة الابحاث، الجامعة الامريكية في بيروت، السنة (٢١)، آذار / مارس ١٩٦٨.

** لقدعوّلت في كتابة هذا الموضوع تعويلاً كبيراً على ما كتبه فلاديمير لوتسكي، وفؤاد شكري وديفيد لاندزوكلوت واللورد كرومر ومحمود زايد واحمد احمد الحتة وعبد العظيم انيس وصلاح عيسى .. وعلى آراء فؤاد مرسي وحافظ دياب ونادية رمسيس

الاتراك كانوا ضعافاً في فرض سيطرتهم على مصر، في حين بقيت تمثل دورها التاريخي اسمياً على حساب المنافسة الاستعمارية بين الانكليز والفرنسيين.

وكانت الاوضاع الطبقية قد ازدادت سوءاً، فهناك الكثير من الملاكين الكبار الذين يسعون الى ابقاء الارتباط مع تركيا، اما مثلهم الاعلى فهو انكلترا.. في حين كانت الفئة الاخرى، يمثلها التجار والبورجوازية الحرة، وهي فئة تغريبية تؤمن بالاقتصاد الحر، ومثلها الاعلى هو فرنسا. وكان التنافس كبيراً بين الفئتين حتى ليصل الى نزاع سياسي في حين كان محمد علي باشا قد هرم وشاخ، ولم يعد باستطاعته ادارة الدولة، فتنحى عنها الى ابراهيم باشا الذي اعار اهتماماً كبيراً لتطوير مصر اقتصادياً، وحاول تحسين جهاز الدولة ومالية مصر، وخلص الجهاز الاداري مما طرأ عليه من فساد وسلبيات..

وقد قام ابراهيم باشا بزيارة الى اوربا، اطلع خلالها ١٨٤٥–١٨٤٦م، على التطورات التي احدثتها الثورة الصناعية هناك. وقد وصل ابراهيم باشا الى سدة الحكم في مصر عام ١٨٤٨م، وبصورة رسمية، ولكنه، توفي بعد قرابة ثلاثة اشهر، اي في ١٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٤٨م، وكان ابراهيم باشا (هو ابن محمد علي باشا بالتبني) قد تربى تربية رصينة على يد محمد علي باشا ليؤهله انجاز مهمات كبرى ..ولم تمض الا اشهر معدودات حتى توفى الأب محمد علي باشا في ٢٢ آب / اغسطس ١٨٤٩م بعد شيخوخة طويلة، وعمر يقدر بـ٨٣ سنة ..فآلت السلطة الى حفيده عباس باشا حلمي الاول ليحكم مصر للفترة ١٨٤٩–١٨٥٤م إذ كان قد تقلد منصبه رسمياً في ٢٤ كانون الاول / ديسمبر ١٨٤٨ ولم تكن لعباس الاول اي روح اصلاحية او بنائية او تحديثية، اذ سرعان ما قضى على العديد من منجزات جده.

كان عباس حلمي باشا الاول يتمتع بعقلية مغلقة، فأغلق المدارس، وأوقف الاعمال في بناء القناطر الخيرية، وصفى المعامل اليدوية، وقلص الجيش، وبدأ يقوي حرسه الخاص الذي جمعه من المماليك الارقاء والالبانيين .. وقد قرب الملاكين والباشوات الاقطاعيين من الجراكسة والأتراك، فوزع عليهم أراضي جديدة، وبدأ هو نفسه يستحوذ على أراض ومقاطعات كبرى، ليصبح هو نفسه من اكبر الاقطاعيين في مصر .. وقد اصاب الفلاح المصري بالضرر، وفرضت عليه الضرائب القاسية . وقد توثقت علاقة مصر بتركيا العثمانية على عهد عباس، وأضر بالانجازات الاقليمية والمحلية التي حصلها كل من محمد علي باشا

وابراهيم باشا .. فضلا عن انه كان يمقت الثقافة ويحتقر الاوروبيين.

وقد اصبحت مصر في عهده قاعدة للتنقل الانكليزي، وتم بمساعدة الانكليز انشاء خط السكك الحديد بين الاسكندرية والقاهرة والسويس خلال الاعوام ١٨٥٣-١٨٥٧م، فساعد ذلك الخط الحديدي مصر في الشحن ونقل الجنود الى الهند. وقد جابه الفرنسيون هذا المشروع بمشروع استراتيجي عملاق من نوع آخر، هو مشروع قناة السويس!

٢/ مشروع قناة السويس:

لم تفلح مساعي نابليون بونابرت في شق قناة بين البحرين: الاحمر والمتوسط وذلك للذرائع الخاطئة التي تقدم بها اليه المهندس ليبيير الذي قال باستحالة شق القناة لاسباب فنية. وعلى الرغم من ان آخرين قد فندوا آراء ليبيير فان فرنسا لم تستطع اقناع محمد علي باشا، فضلاً عن مقاومة انكلترا. كان محمد علي باشا يدرك ادراكاً كاملاً أهمية المشروع من الناحية الاستراتيجية .. وكيف ان هذا المشروع سيعمل على رفع مكانة مصر بين الامم، ولا سيما اوروبا الى درجة لا تقل عن درجة مضيق طارق او مضيق الدردنيل .. إذ اعتقد بأنّ اطماع العالم ستكبر كثيراً عند ذاك، فلا بد من المحافظة على استقلال مصر بعدم الموافقة على المشروع. اما انكلترا فقد كانت ترى ان مصالحها في الشرق البعيد ستهدد في حالة تنفيذ المشروع بأيدي الفرنسيين.

وفي عهد عباس حلمي باشا تقدمت فرنسا بالمشروع ثانية علي يد فيرديناند دي ليسبس وهو سياسي فرنسي لامع، وكذلك وقف عباس حلمي وانكلترا ضد المشروع، ولم ير بأن مصالح مصر ستكبر، بل ان ذلك المشروع سيعمل على تطوير الحلقات الاقتصادية التي كانت مصر قد بدأت بها فيما يتعلق بقوى الانتاج، وتطورات السوق، وتحسين الانتاج البضائعي، ونمو في رؤوس الاموال. الخ ولكن يموت عباس حلمي باشا فجأة، فتكون فرنسا قد حققت خطوة اولى في سبيل تحقيق احلامها ضد بريطانيا.

تولى سعيد باشا احد اولاد محمد علي باشا حكم مصر في ١٤ تموز/ يوليو ١٨٥٤م، وكان يمتلك تفكيراً مستنيراً، وله ميول غربية، كما كان صديقا حميماً لفرديناند دي ليسبس، فما كان منه الا ان منح صديقه بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٥٤م، امتيازاً بشق قناة السويس. فبدأت الدراسات والخطط

ى التحريات، وخاصة بعد ان قدمت حكومة مصر جملة التزامات لشركة قناة السويس، منها : تزويدها بالمياه العذبة عبر ترعة خاصة، ومنحها مساحات شاسعة كمقالع احجار، واستثناء من دفع الرسوم، وتقدم — العمال مجاناً ..وحدد الامتياز ٩٩ سنة (أي حتى عام ١٩٥٣) . وقد كان رأسمال الشركة يقدر بـ ٢٠٠ مليون فرنك فرنسي. وكانت رأسمالاً مساهماً تحمل سعيد باشا عبئاً كبيراً منه، فقد اصدرت الشركة (٤٠٠) الف سهم، قيمة السهم الواحد (٥٠٠) فرنك، احتفظت فرنسا بـ (٢٠٧) آلاف سهم (أي : ٥٢٪ من الاسهم) . أما سعيد باشا، فقد اشترى (٦٤) الف سهم، قيمتها (٣٢) مليون فرنك، اضافة الى تسجيل اسهم اخرى قدرت بـ (١١٢) الف سهم قيمتها (٥٦) مليون فرنك مخصصة.

ولكن؟

٣ / (عهد الخديوي اسماعيل)

شرع بشق القناة في نيسان / ابريل ١٨٥٩م التي ذهب ضحيتها الآلاف المؤلفة من الفلاحين المصريين بالسخرة، اذ كان يعمل فيها بحدود ٤٥-٤٠ الف فلاح ، قضى نصفهم نحبه وهو يؤدي مهامه. وكانت بريطانيا قد شنت حملة ضد المشروع والممارسات التي طبقت فيه، فاعلنت اسطنبول ان منح الامتياز ليس من حق حاكم مصر وطالبت بالغائه فاندلعت أزمة خطيرة، وقد مات سعيد باشا في ١٨ كانون الثاني / يناير ١٨٦٣م، فخلفه في الحكم وريثه اسماعيل باشا ١٨٦٣-١٨٧٩م، وكان هو الآخر مستنيراً مثقفاً، فدرس في فرنسا، فواصل سياسة سلفه الاصلاحية واراد جعل مصر جزءاً من أوروبا ... ولكنه رفض الامتيازات التي قدمت للفرنسيين لارهاقها مصر ماليا *.

وفي ٣٠ كانون الثاني/ يناير ١٨٦٣م، اصدر اسماعيل باشا أمرا بتحريم أعمال السخرة في شق القناة، وتفاقمت الامور في غير صالح مصر وتدخلات الباب العالي، ومؤامرات الانكليز ، فاحال دي ليسبس اسماعيل باشا الى مجلس تحكيمي، فقرر المجلس ان يدفع اسماعيل. غرامه قدرها (٨٤) مليون فرنك الى «شركة قناة السويس البحرية العامة»... فضلاً عن التزامات اخرى، فكان على اسماعيل باشا ان يلجأ الى البنوك الاوروبية التي منحته قروضاً بشروط فاحشة للغاية، فوقعت مصر في شبكة من الديون لم تتمكن من التخلص منها.

* Gaston Zananiri, Le Khedive Ismail et L Egypt 1830-1894, Alexandrie, 1923, p. 34.

وفي ١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٦٩م تمّ الاحتفال بافتتاح القناة، وأرادها اسماعيل باشا ان تكون مناسبة دولية تاريخية ليس لها مثيل، فاستضاف عشرات الشخصيات المتوجّه ورجالات السياسة من جميع انحاء العالم لحضور الاحتفال بمناسبة افتتاح القناة.. وبطلب من اسماعيل باشا ألف الموسيقار فيردي اوبرا «عايدة» خصيصاً لذلك الاحتفال المهيب، وبذخت الاموال، وشيدت القصور الفخمة للضيوف، وبنيت اليخوت الفاخرة ... واستمرت الاعياد بضعة اسابيع.. وقد تحملت الخزينة المصرية كل المصروفات... لقد كلفت عملية شق قناة السويس (٤٠٠) مليون فرنك بما فيها الاسهم والغرامات والنفقات والمصروفات في حفل الافتتاح.. ولم تمض الا ستة اعوام حتى باعت الحكومة المصرية حصتها من اسهم القناة بمبلغ (١٠٠) مليون فرنك، فخسرت مصر أكثر من (٣٠٠) مليون فرنك.. ناهيك عن خسارة مصر لآلالف مؤلفة من ضحايا اهلكها الجوع والعطش والحر والتعب، والاقسى من ذلك وقوع مصر تحت وطأة القوى الاوربية وخاصة بريطانيا التي ستعمل بعد سنوات على احتلالها.

وفي ٨ حزيران/ يونيو ١٨٦٧م حصل اسماعيل باشا على فرمان سلطاني يقضي بترسيمه «خديوي» على مصر، وجعل حكومة مصر «خديوية» مخولاً اياها بعض الامتيازات الجديدة. وتعني كلمة «خديوي» (الامير)، ولكنها تعطي معنى «ربوبي»، وسمح للخديوي باداء عقد الاتفاقيات والمعاهدات.

علينا ان نقول بأن مصر قد تطورت كثيراً في عهد الخديوي اسماعيل، وشهدت نهضة اقتصادية، وذلك بازدياد الطلب العالمي على القطن المصري، وكانت المساحات الزراعية المصرية قد اتسعت كثيراً، وتطور نظام الري. وكان معظم القطن يصدر الى الخارج، وكانت تنتجه اراضي الملاكين الاقطاعيين الكبار في مصر الذين التزمهم الخديوي اسماعيل. وقد أدت زراعة القطن في مصر فقط الى شلل في انتاج محاصيل اخرى، فسبب ذلك خطراً على مصر، فأسرع الخديوي اسماعيل للسعي الى زراعة قصب السكر..

هكذا ازداد الحجم الاجمالي للتجارة الخارجية المصريه بمقدار خمس مرات على مدى ثلاثين سنة للفترة بين ١٨٤٣- ١٨٧٢م. كما تطورت الملاحة بازدياد

عدد السفن والبواخر، وازدادت أهمية المدن الساحلية – التجارية التي تمتلك موانئ استراتيجية كالاسكندرية وبورت سعيد والتي غدت من امهات المدن الدولية المهمة. وكان الخديوي اسماعيل نفسه يمتلك عدداً كبيراً من البواخر، وقد تفوق الاسطول المصري على الاسطول الفرنسي من الناحية الفنية / التقنية.

كما وغدت مصر تتمتع بشبكة مهمة من السكك الحديد التي تعود ملكيتها للدولة، وتطورت تلك الشبكة على مدى (١٥) سنة للفترة ١٨٦١– ١٨٧٥م تطوراً كبيراً حتى سبقت مصر غيرها من الدول الرأسمالية المتطورة. كما تطورت وسائل الاتصالات الحديثة كالتلغراف الذي تطور بدوره ليضاهي فرنسا في اتساع مجاله.. كما وازدهرت الحياة السكانية في عدة من المدن، وانتشرت شبكة انابيب المياه للشرب، والمجاري في القاهرة منذ ذلك الوقت، وازداد عدد السكان نتيجة للاهتمام بالصحة العامة، وانتشار الحدائق والمتنزهات والمرافق العامة.

اما الصناعة فقد تطورت تطوراً كبيراً، وبخاصة صناعة النسيج والسكر ومعامل الاسلحة وبناء السفن والمناجم.. وورشات للترميم والمعامل لصب الحديد، وحلج الاقطان، ومعامل للالبان، ودبغ الجلود، والتجارة، والطواحين البخارية، لكن الصناعة بوجه عام، لم تصل الى المستوى التقني الذي وصلته اوروبا، ولاسيما بريطانيا... وكانت المنتوجات الانكليزية تتدفق على الاسواق المصرية دون كمارك يحفظ للبضائع الوطنية قيمتها الحقيقية .. فبقيت مصر بلداً زراعياً، ولم تنتج صناعياً ما يمكنها ان ترفد به الاسواق الدولية، كمنافسة للصناعات الاجنبية.. فازدادت تبعيتها للبلدان المصنعة لا سيما وانها بقيت تزود تلك البلدان بالمواد الخام.

لقد دخلت مصر مرحلة التطور الرأسمالي بازدياد الانتاج وتطور العلاقات الانتاجية، ولكنها بقيت تتوارث العلاقات والاساليب القديمة التابعة للعصور الوسطى، وخاصة استغلال الملاكين الكبار الفلاحين وابتزازهم، وازدياد الفوارق الطبقية بحيث لم تقض الخديوية على تلك المواريث والاساليب القديمة، بل هي نفسها كانت احدى دعائم تلك الثنائية في الوقوف دون تحولات كبرى بين شبه الاقطاعية وشبه الرأسمالية.. فبقيت الطبقة العاملة والفلاحون تحت وطأة الاستغلال والجشع.

٤ / تطورات مصر الخديوية*:-

وخلال ذلك العهد المزدحم بالاحداث والوقائع بدأت مصر تستقبل عدداً من الجاليات الاوربية التي حملت عناصرها: امكانات مهنية، وكفاءات عملية.. أما بعضهم الآخر فكانوا من المضاربين والوسطاء والشركاء والسماسرة والمرابين والمقامرين والمومسات..الخ التي نشرت الفساد في المدن الكبيرة ، وبخاصة الاسكندرية التي امتلأت شوارعها بـ«الخواجات» الذين اشتغلوا بالمخدرات والحانات والبانسيونات وبيوت الدعارة.. اذ بلغ عدد الاجانب في الاسكندرية حوالي (٥٠) الف اجنبي (أي : ربع سكان المدينة). وفي القاهرة سكنها حوالي (٢٠) الف اجنبي من اليونانيين والفرنسيين والايطاليين والانكليز والالمان...

ولكن من جانب آخر حرم نظام الحكم في مصر نظام العبيد وتجارة الرقيق، وحرم استيرادهم، كما واطلق حرية الفلاح في التصرف بارضه. وقد عاد هذا القانون بالضرر على الفلاحين الذين تحولت اراضيهم الى ايادي التجار والمرابين والملاكين والرأسماليين والاجانب.

كما واصلح نظام الضرائب القديم، وصدرت تعليمات بالضرائب النقدية بدل التسليمات العينية ، كما واستعيض عن الضرائب الجماعية بالضرائب الشخصية... والغي نظام الاحتكارات على عهد سعيد باشا، وصفيت الكمارك الداخلية، ومنحت الحرية للفلاحين ان يزرعوا ما يشاؤون، وان يبيعوا ما يريدون! ونجح سعيد باشا في احداث تغييرات كبيرة في الجيش ، وزاد من عدد الجيش المصري بعد موافقة الباب العالي. لكي يغدو عدده (٣٠) الف بدل (١٨) الف جندي. واتبعت نفس السنن التي ابرزها محمد علي باشا بادخال المصريين الى الجيش وتجنيد الفلاحين الذين يرتقون الى مرتبة الضباط في حالة اداء كفاءتهم على وجه صحيح .. وكان منهم: احمد عرابي الذي وصل الى مرتبة القيادة، وغدا ياورا لسعيد باشا.. وكانت هذه السياسة مخالفة لما اتبعه اسماعيل باشا من سياسة عسكرية في الجيش الذي أمن المناصب القيادية لابناء الملاكين الكبار من ذوي الاصول غير المصرية، وأبعد الضباط المصريون الذين ينتمون الى اصول فلاحية

---

* من الأهمية مراجعة ما كتبه كل من المؤرخين : محمد فؤاد شكري واحمد عبد الرحيم مصطفى وجلال يحيي وغيرهم .

الى الدرجة الثانية، فحدث منذ ذلك الحين انقسام واسع النطاق بين الضباط المصريين: الفلاحين والجراكسة!

أما من الناحية السياسية فقد حاول الخديوي اسماعيل ان ينتهج سياسة خارجية مستقلة عن العثمانيين. وفعلاً، فقد تمتعت مصر في واقع الامر باستقلال ذاتي داخلي تام، فضلاً عن سياسة خارجية مستقلة. فقد كانت مصر دولة تشكلها عدة من المؤسسات العسكرية والمدنية وفيها حكومة وقوانين.. كما وتغير النظام الوراثي السلالي من اسلوب النظام العثماني بانتقال الحكم الى كبير الاسرة الحاكمة، الى اتباع النظام الاوربي بتسلم الابن الاكبر حكم البلاد بعد حكم ابيه. واقتدى الخديوي اسماعيل بالنظم السياسية الاوروبية بتشكيله عام ١٨٦٦م بما يشبه البرلمان أو المجلس النيابي باسم «مجلس شورى النواب» مؤلفا من (٧٥) مندوباً تتم دورتهم الانتخابية على مدى ثلاث سنوات. وللمجلس وظائف استشارية، وله حق الاطلاع على الميزانية، ولكنه بقي اداة طيّعة بيد الخديوي، إذ لم يؤد أية مكاسب أو منجزات سياسية!.

وفي عام ١٨٧٣م، حصلت مصر على فرمان يقضي باستقلالها الذاتي المالي.. كما باشر الخديوي اسماعيل باصلاح الجهاز القضائي، وذلك لحاجة مصر الى المحاكم المختلطة، والقضاء المزدوج للعمل بين الاوربيين والمصريين، فتأسست تلك المحاكم وزاولت عملها في ١٨٧٦م.

أما ثقافياً، فقد واصل كل من سعيد والخديوي اسماعيل السياسة التي كان محمد علي باشا قد بدأها، فاللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة في مصر، وتطور التعليم بها، وفتحت مدارس جديدة. وزاد عدد المدارس في عهد الخديوي اسماعيل، كما ازدادت الثانويات، وانشأت في مصر دار الكتب ومتحف وجمعيات علمية ودار للاوبرا – وبرزت الحركة الادبية لتنهض بالواقع الثقافي،فكان هناك محمود سامي البارودي وابراهيم المويلحي وحسين المرصفي.. وغيرهم كرجال ساهموا مساهمة فعالة في بناء النهضة الادبية العربية الحديثة... كما وصدرت الصحف العربية والفرنسية كالاهرام ووادي النيل ونزهة الافكار..

وقد اختلف المؤرخون في تفسير تاريخ عهد الخديوي اسماعيل باشا وشخصيته، فانقسموا الى قسمين: قسم يؤيد سياسته التي اتخذها في صالح بناء

الرأسمالية المصرية والتطورات الاجتماعية التي عاشتها مصر. وقسم يختلف مع سياسته التي سمحت المجال للاقطاعيين والرأسماليين الكبار الذين استحوذوا على الاقتصاد المصري، في حين كانت مصر تغرق في ديونها يوماً بعد آخر!!

(٤) التحديث في تونس الحسينية

١/ ركيزتان اساسيتان في الاقليمية التونسية:

(١) الجيش التونسي: كان عدد افراده قرابة ثلاثين الف جندي، ويتكون اساساً من العناصر المحلية بعد ابعاد طائفة الانكشارية سنة ١٨١١م. وكان يتوزع كالآتي:- عشر فرق من المشاة متكونة من المزارقية والمخازنية المنتشرة في الارياف والمناطق الاستراتيجية. وكانت مسؤوليات هذا الجيش تشمل الحفاظ على الامن. وكان تنظيمه قبلياً. ولم تكن السلطة الحسينية تدفع رواتب مالية للقبائل العسكرية، بل كانت تعفيها من الضرائب وتقدم لها بعض الخدمات مقابل خدماتها العسكرية. هناك ايضا اربع فرق للمدفعية، تتحرك في الموانيء الكبرى والمدن الواقعة على الحدود، ففي عام ١٨٤٠، يؤسس الباي التونسي مدرسة عسكرية لتكوين ضباط المدفعية، ويعين فيها ضباط مدرسين يستقدمهم من فرنسا وانكلترا وتركيا. وهناك ايضا فرقة الخيالة الموجودة في تونس والقيروان وغيرها، ويرأسها اربعة اغوات. وهناك الفرقة البحرية التي تؤلف الاسطول التونسي الذي كان في نمو وانتعاش نتيجة ازدهار حياة المقاومة البحرية المتوسطة، كان اسطولاً عظيماً في السابق، ولكن في القرن الثامن عشر تدهورت اوضاع القرصنة، ومعها تقلصت هيبة الاسطول البحري التونسي، وقل عدد السفن، اذ اصبح يضم (١٢) باخرة حربية فقط ترابط في ميناء حلق الوادي حيث مقر البحرية التونسية ودار صناعة السفن.

(٢) الموارد المالية: ابتداء من القرن التاسع عشر كانت الموارد تأتي الى الدولة من الضرائب المجباة من السكان افراداً وقبائل. وقد تعددت الضرائب، وازداد حجمها بسبب عوامل عديدة من بينها؛ وانكماش عمليات القرصنة. وتجارة الرقيق والاصلاحات العسكرية ونفوذ الشركات الاجنبية - الاوربية في معظم المدن التونسية. وقد أدى نفوذ الشركات الاوربية الى ارتفاع الاسعار، كذلك الحروب التي خاضتها الدولة التونسية ضد الدول المجاورة، وكذلك الانتفاضات المحلية.

وقد كانت هذه الحروب المتكررة مصدراً رئيساً في نمو الضرائب حجماً وعدداً وكانت تلك الضرائب تنقسم الى ضرائب دينية (= زكوات + عشور ... الخ)، وضرائب رسمية اخرى (= كمارك ومكوس وهدايا واتاوات... الخ) ومن بين الضرائب غير المجبية هي ضرائب عينية. كان يدفعها كل الاشخاص عدا الموظفين ورجال عام ١٨٦٤م. ومن اهم الضرائب الاخرى: ضريبة الماشية، وضريبة القانون والضيافة والدية.. وقد كانت هذه الضرائب المتنوعة المتعددة سبباً في نشوب الانتفاضات التي تأججت في المجتمع التونسي، واشتركت فيها فئات عديدة من السكان: الفلاحون الفقراء والتجار الصغار واصحاب الحرف والمهن.. وكانت السلطة متمكنة دوماً من القضاء على تلك الحركات والتمردات.

٢ / المدن التونسية والعلاقات التجارية (= المبادلات):-

كان للمدينة دور مهم في تاريخ المغرب العربي، وقد اهتم ابن خلدون بذلك وعبر عن ظاهرة تاريخية قائمة على اساس ثنائي من نظام المعاش: (الحضر) وهم سكان المدن واحوازها، و(البدو) وهم سكان الارياف والصحارى. وقد كانت وظائف المدينة تختزل بالآتي:

وظائف سياسية ـــــ قوى عسكرية ـــــ علاقات اقتصادية ـــــ وحدات اجتماعية

ومن ابرز المدن التونسية: القيروان / تونس / بنزرت/ الكاف/ صفاقس/ سوسه وغيرها. وكانت مدينة الكاف مدينة عسكرية في حين كانت تونس عاصمة سياسية... اما حلق الواد فميناء استراتيجي ، في حين تحلت عدة من المدن التونسية لانها تمتلك علاقات اقتصادية متطورة، وخاصة في المبادلات التجارية للحبوب والجلود والشموع والاصواف والخيول.. الخ وقد انتشرت في المدن التونسية كثير من المعامل وورشات بناء السفن والمطاحن ومعامل سك النقود.. وقد كان الباي يجني اموالاً ضخمة من حقوق الاحتكار، مثل: احتكار صيد المرجان والذي سلمه الى شركة فرنسية، كما سلم احتكار تجارة الاصواف الى شركة يهودية تدعى (لامبروزو) – واصلها عائلة كانت تستورد الاصواف من اسبانيا لصناعة الغزول التونسية –، وكان هناك عائلات حضرية تونسية تمارس التجارة من قديم، وتملك عدداً من المعامل والمعاصر (للزيوت) والمحازن.. وكانت هذه الفئة الارستقراطية تمتلك وظائف سياسية بارزة.

نوعان من التجارة تتميز بهما تونس، هما:

١- **التجارة الداخلية**: كانت ضعيفة جداً بسبب هيمنة الاقتصاد الطبيعي. وكان الفائض يدفع الى الدولة على شكل ضرائب .. فضلاً عن صعوبة الطرق ووسائل النقل، ناهيك عن ان المسالك البرية كانت غير مأمونة. اما المبادلات بين المدن الكبرى فشملت الحبوب والزيوت والخضر والفواكه.. أما حجم المبادلات بين القرى فكانت ضعيفة جداً اقتصرت على التمور والماشية ومنتوجات البدو الرحل... واغلبها مقايضة (Troc).

٢- **التجارة الخارجية**: كانت ذات قيمة بارزة، وقد سيطرت على جوانب كبيرة منها. الجاليات الاجنبية فرنسية وانكليزية على نحو خاص. كما وسيطر اليهود على تجارات خارجية سيطرة تامة، مما أدى الى عدم تكوين طبقة تجارية محلية نامية، واحياناً مع المشرق العربي وتركيا، اذ كانت الاسفار منظمة الى ليبيا ومنها الى مصر والشرق، أو الى تركيا عن طريق البحر المتوسط. كانت الواردات متمثلة بالماشية والملابس والعبيد.. أما الصادرات فكانت تتمثل بالاقمشة والزيوت والجلود وصناعات متعددة.

٣ / العلاقات الدولية والتطورات الداخلية:-

لقد تعرضت تونس الى صراع بين فرنسا وبريطانيا من اجل السيطرة عليها.. وكان صراعاً ضارياً يتاتى بدوافع استراتيجية واقتصادية بحتة. فهناك السوق التونسية الثرية، والحصول على الموارد الطبيعية، وفتح طرق للمواصلات، وتجهيز الموانئ والمراكز الاستراتيجية بالوسائل والمحطات.. فضلاً عن السيطرة السياسية على تونس البايات الذين قاموا ببعض الاصلاحات التي فسحت المجال امام التدخل المصرفي - الاوروبي.

كانت حاجة تونس كبيرة للتغييرات الجوهرية التي تتفق وروح العصر، وخاصة الجيش والدولة... وكان الباي احمد ١٨٣٧-١٨٥٥م، ثاني المصلحين التوانسة بعد حموده باشا، وكان من المعجبين بنابليون بونابرت وانجازاته... وقد صرف مبالغ كثيرة في تحديث الجيش واعادة تنظيمه وتدريبه على يد خبراء اوربيين (وكان هذا من ابرز المخاطر التي مورست في كثير من اقاليم الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر).. كما وصرفت اموال الخزينة من قبل وزير

الباي واسمه مصطفى الخازندار الذي بقي في السلطة على مدى اربعين سنة، ولازدياد النفقات، اضطرت الحكومة الى رفع الضرائب، وطلب القروض.

ازدادت المصروفات على مظاهر البذخ دون تطوير وسائل وقوى الانتاج في البلاد واستخدم الجيش كاداة لقمع الانتفاضات الشعبية، وعلى أية حال فان ما حدث من تغييرات في بنية الجيش لم تكن مثمرة أبدا، ولا سيما في مسألة التسلّح اذا اشترى الباي من الانكليز والفرنسيين اسلحة وذخائر فاسدة، مما زاد من استياء الشعب التونسي، وعبّر عن رفضه في غوليت وتونس وباجه، كما واضطلع المستشارون الاوربيون بدور خطير في التجسس والتنكيل بالاقتصاديات التونسية ، وجعل تونس تكابد مشكلات عدة مع البنوك الاوربية.

وعند اصدار الدولة العثمانية خطى شريف همايون في عام ١٨٥٦م اصدر الباي محمد باشا ١٨٥٥- ١٨٥٩ م «عهد الامان» الذي أوضح واعاد فيه الاساسيات التي طرحها العثمانيون في كل من خطى شريف كولخانة عام ١٨٣٩م، وخطى شريف همايون عام ١٨٥٦م، نادى «عهد الامان» بالمساواة امام القانون دون النظر الى التبعية الدينية ونادى بحرمة الممتلكات والاموال. وفي عام ١٨٥٨م، تأسس المجلس البلدي في مدينة تونس.

وفي عام ١٨٦١م، أعلن الباي محمد الصادق ١٨٥٩- ١٨٨٢م «الدستور التونسي» ونص على تأسيس مجلس اعلى أو هيئة استشارية عليا، فضلا عن انشاء مرافق خدمية كبرى كتصميم مشروع سكك الحديد والتلغراف، وبناء الموانئ والسفن، واعادة نظام الضرائب وتنظيم الجيش. وكان نصيب الانكليز كبيراً في الحصول على ا ازات خاصة. وفي ١٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٨٦٣م وقعت معاهدة انكليزية – تونسية لتنص على تلك الامتيازات بصيغة قانونية. وقد كان الفرنسيون قد حصلوا على امتيازات من نوع آخر طبقاً للمعاهدة الفرنسية – التونسية المبرمة عام ١٨٢٤م، كما استطاعت فرنسا ان تحصل عام ١٨٧١م على مرسوم اصدره الباي، كسب الرعايا الفرنسيون فيه على حقوق لهم في شراء الاراضي في تونس، ومن ثم منحت مثل هذه الامتيازات للرعايا الطليان والنمساويين والبروسيين..

لقد دخلت تونس حالة من الضعف الاقتصادي بتغلغل الرأسمال الاجنبي كما حدث في كل من تركيا ومصر... فوقع الحكام الثلاثة: سلطان تركيا وخديوي مصر وباي تونس في ازمات متشابهة سواء في التبعية وفرض الهيمنة الاوربية

عندما لجأ الثلاثة الى البنوك الاوربية للحصول على القروض بملايين الفرنكات، وساءت الاوضاع الاقتصادية والمالية بحلول الافلاس المالي بحكومة الباي عام ١٨٦٧م، أي قبل ثماني سنوات من افلاس تركيا العثمانية ومصر الخديوية.

٤ / خير الدين باشا التونسي وانجازاته:

يعد خير الدين باشا التونسي من ابرز الشخصيات التونسية في القرن التاسع عشر، وواحداً من الرجال الذين ارتبطت الحياة الاصلاحية بهم... انه مملوك جركسي كان احمد باي الحسيني حاكم تونس قد اشتراه، وتربى تربية خاصة، ولامكاناته تقلد عدة مناصب سياسية مهمة في تونس. وقد أوفد الى باريس عام ١٨٥٢م، فبقي فيها اربع سنوات، عاد الى تونس، فتولى الوزارة وقام باصلاحات جديدة ومهمة في الادارة والتعليم والصحة والاقتصاد... وساهم في ادخال المناهج والنظم الاوربية الحديثة الى الدولة التونسية، اذ كان عضوا في اللجنة التي وضعت واصدرت «عهد الامان» عام ١٨٥٧م في عهد الباي محمد الصادق... ثم تولى الوزارة الاولى أو رئاسة الوزراء عام ١٨٧٠م، فاتم اصلاحاته اذ انشأ أول محجر صحي في تونس العاصمة، واحدث ادارة جديدة للوقفيات والحبوس العامة... وقام بتوزيع اراضي الدولة على صغار الفلاحين، وأخذ يشجعهم كثيراً على زراعة الزيتون والنخيل، واعفاهم من الضرائب.. فضلاً عن اصلاحات اخرى..

لقد استفاد خير الدين من ثقافته المستنيرة في سياسته، وخاصة للفترة ١٨٧٣-١٨٧٧م واكمل باصلاحاته اصلاحات من سبقه من البايات. وخلال السنوات الاربع التي بقي فيها وزيرا أولا، وعلى رأس حكومة تونس ثانيا.. وعمل على تنفيذ برنامج اصلاحات كان قد اوضعها بكل جلاء في كتابه القيم المشهور: «أقوم المسالك في معرفة احوال الممالك» الذي نشره لأول مرة سنة ١٨٦٧م، وهي السنة التي عانت تونس خلالها من الافلاس.

تطرق خير الدين في كتابه الى اهمية التنظيمات العثمانية، ودحض المقولة السائدة بأنها مخالفة للشرع والاسلام.. كما وانتقد عملية الاقتراض من اوروبا. كان الرجل مؤمنا بالخلافة العثمانية، وان الاصلاح – عنده – لا بد ان يتم في اطار عثماني. وقدم برنامجاً اصلاحياً يؤكد: ضرورة الاقتباس عن الغرب، ولكنه

يحدد: مـاذا يقتبس؟ وكيف يقتبس ؟كما أكد على اصلاح نظام الحكم مؤكدا ان الشريعة الاسلامية صالحة كاملة رائعة وابدية. كما واقترح الغاء الحكم المطلق، فالظلم مؤذن بخراب العمران. كما وأنه كان ضد الدكتاتورية، وان مبدأ سلطة الخليفة لا جدال فيه، ولكن لابد من «المشورة» لاهل الحل والعقد (= البرلمان)، وان للوزراء والموظفين مسؤولية شريفة، والوزارة عنده يجب أن تكون وزارة تفويض لا تنفيذ.. وطالب ببناء مجتمع رأسمالي عصري اصيل يقوم على أساسيات مبدئية، هي: الحرية وحدودها، والحرية شرط لازدهار الاقتصاد...

هذا مختصر لتفكير خير الدين باشا التونسي الاصلاحي، والذي انطلق من اساره نتيجة الوضع المتأزم بتونس، وغايته السعي الى حل هذه الازمة في اطار الوطن أولا وفي اطار الخلافة العثمانية ثانياً.

ويمكننا ان نبرز انجازات خير الدين في تونس بالآتي:

١ - فتح الطرق وتعبيدها، وتوسيع خطوط المواصلات في البلاد التونسية كاملة.

٢ - تحديث برامج ونظم التعليم في جامع الزيتونة في العاصمة التونسية.

٣ - انشاء مكتبة كبيرة حديثة وعلى النمط الذي يميز المكتبات الكبرى في اوروبا.

٤ - العمل على حل مشكلة توطين العشائر، وتخفيض الضرائب المفروضة عليها، اضافة الى تقديم الحكومة: الخدمات اللازمة لها.

٥ - تشجيع زراعات معينة والغاء الضرائب على الاراضي الزراعية.

٦ - تأسيس نظام جديد للاوقاف والتجارة والضرائب والمالية.

٧ - تأسيس المدرسة الصادقية التي كانت على نمط مدارس الليسية (= الثانوية) الفرنسية *.

---

* راجع: خير الدين التونسي، اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك، تحليل وتحقيق. د. المنصف الشنوفي، ط ٢، تونس/ الجزائر، ١٩٨٦. وانظر ما كتبه كل من:

C.A. Micaud, L. C. Brown, Cl. moore, Tunisia: The Politics of modernization, New York, 1964.

ايضا: سليمان مصطفى زبيس، آثار الدولة الحسينية بالقطر التونسي، تونس، ١٩٥٥.

(٥) اصلاحيات نجد والحجاز واليمن:

١/ نجد والحجاز : المشاكل الاصلاحية

لم تحدث تغيرات اصلاحية واسعة في الحجاز وذلك للنفوذ العثماني ٠٠ الاسمي فيه، اذ كان الاقليم وتوابعه بيد اشراف مكة الذين كانوا منشغلين بالاوضاع التي استجدت في نجد على يد الوهابيين والمشكلات السياسية المحلية التي احدثها قيام الدولة السعودية وتوسعها على حساب اقاليم الجزيرة العربية. ودخول كل من الاشراف والسعوديين في صراع كانت بدايته منذ ان بدأ السعوديون يهددون بتوسع دولتهم، واعتبار الاشراف تلك الدولة ودعوتها الوهابية خروجا عن الاسلام وتعاليمه... فكان ان منع الشريف غالب دخول النجديين الى مكة للزيارة أو العمرة أو التجارة أو اداء فريضة الحج.. ثم أعد جيشاً من فصائل البدو الاشداء زحف به من عاصمته مكة الى الدرعية عاصمة الوهابيين/ السعوديين سنة ١٧٩٠م، وذلك بعد اربع سنوات من احراز الوهابيين النصر في نجد وتكوين الدولة السعودية الاقطاعية النجدية.. وفي عام ١٧٩١م، وبعد وفاة المؤسس الشيخ محمد بن عبد الوهاب امتلك السعوديون زمام الامور. وبدأوا يشنون غاراتهم السنوية على الفيافي والبطائح في كل من الحجاز واليمن..

وفي عام ١٧٩٦م، ارسل الشريف غالب قواته ضد الوهابيين، فاستمرت الحرب ثلاث سنوات، وكانت الغلبة للوهابيين دوماً مع احتفاظهم بتفوق معنوي وسياسي فضلاً عن التنظيم والانضباط والثقة.. ثم انضم اليهم حكام الطائف وعسير واخو الشريف نفسه اي حدوث انقسام في البنية الشرافية لمكة، فاضطر الشريف الى الاعتراف بـ«المذهبية الوهابية»، والى التنازل عن الاراضي التي استولى عليها الوهابيون.. والذين لم يكتفوا بذلك، بل كانوا يطمحون الى توحيد شبه الجزيرة العربية، فجددوا اذكاء الصراع ضد اشراف مكة بعد سنتين من الراحة...

وفي نيسان / ابريل ١٨٠٣م، استولوا على مكة، وسيطروا على ذخائرها وكنوزها وهدموا اضرحتها، واعدموا من وقف ضدهم وضد معتقدهم الوهابي.. فكان ان اشتعلت انتفاضة حجازية ضدهم، اضطرتهم الى التراجع عنها قليلاً، ولكنهم استولوا على «المدينة» سنة ١٨٠٤، وعادوا ليسيطروا على مكة ثانية عام ١٨٠٦م ونهبوها مجدداً*.

---

* انظر : د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، القاهرة، ١٩٦٩.

هكذا غدا الحجاز جزءاً من مملكتهم التي غدت تمتلك حدوداً بحرية في الشرق والغرب اذ تطل على الخليج العربي من الشرق. وتطل على البحر الأحمر من الغرب. وقد ضمت جميع التخوم تقريباً من شبه الجزيرة العربية. وهي: نجد وشمر وحائل والجوف والحجاز وعسير واليمن وتهامة وقسم من عمان والاحساء والكويت.. اضافة الى اجزاء كان لهم فيها اتباع كثيرون كحضرموت وعمان التي لم تدخلها قواتهم... وهناك المساحات الهائلة من صحاري الربع الخالي!

ولم يحرز الوهابيون نجاحات في العراق وسوريا كتلك التي أحرزوها في الجزيرة العربية واقاليمها.. وعلى الرغم من قوتهم في الغارات التي شنوها على العراق وسوريا... لكنهم كانوا يمتازون بالتنظيم والدقة والقوة والتماسك. واذا كانوا قد لقوا تأييداً في دواخل الجزيرة العربية من لدن القبائل ورؤسائها، فقد حدث العكس لهم في كل من بلاد الشام ووادي الرافدين. اذ كان سكان هذين الاقليمين ينظرون الى الوهابيين غرباء يحملون مذهباً غريباً متعذر التحقيق في مدن عريقة كانت تزدحم بالمؤسسات والأجهزة والسكان والنظم والعقائد والاديان والمذاهب.. فضلاً عن المشكلات التي كانت تعيشها مجتمعات تلك المدن والارهاصات التي حفلت بها نتيجة كثرة الامتيازات وفعالية الارساليات، كما أن البلدين (= سوريا والعراق) تتوزع فيهما اكثر من ست ولايات عثمانية كبيرة ومهمة كان لها وزن كبير في السياسة والادارة والعسكريات العثمانية. ويكتسب اقليم الحجاز اهمية بالغة في قيمة التغيرات التي جرت فيه.. وهكذا، فبعد فشل الشريف غالب في دحر الغزاة اقليمياً، طلب الامدادات العسكرية من العثمانيين بواسطة مصر للوقوف امام الامتدادات السعودية . وهكذا – كما رأينا – كيف كسرت قوة محمد علي باشا شوكة السعوديين بالقضاء على دولتهم الأولى.

لقد كان على العثمانيين ان يرسخوا حكمهم في الحجاز، ولكن نفوذهم بقي اسمياً، مما اضعف قيامهم باصلاحات واسعة فيه. فضلاً عن ان اصلاحاتهم وتنظيماتهم المدنية والعسكرية تتعارض جملة وتفصيلاً مع مصالح الاشراف الخاصة في مكة، فبقي التعليم دينياً برعاية المساجد ورجال الدين، كما ولم تدخل

فرص الحياة الجديدة والتنظيمات الاقتصادية .. وأسس نوري باشا والي الحجاز عام ١٨٨٣ أول مطبعة باسم «مطبعة الولاية» فكان من اولى ثمراتها: «التقويم العثماني السنوي لولاية الحجاز» (: حجاز ولايتي سالنانه سي). اضافة الى تبني المطبعة عام ١٨٨٤م. طبع الجريدة الرسمية «حجاز» كاول جريدة صدرت هناك*.

٢ / اليمن : السيطرة الثانية والمصالح الجديدة

أما اليمن فقد نجحت الدولة العثمانية ان تعيد اليها الحكم المباشر سنة ١٨٧٢م(أي بعد ثلاث سنوات من فتح قناة السويس عام ١٨٦٩) بعد فشل محاولات مريرة بدأت مع عام ١٨٤٩م. وبعد ان نجحت بالتعاون مع بريطانيا في القضاء على قوة محمد علي باشا وطرده من اليمن. وقد جاءت السيطرة العثمانية الثانية على اليمن ضمن محاولات الدولة تشديد قبضتها على الاراضي العربية التي بقيت في حوزتها. وقد اتخذ السلطان عبد الحميد الثاني مختلف السبل في بسط سيطرته على اليمن. فسخر وسائل عدة في اخضاع اليمنيين.

لقد قرر العثمانيون تطبيق برنامج عمل يقوم اساساً على تضييق السبل على الائمة الزيديين الذين كانت لهم صولات وجولات من الصراع المحتدم ضد العثمانيين خلال القرن السادس عشر وابان السيطرة العثمانية الأولى.. برفضهم الخضوع والاعتراف بالسيادة العثمانية على الرغم من اعتراف العثمانيين بزعامتهم المذهبية – الدينية . هكذا، حاول العثمانيون ان يحاصروا النفوذ الزيدي في مناطق ضيقة، بمحاربة مصالحهم ودعاتهم وأماكن عبادتهم.. وجعلهم ينعزلون عن رؤساء القبائل وعن ابناء المدن... كما حاولوا القضاء على مواردهم بتأميم عوائد الزكوات للائمة ، ولا سيما راتب شهري قدره ثلاثة الاف ريال يدفع للامام المتوكل الحسن بن احمد ١٨٥٥ – ١٨٧٨م ولاسرته.

طبّق العثمانيون قانون الولايات في ولاية اليمن، وقد قسموها الى اربعة الوية، هي ، صنعاء والحديدة وعسير وتعز. واتخذت مدينة صنعاء عاصمة للولاية، ولكن بقي النفوذ العثماني منحصراً في بيئات مفتوحة، في حين بقيت المناطق النائية والجبلية الصعبة في منأى عن الادارة العثمانية والجيش العثماني.

---

* د. السيد رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠–١٩٠٩، القاهرة، ١٩٧٠.

وكان قد تأسس ضمن التنظيمات العثمانية، الجيش الهمايوني السابع في اليمن متخذاً دائرته العسكرية السابعة في صنعاء. وقد عرفت ولاية اليمن ايضا نظام الجندرمة (= جنود الضابطية) من ابناء اليمن انفسهم، اذ أمر والي اليمن اسماعيل حقي باشا الذي حكم ولاية اليمن في سنة ١٨٧٨م. ادخال اليمنيين في تشكيلات الجندرمة كي يكونوا عوناً لسلطته العثمانية في حفظ الامن وفرض الاستقرار وحماية الموظفين ومحصلي الضرائب ومرافقة المبعوثين والاداريين. وكان للجندرمة اليمنية الدور المبرز في اخماد التناقضات، وفرض الامن في الولاية على امتداد الحكم العثماني الثاني للفترة ١٨٧٢– ١٩١٨.. كما وفرض تطبيق قانون الولايات العثماني سنة ١٨٦٤، وكان له أثاره في التقسيمات الادارية. ونظام الادارة المركزية – العثمانية*.

ويؤكد عدد من المؤرخين ان العثمانيين قد حرصوا على ادخال كثير من الاصلاحات الحديثة، ولكنهم كانوا يصطدمون دوما بالثورات والعناصر الرجعية التي تحركها الامامة مما جعلهم يستخدمون القسوة في احيان كثيرة. كما وكان ذلك يصرفهم عن متابعة الاصلاحات، وكان المصلحون يتهمون دوما بالمروق عن الدين... كما ان هناك من يؤكد ان العثمانيين لم يكونوا سببا في تأخر اليمنيين الذين كانوا متقوقعين على رواسبهم التاريخية.. وقد خلد التاريخ لبعض الولاة والموظفين العثمانيين في اليمن اعمالاً رصينة وعدلاً وحباً لليمن واهتماماً بشأنه من الأئمة، ولكن امثال أولئك الولاة والموظفين كانوا قلة على غرار من اتى من الولاة والموظفين المصلحين في بقية الولايات العربية الاخرى في المشرق العربي.

---

* د. فاروق عثمان اباظة، الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢– ١٩١٨، القاهرة، ١٩٧٥.

الفصل العاشر

١٠

الفصل العاشر

الاستعمار الاوروبي والمظاهر التاريخية الحديثة

(١) الاستعمار: الدوافع وتطور العمليات والآليات والسيطرة والنتائج

١/ المسألة الشرقية: القرن التاسع عشر

في بداية القرن التاسع عشر كان الشرق العربي مسرحاً لاحداث صنعتها خمس قوى رئيسية هي: الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا.. وكانت الدول الاوروبية تنتهج سياسات مختلفة ومتنوعة، متنافسه ومتناقضة ازاء ما عرف في النصف الثاني من القرن المذكور بـ«المسألة الشرقية» التي ولدت في حقيقة الامر اثر تضارب مصالح تلك الدول المؤثرة في اقتصاديات العالم. لا سيما عندما بدأ الاقتصاد العالمي يدخل في طور الرأسمالية الصناعية، وظهور الحاجة الى الاسواق الكبرى، والمواد الخام.

لقد كانت المواصفات البارزة للقرن التاسع عشر انه حقبة تكوين الثورة الصناعية، واكتسبت اوروبا الغربية سمة التصنيع السريع الذي ساعد كثيراً على انتشار الاستعمار الغربي في سائر انحاء العالم، في حين ان دولاً اخرى بدأت حركة التصنيع، ولكنها بقيت بطيئة كروسيا واليابان ومصر. ان النقص في المواد الضرورية دفع ببريطانيا الى اكتساب المستعمرات المتنوعة في القارات عبر البحار لتصريف منتجاتها الصناعية. فكان لابد أن تسعى لبسط نفوذها الاستعماري على الشرق العربي اولاً وقبل كل شيء؛ لحماية خطوط المواصلات البرية والبحرية

نحو الشرق الاقصى عبر المحيط الهندي والهند وايران.. فكان اسطولها البحري يعادل في قوته وامكاناته جميع الاساطيل الاخرى المنافسة. وكانت بريطانيا تحرص حرصاً شديداً على ان لا يكون لدول اخرى كفرنسا وروسيا، اي نفوذ على طرق مواصلاتها الى الهند والشرق الاقصى *. ولكن؟

كان التنافس الاستعماري على اشده بنحو خاص بين الدولتين: فرنسا وبريطانيا، مما قاد الى اقتسام النفوذ السياسي والاقتصادي في ارجاء الامبراطورية العثمانية.

٢ / الاستعمار: المصطلح والمضمون

لقد استخدم مصطلح «الاستعمار» كثيراً، وفي معظم الادبيات السياسية والثقافية والتعليمية– التربوية. كما وغدا مصطلحاً يسود الاعراف الاجتماعية من الناحية السياسية قبل عقود من الزمن، ومن الناحية التاريخية في ايامنا هذه بعد انتصار حركات التحرر ونيل معظم المستعمرات استقلالاتها الوطنية. ان مصطلح «الاستعمار» له مدلول واحد: ولكن مضامينه واتجاهاته وأساليبه مختلفة ومتنوعة من الناحية التطبيقية، وان مضمون الاستعمار، او المعنى الضمني للمصطلح هو. معاكس لمعناه اللغوي او مبناه اللفظي.

انبثق مصطلح «الاستعمار» لغوياً من الفعل «عمّر الشيء» او تقويم الشيء واعماره وتجديده، في حين ان معناه الضمني يخالف ذلك، فممارسات الاستعمار منذ وجوده حتى آخر حلقاته الزمنية.. تؤكد أنه كان– في الاقل– في منظور المجتمعات المستعمرة مجلبة للتجزئة والتخلف والصراع الاقليمي والتأخر واستغلال الموارد والمواد الخام، ونهب الارض، وتسويق البضائع والمواد المصنعة.

---

* من ابرز المصادر المعتمدة في هذا الموضوع،

J. A. R Marriott, the Eastern Question: A historical Study in European diplomacy (Oxford at the Clarendon press, 1958), see also, Stanford J. and Ezel Kural Shaw History of the Ottoman Empire and Modern Turkey (vol. 2;Reform, Revolution, and Republic: The Rise of Modern Turkey 1808- 1975), Cambridge Univ. Press, 1978.

ومن الناحية التاريخية، يختلف هذا المصطلح في تطور الياته وعملياته بين القديم والجديد، اي بين الكولينيالية والامبريالية. ضمن هذين الاتجاهين هناك تصانيف غير منظورة في طبيعة السيطرة المباشرة او غير المباشرة.. فهناك استعمار استيطاني، وهناك حملات عسكرية، وهناك استعمار ابادة، وهناك سيطرة بحرية.. الخ. اما بالنسبة للاستعمار الجديد فتصانيفه قد تكون منظورة او غير منظورة كالتي تبرزها امامنا صيغ المعاهدات والانتدابات والاحلاف والتجسس والاتفاقيات والمساعدات الاقتصادية.

وعليه، فيمكننا القول بأن الاستعمار القديم يرتبط بالحملات والقوة العسكرية، في حين يرتبط الاستعمار الجديد بفعاليات القوى السياسية والاقتصادية، ان « الاستعمار» هو مصطلح تاريخي ايضاً.. اي ان ظاهرته وبنيته معاً لهما عمر معين من السنين، فاذا كانت الاستكشافات الجغرافية بداية لحياة الاستعمار القديم الذي لم تزل اثاره وبقاياه سارية المفعول حتى يومنا هذا، فان الثورة الفرنسية كانت هي البداية الحقيقية لحياة الاستعمار الجديد الذي لم تزل آثاره وخرائطه وحدوده الجغرافية وبقايا معاهداته واحلافه يعيشها عالمنا المعاصر حتى الان. وقد وجدت على مدى التاريخ الحديث كثير من الدول الاستعمارية على مدى اربعة قرون، فصنعت بذلك تاريخاً استعمارياً طويلاً قبل ولادة الامبريالية في فترة ما بين الحربين العظميين.

و يمكننا ان نقول بأن نهاية القرن التاسع عشر، وبالتحديد العهد الفيكتوري يعد العهد الذي وصلت فيه الممتلكات الاستعمارية اقصى مداها وبخاصة بريطانيا.. كما وصلت خطورة الاستعمار الى اقصى مداها، واستثمر ذلك كله حتى نشوب الحرب العالمية الاولى.

ويجب ان ندرك أنّ الاستعمار هو تجربة تاريخية متراكمة من العلاقات غير المتكافئة من جميع النواحي. وبرغم تنوعها كتجربة او ظاهرة.فانها في اصنافها قد استفادت من اجزائها المركبة فيما حفلت به من استغلال للموارد، او تقسيم للمناطق، فنجد- مثلاً- ان ثمة تكافؤاً في تقسيم اية منطقة في العالم بين القوى الاستعمارية الكبرى على حساب الشعوب سواء في جنوبي آسيا ام شمال افريقيا ام جنوبي غربي آسيا او غيرها.

لقد تطوّرت كثيراً اليات النفوذ الاستعماري الجديد بنمو عملياته وتوسع دوافعه، ولا سيما بعد تطور الثورة الصناعية وانتشارها من انكلترا نحو بلدان اوروبية اخرى. اي بمعنى ؛ بروز معطيات ونتائج جديدة في الدول الغربية المصنعة، منها:

١- الحاجة الى المواد الخام لاستغلالها في التصنيع الكثيف والمتنوع.

٢- الحاجة الى المواد الغذائية لا زدياد الطلب عليها لزيادة السكان على نحو كبير.

٣- الحاجة الى اسواق دولية واقليمية جديدة لتصريف المواد المصنعة والفائضة عن حاجة المجتمعات الغربية.

٤- الحاجة الى استثمار رؤوس الاموال المتراكمة عند اصحاب المصانع والشركات والمصاريف في مشاريع استراتيجية تدّر عليهم ارباحاً مذهلة خارج بلدانهم الاوروبية.

٥- الحاجة الى الايدي العاملة في حركات التصنيع، وما تتطلبه من بناء للانفاق الضخمة، والمواصلات الطويلة، والجسور المصانع.. الخ

٦- الحاجة الى طرق مواصلات وخطوط ومحطات نقل تحفل بها بعض البلدان التي تتمتع بمواقع استراتيجية تطّل على بحار وانهار.. الخ.

عوامل ومسببات اخرى :-

كل ذلك- فضلا عن عوامل معقدة اخرى- ساهمت في بلورة الحاجات الى التوسع والاستغلال والسيطرة.. وغدت اساليبها بمثابة رسالة حضارية مقدسة بالنسبة لحامليها من الاستعماريين الذين عبّروا عن غاياتهم بكل الوسائل والسبل.. وقد اصبحت الحياة (العظمى) في القرن التاسع عشر متمثلة لدى كل دولة لا يمكنها العيش دون مستعمرات، او انها الدول التي تمتلك مستعمرات عدة. كما ولا ننسى أنّ التعبئة السياسية لرجالات الاستعمار لم تأت من لا شيء، فقد كانت هناك ارصدة من المرجعيات، منها؛ دينية تبشيرية، او جغرافية استكشافية، او اقتصادية مالية.. الخ كما كان للمختصين والعلماء والمستشرقين والصحافة

الاوروبية اثر كبير ودور فعال في تنامي نزعة الاستعمار.. فضلاً عن استغلال المواثيق والمشكلات السياسية في دول اخرى.. او أن يأتي التدخل باسم حماية المبشرين والمؤسسات التبشيرية.

ويمكننا ان نحدد باختصار ابرز مظاهر النزعة الاستعمارية فيما يأتي:

١- نمو ظاهرة «الكارتلات» و «الترتستات»، اي الاتحادات الرأسمالية الاحتكارية التي خلقت وازع الاحتكار اثر بلوغ الانتاجية مراحل متقدمة جداً.

٢- لم تقتصر الاحتكارات على رؤوس الاموال فحسب، بل وصلت الى مصادر المواد الاولية والاساسية من قوة رؤوس الاموال الكبرى، وخاصة المواد اللازمة لصناعتي الحديد والفحم.

٣- امتلاك رصيد الذهب المقوم الاساسي الذي يدعم الاستعمار. والاستحواذ على ذلك من قبل الشركات الرأسمالية الكبرى.

٤- تحول المصارف من مؤسسات وسيطة الى مؤسسات احتكارية للرأسمالية ليس في بلد واحد؛ بل تنتشر فروعها في اماكن عدة من العالم.

٥- تصدير رؤوس الاموال الى الخارج للاستحواذ، والسيطرة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً. وتكبيل ارادة الشعوب الضعيفة المقهورة.

وقد أدت كل هذه المظاهر الى:

١- الاستحواذ على بلاد معينة، والهيمنة عليها؛ ثم التوسع من خلالها على حساب بيئات واراض ،بلاد اخرى مجاورة.

٢- ايجاد سبل ووظائف واساليب للتعامل مع ابناء المنطقة المستعمرة على اسس غير متكافئة ابداً.

٣- ولادة واستفحال تنافس عميق بين الدول الاستعمارية نفسها بغرض الحصول على اكبر قدر من المستعمرات.. والوصول الى تسويات تقوم على اساس تقسيم مناطق النفوذ العالمي.

٤- سوء الاساليب المستخدمة في السيطرة الاستعمارية قاد الى الرفض والتحدي والثورة، والتعبير السياسي ضمن واجهات واشكال متعددة.

٥- التغلغل داخل الامبراطوريات القديمة بغرض اضعاف مؤسساتها واجهزتها وعناصرها، ثم تفكيك اوصالها والتضييق على انفاسها.

٦- الاتفاقيات المبرمة بين الدول الاستعمارية على توزيع تلك«الاجزاء» أو «الاوصال» فيما بينها، وهذا ما حدث في اماكن عدة من العالم.

٧- خلقت مشكلات وازمات اقليمية مزمنة بين الشعوب سواء على الحدود ام المدن ام الحياة ام الاقاليم او التوطن ام التجاوز.. الخ وفي اماكن عدة من العالم.

٣/ تطور العمليات والاليات:-

من خلال «المقدمة» السابقة، يمكننا فهم: لماذا استعمرت اوروبا اجزاء كبرى من الوطن العربي؟ وكيف عملت على تقويض الدولة العثمانية التي كانت تعيش خريف حياتها التاريخية الطويلة، حتى اسماها الاوروبيون بـ«الرجل المريض»!؟

لقد تعرضت الدولة العثمانية الي محاولات استعمارية اوروبية عدة للتدخل في شؤونها الداخلية، والتغلغل في سياستها الخارجية، وادارة اقاليمها وولاياتها العديدة، ومن خلال وسائل مختلفة، لا سيما وان اوروبا كانت قد استفادت من قانون «الامتيازات الاجنبية» التي منحها العثمانيون لدول اوروبا التي إتخذت من الاقليات الدينية سبباً ظاهرياً للتدخل في الاراضي العربية، والعمل تحت واجهة ذلك الستار ضمن حقول مختلفة، وتحقيق نوايا متعددة. واذا كانوا قد استفادوا من قانون «الامتيازات الاجنبية» في كل من ولايات العراق وبلاد الشام بشكل اساسي، وخاصة دولة فرنسا.. فقد تفوقت القوى الاستعمارية ووصلت الى اوج تفوقها خلال العهد الفيكتوري في المياه الاقليمية- العربية ولا سيما «الخليج العربي» وضمن حجج ملاحية، شغلت اهدافه اقتصاديات المنطقة على نحو اساس، فانتشرت وكالات المستعمر وشركاته وبحريته وآلياته حتى.نفذت الى العراق في كل من نهري دجلة والفرات.

اما مصر فكانت حلقة استراتيجية بين آسيا وافريقيا، ونقطة عبور للاوروبيين، فلا غرابة ان تتعرض اراضيها كاملة لهيمنة فرنسية مباغتة على يد نابليون بونابرت، وعلى الرغم من فشل التجربة تلك فانها كانت الانطلاقة الاولى للاهتمام والصراع والتنافس الدوليين بين فرنسا وبريطانيا للاستحواذ على قناة السويس التي سيشغل تاريخها طوال القرن التاسع عشر في مصر. وإذا كانت أسبابها قد تعاقدت عليها فرنسا، فقد نفذتها القوى العمالية من المزارعين المصريين الاقوياء، في حين ستكون نتائجها وأثمارها في سلّة بريطانية التي استحوذت على مصر من خلال قناة السويس المّمر الدولي المهم الذي لم يزل موقعاً استراتيجياً سهماً في حياة العالم المعاصر. اما موضع مصر افريقياً فقد عدّ قاعدة انطلاق اوروبية نحو اعماق افريقيا باتجاه اعالي نهر النيل إذ يشكل كل من جنوبي السودان واوغندة واثيوبيا عمقاً استراتيجياً لمصر، وخصوصاً اثيوبيا التي ينبع ٨٥٪ من مياه النيل منها، تلك المياه التي يشكلها نهر النيل الازرق. اما النيل الابيض فمصدره بحيرات فيكتوريا في بلاد اوغنده.. ويجري رفقة النيل الازرق عبر الاراضي السودانية، فيلتقيان ويشكلان وادي النيل.

أما بلدان المغرب العربي فقد تعرّضت هي الى تجارب الاستعمار الفرنسي بصورة خاصة وذلك لموقعها الجغرافي المقابل لفرنسا بالذات، والتي شكلت بهيمنتها على الجزائر عمقا استعمارياً لفرنسا في افريقيا الاستوائية. كما وكان احتلال الجزائر مصدر احتلالات استعمارية عديدة ليس بالنسبة لبلاد المغرب العربي، بل بالنسبة لاجزاء واسعة، بل عموم افريقيا!

٤/ الوسائل والادوات:—

لقد كانت الوسائل والادوات متعددة ومتنوعة في فرض الهيمنة الاستعمارية، منها. تغلغل رؤوس الاموال الاوربية في الولايات العربية، وانتشار البضائع الأوربية في اسواق الوطن العربي مؤثراً كل ذلك على الصناعات الحرفية والمحلية، لا سيما وان الضعف الاقتصادي الذي كانت عليه الدولة العثمانية قد أثر كثيراً في جميع البنى الادارية الفوقية والبنى الاجتماعية التحتية.. مما سهّل امر التوسع الاستعماري. خاصة وان الدول الأوربية الاستعمارية كانت قد تقدمت عسكرياً بفعل التطور الصناعي في الآليات والاسلحة والسفن البحرية.

واتبعت الدول الاستعمارية سياسات متماثلة وتوحدت جهود المستعمرين خلال القرنين: التاسع عشر والعشرين في خطين: الخط الاول تمثل بتطويق الدولة العثمانية والضغط عليها من البر ومن السواحل والبحر.. وانتزاع ما يمكن انتزاعه. وتمثل الخط الثاني بتعزيز السيطرة الاستعمارية في الاجزاء التي تمكنت من اختراقها بسبل مختلفة: عسكرية كالجزائر- مثلاً- او دينية كبلاد الشام- مثلاً-، او اقتصادية/ تجارية كعدن والخليج العربي.. الخ

« ولكن/ اين كان الوطن العربي عصر ذاك؟»

عندما خرجت اوروبا في نهاية القرن الثامن عشر على العالم بمبادئ الفكر الحرّ والانماط القومية كالذي شهدته بعد اندلاع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩. بدأت الدول القومية الاوروبية بالتحرك للاستحواذ على اجزاء كبرى من العالم، أي تكريس فاضح للظاهرة الاستعمارية الكولونيالية سابقاً والامبريالية لاحقا..

كان الوطن العربي عصر ذاك ينوء تحت وطأة رواسب تاريخية واجتماعية معقدة، شغلت طيات الذهنية العربية - الاسلامية مراحل طويلة من التاريخ ولما تزل كذلك متمثلة بادارة عثمانية، وأطر متعددة، وبيروقراطيات مهيمنة محلية واقليمية، وسلطويات عسكرية فظة، واقطاعيات قاسية، وزعامات فردية متنفذة، واحزاب عرقية وتجمعات عصبية.. ولهجويات مختلطة، وعادات سقيمة، واعراف مريضة.. الخ جميعها تدافع يوماً بعد آخر عن الاوضاع السائدة، وعن حدودها الجغرافية الاقليمية، وعن مصالحها الاقتصادية المتوارثة، وعن الاطار السياسي الضعيف.

لقد استطاعت كل من بريطانيا وفرنسا ان تتقاسما الدور الاستعماري في الوطن العربي، وكرّس ذلك الانقسام مؤتمر برلين الاستعماري عام ١٨٧٨م. ففي حين اتجهت انظار بريطانيا للسيطرة على المشرق العربي اضافة الى مصر والسودان، تركزت اطماع فرنسا على المغرب العربي، واجزاء كبرى من افريقيا. ولم يقتصر الامر على هاتين القوتين الاستعماريتين، بل دخلت ايطاليا الميدان لتحقيق أطماعها القديمة باستعمار ارض سيرانايكا (= ليبيا) وارتيريا وجزء من الصومال.. وفي الوقت الذي أخذ العرب يعدون أنفاس الدولة العثمانية، كانت الحركة الصهيونية قد تبلورت، وهي توجه ثقلها لاستعمار ارض فلسطين التي

استطاعت ان تصبح لقمة سائغة لتلك الحركة العنصرية من خلال النفوذ البريطاني بين الحربين العظميين، وبعد الحرب العالمية الثانية مباشرة.. ولم يزل العرب يعانون الاحتلال والكيان الصهيوني الذي زرع في فلسطين *.

(٢) الاستعمار الأوروبي للوطن العربي

أ – التغلغل الفرنسي في الوطن العربي

١/ الجزائر:

الدوافع والمسببات:

كانت الجزائر وهي احدى الايالات الكبيرة في هيكل الامبراطورية العثمانية، وواحدة من اغنى ممتلكاتها.. وقد أخذت تعاني من تدهورات خطيرة في نهاية القرن الثامن عشر، إذ انخفض مستوى التطور الاقتصادي فيها بفعل أسباب جوهرية، منها:–

---

* من اجل التوسع والاستزادة والمقارنة في العوامل التاريخية للاستعمار الأوروبي ونطور عملياته وآلياته، احيل القارئ الى المراجع التالية:

- Samir Amin, Le Developpement Inegal: Essai surles formations sociales du capitalisme peripheriques, Paris, 1973.
- Philip D. Curtin (ed), Imperialism: The Documentary History of Western Civilization, New York, 1972.
- Agnes murphy, The Ideology of French Imperialism, 1817- 1881, Washington, 1948.
- Alan Sandison, The Wheel of Empire: A Stundy of the Imperial Idea in Some Late Nineteenth and Early Twentieth Century Fiction, New York, 1967.
- Anwar Abdel Malek, ' Orientalism in Crisis," Diogenes No. 44, Winter 1963.

د. جمال حمدان، الاستعمار والتحرير في العالم العربي، القاهرة ١٩٦٤.

د. انور عبد الملك، تغيير العالم، (سلسلة عالم المعرفة ٩٥)، الكويت، ١٩٨٥.

– ادوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الانشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، ط٢، بيروت، ١٩٨٤.

- د. جلال احمد امين، المشرق العربي والغرب: بحث في دور المؤتمرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية، بيروت، ١٩٧٩.

وانظر ما كتبه نبيل عبد الحي رضوان، الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس، جدة، ١٩٨٣.

١- منافسة المنتجات الاوروبية كادت تنتهي، ولم تعتمد السياسة العثمانية مبدأ «الحماية» على غرار ما فعلته الدول الاخرى. فقد ترك الاتراك المنتوجات الأروبية المصنعة تدخل الى داخل ولاياتهم ويفرضون فقط رسوماً عليها، وبذلك فهم يقضون على المجهودات المحلية والحرفيات.

٢- لا يكتفي الباي او الداي بالضرائب على الزراعة والتجارة.. بل يستوليان على القطاعات المنتجة في ايالته او في اقليم «البايلك»، كي تغدو له مصادر جديدة للايرادات كالمطاحن وصناعة السفن. وهكذا، سيضيق المجال امام الاستثمارات المنتجة رفقة النير الذي مارسه الاقطاعيون الاتراك.

٣- بقيت الاطر القبلية ذات الاقتصاديات المبسطة المعتمدة على الحرفية والزراعية.. ونتج عن ذلك عرقلة للصناعات التحويلية- اليدوية، مما انتج ضيقاً في السوق الوطني.

هكذا، خلقت تلك الاسباب الظروف التي توقف فيها النمو الحرفي، وازدادت خلالها منافسة المنتجات الاوروبية التي جعلت الحياة الاقتصادية تصاب بالركود. ووصل التناقض الداخلي لنمط الانتاج الآسيوي الى نقطة حرجة دفعت الى المضي في سياق السيطرة التي مارستها الرأسمالية التجارية والصناعية التحويلية الاوروبية عشية الغزو الفرنسي عام ١٨٣٠م، إذ كانت الجزائر أول فريسة للتوسع الاستعماري في المغرب العربي.. وان الاحتلال الفرنسي للجزائر هو حدث استعماري خطير يأتي في مقدمة الاحداث على ارض عربية ويولد في مرحلة التطور الرأسمالي التي سبقت ظهور الاحتكارات!

كانت الدوافع والاسباب الحقيقية لمشروع الغزو الفرنسي للجزائر قد نضجت على مهل منذ وقت طويل قبل حادث «ضربة المروحة» الشهيرة الذي اتخذ سبباً مباشراً واهياً لحدث تاريخي خطير دامت آثاره (١٣٢) سنة. وكان الساسة الفرنسيون يعدون الجزائر السوق الخارجية لتطور الصناعة الفرنسية.. في حين كان نابليون بونابرت يضيف دوماً الجزائر الى ممتلكاته المقبلة عندما تثار مسألة تجزئة الامبراطورية العثمانية. ولم يحقق نابليون حلمه، ولكن فرنسا استفادت كثيرا من خططه ومسوحاته.

وكان من ضمن الذرائع الاخرى، ما كانت تمارسه الجزائر من مقاومة في البحر وسجنها للاسرى فضلاً عن قضية الحسابات النقدية المضطربة لحكومة الداي الجزائري. وهي قضية وهمية اذ كان الداي قد زوّد فرنسا بشتى أنواع الاغذية ايام حصارها، وابان حملتيها الايطالية والمصرية دون ان يتقاضى عنها الداي شيئاً، ولم يرض باتفاقية تسديد الديون بوساطة شركة بكري – وبوشناق اليهوديتين الجزائريتين، فخسرت الخزينة الجزائرية الملايين من الفرنكات الفرنسية، وقد استغرق النزاع بين الطرفين على الديون طويلاً.. فضلاً عن استفزازات فرنسية من نوع آخر، لكي تتفاقم الخلافات كثيراً على يد القنصل الفرنسي في الجزائر (بيير دوفال) الذي دبّر العديد من المكائد واثار الخلافات، وابتز الاموال من الداي. وفي يوم ٢٩ نيسان/ ابريل ١٨٢٧م، اهان دوفال في اثناء مهاتراته، الداي اهانة شديدة، فما كان من الداي الذي تحمله كثيراً الا ان يضربه بالمروحة التي كانت بيده على رأسه!

كأن فرنسا كانت تنتظر مثل هذا الحدث منذ زمن بعيد، اذ اتخذته سبباً لقطع العلاقات، وعدت ذلك اهانة لشرف فرنسا، فضربت حصاراً بحرياً على الساحل الجزائري، وحاولت إثارة محمد علي باشا والي مصر للهجوم على الجزائر، فوافق سنة ١٨٢٩م، ثم عاد فرجع عن كلامه، اذ كان من ابرز حلفاء فرنسا في الشرق. لقد رفض الامر ليس بسبب عثمانية الجزائر، وعروبتها، ولكن بسبب قلة التعويض المالي !!

وقررت فرنسا على عهد حكومة بولينياك – الملك شارل العاشر ان تغزو الجزائر لوحدها، ففي ١٤ حزيران/ يونيو ١٨٣٠م، احتل الجيش الفرنسي الذي قدّر بـ(٣٧) الف مقاتل، منطقة سيدي فرج الساحلية الواقعة على بعد (٢٢) كم غربي العاصمة. وكان يقوده الجنرال دي بورمون... وبدأت المقاومة الجزائرية منذ اللحظة الأولى شديدة العزم والارادة، ولكنها ضعيفة التسلح والتنظيم، ففي حين فقد الفرنسيون في معارك الهجوم (٤٠٠) مقاتل، فقد الاتراك حوالي (١٠) آلاف مقاتل. وفي يوم ٤ تموز/ يوليو ١٨٣٠م سقطت قلعة القصبة، وفيها قصر الداي، وفي مساء ذلك اليوم وقع الداي حسين على وثيقة الاستسلام دون قيد أو شرط،

ومن ابرز بنود تلك الوثيقة :-

١- تسلم قلاع المدينة كافة وابوابها للفرنسيين.

٢- يتعهد القائد الفرنسي العام ان يترك الاموال الخاصة بالداي حسين.

٣- للداي مطلق الحرية في الرحيل مع اسرته التركية وامواله الخاصة الى أية جهة يختارها. وفي حالة بقائه في الجزائر سيكون تحت حماية القائد الفرنسي العام.

٤- يمنح القائد الفرنسي العام الحماية للقادة الجزائريين كافة.

٥- حرية ممارسة الطقوس الدينية للجزائريين وحماية اموال الاهالي، ومزاولة التجارة والصناعة، وحفظ اعراضهم وحرمة نسائهم *.

خضوع الجزائر:-

دخل الفرنسيون مدينة الجزائر في يوم ٥ تموز/ يوليو ١٨٣٠م. وكان الداي قد وضع مع اهله وحاشيته وانكشاريته في احدى السفن، فرحلوا عن البلاد، فعاث الفرنسيون في ارض الجزائر فساداً، ونهبوا خزينة الداي، وكانت تحتوي على (٤٨) مليون فرنك، ثم بدأوا يستولون على املاك الدولة واراضي الحبوس (= الاوقاف) وعلى الدوائر والقصور والاموال والذخائر والمؤن.. ونتيجة للاضطرابات في باريس انهار عرش شارل العاشر.

وتولى الحكم لويس فيليب ملكاً على فرنسا، اذ ابقى الحرب متواصلة ضد الجزائريين، وفي سنة ١٨٣٤م، اعلن ضم الجزائر رسمياً الى فرنسا، وبدأ بتنظيم الادارة المدنية فيها، وبرئاسة الحاكم العام. وكانت فرنسا تمتلك فقط المدن الساحلية، وهي الجزائر وعنابة ووهران ومستغانم وارزيو وبجاية.. ولم يستطع الفرنسيون اخضاع بقية قسمات البلاد الا بعد (٤٠) عاماً خاض الجزائريون ضد الفرنسيين حروبا ضروساً.. ومذ غزت فرنسا ارض الجزائر توحدت فصائل

* التفاصيل في : ارجمند كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٢٧-١٨٤٧، ترجمة : د. عبد الجليل التميمي ، ط٢، تونس ، ١٩٧٤.

القبائل ضد فرنسا، واتبعت سلطات الاحتلال سياسة الارض المحروقة والمصادرة والنهب.. فكان ذلك كله مدعاة لتوحيد الجزائريين ضد المعتدين. هكذا، قاد المقاومة المسلحة في غربي الجزائر الامير عبد القادر الجزائري، اما في الشرق فقد قادها حاكم بايلك قسنطينة الباي احمد.

– الامير عبد القادر الجزائري ونضالاته:–

ولد سنة ١٨٠٨م في عائلة محي الدين المرابطية بغربي الجزائر. وكان قد حصّل على ثقافة دينية قبل الغزو الفرنسي للجزائر، كما وكان قد حجّ الى مكة، وتنقل في بلدان المشرق العربي، اذ زار بغداد والقاهرة في عهدي كل من داود باشا ومحمد علي باشا.. فتركا لديه انطباعات شتى. واتسم برجولته وجرأته وفروسيته وقيادته.. كما وكان خطيباً مفوهاً وكاتباً مجيداً. وانطلق في عام ١٨٣٢م بعد ان اختير لقيادة القبائل ضدّ المحتلين الفرنسيين... وكانت الجزائر تعيش انقسامات اجتماعية وخلافات سياسية متوارثة، فاستطاع ان ينجز كثيراً من المهام في غربي الجزائر، متخذاً من «معسكر» Mascra وهي مدينة صغيرة قاعدة للتحركات التي اشتركت فيها القبائل الغربية، فاستطاع ان ينزل ضربات موجعة بالفرنسيين مستخدمين اساليب حرب العصابات (= الانصار).

وبعد ان تكبدت فرنسا كثيراً من الهزائم والاخفاقات الكبيرة، وافقت على مفاوضة الامير عبد القادر، فعقدت معه في شهر شباط/ فبراير ١٨٣٤م معاهدة اسمها دي ميشيل اعترفت فرنسا فيها بدولة عربية له، وتقوم برئاسته، وهي دولة ذات سيادة، وتمتد في غربي الجزائر ما خلا بعض المدن الساحلية. ولقد رضي بذلك، لأنه أحسّ بحاجته الى فترة سلم يعيد خلالها بناء قواته، وينظم عملياته وخططه لخوض معركة أو حرب اخرى ضد المحتل.

وعلى الرغم من تلقبه بـ«أمير المؤمنين» فأنه مارس حياة بسيطة لا كلفة أو اصطناع فيها، وبقي وفياً لمبادئه وتقاليد القبيلة: يسكن في خيمة، ومن ممتلكاته ارض صغيرة يحرثها ويزرعها، وقطيع من الخراف والنعاج ليأكل ويلبس منها... ومكتبة احتوت على أجود الكتب لكي يقرأ ويعرف معنى الحياة. هكذا، عاش الامير عبد القادر برغم الايرادات الوفيرة التي كانت تصل خزينته من عموم القبائل والمدن في الجزائر.

كانت دولته العربية – الجزائرية، دولة عسكرية قوامها قوات نظامية من الجيش وغير نظامية من المتطوعين الذين بلغ عددهم (٧٠) ألف متطوع، في حين كان قوام جيشه المنظم (١٠) آلاف جندي. وكان ينقسم الى وحدات يقودها الاغا والوحدات الى كتائب يقودها السياق، والكتائب الى فصائل ويقودها رئيس الصف، مع امتلاكه لعدد من المدافع، واستطاع الامير عبد القادر ان يوثق علاقاته مع مراكش وتونس عبر الصحراء الكبرى، لاغراض المساعدات وعلى الاخص: العسكرية والتدريبية منها. وكان الجيش يتوزع في ثكنات وحصون، ويستخدم للاغراض الصناعية والعملية.

اما من الناحية الاقتصادية، ولا سيما، الانفاقات فقد كان الامير عبد القادر الى جانب موارده الخاصة يستحصل الضرائب التقليدية والضرائب الاستثنائية، فضلا عن اعانات سلطان مراكش ومداخيل اراضي المخزن والاراضي الاميرية وغنائم المعارك، وارباح المنتوجات الصناعية والزراعية.. الخ وكان نظامه يقوم اساسا على الحد من تعسف الاقطاعيين، اذ قام باصلاحات ادارية. واستطاع ان يقسم بلاده الى تسع مناطق يترأسها «خلفاؤه» وهم ولاته أو نوابه ويخضعون لسلطته المركزية، وشهدت تلك المناطق من بلاده حالة أمنية جيدة اذ فرض الحماية وأمن المسالك التجارية، وقضى على قطاع الطرق واللصوص.

لم تمض سنة واحدة الا وغدر الفرنسيون بالمعاهدة، وشنوا حرباً عنيفة على الامير عبد القادر أثبت فيها بأسه وجدارته.. وما لبث الطرفان ان وقعا على معاهدة جديدة اخرى بعد سنتين من القتال الصعب، وذلك في ٣٠ أيار/ مايس ١٨٣٧م قرب نهر التافنا اقصى غربي الجزائر، واعترف الفرنسيون بسلطة الأمير على الاراضي في غرب ووسط الجزائر ايضا. لكي يتسنى لهم الهجوم القوي والثقيل على مدينة قسنطينة في شرقي الجزائر، حيث تكمن هناك قوة نضالية اخرى ضد المحتل الغاصب.

حرب جديدة:-

حاول الفرنسيون السيطرة على قسنطينة خلال الاشهر الاولى من عام ١٨٣٦م، الا انهم تكبدوا خسائر فادحة، فكان ان عقدوا الصلح في العام ١٨٣٧م

مع الامير عبد القادر.. فقاموا بارسال قوات كبرى الى شرقي الجزائر، واستطاعوا اقتحام قسنطينة في شهر تشرين الأول / اكتوبر ١٨٣٧م، وهي قلعة حصينة تقع فوق صخرة هائلة شاهقة، وكان السكان العرب قد أبدوا مقاومة عنيفة، ودارت حرب شوارع وزوايا وأزقة، وتقهقر الباي احمد في نهاية المطاف لكي ينسحب من المدينة الى قلب الجبال النائية بعد ان قاوم المحتل الفرنسي قرابة سبع سنوات عجاف.

لقد مارس الفرنسيون في المدينة المغلوبة المقهورة شتى صنوف النهب والقتل والتدمير وباساليب وحشية ثأراً من سقوط مئات الفرنسيين الذين حاولوا اقتحامها.... واستولى الفرنسيون على الاموال والممتلكات والحصون. فاندلعت حرب اقليمية في شرقي الجزائر عموماً كرد فعل تجاه الممارسات الاستعمارية، واستنجد السكان بالامير عبد القادر الذي طلبت منه القبائل ان يكون قائداً لها... وعليه، فقد اتهم الفرنسيون الامير بخرق المعاهدة معهم، ولكنه ابى ان يسكت على النسيم الذي اوقعوه ببني جلدته. وفي ١٨٣٩م، اشعل الفرنسيون ضده حرباً جديدة. وهنا اعلن الامير الجهاد المقدس ضد الغزاة بعد ان رأى ان فرنسا تحشد الجيوش والامدادات، فبلغ تعداد القوات الفرنسية (٩٠) الف مقاتل في عام ١٨٤٤م، بعد ان كان (٤٢) الف جندي عام ١٨٣٧م، على الرغم من سقوط الالاف طعمة للمعارك البرية وعمليات المباغتة والحرّ والقرّ والاوبئة والجوع..

كان الجيش الفرنسي ضعف قوات الامير في تعداده، وهو يتدرع باسلحة لم يعرفها الجزائريون.. ولكن الامير وجنده امتلكوا معنويات عالية، وشعوراً عالياً بعدالة قضيتهم وحربهم، فبدأوا يستخدمون الحرب الخاطفة كمحاولة لانهاك الفرنسيين وتمزيق شملهم، وتدمير آلياتهم وعرباتهم ودخائرهم... في حين كان قائد الجيش الفرنسي المارشال بيجو يستخدم العملاء في المناطق المتأخرة، ويمارس تكتيكا عرف باسم «الطوابير المتحركة» أي (الوحدات) العسكرية التي تمشط البلاد والحصون والمدن، أي بمعنى: المقابلة بالمثل وكأنها مناوشات حرب العصابات، مستغرقة هذه الحرب الطويلة بضع سنوات... كان الفرنسيون يستخدمون اقسى اساليب الدمار والارهاب والوحشية. وقد ابيدت قبائل كاملة عن

بكرة ابيها وذلك لتحالفها مع الامير عبد القادر، ومارسوا قطع الرؤوس لاتفه الاسباب، وقطع آذان الاسرى، وسبي النساء، وتشريد الاطفال.

هكذا، تمكن الفرنسيون بعد ان اجتمعت الاسباب كاملة اقصاء الامير عبد القادر عن ساحة القتال وعن الجزائر، واخضعوا اراضيه بعد اربع سنوات من الحرب الوحشية ونضال الجزائريين... ولكن الرجل لم يستسلم ففي عام ١٨٤٤م لجأ الى مراكش لكي يعد العدة الى الرجوع وقتال الغزاة الفرنسيين.

الحرب الفرنسية ضد مراكش عام ١٨٤٤م:

قرب نهر اسلي في المغرب الاقصى، جرت معركة عنيفة اندحر فيها المراكشيون بقيادة سلطانهم العلوي مولاي عبد الرحمن امام قوات بيجو الفرنسية التي طالبت بتسليم الامير عبد القادر ، في حين قصف الاسطول الفرنسي بقيادة الامير جوانفيل كلاً من طنجة والصويرة. ولم ينقذ المغرب الاقصى من تلك الهجمة الا الانكليز وتهديداتهم بالتدخل، فاضطر الفرنسيون الى الجلاء عن مراكش، وعقد صلح طنجة في ١٠ ايلول/ سبتمبر ١٨٤٤م الذي امتنع فيه المغرب عن مساعدة الجزائريين ولم تثبت الحدود بين البلدين منذ ذلك الوقت مما سبب مشكلات عدة فيما بعد، لا سيما في الاجزاء الجنوبية من البلدين.

تكريس الهيمنة الاستعمارية:

عاد الامير عبد القادر الى صحراء الجزائر متشرداً ليبدأ المعركة من جديد. وكانت قد نشبت بعض الانتفاضات الشعبية بسبب نهب الاراضي واستغلالها، مذ اعلنت فرنسا ان جميع الاراضي الاميرية (البيالك) التابعة للحكومة السابقة والباشوات والاغوات السابقين تتملكها الدولة الفرنسية. ثم جرى نزع الملكيات، وجرت – أيضا – مصادرة لاراضي القبائل الثائرة ، واستمرت هذه العمليات على مدى سنوات.. فأدى ذلك كله الى انتفاضة السكان في غربي الجزائر سنة ١٨٤٥م، فضاعف الفرنسيون قواتهم لكي تبلغ (١٠٨) آلاف جندي، وارتكبت المجازر بحق الجزائريين، فضلا عن طرد المئات منهم الى الكهوف في الجبال، وخنق العشرات بالدخان، أو ردمهم بالتراب احياء مع نسائهم واطفالهم .. فشهد الجزائريون اسوء المآسي في تاريخهم...

اخذت الانتفاضة تتضاءل، ولوحق الامير عبد القادر الذي ساعدته الواحات الصحراوية على الهرب، واجراء العمليات الحربية، ثم استطاع الفرنسيون في نهاية المطاف من اسره في نهاية عام ١٨٤٧م، واخذ الى فرنسا التي بقي معتقلاً فيها خمس سنوات، سمح له بالاقامة في المشرق العربي، فاختار الشام بعد ان بقي فترة في بروسا، لكي يستوطن دمشق عام ١٨٥٥م، حيث قضى فيها بقية حياته، حتى توفي سنة ١٨٨٣م. كما واستطاع الفرنسيون ايضا من اسر الباي احمد سنة ١٨٤٨م هو كذلك!.

لقد سيطر الفرنسيون على كامل التراب الجزائري. وفي عام ١٨٥١م، اندلعت انتفاضة كبيرة في واحة الاغواط. وفي عام ١٨٥٤م اشتعلت انتفاضة اخرى في واحة توكرت. . وبدأت الحرب في الشرق عام ١٨٥٤م ايضا. واستأنفت القبائل النضال على نحو واسع بقيادة ابي بقلة لصد الهجمات التنكيلية الفرنسية على مدى (٣) سنوات، اي للفترة ١٨٥٤–١٨٥٧م. ولم يستطع الجنرالات الاقوياء اقتحام منطقة القبائل الا في شهر تموز/ يوليو عام ١٨٥٧م.

وعندما سكت النضال الوطني لفترة غدت الجزائر سوقاً رائجة للبضاعة الفرنسية ومصدراً للخامات والغذاء. كما وظفت السلطات الفرنسية الرأسمال الاجنبي الفرنسي في الجزائر بعد تدمير الانتاج الصناعي – الجزائري، وتصدير الخامات والمواد الاولية. لقد فشل «المعمرون»* الفرنسيون في اغتصاب الاراضي في البداية، ولكنهم راهنوا على فشل النضال ضدهم، واتبعوا سياسة التملك بالقهر وتحريم العرب من الاراضي الاحتياطية والمراعي والوقود. كما وصدر «نظام الانزال» الذي صدر مشيراً الى ان الاراضي القبيلية هي للاستعمار وليست للتملك. فاجبر سكانها وزرّاعها على التنازل عنها. فأثار هذا النظام استياء كبيراً.. كما وان الاراضي التي اغتصبتها الدولة اعطى قسم كبير منها للايجار... أو تركيز الاراضي في ايدي شركات رأسمالية فرنسية وكبار «المعمرين»، فطرأت تغييرات في البنية الاقتصادية ووسائل الانتاج، ولكن على حساب وكاهل مئات الآلاف من الفلاحين الجزائريين واستغلالهم المؤلم كمحاصصين. فانتفض الشعب الجزائري

* هكذا يطلق عليهم في الجزائر وفرنسا منذ ذلك اليوم حتى ايامنا هذه.

مرة أخرى في عام ١٨٥٩م، عندما ثارت قبائل غربي الجزائر «بنو سفاسين»... وفي عام ١٨٦٤م انتفضت قبائل اولاد سيدي الشيخ، كما واندلعت عام ١٨٧١ ثورة وطنية كبيرة قادها الشيخ محمد المقراني الذي اتخذ من الصحراء في غربي الجزائر ساحة صراع ضد الفرنسيين.

لقد تزعّم الشيخ محمد بن احمد المقراني الثورة التي اندلعت في ٤ آذار / مارس سنة ١٨٧١م في اقليم قسنطينة *، واستطاعت قواته من تحرير المنطقة الممتدة حتى وادي الميتجة شرقي مدينة الجزائر.. واستخدم الادميرال كيدون الحاكم العسكري الفرنسي الذي نصب في نيسان / ابريل سنة ١٨٧١م، كل العنف والقسوة في قمع الثورة، ودخل المقراني في سلسلة معارك دموية سقط في احداها شهيداً واسموها معركة «وادي سفلة» مخلفة اخاه «بو مرزاق» الذي نقل الحرب وجميع عناصرها الى الجنوب حيث الصحراء والواحات بعد اشتداد الضغط الفرنسي.. واضطر اخيرا الى الاستسلام بعد ان فقد خطوط دفاعاته في واحتي ورقلة وتوكرت سنة ١٨٧٢م، ثم عمد كيدون على حل البلدية الجزائرية وشقت قوام الحرس الوطني.

التركيب الاجتماعي للجزائر:

لقد تأثر المجتمع الجزائري بوحداته السكانية المتنوعة كثيراً، نتيجة للسياسة الاستعمارية التي استخدمتها فرنسا، كما واستخدمت الجزائر منفى للمهاجرين، ولكل عناصر المعارضة في فرنسا. ولم يكن التركيب الاجتماعي – متجانسا لسكان الجزائر الفرنسيين. اذ كان هناك «المعمرون» الفرنسيون والبورجوازية الجديدة والعمال والمثقفون الفرنسيون الذي احتلوا المدن الاساسية في البلاد. واستقطب بعض اصحاب رؤوس الاموال اقطاعات كبيرة استخدموها للزراعة، فضلا عن تحول البلاد الى سوق للبضائع الفرنسية، ومصدر كبير للمواد الأولية.

---

* انظر د. يحيى بو عزيز، ثورة ١٨٧١. دور عائلتي المقراني والحداد، الجزائر، ١٩٧٦. (في الاصل اطروحة دكتوراه الحلقة الثالثة – جامعة الجزائر).

ادت السياسة الاستعمارية الى كارثة اقتصادية كبيرة في الارياف الجزائرية فقد عمت البلاد عام ١٨٧٠م، المجاعة ثم اعقبتها الكوليرا، فهلك الآلاف من السكان. وغدا التذمر كبيراً في كل الانحاء، فبعد فشل ثورة ١٨٧١م، عمت انتفاضات القبائل الرحل في جبال الاوراس سنة ١٨٧٩م، وانتفاضة قبائل أولاد سيدي الشيخ في غربي الجزائر سنة ١٨٨١م، وقد بلغ الاستغلال الاستعماري ذروته في نهب الاراضي واستيلاء الفرنسيين عليها ووفق قانون ١٨٧٣م الذي ادخل الجزائر ضمن التشريع الفرنسي للاراضي الذي حطّم الملكيات الجماعية المشاعية بين القبائل والعشائر، لكي تغدو ملكياتها صغيرة تتلاقفها ايدي المستعمرين: المعمرون الاوربيون والاثرياء واصحاب رؤوس الاموال. وجاء قانون سنة ١٨٨٧م، ليكرس ذلك الانتقال والتقسيم والتفتيت للاراضي الزراعية في الجزائر*.

كما استولى المعمرون الفرنسيون على مكامن خامات الحديد ومعادن اخرى... كما ساهمت الاحتكارات المرتبطة بالبنوك في فرنسا، فأسست بعض البنوك في الجزائر، ومدت شبكة السكك الحديد من المدن الجزائرية للاغراض التجارية، وللاهداف الاستراتيجية، وانشأت الموانيء وشقت الطرق، واسست المشاريع الصغيرة، كالمطابع والتعدين والابنية. واتبعت فرنسا سياسة الادماج -Astimillation- في تطبيق القوانين الفرنسية والنظم الخاصة على التراب الجزائري، واعتبار السكان الجزائريين «رعايا»فرنسيين محرومين من الحقوق في

---

* انظر: د. عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث. دراسة سوسيولوجية، ترجمة: فيصل عباس، مراجعة: د. خليل احمد خليل، ط ١، بيروت، ١٩٨١.

* يهتم كثير من المؤرخين الجزائريين المعاصرين بتاريخ الجزائر ابان الاحتلال الفرنسي وعلى نحو كبير لا سيما في جامعة وهران، اولئك الذين تتلمذوا في مدرسة المؤرخين الفرنسيين كاليسو، وڤالانسية، واندرية نوشيه، ومن أبرزهم عبد القادر جغلول والطيب شنتوف ومحمد القورصو ومحمد غالم وغيرهم. اما المنهج العام فتمثله جماعة اخرى من المؤرخين امثال. ابو القاسم سعد الله وعبد القادر زبادية ويحيى بو عزيز وناصر الدين سعيدوني وغيرهم.

حين يتمتع «المواطنون» من المعمرين الفرنسيين بدرجة ممتازة وعليا في المجتمع والذين عاملوا الجزائريين معاملة قاسية خالية من الانسانية مادياً ومعنوياً، سواء بفرض الاتاوات ومعاملتهم حسب قوانين خاصة، وحرموا من الانتخابات واصدار الصحف، ومن اللغة العربية، ومن تأليف الاحزاب السياسية والنقابات.. الخ مما ادى الى نتائج وخيمة في تضاعيف الفترة الاستعمارية ، وزادت الهجرة من قبل الجزائريين الى بلدان عدة في المغرب او المشرق العربيين.

الجزائر في اواخر القرن التاسع عشر:-

لقد خاض الجزائريون نضالاً حاسماً وطويلاً ضدّ كل الاجراءات التي مورست ضدّهم وناضلوا من اجل إلغاء «قانون السكان الاصليين» المثير للسخرية.. وناضلوا من اجل الحرية طوال الربع الاخير من القرن التاسع عشر الذي ازدحمت خلاله التيارات الدستورية. وكانت العلاقات بين الجزائريين وبين التوانسة والمغاربة من طرف آخر قوية جداً، فكان ان تأثرت مجريات الاحداث فيها، وكانت الصحف والمجلات المصرية تصل الى الجزائر من خلال تونس التي كانت تشهد ثقافة عربية رصينة، وهاجر عدد كبير من الشباب الجزائري الى تونس للتعليم والتثقيف في جامع الزيتونة.. كما وانبثقت التنظيمات العربية – الاسلامية متأثرين بافكار «الجامعة الاسلامية» للافغاني وافكار التنظيمات القومية في المشرق العربي وكان المثقفون الجزائريون قد امتلكوا ثقافة فرنسية عالية، فضلاً عن اجادتهم اللغة الفرنسية وقد طالبوا بحكم ذاتي باسم «الامة المغربية» بالتّوحد مع تونس، في حين علقت بعض البقايا القديمة الآمال على السلطان عبد الحميد الثاني. وقد اتسعت في الجزائر كثيراً الدعاية للجامعة الاسلامية وكتبت ونشرت نشريات عدة عنها.. وكان حجر الاساس في تأسيس جمعيات وتجمعات واحزاب وطنية وسياسية اخرى عملت وناضلت جميعها على مدى نصف قرن من القرن العشرين من اجل الاستقلال الذي اصبح هدفاً وطنياً وقومياً في النصف الاول من القرن العشرين، والذي حصلت عليه الجزائر سنة ١٩٦٢م بعد حرب جبهة التحرير الجزائرية التي اندلعت عام ١٩٥٤. *

---

* يهتم كثيرون من المؤرخين الجزائريين المعاصرين بتاريخ الجزائر ابان الاحتلال الفرنسي وعلى نحو كبير ولا سيما في جامعة وهران، اولئك الذين تتلمذوا في مدرسة المؤرخين الفرنسيين كاليسو، وفالانسية، واندريه نوشيه، ومن أبرزهم: عبد القادر جغلول والطيب شنتوف ومحمد القورصو ومحمد غالم وغيرهم. أما المنهج العام فتمثله جماعة اخرى من المؤرخين امثال: ابو القاسم سعد الله وعبد القادر زبادية ويحيى بو عزيز وناصر الدين سعيدوني وغيرهم.

٢ / المغرب الاقصى:-

لقد اكتملت الهياكل التنظيمية للدولة العلوية في المغرب الاقصى عند وفاة المولاي اسماعيل سنة ١٧٢٧م. فقد كان السعديون قد نجحوا في تكوين حاميات عسكرية تؤلفها قبائل هربت من شرقي الجزائر للافلات من الاتراك. فضلاً عن تشكيلات عسكرية اخرى استقرت حول مدينة فاس، وعلى شكل قبائل اختلفت في تنظيمها عن القبائل الخاضعة للمخزن، فهي جاليات عسكرية فرضت الظروف عليها ان تكون في خدمة المخزن الذي منحها حق الانتفاع من الاراضي الزراعية واعفاها من الضرائب باستثناء الزكاة والاعشار.

السؤال الآن: ما المخزن؟

هو «المستودع» كمعنى حرفي/ اصطلاحي- كما نعرف-، ولكنه يعني «حكومة السلطان» المغربي كمعنى ضمني تاريخي تتركز مهامه في جمع الضرائب النقدية والعينية التي دائماً ما كان يرفضها السكان: قبائل وشرفاء وزوايا يتحالفون ضر اجراءات المخزن التي يطالب بتطبيقها العرش. ونظام «المخزن» هو نظام ادارة تقليدية استمر تطبيقه طويلاً، وتوارثته اجيال مغربية عدة، وبقي حتى القرن العشرين واقعاً حياً ماثلاً امام الأعين.. مشكلاً فلسفة الدولة الجبائية مع توالي حكم السلاطين بوتيرة تقليدية.. ولم يطرأ التغيير حتى مجيء الفرنسيين. اي السبب في بقاء واستمرار هذا «النظام» السياسي/ الاقتصادي هو حاجة ابناء المدن المغربية له كاسلوب حماية من هجمات القبائل، فكان بمثابة سلطة اقليمية يحد من ازمات الفوضى والتشتت. وهي «سلطة» ادارية للمغرب التقليدي بشراكة المخزن وممثلي الحكم المركزي *.

لقد فرضت الدولة العلوية نفسها بقوة في اواسط القرن السابع عشر، ولكنها لم تتحكم في جميع بنيات المجتمع المغربي الذي وقف على رأسه الشرفاء الذين تكونوا على مدى ازمان من عدة عائلات انقسمت الى فرعين: فهناك الادارسة الذين انحدروا من المولاي ادريس الذي اسس مدينة فاس، وهناك الفيلاليون الذين

* للاستفادة في تفسير المضمون التاريخي لـ«المخزن»، انظر: جون واتربوري، الملكية والنخبة السياسية في المغرب، ترجمة: ماجدة نعمة وعبود عطية، ط١، بيروت، ١٩٨٢، ص٢٣-٣٧ (الفصل الاول)

استقروا في واحات سجلماسة خلال القرن الخامس عشر والذين تقلدوا حكم البلاد في تاريخها الحديث وتبلور المجتمع المغربي عن تكوينات من القبائل والمخزن والشرفاء والاولياء.. ولابد لنا ان نتوقف قليلاً عند خصائص البنية السياسية للمغرب في الحكم والسلطة:

كان كل سلطان في حكمه يختلف عن سلطان آخر من خلال الاجراءات والتفويضات والتحالفات، نظراً الى حوزة طبقات وفئات اجتماعية معينة على سلطات فعلية كالقبائل والشرفاء والعلماء واقطاب الاسر الوجيهة.. فالتغير اذا هو سمة اساسية من سمات الحياة السياسية، وان قوة السلطان مرتبطة بقوة تلك الفئات من خلال استقطابه لسلطة دينية.

لقد غدا المغرب الاقصى عرضة للاطماع الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر وجزءاً من طموحات فرنسا ضد المغرب العربي.. على الرغم من اهتمامات فرنسا بشؤون تلك البلاد الى ما قبل القرن الماضي. وبعد الغزو الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠م بدأت عمليات التسلل للتعامل مع القبائل المنتشرة في واحات الصحراء، إذ اتخذت فرنسا من قضايا الحدود بين الجزائريين والمغاربة حجة في اثارة المشكلات وتكرس الضغوطات.

لقد بدأت السلطات المغربية تمد حركات الامير عبد القادر بالامدادات والاموال والسلاح وخاصة، عهد مولاي عبد الرحمن بن هشام سلطان المغرب ١٨٢٢-١٨٥٩م، فتوالت الاحتجاجات على المغرب لا سيما عندما لجأ الامير عبد القادر الى اراضيه، فبدأ الجيش الفرنسي يتقدم نحو الاراضي المغربية ليصطدم بالقوات المغربية في معركة وادي اسلي الواقع قرب مدينة وجده الحدودية في ١٤ آب/ اغسطس ١٨٤٤م، كرست فرنسا في المعركة اقتصادها الاوروبي القوي، فانهزم جيش السلطان امام القوات الفرنسية، وقاد ذلك الى توقيع اتفاقية بين الطرفين العام نفسه ثم وقعت اتفاقية اخرى سنة ١٨٤٥م تتعلق بالحدود والصحراء الكبرى المشاعة بين الاطراف. وأدركت فرنسا أهميتها الاستراتيجية بعد ان غدت تلك الصحراء مسرح عمليات كرّ وفرّ للثوار الجزائريين ضد الفرنسيين، وبخاصة ايواءها لثورة الشيخ بوعمامه في جنوبي اقليم وهران.. فارسلت عدة من الوحدات العسكرية الى واحات تلك الصحراء، امثال: فجيج سنة ١٨٧٠م، وعين صالح سنة ١٨٩٩م وتوات سنة ١٩٠٠م.

واثمرت الاطماع الاسبانية للمغرب بعد ضعفه السياسي فاحتل الاسبان مدينة تطوان سنة ١٨٦٠م، في حين اتخذت فرنسا من مشكلات الحدود ذريعة للتدخل في الاراضي المغربية، وخصوصاً بعد هزيمة المراكشيين امام الاسبان، وبحجة ملاحقة الجزائريين واثارة عصيان الزعماء ورؤساء القبائل، ثم فرضوا على سلطان المغرب الحسن بن محمد ١٨٧٣-١٨٩٤م (= الحسن الاول) وفي سنة ١٨٧٧م بعثة عسكرية بحجة تدريب الجيش المغربي، فحاول هذا السلطان ان يتقرب من بريطانيا التي عارضت التدخلات وتحقيق الاطماع لكل من فرنسا واسبانيا. يقول المؤرخ روبرت مونتنيه: «ان أطول أزمان الفوضى التي شهدها المغرب منذ قرن ونصف هي: السيبة الكبرى التي اعقبت وفاة محمد بن عبد الله والتي دامت سبع سنوات (١٧٩٠-١٧٩٧)، والازمة التي تلت وفاة مولاي عبد الرحمن (١٨٥٩-١٨٦٤)، وتلك التي اعقبت وفاة المولى الحسن (١٨٩٤-١٨٩٧)»*.

بعد وفاة الحسن الاول سنة ١٨٩٤. كان ولده عبد العزيز قاصراً، فتولى احد الوزراء الوصاية عليه، حتى عام ١٩٠٠م بدأ عبد العزيز واجباته سلطاناً صغير السن، قليل التجربة، ولكن يعد عهده من العهود السياسية المهمة في تاريخ المغرب العربي، وقد شهد ذلك العهد القصير محاولات اصلاحية متعددة لتطوير بلاده، ولا سيما الاهتمام بالتعليم والتصنيع وترسيخ مركزية الادارة السياسية، وتوسيع العلاقات مع اوروبا التي تغلغل نفوذها في المغرب الاقصى. وقد وقفت الفئات الرجعية ضد الإصلاحات، وتهربت الفئات المستغلة من دفع الضرائب.. وزادت نفقات الدولة كثيراً بحيث بوشر بالاستدانة والاعتماد على القروض الاجنبية من المصارف الفرنسية.

هكذا، تهيأ المناخ السياسي والاقتصادي لفرنسا كي تعد العدة لاحتلال المغرب الاقصى حماية لمصالحها واقتصادياتها، ممهدة الطريق الى حل مشكلاتها مع بريطانيا و اسبانيا، لا سيما وان الاطماع بدأت تكثر اثر ازدياد اهمية البحر المتوسط، فكان لكل من بريطانيا والمانيا ايضاً مصالح اقتصادية قوية في المغرب، وبخاصة التجارية منها.. وكان مؤتمر الجزيرة الخضراء في الساحل الاسباني المقابل لطنجة قد اعترف ظاهرياً باستقلال المغرب، ولكنه اعطى الدول الاوروبية امتيازات اقتصادية وعسكرية للعمل في الاراضي المغربية، وكان المؤتمر قد عقد في كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٠٦م.

*Robert Montagne, les berb'ers et le Makhzen dans le sud du Maroc, Paris,1930, p. 351.

انتشرت الانتفاضات وروح السخط على قرارات ذلك المؤتمر، فوقعت عدة من الاحداث والاغتيالات، إذ قدمت فرنسا احتجاجات بالغة الشدة ضد المغرب وحكومته واحتل الفرنسيون وجدة شرقاً والدار البيضاء غرباً، فكان ان عقد مؤتمر سياسي وطني كبيرفي مدينة مراكش خرج المؤتمرون منه بقرارات تعلن الجهاد وتبت في خلع السلطان عبد العزيز لعجزه عن الدفاع عن بلاده ووطنه، ونودي بأخيه عبد الحفيظ بن الحسن سلطاناً سنة ١٩٠٨م الذي لم تفد احتجاجاته الى فرنسا، فرضخ للارادة الاستعمارية واعترف بامتيازاتهم وقروضهم، ثم زادت شروطهم القاسية وقروضهم وامتيازاتهم والتصرف بالايرادات والرسوم والضرائب لتغطية الديون.. ففقد السلطان مهابته لقبوله المطالب الأوروبية.

اندلعت الثورة الشعبية سنة ١٩١٠ على سياسة السلطان عبد الحفيظ، وعجزت قواته عن اخمادها، ولا سيما وانها انتشرت بين القبائل التي باتت تهدد مدينة فاس في شهر نيسان عام ١٩١١، فتدخلت فرنسا مباشرة وعلى مدى شهرين في مدينتي الرباط وفاس. واعلنت حمايتها على المغرب الاقصى في ٣٠ آذار / مارس ١٩١٢م، وقع على اثرها السلطان عبد الحفيظ على معاهدة قوية وافق فيها على احتلال فرنسا وحمايتها لأي جزء تراه فرنسا من بلاده للمحافظة على الامن والمصالح الاقتصادية.. وفي شهر آب / اغسطس ١٩١٢، تنازل عبد الحفيظ عن الحكم لاخيه يوسف بن الحسن الذي اصبح منفذاً للسياسة الفرنسية

لقد كانت تلك الاحداث المصيرية كافية لنشوب الثورات ضد الفرنسيين كالثورة في فاس شهر نيسان / ابريل ١٩١٢م والتي قمعت بشدة، ثم انتفض ابناء الجنوب على يد هبة الله بن ماء العينين الذي دعا الى الجهاد في اهل السوس واستطاع من تحرير مراكش عاصمة الجنوب القديمة. ولكنه تراجع نحو موريتانيا بعد ان تقدمت اليه القوات الفرنسية. وانتفض ابناء الشمال في جبال الاطلس الاوسط الذين كانوا اشد ثورة وصموداً بسبب بيئتهم الجغرافية وظروفها المناخية، واستمرت قبائل صنهاجة وزنانه الكونفدلالية على المقاومة حتى عام ١٩٣٣م.

كانت جميع تلك الحركات الوطنية كافية لرسم الاهداف الاصلية التي حملتها حركة المقاومة الوطنية الكبرى التي تزعمها محمد عبد الكريم الخطابي للفترة ١٩١٩– ١٩٢٦م والذي كان رمزاً للجميع وشخصية من أروع شخصيات المغرب العربي بعد ان جسد الريف المغربي بحركته الوطنية ضد المحتلين. هكذا، كانت بلاد

المغرب الاقصى قبيل الحرب العالمية الاولى: منطقة نفوذ فرنسي ومركزها الرباط وتمتد الى الجنوب من مراكش. والثانية منطقة نفوذ اسبانيا وهي المطلة على مضيق جبل طارق ومركزها تطوان. وبقيت منطقة طنجة تحت الادارة الدولية.. ولقد استطاع محمد بن يوسف (= الملك محمد الخامس) ان يكون الملك الاول لمغرب الاستقلال القوي، مجدداً الصيغ التي كان يعتمدها الحسن الاول، فما هو الا حفيده، ذلك الذي كان آخر سلطان قوي في مغرب ما قبل الاستعمار.

لقد نجح المغرب الاقصى في الحصول على استقلاله الوطني في سنة ١٩٥٦م بعد تاريخ وطني لامع على امتداد النصف الاول من القرن العشرين، ساهم في صناعة ذلك التاريخ بلاط تزعمه ملك وطني، وشعب متلاحم من اجل اهدافه .. لقد حكم محمد الخامس عهداً مضطرباً منذ ١٩٢٧ حتى ١٩٦٢ * .

٣/ تونس والحماية الفرنسية :

كان الصراع عنيفاً بين الدول الاستعمارية على احتلال المناطق المهمة والاستراتيجية في العالم، وخلال تلك الفترة الصعبة من تاريخ ذلك العالم. وعلى الرغم من تقاسم بريطانيا وفرنسا مناطق النفوذ فان بريطانيا كانت تمتلك مستعمرات اكثر من فرنسا التي اهتمت بتحقيق اطماعها الاستعمارية في المغرب العربي، في حين اهتمت بريطانيا بتحقيق اطماعها في المشرق العربي. ولكن النزاع والتسابق الاستعماري على تونس كان بين فرنسا وايطاليا التي حاولت ارسال حملة الى تونس لتكوين الدساكر الزراعية بعد ان حصلت على امتيازات

---

* ان احدث كتاب مفصل حول هذا الموضوع بالعربية هو ذلك الذي كتبه المؤرخ مصطفى بو شعراء. الاستيطان والحماية بالمغرب (جزءان)، جـ١ (تقديم مؤرخ المملكة عبد الوهاب بن منصور)، الرباط، ١٩٨٤؛ جـ٢، الرباط، ١٩٨٧.

وانظر ايضاً تحليلات د. عبد الله العروي في اطروحته الرصينة

A. Lasoui ,Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain 1830 1912, Maspero Paris 1977.

ولا بد من مراجعة ما كتبه كل من : علال الفاسي ومحمد المنوفي ومحمد محمد عمر القاضي واحمد عبد السلام البوعياشي ومحمد بن عزيز حكيم وعبد العزيز بن عبد الله . فضلاً عن فحص الكتابات المحدثة لمحمد عابد الجابري وسعيد بن سعيد وعلي اومليل وغيرهم.

واسعة في الاراضي التونسية .. وقد حالت تدخلات بريطانيا وفرنسا والدولة العثمانية دون وقوع الهجوم الايطالي، في حين كان النفوذ الرأسمالي الفرنسي يزداد شيئاً فشيئاً. وكانت فرنسا قد حسمت الكثير من الامتيازات الخاصة بمصالحها، لا سيما وانها كانت قد جاورتها في التخوم الجزائرية.

وجدت فرنسا نفسها تعترف باستيلاء بريطانيا على قبرص، والنمسا على البوسنة والهرسك، وتوسع روسيا في البلقان. وطالبت بتعويض مناسب لها، فرخصت لها الدول بصورة غير رسمية للاستيلاء على تونس، ومنذ عام ١٨٧٨م توقفت بريطانيا بصورة خاصة عن اعتراضها على التوسع الفرنسي في تونس، إذ كانت بريطانيا متحفزة للسيطرة على مصر، ولم يبدر عن فرنسا اي اهتمام بكل من ايطاليا والدولة العثمانية.

هكذا تحقق استيلاء فرنسا على تونس استيلاء مباشرا بعد مضي ثلاث سنوات على مؤتمر برلين، مستغلة استفزازات جرت عند الحدود عام ١٨٨١م، فزحفت قواتها تحت ذريعة فرض الامن والنظام، وكان قوامها ٣٠ الف جندي اجتازوا الحدود في ١٢ نيسان/ ابريل ١٨٨١م، فضلاً عن آلاف اخرى طوقت العاصمة التونسية في ١٢ آيار / مايس ١٨٨١م، وحاصرت قصر الباي سعيد في منطقة باردو قرب تونس، واجبرت الباي على توقيع معاهدة حماية استعمارية لتونس، وقد وافق الباي على ذلك بحجة الامن والنظام، وقد حصلت فرنسا على حق تنظيم الشؤون المالية، وضمنت حقوق تونس المالية، وتسديد ديونها.. وعينت فرنسا وزيراً مقيماً في تونس وسيطاً بين كل من الحكومة الفرنسية والسلطات التونسية ..ثم توالت اعترافات الدول باستيلاء فرنسا على تونس ما عدا دولتي تركيا وايطاليا، واعلن العثمانيون بأن ليس من حق الباي بوصفه موظفاً تركياً ان يعقد معاهدات دولية. وعلى هذا الاساس، فقد اعتبرت السلطنة العثمانية تونس من ممتلكاتها حتى الحرب العالمية الاولى *.

السؤال الان : كيف حدث كل ذلك ؟

---

* انظر التفاصيل في : عبد الرحمن تشايجي، المسألة التونسية والسياسة العثمانية ١٨٨١-١٩١٣، ترجمة : د. عبد الجليل التميمي ، تونس ، ١٩٧٣.

كان لانهيار الاقتصاديات التونسية اثر الديون الباهظة التي تورطت بها السلطات قد وسع نفوذ فرنسا كثيراً بحصولها على امتيازات اقتصادية كبرى، فبلغت سندات الديون سنة ١٨٦٢ مبلغاً باهظاً قدره (٢٨) مليون فرنك . وعقدت اتفاقية جائرة في ٦/٥/١٨٦٣ بين الحكومة التونسية واتحاد البنوك ..كان من نتائجها ازدياد التدهور الاقتصادي وارتفاع الضرائب ادت الى حدوث تذمر شديد ين الناس الذين تحولوا سنة ١٨٦٣ الى انتفاضة شعبية بقيادة علي بن غذاهم، فقمعتها السلطات سنة ١٨٦٤ .. وزادت القروض مع تفاقم حالة الافلاس الحكومي التي اسهمت فيها ايادي المرابين الاوروبيين.

حاول الباي محمد الصادق (١٨٥٩-١٨٨٢م) الا تقع بلاده فريسة بيد الفرنسيين الا ان التغلغل الفرنسي قد استغل الاوضاع الاقتصادية السيئة والخلافات الحدودية مع الجزائر، والمسائل الامنية باسم الجاليات الفرنسية على لسان القنصل الفرنسي روستان الذي ضلل الرأي العام لتنفيذ خطة استعمارية واضحة الابعاد، والمطالبة بتدخل فرنسا السريع لضمان حقوق الرعايا الفرنسيين واموالهم و ممتلكاتهم .. فجاء رد الحكومة الفرنسية بالتدخل العسكري عندما بدأت القوات الفرنسية في ٢٤/٤/١٨٨١م باجتياز الحدود براً نحو اعماق تونس .. عززتها قوات بحرية فرنسية نزلت في ميناء بنزرت في الاول من ايار / مايو ١٨٨١م، متوجهة نحو العاصمة، وفرض الفرنسيون على الباي محمد الصادق معاهدة الخضوع في قصر باردو، وقد سميت تلك المعاهدة باسم ذلك القصر: وقد قضت على استقلال تونس.

تألفت المعاهدة من عشرة بنود، يمكن تلخيصها بما يأتي: تركز القوات الفرنسية في مناطق الحدود والسواحل وان رحيلها يرتبط، باستتباب الامن العام، ولا يحق للباي عقد اية معاهدة مع اية دولة الا بموافقة فرنسا، وعدم تهريب الاسلحة الى الجزائر ، وتنصيب فرنسا لوزير مقيم من لدن حكومتها يراقب تنفيذ المعاهدة، وتقوم فرنسا بحماية الباي وأسرته، وضمان فرنسا تطبيق الاتفاقيات بين تونس والدول الاوربية، وتخول فرنسا بالمحافظة على مصالح الرعايا التوانسة في الخارج ..الخ.

هكذا جردت تونس من استقلالها ، ولكن الشعب التونسي اعلن رفضه وغضبه للنصوص الانفة الذكر وبدأت المقاومة والتصدي، وبرز عدد من الزعماء الوطنيين امثال : علي بن خليفة وعلي بن عمار والحاج حوات واحمد بن يوسف ومحمد كمون.. في عدد من المدن التونسية مثل : قابس والقيروان والقصرين وقفصه وصفاقس..

بدأت في تونس فصول الحركة الوطنية التي شهدت نضالات سياسية لامعة.. مع زحف القوات الفرنسية على كامل التراب التونسي واستخدامها اساليب التنكيل بالسكان.. وفرض الفرنسيون معاهدة المرسى على باي تونس (١٨٨٢-١٩٠٢م) في ٨/٦/١٨٨٣م إذ فرضت فيها الحماية على تونس ووقعت المقدرات الاقتصادية بايدي الفرنسيين على ان يقوم الباي ببعض الاصلاحات الداخلية فقط وباشراف فرنسا.

وكان ان عارض الوطنيون معاهدة المرسى التي جعلت تونس مستعمرة فرنسية، فانعقد مؤتمر جماهيري واسع في ٦/٤/١٨٨٤ ، وكتحرك نضالي تزعمه الشيخ محمد بن عثمان السنوسي الذي نفاه الفرنسيون رفقة غيره من القادة الوطنيين الى خارج تونس .. وبرزت المقاومة مرة اخرى على ايدي شباب الزيتونة من الطلبة والمدرسين وبقيادة المكي بن عزوز الذي اضطره الفرنسيون الى ان يهاجر نحو الشرق العربي، فتسلم الراية من بعده تلامذته في المقاومة وكان من ابرزهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي (١٨٧٤ - ١٩٤٥م) والذي قاد «حركة الشباب التونسي» التي استفادت من الصحف في بث الوعي الوطني والتنديد بالاجراءات السياسية الفرنسية .

وانتشرت الجمعيات ، وتعددت المؤتمرات، وظهرت التجمعات السياسية التي تزعمها قادة الحركة الوطنية . ومنهم : البشير صفر ، ومحمد العروي، وسالم بوحاجب، وغيرهم .. وكان من ابرز تلك المحافل : الجمعية الخلدونية سنة ١٨٩٦م ومؤتمر الجمعية الجغرافية في تونس سنة ١٩٠٤م، وجمعية قدماء الصادقية سنة ١٩٠٥م، وجمعية تونس الفتاة سنة ١٩٠٩ م (التي يبدو انها كانت متأثرة بحركة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ في اسطنبول).

وكان لتلك التنظيمات الدور المبرز في المقاومة والنضال الشعبي .. وقد دخلت تلك «المقاومة» في تونس قبيل الحرب الاولى مرحلة مواجهة حقيقية ضد قوات الاحتلال قادت الى حدوق انتفاضات في سنة ١٩١١، كان من اشهرها: انتفاضة الجلاز وانتفاضة الترام .. وبقيت تونس صامدة ضد الهيمنة والنفوذ والتجنيس حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى التي سيأخذ تاريخ تونس المعاصر له مسارات اخرى وعلى يد الحركة الوطنية التونسية *.

ب- التغلغل البريطاني في الوطن العربي

١/ العراق واساليب التغلغل الاستعماري

بدأ التغلغل البريطاني في المناطق العربية منذ القرن السابع عشر، وخاصة عن طريق البحار الشرقية والخليج العربي، اذ كانت البحار العربية تمثل بالنسبة لاوروبا عصب الحياة الاقتصادية لانها تمتلك خطوط المواصلات المهمة التي تربط جميع القارات بآسيا.

وقد دخلت بريطانيا صراعاً كبير الابعاد ضد القوى الاوربية المتنافسة الاخرى كالبرتغاليين والهولنديين والبلجيكيين والفرنسيين، فضلاً عن القوى الاقليمية في المنطقة وعلى رأسها كل من العثمانيين والفرس.. وبدأت شركة الهند الشرقية البريطانية تبذل جهوداً كبرى في عمليات ترسيخ النفوذ البريطاني في الاراضي والانهار والبحار العربية.

تأسست شركة الهند الشرقية عام ١٦٠٠م، وكانت من اكبر الشركات العالمية التي عملت كوسيلة استراتيجية من وسائل التوسع والتغلغل الاستعماري في الشرق الاوسط والاقصى ولاغراض تجارية، وقد امتلكت امتيازات كبرى في

---

* انظر . يوسف درمونة، تونس بين الحماية والاحتلال، القاهرة، د.ت. والحبيب بورقيبة، بين تونس وفرنسا، تونس، ١٩٥٧ والحبيب ثامر ، هذه تونس ، القاهرة ١٩٤٨. نقولا زيادة، تونس في عهد الحماية ١٨٨١-١٩٣٤، القاهرة ، ١٩٦٣.
جان غانياج، ثورة علي بن غذاهم ١٨٦٤، تونس ، ١٩٦٥ ، د. عبد الكريم غرايبة، دراسات في تاريخ افريقية العربية، دمشق ، ١٩٦٠.

التحرك واتخاذ المراكز والموانئ ولا سيما اثر التحالف مع البلاط الايراني ضد التواجد البرتغالي في الخليج العربي، وقد دحر البرتغاليون عام ١٦٢٢م عند هرمز، وعند سنة ١٦٥٠ فقدوا نفوذهم نهائياً في الخليج العربي اثر اجلائهم في مسقط.

وعلى الرغم من اتخاذ الانكليز ميناء بندر عباس مستقراً لشركتهم الكبرى، وحصولهم على امتيازات تجارية في ايران فانهم واجهوا منافسة من الهولنديين الذين حققوا نجاحات عسكرية في الخليج العربي الذي غدا تحت نفوذهم، وكانت العلاقات بينهم وبين الفرس سيئة، لاسباب جمركية اقتصادية وتحالفات سياسية مع اعدائهم الانكليز. لقد استمر ذلك الصراع الخفي والمعلن بين القوتين الهولندية والبريطانية زمناً طويلاً.. وفي سنة ١٧٦٣م. يتخذ الانكليز من البصرة مركزاً استراتيجيا لاغراض تجارتهم في منطقة الخليج العربي*.

ونتيجة لذلك كله تعاظم النفوذ الاقتصادي البريطاني في منطقة المشرق العربي الذي غدا حلقة وصل اساسية بين البحر المتوسط والبحار الشرقية من خلال مركزية النفوذ البريطاني في مدينة عراقية كالبصرة.. ولعل ذلك كله ،كان احد الاسباب التي عرضت مصر لحملة نابليون بونابرت عليها عام ١٧٩٨م، وتهديده للمسالك الاستراتيجية البريطانية نحو الشرق، سواء كانت بحرية او برية، وعليه، فقد ادركت بريطانيا ان الحاجة الملحة تدعوها الى كسب النفوذ المطلق من خلال السيطرة على اربز اقليمين عربيين يحكمان حركة الشرق بالغرب، هما مصر والعراق.

بدأت بريطانيا بارسال مبعوثيها ومستكشفيها وخبرائها لاغراض شتى نحو العراق خلال القرن التاسع عشر، منها. بعثة جسني (Col Chesney) للفترة ١٨٣٠–١٨٣٧م، وبعثة شركة لنج سنة ١٨٦١م، فضلاً عن بعثات آثارية عدة قام بها عدد من الاثاريين وخبراء العصور الكلاسيكية ، وهناك ايضاً زيادة في

* ان ابرز دراسة حول التغلغل البريطاني في العراق، د. زكي صالح، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤، دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري ، بغداد، ١٩٦٨.

فعالية الاعمال الدوبلوماسية التي يقو بها القناصل ولجان التحكيم الدولية لمهمة تثبيت الحدود العثمانية - الايرانية في اقليم العراق. لقد زاد ذلك كله من اهمية العراق الدولية، وبرز اسمه يتردد كثيراً لاغراض شتى قبيل الحرب العالمية الاولى، وقبل استكشاف النفط فيه .. على الرغم من ملاحظات العديد من البعثات والزوار والعلماء بالمكانة الاقتصادية التي يحظى بها العراق، والثروات الاقتصادية والمعدنية التي يمتلكها، وخاصة النفط.

لقد اثر مشروع فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩م كثيراً على الاهتمامات الدولية، ولا سيما البريطانية منها لمنطقة الشرق الاوسط ، وعلى الاخص العراق الذي كانت تجارته مع بريطانيا رائجة كثيراً ولها المنزلة الاولى من البضائع المتبادلة بين الطرفين، فضلاً عن انه يمتلك الطرق التي تمر بها البضائع عبر الشرق والغرب. وقد قدرت المصادر الكمركية العثمانية في العراق قيمة تجارة الترانسيت بين العراق وايران في سنة ١٨٨٩م بـ(٥٤٠,٠٠٠) باونا استرلينيا كما وبلغ عدد الشركاء التجارية البريطانية ذات المصالح المتعددة في العراق خلال اواخر القرن التاسع عشر بـ(١٦) شركة، فكان ان سيطرت بريطانيا على قرابة (٩٠٪) من تجارة العراق الخارجية .. فضلاً عن تأسيس بريطانيا لعدة فروع لمصارف انكليزية بفرض استثمار الرأسمال البريطاني في بعض المدن العراقية .

لفت العراق انظار العالم الرأسمالي قاطبة اليه بعد اكتشاف المنابع النفطية الغزيرة في كل من كركوك والموصل خلال اواخر القرن التاسع عشر. وبدأت الدول الرأسمالية تسعى حثيثاً للحصول على امتيازات من الدولة العثمانية للتنقيب، وخاصة بريطانيا والمانيا وبعد ان دخلت عدة اطراف في حلقة صراع مصالح قوية، اتفق الانكليز والالمان للخروج بجبهة اقتصادية ضد المحاولات الاميريكية، فتأسس البنك الاهلي العثماني سنة ١٩١٠م برأسمال بريطاني لمساعدة الخطط البريطانية في الدولة العثمانية، في حين تمّ الاتفاق بين هذا البنك والبنك الالماني على تأسيس شركة الامتيازات الافريقية والشرقية المحدودة عام ١٩١١م والتي تحولت في ٢٣ تشرين الاول/ اكتوبر سنة ١٩١٢م الى شركة

النفط التركية المحدودة Turkish Petroleum . وفي عام ١٩١٤ شرعت هذه الشركة بمفاوضة الدولة العثمانية للحصول على امتيازات للنفط في ولايتي الموصل وبغداد.. ثم اندلعت الحرب العظمى الاولى.

٢/ الاحتلال البريطاني لمصر ١٨٨٢: *

حاولت بريطانيا غزو مصر سنة ١٨٠٧م، وقد عملت على تقليص دور مصر على عهد محمد علي باشا، حتى نجحت في اجهاض نفوذه بموجب مقررات معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م، ولكنها كانت تعمل سراً للاستفادة من الموقع الاستراتيجي لمصر، وخاصة بعد ان غدت مركز اتصالات دولياً كبيراً اثر فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩م التي غدت منفذاً لبريطانيا.. وقد دخل تاريخ مصر مرحلة جديدة بعد فتح تلك القناة. لقد استفادت بريطانيا كثيراً من الظروف الاقتصادية التي كانت مصر تعيشها على عهد الخديوي اسماعيل ١٨٦٣- ١٨٧٩م، إذ وقعت طائلة الاستدانة من البنوك البريطانية والفرنسية.. وكان يهدف السير بمصر الى ابواب الاستنارة والتحديث والتغريب.

وللظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت مصر تمر بها استطاعت بريطانيا والفرصة مفتوحة امامها للسيطرة على اقتصاديات مصر، فاشترت اسهم الحكومة المصرية في مشروع قناة السويس، فأصبح في حوزة الحكومة البريطانية (١٧٦) الف سهم من اصل (١٧٧) الف سهم، اشترتها باربعة ملايين باون استرليني.. في حين ان المشروع قد كلف مصر (١٦) مليون باون واغراق مصر في دين قدره مائة مليون باون.. ترتبت عليه فوائد ضخمة قدرها (٣٠٠) مليون باون دفعت للمصارف الاجنبية.

لقد انجزت بريطانيا بذلك خطة بارعة لتغيير مجرى تاريخ مصر اقتصادياً، اما سياسياً فكان مجمل الاحداث تطبيقاً لتلك الخطة اللازمة لاحتلال مصر، إذ مالبث الخديوي اسماعيل ان عجز عن دفع سنداته المالية في ٨ نيسان/ ابريل سنة

---

* لقد كتب عن هذا الموضوع، عدد من المؤرخين العرب والاجانب، منهم: عبد الرحمن الرافعي ومحمد مصطفى صفوت واللورد كرومر وبيير كرابتس وديفيد لاندز ولوتسكي واحمد عبد الرحيم مصطفى وصلاح عيسى وغيرهم.

١٨٧٦م فوجدها الدائنون فرصة لفرض رقابة مالية على مصر، تتألف من بريطانيين وفرنسيين وقد وجدت اللجنة نفسها امام تأليف الخديوي اسماعيل لوزارة جديدة برئاسة نوبار باشا المعروف بعلاقته مع الاحتكارات الغربية ودخل الوزارة وزيران احدهما بريطاني والاخر فرنسي.. ثم أجبر الخديوي اسماعيل للتنازل عن عرشه لولده الخديوي توفيق (١٨٧٩- ١٨٩٢) الذي كان اكثر مرونة وتوازناً للتعامل مع المطالب البريطانية.

ونتيجة للظروف السيئة وازدياد حجم الضرائب والتدخل الاجنبي ألف العسكريون المصريون الذين كانوا قد تربوا على الاسس التي رسخها محمد علي باشا تنظيماً عسكرياً سرياً سنة ١٨٧٦م وكان من ابرز قيادييه واعضائه: احمد عرابي وعلي فهمي ومحمد عبيد ومن المفكرين والادباء: عبد الله النديم وأديب إسحق ومحمد عبده وغيرهم.

استطاع هذا التجمع الوطني ان ينظم حركة مسلحة قوية في ١٨ شباط/ فبراير ١٨٧٩م وعلى رأسه الاميرالاي احمد عرابي باشا (١٨٣٩- ١٩١١م)، وقامت المطاليب العسكرية بحجة اعادة الضباط الحالين على التقاعد والبالغ عددهم (٢٥٠٠) ضابط استغنت الدولة عن خدماتهم تحت دعوى الترشيد في النفقات... ثم تطورت الاوضاع الى ثورة مسلحة شاركت فيها فصائل الشعب المصري. وكان من مطاليب عرابي في ٩ ايلول/ سبتمبر ١٨٨١م من الخديوي: تشكيل وزارة جديدة وانعقاد للبرلمان الذي اسس عام ١٨٦٦م وجعله برلماناً نيابياً على غرار النظم البرلمانية الاوروبية تكون الوزارة التنفيذية مسؤولة امامه وطالب عرابي ايضاً بزيادة افراد الجيش الى (١٨) الف جندي، وعزل رئيس اركان الجيش، ووقف التدخلات الاجنبية في الشؤون المصرية، وتقييد الحكم المطلق للخديوي.. وغيرها.

استجاب الخديوي توفيق لهذه المطالب، والفت الوزارة الوطنية الاولى في نهاية عام ١٨٨١م، ثم جاءت من بعدها وزارة وطنية اخرى برئاسة محمود سامي البارودي الشاعر المجدّد واحد الزعماء الوطنيين في مصر، وقد اختير احمد عرابي باشا وزيرا للحربية والبحرية فيها.. اعلنت هذه الوزارة دستوراً جديداً ودعت الى انتخابات جديدة.

كان لا بد ان تثير هذه التطورات قلق الحكومة البريطانية واستياءها ذلك لان السياسة الجديدة تهدد مصالحها، وقد ازدادت ضغوطات بريطانية بشأن حقوق الدائنين والعهود والاتفاقات المالية.. فنتج عن ذلك ازمة سياسية خانقة، كان نتيجتها ان قامت بريطانيا مشتركة مع فرنسا بتوجيه انذار الى الحكومة المصرية تطالب بحل الوزارة ونفي احمد عرابي، فرفضت الوزارة الانذار، فبدأ الاجانب يتجمعون في الاسكندرية بعد وصول بوارج حربية بريطانية الى مياهها..

لقد اتخذ القناصل الاجانب حادثة الشغب بين المواطنين المصرين والاجانب في الاسكندرية ذريعة لتوجيه اللوم الى السلطات المصرية وسار الخديوي توفيق الى الاسكندرية لكي يكون قريباً من الاسطول البريطاني المرابط عند السواحل المصرية. وقد استفحلت المسألة المصرية كثيراً، فعقدت الدول الأوربية الكبرى مؤتمراً لها في اسطنبول. وصفت خلاله مصر بسوء الاحوال وارتباك الاقتصاد وتخلخل المجتمع... وقدمت بريطانيا شروطها بوساطة سفارتها في اسطنبول الى السلطان عبد الحميد الثاني ومن ضمنها: حقوقه في مصر وصيانة مصالحها فيها، ثم ضمان حركة الملاحة في قناة السويس والا تكون الادارة المصرية فاسدة مما يستدعي التدخلات الاجنبية *.

ويبدو ان السلطان عبد الحميد الثاني قد وافق على الشروط، وعندها وافق على ارسال جيش الى مصر، وهو الجيش العثماني السادس، ثم تراجع عن قراره، تاركاً امر مصر بيد الانكليز بعد استنكاره ثورة عرابي. وتوالت انذارات الانكليز الى الجيش المصري، ثم قام الانكليز بقصف الاسكندرية في ١١ تموز/ يوليو ١٨٨٢م، وقد نزلت القوات البريطانية على السواحل وتفانى الاسكندرانيون في الدفاع عن مدينتهم، ولكن سيطر الانكليز عليها بسهولة، وبدأوا زحفهم نحو القاهرة برغم مواجهتهم للمقاومة التي سيطروا عليها بآلياتهم وامداداتهم، ودحر الثوار في معركة التل الكبير في ١٣ ايلول/ سبتمبر ١٨٨٢م، فاستسلم احمد عرابي وقدم للمحاكمة مع جماعته فحكم عليه بالاعدام، ثم أبدلوا الحكم الى النفي المؤبد من مصر **.

---

* انظر: عبد الرحمن الرافعي، الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي، القاهرة، ١٩٣٧. وانظر: محمود الخفيف، واحمد عرابي الزعيم المفترى عليه، ط ٤، بيروت: ١٩٨٢.

** راجع آراء ونتائج د. احمد عبد الرحيم مصطفى، مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦ الى ١٨٨٢، القاهرة، ١٩٦٦.

لقد عاد الخديوي توفيق الى القاهرة في ٢٤ ايلول/ سبتمبر ١٨٨٢ بحماية الانكليز الذين اعلنوا عن سياستهم والهدف من تدخلهم، وأن بقاءهم سيكون مؤقتاً لغاية استتباب الامن وتوطيد النظام تنفيذاً لادارة السلطان العثماني... والحقيقة ان بريطانيا قد سيطرت فعلياً على مصر، وجعلتها احدى محمياتها. اذ قامت بتسريح الجيش المصري، وقامت بنفي زعماء مصر، وتشكيل جيش جديد يتألف من ستة آلاف جندي يشرف عليه ضباط انكليز.. ثم اصدرت السلطة المحتلة «القانون النظامي» الذي أقرّ انشاء مجلسين، هماك جلس شورى القوانين والجمعية العمومية. ولكن لم يلزم المجلسان بأي سلطة الزامية، اذ كان الحاكم الفعلي لمصر هو المعتمد البريطاني اللورد كرومر Cromer (١٨٨٣- ١٩٠٦م) وهو اول (حاكم) معتمد تنصّبه بريطانيا، يساعده في عمله وزراء مصريون ونصب الى جانب كل منهم. « مستشار» بريطاني. والى جانب كل محافظ «مفتش» بريطاني..

لم تخل مصر من حركة وطنية بعد التنكيل البريطاني باحمد عرابي ورفاقه، فبدأت الاعمال المضادة للمحتلين، وبدأت التجمعات الوطنية وتنظيمات صفوف المناضلين لغرض التصدي، واصدر الوطنيون جريدة «المؤيد» لاغراض المقاومة والرد على الصحف الموالية وخاصة جريدة «المقطم» التي ارادها المحتلون منبراً لهم.. وكان الوطنيون قد اطمأنوا الى الخديوي عباس الذي ناصرهم، فخلف توفيق في الحكم عام ١٨٩٢م، وكان عباس الثاني معارضاً للانكليز وسياستهم واجراءاتهم، فازدادت ثقة الشارع المصري بحاكمه مما سبب قلقاً سافراً في الاوساط البريطانية.

لقد بقيت المقاومة الوطنية مختفية ومقتصرة على الصحف والمنشورات، ولم تشهر سلاحها لان الوطنيين كانوا ينتظرون حلولاً سياسية من فرنسا والدولة العثمانية، وانهارت آمالهم بعد اتفاق فرنسا وبريطانيا الودي عام ١٩٠٤م.. وتجلّى امامهم ضعف وخور الدولة العثمانية التي كانت في طريقها الى التغيير على يد الاتحاديين عام ١٩٠٨.. فكان ان بدأ المصريون يعتمدون على انفسهم في تعزيز روح المقاومة والتصدي..

كان من ابرز الزعماء المصريين الذين ناضلوا نضالاً شديداً هو الكاتب المثقف والخطيب اللامع مصطفى كامل الذي اصدر سنة ١٩٠٠ جريدة «اللواء» شاهراً سلاح الهجوم على السياسة البريطانية، والعمل الدائب على التثقيف الوطني حتى غدا زعيماً وطنياً.. ولا سيما اثر حادثة دنشواي المريرة والتي حدثت في ١٣ حزيران سنة ١٩٠٦م عند قرية دنشواي، وملخص الحادثة: ان ضباطاً من الانكليز ذهبوا للصيد،فدخلوا باقدامهم المزروعات، فطلب الفلاحون منهم مغادرة القرية، فانفتح نار الانكليز على الفلاحين، عندها اشتبك الطرفان، واصيب ضابط انكليزي، ثم توفي اثر حرارة الشمس، فاتهم فلاحوا دنشواي بقتله، فقدموا الى محكمة خاصة ترأسها بطرس غالي فحكم على اربعة منهم بالشنق وعلى تسعة اخرين بالاشغال الشاقة.

كانت هذه الحادثة بمثابة اشعال الفتيل، لكي تعمّ البلاد التظاهرات وثار الرأي العام، والهبت المشاعر، ونظمت القصائد.. فكان لذلك كله اثره في ان تعيد بريطانيا النظر في سياستها ، فاحالت اللورد كرومر على التقاعد في نيسان عام ١٩٠٧م بعد ان حكم مصراً حكماً استعمارياً قرابة ربع قرن.. والف مصطفى كامل سنة ١٩٠٧م حزباً اسماه بالحزب الوطني بدأ يطالب بجلاء الانكليز عن مصر وتحقيق وحدة وادي النيل بين مصر والسودان. واشتمل منهاجه على استقلال مصر كما اقرته معاهدة لندن عام ١٨٤٠م وايجاد حكومة دستورية تكون مسؤولة امام مجلس نيابي، واحترام المعاهدات الدولية، ونشر التعليم الوطني وارسال البعثات العلمية، وترقية الزراعة والصناعة والتجارة، ثم نشر الشعور الوطني، وانماء روح الارتباط الوثيق بين مصر والدولة العثمانية..

ثم تألفت احزاب مصرية سياسية اخرى كانت في تكوينها برجوازية ايضاً، فقد استطاع مصطفى كامل ان يؤثر كثيراً في مجاميع المثقفين والطلبة والموظفين، لكنه لم يؤثر في الفلاحين والفئات المسحوقة في الريف المصري. كان من ابرز الاحزاب الاخرى: الحزب الوطني الحر وحزب المصريين المستقلين وحزب مصر الفتاة.. التي لم تؤثر في البنية الاجتماعية لعدم تملكها وعياً سياسياً، فضلاً عن ان مناهجها لم تعن بالاصلاح والنهوض. وقد كان للانقلاب الدستوري العثماني في

٢٣ تموز/ يوليو سنة ١٩٠٨م اثره الكبير في الحركة الوطنية المصرية، وازدادت روح المقاومة والعمل السياسي السري، لكن المصريين لم يحققوا اهدافهم الوطنية الكبرى للفترة ١٨٨٢ وحتى ١٩١٤م، في حين ازداد تصلب الانكليز وتفاقم كثيراً باعلان بريطانيا الحماية رسمياً على مصر في ١٨ كانون الاول/ ديسمبر سنة ١٩١٤م باستغلالها اندلاع الحرب العالمية الأولى.. وتنتهي صفحة تاريخية مهمة من تاريخ مصر، لكن تبدأ صفحة تاريخية معاصرة في تاريخ الحركة الوطنية خلال القرن العشرين.

٣/ الاحتلال البريطاني لـ عدن:

بدأ اهتمام الانكليز بعدن منذ احتلال فرنسا لمصر عام ١٧٩٨م، فقد كان من نتائج الحملة الفرنسية. تهديد خطوط المواصلات البريطانية باتجاه الشرق. ولمواجهة ذلك فقد ارسلت الحكومة البريطانية في سنة ١٧٩٩م قوة بحرية احتلت جزيرة بريم في مضيق باب المندب، وذلك لمنع اي اتصال من جانب الفرنسيين بالمحيط الهندي عن طريق البحر الاحمر، الاّ انه بجلاء الفرنسيين عن الاراضي المصرية، تلاشت المخاطر ضد بريطانيا فانسحبت قوتها البحرية من بريم بعد احتلال دام عدة اشهر.

تمتعت عدن بموقع استراتيجي فعّال، وقد وجدت بريطانيا- فيما بعد- الذرائع لها للاغارة، اذ اتخذت من حادثة غرق سفينة هندية اسمها «دوريا دولت» ترفع العلم البريطاني وعلى مقربة من شواطيء عدن سنة ١٨٣٧م نتيجة اهمال بحارتها، فاستغلت تلك الحادثة وعدتها سبباً مباشراً للتدخل البحري- العسكري، فارسلت حكومة الهند البريطانية الكابتن هينس الى عدن كي يطالب بتعويض يوفيه شراء عدن.

اضطر سلطان لحج وعدن الى الموافقة على دفع التعويض المناسب، ولم يكن امر شراء عدن سهلاً، فقد كان من المستحيل ان يقبل السلطان بيع ارضه للانكليز، فراوغهم كونه عرف قدراتهم الهائلة، ولكن المفاوضات فشلت في نقل ملكية عدن الى الانكليز سياسياً، فبدأت الترتيبات العسكرية للاحتلال الاستعماري.

وفي السادس عشر من تشرين الثاني عام ١٨٣٩م بدأت المعارك بين الانكليز والقبائل العدنية ولم يكن هناك اي تكافؤ بين الطرفين، إذ سرعان ما نزل الانكليز الى الاراضي العربية في عدن وقد انتشرت فوقها اجساد الشهداء .بدأت انكلترا تنفيذ سياسة التهدئة في المنطقة حتى ضمنت استقرار الامور في عدن لصالح قوتها العسكرية ولتكريس هيمنتها من اجل كسب اكبر قدر من المصالح الاستراتيجية والتجارية - البحرية.

لقد وقعت معاهدة صداقة مع سلطان لحج، ومنحته راتباً سنوياً، ولم يجد ذلك نفعاً، اذ حاول السلطان استعادة عدن ثلاث مرات للفترة ١٨٤٠- ١٨٤١م، الا انه فشل في مجهوداته. وفي عام ١٨٤٦م كانت هناك محاولة اخرى لبعض الدعاة الذين تزعمهم شريف مكة اسماعيل بن حسن للجهاد لكنه فشل ايضاً، فترسخت اقدام انكلترا في الميناء المهم.

استطاعت بريطانيا اتباع سياسة السيطرة على القبائل بالتدخل في شؤونهم المحلية ومنحهم مكافآت وأموالاً حتى وصلت الى توقيع معاهدة حماية امنت النفوذ البريطاني في البحار الشرقية وقد استمرت حياة تلك السيطرة البريطانية على مدى ١٢٩سنة. خاض الشعب العدني نضالاً مريراً من اجل الاستقلال الذي حققه عام ١٩٤٧م *.

* راجع تحليلات د. فاروق عثمان اباظة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ١٨٣٩- ١٩١٨، القاهرة، ١٩٧٦.

٢- المظاهر الحديثة:

النهضة والدستور والقومية العربية

١/ اوليات النهضة العربية:-

لقد أثر الوجود المصري بقيادة ابراهيم باشا في سوريا كثيراً لا سيما وانه اتبع سياسة متسامحة ازاء حركة الارساليات الاجنبية والبعثات التبشيرية الغربية. فاتيح لبلاد الشام مجال عمل كبير لفعاليات الافرنسيين والامريكان النشيطة، خاصة وان تلك الفعاليات كانت متواصلة مع ما كان قد قدمه الاوروبيون الى كل من حلب والموصل وبيروت من جهود عملية منذ القرن السابع عشر وعلى الرغم من اقتصار تلك الجهود على تأسيس المدارس والمعاهد ونشر الكتب فانها كانت مصبوغة بالكاثوليكية الفرنسية او الايطالية منتسبة الى اليسوعيين او الكبوشيين او الكرمليين او الدومنيكان.. فانحصرت كل تلك الجهود العملية والنشيطة في رعاية الطوائف المسيحية الموالية لبابا روما.

كان اليسوعيون قدماء في صلتهم ببلاد الشام، اذ يعود تاريخهم الى سنة ١٦٢٥م، وكانوا يصادفون مشاقاً واضطهادا وفقراًمدقعاً لكنهم ثابروا وصابروا لكي ينجحوا في مهامهم حتى عطلت جمعيتهم في سنة ١٧٧٣م، فتشتتوا ولم يستأنفوا العمل حتى سنة ١٨٣١م. ثم نزل البربسبيتريون بيروت جزءاً من البعثات الامريكانية، وقد اسسوا اول مركز مهم لهم من اجل التبشير بالبروتستانتية، فأضمر لهم رجال الدين العداوة والبغضاء لكنهم لم يبرهنوا عن قوتهم، وخاصة من قبل الملل والطوائف الاخرى، وكانوا قد انحصروا في بيروت اولاً، ولكن بعد مجيء ابراهيم باشا انفتح الطريق امامهم للعمل في مدن اخرى، وقد صل التنافس اعلى درجة له بين البعثات التبشيرية، ولا سيما بين الكاثوليك والبروسبيتريين، حتى وصلت الى درجة التناحر *.

كان اليسوعيون من اكثر البعثات نشاطاً وعزيمة في ميدان التعليم، وخصوصاً للذكور بانشائهم للمدارس في بيروت سنة ١٨٣٩م ومدن اخرى

* انظر ابرز مرجع في تاريخ النهضة العربية٬ جورج انطونيوس، يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية، قدم له٬ د. نبيه امين فارس. ترجمة: د. ناصر الدين الاسد، د. احسان عباس، ط٥، بيروت، ١٩٧٨، ص٩٩.

كدمشق سنة ١٨٧٢م وحلب سنة ١٨٧٣م. ثم اسسوا جامعة في بيروت سنة ١٨٧٥م اسموها بجامعة القديس يوسف التي صار لها دورها البارز في تحديث اجيال عدة الى جانب الجامعة الامريكية. اما البعثات التبشيرية الاخرى فقد اعاد الليعازريون افتتاح كليتهم ومدارسم للبنين والبنات في بيروت وبعلبك ودمشق ومناطق اخرى.

ولكن جهود البعثات التبشيرية الكاثوليكية بقيت باستثناء اليسوعيين والليعازريين جهوداً محلية ضيقة ومحددة على الرغم من الظروف التاريخية الصعبة التي كانت تهزّ المشرق العربي.. وقد برز في ذلك الطور من حياة العرب شخصيات عدة في ابرز المدن والحواضر العربية التي غدت امهات للثقافة والفكر العربي الحديث.

انتهت السيطرة المصرية على بلاد الشام في سنة ١٨٤٠م، بعد ان عاشت المنطقة اضطرابات كبيرة وبعد ان اصابت تلك السيطرة مقتلاً في بلاد تتنوع عناصرها السكانية ديموغرافياً واثنوغرافياً ودينيا، فقد اختل التوازن بين العناصر السكانية التي عاشت قروناً طويلة على اعلى درجة من التآلف والتوادد والتعامل، وبخاصة بين العناصر المسيحية والدروز والمسلمين.. وقد نشأ كل ذلك اثر العمليات التي قام بها ابراهيم باشا إذ أثارت القلق، وخلقت مشاعر البغضاء.. ولا نخفي صدور مرسوم «خطي شريف كولخانة» خلال تلك الفترة من عام ١٨٣٩م وقد تضمن اصلاحات شتى،

وفي عام ١٨٤١م، ولد نظام اداري جديد في جبل لبنان نتيجة الاضطرابات الناشبة، واصبح يتّولى السلطة حاكم تركي/ عثماني بديلاً عن المقاطعجية (= امراء الاقطاع)، ذلك الحاكم الذي يعينه الباب العالي. وقسّم الجبل الى قسمين: قسم للمسيحيين وقسم للدروز.. ولم تستقر الامور، إذ نشبت الاضطرابات مرة اخرى عام ١٨٤٥م، وازداد القتل والسلب والنهب، حتى طال الاديرة الكاثوليكية ورهبانها، فارسلت اسطنبول وزير خارجيتها شكيب افندي فاحدث بعض التغييرات من خلال اصلاحاته في نظام الادارة، وقلّل من نفوذ بقايا المقاطعجية اكثر، وابقى على تقسيم الجبل، فولد هدوء من نوع جديد. ثم بدأ الباب العالي يعالج اوضاع مدينة القدس التي كانت انظار الأوربيين كافة موّجهة نحوها، حيث كان الخلاف محتداً بين الطوائف المسيحية على الامتيازات والحقوق وقد أدى ذلك

الخلاف وتعقيداته السياسية/ الدولية الى نشوب حرب القرم وبعدها اصدر السلطان العثماني في ١٨٥٦م – كما درسنا – مرسوماً جديداً باسم «خطي شريف همايون» الذي تضمن اعترافاً صريحاً بالمساواة الكاملة بين جميع الاديان في الامبراطورية العثمانية في شؤون الضرائب والقضاء والحقوق والواجبات المدنية(*).

عوامل الانبعاث والنهضة الفكرية عند العرب في القرن التاسع عشر:-

إذا كان القرن التاسع عشر قد اتّسم بـ «الثورة الصناعية» في اوروبا، وولادة المناهج العلمية والفلسفية الحديثة، اضافة الى كونه «عصر الرومانسية».. فقد اتسم بالظاهرة الاستعمارية للوطن العربي، وولادة الحركات الاصلاحية، والتفكير بالانفتاح على العالم، وعلى اوروبا بدرجة اولى .. فظهر خلاله كثير من عوامل الانبعاث والنهضة الفكرية.. ناهيك عن ولادة وتبلور انظمة سياسية وادارية واقتصادية جديدة، تّم تطبيقها في اكثر من مكان من البيئة العربية (وقد فصّلنا في الفصول المتقدمة العديد من الأساسيّات التاريخية في حياة العرب خلال القرن التاسع عشر). ويمكننا ان نقف قليلاً عند ابرز العوامل التاريخية التي عملت على تبلور نهضة فكرية في اكثر من مكان، ويمكننا تحديد ذلك بـ مصر وسوريا ولبنان وتونس والمغرب والموصل:

١ كان للحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨– ١٨٠١م، اثرها البالغ في حركة النهضة الفكرية – العربية، إذ فتحت ابواب مصر وبلاد الشام على مظاهر التحضر الاوروبي الحديث، اذ كان يرافق الحملة عدد كبير من العلماء الفرنسيين الذين قاموا بانجاز كثير من المهام العلمية والفنية والتقنية في مصر.. منحت جميعها للمصريين امكان التفاعل معها ضمن اطر ومجالات متنوّعة.

---

*For detais see MosheMa'os Ottoman Peform in Syria and Palestine, Oxford Univ. Press 1968.

وانظر د. عبد الكريم غرايبة، سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠- ١٨٧٦، جامعة الدول العربية، ١٩٦٠ - ١٩٦٢، ايضا

A. L. Tibawi, A modern history of Syria, including Lebanon and Palestine; Macmillan St. Martin's Press, 1969.

٢- كان للارساليات التبشيرية والعلمية والآثارية دورها الفعّال في تنبيه الرأي العام العربي الى فجوة التخلف بينه وبين العالم المتقدم.. وعلى الرغم من توافد تلك الإرساليات الى بلاد الشام والعراق منذ القرن السابع عشر، كان معظمها يبشر بـ المذهب الكاثوليكي، الا ان القرن التاسع عشر يعّد عصرها الذهبي، إذ شهد حركة واسعة في بيئات عربية عديدة لتلك الارساليات التي انشأت المدارس والجمعيات العلمية والادبية، ونشطت في مجالات الخدمات الصحية والترجمة وتحديث اللغة العربية.. ومن ابرز جمعياتهم. «زهرة الآداب» و «جمعية المقاصد الخيرية» و «الجمعية الخيرية» و «المجمع العلمي الشرقي» و «الجمعية التاريخية»و «جمعية الفنون الطبية».*

٣- اسهم محمد علي باشا حاكم مصر في بلورة النهضة بمصر ورعى البذور التي زرعها الفرنسيون فيها، وقام بارسال المزيد من البعثات العلمية الى اوروبا (وخاصة فرنسا) فكان ذلك عاملاً غير مباشر في رفد الثقافة العربية خلال القرن التاسع عشر بالافكار الجديدة والعناصر المستنيرة، كان من ابرز روادها: رفاعة رافع الطهطاوي ١٨٠١- ١٨٧٣م والشيخ علي مبارك ١٨١٦- ١٨٨٦م، وصالح مجدي وعبد الله ابو السعود وعبد الله فكري وغيرهم.

٤- كانت للطباعة والصحافة الآثار البالغة في بلورة النهضة واتساع الاستنارة، إذ ساهمت المطابع في نشر كثير من المؤلفات والكتب العربية التراثية واللغوية والتاريخية وخصوصاً في لبنان والموصل وسوريا ومصر.. كما ونهضت «الصحافة» بدور طليعي وتحديثي في تقويم الحياة الثقافية العربية، وازداد حجم انتشار الصحافة في البلاد والمدن العربية، فايقظت الاذهان، وحملت الدعوات الفكرية والسياسية الى الرأي العام بالمزيد من الافكار الجديدة، وغرس النوازع الوطنية والقومية.. ونشر الاخبار والنصوص والقوانين والوقائع.**

---

* للتوسع، انظر. د. مصطفى خالدي، و د. عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت. ١٩٥٣.

** للاستزادة. الأب لويس شيخو، الآداب العربية في القرن التاسع عشر والعشرين، (٣ اجزاء) بيروت، ١٩٢٦

٥- بدأت حركة الترجمة عن اللغات الاجنبية الى اللغة العربية تتّسع منذ مطلع القرن التاسع عشر. وقد اعتمدها محمد علي باشا حاكم مصر احد ابرز الشروط لتحديث مصر، مؤسساً مدرسة الالسن في عام ١٨٣٥م بعد ان كانت «الترجمة» قد بدأت في بلاد الشام، وتولّت الجمعيات والمجلات والصحف كـ «المقتطف» و «الهلال» وغيرهما ترجمة المزيد من المقالات والادبيات والاخبار ونشرها بالعربية، فكان لذلك ابلغ الاثر في اطلاع العرب على ثقافة الغربيين وآدابهم وعلومهم ومبادئهم السياسية واجراءاتهم الاقتصادية، وافكارهم الحرة.

٦- تميز النصف الثاني من القرن التاسع عشر بظهور عدد من الجمعيات العلمية والمنتديات الادبية، وبخاصة في بلاد الشام. وقد كان لتلك التجمعات الثقافية دور بارز وكبير في بلورة النهضة الفكرية- العربية، وقد سادها روح التعاون والتقيّد باللوائح والقوانين المرعية، كما كانت دعماً لجهود الاكاديمية التي بذلها العديد من الاساتذة والمستشارين الغربيين.

٧- كان للمستشرقين والامريكان الدور المؤثر في الاهتمام بالفكر والتراث العربي. ويعد الاستشراق من العوامل الرئيسية في نهضة اوروبا العلمية والادبية والفنية في مطلع العصور الحديثة. وقد قام كثر من المستشرقين المتنوعة اختصاصاتهم برحلات عدة الى المنطقة العربية في ظروف شتى ومن خلال اسباب عديدة، وقد اثاروا بكتاباتهم وآرائهم تفكير المثقفين العرب واهتماماتهم بمختلف القضايا الاساسية في الحياة العربية والاسلامية.

٨- كان للهجرة الداخلية - العربية دور أكيد في التعرف على الذات، وقد دعمت هذا العامل العوامل السابقة، فالهجرة العربية- العربية معروفة في الحياة الثقافية العربية منذ القدم، ولكن كان للتوطن الجديد والتعرف على المعالم الحضارية واستخدام الوسائل والادوات الجديدة كالنشر والصحافة والطباعة الآثار البالغة في عملية النهضة العربية، كما حدث عند كل من السوريين واللبنانيين والتوانسة والمغاربة والمصريين وغيرهم. وقد تأثر بعض منهم ببعض الحركات الاجنبية الهدامة كالماسونية مثلاً.

٢- الافكار العربية الجديدة :-

لقد نتج عن اتصال العرب بالغرب ان تعّرفوا على كثير من الحركات السياسية والمفاهيم التاريخية وانظمة الحكم الغربية. وكان للثورة الافرنسية ان اعجب بها العرب على غرار بقية الشعوب الاخرى قاطبة، اعجبوا بمبادئهم في الحرية والاخاء والمساواة خلال القرن التاسع عشر، فظهرت لاول مرة فكرة «المواطنة» و «الوطن» و«حقوق المواطن»، وكان من اوائل الذين تناولوا ذلك رفاعة رافع الطهطاوي في كتابه «المرشد الامين»، وكذلك خير الدين التونسي الذي حاول ان يجد في الافكار الأوروبية الجديدة مرجعية لها في التاريخ الاسلامي.. ثم جاء دور جمال الدين الافغاني الذي رسم فكره على النهج الذي تحدّث به خير الدين من حيث الدعوة الى الاصلاح السياسي إذ خاطب الافغاني الشعوب الاسلامية على المطالبة بحقوقها المسلوبة. وشارك شبلي الشمّيل فكرة خير الدين التونسي القائلة بأن: انظمة الحكم الاوروبية كانت هي السبب في رقي اوروبا وتقّدمها.. ثم ظهر عدد من المفكرين العرب الذين نادوا بالاصلاح السياسي على قاعدة دستورية- عثمانية، فقد كان بطرس البستاني يعقد الآمال على قيام الدستور العثماني في ٢٣ كانون الاول/ ديسمبر ١٨٧٦م، وهناك ايضا الشيخ محمد عبده الذي تأثر بالطهطاوي، وكذلك عبد الله النديم في كتاباته.. وقد تأثر كلاهما بحركة احمد عرابي.. ويكاد يتفق اغلب المؤرخين المحدثين على ان الاتجاه نحو الوطنية قد ظهر في مصر ونما فيها، وكان له فاعليته واثره على الكتاب والمفكرين العرب. ونستطيع القول أنه اذا كان للوعي الوطني ان ينمو في مصر فقد كان الوعي القومي- العربي قد ظهر وتبلور في بلاد الشام. واذا كان احمد فارس الشدياق قد تحدث عن الوطنية ولكن كان الوعي السياسي العربي يتجلى عند اديب اسحق الذي تأثر بافكار الثورة الفرنسية وآمن ايماناً راسخاً بالحياة الدستورية والولاء العثماني. اما عبد الرحمن الكواكبي فقد نادى بفكرة «الخلافة العربية» اتجاهاً مضاداً لـ «الخلافة العثمانية» الي طبقها السلطان عبد الحميد الثاني اثر الغائه الدستور العثماني *.

* ابرز من عالج هذه الافكار بالتفصيلات والنقد المقارن كتاب:
د. سيار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من اجل بحث رؤيوي معاصر، ط ١، بيروت، ١٩٨٩، ص ٥٠- ٥٦.
ومن المهم جداً: مراجعة تحليلات: البرت حوراني وبسّام طيبي ومحمد عمارة و محمد عابد الجابري.

٣- الامتيازات الاجنبية:-

معناها منح رعايا الدول الاجنبية المقيمين في الامبراطورية العثمانية، او السائحين فيها او المارين باراضيها «امتيازات» خاصة لم يتمتع بمثلها العثمانيون انفسهم، وقد كانت هذه «الامتيازات» بمثابة سلاح قتال استخدمته الدول الاجنبية ضد الدولة العثمانية. التي بدأت بمنح اولى الامتيازات التجارية والقانونية لفرانسوا الاول ملك فرنسا من قبل السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر.

ومن اشهر الامتيازات العثمانية خلال القرن التاسع عشر: اعفاء الاجانب من الضرائب المباشرة، ومن جزء كبير من رسوم الكمارك. ولا يمكن ابدا لسلطان الدولة العثمانية دخول اي بيت من بيوت الاجانب في اراضيها مهما كان السبب وحتى وان ارتكبت جرائم فيها، إذ انيطت مسائل كهذه الى القناصل الاجانب، يقومون بالتحقيقات والمحاكمات. ولكل أجنبي الحق في ان يتجول في البلاد العثمانية كما يشاء هواه، واذا اصابه مكروه عمداً او قضاء وقدراً فان حكومة بلاده تطالب بديته اضعافاً مضاعفة من اجل الحصول على امتيازات جديدة. معنى ذلك: ان القوانين العثمانية لم تكن تطبق على الاجانب من رعايا الدول الاخرى في الامبراطوريات العثمانية.

لقد توسعت عمليات تلك الامتيازات مع توالي ضعف الدولة العثمانية، لتشمل الانكليز والفرنسيين، ثم الهولنديين والايطاليين والاسبان،ثم الامريكان ورعايا النمسا وروسيا واليونان.. واخيراً اصبحت الشعوب والاقليات غير المسلمة تتمتع باستقلالات طائفية في الدولة العثمانية، سواء ما يتعلق بالاحوال الشخصية، او الاعفاء من الخدمة العسكرية والضرائب والملاحقات القانونية.. وقد ألغيت هذه الامتيازات عام ١٩١٤ بعد نشوب الحرب العالمية الأولى.

لقد كان من نتائج ازدياد عمليات الامتيازات الاجنبية ولادة نزاعات سياسية بين الدول الاوروبية كانكلترا وفرنسا على «حماية» الاجانب في الامبراطورية العثمانية الذين ليس لدولهم تمثيل دوبلوماسي في اسطنبول كالبلغار والارمن واهل الارجنتين وتشيلي والمكسيك.. وقد استطاع القناصل ان يتمتعوا بمصالح

وامتيازات كبرى تخطوا بموجبها القوانين المرعية، وعمل معهم او ضمن تراكيبهم العشرات من المبشرين والرحالة والآثاريين والمستشرقين والتجار والاطباء والمنتفعين.

اما بالنسبة للاقاليم العربية فقد كان لتلك «الامتيازات» دور فعال في عدد من الحواضر العربية وقد نتج عن بعضها المزيد من القلاقل والاضطرابات والانقسامات نتيجة وضع «الفوارق» في التعامل مع رعايا العثمانيين... وتعد بنود تلك الامتيازات من اكبر الاخطاء التي ارتكبتها الدولة العثمانية بحق اقاليمها ومجتمعاتها وبيئاتها المهمة.

٤- التيارات والاتجاهات السياسية والفكرية عند العرب *.

لقد ظهرت تيارات سياسية عدة منها:

١- **تيار الجامعة الاسلامية:** وقد ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كرد فعل قوي ضد الغزو العسكري الاوروبي والثقافي الغربي للعالم الاسلامي وبضمنه «الوطن العربي». ظهر التيار على يد جمال الدين الافغاني الذي كان من ابرز دعاته، وكان منطلقه ان الاسلام هو دين صالح لنهضة المسلمين، لكن لا بد من تقليد الغرب والتقدم في المجال المادي. ومن ابرز المباديء التي تقوم عليها هذه الدعوة هي:-

١/ اتخاذ الوازع الديني عند المسلمين اساساً في المعركة ضد الاستعمار الاوروبي.

٢/ العمل من اجل إقامة الوحدة الاسلامية طريقاً لمقاومة الغزو الاوروبي.

٣/ ادخال الاصلاحات الكثيرة الى الدول الاسلامية.

٤/ بعث النشاط والهمة لقوى المسلمين الضعيفة.

---

* لقد اختصرت هذا الموضوع كثيراً لانه يقع اساساً في تاريخ الفكر العربي.. ولاغراض التوسع تراجع افكار جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا.. وكتابات مصطفى كامل وشبلي الشميل وشكيب ارسلان وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم.

٢- **تيار الرابطة العثمانية:** يعتمد هذا التيار السياسي على مبدأ «العثمنة» اساساً في الترابط بين الدولة ورعاياها من الملل المختلفة. ويرى اصحابه بأن الدولة العثمانية هي دولة مثالية بكل معنى الكلمة!، نظراً لاعتمادها على الارث التاريخي العثماني فلم يفكروا بالانفصال عنها انفصالاً نهائياً، لقد ظهر هذا التيار بوضوح في مصر بعد الاحتلال البريطاني لها في عام ١٨٨٢م، ومثله مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني واستقطب بعض رجالات الفكر والثقافة في كل من مصر وبلاد الشام وقبل تبلور الفكرة القومية – العربية، ومنهم مثلا احمد شوقي ومعروف الرصافي وجرجي زيدان وقد ولد عن هذا التيار تيار سياسي آخر تمثله «الفكرة اللامركزية».

٣- **تيار اللامركزية الادارية العثمانية:** تبلور هذا التيار السياسي كرد فعل تجاه تمادي الاتحاديين في سياستهم، وفشل الجهود المخلصة لاقناعهم بالاخوة العربية التركية وقد ترأسه ووضع بيانه رفيق العظم الذي كان مؤيداً في بداية الامر للحركة الاصلاحية في بلاد الشام.. لكن مجموعة التناقضات السياسية ترافقت مع ضعف الدولة العثمانية، فقد بدأ العظم مع غيره من المثقفين العرب يدعون الى تاسيس العلاقة العربية- العثمانية على مبدأ اللامركزية في الحكم كما اوضح ذلك شكيب ارسلان فيما كتبه عن «بيان للامة العربية عن حزب اللامركزية». كما اوضحته ايضاً لائحة الحزب الاصلاحية في بيروت.

٤- **تيار القومية العربية:** وهو تيار وليد للنهضة الفكرية – العربية وقد مثلته عدة من الجمعيات السرية والعلنية التي نددت بالحكم التركي، وطالبت بمنح الحرية والاستقلال، والاعتراف باللغة العربية، وغير ذلك. وهناك دعوة عبد الرحمن الكواكبي لاقامة «خلافة عربية» في كتابه «ام القرى».. ويرى بعض المؤرخين ان دعوته تلك كانت وراء تشكيل الجمعيات والمنظمات السرية فيما بعد لمقاومة الاستبداد التركي، ويرى آخرون ان الدعوة الى الفكرة القومية كانت حتمية بفعل التاثر بالمسألة الشرقية ومطالب الشعوب.. ان ابرز من يمثل هذا التيار هو نجيب عازوري الذي دعا الى «عصبة الوطن العربي» في باريس، وقد أثار في كتاباته اهتمام الرأي العام بقضية العرب التحررية، فضلاً عن المؤتمر العربي الاول

في باريس والى نشاطات جمعيات وعناصر قومية في كل من بلاد الشام والعراق*

٢/ عهد عبد الحميد الثاني ١٨٧٦- ١٩٠٩

١- مسألة الدستور العثماني:-

ارتقى السلطان عبد العزيز الأول عرش الدولة العثمانية في عام ١٨٦١م، ولم يمتلك خصالاً سياسية تساعده على مواصلة البناء الاصلاحي في المركز واللواحق.. كان كثير الاخطاء، شديد التبذير.. وقد ازدادت النقمة على سياسته، وبدأ المجتمع العثماني يتطلع الى تجارب الشعوب الاوروبية في السيادة

---

* للاستزادة حول المواضيع اعلاه، احيل القارئ الى المرجعيات التالية.

هـ. ا. ر. كيب واخرون، وجهة الاسلام: نظرة في الحركات الحديثة في العالم الاسلامي، تعريب. محمد عبد الهادي أبو ريدة، (المطبعة الاسلامية)، القاهرة، د. ت. (ارخت مقدمته في ١٩٣٤)

- ذوقان قرقوط، تطور الفكرة العربية في مصر ١٨٠٥- ١٩٣٦، بيروت، ١٩٧٢.

- مجيد خدودي، الاتجاهات السياسية في العالم العربي. دور الافكار والمثل العليا في السياسة، بيروت، ١٩٧٢.

- احمد امين، زعماء الاصلاح في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٤٩.

- هشام جعيط، «النهضة والاصلاح والثورة في العالم الاسلامي الحديث»، مجلة المستقبل العربي، العدد(٣٨) السنة (٤)، نيسان/ ابريل ١٩٨٢.

وانظر ادناه بالانكليزية

- Bassam Tibi, Arab Nationalism: A Critical Enquiry, translated by M. F. Sluglett and P. Sluglett, New York, 1981.

- H. Sharabi, Arab intellectuals and the West: The Formative Years, 1875- 1914, Johns Hopkins Univ, 1970.

ومن الأهمية، مراجعة كتاب

البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨- ١٩٣٩، ترجمة: كريم عزقول، ط٣، بيروت، ١٩٧٧. وكتاب: د. عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للامة العربية دراسة في الهوية والوعي، بيروت، ١٩٨٤. وكتاب د. وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، ط١، بيروت ١٩٨٨.

والدستورية وتقييد السلطات والحد من الحكم المطلق.. فانتهى حكمه بعد (١٥) عاماً اثر خلعه، فخلفه السلطان مراد الخامس الذي كان مصاباً بصرع لا يرجى علاجه، فخلع هذا الاخير بعد ثلاثة اشهر، ثم نودي بالسلطان عبد الحميد الثاني في ٣١ آب/ اغسطس ١٨٧٦م، والذي دام حكمه (٣٣) سنة، أي حتى خلعه عام ١٩٠٩. ويعد عهده من أبرز الفترات التراكمية الخطيرة التي ازدحمت خلالها الاحداث التاريخية التي أثرت على حياة الدولة العثمانية، سواء باعلان الدستور العثماني والغائه، ثم سريان روح الثورة السرية وظهورها الى العلن...الى ظاهرة الضعف الاقتصادي الذي حاق بالدولة، وخواء الميزانية وعجزها.. على الرغم من الصفات التي تحلى بها عبد الحميد الثاني الذي كان سلطاناً ورعاً متديناً، لكنه كان حاكماً مطلقاً له القدرة على اخفاء مآربه.. فضلاً عن انه كان يحب التقدم والتجديد، وقد تطور كثير من الاجهزة والمرافق العثمانية في عهده.

عمل السلطان عبد الحميد الثاني على اصلاح الشؤون الداخلية في الدولة العثمانية، إذ نصب مدحت باشا رئيساً للوزراء، واصدر في ٢٣ كانون الاول/ ديسمبر ١٨٧٦م «الدستور العثماني» الذي ساهم بوضعه مدحت باشا الذي كان يؤمن بالمبادئ الحرة والدستورية والمساواة بين رعايا الدولة.. وكانت الافكار الحرة والدستورية قد بدأت بالنمو والتفاعل في المجتمع العثماني من خلال عاملين اساسيين هما:

١- نمو الوعي القومي.

٢- فساد الحكم المطلق.

لقد آمن مدحت باشا بالحكم الدستوري وادماج القوميات المختلفة في رباط عثماني موحد ولكن «الدستور العثماني» لم يوفر كل المتطلبات الحقيقية بصورته التي صدر عليها رغم مجموعة تعديلات اجراها السلطان.. ولم يستمر العمل بالدستور الذي لم يجد فيه عبد الحميد الثاني ما يلبي رغباته، فضلاً عن ان اصداره له كان مجرد تمويه حتى يصل بوساطته الى السلطة، والى تعطيل التدخلات الاوروبية..وبعد ان تحقق ذلك كله بدأ السلطان عبد الحميد بشن حملة سياسية واعلامية ضد التوجهات الدستورية واقطابها وعلى رأسهم مدحت باشا الذي عزل في مطلع شهر شباط/ فبراير ١٨٧٧م، ثم تذرّع باعلان روسيا الحرب، فاصدر

قانونا عطّل به «الدستور العثماني» بعد شهور قليلة من تسنّمه الحكم. وبعد انتهاء الحرب الروسية– التركية، فرضت معاهدة سان ستيفانو الجائرة على العثمانيين، مما حمل بريطانيا التدخل لحمل روسيا على تعديلها مستبدلة اياها بمعاهدة برلين في شهر تموز/ يوليو سنة ١٨٧٨م، ووالتي أثرت بصورة مباشرة على الولايات العثمانية في شرقي اوروبا دون ان تمس بنودها أية ولاية من الولايات العربية لا من قريب ولا من بعيد!

هكذا، غدا عبد الحميد بعد تعطيله للدستور وبعد ابرام معاهدة برلين يحكم حكماً مطلقاً طويلاً ازدادت خلال عهده التناقضات وسوء استغلال السلطات واستشراء الفساد الاداري/ البيروقراطي والمالي/ الاقتصادي بدرجة كبيرة.

٢- السلطان عبد الحميد الثاني والولايات العربية:

كانت البلاد العربية في كل من آسيا وافريقيا العربيتين والخاضعة لحكم السلطان عبد الحميد الثاني، هي العراق وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية في آسيا العربية. وحسب النظام الاداري– العثماني وتطبيقاته على بلاد الشام التي قسمت الى ولايتين اثنتين وسنجق واحد، وكان تقسيماً متداخلاً مما اضطر الحكومة العثمانية ان تستبدل به نظاماً اخر في عام ١٨٨٧م، حيث قسمت بلاد الشام بمقتضى بنوده الى ثلاث ولايات وسنجقين هي: ولاية حلب شمالا وولاية بيروت غرباً وولاية الشام شرقاً، وسنجق جبل لبنان وسطاً وسنجق القدس جنوباً.

اما العراق، فقد ارجع تقسيمه الثلاثي السابق: ولاية الموصل شمالاً وولاية بغداد وسطاً وولاية البصرة جنوباً. في حين لم يسعف شبه الجزيرة العربية لا التنظيم الاداري المتناسق ولا نظام الادارة المركزية الدقيق، بفعل التطورات السياسية والدينية التي شهدتها سواحل الخليج العربي وهضاب نجد ومدن الحجاز. لقد عيّن على اقليم الحجاز والٍ عثماني منذ سنة ١٨٤١م بقصد اخضاع الاماكن المقدسة للمسلمين وابعادها عن هيمنة الحركات الدينية/ الاصلاحية العربية كالوهابية او السنوسية او الشوكانية... وغيرها.

اما اليمن فقد تجردت نحوها حملتان عسكريتان عثمانيتان من اجل تأسيس حكم عثماني مباشر– كما علمنا– كانت الحملةالأولى سنة ١٨٤٩م، وكانت الثانية

في سنة ١٨٧٢م. وبقي النفوذ العثماني محصوراً في منطقة ساحلية واحدة تطل على الخليج العربي، إذ كان التغلغل التركي واضحاً في اقليم الاحساء (= سنجق الحسا) الذي احتل في عام ١٨٧١م. ولم يستطع الاتراك من السيطرة على دواخل الجزيرة العربية لعقبات كثرة منها: المسافات الصحراوية الشاسعة وتخلف وسائل النقل والمناخ القاسي وندرة المسالك والبعد عن السواحل وشحة المياه... الخ.

وكانت المناطق الساحلية والمدن والموانئ الاستراتيجية العربية المهمة قد وجدت نفسها يوماً بعد آخر امام الاساطيل البريطانية التي كانت تبحث لها عن مواطئ قدم ومحطات وقود وتعبئة عند الشواطئ في قلب العالم الذي كانت تسيطر على اجزاء كبرى منه، وقد عمدت بريطانيا الى احتلال العديد من الجزر عند مدخل البحر الاحمر، وعقدت معاهدة مع مسقط، واحتلت عدن في عام ١٨٣٩م.. ثم بدأت تتقدم لتوطيد مصالحها في شواطئ الخليج العربي.. ولكي تغدو حرية البحار المحيطة بشبه الجزيرة العربية من الاسس والمرتكزات «اللوجستية» التي تقوم عليها السياسة البريطانية في الشرق.

اما افريقيا العربية فعندما تولى عبد الحميد السلطنة كانت دولته تشتمل على تونس وليبيا و مصر والسودان بعد ان كانت الجزائر قد افتقدتها الدولة منذ عام ١٨٣٠م، ثم افتقدت تونس عام ١٨٨١م، احتلت بريطانيا مصر في عام ١٨٨٢م وكذلك السودان في العام نفسه الذي احتله الانكليز من خلال مصر.. وقد قامت بريطانيا بالاعتراف للسلطان بالسيادة الاسمية على كل من مصر والسودان، في حين لم تفعل فرنسا ذلك مع تونس والجزائر، ولم يبق للأتراك من شواطئ على البحر المتوسط في افريقيا الشمالية الا ليبيا التي كانت مقسومة الى ولايتين عثمانيتين هما ولاية طرابلس الغرب وولاية بنغازي.

٣- عبد الحميد الثاني وافكار "الجامعة الاسلامية":- مشروع الخلافة

ويقترن اسم السلطان عبد الحميد الثاني بافكار «الجامعة الاسلامية»، فعندما اعتلى عرش السلطنة كانت قد مضت بضع سنوات على الدعوة الفكرية التي نادى بها السيد جمال الدين الافغاني الذي دعا من خلالها كل المسلمين الى تجديد حياتهم الشرقية على اسس اعتمدت الماضي الاسلامي الزاهر. ويعد الافغاني من اشهر الدعاة المحدثين الذين شهدهم العالم الاسلامي، وكان يهدف الى رفع مستويات

المجتمعات الاسلامية الى المستوى الذي بلغته المجتمعات الحرة المتقدمة، ولكن ليس من خلال ادوات ووسائل تلك المجتمعات الاوروبية، بل من خلال نشر التعليم وتطبيق الدين تطبيقاً يتلاءم وروح العصر مشترطاً ان تكون البلاد الاسلامية متحرّرة من السيطرة الاجنبية كون ذلك يمهد الطريق للنهضة الفكرية– الروحية.

كانت هذه الافكار التي بثّها الافغاني في مصر خلال اقامته فيها للفترة ١٨٧١ - ١٨٧٩م قد انتشرت كثيراً لأنها ترمي اساساً الى احياء الاسلام بشمولية كاملة، ومنذ ذلك الوقت بدأ السلطان عبد الحميد الثاني يؤسس مشروعه السياسي/ الديني القائم على تلك المرتكزات. ولكن؟

لم تكن سياسة عبد الحميد الثاني بصورة عامة قد اقترنت اقتراناً كاملا بالنهج الذي اذاعه جمال الدين الافغاني الذي كان قد مالأ الخديوي عباس في مصر من قبل.. فكان ان اتخذ عبد الحميد من تلك الافكار، محاولة لتكريس الوازع الديني في سلطنته الضعيفة وليقّوي من نفوذه وسيطرته، كما وحاول بشتى الطرق تكريس ظاهرة اسلامية السلطنة رامياً: اظهارها على اساس انها «دولة خلافة» وان السلطان هو «خليفة المسلمين» دون مراعاة للأسس والقواعد الشرعية، وقد اصبح مصطلح «الخلافة» مجرد تعبير رمزي/ روحي للتشريف بعد ان ازال العثمانيون ذلك الرمز الروحي في عام ١٥١٧م وعلى يد السلطان سليم الاول عندما غزا مصر وقضى على الخلافة العباسية التي كانت تعيش في ظل المماليك.

هكذا، كانت خطة عبد الحميد الثاني طموحاً بالدعوة الى اعادة «الخلافة» الى مكانتها الروحية، وجعلها مقترنة بالحكم والسلطة، واتخاذها دعامة تستند عليها الدولة والمجتمع ومؤسساتها. فاقترنت تلك «الخطة» بالدعوة لجمال الدين الافغاني، ولكنه اقتران سطحي زائف، على الرغم من ان عبد الحميد الثاني قد كسب بعمليته تلك قطاعات كبيرة من الرأي العام عند المسلمين. وكسب ولاء كثير من الشعوب لعرشه وادّخار حماسة دينية في اصقاع العالم الاسلامي. ولكن من جانب آخر، أثار سخط المثقفين والاحرار الذين وجدوا في خططه الدينية مشروع فشل لحكم «الدستور» وتعزيز حكمه المطلق في ارجاء الدولة العثمانية. ولم تنفعه تلك الخطط في معالجة واقعه السياسي والاقتصادي، فمن الناحية المالية، عانت

الدولة من الافلاس، إذ قادت سياسته الاقتصادية الى المزيد ن الصعوبات، فمن اجل الحصول على الاموال قام بارتهان الموارد الرئيسية للدولة لدى بعض اصحاب رؤوس الاموال من الاجانب وخصص الاموال التي حصل عليها لاعادة تنظيم الجيش، فانفق مبالغ طائلة على الكليات الحربية والتدريب العسكري..

اما سياسته الخارجية فقد اخضعها لرغباته وافكاره الخاصة مؤطراً اياها بـ «الاسلام» وإذ كان عبد الحميد الثاني يرمي الى تثبيت مكانة دولته التركية (باعتباره اياها انها لم تزل دولة قوية ومؤثرة) بين الامم. وقد اراد بجعل نفسه «خليفة للمسلمين في داخل الدولة، ثم كسب الاحترام والهيبة لدى المسلمين خارج حدود الدولة. كان يطمح ان يتزعم العالم الاسلامي، وقد اشتهر بأنه يتصف بالزهد والتقشف ومزاولة الشعائر الدينية ومنع الخمر واللهو في عاصمته، وغدا قصره يعج بالفقهاء ورجال الدين، وعين لنفسه مستشارين منهم.. كما كان يوزّع الصدقات والاعطيات، ويرسل عدداً كبيراً منهم الى الدعوة لافكاره الى شتى المدن.. كما اسّس معهداً لتدريب الوّعاظ الذين يرسلون الى بلدان العالم الاسلامي. وقد استطاع عبد الحميد الثاني ان يستميل شريف مكة في سبيل نشر دعوته بين حجاج بيت الله الحرام.. كما وانفق الاموال الطائلة على المعاهد الدينية، وعلى استمالة العناصر غير التركية الى مؤسساته وخصوصاً «العرب» الذين يعدون مادة الاسلام، ولا سيما وان بوادر الوعي القومي تظهر في جنبات اوطانهم، فضلاً عن مبادئ الحرية وفكرة الدستور. وعلى الرغم من الحظوة التي اكتسبها العرب عند السلطان وتكريم رؤسائهم بمنحهم المناصب والمكانة العليا، فإنه لجأ الى زرع الجواسيس ورجال المراقبة حتى على الشريف الحسين بن علي الذي اقام في اسطنبول بأمر من عبد الحميد نفسه سنة ١٨٩٣م وبرفقته زوجته واولاده الثلاثة. علي وفيصل وعبد الله... وذلك خشية من تحركاته. وكان الشريف الحسين في تلك المرحلة شاباً له ارادته الصلبة، وتفكيره الرصين، وخطابه المؤثر، واصالته العربية... جامعاً، بالخصال تلك كل ولاءات العرب.

اما ابرز شخصية سياسية اضطلعت بدورها الفعال في حياة عبد الحميد الثاني فقد مثلها عزت باشا الذي كان يتبوأ مركز السكرتير الثاني للسلطان، والذي اتصف بالذكاء والدهاء. وخاصة في طبيعة العلاقات العثمانية– العربية إذ كان محورا لسياسة عبد الحميد تجاه الولايات العربية، ولا سيما في مدّ سكة حديد الحجاز التي يسرّت سبيل الحجيج في الظاهر، ولكنها كانت ترمي لتحقيق اهداف سياسية و حربية.

قام عزّت باشا بتأسيس مجلس يبين الاهداف الدينية وراء قيام مشروع سكة حديد الحجاز*، وقدّر تكلفة نفقاته، وطلب جمع التبرعات، وفرضت ضريبة على السكان وبدأ العمل في هذا المشروع الاستراتيجي سنة ١٩٠١م لينتهي العمل منه سنة ١٩٠٨م وقد كان لهذا المشروع نتائجه المهمة، منها:

١- قربت سكة حديد الحجاز المسافات العربية الشاسعة بين بلاد الشام والحجاز.

٢- فتحت الاعين العربية على وسيلة حديثة للمواصلات هي اسرع من الوسائل القديمة التي كانت متاحة، فساعد ذلك كله على توثيق الروابط الاقتصادية ونقل الافكار وتبادل الاخبار.

٣- كان لهذا المشروع ابرز الاثر في تثبيت مكانة حكم عبد الحميد الثاني وخلافته لعدد من السنين أكثر من تأثير جميع خططه الاخرى.

٤- كان لهذا المشروع اهمية لوجستية/ عسكرية في تعزيز مكانة الدولة العثمانية في منطقة البحر الاحمر وشبه الجزيرة العربية... وخصوصا في الخط الممتد بين دمشق - المدينة.

٥- اسهم هذا المشروع في تعزيز مصير الحركة العربية، حيث ساعد على اتاحة الفرصة للانفجار ضد الاتراك في ثورة علنية عام ١٩١٦م وخلال الحرب العالمية الأولى.

٤- العلاقات الحليفة مع المانيا القيصرية

توثقت علاقة الدولة العثمانية على عهد عبد الحميد الثاني بالمانيا كثيراً، اذ اعتمد الاتراك على البعثات العسكرية الالمانية في تنظيم جيش السلطان على وفق الاساليب والطرق الحديثة، كما واعتمدت المعاهد العسكرية - العثمانية في انشائها على النظم والاصول الالمانية فكان ان انقلب المتخرجون في تلك المعاهد على نظام حكم عبد الحميد فيما بعد... وغدوا من ابرز العاملين في الثورة والتمرد. فضلا عن ان الدولة العثمانية اعتمدت في تسليح جيشها بالاسلحة والذخائر الالمانية... ناهيك عن الميادين المدنية بورود الوكلاء وعملاء الشركات التجارية وتأسيس المصارف...

---

* انظر: د. فائق بكر الصواف، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز، مطابع سجل العرب، ١٩٧٨.

وقام غليوم الثاني قيصر المانيا في سنة ١٨٩٨م بزيارة العاصمة اسطنبول والذي حفه السلطان عبد الحميد بمظاهر الحفاوة، فنجح القيصر في الحصول على امتياز لمد سكة حديد نحو الخليج العربي عبر الاراضي العراقية، وكان مشروعا استراتيجياً بدأ يهدد المصالح البريطانية، فرفضته بريطانيا لانه المنافس الحقيقي لتجارتها، وخصم يهدد سياستها في الخليج العربي، قام غليوم الثاني ايضاً، بزيارة القدس عبر دمشق ليؤسس نفوذاً له في بلاد الشام وقد قابلته صحافة العالم الاسلامي بالحفاوة والتكريم! كما رحب به عبد الحميد الثاني ترحيباً بالغاً لأن القيصر قد اعلن صداقته للاسلام... ولم يدركوا أن صداقته تلك كانت من اجل بناء منافعه الدولية، ووسيلة دوبلوماسية لتحقيق مصالح استراتيجية! وكان عبد الحميد يدرك مطامع المانيا في دولته، ولكنه كان يعلم بأنه بحاجة الى حليف اوروبي قوي وقد وجد ذلك «الحليف» في المانيا القيصرية أكثر من بريطانيا وفرنسا وروسيا..

وفي ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٠٨م ، انتهى حكم السلطان عبد الحميد الثاني إثر انقلاب عسكري قام به بعض الضباط الذين ارغموه على اعادة الدستور، وتنفيذ حكم «المشروطية» بعد تعطيل لدستور كتبه مدحت باشا قرابة ٣١ سنة*.

٣/ العرب تحت حكم الاتحاديين: تبلور الحركة القومية العربية**

(النظام الجديد)

اسس حزب الاتحاد والترقي بين سنتي ١٨٩٤– ١٨٩٥م الدكتور عبدالله جودت مع ثلاثة من الا تراك في باريس. وكان لهذا الحزب شأن كبير في

---

* انظر: أرنست أ. رامزور، تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨، ترجمة: د. صالح احمد العلي، تقديم د. نقولا زيادة، بيروت، ١٩٦٠. وراجع التفصيلات التاريخية في:
Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol.2 (Reform, Revolution and Republic: The Rise of Modern Turkey. Cambridge, 1977, 1978.

ايضا أورخان محمد علي. السطان عبد الحميد الثاني: حياته واحداث عهده، الرمادي، ١٩٨٧.
Bernard Lewis The Emergence of Modern Turkey, Oxford Univ, Press, 1961.

وراجع. مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق: محمد حرب عبد الحميد، القاهرة، ١٩٧٨.

** كتبت عن هذا الموضوع: العشرات من الكتب والمذكرات والدراسات والبحوث. ولما تزل بعض الوثائق والمعلومات والمذكرات والاوراق الخاصة بحاجة الى تحقيق وتحليل وكشوفات ومعالجات!

حركة تركيا الفتاة المعارضة لحكم السلطان عبد الحميد الثاني وبعد تبلور المشاعر القومية التركية في حين كانت هناك هيئة معارضة اخرى لسياسة السلطان تطالب باللا مركزية، وقد انتشرت مراكز متعددة للاتحاديين في ارجاء السلطنة. وكانت قيادتهم مشاعة بين عدد من الشخصيات التي عملت في الخفاء متصلة بعدد من المنظمات الاجنبية. وكان من اهداف حركة تركيا الفتاة منح الحرية لجميع سكان ورعايا الامبراطورية على اختلاف جنسياتهم ومللهم ونحلهم واديانهم، شريطة ان يتنازل المسيحيون عن مطالبهم بتدخل الاجانب باسم «حماية الاقليات».

كانت الدول العظمى التي وقعت على معاهدة برلين مصرة على تلك «التدخلات» على الرغم من فقدان الدولة العثمانية ممتلكات مهمة في اجزاء متعددة في اطرافها في روميليا الاوربية واناضوليا الاسيوية وبلاد المغرب العربي الافريقية حتى وصلت الامور في عام ١٩٠٨م الى طريق مسدودة، دفع الى الانقلاب العسكري التركي في ٢٣/ تموز / يوليو من تلك السنة، إثر قيام مجموعة من الضباط المنتمين الى جمعية الاتحاد والترقي بالعملية الانقلابية واجبار السلطان عبد الحميد الثاني على اعادة العمل بدستور سنة ١٨٧٦م والذي كان قد عطله سنة ١٨٧٧، وان تسير الدولة العثمانية حسب الشعارات التي رفعتها حركة تركيا الفتاة بـ «الحرية والعدالة والمساواة».

لقد غمرت المجتمع العثماني قاطبة غمرات من الاغتباط للتخلص من الحكم المطلق وبدء عهد تاريخي جديد تتحقق فيه تلك الشعارات، فانتشرت فروع جمعية الاتحاد والترقي في جميع ارجاء حواضر الدولة، ونشطت الصحافة والدعاية والكتابات والنوادي والمدارس والدعاة في المضي لتحقيق برنامج سياسي فعال كالذي طرحته الجمعية في اواخر شهر ايلول سنة ١٩٠٩م، والذي نص بتوسيع الصلاحيات الدستورية، وتعميق عرى الاتحاد والاخاء، بين العناصر العثمانية، وتوحيد النشء الجديد مع ابقاء اللغة التركية لغة رسمية في جميع ارجاء الدولة، وكان ذلك وحده نقضا جوهرياً لمبدأ تحقيق الشخصية الفكرية كالتي اعلنت عنها مباديء الحرية والمساواة!

لقد تلقى النظام الجديد اخطر صدمة هزت كيانه تمثلت بالثورة الرجعية المضادة في العاصمة اسطنبول في نهاية شهر مارس ومطلع شهر نيسان سنة

١٩٠٩م، قبل ان تتم المشروطية الثانية شهرها التاسع، وكان قوامها الجنود والدراويش الذي حرضهم الموتورون في العهد الجديد، ولكن قضي عليها وتم خلع عبد الحميد ونصب مكانه اخوه الاصغر محمد رشاد، فبدأ عهد سياسي جديد[١]

١- جذور العمل السري العربي:

تعد **جمعية بيروت السرية** سنة ١٨٧٦م، أول تنظيم سياسي - عربي معارض للحكم العثماني دعا ببرنامجه السياسي الى الثورة. وقد توقف نشاط هذه الجمعية نتيجة ملاحقات الحكومة للفترة ١٨٨٢-١٨٨٣م، لكي ينتقل ابرز مؤسسيها. فارس نمر وشاهين مكاريوس ويعقوب صروف الى القاهرة سنة ١٨٨٥م ، فاسسوا فيها جريدة سياسية يومية اسمها «المقطم» ومجلة فكرية اسمها «المقتطف» كان لها دورها في التعريف بالحركة الماسونية واهدافها للفترة منذ ١٨٨٥ وحتى عام ١٩٢٦م ، كما وتأثرت الحياة العربية بالافكار السياسية الجديدة.

وظهرت في دمشق حلقة سياسية تعمل سراً في بيت الشيخ طاهر الجزائري في سنة ١٩٠٣م نهض فيها محب الدين الخطيب بدور عربي بارع، وكان من اعضائها الاساسيين: عارف الشهابي وعثمان مردم ولطفي الحفار وصالح قنباز وصلاح الدين القاسمي... واستخدمت الاهتمامات الثقافية للتوجهات السياسية بمنح العرب حقوقهم القومية، وكان لهذه الحركة اتصالاتها بالشباب المثقف في بيروت مثل: عارف النكدي وعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني والامير عادل ارسلان واسماء اخرى اظهرت فاعليتها قبيل الحرب الأولى.

وشهد العقد الأول من القرن العشرين نمواً مطرداً في الوعي الفكري المشبع بالاحساس القومي والافكار الحرة، وخاصة عندما بدأ الشباب العربي يتقاطر نحو العاصمة العثمانية من اجل الدراسة واكتساب المعارف في كليات اسطنبول المدنية والعسكرية وخصوصا من ابناء العراق وسوريا ولبنان الذين شهدوا اخطر التطورات السياسية في الحياة الاخيرة للدولة العثمانية ونهايات عهد السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦-١٩٠٩م، وانقلاب تركيا الفتاة عام ١٠٨م والتمردات المضادة عام ١٩٠٩م، وولادة المشروطية الثانية باعادة الدستور العثماني المعطل... والحركة الائتلافية . الخ*.

* Hassan Sa'ab, The Arab Federalists of the Ottoman Empire, Amsterdam, 1958.

٢ - التنظيمات القومية - العربية في اسطنبول

كانت أول جمعية عربية انشئت خلال الحكم الاتحادي الجديد في اسطنبول، هي : «**جمعية الاخاء العربي – العثماني**» التي افتتحت رسمياً وفي غمرة من الحماسة وسط اجتماع كبير عقدته الجالية العربية في اسطنبول ٢ ايلول/ سبتمبر ١٩٠٨م، حضره عدد من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي، وقد هتف الجميع خلال الاجتماع بالاهداف الرئيسية : المحافظة على الدستور، وتوحيد جميع العناصر في الولاء للسلطان، والمساواة الحقيقية، ونشر التعليم بالعربية في المقاطعات العربية... كانت العضوية مباحة وعلنية للعرب، وتقرر انشاء فروع لها في المدن العربية، واصدرت صحيفة تدعو الى افكارها.

على الرغم من المجهودات التي بذلها عدد من الزعماء والادباء والمثقفين والطلاب العرب تجاه الحالة الجديدة في الدولة، ولا سيما في العاصمة اسطنبول : فقد اخلصوا النوايا وعزموا على التعاون مع الاتحاديين، لكن سرعان ما دّبت الخلافات بين الطرفين ، اذ ظهرت بعض المقالات الساخنة ضد العرب في الصحف الموالية للاتحاديين، وبدلاً من تحقيق الطموحات العربية والتطلعات المشروعة في تحسين الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، اضافة الى تشجيع اللغة العربية، فان الاتحاديين اتجهوا في ممارسة مركزية ادارية شديدة معتمدين سياسة التتريك وتعزيز النزعة الطورانية وتمجيدها، والتدخل في الانتخابات بصورة سافرة، وايقاف حل مشكلة اليمن في فرض السيطرة التركية عليها بالقوة... وبدأ الاتحاديون يجرحون بقيم الشباب العربي...

نال العرب صدمة كبرى من مسلك الاتحاديين، اذ شعروا بأن نضالهم من اجل الحرية والدستور والتخلص من الحكم المطلق قد اصطدم بصخرة حكم جائر متعصب، فاصابهم احباط شديد عبر عنه خطابهم وكتاباتهم فيما بعد... كتب مصطفى الشهابي يقول؛ «كثيرا ما كان غلاة المتشيعين لقوميتهم الطورانية يصرحون بضرورة تطهير اللسان التركي من الالفاظ العربية والتنكر للاسلام، ورفع اسماء الخلفاء الراشدين من الجوامع، واستبدال اسماء جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك واضرابهم بها، وتحمّس مرة بعض تلاميذهم الاغرار في اسطنبول فقال لي ان العودة الى عبادة الذئب الابيض (= الوطن الاصلي للاتراك) اجدى لنا من دين العرب»!

هكذا لجأ المثقفون العرب من الاحرار وهم نخبة المجتمع العربي للوقوف بوجه تلك السياسة القمعية، فقاموا بتأسيس أول جمعية عربية مضادة للاتحاديين، كان ظاهرها ثقافيا/ ادبياً أما بواطنها فقد كانت تعمل سرّا لتحقيق اهداف سياسية سامية، الا وهي جمعية «المنتدي الأدبي» في اسطنبول، اسستها نخبة فعالة من النواب والادباء والطلاب المثقفين في صيف عام ١٩٠٩م، كي تغدو مركزاً طليعياً لاقامة الندوات والقاء المحاضرات وعرض المسرحيات والروايات وانشاد الشعر.. وقد جرى ذلك كله باللغة العربية واصدرت الجمعية مجلة ادبية بعنوان «لسان العرب»، وغدت للجمعية فروعها في سوريا ولبنان والعراق، ومن ابرز مؤسسيه: عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي ورفيق العظم وطالب النقيب وعزيز المصري ورشدي الشمعة واحمد عزت الاعظمي وجميل صدقي الزهاوي وعلي الجميل وحبيب العبيدي وشفيق العظم وزكي الخطيب وسيف الدين الخطيب وجميل الحسني وندرة المطران ونخلة المطران ونجيب حمادة ونعوم شقير وجمبرلي طاش وحليم دموس وغيرهم* ولقد طارت شهرة الجمعية كثيراً، وبقي المنتدى يعمل بقوة ونشاط حتى عام ١٩١٥م عندما اغلقته سلطات الاتحاديين فتوزع اعضاؤه في اماكن عدة من مواطنهم مع بقائهم على اهدافهم وسعيهم من اجل تحقيقها قومياً... اذ تعرضوا للاضطهاد والتعسف فذهب بعضهم مهاجراً الى أوروبا، وقدم بعضهم الآخر حياته ثمناً للمبادئ العربية السامية، والتحق الآخرون بركب النضال في ارضهم العربية... وهم أول من رفع علم الثورة العربية للفترة ١٩٠٩-١٩١١م، ذلك العلم نفسه الذي رفعه الشريف حسين بن علي في الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م.

من جانب آخر، ونتيجة لسيطرة الاتحاديين على الدوائر الانتخابية، شكلوا اكثرية برلمانية، فضلاً عن تمثيل قليل للعناصر غير التركية... وعليه، فقد تشكلت كتلة برلمانية باسم «**الحزب العربي**» كان من اهدافه المساواة الحقيقية لسائر العناصر، وجعل العربية لغة للتعليم ومراعاة حقوق المواطنين في الولايات العربية... الا ان النواب العرب الذين دعوا الى ذلك لم يسعوا للخروج بصيغة

---

* لقد اعتمدت في كتابة هذه المعلومات على بعض آثار جمعية المنتدى الأدبي، وخاصة: مجلة لسان العرب ومجلة المنتدى الأدبي (اعداد سنة ١٩١٠-١٩١٢).

التصديق عليه، لاعتقادهم بأن وجودهم اعضاء في الحزب الحر المعتدل يوفر عليهم قوة معارضة جبهوية ضد الاتحاديين ولكن الحزب الاخير سرعان ما تفكك وانحل بعد تأسيس جمعية الحرية والائتلاف في ٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١١م.

ضمّ **حزب الحرية والائتلاف** عناصر سياسية شتى من الحزب الحر المعتدل والاتحاديين المنشقين وساهم في اعماله بعض المبعوثين العرب، والفكرة الاساسية التي يختلف فيها هذا الحزب ايديولوجياً عن الاتحاد والترقي هو ايمانه باللامركزية، فقد تضمن منهاجه السياسي: توسيع المأذونية وتفريق الوظائف وابقاء الرابطة العثمانية شرط ان تمنح الولايات استقلالاً ذاتيا على اساس اللامركزية، ويبدو ان صدمة الحرب الطرابلسية واندحار الاتراك مما قد دفع بالتفكير السياسي التركي للبحث عن بدائل بعد ولادة انشقاقات سياسية متفاقمة.

هكذا، اشتد الصراع السياسي بين الاتحاديين والائتلافيين في مجلس المبعوثان العثماني فحل المجلس في ١٨ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩١٢م... ولم تستطع الوزارة الاتحادية التي تالفت في ايار – حزيران ١٩١٢ من حل المشكلات المستعصية ، فسقطت وتألفت وزارة ائتلافية اعلنت انها ستطبق مبدأ اللامركزية في الحكم.. تلك الوزارة التي جاء بها ضباط الانقاذ، والتي أطاح بها الاتحاديون اثر انقلاب عسكري ثان في ٢٣ كانون الثاني/ يناير عام ١٩١٣م بقيادة انور باشا، اذ بقي الاتحاديون يحكمون حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ضمن مبادئهم الثلاثة -- المركزية/ الطورانية/ التتريك. التي لم يقتصروا على تطبيقها سياسياً فحسب، بل حرصوا على غرسها في المدارس، وزرعها بالقوة في الشارع والسوق والقرية.. الخ وقد تطرّفوا كثيراً في برنامجهم السياسي والاداري، وكانت سياستهم حتى نهاية الحرب الاولى تثير حفيظة القوميات المختلفة في ارجاء الدولة، وقد خلفت ردود فعل قومية صاخبة.. فتأثرت المدن العربية تأثراً بالغا، فتبلورت بعض التيارات السياسية– العربية، مثل حزب اللامركزية الادارية العثماني الذي تأسس في القاهرة في نهاية عام ١٩١٢م، سعى لتحقيق القسط الاوفر من الاستقلال الاداري، وان تعمل كل من التركية والعربية في كل ولاية، وان تخصص واردات الولاية لسد حاجاتها، ثم توسيع صلاحيات مجالس الولايات... الخ.

وظهرت في بيروت في نهاية سنة ١٩١٢م جمعية اصلاحية باسم «لجنة الاصلاح» تدعو الى اللامركزية ، وكانت اللجنة تتألف من ستة وثمانين عضواً، كان لهم تأثيرهم في نشر افكارهم في كل من الشام والعراق. لقد كان من ابرز الدعاة العرب الى الفكرة المركزية رفيق العظم وحقي العظم ورشيد رضا واسكندر عمون وعبد الحميد الزهراوي وداود بركات الذين ارتبطت بهم الحركة الاصلاحية.. وفي حين صدمتهم قرارات الحكومة الاتحادية في ٥ أيار/ مايس سنة ١٩١٣م باصدار القانون الجديد للولايات والمناقض للافكار اللامركزية ومما يزيد من وطأة الحكومة المركزية على الولايات العربية وكبت حرياتها السياسية! ولما ازدادت المقاومة العربية الشديدة استخدمت الدولة صنوف الارهاب والقمع في فرض سياستها، فقامت بالغاء الجمعيات العربية العلنية، فبدأت التنظيمات السرية لمواجهة المخاطر الجديدة. وكان من ابرز الجمعيات السرية . جمعية العهد العسكرية وجمعية العربية الفتاة.

تشكلت **جمعية العهد العسكرية** في اسطنبول بزعامة عزيز علي المصري الذي كان قد ابلى بلاءً حسناً في الحرب التركية/ الطرابلسية- الايطالية وانضم اليه سراً بعض الضباط المتحمسين للقضية العربية مثل: سليم الجزائري ونوري السعيد وطه الهاشمي وجميل المدفعي وغيرهم.. وكان هدف الجمعية : تحقيق الاستقلال الداخلي للاقطار العربية على اساس فيدرالي مع العثمانيين دون الانفصال عن الدولة - كما يذكر نوري السعيد- بل كان الطموح يسعى لتشكيل ادارة عربية محلية، ولغة عربية رسمية، وشراكة سياسية مع الاتراك وكان للضباط العراقيين دور مبرز في الجمعية، فأنشأوا فروعاً لها في الموصل وبغداد عند مطلع عام ١٩١٤م.

لقد قادت نشاطات الجمعية وانتشار فعالياتها الى ان تضرب الحكومة العربية والجمعية بالذات، فاقصت الضباط العرب، ونصبت الولاة الاتراك العسكريين في قيادة الولايات العربية، وكان من اشرسهم: جمال باشا السفاح، وكان اعتقال عزيز علي المصري بمثابة إنهاء للجمعية ومع اندلاع الحرب فقد تفرق الاعضاء وذهبت الجهود، وعلى الرغم من صغر عمر عزيز علي المصري كأحد الضباط

العرب العثمانيين فقد كان له الدور البارز سنة ١٩٠٩م في تأسيس جمعية اسمها **الجمعية القحطانية** باسطنبول والتي لم تكن ذا تأثير سياسي قوي بفعل استقطاب جمعية المنتدى الادبي المدنيّة كل الاهداف والآمال والتطلعات *.

٣- النشاط القومي العربي في باريس:

كان النشاط القومي - العربي في باريس والمشرق العربي قد تبلور على نحو كبير قبل نشوب الحرب، إذ كانت باريس قد غدت موئلاً يتجمع فيه الشباب العربي لاغراض الدراسة، فانبرت مجموعة مستنيرة منهم لتؤسس جمعية سرية في باريس سنة ١٩١١م وهي «**جمعية العربية الفتاة**» ومن ابرز اولئك الشباب: عوني عبد الهادي ومحمد المحمصاني وعبد الغني العريسي وجميل مردم ورستم حيدر وغيرهم من الذين كانوا يهدفون الى تحرير بلادهم العربية من السيطرة التركية. وفي سنة ١٩١٣ نقل مركز الجمعية الى بيروت ثم الى دمشق، وانتمى الى عضويتها العشرات من شباب العرب. وكانت من اهم الجمعيات العربية ذات الاهداف السياسية الواضحة، والتي تسلّح اعضاؤها بالوعي والنظام والدقة.. وقد بقيت جمعية سرّية حتى النهاية، اي حتى نهاية الصراع عندما اعلنت الحكومة العربية في دمشق عام ١٩١٨. وكان لهذه الجمعية الدور المؤثر في القضية العربية، وتحملت عبئاً نضالياً كبيراً ايام الحرب الاولى.

ان زيادة التعسف التركي ضد الحكومة القومية العربية دفعت الى العمل القومي خارج نطاق الدولة العثمانية رغبة في تحقيق اهداف متعددة، ابرزها: الوصول الى مسامع الرأي العام الدولي، وكان ان فكّر عدد من المثقفين والطلبة العرب **بعقد مؤتمر عربي في باريس** لتوحيد الآراء والمواقف، وممارسة ضغط على العثمانيين، والدعاية للقضية العربية في اوروبا، ثم الاتصال بالمنظمات والشخصيات العربية المهمة. فكان الاتصال بحزب اللامركزية الادراية العثماني في القاهرة، وذلك لشيوع فكرة «اللامركزية» عهد ذاك، بسبب ضّم الحزب المذكور رجالات كباراً يمكنهم ادارة المؤتمر وتبنيه.. وقد استجاب العديد من قادة الحركة العربية للنداء وتوّجهوا الى باريس، كان من ابرز اعضاء اللجنة العليا عن حزب

---

* انظر. د. سيّار الجميل «انتلجينسيا العراق: التكوين.. الاستنارة.. السلطة» مجلة المستقبل العربي، العدد (١٣٩)، ايلول، ١٩٩٠.

اللامركزية: اسكندر عمون وعبد الحميد الزهراوي نائب حماه في مجلس المبعوثان، والشيخ احمد طبارة صاحب جريدة الاصلاح اليومية في باريس، والدكتور ايوب ثابت سكرتير الجمعية الاصلاحية في بيروت، وتوفيق السويدي احد الطلبة العراقيين لدراسة الحقوق في باريس وجميل مردم احد الطلبة السوريين لدراسة الحقوق في باريس وسليمان عنبر تاجر عراقي..

وقد انعقد المؤتمر على مدى جلسات اربع في قاعة الجمعية الجغرافية الافرنسية للفترة ١٨-٢٣ حزيران/ يونيو سنة ١٩١٣، وترأسه عبد الحميد الزهراوي وقد حضره حوالي (٢٥٠) مندوباً وعضواً يمثلون الاقطار العربية، كما تلّقى المزيد من البرقيات المؤيدة، واتّخذ عدداً من المقرّرات، ابرزها: ضرورة الاعتراف بحقوق العرب السياسية الكاملة، ودورهم في ادارة الدولة وتحقيق امانيهم القومية،والعربية لغة رسمية في ولاياتهم، والخدمة العسكرية محلية فيها، والدفاع عن الاراضي العربية ضد اي عدوان.. واكد المؤتمر على وحدة الدولة العثمانية وشراكة العرب فيها، وان مقررات المؤتمر هي بمثابة برنامج سياسي للتعامل مع السلطات العثمانية، ولا يسمح لأي عربي ان يرشح نفسه للانتخابات الا اذا تعّهد بتأييد البرنامج وسعيه لتنفيذه.

اجبرت الدولة العثمانية على ان تعلن قبولها لمقررات **المؤتمر العربي الاول**، وفتحت باب المفاوضات بعد ارسالها سكرتير جمعية الاتحاد والترقي مدحت شكري بك الى باريس والذي وقع اتفاقا مع عبد الحميد الزهراوي، ثم صادق السلطان محمد رشاد على الاتفاق المذكورفي ٨ آب/ اغسطس ١٩١٣م اذ صدر مرسوم سلطاني بذلك، ولكن لم يكن الاتحاديون بمخلصين في النوايا والافعال. كما ان المؤتمر قد احدث انقساماً لدى المفكرين العرب، اذ وقف اصحاب الاتجاه الاسلامي يهاجمون المؤتمر ويتهمونه بالخيانة والتعامل مع الاجنبي للقضاء على الاسلام وعلى دولة الاسلام، وكان منهم: شكيب ارسلان وعبد العزيز جاويش واسعد الشقيري وحبيب العبيدي... وغيرهم مما اعطى الفرصة للاتحاديين كي يتخذوا جملة من القرارات السرية في شهر كانون الثاني ١٩١٤م، لكي يقاوموا دعاة الانفصال عن الدولة، وأن يلغوا الجمعيات العربية،ويراقبوا حركات الضباط العرب بعد ابعادهم عن اسطنبول، ويربو عددهم على(٥٠٠) ضابط، وان يتولى القيادة في الولايات العربية ضباط اتراك، ثم المضي في سياسة التتريك.. وترسيخ

نفوذ الاتحاديين في الاراضي العربية بعد تشتيت الضباط العرب وتوزيعهم على الحاميات البعيدة(*).

٤- اندلاع الحرب العالمية الاولى وسياسة الاتحاديين:-

تنفيذا للمعاهدة السرية التي عقدت بين الدولة العثمانية ودول المحور المركزي فقد دخلت الحرب العالمية الاولى في تشرين الثاني عام ١٩١٤م بعد ان استغرقت الاستعدادات العسكرية لها قرابة اربعة اشهر، فقد كان النفير العام قد اعلن في ٣ آب/ اغسطس سنة ١٩١٤م، واتخذت روسيا ضرب العثمانيين موانئها في ٢٩ تشرين الاول/ اكتوبر سنة ١٩١٤، حجة لكي تعلن الحرب عليهم في ٤ تشرين الثاني/ نوفمبر، فكان اعلان الحرب في ٥ تشرين الثاني/ نوفمبر.

نصّب الاتحاديون على قيادة الجيش العثماني الرابع في دمشق وزير البحرية جمال باشا الذي كلّف بمهام استثنائية وعرفية بهدف القضاء على اية تحركات عربية قومية وهو يمضي في حملته على قناة السويس ضد الانكليز، فانهزم جيشه هزيمة نكراء. مع ازدياد وتفاقم النشاطات العربية بتكوين «جمعية العلم» و «جمعية الثورة العربية» بالقاهرة للدعوة الى الاستقلال التام للعرب والثورة المسلحة على الاتراك. فتشكّل في تموز/ يوليو ١٩١٥م الديوان العرفي في عالية بلبنان لمحاكمة الدفعة الاولى من القوميين العرب الذين اتهموا للعمل ضد الدولة بالاتفاق مع بريطانيا وفرنسا، فحكموا ونفذ حكم الاعدام في ساحة البرج في بيروت بـ. عبد الكريم الخليل ومحمود المحمصاني ومحمد المحمصاني وعبد القادر الخرسا ونور الدين القاضي وسليم احمد عبد الهادي ومحمود نجا ومحمد مسلم عابدين ونايف تلّو وصالح حيدر وعلي الارمنازي الذين كانوا منتمين الى حزب اللامركزية وبعضهم الآخر في العمل للانفصال التام عن العثمانيين.

وفي يوم ٦ أيار/ مايس سنة ١٩١٦ قدم جمال باشا (الذي دعي بالسفاح منذئذ) قافلة اخرى من الشهداء العرب على مذبح العمل القومي وفي ساحة المرجة بدمشق والبرج في بيروت، اذ اعدم في دمشق كلاً من: شفيق المؤيد العظم وعبد

---

* من ابرز الكتب في موضوع تنظيمات الحركة القومية هي التي كتبها: جورج انطونيوس ومحمد عزة دروزه واحمد عزت الاعظمي وتوفيق علي برو وعبد العزيز الدوري.

الحميد الزهراوي وعبد القادر الجزائري وشكري العسلي وعبد الوهاب الانكليزي ورفيق رزق سلوم ورشدي الشمعة. اما الذين تم اعدامهم في بيروت فهم: جرجي حداد وسعيد عقل وعمر حمد وعبد الغني العريسي والأمير عارف الشهابي والشيخ احمد طبارة ومحمد الشنطي اليافي وتوفيق البساط وسيف الدين الخطيب وعلي الحاج عمر النشاشيبي ومحمود جلال سليم البخاري وسليم الجزائري وامين لطفي الحافظ.. اما حكم الاعدام الغيابي فكان من نصيب اكثر من (٩٠) رجلاً من اعضاء الجمعيات والعربية، ومنهم: رفيق العظم وحقي العظم وشبلي شميل ورشيد رضا ونجيب عازوري وداود بركات ويوسف البستاني ومحمد ارسلان وغيرهم.

٥- الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م:

لقد تبلورت أسباب تاريخية عدة لاعلان الثورة العربية الكبرى على الاتراك لا سيما بعد ان تم عقد اتصالات واسعة النطاق في دمشق بين جمعيتي العربية الفتاة والعهد، وتم التوقيع على (ميثاق دمشق) سنة ١٩١٥م مثل فيصل بن الحسين والده الشريف حسين بن علي الذي رشحه القوميون العرب زعيماً للمستقبل العربي وولادة الثورة المسلّحة لما تمتع به من ميزات تاريخية وسياسية وارثية وقومية.. فضلاً عن صفحته الناصعة في العلاقة مع الاتراك.. وكان قد تراسل مع الدوائر البريطانية فيما سمي بـ« مراسلات الحسين- مكماهون» ازاء الاجراءات العثمانية.. ناهيكم عن مركزه الاجتماعي – العربي بين القبائل العربية واستراتيجية الحجاز الجغرافية والدينية، فضلاً عن شرافة مكة المكرّمة.. الخ كلها عوامل اساسية ارتكز عليها القوميون العرب من اجل تحقيق مشروعهم القومي/ التاريخي الكبير عند مطلع القرن العشرين *.

كانت الاتصالات قد بدأت بين الهاشميين والانكليز منذ شهر شباط عام ١٩١٤م في القاهرة بين الامير عبدالله ممثلا عن ابيه الشريف حسين وبين اللورد كتشنر ممثلاً عن الحكومة البريطانية من خلال منصبه (المعتمد السامي).. وقد اختتمت المفاوضات في شهر تموز/ يوليو عام ١٩١٥ بالاتفاق للعمل ضد الدولة

* راجع التفصيلات التاريخية في كتب متعددة، منها كتاب محمد امين العمري «تاريخ مقدرات العراق السياسية» (نشر باسم اخيه محمد طاهر العمري)، جـ١- ٢، الموصل/ بغداد، ١٩٢٤.

العثمانية وضد سياستها الاتحادية/ الطورانية/، في حين نجح التنسيق بين الامير فيصل بن الحسين وزعماء الحركة القومية-- العربية الذين اعلموا بتفاصيل الاتفاق مع بريطانيا لإشعال الثورة وتأسيس كيان عربي موّحد في المشرق العربي وقد وافقوا عليه بعد مطالبتهم اعتراف بريطانيا ببنود ميثاق دمشق فدخل العرب الحرب ضد الاتراك، والقاضية بالاستقلال العربي للمشرق العربي عدا عدن، واعطاء الافضلية لبريطانيا في المشاريع الاقتصادية.

اعلن الشريف الحسين بن علي الثورة العربية الكبرى في ١٠ حزيران/ يونيو ١٩١٦، ففي فجر ذلك اليوم اطلق رصاصته الاولى من شرفة داره بمكة معلناً بدء عمليات الثورة العسكرية ضد القوات التركية، ومعلناً استقلال الحجاز وعن تكوينه لجيش عربي منظم. فان ذلك كلّه بمثابة عهد تاريخي جديد في الحياة العربية في الشرق العربي، وقد استمرت الثورة العربية المسلحة الكبرى حرباً هجومية ميدانية فعالة سنتين ابلى فيها العرب بلاء حسناً عندما اكتسحت قواتهم بدعم بريطاني معظم مواقع الجيش العثماني في الحجاز.. وامتدت الجيوش العربية نحو بلاد الشام بهدف تحريره، ودخلت دمشق في الاول من تشرين الاول/ اكتوبر ١٩١٨م، واعلن عن تاسيس الحكومة العربية فيها بقيادة الامير فيصل بن الحسين.

وتعد الثورة العربية الكبرى اعظم جهد واضخم انجاز عربي على المستوى القومي قام به العرب منذ احقاب تاريخية خلت، وكانت ثمرة عمل واتعاب وجهود القوميين العرب من اعضاء الجمعيات العربية العلنية والسرية، كما وشارك فيها الاجماع العربي من ضباط العراق الكبار وقبائل الحجاز العربية وبعض رجالات الشام ومصر واليمن والجزائر.. كما وكان طابع الثورة طابعاً قومياً باشتراك المدنيين والعسكريين العرب الذين جمعتهم الرابطة القومية العربية، والولاء لتلك القيادة التاريخية الشريفية ذات الانتماء الهاشمي الاصيل..

وفي غمرة من التحدّيات والمخططات جرت مؤامرة استعمارية عرفها تاريخ العرب الحديث، متمثلة بتجزئة المشرق العربي الى اجزاء متعددة لتغدو دولا ودويلات فيما بعد وعلى امتداد التاريخ المعاصر خلال القرن العشرين.. لقد تعرض العراق للغزو البريطاني تنفيذاً للمصالح البريطانية الاستراتيجية في

الشرق الاوسط وعلى امتداد سنوات الحرب العالمية الاولى اذ احتلت البصرة في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٤، واحتلت بغداد في ١١ آذار/ مارس ١٩١٧ واحتلت الموصل في ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨(أي عقب التوقيع على الهدنة). كان هناك سباق استعماري بين اكبر قوتين دوليتين عصر ذاك: بريطانيا و فرنسا، للسيطرة على المناطق الغنية والاستراتيجية في العالم، وابرزها. منطقة الهلال الخصيب

تعد سنة ١٩١٦م علامة فارقة في تاريخ العرب الحديث، خاتمة تاريخية له وبداية عصر تاريخي معاصر مشحون بالتمزق والسيطرة والتناقضات.. في حين انجز العرب اضخم مشروع قومي متمثلاً بالثورة العربية الكبرى بانطلاقته في ذلك العام، مشروعاً تاريخياً ايجابياً لهم ولاجيالهم من بعدهم، فانهم قد طعنوا باشرس سكين في خاصرتهم في ٢٦ نيسان/ ابريل ١٩١٦م عندما وقعت كل من بريطانيا وفرنسا اتفاقية سايكس- بيكو، فكان مشروعاً تاريخياً سلبياً لم يحقق للعرب تكوين دولتهم العربية الموحدة او اتحادهم العربي الكونفدرالي.. بل حققت بريطانيا وفرنسا منافعهما الاقليمية ومصالحها الاستعمارية في القرن العشرين وهكذا بدأ عصر تاريخي عربي جديد اسمه: «تاريخ العرب المعاصر» وقفلت آخر حلقات «تاريخ العرب الحديث»!

المصادر والمراجع

١ / قائمة بالمصادر والكتب التاريخية القديمة.

٢ / المراجع العربية والمعربة لفصول الكتاب.

٣ / مراجع الكتاب باللغات الاجنبية

٤ / المراجع المساعدة (بالعربية).

٥ / المراجع المساعدة بالانكليزية والفرنسية.

١/ قائمة بالمصادر والكتب التاريخية القديمة.

الاحسائي ، محمد عبد الله عبد القادر الانصاري

(**تاريخ الاحساء**) المسّمى. **تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد**، القسم الاول/ ط١، الرياض ، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

الآلوسي ، محمود شكري

بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، القاهرة ، ١٣٤٢هـ.

الانصاري ، القاضي احمد نور

النصرة في اخبار البصرة، تقرير قدمه سنة ١٢٧٧هـ / ١٨١٦م، بغداد، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

ابن ابو الضياف ، احمد

اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان، (٨ مجلدات) ، تونس، ١٩٦٣.

ابن ابي دينار ، ابو عبد الله

المونس في اخبار افريقيا وتونس (مجلد واحد)، تونس، ١٢٨٦هـ.

ابن اياس، ابو البركات محمد بن احمد

بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى : جـ٣/ ٤ القاهرة ١٩٦٠

ابن تغري بردي، جمال الدين

النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة، (١٢ جزءاً في ٦ مجلدات)، القاهرة ،١٩٦٣

ابن جمعة، محمد المقار

الباشات والقضاة. نشره د. صلاح الدين المنجد في كتاب : «**ولاة دمشق في العهد العثماني**» ، دمشق ١٩٤٩.

ابن الحنبلي ، رضي الدين محمد بن ابراهيم بن يوسف

درر الحبب فى تاريخ أعيان حلب، تحقيق : محمد الفاخوري ويحيي زكريا عبادة، دمشق ، ١٩٧٢-١٩٧٣.

- ابن خلدون ، عبد الرحمن

المقدمة ، تحقيق . البارون دي سلان ، جـ٢، الطبعة الفرنسية.

- ابن الخوجة، محمد

الوزراء الصدور بالملكة التونسية (= **الروزنامة التونسية**)، جـ٢، تونس، ١٩٠٢.

- ابن رزيق حميد بن محمد، .

الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق : عبد المنعم عامر ومحمد مرسي عبد الله (وزارة الثقافة والتراث القومي) ، عمان ، ١٩٧٧.

- ابن زنبل الرمال، احمد بن علي

تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغوري سلطان مصر، القاهرة ، ١٢٧٨ هـ.

- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن محمد

مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (جزءان)، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦٢.

- ابن عبد الغني ، احمد شلبي

أوضح الاشارات فيمن تولّى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات ، الملقب بـ (**التاريخ العيني**)، تقديم وتحقيق : د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، ١٩٧٨.

ابن غلبون، ابو عبد الله محمد بن خليل

التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار، عني بنشره وتصحيحه والتعليق عليه: الطاهر احمد الزاوي ، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤٩هـ (وأعيد طبعه بطرابلس)، ١٩٦٧.

- اولياء جلبي ، محمد ظلي درويش

سياحتنامة. (٤ مجلدات) اسطنبول ، ١٣٠٢هـ.

- البدليسي ، شرف الدين خان

الشرفنامة، (جزءان) ترجمه عن الفارسية: محمد علي عوني، القاهرة ١٩٥٨/ ١٩٦٢.

البديري الحلاق ، احمد

حوادث دمشق اليومية، تحقيق : د. احمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٥٩.

البغدادي السويدي ، عبد الرحمن بن عبد الله.

تاريخ حوادث بغداد والبصرة ١٧٧٢-١٧٧٨م، تحقيق : عماد عبد السلام رؤوف بغداد ، ١٩٧٨.

البغدادي ، اسماعيل

ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون (مجلدان) . اسطنبول ١٩٤٥-١٩٤٦.

البكري، ابو عبيد الله عبد الله ،

المسالك والممالك، ترجمة ونشر : البارون دوسلان، باريس ، ١٩٦٥.

البكري الصديقي ، محمد بن ابي السرور

كشف الكربة في رفع الطلبة، تحقيق : د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ، ١٩٧٦

بن بشر، عثمان

عنوان المجد في تاريخ نجد ، مصر ١٣٧٣هـ(جزءان)

بن الحسين ، يحيى

غاية الأماني في اخبار القطر اليماني، تحقيق د. سعيد عاشور، (مجلدان)، مصر ١٩٦٨.

بن زيني دحلان ، احمد

خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام، القاهرة ، ١٣٠٥هـ.

بن سند البصري الوائلي ، الشيخ عثمان

(**مختصر**) **مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود**، اختصره الشيخ امين بن حسن الحلواني المدني تحت عنوان: **خمسة وخمسون عاماً من تاريخ العراق ١١٨٨هـ-١٢٤٢هـ**، حققّه وعلق حواشيه . محب الدين الخطيب ، القاهرة، ١٣٧١هـ

مطالع السعود : تاريخ العراق من سنة ١١٨٨هـ الى سنة ١٢٤٢هـ/ ١٧٧٤-١٨٢٦م تحقيق : د. عماد عبد السلام رؤوف وسهيلة عبد المجيد القيسي الموصل ، ١٩٩١

بن عيسى ، الشيخ ابراهيم
عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في اخر القرن الثالث عشر والرابع عشر، دمشق ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م.
بن غنام ، الشيخ حسين
روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوي الاسلام، المسمى بـ (تاريخ نجد) ، تحقيق ؛ د. ناصر الدين الاسد، القاهرة ١٣١٨ هـ/ ١٩٦١م.
بن قيصر، عبد الله خلعان
سيرة الامام ناصر بن مرشد، تحقيق : عبد المجيد حسيب القيسي، عمان، ١٩٧٧.
بن النبهاني ، الشيخ محمد
التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، القاهرة ، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م.
بيرم ، محمد
صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار (٥ اجزاء في مجلدين)، القاهرة، ١٣٠٢هـ/ ١٣١١هـ.
التلمساني ، بن رقية محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلالي
«الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين غارت عليها جنود الكفرة» تحقيق وشرح سليم بابا عمر، نشر في مجلة : **تاريخ وحضارة المغرب** ، العدد (٣)، سنة ١٩٦٧.
التونسي ، خير الدين
اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك ، تحقيق ودراسة د. معن زيادة، بيروت، ١٩٧٨. (وهناك طبعة محققة مع تحليل للنص نشرها المنصف الشنوفي، ط٢، تونس / الجزائر، ١٩٨٦).
الجبرتي، الشيخ عبد الرحمن
عجائب الآثار في التراجم والاخبار، تحقيق وشرح : حسن محمد جوهر وآخرون، (لجنة البيان العربي)، القاهرة ١٩٥٨.
الجميل ، علي
التحفة السنية في المشايخ السنوسية (رسالة مرفوعة الى الامة العربية)، الموصل، ١٩١١م.

الحشائشي التونسي، محمد بن عثمان

جلاب الكرب عن طرابلس الغرب (رحلة الحشائشي الى ليبيا)، تقديم وتحقيق: علي مصطفى المصراتي، بيروت ١٩٦٥.

الحفناوي ، ابو القاسم

تعريف الخلف برجال السلف (جزءان في مجلد واحد)، الجزائر ، ١٩٠٧م.

الحنبلي،عبد القادر بن محمد

الدرر الفرائد المعظمة في اخبار الحاج وطريق مكة العظمة، (مجلدان). السعودية، ١٩٨٣.

الخالدي الصفدي، الشيخ احمد بن محمد

تاريخ الامير فخر الدين المعني، نشره : اسد رستم وفؤاد افرام البستاني، تحت عنوان : «**لبنان في عهد الامير فخر الدين المعني الثاني**» الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٩.

الخفاجي، شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر

ريحانة الالبا وزهرة الحياة الدنيا (جزءان) ، تحقيق : عبد الفتاح الحلو، القاهرة، ١٩٦٧.

خليفة، حاجي

كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، (مجلدان)، اسطنبول، ١٩٤١-١٩٤٣.

خوجة، حسين

ذيل بشائر اهل الايمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، تونس، د.ت.

خوجة، حمدان بن عثمان

المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق : د. محمد العربي الزبيري، الجزائر،١٩٨٢.

خوجة، سعد الدين

تاج التواريخ (بالتركية) جزءان، اسطنبول ، ١٨٦٣.

الدويهي، البطريرك اسطيفان

تاريخ الازمنة ، نشرة : فرناند توتل، بيروت ١٩٥١.

الراشدي ، ابن سحنون

الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، قسنطينة، ١٩٧٣.

الزركلي، خير الدين

الاعلام: قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين (١٠مجلدات)، دمشق، ١٩٥٤-١٩٥٩.

السالمي، نور الدين

تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان، القاهرة، ١٩٦١.

السراج، محمد بن محمد

الحلل السندسية في الاخبار التونسية تحقيق؛ د. محمد الحبيب الهيلة، تونس، ١٩٧٠

السلاوي، ابو العباس الناصري

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى، الدار البيضاء، ١٩٥٤.

السنوسي، ابو عبد الله

المونس في اخبار افريقيا وتونس، (مجلد واحد)، تونس، ١٢٨٦هـ.

الشريف الزهار، احمد

مذكرات احمد الشريف الزهار نقيب اشراف الجزائر ١١٦٨-١٢٤٦هـ/ ١٧٥٤-١٨٣٠م، تحقيق: احمد توفيق المدني، ط٢، الجزائر، ١٩٨٠.

الشهابي، الامير حيدر احمد

الغرر الحسان في حوادث الزمان، نشره: نعيم مغبغب، القاهرة ١٩٠٠-١٩٠١م.

الشوكاني، محمد علي

البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، جـ٢، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

الطباخ، محمد راغب محمد بن هاشم

اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ٧ اجزاء، حلب، ١٩٢٣-١٩٢٦م.

العرشي، حسين بن احمد

بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وامام: تحقيق الاب انستاس ماري الكرملي، القاهرة، ١٩٣٩.

العمري، عصام الدين عثمان

الروض النضر في ترجمة ادباء العصر (جزءان) تحقيق : د. سليم النعيمي، بغداد ١٩٧٤-١٩٧٥.

العمري، محمد امين الخطيب

منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء، حققه ونشره: سعيد الديوه جي (جزءان) ، جـ١، الموصل، ١٩٦٧.

العمري ياسين الخطيب

-- **الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون**، (كتابان حوليان بثلاثة اجزاء) تحقيق ودراسة . د. سيار الجميل ، جامعة سانت اندروس / اسكتلندا، ١٩٨٣.

- **(زبدة) الآثار الجلية في الحوادث الارضية**، انتخب زبدته، د. داود الجلبي، حققها د. عماد رؤوف، النجف ١٩٧٤.

- **غاية المرام في تاريخ بغداد دار السلام**، نشرته دار البصري، بغداد، ١٩٦٧.

-- **منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء**، تحقيق : سعيد الديوه جي، الموصل،١٩٥٣.

الغزي، نجم الدين محمد بن بدر الدين الشافعي

الكواكب السائرة في اعيان المئة العاشرة، جـ١ تحقيق: جبرائيل جبور، بيروت، ١٩٤٥.

فائق، سليمان

-- **تاريخ المماليك الكولة مند في بغداد**، ترجمة: محمد نجيب ارمنازي، بغداد، ١٩٦١.

-- **تاريخ بغداد؛ مرآة الزوراء في تاريخ الوزراء**، ترجمة: موسى كاظم نورس، بغداد، ١٩٦٢

القشتالي، أبو فارس عبد العزيز

مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفا، تحقيق : عبد الله كنون، الرباط، ١٩٦٤.

القادري، فتح الله

(ملحمة الموصل) ارجوزة في حصار الموصل، تحقيق : سعيد الديوه جي، الموصل، ١٩٦٥.

القادري ، محمد

نشر المثاني بأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق : نورمان سيكار، اكسفورد، لندن، ١٩٨١.

الكركوكلي، رسول حاوي

دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء، ترجمة : موسى كاظم نورس . بيروت، د.ت.

لنزا، دومينيكو

الموصل في الجيل الثامن عشر حسب مذكرات دومينيكو لنزا، نشرها: روفائيل بيداويد، الموصل ١٩٥٣.

مجهول

كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، بيروت ، ١٩٦٧

المحبّي ، محمد امين بن فضل الله

خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر، (٤ اجزاء) ، القاهرة، ١٨٦٨م.

المرادي ، محمد خليل ،

سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر، **(٤ اجزاء) القاهرة، ١٢٩١هـ.**

المعبري، زين الدين بن عبد العزيز

تحفة المجاهدين في بعض اخبار البرتغاليين، تحقيق : امين الطيبي ، طرابلس/ ليبيا، ١٩٨٦.

المقرّي التلمساني

نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب، تحقيق : د. احسان عباس، صادر/ بيروت، ١٩٦٨.

المنشىء البغدادي، محمد بن احمد

رحلة المنشىء البغدادي، ترجمها عن الفارسية : عباس العزاوي المحامي، بغداد، ١٩٤٨.

الموزعي، عبد الصمد بن اسماعيل

الاحسان في دخول مملكة اليمن ظل آل عثمان، تحقيق : عبد الله الحبشي، صنعاء، ١٩٨٥.

الموصلي، حسن عبد الباقي

ديوان حسن عبد الباقي الموصلي : تحقيق وملاحق؛ د. محمد صديق الجليلي، الموصل، ١٩٦٦.

النابلسي، عبد الغني بن اسماعيل

التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، تحقيق : هربرت بوسه، بيروت، ١٩٧١.

نظمي زادة، مرتضى

كلشن خلفا، ترجمه عن التركية: موسى كاظم نورس ، بغداد، ١٩٧٢.

النفير ، محمد

عنوان الاديب عما نشا بالمملكة التونسية من عالم واديب (مجلدان) ، تونس ، ١٣٥١هـ.

النهروالي ، قطب الدين محمد بن احمد

- **البرق اليماني في الفتح العثماني**، تحقيق: حمد الجاسر، الرياض، ١٩٦٧.

- **كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام (= اخبار مكة المشرّفة)**، تحقيق ' فيردناند ويستنفلد ، خياط / بيروت ، ١٩٦٤.

ياقوت الحموي ، ابو عبد الله

معجم البلدان (٦اجزاء) ، حققه ونشره : فردناند ويستنفلد ، لايبزك ١٨٦٦-١٨٧٠م.

٢/المراجع العربية والمعرّبة لفصول الكتاب

مراجع خاصة بـ«المدخل الموضوعي»

من اجل الاطلاع والمعرفة عن تفاصيل وشروحات وافية بـ«مفهوم الامة العربية» احيل القارئ والدارس والباحث الى ابرز المرجعيات المعاصرة، وهي :

ابو طالب ، د. صوفي حسن

- **دروس في المجتمع العربي** ، القاهرة ، ١٩٦٦.

امين ، د. سمير

- **المغرب العربي الحديث**، ترجمة :كميل م. داغر ، ط٣، بيروت ، ١٩٨١.

انطونيوس ، جورج

يقظة العرب : تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة : د. ناصر الدين الاسد. ود. احسان عباس ، بيروت ١٩٦٢.

بركات ، د. حليم

- **المجتمع العربي المعاصر . بحث استطلاعي اجتماعي** ، ط٢، بيروت ، ١٩٨٥.

الجميل ، د. سيّار

- **العثمانيون وتكوين العرب الحديث : من اجل بحث رؤيوي معاصر**، ط ١، بيروت، ١٩٨٩.

الحصري، ساطع

- **الاقليمية : جذورها وبذورها** ، ط خاصة ، بيروت ١٩٨٥.

حمدان ، د. جمال

- **دراسات في العالم العربي** ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

الدوري ، د. عبد العزيز

- **التكوين التاريخي للامة العربية** : دراسة في الهوية والوعي ، ط ١، بيروت ، ١٩٨٤.

زين ، د. زين نور الدين

- **نشوء القومية العربية** ، بيروت ، ١٩٦٨.

الشهابي ، مصطفى

- **القومية العربية** ، ط٢، القاهرة ، ١٩٦١.

العدوي، د. ابراهيم احمد

- **المجتمع العربي: مقوماته ورسالته العالمية** ، القاهرة ، ١٩٦٨.

العروي ، عبد الله

- **الأيديولوجية العربية المعاصرة**، تقديم : مكسيم رودنسون، ترجمة : محمد عيتاني ، ط٣ ، بيروت، ١٩٧٩.

عز الدين ، نجلاء

- **العالم العربي** ، ط٢، القاهرة ، ١٩٦٢.

غربال، د. محمد شفيق

- **العوامل التاريخية في بناء الامة العربية** ...، القاهرة، ١٩٦١.

نسيبة، د. حازم زكي

- **القومية العربية : فكرتها، تطورها، نشاتها** ، ترجمة : عبد اللطيف شرارة، مراجعة برهان دجاني، بيروت ، ١٩٥٩.

يحيى ، د. جلال

- **العالم العربي الحديث**، القاهرة ١٩٦٥.

مراجع الفصل الاول

– اندرسون ، پيري

– **دولة الشرق الاستبدادية**، ترجمة : بديع عمر نظمي، ط عربية ١، بيروت، ١٩٨٣.

– أنيس ، د. محمد

– **الدولة العثمانية والشرق العربي**، ١٥١٤ –١٩١٤، القاهرة، د.ت.

– بروكلمان ، كارل

– **تاريخ الشعوب الاسلامية**، ترجمة : نبيه امين فارس ومنير البعلبكي (طبعة حديثة)، بيروت ، ١٩٧٧.

–الجميل ،د. سيّار

– **العثمانيون وتكوين العرب الحديث** : من اجل بحث رؤيوي معاصر، مؤسسة الابحاث العربية، ط ١، بيروت، ١٩٨٩.

حرب ، محمد

– **العثمانيون في التاريخ والحضارة**، دمشق، ١٩٨٩.

– الشناوي ، د. محمد عبد العزيز

– **الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها**، (جزءان)، القاهرة، ١٩٨٠.

– صفوت ، د. محمد مصطفى

– **فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح**، الرياض/ بيروت،د.ت.

– فريد بيك ، محمد

– **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، ط ١، القاهرة ١٩١٢ (اعاد تحقيقه ونشره د. احسان حقي، بيروت، ١٩٨١).

– كوبريللي ، محمد فؤاد

– **قيام الدولة العثمانية**، ترجمة : احمد السعيد سليمان، تقديم د. احمد عزت عبد الكريم، القاهرة ، ١٩٦٧.

– لويس ، برنارد

- **استانبول وحضارة الخلافة الاسلامية** ، تعريب : سعيد رضوان علي، الرياض ١٩٨٢.

- مصطفى ، د. احمد عبد الرحيم

- **في أصول التاريخ العثماني**، ط١، بيروت ، ١٩٨٢.

- نوار ، د. عبد العزيز سليمان

- **تاريخ الشعوب الاسلامية في العصر الحديث** ، جـ١، بيروت، ١٩٧١.

مراجع الفصل الثاني

– أنيس ، د. محمد

– **الدولة العثمانية والشرق العربي** ١٥١٤–١٩١٤ ، القاهرة ، د.ت.

– أوزبران ، د. صالح

– **الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤–١٥٨١** ، ترجمة :د. عبد الجبار ناجي، البصرة ، ١٩٧٩.

– بن أشنهو ، عبد الحميد بن ابي زيان

دخول الاتراك العثمانيين الى الجزائر ، الجزائر ، ١٩٧٢.

–ا لتميمي ، د. عبد الجليل

– **الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الاندلسيين**، (CEROMDI)، زغوان/ تونس ، ١٩٨٩.

– الجميل ، د، سيّار

– «دراسات في السيطرة العثمانية على الموصل واقليم الجزيرة سنة ١٥١٦..»، **حولية بين النهرين**، العددانُ (٣٠/ ٣١)، ١٩٨٠.

– الجواهري، د. عماد

«العراق والتوسع الصفوي» ، **مجلة دراسات الخليج العربي**، الكويت، العدد(٢٠)، السنة (٥)، اكتوبر ، ١٩٧٩.

– رافق ، د. عبد الكريم

– **بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦–١٧٩٨**، دمشق ١٩٦٦.

راقد ، ، محمد عبد المنعم

– **الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي**، القاهرة ١٩٧٢.

–رستم ، د. اسد

– **آراء وابحاث** ، بيروت ، ١٩٦٧ (نشر بعد وفاته).

– الشتيوي ، منصور عمر

- **حرب القرصنة بين دول المغرب العربي والولايات المتحدة الامريكية**، طرابلس، ١٩٧٠.

- الصباغ ، د. ليلى

- **المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني** ، دمشق ، ١٩٧٣.

- الطيبي ، د. امين

- «المواجهة العثمانية البرتغالية في البحر الأحمر في النصف الاول من القرن السادس عشر» **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العددان الاول/ الثاني، تونس، جانفي / يناير ١٩٩٠.

- عبد الكريم ، د. احمد عزت

- «التقسيم الاداري لسورية في العهد العثماني»، **مجلة كلية الآداب**، جامعة عين شمس، العدد(١)، القاهرة ، ١٩٥١.

عثمان ، د. حسن

- «تاريخ مصر في العهد العثماني ١٥١٧ -١٧٩٨» في كتاب: **المجمل في التاريخ المصري**، حرره د. حسن ابراهيم حسن، القاهرة ، ١٩٤٢.

عمر، د. عمر عبد العزيز

- **دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر** ، بيروت ، ١٩٨٠.

غرايبة ، د. عبد الكريم

- **مقدمة في تاريخ العرب الحديث**، دمشق، ١٩٦٠.

كوثراني، د. وجيه

- **الفقيه والسلطان: دراسة في تجربتين تاريخيتين : العثمانية والصفوية - القاجارية**، ط ١، بيروت ، ١٩٨٩.

متولي ، د. محمد فؤاد

- **الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له** ، القاهرة ،١٩٧٦.

الدني، احمد توفيق

- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢، ط٢، الجزائر، ١٩٧٦.

هس، اندرو

افتراق العالمين الاسلامي والمسيحي في المغرب والاندلس، ترجمة: احمد عبد الرحيم مصطفى، ط١، الكويت، ١٩٨٦.

هريدي، د. صلاح

دور الصعيد في مصر العثمانية ١٥١٧-١٧٩٨، تقديم د. عمر عبد العزيز عمر، القاهرة، ١٩٨٤.

مراجع الفصل الثالث

ابو حاكمة ، د. احمد مصطفى

محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة، ط ١، القاهرة ، ١٩٦٨.

اداموف ، الكسندر

ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة : د. هاشم صالح التكريتي، البصرة، ١٩٨٢.

اوزن جارجلي، اسماعيل حقي

امراء مكة المكرمة في العهد العثماني، ترجمة : د. خليل علي مراد، جامعة البصرة، ١٩٨٥.

البطريق ، د. عبد الحميد

من تاريخ اليمن الحديث، القاهرة، ١٩٦٢.

بولياك ، أ.ن.

الاقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان، ترجمة : عاطف كرم، بيروت، ١٩٤٨.

التميمي ، د. عبد الجليل

موجز الدفاتر العربية والتركية في الجزائر ، تونس ،١٩٨٣.

الجميل ، د. سيار

العثمانيون وتكوين العرب الحديث ..، بيروت ، ١٩٨٩.

«نظام الادارة العثمانية اللامركزية في الولايات العربية ..» ، بحث ألقي في **المؤتمر الدولي الرابع للدراسات العثمانية** ، تونس ، ١٩٩٠.

حتي، د فيليب

تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ٢، ترجمة : كمال اليازجي، بيروت، ١٩٥٩.

حركات ، د. ابراهيم

- **التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية**، الدار البيضاء، ١٩٨٥

- **المغرب عبر التاريخ**، الدار البيضاء، ١٩٨٥.

سعيدوني ، د. ناصر الدين

-«دور قبائل المخزن من تدعيم الحكم التركي بالايالة الجزائرية»، **مجلة الاصالة**، العدد (٣٢)، الجزائر ، ١٩٧٦.

صالحية ، د. محمد عيسى

- «وثائق جديدة عن حملة سنان باشا الى اليمن سنة ٩٨٦هـ/٦٨-١٥٦٩م» **حوليات كلية الاداب** .- جامعة الكويت، الحولية (٨)، الرسالة (٤٢)، ١٩٨٦-١٩٨٧م.

عيساوي، شارل

- **التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب ١٨٠٠-١٩١٤**، بيروت، ١٩٩٠.

مؤنس، د. حسين

- **الشرق العربي الاسلامي في العصر الحديث**، ط٢، القاهرة، ١٩٣٨.

النقيب ، د. خلدون

- «الاصول الاجتماعية للدول التسلطية في المشرق العربي»، **الفكر العربي المعاصر** العددان (٢٧-٢٨)، خريف ١٩٨٣.

مراجع الفصل الرابع

البخيت ، د. محمد عدنان

- «من تاريخ حيفا العثمانية . دراسة في احوال عمران الساحل الشامي»، **شؤون فلسطينية** ، العدد (٩٤)، ايلول / سبتمبر ١٩٧٩.

جان باتيست تافرنيه

- **العراق في القرن السابع عشر**، تعريب: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد، ١٩٤٤.

توما، د. اميل

- **فلسطين في العهد العثماني**، عمان/ الاردن ، د.ت.

جمعة، د. بديع محمد

- **الشاه عباس الكبير ١٥٨٨-١٦٢٩م**، بيروت، ١٩٨٠.

الجميل ، د. سيّار

- «الحصار العثماني الثاني لـ ڤينا عاصمة الهابسبورك النمساوية عام ١٦٨٣م» **المجلة العربية للعلوم الانسانية**، العدد (١٦)، المجلد (٤)، جامعة الكويت، خريف ١٩٨٤.

حتي ، د. ڤيليب

- **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، جـ٢، ترجمة : د. كمال اليازجي، بيروت، ١٩٥٩

الحمداني، د. طارق

- «العلاقات بين افراسياب والدولة العثمانية إبّان حكم افراسياب باشا ١٥٩٦-١٦٥٠» **الخليج العربي**، المجلد (١٦) ، العدد (١)، البصرة ، ١٩٨٤.

الحمود، نوفان رجا

- **العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين**، ط ١، بيروت، ١٩٨١.

الحميدان، د. عبد اللطيف

- «التاريخ السياسي لامارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية»، **مجلة كلية الاداب**،

جامعة البصرة، العدد (١٦) ، ١٩٨٢.

الخال، محمد

– **تاريخ الامارة الافراسيابية او حلقة مفقودة من تاريخ البصرة**، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦١.

رافق ، د. عبد الكريم

– **العرب والعثمانيون ١٥١٦–١٩١٦**، دمشق ، ١٩٧٤.

رمضان، د. محمد رفعت

علي بيك الكبير، القاهرة ، ١٩٥٠.

السّيار، د. عائشة

– **دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا في الفترة من ١٦٢٤–١٧٤١**، بيروت، ١٩٧٥.

الصباغ، ميخائيل نقولا

– **تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا**، حريصا، ١٩٢٨.

الصليبي، د. كمال سليمان

– **تاريخ لبنان الحديث**، بيروت ، ١٩٦٧.

العارف ، عارف

– **تاريخ غزة**، القدس ، ١٩٤٣.

علي ، علي شاكر

– **تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨–١٧٥٠: دراسة في احواله السياسية**، ط ١، الموصل ١٩٨٤–١٩٨٥.

علي، محمد كرد

– **خطط الشام ١–٦**، بيروت ١٩٦٩– ١٩٧١.

عمر، د، عمر عبد العزيز

– **تاريخ المشرق العربي ١٥١٦–١٩٢٢** الاسكندرية د.ت.

– «العلاقات بين فخر الدين المعني الثاني والدولة العثمانية ١٥٩٠–١٦٣٥»

. **مجلة كلية الاداب**، جامعة الاسكندرية ، العدد (٢٦) ، ١٩٧٢.

عيساوي، شارل

التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب ١٨٠٠-١٩١٤، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٠.

قاسم، د. جمال زكريا

- **الخليج العربي: دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسّع الاوربي، ١٥٠٧-١٨٤٠**، القاهرة ١٩٨٥.

القهواتي ، حسين

- **العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ١٥٣٤-١٦٣٨**، (رسالة ماجستير غير منشورة) كلية الاداب/ جامعة بغداد، ١٩٧٥.

كريسيليوس ، دانيال

- **جذور مصر الحديثة**، ترجمة وتعليق : د. عبد الوهاب بكر، جامعة القاهرة، ١٩٨٥.

لوتسكي، فلاديمير ب.

- **تاريخ الاقطار العربية الحديث**، بتحرير وتقديم ايفانوف، ترجمة : عفيفة البستاني ، مراجعة. يوري روشين، موسكو، ١٩٧١.

لو نكريك، س.هـ.

- **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**، ترجمة : جعفر خياط، مراجعة وتعليق: د.مصطفى جواد، ط٣، بغداد ، ١٩٦٢.

محمد ، عراقي يوسف

- **الأوجاقات العثمانية في مصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر**، (رسالة ماجستير غير منشورة). كلية الآداب/ جامعة عين شمس، ١٩٧٨.

مراد ، د. خليل علي

- **تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٦٣٨-١٧٥٠**، (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الآداب/ جامعة بغداد، ١٩٧٦.

مزين ، محمد

- «المغرب وبلاد السودان خلال القرنين ١٦ و ١٧ الميلاديين»، **مجلة المؤرخ العربي**، العدد (٣١)، السنة (١٢)، ١٩٨٧.

المعلوف ، عيسى اسكندر

- **تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني**، جونيه ، ١٩٣٤.

مراجع الفصل الخامس

ابو حاكمة، د. احمد مصطفى

- **محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة**، ط ١، القاهرة، ١٩٦٨.

- **تاريخ شرقي الجزيرة العربية ١٧٥٠-١٨٠٠، وتطور الكويت والبحرين**، ترجمة محمد انيس عبد الله، بيروت ،د.ت.

- تاريخ الكويت، جـ١، القسم ٢، الكويت ، ١٩٧٠.

ابو علية، د. عبد الفتاح حسن

العثمانيون وبنو خالد في الاحساء» **المجلة التاريخية المغربية**، العدد (٢٩-٣٠)، السنة (١٠)، تونس، يوليو ١٩٨٣.

- **دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر**، الرياض ١٩٨٦.

الأثري ، محمد بهجة

- **ذرائع العصبيات العنصرية في اثارة الحروب وحملات نادرشاه على العراق في رواية شاهد عيان**، بغداد ، ١٩٨١.

أداموف، الكسندر

- **ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها**، ترجمة : د. هاشم صالح التكريتي، البصرة ، ١٩٨٢.

الامام ، رشاد

- **سياسة حمودة باشا في تونس ١٧٨٢ - ١٨١٤**، الجامعة التونسية، ١٩٨٠.

أمين، سمير.

- **المغرب العربي الحديث**، ترجمة، كميل ق. داغر، ط٣، بيروت ، ١٩٨١.

امين ، د. عبد الامير محمد

- **القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر**، بغداد، ١٩٦٦.

بكر ، د. عبد الوهاب

الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ط ١، القاهرة، ١٩٨٢

بن اسماعيل ، عمر علي

– **انهيار حكم الاسرة القرمانلية** ، بيروت ، ١٩٦٦.

التميمي، د. عبد الجليل

– **الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب افريقيا في العصر الحديث**، تونس ، ١٩٨٠.

– (تحرير وتقديم) **الحياة الاجتماعية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني**، (ملف اعمال المؤتمر الثاني الدولي للدراسات العثمانية) CEROMDI، تونس، ١٩٨٨.

الجميل ، د. سيّار

– «**الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل خلال العهد الجليلي**»، تونس، ١٩٨٨.

– **حصار الموصل: الصراع الاقليمي واندحار نادرشاه**، ط ١، الموصل، ١٩٩٠.

الجواهري، د.عماد

– **الاوضاع الاقطاعية في فلسطين في العصر الحديث: تقويم لآثارها الاجتماعية والسياسية**، جامعة بغداد، ١٩٨٣.

الدجاني، د. احمد صدقي

– **احاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، طرابلس، ١٩٦٨.

روث، رودلف سعيد

– **سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١-١٨٥٦**، ترجمة: عبد المجيد حسيب القيسي، البصرة، ١٩٨٣.

رؤوف ، د. عماد عبد السلام

– **الموصل في العهد العثماني: فترة الحكم المحلي ١٧٢٦-١٨٣٤م**، النجف، ١٩٧٥.

سعد الله، د. ابو القاسم

– **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ٢، الجزائر، ١٩٧٥.

سعيدوني، د. ناصر الدين

- **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني ١٧٩٢-١٨٣٠**،الجزائر ١٩٨٥.

سعيدوني والشيخ المهدي بو عبدلي

- **الجزائر فى التاريخ (٤): العهد العثماني**، الجزائر، ١٩٨٤.

الشرقاوي، محمود

- **مصر في القرن الثامن عشر**، ٣ اجزاء، القاهرة ١٩٥٥-١٩٥٧.

الشيخ، د. رأفت غنيمي

- **العرب: دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر**، القاهرة، ١٩٨٣

الصباح، د. ميمونة

- «نشأة الكويت وتطورها في القرن الثامن عشر»، **مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية**، العدد(٤٦)، السنة (١٢)، ابريل ١٩٨٦.

الصوفي ، احمد

المماليك في العراق، الموصل ، ١٩٥٢.

العابد، د. صالح محمد

- **دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧-١٨٢٠**، بغداد ، ١٩٧٦

عانوتي، د. اسامة

- **الحركة الادبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر**، بيروت (منشورات الجامعة اللبنانية)، ١٩٧١.

عبد الكريم، د. احمد عزت

- **دراسات في تاريخ العرب الحديث** ، بيروت، ١٩٧٠.

فارس ، محمد خير

- **تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني حتى الاحتلال الفرنسي**، دمشق، ١٩٦٩

قاسم ، د. جمال زكريا

- **دولة بو سعيد في عمان وشرق افريقيا**، القاهرة، ١٩٦٧.

قرم، د. جورج

-**تعدد الاديان وانظمة الحكم : دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة**، بيروت ١٩٧٩.

كريسيلوس ، دانيال

-**جذور مصر الحديثة**، ترجمة وتعليق . د. عبد الوهاب بكر، جامعة القاهرة، ١٩٨٥.

كيب، هاملتون وهارولد بوون

-**المجتمع الاسلامي والغرب** (جزءان)، ترجمة ٠ د. احمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة د. احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٧١.

لوتسكي، فلاديمير ب .

- **تاريخ الاقطار العربية الحديث**، تحرير وتقديم· ايفانوف، ترجمة : عفيفة البستاني ، موسكو ، ١٩٧١.

لونكريك ، س، هـ.

- **اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**، ترجمة . جعفر خياط، بغداد، ١٩٦٢.

ميكاكي، رودلفو

- **طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلي** ، ترجمة . طه فوزي (باشراف د. محمد شفيق غربال)، القاهرة،١٩٦١.

نوار، د. عبد العزيز

- (جمع وتعليق) **وثائق اساسية من تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧-١٩٢٠**، بيروت، ١٩٧٤.

نورس ، د. علاء

- **حكم المماليك في العراق ١٧٥٠- ١٨١٣م**، بغداد ، ١٩٧٥.

- **العراق في العهد العثماني : دراسة في العلاقات السياسية ١٧٠٠-١٨٠٠**، بغداد ١٩٧٩.

مراجع الفصل السادس

ابو عز الدين ، سليمان

- ابراهيم باشا في سورية، بيروت ، ١٩٢٩.

جرجس، فوزي

- دراسات في تاريخ مصر السياسي ، القاهرة ، ١٩٥٨.

الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ١٨٤٨-١٨٤٩، القاهرة ، ١٩٤٩.

جوان ، ادوارد

- مصر في القرن التاسع عشر ، تعريب : محمد مسعود، القاهرة ، ١٩٢١.

الرافعي، عبد الرحمن

- مصر محمد علي ، القاهرة ، ١٩٣٠.

ابفلين، هلين ان

الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة : احمد عبد الرحيم مصطفى و مصطفى الحسيني، القاهرة ، ١٩٦٨.

زكي ، عبد الرحمن

- التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير ، القاهرة ، ١٩٥٠.

السروجي ، د. محمد محمود

الجيش المصري في القرن التاسع عشر ، الاسكندرية، ١٩٦٧.

شبيكة ، مكي

تاريخ شعوب وادي النيل (مصر والسودان) في القرن التاسع عشر الميلادي. بيروت، ١٩٦٥.

شكري ، د. محمد فؤاد

- مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١-١٨١١، (٣ اجزاء)، القاهرة ، ١٩٥٢.

الحملة الفرنسية وظهور محمد علي ، القاهرة ، د.ت.

صبري السوربوني ، د محمد

- **تاريخ مصر الحديث من محمد علي الى اليوم**، القاهرة ، ١٩٢٦.

عبد الرحيم ، د. عبد الرحيم عبد الرحمن

- **الدولة السعودية الاولى ١٧٤٠-١٨١٨**، القاهرة ، ١٩٦٩.

عبد الكريم ، د. احمد عزت وآخرون

- **تاريخ مصر الحديث** ، القاهرة ، ١٩٥٤

عبد الكريم، د. احمد عزت

- **دراسات في تاريخ العرب الحديث**، بيروت ، ١٩٧٠.

علي ، محمد كرد

- **الحكومة المصرية في الشام**، القاهرة، ١٩٣٤.

غرايبة ، د. عبد الكريم

- **تاريخ العرب الحديث** ، بيروت ، ١٩٨٤.

غربال ، د. محمد شفيق

- **محمد علي الكبير (سلسلة اعلام الاسلام)**، القاهرة ، ١٩٤٤.

الغنام ، سليمان محمد

- **قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية** ، جدة ، ١٩٨٠.

كرابيتس ، پيير

- **ابراهيم باشا** ، ترجمة : محمد بدران ، القاهرة ، ١٩٣٧.

لوتسكي ، فلاديميري

- **تاريخ الاقطار العربية الحديث** ، ترجمة · عفيفة البستاني ، موسكو ١٩٧١.

نصر ، السيد يوسف

- **الوجود المصري في افريقيا في القرن التاسع عشر** ، القاهرة ، ١٩٨١.

- **الدور الحضاري للجيش المصري في القرن التاسع عشر في آسيا وافريقيا**، ط ١، القاهرة ١٩٨٢.

هيرولد ، ج- كرستوفر

- **بونابرت في مصر** ، ترجمة . فؤاد اندراوس، القاهرة ، ١٩٦٧.

مراجع الفصل السابع (المبحث الاول)

احمد ، د. ابراهيم خليل

- **تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٦**، الموصل، ١٩٨٦.

بولياك. أ. ن.

- **الاقطاعية في مصر وسوريا ولبنان**، ترجمة: عاطف كرم ، بيروت ، د.ت.

خلاف ، د. حسين

- **التجديد في الاقتصاد المصري الحديث**، ط ١، القاهرة، ١٩٦٣.

الحتّة ، احمد احمد

- **تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر**، الاسكندرية ، ١٩٦٧.

كرومر ، اللورد

- **مصر الحديثة**، جـ١، ترجمة : اسكندر مكاريوس ، القاهرة ، ١٩٠٩.

ريفلين ، هيلين آن

- **الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر**، ترجمة : احمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، القاهرة، ١٩٦٨.

زيدان، جرجي

- **تاريخ مصر الحديث** ، (٣ اجزاء)، القاهرة ، ١٩١١.

سعد، احمد صادق

- **تاريخ العرب الاجتماعي: تحول التكوين المصري من النمط الآسيوي الى النمط الرأسمالي** ، ط ١، بيروت ، ١٩٨١.

شكري ، د. محمد فؤاد وآخرون

بناء دولة مصر محمد علي ، القاهرة، ١٩٤٨.

الشيال ، د. جمال الدين

- **تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي**، القاهرة، ١٩٥١.

صالح ، فرحان

- «مدخل لفهم التقييمات الغربية لـ التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط»
دراسات عربية، العدد (٤)، السنة (١٠) ، شباط / فبراير ١٩٧٤.

طوسون ، عمر
الصنائع والمدارس الحربية ، الاسكندرية ، ١٩٣٥.

عبد الكريم، د. احمد عزت
- **تاريخ التعليم في مصر محمد علي** ، القاهرة ، ١٩٣٨.

غرايبة ، د. عبد الكريم
- **تاريخ العرب الحديث**، بيروت ، ١٩٨٤.

قرقوط، ذوقان
- **تطور الفكرة العربية في مصر ١٨٠٥-١٩٣٦**، بيروت ، ١٩٧٢.

لوتسكي ، فلاديمير
- **تاريخ الاقطار العربية الحديث**، ترجمة : عفيفة البستاني، موسكو، ١٩٧١.

هرشلاغ، زيفي. ي.
- **التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط**، ترجمة : مصطفى الحسيني، بيروت، ١٩٧٣.

يحيى ، د. جلال
- **مصر الحديثة ١٥١٧-١٨٠٥**، الاسكندرية ، ١٩٦٩.

مراجع الفصل السابع (المبحث الثاني)

اركون ، محمد

تاريخية الفكر العربي الاسلامي، ترجمة : هاشم صالح، ط ١، بيروت، ١٩٨٦.

امين ، احمد

- زعماء الاصلاح في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٥٠.

اومليل ، علي

- الاصلاحية العربية والدولة الوطنية ، ط ١، بيروت، ١٩٨٥.

جدعان ، د. فهمي

- اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث، بيروت، ١٩٧٩.

جعّيط ، د. هشام

- الشخصية العربية الاسلامية والمصير العربي، نقله الى العربية د. المنجي الصيادي، بتدقيق وتنقيح المؤلف، ط ١، بيروت، ١٩٨٤.

الجميل، د. سيّار

- «الاصلاحية»، القاموس العربي لعلم الاجتماع، تونس ، ١٩٩١.

حراز ، د. السيد رجب

- الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠- ١٩٠٩، القاهرة، ١٩٧٠.

حوراني ، البرت

- الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨- ١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، بيروت ، ١٩٧٧.

الدجاني، د. احمد صدقي.

- الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، ط ١، بيروت ١٩٧٦.

سعيد ، امين

سيرة الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ط ١، بيروت، ١٣٨٤هـ

شبيكة، مكي

وادي النيل بين ثورتين: المهدية والعرابية، الخرطوم، ١٩٦٥.

السودان والثورة المهدية، الخرطوم، ١٩٧٨.

شكري، د. محمد فؤاد.

السنوسية دين ودولة، القاهرة، ١٩٤٨.

الشيال، د. جمال الدين

الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الحديث، القاهرة، ١٩٥٨.

الطائي، ذنون يونس.

الاتجاهات الاصلاحية فى الموصل في اواخر العهد العثماني وحتى تاسيس الحكم الوطني ،(رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الأداب/ جامعة الموصل، ١٩٩٠

عبد الرحيم، د. عبد الرحيم عبد الرحمن

الدولة السعودية الاولى ١٧٤٠ ١٨١٨، القاهرة، ١٩٦٩.

العقاد، د. صلاح

«دعوة حركات الاصلاح السلفي» المجلة التاريخية المصرية، المجلد (٧)، القاهرة ١٩٥٨.

القصيمي، عبد الله

الثورة الوهابية، القاهرة، ١٩٣٦.

جب، هـ. ا

الاتجاهات الحديثة في الاسلام، تعريب جماعة من الاساتذة الجامعيين، بيروت ١٩٦١.

المحافظة، د. علي

الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩١٤، بيروت، ١٩٨٣.

مصطفى، د. احمد عبد الرحيم

حركة التجديد الاسلامي فى العالم العربي الحديث، القاهرة، ١٩٧١.

هولت، ب. م

المهدية فى السودان، ترجمة جميل عبيد، القاهرة، د. ت.

يحيى، د. جلال

الثورة المهدية واصول السياسة البريطانية، القاهرة، ١٩٥٩.

مراجع الفصل الثامن

احمد ، د. ابراهيم خليل

- **تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني**، الموصل ، ١٩٨٦.

انيس ، د. محمد

- **الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ - ١٩١٤**، القاهرة ، د.ت.

البحراوي ، د. محمد عبد اللطيف

- **حركة الاصلاح العثماني في عصر السلطان محمد الثاني ١٨٠٨- ١٨٣٩**، القاهرة ، ١٩٧٨.

البستاني، سليمان

- **عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده (طبعة جديدة)**، بيروت ١٩٧٨.

جحا ، د. شفيق

- «**التنظيمات أو حركة الاصلاح في الدولة العثمانية ١٨٣٩- ١٨٧٦**»، مجلة الابحاث ، الجامعة الامريكية في بيروت / السنة (١٨)، جـ(٢١)، حزيران ١٩٦٥

الجميل ، د. سيّار

- «**مؤثرات التحديث في المجتمع التركي المعاصر**»، بحث القي في المؤتمر الأول للدراسات التركية، مركز الدراسات التركية / جامعة الموصل ١٩٨٩.

- «**التحديث**» ، القاموس العربي لعلم الاجتماع، تونس ، ١٩٩١.

الحصري، ساطع

- **البلاد العربية والدولة العثمانية**، ط٣، بيروت ، ١٩٦٥.

زيدان ، جرجي

تاريخ آداب اللغة العربية (مجلدان)، القاهرة، د. ت.

الخياط ، جعفر

صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، جـ ١، ط١، بيروت ، ١٩٧١

جوليان، شارل اندريه

– **تاريخ افريقيا الشمالية**، تعريب : محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، ١٩٦٩.
غرايبة ، د. عبد الكريم.
– **تاريخ العرب الحديث** ، بيروت ، ١٩٨٤.
غربال ، د. محمد شفيق.
– (تحرير) **الموسوعة العربية الميسرة**، ط٢، القاهرة ، ١٩٧٢.
رئيف افندي ، محمود.
– **التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية** ، تعريب وتحقيق،د.خالد زيادة، ط ١، بيروت ، ١٩٨٥.
زيادة ، د. خالد
– **اكتشاف التقدم الاوروبي** : دراسة في المؤثرات الاوروبية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، بيروت ، ١٩٨١.
شربتلو، عبدالله ومحمد الميلي
– **الجزائر في مرآة التاريخ** ، قسنطينة ، ١٩٦٥.
كيب ، هاملتون وهارولد بون
– **المجتمع الاسلامي والغرب**، ترجمة. د. احمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة. د. احمد عزت عبد الكريم، جـ ٢، القاهرة ، ١٩٧١.
لوتسكي ، فلاديمير
– **تاريخ الاقطار العربية الحديث** ، ترجمة : عفيفة البستاني، موسكو، ١٩٧١.
مجموعة التنظيمات العثمانية (= الدستور) ، ترجمها عن التركية. نوفل نعمة الله نوفل، المجلدان ١/ ٢، بيروت ، ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م.
مصطفى ، د. احمد عبد الرحيم
في اصول التاريخ العثماني، بيروت، ١٩٨٢.
نورس ، د. علاء
– « **الاصلاح الاداري العثماني بين النظرية والواقع** »، مجلة دراسات في التاريخ والآثار ، السنة (١) ، العدد (١٢) ، بغداد ، ١٩٨٢.

مراجع الفصل التاسع

اباظة ،د. فاروق عثمان

- الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨، القاهرة ، ١٩٧٥.

ابو علية ،د. عبد الفتاح حسن

- الدولة السعودية الثانية ١٨٤٠-١٨٩١، الرياض ، ١٩٧٤.

امين، د. عبد الامير محمد

- القوى البحرية في الخليج العربي في القرن التاسع عشر ، بغداد ، ١٩٦٦.

برو ، توفيق علي

- القومية العربية في القرن التاسع عشر، دمشق، ١٩٦٥.

الجميل ،د. سيّار

- الولايات العربية والامبراطورية العثمانية: الحياة الادارية ... الملل والاقليات... التنظيمات وبروز القوميات» المستقبل العربي، العدد (١٣٨) ، السنة (١٣)، اغسطس / آب ١٩٩٠.

الجواهري ،د. عماد

- تاريخ مشكلة الاراضي في العراق ١٩١٤- ١٩٣٢، بغداد،١٩٧٨.

الجيلالي، الشيخ عبد الرحمن

- تاريخ الجزائر العام، جـ ٤ ، بيروت ، ١٩٨٠.

الحتة ، احمد احمد

- تاريخ مصر الاقتصادية في القرن التاسع عشر، الاسكندرية ، ١٩٦٧.

الحصري ، ساطع

- البلاد العربية والدولة العثمانية ،بيروت ، ١٩٦٥.

حراز، د. السيد رجب

- الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠- ١٩٠٩، القاهرة ، ١٩٧٠.

الحكيم ، يوسف

- بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، بيروت، ١٩٦٤.

خاطر ، لحد

- عهد المتصرفين في لبنان ١٨٦١-١٩١٨، بيروت ، ١٩٦٧

الدملوجي ، صديق

- مدحت باشا، بغداد ، ١٩٥٢/ ١٩٥٣.

الرافعي ، عبد الرحمن

- عصر اسماعيل، (جزءان)، القاهرة، ١٩٤٨

رؤوف،د. عماد عبد السلام

- التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني، بغداد ، ١٩٨٣.

الريحاني ، امين

- تاريخ نجد الحديث وملحقاته، بيروت ، ١٩٥٤.

سابايارد ، د. نازك،

الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة: الصراع الفكري والحضاري ، بيروت ، ١٩٧٩.

ستودارد ، لوثروب.

- حاضر العالم الاسلامي، تقديم : الأمير شكيب ارسلان، ترجمة: عجاج نويهض، (جزءان) القاهرة ، ١٣٤٣هـ.

شرارة ، وضاح

- المسألة التاريخية فى الفكر العربى الحديث، ط ١، بيروت، ١٩٧٧.

- حول بعض مشكلات الدولة في الثقافة والمجتمع العربيين، ط ١، بيروت، ١٩٨٠.

شيخو ، الاب لويس

- الاداب العربية في القرن التاسع عشر، جزءان) ، بيروت ، ١٩٠٨/١٩٢٦.

صالح ، د. زكي

موجز تاريخ العراق، بغداد ، ١٩٤٩.

- المجمل في تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني ، القاهرة، ١٩٦٦.

صايغ ، سليمان.

- **تاريخ الموصل** (٣ اجزاء) ، جـ ١، القاهرة . ١٩٢٨.

طربين، د. احمد

- **لبنان منذ عهد المتصرفين الى بداية الانتداب ١٨٦١-١٩٢٠**. القاهرة ١٩٦٨.

عبد الملك ، د. انور

الفكر العربي في معركة النهضة، ترجمة واعداد . بدر الدين عرودكي، ط٢، بيروت ، ١٩٧٨.

العزاوي ، عباس

تاريخ العراق بين احتلالين، (ثمانية اجزاء)، بغداد ، ١٩٣٩- ١٩٥٦.

العقاد، د. صلاح

- **التيارات السياسية في الخليج العربي**، القاهرة ، د. ت

عمر ، د. عمر عبد العزيز

- **تاريخ المشرق العربي ١٥١٦- ١٩٢٢**، الاسكندرية ، د. ت

عمر، د. عمر عبد العزيز

- **الادارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤- ١٩٢٢**، الاسكندرية، د. ت

عوض، عبد العزيز محمد

- **الادارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤- ١٩١٤**، القاهرة، ١٩٦٩.

غرايبة، د. عبد الكريم

- **سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠-١٨٧٦**، القاهرة ، ١٩٦٢.

تاريخ العرب الحديث ، بيروت، ١٩٨٤.

كوثراني، د. وجيه

- **الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠- ١٩٢٠**، بيروت، ١٩٧٦.

لوتسكي، فلاديمير

تاريخ الاقطار العربية الحديث، ترجمة: عفيفة البستاني، موسكو، ١٩٧١.

مصطفى، د. احمد عبد الرحيم

- **علاقات مصر بتركيا في عهد الخديوي اسماعيل ١٨٦٣– ١٨٧٩**، القاهرة، ١٩٦٧.

المنوني، محمد

- **مظاهر يقظة المغرب العربي**، (مجلدان)، ط٢، بيروت، ١٩٨٥.

النصولي، انيس زكريا

- **اسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر**، بيروت، ١٩٢٦.

نوار، د. عبد العزيز

- **داود باشا والي بغداد**، القاهرة، ١٩٦٨.

الهلالي، عبد الرزاق

- **تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني**، بغداد، ١٩٥٩.

الوردي، د. علي

- **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث** (٣ اجزاء)، بغداد، ١٩٦٩– ١٩٧٢.

ياسين، نمير طه

- **بدايات التحديث في العراق ١٨٦٩– ١٩١٤** (رسالة ماجستير غير منشورة) الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٤.

الفصل العاشر (المبحث الاول)

ابو زيد ،د. فاروق ،

عصر التنوير العربي، بيروت، ١٩٧٨.

ابو شعراء ، مصطفى

الاستيطان والحماية بالمغرب ١٨٦٣-١٨٩٤، تقديم : عبد الوهاب بن منصور، (جزءان)، جـ١، الرباط ١٩٨٤، جـ٢، الرباط ١٩٨٧.

البزاز، د. عبد الرحمن

العراق من الاحتلال الى الاستقلال ، ط٣، بغداد، ١٩٦٧.

بن نبي ، مالك

وجهة العالم الاسلامي ، ترجمة : عبد الصبور شاهين، بيروت ، ١٩٥٩.

بو عزيز ، د. يحيى

الامير عبد القادر : رائد الكفاح الجزائري، ط٢، الجزائر، ١٩٦٤.

ثورة ١٨٧١: دور عائلتي المقراني والحداد، الجزائر، ١٩٧٦.

بيهم، محمد جميل

فلسفة التاريخ العثماني: أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها، بيروت، ١٩٥٤.

تشايجي، عبدالرحمن

المسالة التونسية والسياسة العثمانية ١٨٨١-١٩١٣، ترجمة: د. عبدالجليل التميمي، تونس، ١٩٧٣.

التميمي، د. عبدالجليل

بايلك قسنطينة والحاج احمد باي ١٨٣٠-١٨٣٧م، تونس، ١٩٧٨.

التميمي، د. عبدالمالك

«بريطانيا و تجارة الرقيق في منطقة الخليج العربي ١٨٢٠-١٩٢٨»، **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العددان ١/٢، جانفي/ يناير ١٩٩٠.

جغلول ، عبد القادر

– **تاريخ الجزائر الحديث: دراسة سوسيولوجية**، ترجمة: فيصل عباس، مراجعة: خليل احمد خليل، ط ١، بيروت، ١٩٨١.

الجميل، د. سيّار

– «رحلة جوستن بيركنس عبر شمال العراق: الارض الكلاسيكية ١٨٤٩م»، **المورد**، المجلد (١٨)، العدد (١٤)– خاص– ١٩٨٩.

حسين، د. فاضل

– **محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية**، القاهرة، ١٩٥٨.

حمدان، د. جمال

– **ستراتيجية الاستعمار والتحرير**، القاهرة، ١٩٦٨.

خالدي، مصطفى وعمر فروخ

– **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، بيروت، ١٩٥٣.

الخفيف، محمود

– **احمد عرابي الزعيم المفترى عليه**، ط٤، بيروت، ١٩٨٢.

رزق، يونان لبيب

– **الحياة الحربية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني ١٨٨٢– ١٩١٤**، القاهرة، ١٩٧٠.

رمضان، د.عبد العظيم

– **الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة**، القاهرة، ١٩٨٤.

زيادة، نقولا

– تونس في عهد الحماية ١٨٨١– ١٩٣٤، القاهرة، ١٩٦٣.

زين، زين نور الدين

– **الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان**، بيروت. ١٩٧١.

سعد الله، ابو القاسم

– **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)**، ط٣، الجزائر، ١٩٨٢.

السعيد، د. رفعت

- **الاساس الاجتماعي للثورة العرابية**، القاهرة، ١٩٦٧.

شاتليه ، ا.ل.

الغارة على العالم الاسلامي، لخصها ونقلها الى اللغة العربية : محب الدين الخطيب، مساعد اليافي ، ط٢ الجزائر ، ١٩٨٥.

صالح ، د. زكي

مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني ، القاهرة ، ١٩٦٦.

العمري ، امين

- **تاريخ مقدرات العراق السياسية (٣ اجزاء)** ، الموصل (نشر باسم محمد طاهر العمري) ١٩٢٤، بغداد ١٩٢٥.

عيسى ، صلاح

الثورة العرابية ، بيروت ، ١٩٧٢.

غانياج ، جان

- **ثورة علي بن غذاهم ١٨٦٤م**، تونس ، ١٩٦٥.

غرايبة ، د. عبد الكريم

- **تاريخ العرب الحديث** ، بيروت ، ١٩٨٢.

الفاسي ، علال

الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، القاهرة ، ١٩٤٨.

قاسمية ، د. خيرية

-**النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨-١٩١٨**، بيروت ، ١٩٧٣.

كرومر ، اللورد

- **الثورة العرابية**، ترجمة . عبد العزيز عرابي ، القاهرة، ١٩٥٨.

كوثراني ، د. وجيه

- **بلاد الشام: السكان ، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين: قراءة في الوثائق** ، ط ١، بيروت، ١٩٨٠.

القهواتي ، حسين

-دور **البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩-١٩١٤**، بغداد، ١٩٨٠.

لوتسكي ، فلاديمير

- تاريخ الاقطار العربية الحديث، ترجمة : عفيفة البستاني، موسكو، ١٩٧١.

لوريمر ، ج.ج.

- **دليل الخليج، (القسم التاريخي) جـ٦، (القسم الجغرافي) جـ٧**، قطر، د.ت.

محمود ، امين عبد الله

- **مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى (عالم المعرفة)** ، الكويت ، ١٩٨٤.

المرزوقي ، محمد

صراع مع الحماية ، تونس ، ١٩٧٣.

مصطفى ، د. احمد عبد الرحيم

- **مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦-١٨٨٢**، القاهرة ، ١٩٦٦.

واتر بوري ، جون

- **الملكية والنخبة السياسية في المغرب** ، ترجمة : ماجد نعمة وعبود عطية، بيروت، ١٩٨٢.

الفصل العاشر (المبحث الثاني)

احمد ، د. ابراهيم خليل

تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، الموصل ، ١٩٨٦.

انطاكي ، عبد المسيح ،

نيل الاماني في الدستور العثماني ، مطبعة العرب ، مصر ، ١٩٠٩.

انطونيوس ، جورج،

يقظة العرب : تاريخ حركة العرب القومية . ترجمة :

د. ناصر الدين الاسد ، ود. احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٢.

أنيس، د. محمد ود. السيد رجب حراز

الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة ، ١٩٦٧.

بحيري ، مروان (تحرير)

الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠-١٩٢٩، ترجمة : عطا عبد الوهاب، بيروت، ١٩٨٣.

برج ، د. محمد عبد الرحمن

دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، القاهرة ، ١٩٧٤.

برهان الدين ، عصمت

- «**النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني**»، (رسالة ماجستير غير منشورة) قدمت الى كلية الآداب/ قسم التاريخ- جامعة الموصل ١٩٨٩.

برو، توفيق علي،

العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨- ١٩١٤، ط١، القاهرة، ١٩٦٠.

التميمي، د. عبد الجليل

(تحرير وتقديم)، الحياة الفكرية والثقافية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني في **المجلة التاريخية المغربية** العدد (٥٩-٦٠) السنة (١٧) تونس ١٩٩٠.

الجميل، د. سيّار

«نقد ايبستمولوجية الخطاب العربي المعاصر» **المستقبل العربي**، السنة (١٠)، العدد (١٠٥)، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٧.

– **العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من اجل بحث رؤيوي معاصر**، بيروت، ١٩٨٩.

– «أتاتورك: الكريزمان والتكوين: من العثمنة نحو العلمنة»، **دراسات تركية**، العدد(١)، المجلد (١)، السنة ١٩٩٠ (جامعة الموصل).

جوليس، مدام بيرت جورج،

الوطنية العثمانية، تعريب عن الافرنسية: احمد رفعت، القاهرة، د. ت. (أرخت مقدمة المترجم في ٢٥ يناير ١٩٢٢).

الحصري، ساطع

البلاد العربية والدولة العثمانية، ط٢، بيروت، ١٩٦١.

الحكيم، يوسف

سورية والعهد الفيصلي، بيروت، ١٩٦٦.

حوراني، البرت

الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨– ١٩٣٩، ترجمة: كريم عزقول، بيروت، ١٩٧٧.

خدوري، مجيد

الاتجاهات السياسية في العالم العربي: دور الافكار والمثل العليا في السياسة، بيروت، ١٩٧٣.

الخطيب، محب الدين

(جمع وتحرير)، **اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني: المؤتمر العربي الاول**، القاهرة، ١٩١٣.

اوروبا ومصير الشرق العربي، ترجمة؛ بطرس الحلاق وماجد نعمة، بيروت، ١٩٧٦.

دروزة، محمد عزة

نشأة الحركة العربية الحديثة، صيدا، ١٩٧١.

الدوري، د. عبد العزيز

التكوين التاريخي للامة العربية: دراسة في الهوية والوعي، ط١، بيروت، ١٩٨٤.

رامزور، ارنست

تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨، ترجمة: د. صالح احمد العلي، بيروت، ١٩٦٠

سعيد، امين،

الثورة العربية الكبرى، ج٣.، القاهرة، ١٩٣٤.

شرابي هشام

المثقفون العرب والغرب، بيروت، ١٩٧١.

الشهابي، مصطفى

القومية العربية، القاهرة . ١٩٥٩

الشيخ، د. رأفت غنيمي.

في تاريخ العرب الحديث، القاهرة، ١٩٧٥.

صابات، خليل

تاريخ الطباعة في الشرق العربي، القاهرة، ١٩٥٨.

عازوري، نجيب

يقظة الامة العربية، ترجمة وتقديم: احمد بوملحم، بيروت ١٩٧٨.

عبد الحميد الثاني، السلطان

مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتعليق: محمد حرب عبد الحميد، القاهرة، ١٩٨٧

العقاد، د. صلاح

التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة، د. ت

عمارة، د. محمد

العروبة في العصر الحديث، بيروت، ١٩٨٤.

عوض، لويس

تاريخ الفكر المصري الحديث، جزءان، القاهرة، ١٩٦٩.

غرايبة، د. عبد الكريم

العرب والاتراك، دمشق، ١٩٦١.

فاخوري، عمر

كيف ينهض العرب، نشره' عبد اللطيف فاخوري، بيروت، ١٩٨١.

قاسمية، د. خيرية

النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨-١٩١٨، ط ١، بيروت، ١٩٧٣.

د. قدورة ، د. زاهية،

الخيالي، د. عبد الوهاب

تاريخ فلسطين الحديث، بيروت، ١٩٧٠.

كَيب، هـ. أ. ر. وآخرون

وجهة الاسلام: نظرة في الحركات الحديثة في العالم الاسلامي، تعريب: محمد عبد الهادي ابو ريدة، حرره وراجعه: هـ. أ. ر. كَيب، المطبعة الاسلامية، القاهرة، د. ت. (أرخت مقدمة المترجم في سنة ١٩٣٤).

كوثراني، د. وجيه

بلاد الشام: السكان، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين: قراءة في الوثائق، ط ١ بيروت ١٩٨٠.

-- **المسالة الثقافية في لبنان: الخطاب السياسي والتاريخ**، ط ١، بيروت، ١٩٨٤.

ليفين، ز. أ

الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث (في لبنان- سوريا-مصر) ترجمة: بشير السباعي، ط ١، بيروت، ١٩٧٨.

المحافظة، د. علي،

الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨- ١٩١٢، بيروت ١٩٨٣

محمد علي، اورخان،

السلطان عبد الحميد الثاني: حياته واحداث عهده، ط ١، الرمادي١٩٨٧.

مسعود، جبران،

لبنان والنهضة العربية الحديثة، ط ١، بيروت، ١٩٦٧.

موسى، سليمان

الحركة العربية: سيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨- ١٩٢٤، بيروت، ١٩٧٠.

مؤنس، د. حسين

الشرق الاسلامي في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٣٨.

نسيبة، د. حازم زكي

القومية العربية: فكرتها نشاتها تطورها، ترجمة: عبد اللطيف شرارة، ط٢، بيروت، ١٩٦٢.

نظمي، د. وميض جمال عمر

الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية لحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، ط١، بيروت، ١٩٨٤.

نوار، د. عبد العزيز

تاريخ العرب المعاصر: مصر والعراق، بيروت، ١٩٧٣.

وهيم طالب محمد

مملكة الحجاز ١٩١٦ – ١٩٢٥: دراسة في الاوضاع السياسية، البصرة، ١٩٨٢.

يحيى، د. جلال،

العالم العربي الحديث، القاهرة، ١٩٦٥.

٣/ مراجع الكتاب باللغات الاجنبية

- مراجع المدخل الموضوعي-

Abu Lughod, Ibrahim

Arab Rediscovery of Europe: A Study in Cultural Encontcrs, Princeton, 1963.

Childers, Erskine

Common Sense About the Arab World, London, 1960.

Hitte, Philip K.

History of the Arabs, 10th ed. the Macmillam Press Ltd, 1980.

Hogarth, D. G.

Arabia, Oxford, 1922.

Kedourie, E. (ed.)

Nationalism in Arab and Africa, London, 1971.

Khadduri, Majid

Political Trends in the Arab World: The Role of Ideas and Ideals in Politics, John Hopkins Univ. Press, 1970.

Kirk, George

A short History of the Middle East, London, 1955.

Lawrence, T. E.

Seven Pillars of Wisdom, London, 1936.

Mansfield, Peter

The Middle East: A Political and Economic Survey, 5th ed., Oxford Univ. Press, 1980.

Nuseibeh, H. Z.

The Ideas of Arab Nationalism, Cornell Univ. Press, New York, 1956.

Tibi, Bassam

Arab Nationalism: A Critical Enquiry, The Macmillan Press. U. S. A., 1981 (The English Tr. By Marion F. Sluglett and Peter Sluglett).

مراجع الفصل الاول

Alderson, A. D.

The Structure of the Ottoman Dynasty, Oxford. 1956.

Bridge, Antony,

Suleiman The Magnificent: Scourge of Heaven, London, 1983.

Creasy, Edward S.,

History of the Ottoman Turks, Introduction by Zeine N. Zeine, Beirut- Khayats, 1961.

Dames, M. L.,

"The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century", Journal of the Royal Asiatic, Part 1, London, Jan, 1921.

Inalcik, Halil,

The Ottoman Empire: The Classical Age 1300- 1600, London, 1973.

The Ottoman Empire: Conquest, Organization and Economy (collected Studies), London, 1978.

Karpat, K., (ed.)

The Ottoman State and its pace in World History, Leiden and E. J. Brill, 1974.

Lybyer, H. H.,

Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent, Cambridge, 1913.

Miquel, Andre,

La Ge'ographie humaine de monde musulman jusq'u au milieu du II Siecle, mouton and Paris, 1973.

Muller, Herbert J.,

The Lomm of History, New York, 1958.

Repp, R. C.,

The Müfti of Istanbul, Univ. of Oxford, 1986.

Shaw, Stanford J.,

History of the Ottoman Empire and Modern Turkry. Vol I: Empire of the Gazis: The Rise and Decline of the Ottoman Empire 1280- 1808 Cambridge 1978.

Stripling, G. W. F.,

The Ottoman Tirks and the Arabs, Urbana, 1942.

Toynbee, A. J.,

A Study of History, vol. I, Oxford, 1934.

Wittek, Paul,

The Rise of the Ottoman Empire, London, 1938.

مراجع الفصل الثاني

Allen, W. E. D., .

Problems of Turkish Power in the sixteenth Century, London, 1963.

Barkan, Omer Lutfi,

"Resaerch in the Ottoman Fiscal Surveys" in Studies in the Economic of the Middle East, ed. by M. A. Cook, London, 1970.

Creasy, E. S.,

History of the Ottoman Turks, Beirut, 1961.

Inalcik, H.,

"Ottoman Methods of Conquest", Studia Islamica, (1954), Vol 2.

Al- Jamil, Sayyar K.,

"Robert Mantran and the Social History of Islam" in M'elanges Professear Robert Mantran. ed. by A. Temimi, Zaghouan, 1988.

Kunt, I. Metin, .

The Sultan's Servants: The Transformation of Ottoman Provincial Government. 1550- 1650, Columbia Univ. Press, 1983.

Lyber, A. H.,

Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Maginificent, Cambridge, 1913.

Mantran, Robert,

L' Empire Ottoman et le Commerce Asiatique, Paris, n. d.

Parry, V. J. and Others,

A History of the Ottoman Empire to 1730, ed. by M. A. Cook, Cambridge, 1976.

Pitcher, Donald E.,

An Historical Geography of the Ottoman Empire from earliest times to the end of the sixteenth Century, Leiden, E. J. Brill, 1972.

Savory, R.,

Iran under the Safavids, Cambridge, 1980.

Shaw,, Stanford J.,

The Financial and Adminstrative Organization and Development of Ottoman Egypt 1517- 1798, Princeton, 1962.

Spry, W. J. J.,

Life on the Bosphorus: Turkey Past and Present, London, 1895.

مراجع الفصل الثالث

Arold, Sir T.W.,

The Caliphate, Oxford, 1924.

Bergue, J.,

The Arabs: Their History and Future (English tr.), London, 1964.

Bosworht, C. E.,

The Islamic Dynasties, Edinburgh Univ., 1980.

Cattenoz, H. G.,

Table des concordances des eres chretiannes et H'egiriennes, Rabat, 1953.

Gibb, H. A. R. and Harold Bowen,

Islamic Society and the west, 2 parts, London, 1950- 7.

Holt, P. M.,

Egypt and the Fertile Crescent 1516 - 1922, London, 1966.

Jacob, Harold F.

Kings of Arbia. Mills and Boon, London, 1923.

De Gaury, Gerald

Ruslers of Mecca, London, 1951.

AL- Jamil, Sayyar K.,

A Critical Edition of al- Durr al- maknun Fi al- m'athir al- m'adiya min al- Qurun of Yasin al- Umari (920- 1226 A. H. = 1514/ 1515 A. D. - 1811/ 1812 A. D.), 3 vols., St. Andrews Univ Scotland, 1983.

Ch. du Julien,

History de lAfreque du Nord de la conguete arabea 1880, Paris, 1952.

Lewis, Bernard,

The Arabs in History, London, 1958.

Muir, Sir W.,

The Caliphate, its Rise, Dise, Decline and Fall, Edinburgh, 1924.

Nöldeke, T.,

Sketches from Eastern History (English tr.). Edinburgh,,1892.

Schacht, J. and C. E. Bosworth,

The Legacy of Islam, 2nd ed., Oxford, 1974.

Sykes, Lt. Col. Sir Mark,

The Caliphs Last Heritage, London, 1915.

Terrase, Henri,

Histoire du Maroc des Origines a; letablissement du protectora francais vol. I, Casablanca, 1949- 1950.

مراجع الفصل الرابع

Badger, Percy,

History of the Imams and Seyyids of Oman, London, 1971.

Barber, N.,

The Sultans, New York, 1973.

Braudel, Fernand,

The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, 2 vols., London, 1927.

Holt, P. M.,

"The Beylicate in Ottoman Egypt during the sevsnteenth century" Bullentin of the School of Oriental and African Studies, (= BSOAS), vol. xxiv, II, London, 1961.

Hurewitz, J. C.,

Diplomacy in the Near and Middle East: A Decumentary Records 1535- 1914, vol, I, Princeton, 1956.

Lewis, Raphaela,

Every day Life in Ottoman Turkey. London, 1971.

Longrigg, S. H.,

Four Centuries of Modern Iraq. Oxford, 1925.

Mostyn, Trevor, (ed.)

The Cambridge Encyclopaedia of the Middle East abd North Africa Executive, Cambridge, 1988.

Philip, Wendell,

Oman: A History, London, 1967.
Rafeq, Abdul- Karim,
"The Local forces in Syria in the Seventeenth and Eighteenth centuries" in War, Techology and Society in the Middle East, ed, by V. J. Parry and M. E. Yapp, London, 1975.
Salibi, K.,
The Modern History of Lebanon, New York, 1965.
Sykes, Sir P.,\
A History of Persia, vol. II, London, 1930.
Ugur, Ali.
The Ottoman Ulema in the Mid- seventeenth Century: An Analysis of the Vaka 'i ül- Fuzala of Mehmed Seyhi Efendi, Ph. D. Thesis, Edinburgh Univ., 1973.
Uzun carsili, Ismail Hakki,
Osmanli Tarihi, vol. 4, Ankara, 1956.
Von- Hammer Purgstall, J.,
Geschichte der Osmanschen Reich, Band 4, Wein, 1828.

مراجع الفصل الخامس

Anderson, M. S.,

A General History of Europe: Europe in the Eighteenth Century 1713- 1783, London, 1979.

Anthony, John Ducke,

"The Union of the Arab Amirates" Middle East Journal, Summer, 1972.

Barbir, Karl K.,

Ottoman Rule in Damascus 1708- 1758, Princeton Uiv. Press, New Jersey, 1980.

Brown, Le'on Carl,

The Tunisia of Ahmad Bey, Princeton Univ. Press, New Jersey, 1974.

Cassels , Lavender,

The Struggle for the Ottoman Empire 1717- 1740. Lndon, 1968.

Hikmat, M.A.,

Essai sur L'Histoire des Relation Iranc- Ottoman de 1722- 47, Paris, 1937.

Al- Jamil, Sayyar K.,

Acritical Edition of al - Durr al - Maknun fi al- M'aathir al-Madiya min al - Qurun of Yasin all - Umari (920-1226 A.H. = 1514/1515 A.D. - 1811/ 1812 A.D.). 3 vols., St. Andrews Univ., Scotland, 1283.

Lorimar, J.J Gazetteer of the Persian Gulf, I (Historical Part), I.B. Holand, 1970. Olson, R. W.,

The Siege of Mosul and Ottoman - Persian Relations 1718- 1743, Indiana Univ., 1975.

Rafeq, A.,

The Province of Damascus 1723- 1783, Beirut, 1970.

Safwat, M.M.,

Tunis and the Great Powers, Alexandria, 1943.

Shay. M.C.,

The Ottoman Empire from 1720- 1734, New York, 1978.

Shaw, S.J..,

Ottoman Egypt in the 18 th Century. Harvard Univ, Press, 1962.

Wilkinson, J.C.,

The Imamate Tradition of Oman, Cambridge Univ. Prees, Cambridge. 1987.

Wolf, John B.,

The Barbary Coast : Algeria under the Turks, U.S.A. 1979.

مراجع الفصل السادس

Ahmed, Jamal Mohammad ,

The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, Oxford Univ. Press, 1960.

Bear, G.,

"Social Change in Egypt 1800-1914" in Political and Social change in Modern Egypt, ed . by P.M. Halt, London, 1968.

Crouchley, A.C.,

The Economic Development of Modern Egypt, London, 1938.

Dodwll. H.,

The Founder of Modern Egypt : a Study of Mohammad Ali, Cambridge, 1967.,

Douin , S.,

Mohommed Ali et l' Expedition d' Alger 1819-1830. Paris, 1950.

Fisher , H.A.L.,

Napoleon (2nd ed.): Oxford Univ. Press , 1967.

Ghorbal , S.,

The beginnings of the Egyptian Question and the rise of Mehemet Ali , London , 1928.

Hasenclever , L.,

Geschichte Aegyptens im lq Jahrhumdert, Halle,1917.

Holt, p.m

Egypt and Fertile Crescent in the Ottoman Period, 1516-1922, Ithaca, New York, 1966.

Lord Cromer,

Modern Egypt , 2 vols., London, 1908.

Lewis, Bernard ,

"The Impact of French Revolution on Turkey" , "Journal of World History, vol. I, 1955.

Sabry, M.,

L' Empire Egyption Sous Mohammad Ali er la Question d'Qrient, 1811-1849, Paris, 1930.

AL- Sayyid, Afaf.Lutfi ,

Egypt in the reign of Muhammad Ali, Cambridge Univ , Parss, Cambridge. 1984.

Shaw, Stanford J.,

Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution , Cambridge, Mass., 1964.

مراجع الفصل السابع (المبحث الاول)

Adams, C.C.,

Islam and Modernism in Egypt , London , 1933.

Ahmad , Jamal,

The Intellectual Origins of Egyption Natinalism, London, 1960.

Baer, C.,

A History of Landowership in Modern Egypt 1800-1950, London, 1962.

Holt, P. N., (ed)

Political and Social Change in modern Egypt: Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic, London, 1968.

Miller, William ,

The Ottoman Empire 1801-1913, London, 1915.

Polk, William Roe and R.L. Chambers (eds.)

Beginnings of Modernization in the Middle East: The Ninteenth century , Chicago Univ . Press. Chicago I I I , 1968.

مراجع الفصل السابع (المبحث الثاني)

Andr'e - Jutien , Chartes,

Histoier de l'Afrique du Nord, Paris , 1966.

Evans - Pritchard, E.E.,

The Sanusi of Cyrenaica, Oxford Univ . Press, Oxford, 1963.

Gibb, H.A.R.,

Modern Trends in Islam, Chicago , 1947.

Holt, P. M.,

A Modern history of the Sudan, London, 1961.

The Mahdist State in the Sudan, Oxford , 1970.

Kemp, percy ,

Mosul and Mosuli Historian of the Jalili era 1726-1834 (Unpublished Ph. D. Thesis). Oxford Univ . 1979.

Kerr, Malcom ,

Islamic Reform, Univ. of California, Berkeley, 1966.

Philiby, H. St. John,

Sa'udi Arabia, London , 1955.

Rentz, George .

Muhammad b. Abd al-Wahhab 1703-1792, and the beginning of the Ist Unitarian Empire in Saudi Aribia, California, 1948.

Smith, W.C.

Islam in modern History, Princeton Univ . Press, Princeton, 1957.

مراجع الفصل الثامن

Davison, Roderic H.,

Roform in the Ottoman Empire, 1856-1876, New York, 1974.

- Turkey: Ashort History, London, 1981.

Engelhardt, Ed.,

La Turguie et le Tanzimat, au histoire des Reformes dans L'Emire

Ottoman, 2 vols., Paris, 1882-4.

Findley, C.,

Bureaucratic. Reform in the Ottoman Empire, Princeton, 1980.

Gibb, H.A.R. and Harold Bowen.

Islamic Society and the West, 2 parts, Oxford Univ. press, 1953-7.

Lewis, Bernard,

The Emergence of Modern Turkey, London, 1961.

al - Qaysi, Abdul Wahhab,

The Impact of modernization on Iraq Society during the Ottoman Era: A Study of Intellecual Development in Iraq 1869 -1917, (Unpublished Ph.D.Thesis) University of Micigan, 1958.

Rodkey, F.S.

"Ottoman Concerns about Western Economic penetration in the Levant, 1849 - 1856", Journal of Modern History, Dec. 1958.

Shaw, Stanford J.,

Between Old and New: The Ottoman Empire under Sultan Selim I I I, 1789- 1807, Harvard Univ. press, 1971.

(with his wife) Ezel kural Shaw, History of the Ottoman Empric and Modern Turkey, vol. 2 : (Reform, Revolution and Republic: The Rise of Modern Turkey), Cambridge, 1977.

Stripling,

The Ottoman Turks and thr Arabs, Urbana, 1942.

Toynbee, A.J.,

The Western Question in Greece and Turkey: A study in the Contact of Civilization (1922= Ist ed.) New York, 1970.

مراجع الفصل التاسع

Bailey , F.E.,

British Policy and the Turkish Reform Movement, Harvard, 1942.

Berkes, Niyazi,

The Development of Secularism in Turkey Montreal, Mc Gill Univ, press, 1964.

Coke, Richard,

The Heart of the middle East, London, 1926.

Douin,

Historise du Re'gne du Khe'dive Ismail, n.d.

Hourani, Albert,

" The changing Face of thr fertile Crescent in the 18 th century", Studia Islamica, vol. 8, 1957.

Fisher, Sir Stanley, Ottoman Land Laws Containing the Ottoman Land Code and Later Legislation Affecting Land, Oxford Univ. Press, 1919.

Fisher, S.N.,

The Middle East: A History, New York, 1959.

Lapidus, Ira M.,

A History of Islamic Societies, Cambridge Univ. Press, 1988.

Longrigg, S.H.

Iraq, 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History, Oxford Univ. Press, 1953.

Ma' oz, moshe,

Ottoman Refórm in Syria and Palestine, 1840- 1861: The Impact of the Tanzimat on politics and Soceity, Oxford Univ. Press, 1968.

Monroe, Elizabeth,

Britain's Moment in the Middle East, 1914-1956, London, 1965.

Salih , Zaki,

Mesopotamia, 1600-1914, Baghdad, 1957.

Sharabi, Hisham B.,

Arab Intellecuals and the West: The Formative Years, 1875-1914 London , 1970.

Warriner , Doreen

Land and Poverty in the Middle East London, New York, 1984.

Young , Sir Hurbert ,

The Independent Arab, London, 1933.

Zahn, J.A. ,

From Berlin to Baghdad and Babylon, London, 1992.

مراجع الفصل العاشر

Abbas, F.,

De la Colonie vers la province : le jeune Alg'erien, paris, 1931.

Antonius , George,

The Arab Awaking : The Story of the Arab National Movement, 2nd ed. (London, 1938).

Andre - Julian , C.,

L'Afrique du Nord en marche , paris , 1952.

Gibb , H.A.R.,

Studies on th Civilization of Islam Routledge and Kegan paul, London, 1962.

Down, C.E.

Form Ottomanism to Arabism: essays on the Origins of Arab Nationalism , Urbana , 1973.

Cleveland , William L.,

The Making of an Arab Nationalist Ottomanism and Arabism in Life and Thought of Sati'al - Husri, prunceton Univ. press, 1971

Haim, Sylvia,

Arab Nationalism, Univ. of California press, 1962.

Hartman, martin,

Islam, Mission. Politik, Leipzig, 1912.

Earle, E.M.,

Turkey: The Great Powers and the Baghdad Railway, Railway, New York, 1935.

Lewis, Bernard,

The Middle East and the West, London, 1964.

Keyder, Caglar,

State &Class in Turkey: A Study in Capitalist Development, London, 1987.

Mardin, Serif,

The Genesis of Young Ottoman Thought: A Study in the modernization of Turkish political Ideas, princeton, 1962.

Morrison , S.A.

Middle East Survey, London, 1954.

Jung, Eugene

La Re'volte Arabe, t.l., paris, 1924-5.

Ramsaur, E.E.,

The Young Turks: Prekude to the Revolution of 1908, Princeton, 1957.

Soab. H.,

The Arab Federalists of the Ottoman Empire, Amsterdam, 1958.

Zeine N.Zeine,

Arab - Turkish relations and the Emergence of Arab Nationalism, Beirut, 1958.

٤/ المراجع المساعدة (بالعربية)

اباظة ، د. فاروق عثمان

– **عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ١٨٣٩–١٩١٨**، القاهرة، ١٩٧٦.

ابو شقرا ، يوسف خطار

– **الحركات في لبنان في عهد المتصرفية** ، بيروت ،. ١٩٥٢.

ابو عز الدين، سليمان

– **ابراهيم باشا في سورية**، بيروت، ١٩٢٩.

امين، د. سمير

–**الطبقة والامة في التاريخ وفي المرحلة الامبريالية**، بيروت، ١٩٨٠.

– **المغرب الحديث**، ترجمة: كميل ق. داغر، ط٣، بيروت، ١٩٨١.

أمين، د. جلال احمد

–**المشرق العربي والغرب؛ بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية**، بيروت ١٩٧٩.

اوزن جارجلي، اسماعيل حقي

–**امراء مكة المكرمة في العهد العثماني**، ترجمة؛ د. خليل علي مراد، جامعة البصرة، ١٩٨٥.

البطريق، د. عبدالحميد

–**من تاريخ اليمن الحديث**، القاهرة، ١٩٦٩.

– «محمد علي ومشروع غزو العراق»، **مجلة كلية الآداب**، الجامعة الاردنية عمان، المجلد (١)، العدد(١)، كانون الثاني ١٩٦٩.

بن خروف، عمر

– «ملامح من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين»، **مجلة الدراسات التاريخية**، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، العدد (٣)، السنة ١٩٨٧.

بورقيبة، الحبيب

- **بين تونس وفرنسا**، تونس، ١٩٥٧.

التميمي، د. عبدالجليل

- **موجز الدفاتر العربية والتركية بالجزائر**، تونس، ١٩٨٣.

- **الدولة العثمانية وقضية الموركسيين الاندلسيين**، زغوان/ تونس، ١٩٨٩.

- «العلاقات العربية- العثمانية بعد فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣»، **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد (١/٢) تونس يناير ١٩٩٠.

التميمي، د. عبد المالك.

- «**بريطانيا وتجارة الرقيق في منطقة الخليج العربي ١٨٢٠- ١٩٢٨**»، **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد(١/٢)، تونس يناير ١٩٩٠.

ثامر، الحبيب

- **هذه تونس**، القاهرة، ١٩٤٨.

الجابري، د. محمد عابد

- **الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية**، ط٢، بيروت، ١٩٨٣.

- «تطور الانتلجانيسيا المغربية: الاصالة والتحديث في المغرب»، في **الانتلجانسيا في المغرب العربي** (تحرير:) د، عبد القادر جغلول، بيروت ١٩٨٤.

جعيط، د. هشام

- «النهضة والاصلاح والثورة في العالم الاسلامي الحديث»، مجلة **المستقبل العربي**، العدد (٣٨)، السنة (٤)، نيسان/ ابريل ١٩٨٢.

الجميل، د. سيّار

- «دولة السلطنة العثمانية واشكالية الخلافة»، مجلة **دراسات عربية**، العدد (٤)، السنة (٢٣)، سباط/ فبراير ١٩٨٧.

- «البحر المتوسط: الشرعية التاريخية العربية مساهمة معرفية في تصحيح بعض المفاهيم»، مجلة **دراسات عربية**، العدد (٩)، السنة (٢٤)، تموز/ يوليو ١٩٨٨.

- «الامة العربي» **القاموس العربي لعلم الاجتماع**، تحرير: د. الطاهر لبيب، ط ١، تونس، ١٩٩١.

- «نظام الادارة العثمانية اللامركزية في الولايات العربية»، بحث أُلقي في **المؤتمر الدولي الرابع للدراسات العثمانية**، تونس، ١٩٩٠.

- «حصار نادرشاه للموصل عام ١٧٤٣م: رؤية حالة نضالية من التصدي في خضم تاريخ الصراع العثماني- الايراني»، **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العددان(١/ ٢)، تونس، جانفي/ يناير ١٩٩٠م.

الجيلالي، الشيخ عبد الرحمن

- **تاريخ الجزائر العام**، جـ٢، الجزائر، ١٩٥٥.

حتي، د. فيليب وآخرون

- **تاريخ العرب** (مطول)، جـ٢، ط٣، بيروت، ١٩٦١.

الحسيبي، محمد ابو السعود

- «لمحات من تاريخ دمشق في عهد التنظيمات»، نشر وتحقيق: د. كمال الصليبي، **مجلة الابحاث**، الجامعة الامريكية/ بيروت، السنة (٢١)، آذار ١٩٦٨.

حمدان، د. جمال

- **الاستعمار والتحرير في العالم العربي**، القاهرة، ١٩٧٤.

حنظل، فالح

- **المفصل في تاريخ الامارات العربية** (جزءان)، الامارات العربية المتحدة، ١٩٨٣.

الخازن، الاب فيليب

- **كسروان عبر التاريخ**، حريص/ لبنان ١٩٧٠

الدبس، المطران يوسف

- **تاريخ سوريا**، المجلد ٨، بيروت، ١٩٠٥.

درمونة، يوسف

- **تونس بين الحماية والاحتلال**، القاهرة، د. ت.

الرافعي، عبد الرحمن

- **الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي**، القاهرة، ١٩٣٧.

- **تاريخ الحركة القومية وتطور نشوء الحكم في مصر**، (جزءان)، القاهرة ١٩٤٨.

رافق، د. عبد الكريم

–«مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر»، **دراسات تاريخية**، العدد (١)، جامعة دمشق ١٩٨٠م.

رستم، د. اسد

–**الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي**، جـ٢، بيروت ١٩٣٣.

– **بشير بين السلطان والعزيز**، بيروت، ١٩٦٦.

– **لبنان في عهد المتصوفة**، بيروت، ١٩٧٣.

رؤوف، د. عماد عبد السلام

–**التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني**، بغداد، ١٩٨٣.

– «مصر في كتابات المؤرخين العراقيين في العصر العثماني»، ملف **ندوة العلاقات العراقية المصرية** للمدة ١٤–١٦/ ٢/ ١٩٩٠، حـ١، بغداد، ١٩٩٠.

زبيس، سليمان مصطفى

–**آثار الدولة الحسينية بالقطر التونسي**، تونس، ١٩٥٢.

زريق، د. قسطنطين

–**نحن والتاريخ: مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ** ، ط٢، بيروت، ١٩٨٤.

زيادة، د. نقولا

–**تونس في عهد الحماية ١٨٨١– ١٩٣٤**، القاهرة، ١٩٦٣.

سبينسر، وليم

–**الجزائر في عهد ريّاس البحر**، تعريب وتعليق: د. عبد القادر زبادية، الجزائر، ١٩٨٠.

سعد الله، د. ابو القاسم

–**ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ط٢، الجزائر، ١٩٨٢.

– **تاريخ الجزائر الثقافي**، ط٢، الجزائر، ١٩٨٥.

سعيد، ادوارد

–**الاستشراق: المعرفة، السلطة، الانشاء**، ترجمة: كمال ابو ديب، ط٢، بيروت، ١٩٨٤.

سعيدوني. د. ناصر الدين

-«دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي بالايالة الجزائرية». **مجلة الاصالة**، العدد (٢٣)، الجزائر، ١٩٧٦.

سليمان، حسين سلمان

-**لبنان في فترة الصراع الداخلي ١٧٥٣- ١٧٩٠** (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الآداب/ جامعة القاهرة، ١٩٧٨.

السيابي، سالم بن محمود

-**ايضاح المعالم في تاريخ القواسم**، دمشق، ١٩٨٦.

شكري، د. محمد فؤاد

-**بناء دولة مصر محمد علي، مصر، ١٩٤٨.**

- **الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر**، القاهرة، ١٩٤٩.

صالح، د. زكي

-**بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤: دراسة في التاريخ الدولي والتوسّع الاستعماري**، بغداد، ١٩٦٨.

صالحية، د. محمد عيسى

-«وثائق جديدة عن حملة سنان باشا الى اليمن سنة ١٩٦٧هـ/ ٦٨- ١٥٦٩م» **حوليات كلية الاداب**/ جامعة الكويت، الحولية(٨)، الرسالة (٤)، ١٩٨٦/ ١٩٨٧.

الصباغ، د. ليلى

-«ثورة مسلمي غرناطة عام ٩٧٦هـ او اواخر سنة ٩٦٧م والدولة العثمانية»، مجلة **الاصالة**، العدد (٢٧)، الجزائر، ١٩٧٥.

الصباغ العكاري، ميخائيل

-**تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني**، نشره: قسطنطين الباشا، حريصا/ لبنان. د. ت.

عبد القادر، نور الدين

-**صفحات من تاريخ الجزائر من اقدم عصورها الى انهاء الحكم التركي**، كلية الاداب الجزائرية، قسنطينة، ١٩٦٥.

عبد اللطيف، د. ليلى

-**الادارة في مصر في العهد العثماني**، جامعة عين شمس، ١٩٧٨.

عبد الملك، د. انور

-**تغيير العالم** (سلسلة عالم المعرفة ٩٥)، الكويت، ١٩٨٥.

العروي، د. عبد الله

-**العرب والفكر التاريخي**، ط٢، بيروت، ١٩٧٧.

العقاد، د. صلاح

- **المغرب العربي**، القاهرة، ١٩٦٥.

علي، علي شاكر

- «التنظيمات المالية في البصرة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر»، **المؤرخ العربي**، العدد (٢٧)، السنة (١٢)، بغداد، ١٩٨٦.

عمارة، د. محمد

- **الاسلام والعروبة والعلمانية**، ط١، بيروت، ١٩٨١.

عوض، احمد حافظ

-**فتح مصر الحديث او نابليون بونابرت في مصر**، القاهرة، ١٩٢٥.

غانياج، جان

- **ثورة علي بن غذاهم ١٨٦٤**، تونس، ١٩٦٥.

غرايبة، د. عبد الكريم

دراسات في تاريخ افريقية العربية، دمشق، ١٩٦٠.

غربال، د. محمد شفيق

عصر محمد علي، القاهرة، ١٩٥٤.

قاسم، د. جمال زكريا

«الاسس التاريخية لوحدة الامارات العربية ودور الاستعمار في تجزئتها»، ملف اعمال **ندوة التجارب الوحدوية العربية المعاصرة**: تجزئة دولة الامارات العربية المتحدة، بيروت، ١٩٨١.

قرآلي، الاب بولس

-**فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان**، حريص، ١٩٣٧.
القيسي، د. عبد الوهاب
-«حركة الاصلاح في العهد العثماني وتأثيرها في العراق ١٨٣٩- ١٨٧٧». **مجلة كلية الآداب**/ جامعة بغداد، العدد(٣)، كانون الثاني ١٩٦١.
كوران، ارجمند
-**السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٢٧- ١٨٤٧**، ترجمة: د. عبدالجليل التميمي، ط٢، تونس، ١٩٧٤.
كيلي، جي. بي
-**الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية**، تعريب: خيري حماد، بيروت، ١٩٧١.
ماضي، د. محمد عبد الله
-«**دولة اليمن الزيدية: نشأتها تطورها علاقاتها**»، **مجلة الجمعية التاريخية المصرية**، القاهرة، مايو ١٩٥٠.
محمد، عراقي يوسف
-«**الاوجاقات العثمانية في مصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر**»، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة عين شمس/ كلية الاداب ١٩٧٨.
محمد علي، اورخان
-**السلطان عبد الحميد الثاني: حياته واحداث عهده**، الرمادي، ١٩٨٧.
المنوني، محمد
-**مظاهر يقظة المغرب الحديث**، جـ١، الرباط، ١٩٧٣.
نوار، د. عبد العزيز
-**تاريخ العرب المعاصر: مصر والعراق**، بيروت، ١٩٧٣.

٥/ المراجع المساعدة بالانكليزية والفرنسية

Abdul - Malek, Anwar,
"Orientalism in Crisis" , Diogenes, No. 44, Winter, 1963.
Amin, Samir,
Le Developpement Inegal: Essai sur les formations sociales du capitalisme P'eripheriques, Paris, 1973.
La nation arabe, Paris, 1977.
Anthony, John Duke,
"The Union of the Arab Amirates", Middle East Journal, Summer, 1972.
A. Julien, Ch.,
Histoire de lAlgerie Contemporaine, Paris, 1964,
Bacharach, Jere L.,
ANear East Studies Handbook, Univ. of Washington Press, Seattle & London, 1977.
Bennett, Norman R.,
A History of Arab State of Zanzibar, London, 1978.
Boyer, J.
"Beys et Beylikes" in Atti del I comgresso Internazionale di studinord African, Cagliari, 1965.
Bradford, Ernle,
The Sultan's Admiral: A Life of Barbarossa, London, 1968.
Cassels, Lavender,
The Struggle of the Ottoman Empire 1717 -1740, London, 1966.
Charles - Roux, Fr.,
Les Echelles de Syria et Palastine au XVIIIE. Siecle: Paris, 1928.
Coupland,
Sir Reginald , East Africa and its Invaders from Eariest Time to the Death of Seyyid Said in 1856, London, 1938.

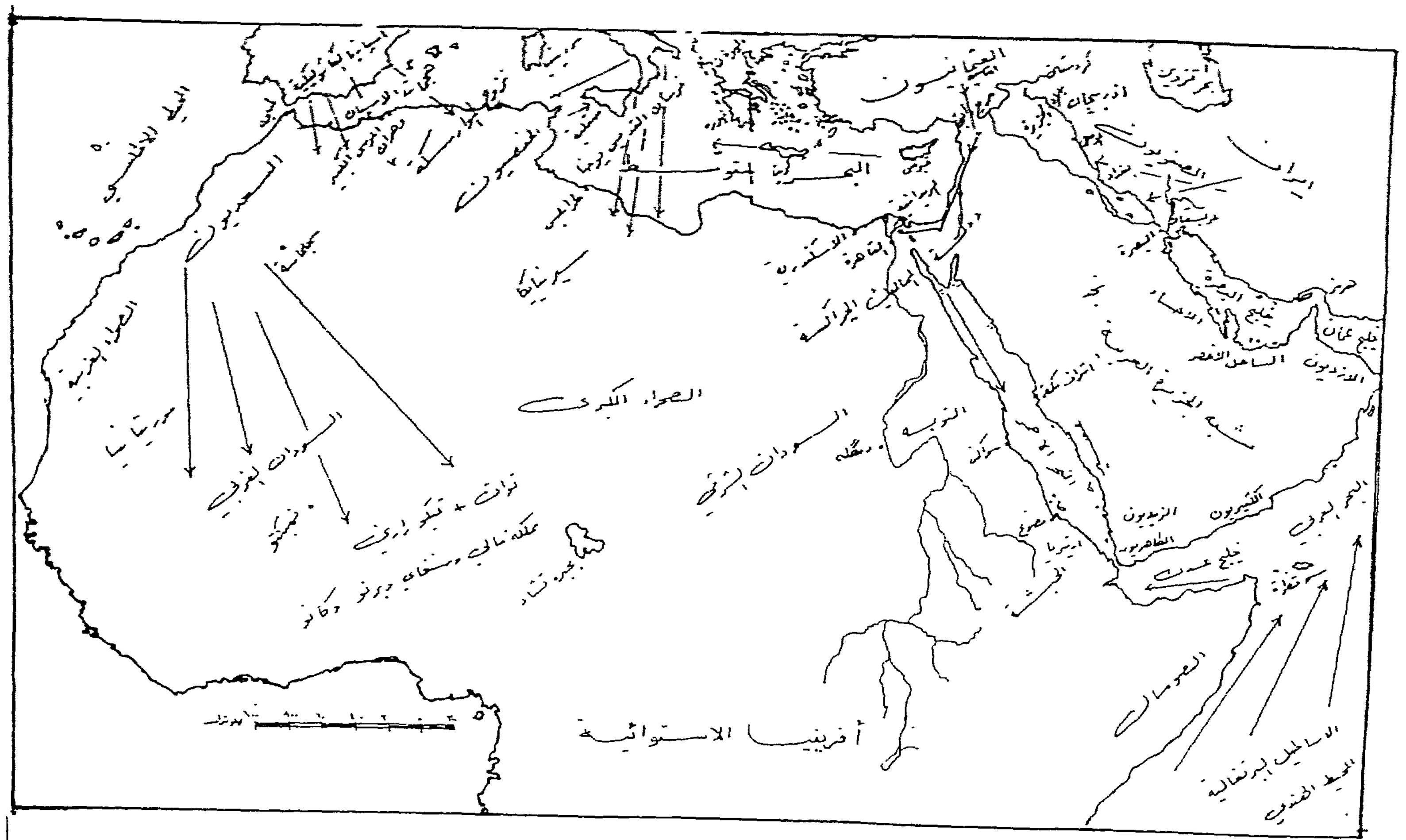
Curtin, Philip D. Led.),
Imperialism: The Cocumentary History of Western Civilization, New York, 1972.
Delafosse, Hesperis,
Les relations du maroc avec Le Soudan a travers les ages annee, 1924.
Dodwell,
The Founder of Modern Egypt: A Study of Mohummad Ali Cambridge Univ, Press, 1931 (Reprinted, 1967).
Giffard , Pierre,
Les Francais en Egypte, Paris, 1883.
AL - Hamdani, T.N.
The Political, Adminstrative and Economic History of Basra a Prorince 1534-1638, (Unpublished ph. D. Thesis), the Univ. of Manchester, 1980.
Laroui, A.,
Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain 1830- 1912. Maspero, Paris, 1977.
Le Strange, G.,
The Land of the Eastern Caliphate, London, 1905.
Lewis, B.,
"Baladiyya" in the Encyclopedia of Islam, 2nd ed., vol. I, Leiden & E.J Brill, 1960.
Livingston, John William,
"Ali Bey Al -Kabir and the mamluk resurgence in Ottoman Egypt 1760-1772" , (Unpublished Dissertation) Princeton Unive., 1968.
Lockhart, L.,
The menace of muscat and its consequences in the Late 17 th and early 18 th Centuries", Asiatic Review, No. 42, 1946.
Mantran, Robert,

"L'evoltion des telations entre la Tunisie et 3 L'empire Ottoman du 16 au 19 siecle" Cahiers du Tunisie, 2 et 3 time , 1958.
Marriott, J.A.R.,
The Eastern Question: AHistorical. Study in European Diplomacy, Oxford, 1958.
Micaud , C.A., Brown , L.C., Moore, C,.
Tunisia: The Politics of Modernization. New York, 1964.
Montagne, Robert,
Les berberes et le makhzen dans le sud du maroc, Paris, 1930.
Murphy, Agnes
The ideology of French Imperialism, 1817-1881, Washington, 1948.
Mzali, M.S.,
L.Herdite dans la dynastie Husseinite, Tunis, 1969.
Ozbaran, Salih,
"The Ottoman Turks and the Portuguese in the ... Gulf, 1534-1581,
Journal of Asian History, vol. 6, No.10, 1972.
Philips, Wendell,
Oman: A History, London, 1967.
Rich, C.,
Narrative of a Journey to the Site of Babylonia in 1811, London, 1929.
Sandison, Alan ,
The Wheel of Empire : A Study of the Imperial Idea in Some late Ninteenth and Early Twentieth Century Fiction. New York, 1967.
Shaw, S.J. and Ezel Kural Shaw,
History of the Ottoman Empire and modern Turkey , Vol.2: Reform. Revolution and Republic: The Rise of modern Turkey 1808-1975, Cambridge Univ. press, 1978.
Theobald, A, B.,

The mahdiya, London , 1965.
Tibawi, A.C.,
A Modern History of Syria , including Lebanon and palestine, macmillan St. martin's press, 1969.
Tibi, Bassam,
Arab Nationalism: A Critical Enquiry, Translated by M.F. Sluglett. and p. Sluglett, New York 1981.
Zananiri, Gaston,
Le Khedive Ismail et L Egypt 1830-1894, Alexandrie, 1923.

الخرائط*

* جميع الخرائط المرفقة من عمل المؤلف وحقوق نشرها محفوظة.



خارطة رقم (١) - التشكيلات السياسية في الوطن العربي خلال القرن السادس عشر -

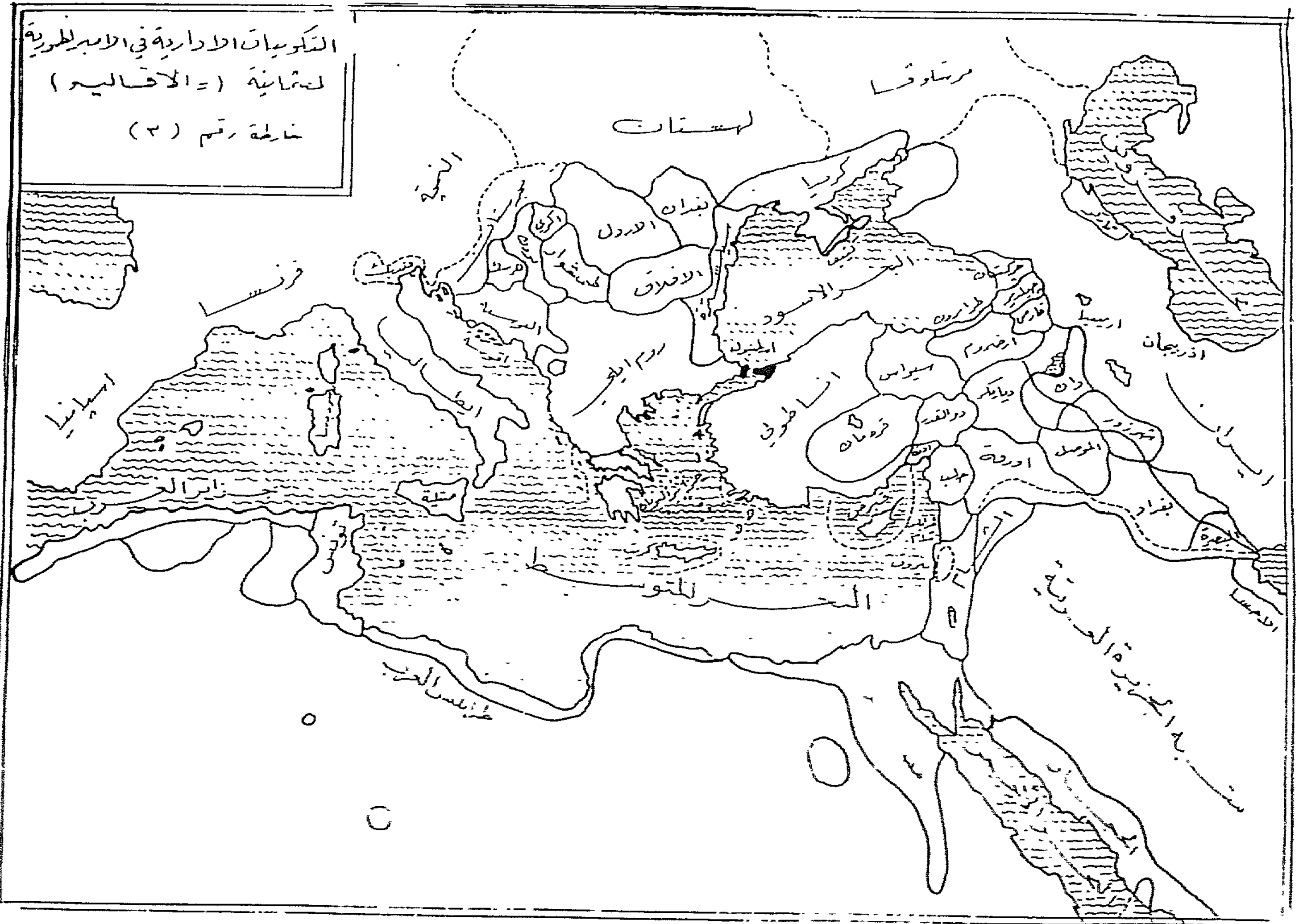
توسعات السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠)

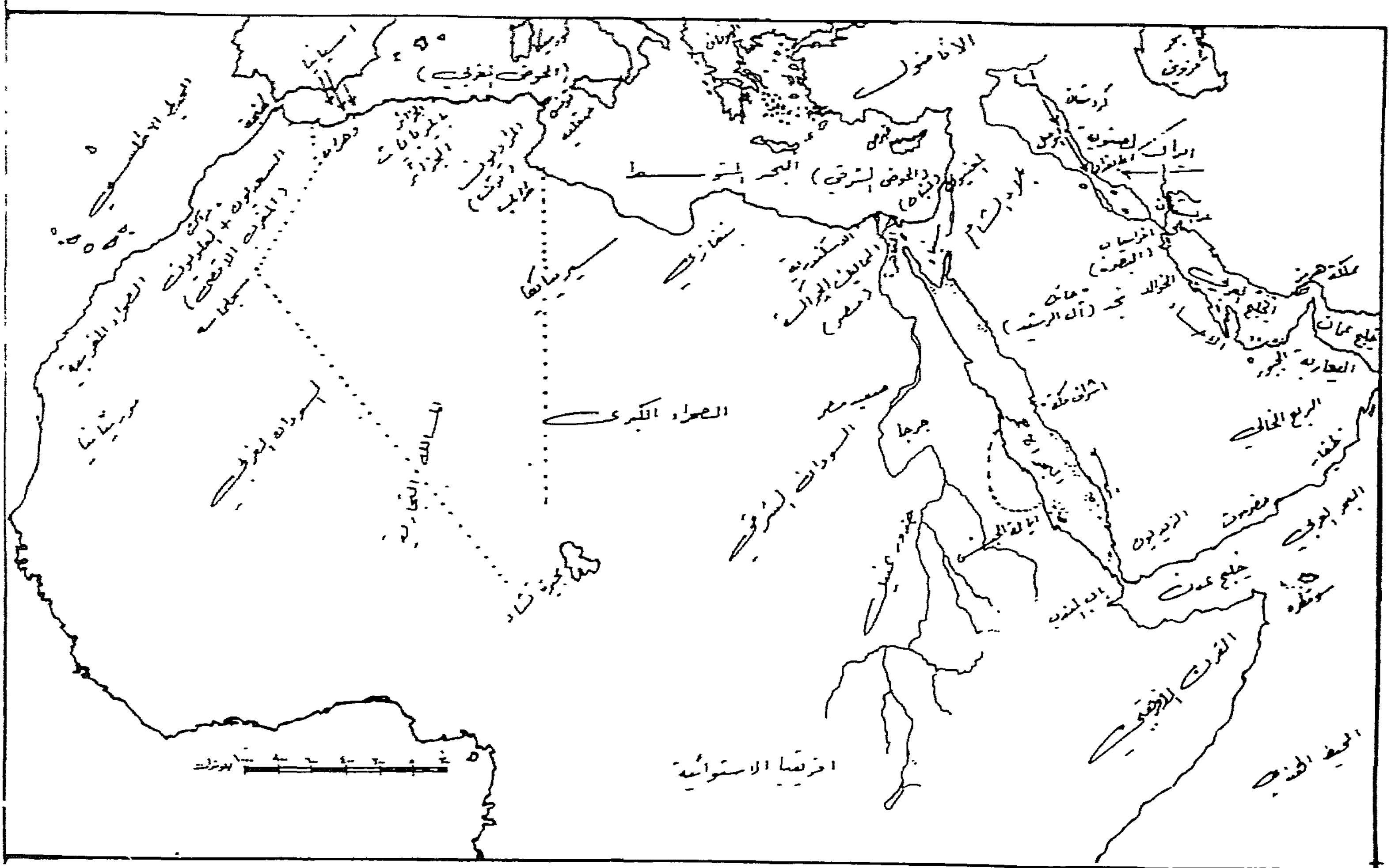
—— المناطق المكتسبة

...... المناطق التابعة

ميل ٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠

كم ٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠


التكوينات الادارية في الامبراطورية
العثمانية (= الاقاليم)
خارطة رقم (٣)
لهستان
فرنسا
اسبانيا
ايطاليا
صقلية
تونس
الجزائر
طرابلس الغرب
البحر المتوسط
البحر الاسود
روم ايلي
الافلاق
البغدان
الاناضول
قرمان
سيواس
ارضروم
طرابزون
ذو القدر
ديار بكر
وان
اورفة
الموصل
شهرزور
حلب
بغداد
البصرة
اذربيجان
ايران
الاحساء
شبه الجزيرة العربية



خارطة رقم (٤) – التشكيلات العربية والعثمانية في الأقاليم العربية خلال القرن السابع عشر –

خريطة رقم (٥) – التكوين الاقليمي العربي والمركزية العثمانية في الاقاليم العربية خلال القرن الثامن عشر –

الصحراء العراقية الشامية

خارطة رقم (٦)

الولايات العربية الكبرى خلال الفترات العثمانية

في المشرق العربي

الموصل

بغداد

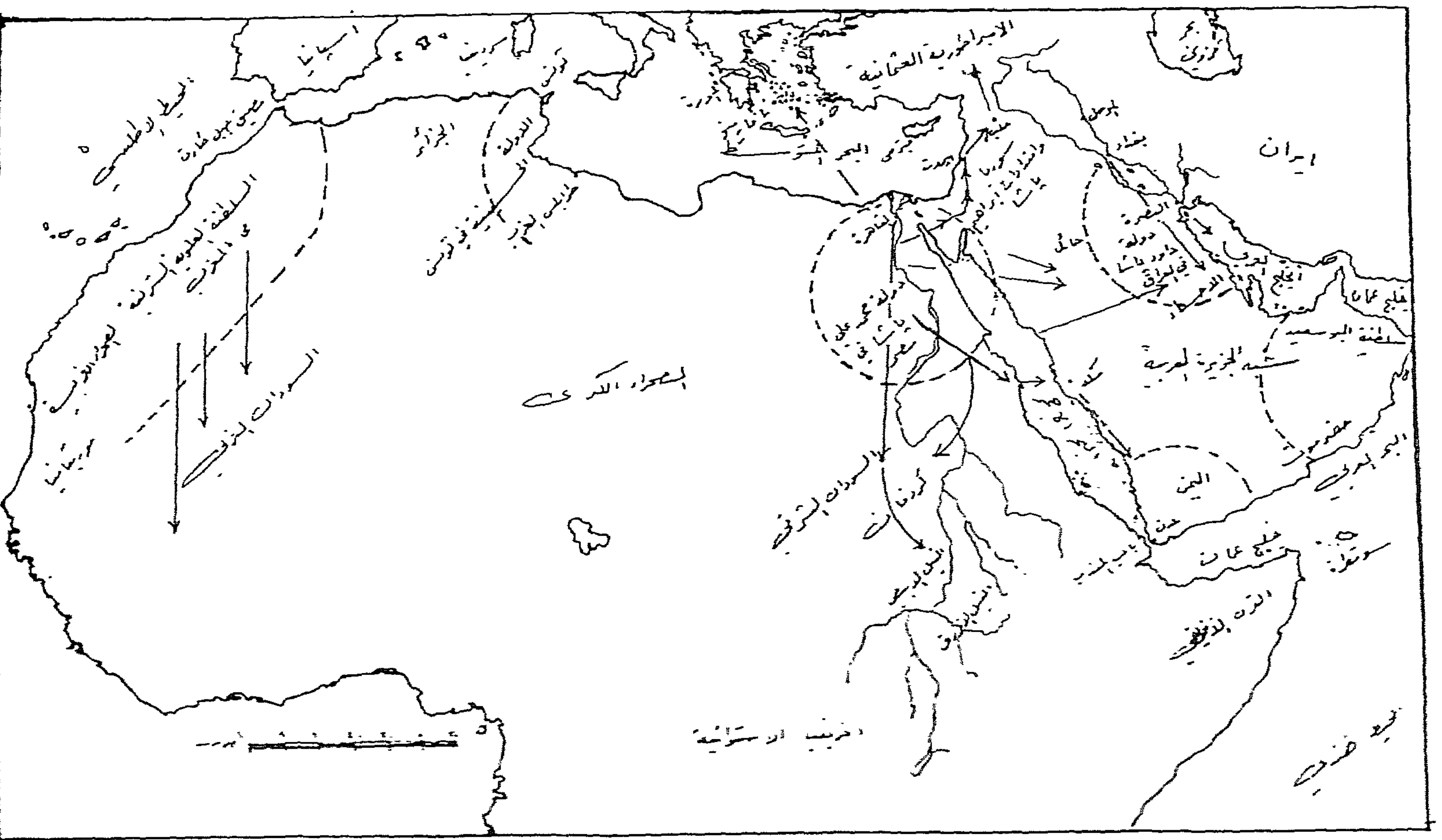
البصرة

حلب

دمشق

بيروت

خارطة رقم (٦) :



خريطة رقم (١٧) التكوينات السياسية العربية في القرن التاسع عشر — قبيل الامتدادات الأجنبية

الحركة السنوسية
الحركة المهدية
الحركة الوهابية
الشوكانية
البحر المتوسط
الصحراء الكبرى
السودان الغربي
السودان الشرقي
شبه الجزيرة العربية
البحر الأحمر
البحر العربي
المحيط الهندي
المحيط الاطلسي
الصومال
خليج عدن
عدن
باب المندب
القاهرة
مصر
بنغازي
طرابلس الغرب
تونس
الجزائر
اسبانيا
الاناضول
بغداد
العراق
البصرة
الخليج العربي
خليج عمان
عمان
ايران
مكة
موريتانيا

خارطة رقم (٨) - الحركات الاصلاحية العربية وامتداداتها وتحركاتها -

تفكك الامبراطورية العثمانية وانحلالها
١٦٨٣ - ١٩١٢
خريطة رقم (٩)

حدود الامبراطورية العثمانية سنة ١٦٩٩
النمسا
روسيا
بريطانيا
فرنسا
الدول المستقلة مع تاريخ الاستقلال
الامبراطورية العثمانية ١٩١٢

بالأميال
٢٠٠ ٤٠٠

البحر المتوسط
ليبيا ١٩١٣
السودان
شبه جزيرة العرب
تهران
تفليس
جورجيا
روسيا
الامبراطورية العثمانية
القاهرة
دمشق
حلب
الموصل
البصرة
القدس
بيروت
عكا
قبرص
الكريمة
اسبانيا
مدريد
البرتغال
فرنسا
سويسرا
ايطاليا
روما
الجزائر
تونس
طرابلس
بنغازي
برقة
قارص
سلطنة مراكش وفاس

الجزائر
الأناضول العثماني
إيران
المحيط الأطلسي
المغرب تحت الحماية الفرنسية والإسبانية ١٩١٢
الجزائر تحت الإدارة الفرنسية منذ عام ١٨٣٠
تونس تحت الحماية الفرنسية منذ عام ١٨٨١
البحر المتوسط
حملة بونابرت على مصر ١٧٩٨
ليبيا تحت الاحتلال الإيطالي منذ عام ١٩١١
مصر تحت الاحتلال والانتداب البريطاني منذ عام ١٨٨٢
بغداد
العراق العثماني
آل السعود في نجد
الخليج العربي
خليج عمان
عمان
مكة
الصحراء الإسبانية
موريتانيا
الصحراء الكبرى
الامتداد البريطاني نحو السودان والإدارة المصرية البريطانية المشتركة منذ عام ١٨٩٩
الاحتلال البريطاني لعدن عام ١٨٣٩
حضرموت
بحر العرب
الامتدادات البريطانية
خليج عدن
باب المندب
الامتدادات الفرنسية
الامتداد الفرنسي والبريطاني والإيطالي نحو القرن الإفريقي
المحيط الهندي
أفريقيا الاستوائية

خارطة رقم (١٠) - الوطن العربي في مطلع القرن العشرين -

تكوين العرب الحديث

ان تاريخ تكوين العرب الحديث يعلمنا الكثير ونحن نرتب خصوصياتنا التاريخية والمستقبلية على طريق التقدم والتوحد والمناجزة الحضارية، اذ سيوقفنا في مضامينه على صيغ وأساليب وهياكل وتشكيلات وبنى متنوعة: سياسية كانت أم اقتصادية واجتماعية وجغرافية عايشها العرب، كما ستوصلنا دراسة الاحداث التاريخية المريرة بعد تحليلها واستنباط معانيها وكشف خفاياها الى نتائج هي غاية في الاهمية لحاضرنا ومستقبلنا.. كما سندرك من خلال معالجتنا لهذه المادة بمواضيعها المتنوعة: حجم الهوة التي فصلت ماضينا الحضاري الزاهر عن حاضرنا المجزأ نتيجة لآثار السيطرة، وهيمنة الصراعات الاقليمية، وغلبة الانقسامات المحلية.. الخ.

الناشر
دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان - الاردن
دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله - فلسطين
تصميم الغلاف: محمد نصرالله